شرح
كتاب التوحيد

للشيخ الدكتور

خالد بن عبد العزيز الباتلي

الأستاذ المساعد بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

نسخة معتمدة من الشيخ – حفظه الله –.

النشرة الأولى || رجب ١٤٣٨ هـ

الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله وسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ..

أما بعد؛

فهذا شرح وسيط على «كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد»، للشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكان أصلُه دروسا في المسجد، ثم جرى تفريغها، وقمت بمراجعتها، وأعملت فيها قلم الإصلاح بالزيادة والحذف والتهذيب، ثم قام المكتب العلمي في (أكاديمية بناء العلمية) بتنسيق الشرح وتحقيقه، وذلك بتخريج الآيات والأحاديث، وتوثيق النقول والشعر، ونحو ذلك.

وغير خافٍ على القارئ الكريم أن لغة الدرس الملقى تختلف عن أسلوب الكتاب المؤلَّف، وقد حاولت أن أقرِّب ذاك من هذا قدر المستطاع.

والله المسؤول أن يزيدنا علما ينفعنا، وينفعنا بما علمنا، وأن يتوفانا على التوحيد الخالص.

وأختم بالشكر الجزيل – بعد شكر الله تعالى – لكل من أسهم في خروج هذا الشرح، من تفريغه ومراجعته وتحقيقه، وهم فريق العمل في (شبكة منبر التدبر للتعليم عن بُعد) الذي قام بالتفريغ، والمكتب العلمي في (أكاديمية بناء العلمية) الذي قام بالتنسيق والتدقيق والتحقيق، فقد بذلوا جهدا كبيرا لا يعرفه إلا من جرَّبه وعاناه، فجزاهم الله خير الجزاء، وضاعف مثوبتهم.

كتبه/ خالد بن عبد العزيز الباتلي

batli٢٨@gmail.com

* * *

مدخل
إلى كتاب التوحيد

لعل من المناسب والمفيد - قبل الشروع في شرح أبواب الكتاب - أن أتحدث عن بعض المسائل التي تُعد مدخلا في دراسة هذا الكتاب، وقد جعلتُها في مبحثين:

المبحث الأول: ترجمة موجزة للمؤلف:

أولا: نسبه ومولده ونشأته:

هو الشيخ ناصر السُّنة وقامع البدعة الإمام محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن مشرَّف النَّجْدِيُّ التَّمِيمِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وُلد سنة خمس عشرة ومئة وألف (١١١٥هـ) في بلدة «العُيَيْنَة»، وهي بلدة قريبة من الرياض، ونشأ في بيت علم، وظهرت عليه علامات النَّجابة والنبوغ من صغره؛ فحفظ القرآن - على يد والده - قبل بُلوغه العاشرة، ثم درس عليه الفقه والتفسير والحديث، واعتنى بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وأثَّر ذلك على منهجه العلمي في كتبه كما هو مُلاحظ.

رحل في طلب العلم إلى مكة، فحَجَّ، وأخذ عن بعض علماء الحرم، ورحل - أيضا - إلى المدينة وأقام بها مُدة، ثم رحل إلى العراق، وأقام في البصرة وأخذ

عن علمائها، ثم إلى الزُّبير والأحساء، وكان في رحلاته طالبا للعلم، داعيا إلى الله، متفَقِّها في الدِّين.

ثانيا: من أبرز شيوخه:

والده الشَّيخ عبد الوهاب بن سُليمان، والشَّيخ عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف الشافِعي، والشَّيخ محمد حياة السِّندي، وغيرهم.

ثالثا: من أبرز تلاميذه:

أبناؤه الشَّيخ: علي، وحُسين، وعبد الله، والشَّيخ حسين بن غنَّام، وحفيده عبد الرحمن بن حسن، وغيرهم - رحمهم الله جميعا -.

رابعا: آثار الشيخ ومؤلفاته:

صنَّف الشيخ عددا من المؤلَّفات؛ من أشهرها: هذا الكتاب الذي نحن بصَدَد دراسته «**كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد**»، وكتاب «كشف الشبهات»، و«الأصول الثلاثة»، و«مختصر زاد المعاد»، و«مسائل الجاهلية»، وغيرها.

خامسا: وفاته:

تُوفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ سنة ست ومئتين وألف (١٢٠٦هـ) بعد حياة حافلة بالعطاء والجهاد، والدعوة إلى الله، ونشر التوحيد، ومحاربة الشرك والبدع، رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجمعنا به في واسع جناته.

○○○

المبحث الثاني: التعريف بالكتاب:

لعلِّي أُسلِّط الضوء على هذا الكتاب المبارك من عدة جوانب:

أولا: موضوع الكتاب:

الكتاب يدور حول موضوعين رئيسين؛ هما:

١- بيانُ ما بعث الله به رُسُلَه من توحيد العبادة، مقرونا بالأدلة من الكتاب والسُّنة.

٢- بيان ما يُنافي هذا التوحيد بالكلية من الشرك الأكبر، أو يُنافي كماله الواجب من الشرك الأصغر ونحوه، وبيان ما قد يُفضي إلى ذلك من الوسائل والذرائع.

ثانيا: منهج الكتاب، وميزاته:

- **الكتاب مرتب على الأبواب، وكل باب يتضمَّن ثلاثة أمور:**

١- الترجمة التي هي العنوان؛ كقوله: «باب فضل التوحيد وما يكفِّر من الذنوب».

٢- النصوص والآثار، أي: الآيات، والأحاديث، وآثار الصحابة والتابعين، التي تدلُّ على مقصود الباب.

٣- المسائل، وهي: خلاصة ما يحتويه الباب، وهذه المسائل يَصِحُّ أن تُسمى «**فوائد**». وهي تختلف - قِلَّة وكثرة - من باب إلى آخر؛ فقد بلغت في أحد الأبواب ثلاثين مسألة، ولم تزد في باب آخر على اثنتين[١].

وأما ميزات الكتاب:

فمنها: أن بناءه قائم على الآيات والأحاديث، ليس فيه حشو، ولا تكرار، ولا تطويل، وإنما هو آيات وأحاديث، مع التعليق عليها ببعض الفوائد والمسائل.

ومنها: حُسن الترتيب، فهو مرتب على أبواب متسلسلة مترابطة، آخذ بعضها بحُجَز بعض.

ومنها: ما فيه من نُقول مختصرة مفيدة ينقلها المؤلف عن بعض أئمة الإسلام، كالإمام البغويِّ، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، والذهبيِّ، وغيرهم.

ويُعدُّ هذا الكتاب من توفيق الله - تعالى - للشيخ؛ حيث لا يُعرف مصنَّفٌ على منواله من حيث الجمعُ والتَّصنيف، وقد ذكر بعض أهل العلم أن هذا الكتاب فيه شبه بصحيح الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

---

(١) بلغ المجموع الكُلي للمسائل في الكتاب كله: إحدى وتسعين وخمس مئة (٥٩١) مسألة، وقد اعتنى بها بعض أهل العلم، وأفردها في مؤلَّف خاص، ومنهم الشَّيخ عبد الله الدُّويش رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه: «التوضيح المفيد لمسائل كتاب التوحيد».

ووجه الشبه: أن كتاب التوحيد مرتب على الأبواب على طريقة مقاربة لطريقة الإمام البخاري في ترتيب كتابه. فالشيخ يضع ترجمة لكلِّ باب، ثم يذكر تحت الترجمة طرفا مما يتعلق بها من الآيات والأحاديث، وربما أتبع ذلك بذكر بعض الآثار، ثم يعلِّق بفوائد ومسائل من عنده توضِّح المقصود، وهذا مشابه جدًّا لطريقة الإمام البخاري في ترتيب «الجامع الصحيح».

وقد نفع الله بهذا الكتاب نفعا عظيما، وبارك فيه ببركة قصد المؤلف - والله تعالى أعلم -. وإن كان هناك من يطْوِي الحقد والحسد على هذه الدعوة، ويُنفِّر منها؛ فهذا لغرض في نفسه وبُعد عن الحق.

فائدة لطيفة:

روى الشَّيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الشيخ عبد الرحمن البكري[1] أنَّه قال: (كنت بجوار مسجد في الهند، وكان فيه مدرس إذا فرغ من تدريسه لعنوا ابن عبد الوهاب، وإذا خرج من المسجد مرَّ بي، وقال: «أنا أُجِيد العربية، لكن أحب أَن أَسمعها من أَهلها»، ويشرب من عندي ماءً باردًا. فأَهَمَّني ما يفعل في درسه!

قال: فاحتلتُ بأن دعوتُه، وأخذت «**كتاب التوحيد**» ونزعت ديباجته ووضعته على رف في منزلي قبل مجيئه، فلما حضر قلتُ: أتأذن لي أَن آتي ببطيخة؟ فذهبت، فلما رجعت إذا هو يقرأ ويهُزُّ رأسه! فقال: «لمن هذا الكتاب؟ هذه

(١) وهو أحد طلبة الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره.

التراجم شبه تراجم البخاري! هذا - والله - نفَس البخاري؟!» فقلت: لا أدري! ثم قلت: ألا نذهب للشيخ الغزوي لنسأَله - وكان صاحب مكتبة، وله رد على جامع البيان - فدخلنا عليه فقلت للغزوي: كان عندي أوراق سأَلني الشيخ من هي له؟ فلم أَعرف، ففهم الغزوي المراد، فنادى من يأْتي بكتاب «مجموعة التوحيد»، فأُتي بها فقابل بينهما، فقال: هذا لمحمد بن عبد الوهاب. فقال العالم الهندي مغضبا، وبصوت عال: «الكافر؟!» فسكتنا وسكت قليلا. ثم هدأ غضبُه فاسترجع. ثم قال: «إن كان هذا الكتاب له فقد ظلمناه!».

ثم إنه صار كُلَّ يوم يدعو له، ويدعو معه تلاميذُه. وتفرق تلاميذ له في الهند، وإذا فرغوا من القراءة دعوا جميعا للشيخ ابن عبد الوهاب»[1] اهـ.

ثالثا: مكان تأليف الكتاب:

ذكر بعض العلماء أن الشيخ ابتدأ تأليف هذا الكتاب - وهو أشهر كتبه وأجلُّها - في البصرة؛ لما رأى من بعض مظاهر الشرك، والإخلال ببعض واجبات التوحيد، فانقدحت فكرة الكتاب في ذهنه، وشرع في جمع مادته. ثم تفرَّغ لإتمام الكتاب وتحريره بعد عودته إلى نجد، وإقامته ببلدة «حُرَيْمِلاء» الواقعة على بُعد نحو ثمانين كيلو متر من شمال غرب الرياض.

(١) «فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ» (١/ ٧٥-٧٦).

رابعا: إحصاءات حول الكتاب:

بلغ مجموع أبواب الكتاب ستة أو سبعة وستين بابا، على خلاف في المقدمة: هل تعدُّ بابا أم لا؟ والأمر في ذلك قريب.

وقد اشتملت تلك الأبواب على اثنتين وستين ومئة آية، وخمسة وعشرين ومئة حديث، وستة وثلاثين أثرا، وإحدى وتسعين وخمسمئة مسألة.

خامسا: ثناء العلماء على الكتاب، وعنايتهم به:

قال الشَّيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، وهو حفيد المصنِّف وصاحب أول وأكبر شرح لهذا الكتاب **(تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد)**، قال عن هذا الكتاب: «هو كتاب فرد في معناه لم يسبقه إليه سابق، ولا لحقه فيه لاحق»(١).

وقال الشَّيخ عبد الرحمن بن حسن، وهو حفيد المصنف أيضا: « جمع على اختصاره - يعني كتاب التوحيد - خيرا كثيرا، وضمَّنه من أدلة التوحيد ما يكفي من وفَّقه الله، وبيَّن فيه الأدلة في بيان الشرك الذي لا يَغفِره الله»(٢).

وقال عنه الشَّيخ عبد الرحمن بن قاسم: «ليس له نظير في الوجود، صار بديعا في معناه، لم يُسبق إليه، علما للموَحِّدين، وحجة على المُلحِدين، واشتهر

(١) «تيسير العزيز الحميد» ص١٢.

(٢) «الدرر السنية» (٤/ ٣٣٩).

أي اشتهار، وعكف عليه الطلبة، وصار الغالب يحفظه عن ظهر قلب، وعمَّ النفع به»[١].

وقد دأب العلماء على الوصية بهذا الكتاب: حفظا، ودراسة، ومذاكرة، وهي وصية جديرة بالاعتناء لمن نصح لنفسه، وأراد نجاتها، فاجتهد - يا طالب العلم - في حفظ الكتاب، وفهمه، وأعد عليه الكرَّة بعد الكرة، واعتن به علما وعملا، بتحقيق التوحيد وتكميله، واحذر مما ينقِصُه أو يخدشه، فالنجاة في الدار الآخرة بالتوحيد الصحيح المستقى من معين الكتاب والسنة.

ومما يدل على عناية العلماء واحتفالهم به: كثرة الشُّروح والتعليقات والحواشي عليه، حيث زادت على ستة وثلاثين كتابًا[٢].

ونظم الشَّيخ سليمان بن سحمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الثناء على الكتاب فقال:

قد ألَّفَ الشَّيخُ في التوحيدِ مختصرا
يكفي أخا اللُّبِ إيضاحا وتِبيانا

فيهِ البيانُ لتوحيدِ الإله بما
قد يفعَلُ العبدُ للطاعات إيمانا

وقُل جُزى اللهُ شيخَ المسلِمين كما
قد شاد للمِلَّة السَّمْحاء أركانا[٣]

---

(١) «حاشية كتاب التوحيد» ص ٧.

(٢) ينظر: «عناية العلماء بكتاب التوحيد» لعبدالإله الشايع، ص٥٢.

(٣) «حاشية ابن قاسم على كتاب التوحيد» ص٣.

وقال الشَّيخ أحمد بن مُشرَّف:

وألَّـــــفَ في التوحيـــــــدِ أوجـــــزَ نبـــــذةٍ
بهـــا قـــد هَـــدى الـــرحمنُ للحَـــقِّ مَـــن هُـــدِي
نصوصـــا مِـــن القـــرآن تَشـــفِي مـــن العَمـــى
وكـــــلِّ حـــــديث للأئمـــــة مســـــنَدِ[1]

سادسا: منهج شرح الكتاب:

عادة ما يميل الشرَّاحُ إلى أحد منهجين:

أولا: المنهج التحليلي: الذي يقوم على الاعتناء بتحليل ألفاظ النصوص، وشرحها نصا نصا.

ثانيا: المنهج الموضوعي: الذي يقوم على الاعتناء بموضوع الباب، من غير الوقوف كثيرا عند ألفاظ النصوص.

وسيكون التَّوجه في هذا الشرح - بإذن الله تعالى - إلى المنهج الثاني (الموضوعي)، وذلك على النحو التالي:

---

(١) السابق، ص٤.

١- إيراد نص الباب وبيان ما يشتمل عليه من آيات وأحاديث وآثار، وربما جمعتُ بابين أو أكثر إذا كان بينها وحدة موضوعية؛ لأن هذا أحسن وأنفع في جمع أطراف الموضوع، وضبط جوانبه.

٢- شرح الباب - أو الأبواب التي تشترك في موضوع واحد -، مقسِّما الشرح إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول: مقصود الباب، وموضوعه العام:

أذكر فيه مقصود الباب بعبارة مختصرة، وهو قريب مما يعبِّر عنه بعض أهل العلم بقولهم: «مناسبة الباب لكتاب التوحيد».

الفصل الثاني: المباحث الموضوعية:

أتناول فيه الموضوعات الرئيسة التي اشتمل عليها الباب، مبيِّنا ما يتعلق بها من أحكام وأقسام وفوائد وضوابط، وهذا الفصل هو لُبُّ الشرح وأساسه.

الفصل الثالث: التعليق على النصوص، وربطها بالباب:

أُبيِّن فيها جملة من الفوائد والمعاني التي اشتملت عليها نصوص الباب، مع بيان دلالة هذه النصوص ومناسبتها لترجمة الباب.

وهذه الفصول الثلاثة: من أتقنَها وأحسن فهمها، فقد أسس لنفسه علما مؤصلا نافعا في أبواب التوحيد، ويبقى عليه تقويته وتعزيزه بمطالعة الشروح والرسائل والفتاوى في هذا الباب، ثم الاجتهاد في تنزيل الأصول والقواعد على الحوادث والوقائع.

وهكذا يكون البناء العلمي: أن يعتني الطالب بالتأصيل، ثم يرفع البناء ويكمله بالقراءة، لا أن يخوض الطالب في أمَّات الكتب دون أساس راسخ في العلم الذي يقرأ فيه.

وقد رأيتُ أن يخرج الشرح في نسختين:

الأولى: النسخة التعليمية:

وتضم الشرح كاملا، إضافة إلى ما يأتي:

١- عناصر الدرس. وتضم العناوين الرئيسة لمحتوى شرح الباب - أو الأبواب المشتركة في موضوع ما -، وهو أشبه بالفهرس الإجمالي، وفائدته: إعطاء صورة إجمالية لمضمون الباب.

٢- إدراج رسوم شجرية وأشكال توضيحية لبعض المسائل المهمة.

٣- ذكر بعض الفوائد المهمة من شرح الباب، والتي تستحق التنويه والإبراز.

٤- ختم الباب بأسئلة وتمارين؛ لقياس مستوى تحصيل الطالب بعد دراسة الباب.

وهذه الأمور الأربعة قام بها في الأصل الفريق الذي عمل على تفريغ الشرح في (شبكة منبر التدبر)، ثم جرى التعديل عليها بالحذف والإضافة.

الثانية: نسخة الشرح:

وتضم شرح الكتاب كاملا محققا مراجعا منقحا، دون ذكر للأمور الأربعة المذكورة في «النسخة التعليمية».

نسأل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يمُدَّنا بتوفيقه وعونه وتسديده، وأن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل، هو حسبنا ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كتاب التوحيد

وَقَوْلِ اللهِ -تَعالى-: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦].

وَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] الآيَةَ، وَقَوْلِهِ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾[الإسراء: ٢٣] الآيَةَ، وَقَوْلِهِ: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النساء: ٣٦] الآيَةَ، وَقَوْلِهِ: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ ...﴾ [الأنعام: ١٥١-١٥٣] الآياتِ.

قالَ ابنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ أَرادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَصِيَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّتِي عَلَيْهَا خاتَمِهِ فَلْيَقْرَأْ: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡ﴾ [الأنعام:١٥١]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا﴾[الأنعام: ١٥٣] الآيَةَ[١].

---

(١) **ضعيف**: أخرجه الترمذي في سننه (٣٠٧٠)، والبيهقي في «الشعب» (٧٥٤٠)، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب»، وضعفه الألباني.

وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ ﷺ على حِمَارٍ، فقَالَ لِي: «**يَا مُعَاذُ، أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟**»، فَقُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قالَ: «**فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: «**لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا**»[1]. أَخْرَجاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ.

ooo

الشرح:

هذه طليعة كتاب التَّوحيد، وتضمَّنت خمس آيات، وحديثا مرفوعا إلى النَّبي ﷺ، وأثرا عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والكلام على هذا الباب في ثلاثة فصول:

* * *

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٢٨٥٦) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٣٠).

الفصل الأول: مقصود الباب، وموضوعه العام

هذا الباب عقده المؤلف لتقرير وبيان منزلة التوحيد، وأنه الغاية التي خُلق الجن والإنس لأجلها، وأعظم أمر أوجبه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على عباده.

والمقصود بالتوحيد هنا - كما يظهر من النصوص والمسائل -: توحيد الألوهية.

فائدة لطيفة:

اختلف الشُرَّاح في هذا الموضع الذي افتتح به المؤلف كتابه: هل يُعدُّ بابًا من أبواب الكتاب، أم هو مقدمة وخطبة للكتاب؟

ومما يرجِّح كونه بابا: أنه جعله على شاكلة أبواب الكتاب، فذكر فيه من الآيات والأحاديث والآثار، وختمه بالمسائل.

ومما يرجِّح عدم اعتباره بابا: أنه لم يصدِّرْه بكلمة «باب»، ولم يذكر له عنوانا كما في سائر أبواب الكتاب.

والأمر في هذا يسير، وهو من المُلَح واللطائف، التي لا يترتب عليه كبير أثر.

* * *

الفصل الثاني: المباحث الموضوعية

المبحث الأول: معنى التوحيد. وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: معنى التَّوحيد في اللغة والاصطلاح:

التَّوحيد في اللغة: مصدر وَحَّد يُوحِّد توحيدا، أي: جعل الشيء واحدا.

يُقال: توحيد المجلس، أي: جعل المجلس واحدا من غير تفرُّق. ويُقال: توحيد الكلام، أي: جعل الكلام واحدا، بأن يتكلَّم واحد ويستمع الباقون، وهكذا.

وأمَّا في الاصطلاح؛ فالتوحيد هو: إفراد الله - تعالى - بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

أو هو: إفراد الله - تعالى - بما يختصُّ به ويجب له.

وإنَّما يختص سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بهذه الثلاثة، وتجب له وحده: الرُّبوبية، والألوهية، والأسماء والصفات.

- **ما وجه تسمية دين الإسلام «توحيدا»؟**

قال الشيخ سليمان بن عبد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وسُمِّي دين الإسلام توحيدا؛ لأن مبناه على أن الله واحد في ملكه وأفعاله لا شريك له، وواحد في ذاته وصفاته لا نظير له، وواحد في إلهيته وعبادته لا نِدَّ له»[1].

(١) «تيسير العزيز الحميد» ص٣٢.

المطلب الثاني: هل ورد لفظ «التوحيد» أو ما اشتق منه في الكتاب والسنة؟

جاء ذكر لفظ «التوحيد» ومشتقاته في مواضع عديدة من آيات القرآن الكريم؛ منها:

قوله تعالى: ﴿**وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ**﴾ [البقرة:١٦٣]، وقوله تعالى: ﴿**لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ**﴾ [المائدة:٧٣]، وقوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ١٩**﴾ [الأنعام:١٩]، وقوله تعالى: ﴿**وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ٥١**﴾ [النحل: ٥١]، وقوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ**﴾ [فصلت:٦]، وقوله تعالى: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا**﴾ [التوبة:٣١].

وغير ذلك كثير.

أما السُّنة:

فجاء في حديث بَعْث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى اليمن أن النبيَّ ﷺ قال له: «**فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى**»(١)، وهذا لفظ البخاري، قيل: إنَّه مروي

(١) **متفق عليه**: وهذا لفظ البخاري (٧٣٧٢)، وانظر الهامش التالي.

بالمعنى. ولفظه في الصحيحين: «**إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ**»(١).

وفي حديث عمرو بن عبسة الطويل، وفيه قول النبي ﷺ: «**أَرْسَلَنِي بِصِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَكَسْرِ الْأَوْثَانِ، وَأَنْ يُوَحَّدَ اللَّهُ لَا يُشْرَكُ بِهِ شَيْءٌ**»(٢).

وفي حديث جابر الطويل في صفة الحج، لما ذكر تلبية النبي ﷺ، قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**فَأَهَلَّ بالتَّوحِيْدِ**»(٣)، وذلك أن التلبية تضمنت التوحيد وأكَّدته.

ومن الأئمة من صنَّف كُتبا تحمل اسم «كتاب التوحيد»، كالإمام ابن خزيمة (٣١١ هـ)، وابن منده (٣٩٥ هـ)، وأدخل الإمام البخاري في صحيحه كتابا سماه «كتاب التوحيد».

المطلب الثالث: العلاقة بين «التوحيد» وما يشابهه من المصطلحات (العقيدة، والإيمان، والإسلام):

أولا: العلاقة بين التَّوحيد والعقيدة:

بينهما عموم وخصوص وجهي؛ فالتوحيد أعم من جهة اشتماله على اعتقاد القلب وقول اللسان وعمل الجوارح، أما الاعتقاد: فخاص بالقلب؛ ولهذا تُسمى

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (١٤٩٦) وفي مواضع أخرى، ومسلم (١٩).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٨٣٢).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (١٢١٨).

مسائل العقيدة المسائل العِلميَّة التي يقابلها المسائل العملية. فالذبح لله توحيد، ولغيره شرك، وهو عمل. والحلف بالله توحيد، وبغيره شرك، وهو قول.

والاعتقاد – أو العقيدة – أعم من جهة ما يقع عليه؛ إذ يشمل كل ما يجب اعتقاده مما جاءت به النصوص، ولو لم يتعلق بإفراد الله عن الأنداد. فالإيمان بالملائكة واليوم الآخر – مثلا – من العقيدة، وليس من التوحيد إلا من جهة اللزوم.

ثانيا: العلاقة بين التوحيد والإسلام:

الإسلام يشمل التوحيد، وهو أصلُه[1] ومداره عليه، ويشمل أمورا أخرى كالصلاة والزكاة والصيام والحج .. إلخ. فالإسلام أعم من التوحيد.

العلاقة بين التوحيد والإيمان:

الإيمان – بمفهومه الخاص –: يشمل أركان الإيمان الستة من جهة الاعتقاد، وبمفهومه العام: يشمل الإسلام، فيقال فيه ما قيل في الإسلام. والتوحيد أصل الإيمان.

ooo

المبحث الثاني: أدلة التوحيد:

أولا: الفطرة:

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم: ٣٠].

(١) قال الشيخ ابن قاسم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأصل الإسلام هو التوحيد» اهـ. من حاشيته على كتاب التوحيد ص٦٣.

وأخرج الشيخان من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ**»[1]، وقال أيضا ﷺ، فيما يرويه عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «**إنِّي خلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كلَّهم، وإنَّهم أَتَتْهم الشَّياطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا**»[2].

والمراد بالفطرة: أن الله خلق الخلق على قبول الإسلام، والميل إليه، لا أن المراد أن المولود يولد مسلما يعرف الإسلام والتوحيد، فالله أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئا، ولهذا لو تُرِك وحالَه مال إلى الإسلام.

ثانيا: القرآن:

أدلة القرآن الكريم على التوحيد لا تُحصى كثرة، بل هي بعدد جُمل القرآن الكريم وعباراته. وقد عبَّر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ عن هذا المعنى العظيم بقوله: «إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد، شاهدة به، داعية إليه؛ فإن القرآن: إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله؛ فهو التوحيد العلمي الخبري. وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخَلع كل ما يعبد من دونه؛ فهو التوحيد الإرادي الطلبي. وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته في نهيه وأمره؛ فهي حقوق التوحيد ومكملاته. وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته وما فعل

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (١٣٨٥) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٦٥٨).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٦٥).

بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة؛ فهو جزاء توحيده. وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يحل بهم في العقبى من العذاب؛ فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد.

فالقرآن كله في التوحيد، وحقوقه، وجزائه، وفي شأن الشرك، وأهله، وجزائهم»[1]اهـ.

ثالثا: السُّنة:

وأدلة السُّنة كثيرة؛ منها:

١- عن أبي أمامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «**بُعِثْتُ بالحَنِيْفِيَّةِ السَّمْحَةِ**»[2].

والحنيفية هي: ملة إبراهيم، وهي التَّوحيد، قال تعالى: ﴿**ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٢٣**﴾ [النحل: ١٢٣].

٢- وعن ابن عباس في حديث بعث معاذ إلى اليمن، أنَّ النَّبي ﷺ قال: «**فلْيَكُنْ أَوَّلَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ**»[3]، وفي لفظ: «**فَلْيَكُنْ أَوَّلَ ما**

(١) «مدارج السالكين» (٣/٤٦٨- ٤٦٩).

(٢) **حسن بشواهده**: أخرجه أحمد في «المسند» (٢٢٢٩١)، والطبراني في «الكبير» (٧٨٦٨)، وقواه الألباني بشواهده في «السلسلة الصحيحة» (٢٩٢٤).

(٣) تقدَّم تخريجه.

تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبادَةُ اللهِ»[١]، وفي لفظ: «**فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ**»[٢]، وهذه الألفاظ الثلاثة كلُّها في البخاري، وهذا يدُلُّ على قضية التَّوحيد.

٣- وعن طارق بن عبد الله المُحاربي قال: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي سُوقِ ذِي الْمَجَازِ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ حَمْرَاءُ، وَهُوَ يَقُولُ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تُفْلِحُوا**»[٣].

٤- وكان النَّبيُّ ﷺ إذا راسل الملوك يدعوهم إلى الإسلام كتب لهم قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ**﴾ [آل عمران: ٦٤].

والأحاديث في هذا كثيرة.

رابعا: العقل:

فإنَّ المرء متى تجرَّد لطلب الحق، أداه عقله ونظره الصَّحيح إلى توحيد الله جَلَّجَلَالُهُ.

---

(١) **هذا اللفظ متفق عليه**: أخرجه البخاري (١٤٥٨)، ومسلم (١٩).

(٢) تقدَّم تخريجه.

(٣) **صحيح**: أخرجه ابن خزيمة في صحيحه (١٥٩)، وابن حبان (٦٥٦٢)، وصححاه. وأخرجه - مختصرا - النسائي في «السنن» (٢٥٣٢)، وابن ماجه (٢٦٧٠)، بدون موضع الشاهد.

ومن لطيف ما جاء في ذلك: ما يُروى عن أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أن قوما من أهل الكلام أرادوا البحث معه في تقرير توحيد الربوبية، فقال لهم: أخبروني قبل أن نتكلم في هذه المسألة عن سفينة في دجلة، تذهب فتمتلئ من الطعام والمتاع وغيره بنفسها، وتعود بنفسها، فترسي بنفسها، وتفرغ وترجع، كل ذلك من غير أن يدبرها أحد؟! فقالوا: هذا محال لا يمكن أبدا! فقال لهم: إذا كان هذا محالا في سفينة، فكيف في هذا العالم كله علوه وسفله!»[١].

ooo

المبحث الثالث: أقسام التَّوحيد. وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: أقسام التوحيد عند أهل السنة:

للتوحيد عند أهل السنة تقسيمان:

التقسيم الأول: باعتبار تعلقه بأفعال العباد. وينقسم بهذا الاعتبار إلى قسمين:

القسم الأول: توحيد المعرفة والإثبات:

ويُراد به: إثبات حقيقة ذات الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأفعاله، وإثبات أسمائه وصفاته.

وهذا القسم يشمل توحيد الرُّبوبية، وتوحيد الأسماء والصفات.

---

(١) «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز ص ٨٤-٨٥.

القسم الثاني: توحيد القصد والطلب:

وهو توحيد العبادة أو توحيد الألوهية. وسيأتي بيان المقصود به.

التقسيم الثاني (وهو الأشهر): باعتبار تعلقه بالله – تعالى –. وينقسم بهذا الاعتبار إلى ثلاثة أقسام: توحيد الرُّبوبية، وتوحيد الألوهيَّة، وتوحيد الأسماء والصفات.

وهذه القسمة مأخوذة من نصوص الكتاب والسنة؛ حيث استقرأ العلماءُ أدلَّة التوحيد وتدبَّروها فوجدوا أنها لا تخرج عن هذه الأقسام الثلاثة، فاصطلحوا عليها.

المطلب الثاني: بيان أقسام التوحيد الثلاثة، وأدلتها:

القسم الأول: توحيد الرُّبوبية. وفيه ثلاث مسائل:

- **المسألة الأولى: معنى توحيد الرُّبوبية:**

توحيد الرُّبوبية هو: توحيد الله بأفعاله؛ كإحياء الموتى وإنزال المطر، ونحو ذلك.

أو يُقال: هو إفراد الله – تعالى – بالخَلقِ والمُلك والتدبير.

فهذا القسم يعتني بأفعال الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، دون أفعال العباد.

- **المسألة الثانية: الأدلة على توحيد الرُّبوبية:**

أدلته كثيرة جدا في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومن أشهرها قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وتقديم الجار والمجرور في قوله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿لَهُ﴾، وحقه التأخير، إنما هو لإفادة الاختصاص والحصر، يعني: أن الخلق والأمر لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده لا لغيره.

وافتتاح الآية بقوله تعالى: ﴿أَلَا﴾ يدل على التنبيه والتوكيد، فالآية تدل على إفراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالخلق والأمر الذي هو التدبير.

إشكال وجوابه:

ورد في النصوص إثبات الخلق لغير الله، كما في قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، و«الخالقين» جمع خالق، وهذا يدل على وجود أكثر من خالق! ومثل ذلك - أيضا - قولُه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المصوِّرين: «**يُقَالُ لَهُمْ: أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ**»(١).

والجواب على هذا الإشكال:

أنَّ الخلق الذي يُفرد الله به هو الإيجاد من العدم. أما ما ورد في هذه النصوص؛ فإنَّه ليس إيجادا من العدم، وإنما تحويل للشيء من حال إلى حال، كما

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٢١٠٥) وفي مواضع كثيرة، ومسلم (٢١٠٧)، من حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

لو أعطينا إنسانا طينا يحوِّلُه إلى تمثال، فهو لم يوجِدْه من العدم، بل حوله من شكل إلى شكل آخر.

- **المسألة الثالثة: توحيد الرُّبوبية أمر فطريٌّ:**

ينبغي أن يُعلم أن توحيد الربوبية أمر فُطِر عليه الناس، ولهذا لم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم، بل القلوب مفطورة على الإقرار به أعظمَ من كونها مفطورة على الإقرار بغيره، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ**﴾ [إبراهيم: ١٠].

ولا يُعرف أحد على مر التاريخ أنكر هذا النوع من التوحيد، وإنما وُجِد من كابر وتظاهر بالإنكار، مثل فرعون الذي طغى وتكبَّر، ونازع وتجبر، وقال: ﴿**أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾**﴾ [النازعات: ٢٤]، فادَّعى الربوبية كما ادعى الألوهية حين قال: ﴿**مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى**﴾ [القصص: ٣٨] ، لكن هذا كان مكابرة في الظاهر، والواقع بخلاف ذلك، كما قال الله - تعالى - عنه: ﴿**وَجَحَدُوا۟ بِهَا**﴾ أي: في الظاهر ﴿**وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ**﴾ [النمل: ١٤] في الباطن.

وفي الأعصار المتأخرة ظهر الشيوعيون الذين قام مذهبهم على مبدأ «لا إله والحياة مادة»! لكنهم في قرارة أنفسهم - أيضا - يُقِرون بوجود الرب.

وهذا النوع من التوحيد أقر به المشركون الذين بعث إليهم النبي ﷺ، أقروا به في الجملة، كما يدلُّ عليه قول الله - تعالى -: ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ**﴾ [العنكبوت:٦١]،

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الزخرف:٨٧]، ومع إقرارهم فهم باقون على الشرك، وقد قاتلهم النبي ﷺ، واستباح دماءهم.

والرُّسُل الذين بعثهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يكونوا يدعُون إلى هذا النوع من التوحيد أصالة، وإنما كانت دعوتهم ومخاطبتهم لأقوامهم في توحيد الألوهية كما سيأتي، ولذلك فإنَّ من الخطأ اعتقاد أن توحيد الربوبية هو الغاية من التوحيد!.

القسم الثاني: توحيد الألوهية: وفيه أربع مسائل:

- **المسألة الأولى: معنى توحيد الألوهية:**

توحيد الألوهية: هو إفراد الله – تعالى – بأفعال العباد. كالدعاء والسجود والذبح، ونحو ذلك.

فالضابط في التمييز بين توحيد الربوبية والألوهية: هو النظر إلى الفعل: فإن كان من أفعال الله فهو من توحيد الربوبية، وإن كان من أفعال العباد فهو من توحيد الألوهية.

فمثلا: من دعا وليا أن يشفيه من مرضه، معتقدا أن له قدرة على ذلك، فقد أشرك في الربوبية والألوهية.

فاعتقاده أن هذا الولي يشفي المريض شرك في الربوبية؛ لأن هذا الفعل (شفاء المرضى) على جهة الاستقلال من أفعال الله – تعالى –.

ودعاؤه إياه شرك في الألوهية؛ لأن هذا الفعل (الدعاء) من أفعال العباد التي لا يجوز صرفها إلا لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

ومن أتى صاحب قبر وسأله أن يوسع عليه في الرزق؛ فكذلك: شركٌ في الربوبية لأن رزق العباد من أفعال الله، وهذا الإنسان قد جعل هذا المقبور نِدا لله تعالى في ذلك. وشرك في الألوهية؛ لأن (الدعاء) من أفعال العباد، التي لا يجوز صرفها لغير الله – تعالى –.

- **المسألة الثانية: أسماء توحيد الألوهية:**

له عدة أسماء، من أشهرها: «توحيد الألوهية»، و«توحيد العبادة»، و«توحيد الإرادة والقصد».

- **المسألة الثالثة: أهمية هذا التوحيد ومنزلته:**

توحيد الألوهية أهم أنواع التوحيد، ومما يجلِّي أهميته ومنزلته:

١- هذا التوحيد من أجله: أُرسِلت الرسل، وأُنزِلت الكتب، وسُلَّت سيوف الجهاد، وقامت سوق الجنة والنار.

٢- هو الغاية من خلق الجن والإنس، كما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦].

٣- أنَّ قبول الأعمال متوقف عليه.

٤- أنه يتضمَّن جميع أنواع التوحيد، فمن وحَّد الله في ألوهيته فهو مُعتقد لغير ذلك من الربوبية والأسماء والصفات.

٥- أنَّه السبب الأعظم في تفريج كربات الدنيا والآخرة.

٦- أنَّه يَمنع الخلود في النار إذا كان في القلب أدنى مثقال ذرة منه.

٧- أنَّه سبب حصول الهداية الكاملة والأمن التام كما سيأتي.

٨- أنَّه السبب الأعظم لنيل رضا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وثوابه.

٩- أنَّ أسعد الناس بشفاعة النبي ﷺ من حقَّقه، وقال: «لا إله إلا الله»[1]، خالصا من قلبه.

١٠- توحيد الألوهية يُحرِّر العبد من رِق المخلوقين، ومن التعلق بهم: من خوفهم، ورجائهم، والعمل لهم؛ لأنه يُعلِّق العبد بإلهه ومعبوده، وهذا - لعمر الله - غاية العز والشرف أن يكون العبد عبدا مُتألِّها لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده، لا يرجو سواه، ولا يخشى غيره، ولا يُنيب إلا إليه، ولا يتوكل إلا عليه.

---

(١) أخرج البخاري في صحيحه (٩٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ القِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَقَدْ ظَنَنْتُ - يَا أَبَا هُرَيْرَةَ - أَنْ لا يَسْأَلُنِي عَنْ هَذَا الحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ؛ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الحَدِيثِ. أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ: مَنْ قَالَ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ**».

وهذا الكتاب (كتاب التوحيد) بناه المؤلف وشيد أركانه على هذا النوع، فهو من أوله إلى آخره في هذا النوع في الجُملة، في تقريره وتأصيله، وبيان ما ينافيه أو ينافي كماله.

واللهُ المسؤول بمنه وكرمه أن يعيننا على فهمه والعمل به وتحقيقه، وأن يعمُر قلوبنا بتوحيده: إخلاصا لله، ومحبة، وخوفا، ورجاء، وتعظيما، وتألها، وتعلُّقا بربنا وخالقنا ومعبودنا، لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

- **المسألة الرابعة: أدلة توحيد الألوهية:**

أدلة توحيد الألوهية كثيرة جدًّا، وكل ما في هذا المتن أدلة عليه، وغير ذلك من الآيات والأحاديث التي ترد في أثناء الشرح - إن شاء الله تعالى - مما يقرر هذا النوع من التوحيد.

القسم الثالث: توحيد الأسماء والصفات:

والمراد به: إفراد الله - عز وجل - بما له من أسماء وصفات؛ بحيث يؤمِن العبد بما أثبته الله لنفسه في كتابه، أو أثبته له رسوله ﷺ من الأسماء والصفات، على الوجه الذي أراده الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ورسوله ﷺ.

المطلب الثالث: العلاقة بين أقسام التوحيد:

توحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية، وتوحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية. فمن أفرد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بالألوهية، لم يعبده إلا وهو يعتقد أنه الربُّ الخالق المالك المدبر.

ومن وحَّد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في ربوبيته فقد لزِم من ذلك أن يوحِّده في ألوهيته. ولهذا أقام الله - عز وجل - الحجة على المشركين بإقرارهم بتوحيد الربوبية، كما جاء في أول أمر في كتاب الله - تعالى -: ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ**﴾ [البقرة: ٢١]، أي: إذا كنتم تقِرُّون بأن الله هو الخالق؛ فالذي خلقكم هو المستحق للعبادة، فكيف يخلقكم وتعبدون غيره؟! كيف يرزقكم وتعبدون غيره؟! كيف يحييكم ويُميتكم وتعبدون غيره؟!

فلا بد - إذن - من اجتماع هذه الأقسام الثلاثة جميعا: فمن أقرَّ بتوحيد الرُّبوبية والأسماء والصفات، ثم لم يفردِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بالعبادة، لم ينفعه ذلك، كما لم ينفع المشركين الذين أقرُّوا بهذين النوعين: الرُّبوبية والأسماء والصفات في الجملة(١).

وكذلك: من عبد الله وحده، لكن اعتقد أنَّ لأحدٍ قدرةً على النَّفع والضُّر فيما لا يقدر عليه إلا الله، لم تنفعه تلك العبادة.

ومن أقرَّ بتوحيد الربوبية والألوهية ثم عطَّل صفات الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، أو جعل له في شيء منها مثيلا من خلقه، لم ينفعه إقراره هذا.

* * *

---

(١) وإن كان وردَ عنهم إنكار اسم «الرحمن»، كما في قوله تعالى: ﴿**وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَـٰنِ ۚ**﴾ [الرعد: ٣٠].

الفصل الثالث: التعليق على النصوص، وربطها بالباب

ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الموضع ستَّة نصوص (خمس آيات وحديثا):

النص الأول: قول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦].

والعبادة - من حيث إطلاقها على الفعل الذي هو التعبد - هي: التذلل لله بطاعته مع المحبة والتعظيم.

وأمَّا من حيثُ إطلاقها على المفعول (أي: العبادات؛ كالصلاة، والصدقة، وغيرها)؛ فهي: «اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه؛ من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة»[1].

وأعظم ما يُعبد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ويُطاع به إنَّما هو توحيده - جلَّ وعلا -. وقد دلَّت الآية على وجوب توحيده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وإفراده بالعبادة، وألا يُشرك به شيء.

والعبادة أعم من التوحيد، وتفسير العبادة بالتوحيد إنَّما هو من باب اللزوم؛ لأن العبادة لا تصِحُ إلا بالتوحيد. أو نقول: تفسير العبادة بالتوحيد باعتباره أهم الأفراد؛ لأن العبادة مكونة من أشياء أهمها وأولها التوحيد، وإلا فالصلاة عبادة والصيام عبادة .. إلخ.

ooo

(١) هذا تعريف شيخ الإسلام للعبادة، كما في «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٤٩).

النص الثاني: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

دلت الآية على أن بعثة الرسل إلى الأمم جميعا لتحقيق أمرين (إثبات ونفي):

أولا: إثبات العبادة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده. وأعظم ما يُتعبَّد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به، توحيده.

ثانيا: اجتناب عبادة غير الله جَلَّ جَلَالُهُ.

ولا يتم التوحيد إلا بهذين الأمرين، فالنفي المحض ليس بتوحيد، كما أنَّ الإثبات المحض ليس بتوحيد(١).

والطاغوت: اسم مأخوذ من الطغيان، وهو: مجاوزة الحد. قال ابن قتيبة: «الطاغوت: واحد، وجمع، ومذكَّر، ومؤنث»(٢).

ونقل عن السلف في تفسيره أقوال كثيرة يمكن ردها إلى معنيين:

الأول: أنه الشيطان. قاله عمر، وابن عباس(٣).

---

(١) ينظر: «الملخص في شرح كتاب التوحيد» ص١٢.

(٢) «أدب الكاتب» ص٦١٧.

(٣) ينظر: «زاد المسير» (١/ ٢٣١).

الثاني: ما ذكره ابن القيم بقوله: «الطَّاغوتُ: كُل ما تجاوز به العبدُ حدَّه من معبود أو متبوع أو مُطاع»(١).

فالمعبود يُراد به: من عُبِد راضيا، والمتبوع: كالسحرة والكهان وعلماء السوء، والمطاع: كالأمراء الخارجين عن طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ooo

النص الثالث: قوله تعالى: ﴿**وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا**﴾ [الإسراء:٢٣].

والقضاء الإلهي نوعان: قضاء كوني، وقضاء شرعي.

فالقضاء الكوني: هو الذي لا يخرج عنه شيء في السماوات ولا في الأرض، والمؤمن والكافر فيه سواء. وهو بمعنى «**المشيئة**». وذلك كمشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لخلق شيء أو إماتته. ومثاله قوله تعالى: ﴿**فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ**﴾ [فصلت: ١٢].

والقضاء الشرعي: أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالشيء يُحِبُّه؛ سواء شاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وقوعه من العبد أو لم يشأ؛ كالأمر بالعبادات، ومحاسن الأخلاق، ونحوها. وهو بمعنى «**المحبة**».

والقضاء المذكور في الآية: قضاء شرعي، لا كوني.

---

(١) «إعلام الموقعين» (١/ ٥٣).

وهذه الآية دلت على أن إفراد الله بالعبادة مأمور به شرعا، يجب امتثاله. وقد تضمَّن هذا الموضع من سورة «الإسراء» عدة مأمورات، جاء التوحيد أولها؛ فدل ذلك على أنه أهم المُهمات وأوجب الواجبات.

ooo

النص الرابع: قوله تعالى: ﴿**وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا**﴾ [النساء: ٣٦]، ووجه الدلالة في هذه الآية الأمر بعبادة الله ﴿**وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ**﴾، والأمر يُفيد الوجوب، وأعظم ما يُعبد الله به هو التوحيد. كما أنَّ الآية نهت عن الشرك ﴿**وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا**﴾، والنهي يفيد التحريم.

وهذه الآية في سورة «النساء» تُسمى آية الحقوق العشرة، وأول هذه الحقوق حق الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وهو التوحيد، فدل على أنه أهم المهمات، وأوجب الواجبات.

ooo

النص الخامس: قوله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿**قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا**﴾ [الأنعام: ١٥١].

هذه الآية قال عنها ابنُ مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، - كما ذكر المؤلِّف -: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَصِيَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّتِي عَلَيْهَا خَاتَمُهُ فَلْيَقْرَأْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿**قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡ**﴾ [الأنعام:١٥١]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿**وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا**﴾ [الأنعام:١٥٣]»[١].

---

(١) تقدَّم تخريجه.

والآية تدلُّ على أن الله – تعالى – حرَّم الإشراك به، وجاء هذا بلفظ التحريم الصريح. وكلمة ﴿**شَيْـًٔا**﴾ في قوله تعالى: ﴿**أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا**﴾ نكرة في سياق النهي، والنكرة في سياق النهي تُفِيد العموم، فيدخل في هذا جميع أنواع الشرك.

ومفهوم الآية ولازمها: وجوب توحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإفراده بالعبادة.

وهذه الوصية ليست وصية مكتوبة؛ إذ من المعلوم أنَّ النبي ﷺ لم يكتبها – ولا غيرها – في ورقة، وقد أخرج الشيخان من حديث أبي جُحَيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه سأل عليا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ مِنَ الوَحْيِ إِلَّا مَا فِي كِتَابِ اللَّهِ؟ قَالَ: «لا، وَالَّذِي فَلَقَ الحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا فَهْمًا يُعْطِيهِ اللَّهُ رَجُلًا فِي القُرْآنِ، وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ»، قُلْتُ: وَمَا فِي الصَّحِيفَةِ؟ قَالَ: «العَقْلُ، وَفَكَاكُ الأَسِيرِ، وَأَنْ لا يُقْتَلَ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ»(١).

فالمراد أن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ رأى أن هذه الآيات جامعة لما جاء به النبي ﷺ، وأن كل آية من هذه الآيات الثلاث خُتِمت بقوله: ﴿**ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ**﴾، فعبر عنها بالوصية.

وأثر ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أخرجه الترمذي بلفظ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الصَّحِيفَةِ الَّتِي عَلَيْهَا خَاتَمُ مُحَمَّدٍ ﷺ فَلْيَقْرَأْ هَذِهِ الآيَاتِ ...».

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣٠٤٧) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٧٨).

وأخرجه الطبراني بلفظ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَقْرَأَ صَحِيْفَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ ...»[1].

وأخرجه البيهقي بلفظ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَصِيَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّتِي عَلَيْها خَاتِمَةُ أَمْرِهِ ...»[2].

وفي المستدرك من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ يُبَايِعُنِي عَلَى هَذِهِ الْآيَاتِ**»، ثُمَّ قَرَأَ ﴿**قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ**﴾ [الأنعام: ١٥١]، حَتَّى خَتَمَ الْآيَاتِ الثَّلَاثَ، «**فَمَنْ وَفَّى فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنِ انْتَقَصَ شَيْئًا أَدْرَكَهُ اللَّهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا كَانَتْ عُقُوبَتَهُ، وَمَنْ أُخِّرَ إِلَى الْآخِرَةِ، كَانَ أَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ، وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ**»[3].

ooo

النص السادس: عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ ﷺ على حِمَارٍ، فَقَالَ لِي: «**يَا مُعَاذُ أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟**» قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «**حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا،**

---

(١) «المعجم الكبير» (١٠٠٦٠).

(٢) «شعب الإيمان» (٧٥٤٠).

(٣) **صحيح**: أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣٤٨/٢)، والمروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٦٦٠)، والشاشي في «المسند» (١٢٢٩)، وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: «**لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا**»[(١)]، أخرجاه في الصحيحين.

والشاهد من الحديث قولُه ﷺ: «**حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ**»؛ فإنَّ الحق هو الواجب، ثم فسره بالتوحيد، فقال ﷺ: «**أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**».

وأمَّا حقُّ العباد على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: فهو حق أوجبه الله - سبحانه - على نفسه تفضُّلا وتكرما، ولم يوجبه أحدٌ عليه.

مـــا لِلعبـــادِ علَيـــهِ حَـــقٌّ واجِـــبُ
كـــلَّا، ولا سَـــعْيٌ لدَيـــهِ ضـــائعُ
إن عُـــذِّبوا فبِعَدلـــهِ أو نُعِّمُـــوا
فبِفَضْـــلِهِ، وهـــو الكـــريمُ الواسِـــعُ[(٢)]

* * *

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ذكرهما ابن القيم في مواضع من كتبه، منها: «مدارج السالكين» (٢/ ٣٨٩).

١- باب فضل التوحيد، وما يُكفِّر من الذنوب

وَقَولِ اللهِ - تَعالَى -: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٨٢﴾ [الأنعام: ٨٢].

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ، وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالْجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ»(١). أَخْرَجاهُ.

وَلَهُمَا فِي حَدِيثِ عِتْبَانَ: «فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ»(٢).

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «قَالَ مُوسَى: يَا رَبِّ، عَلِّمْنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ وَأَدْعُوكَ بِهِ. قَالَ: قُلْ يَا مُوسَى: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ). قَالَ: كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هَذَا. قَالَ: يَا مُوسَى، لَوْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في صحيحه (٣٤٣٥)، ومسلم (٢٨).

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في صحيحه (٤٢٥) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٣٣).

غَيْرِي، وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ فِي كِفَّةٍ، وَ(لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) فِي كِفَّةٍ، مَالَتْ بِهِنَّ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)»[١]. رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ، وَالْحَاكِمُ، وَصَحَّحَهُ.

وَلِلتِّرْمِذِيِّ - وَحَسَّنَهُ - عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: قَالَ اللهُ - تَعَالَى -: **«يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»**[٢].

ooo

الشرح:

هذا باب عظيم في عنوانه ومحتواه، ذكر فيه المؤلف آية وأربعة أحاديث.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «**باب فضل التوحيد**»: المراد بالتوحيد: توحيد العبادة؛ بدلالة ما ذكره من النصوص. وتوحيد العبادة متضمن لتوحيد الربوبية والأسماء والصفات، كما سبق.

---

(١) **ضعيف**: أخرجه النسائي في «الكبرى» (١٠٩١٣)، وأبو يعلى في «المسند» (١٣٩٣)، وابن حبان في صحيحه (٦٢١٨)، والحاكم في «المستدرك» (١٩٣٧) وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه»، وضعفه الألباني في «ضعيف موارد الظمآن» (٢٩٥).

(٢) **صحيح**: أخرجه الترمذي في سننه (٣٥٤٠)، والطبراني في «الأوسط» (٤٣٠٥)، وقال الترمذي: «حسن غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه»، وصححه الألباني.

وله شاهد أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٨٧)، من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوله: «**وما يُكَفِّر من الذنوب**»: يجوز أن تكون «**ما**» موصولة بمعنى الذي، وأن تكون مصدرية، أي: «باب بيان عظيم فضل التوحيد وتكفيره للذنوب»، وهذا أشمل وأولى؛ لرفع وهم أن ثمَّ ذنوبا لا يكفِّرُها التوحيد، وليس بمُراد.

و«**مِن**» بيانية، وليست للتبعيض.

والكلام على هذا الباب في ثلاثة فصول:

* * *

الفصل الأول: مقصود الباب، وموضوعه العام

لـمَّا بَيَّن المؤلف في الباب الأول وجوب التوحيد وعظمته ومعناه، بيَّن هنا فضل التوحيد وآثاره وعوائده على الموحِّد في الدنيا والآخرة، والتي منها: تكفير الذنوب.

وفي هذا مزيدُ حَثٍّ وترغيب فيه، وفي التمسك به والثبات عليه.

* * *

الفصل الثاني: المباحث الموضوعية

المبحث الأول: فضائل التوحيد، وأدلتها:

الفضيلة الأولى: الأمن في الدنيا والآخرة:

ودليلها قول الله - تعالى -: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

والمراد بالأمن: الأمن من عذاب الدنيا، كما عُذِّبت الأمم السابقة، والأمن من عذاب الآخرة. وهذه نعمة عُظمى: أن يكون آمنا في دنياه وأُخراه، والسبيل إليها هو التوحيد الخالص.

قال الله - عز وجل -: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٩]. قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في الآية: يوم ينفع الموحِّدين توحيدُهم(١).

وفي قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ إشارة إلى أن الأمن خاص بهم، وهو أبلغ من أن يقال: آمنون.

الفضيلة الثانية: الاهتداء في الدنيا والآخرة:

ودليله الآية السابقة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢]. والهداية في الدنيا تكون إلى العلم النافع والعمل الصالح، وفي الآخرة إلى الجنة.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٧٠٦٣).

قال تعالى في حقِّ الموحِّدين: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٩**﴾ [يونس: ٩]، وقال في حق غيرهم: ﴿**ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ٢٣**﴾ [الصافات: ٢٢- ٢٣]، فهناك هداية إلى صراط النعيم، وهداية إلى صراط الجحيم!.

قال ابن القيم: «أصل ما تزكو به القلوب والأرواح هو التوحيد»(١).

الفضيلة الثالثة: دخول الجنة:

لحديث عبادة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ السابق، وفيه قوله ﷺ: «**مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ... أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ**»(٢).

الفضيلة الرابعة: النجاة من النار:

لحديث عِتبان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ السابق، وفيه قوله ﷺ: «**فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ**»(٣).

---

(١) «إغاثة اللهفان» (١/ ٤٩).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢].

الفضيلة الخامسة: تثقيل الميزان:

لحديث أبي سعيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الذي ذكره المؤلف في قصة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ[(١)]، وحديث صاحب البطاقة، وما جاء في معناهما.

وحديث صاحب البطاقة رواه عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ ﷻ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحافِظُونَ؟ فيقول: لا، يا رَبِّ. فَيَقُولُ: أَفلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لا، يا رَبِّ. فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنا حَسَنَةً؛ فإِنَّه لا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ. فَتُخْرَجُ لَهُ بِطاقَةٌ، فِيها: أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. فَيَقُولُ: أَحْضِر وزنك. فَيَقُولُ: يا رَبِّ، ما هَذِهِ الْبِطاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟ فَيُقالُ: إِنَّكَ لا تُظْلَمُ. قالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ والبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطاشَتِ السِّجِلَّاتُ، وَثَقُلَتِ الْبِطاقَةُ، فلا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ**»[(٢)].

---

(١) تقدم تخريجه، وهو ضعيف.

(٢) **صحيح**: أخرجه الترمذي في السنن (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠)، وصححه الألباني.

الفضيلة السادسة: مغفرة الذنوب:

لحديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي ذكره المؤلف[1]، وما ورد في معناه.

الفضيلة السابعة: الإعانة على طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

لأن الموحد مؤمن بربه، متعلِّق قلبُه بمعبوده؛ وهذا يبعثه على العمل له في جميع أحواله، بخلاف المرائي ونحوه.

الفضيلة الثامنة: البعد عن النفاق:

فإن من حقق التوحيد، استنار قلبه بنوره، ولم يبق فيه محل للنفاق.

قال يونس بن عُبَيد: «لا كِبر مع السجود، ولا نفاق مع التوحيد»[2].

الفضيلة التاسعة: التحرُّر من عبودية غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

وهذا كمال العزة والشرف، أن يكون المرء عبدا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وحده دون ما سواه.

والعبودية هي: التذلل، والتذلل لله - تعالى - كمال العز والشرف؛ ولهذا وصف الله نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذا الوصف (العبودية) في أشرف المقامات وأرفعها: ففي مقام إنزال الكتاب قال تعالى: ﴿**ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ**﴾ [الكهف: ١]، ولم يقل: على رسوله، وإنما قال: ﴿**عَلَىٰ عَبْدِهِ**﴾، وفي مقام الإسراء والمعراج قال

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «التواضع والخمول» لابن أبي الدنيا ص٢٧٥.

سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ [الإسراء:١]، وفي مقام التحدِّي للمعاندين والمخاصمين قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾ [البقرة:٢٣].

ومِمَّا زادَنِي شَرَفًا وفَخْرا
وكِدتُ بأَخْمصِي أَطَأُ الثُّرَيَّا
دُخُولِي تحتَ قولِكَ: «يَا عِبادِيْ»
وأَنْ صَيَّرْتَ أحمدَ لِي نَبِيًّا(١)

ooo

المبحث الثاني: ضابط فهم نصوص الوعد:

ورد في هذا الباب جُملة من نصوص الوعد التي تفيد أن من أتى بـ «لا إله إلا الله» دخل الجنة وغُفِرت ذنوبُه.

وفي المقابل تواترت الأحاديث بأنه يخرج من النار من قال: «لا إله إلا الله»، وكان في قلبه من الخير ما يزِنُ ذرة من إيمان، وتواترت - كذلك - بأن كثيرا ممن يقولها يدخل النار ثم يخرج منها، وصحت الأحاديث بالوعيد بدخول النار، أو الحرمان من الجنة على بعض الأعمال كقطيعة الرحم والنميمة وغيرهما.

فيَرِد هنا إشكال، خلاصتُه: هل من أتى بالتوحيد، ولم يقع في الشرك بنوعيه، تُغفَر ذنوبه، ولو كان مُقارِفا للكبائر العِظام، كما هو ظاهر حديث

---

(١) ينظر: «مرقاة المفاتيح» (١/ ٩)، والأبيات منسوبة للقاضي عياض رَحِمَهُٱللَّهُ.

أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً**»(١)؟ وهل يُحَرَّم على النار كما يدل عليه حديث عتبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ**»(٢)، وغيرهما مما جاء في معناهما؟

ومثال ذلك: المسلم الموحد الذي أتى بأركان الإسلام الخمسة، لكنه قاطع للرحم، فهل يدخل الجنة؟

إذا قلنا: يدخل الجنة، فهذا مُصادِم - في ظاهره - لحديث: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ**»(٣).

وإذا قلنا: لا يدخل الجنة، قيل: كيف وهو مسلم موحِّد أتى بأركان الإسلام جميعًا، ولم يشرك باللهِ شيئا، فكيف يُنفَى عنه دخول الجنة؟!.

وهذه مسألة زلت فيها أقدام، وضلت فيها أفهام!.

والجواب عن هذا الإشكال:

أن أحاديث هذا الباب نوعان:

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٥٩٨٤)، ومسلم (٢٥٥٦)، من حديث جبير بن مطعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أحدهما: ما فيه أن من أتى بالشهادتين دخل الجنة ولم يُحجب عنها، وهذا ظاهر لا إشكال فيه؛ فإن النار لا يُخلَّد فيها أحد من أهل التوحيد الخالص، بل مآلُه إلى الجنة.

الثاني: ما فيه أنه يحرُم على النار من قال كلمة التوحيد. وهذا محل الإشكال، ووجهه: أنه يعارِض - في ظاهره - الأحاديثَ التي جاء فيها أن من العُصاة من يدخل النار، والوعيد بعدم دخول الجنة على من فعل كذا من المعاصي، وما ورد أنه يَخرُج من النار أقوام من أهل التوحيد بعد أن يُعذَّبوا فيها.

وأجاب العلماء عن هذا الإشكال بأجوبة:

الأول: أن أحاديث الوَعْد كانت قبل نزول الفرائض والحدود، ويعبر عنه بعضهم بالنسخ. وهذا منقول عن الزهري والثوري وغيرهما. جاء في صحيح مسلم - بعد سياق حديث عتبان -: «قال الزهري: ثم نزلت بعد ذلك فرائض وأمور نرى أن الأمر انتهى إليها، فمن استطاع أن لا يغتر فلا يغتر».

وهذا القول تعقَّبه الحافظان ابن رجب، وابن حجر، والعلَّامة العثيمين - رحمهم الله جميعا -[(١)].

---

(١) ينظر: «كلمة الإخلاص» ص١٢وما بعدها، و«فتح الباري» (١/٦٢٢)، و«القول المفيد» (١/٧٤).

قال ابن رجب: «وهذا بعيد جدا؛ فإنَّ كثيرا منها - تلك الأحاديث - كان بالمدينة بعد نزول الفرائض والحدود، وفي بعضها أنه كان في غزوة تبوك، وهي في آخر حياة النبي ﷺ»(١).

الثاني: أن المراد تحريمُ التخليد أو تحريم دخول النار المعدة للكافرين، لا الطبقة المُعَدة للعصاة؛ فهذه يدخلها خلق كثير من عُصاة الموحدين بذنوبهم، ثم يخرجون بشفاعة الشافعين وبرحمة أرحم الراحمين.

وكذلك فيما ورد بنفي دخول الجنة، مثلُ قوله ﷺ: «**لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَاطِعٌ**»(٢)، محمول على أنه لا يدخلها أول الداخلين، أو في درجة معينة منها.

الثالث: أن المراد من هذه الأحاديث أن «لا إله إلا الله» سبب مقتضٍ لدخول الجنة والنجاة من النار، ولكن المقتضِي لا يعمل عمله إلا باستجماع شروطه وانتفاء موانعه، فقد يتخلف عنه مقتضاه لفوات شرط من شروطه أو لوجود مانع، وهذا قول الحسن ووهب بن منبِّه.

قال ابن رجب: «وهو الأظهر»(٣).

(١) «كلمة الإخلاص» ص١٩.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) «كلمة الإخلاص» ص١٣.

قيل للحسن: إن أُناسا يقولون: «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة»، فقال: من قال: «لا إله إلا الله» فأدى حقها وفرضها، دخل الجنة(١).

وسئل وهب بن منبِّه: أليس «لا إله إلا الله» مفتاح الجنة؟ قال: بلى، ولكن ما من مفتاح إلا له أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك، وإلا لم يفتح لك(٢).

قال ابن رجب: «ويدل على صحة هذا القول أن النبي ﷺ رتَّب دخول الجنة على الأعمال الصالحة في كثير من النصوص»(٣)، ثم ساق رَحِمَهُ ٱللَّهُ جملة منها.

فنصوص الوعد مقيدة بالشروط التي جاءت في الأحاديث: «**صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ**»(٤)، و«**لَا يَلْقَى اللهَ بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ فِيهِمَا إِلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ**»(٥)، و«**مَنْ لَقِيتَ**

---

(١) «كلمة الإخلاص» ص١٤.

(٢) رواه البخاري في صحيحه معلَّقا قبل حديث رقم (١٢٣٧)، ورواه موصولا في «التاريخ الكبير» (١/ ٩٥).

(٣) «كلمة الإخلاص» ص١٥.

(٤) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (١٢٨)، ومسلم (٣٢)، من حديث معاذ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وتمامه: «**ما مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ، إِلَّا حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّارِ**».

(٥) سيأتي تخريجه، بإذن الله – تعالى –.

يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ، فَبَشِّرْهُ بِالجَنَّةِ»[1]، و«**مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، دَخَلَ الجَنَّةَ**»[2]، و«**يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ**»[3].

وحينئذ فلا منافاة بين الأحاديث؛ فإنه إذا قالها بإخلاص ويقين تام لم يكن في هذه الحال مُصِرًّا على ذنب أصلا، فإن كمال إخلاصه ويقينه يوجب أن يكون الله أحب إليه من كل شيء[4].

قال بعض أهل العلم: إذا كثرت الذنوب ثقُل على اللسان قولها وقسا القلب، وكره العمل الصالح، وثقل عليه سماع القرآن[5].

---

(١) سيأتي تخريجه، بإذن الله – تعالى –.

(٢) سيأتي تخريجه، بإذن الله – تعالى –.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) ينظر: «حاشية ابن قاسم على كتاب التوحيد» ص٢٩.

(٥) قال ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/٣٣١): «الأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها، وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب؛ فتكون صورة العملين واحدة وبينهما في التفاضل كما بين السماء والأرض، والرجلان يكون مقامهما في الصف واحدا وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض. وتأمل حديث البطاقة التي توضع في كفة ويقابلها تسعة وتسعون سجلا كل سجل منها مد البصر، فتثقل البطاقة وتطيش السجلات فلا يعذب، ومعلوم أن كل موحد له مثل هذه البطاقة، وكثير منهم يدخل النار بذنوبه، ولكن السر الذي ثقل بطاقة ذلك الرجل وطاشت لأجله السجلات، لمَّا لم يحصل لغيره من أرباب البطاقات، انفردت بطاقته بالثقل والرزانة».

ويستفاد مما سبق أن أهل السنة وسط في باب الوعيد بين غُلاة المرجئة القائلين: بأنه لا يضر مع الإيمان ذنب؛ أخذا بظواهر النصوص التي فيها: من قال «لا إله إلا الله» دخل الجنة وحُرِّم على النار، وبين الوعيدية من الخوارج والمعتزلة القائلين بتخليد عصاة الموحدين في النار؛ أخذا بظواهر النصوص التي فيها عدم دخول الجنة لاقتراف بعض المعاصي؛ مثل: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ**»(١)، «**لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ**»(٢).

* * *

وقال ابن رجب في «كلمة الإخلاص» ص٢١: «وهذا كله إشارة إلى عمل القلب وتحققه بمعنى الشهادتين .. وتحقيق هذا المعنى وإيضاحُه: أن قول العبد «لا إله إلا الله» يقتضي أن لا إله له غير الله، والإله هو الذي يطاع فلا يعصى هيبة له وإجلالا ومحبة وخوفا ورجاء وتوكلا عليه وسؤالا منه ودعاء له، ولا يصلح ذلك كله إلا لله - عز وجل - فمن أشرك مخلوقا في شيء من هذه الأمور التي هي من خصائص الإلهية، كان ذلك قدحا في إخلاصه في قول «لا إله إلا الله» ونقصا في توحيده، وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك، وهذا كله من فروع الشرك. ولهذا ورد إطلاق الكفر والشرك على كثير من المعاصي التي منشؤها من طاعة غير الله أو خوفه أو رجائه أو التوكل عليه والعمل لأجله ..»، ثم ساق رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعض شواهد ذلك.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) **متفق عليه:** أخرجه البخاري (٦٠٥٦)، ومسلم (١٠٥) واللفظ له، من حديث حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الفصل الثالث: التعليق على النصوص، وربطها بالباب

النص الأول: قول الله – تعالى –: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

قوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ﴾: أي: لم يخلطوا إيمانهم وتوحيدهم بشرك، كما فسره النبي ﷺ؛ ففي الصحيحين عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ أنَّه قال: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَقَالُوا: أَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ؟! فقال رسول الله ﷺ: «**لَيْسَ كَمَا تَظُنُّونَ، إِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ:** ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣]»(١).

وسُمِّي الشرك ظلما، والمشرك ظالما؛ لأنه وضع العبادة في غير موضعها، وصرفها لغير مستحقها.

ومن حقق إيمانه، ولم يلبسه بشرك نال الأمن في الدنيا والآخرة، والهداية إلى الصراط المستقيم.

- **وينبغي أن يُعلم أن الأمن والهداية نوعان:**

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣٢) وفي مواضع أخرى، ومسلم (١٢٤).

أولا: أمن وهداية كاملان: وهما حاصلان لمن لم يتلبَّس بأي نوع من أنواع الظلم الثلاثة:

١- الظلم الأكبر (الشرك بالله): وهو الذي لا أمن معه ولا هداية البتة.

٢- ظلم العباد في نفس أو مال أو عِرض: وهذا ظلم عظيم، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنه في الحديث القدسي: «**يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا؛ فَلَا تَظَالَمُوا**»[1].

٣- ظلم العبد نفسَه بالذنوب والمعاصي.

وهذان القسمان الأخيران واردان في قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ**﴾ [فاطر: ٣٢].

ثانيا: أمن وهداية جُزئِيَّان: وهما حاصلان لمن وقع في ظلم العباد أو النفس، ويرتفع عنه من الأمن والهداية بحسب ما وقع منه من الظلم.

وأما من دنَّس توحيده وإيمانه بالشرك الأكبر، فليس له أمن ولا اهتداء مطلقا.

فالحاصل أن تفسير النبي ﷺ محمول على مطلق الأمن، فمن سَلِم من الشرك فهو آمن من الخلود في العذاب، غير آمن من العذاب، بل هو تحت المشيئة.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٧٧).

فالناس في هذا على ثلاثة أحوال:

١- من سَلِم من أنواع الظلم الثلاثة: فهذا له الأمن والهداية المطلقان التامَّان.

٢- من سَلِم من الظلم الأكبر، ووقع في غيره من ظلم العباد أو ظلم النفس: فهذا له أمن جُزئي لا كُلي، أو كما يقول أهل العلم: له مطلق الأمن لا الأمن المطلق.

٣- من وقع في الظلم الأكبر: فليس له أمن ولا هداية.

وهذا من ثمرات التوحيد المسلكية: أن يتفقد العبدُ قلبَه، ويُخلِّصه من شوائب الشرك، ويطهِّر ذمته من مظالم العباد، ويخلِّص نفسه من ظلمها بالوقوع في الذنوب والمعاصي، وذلك لأجل تحصيل موعود الله - تعالى - بالأمن والهداية في الدارين.

ooo

النص الثاني: عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالْجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ**»(١). أَخْرَجَاهُ.

---

(١) تقدم تخريجه.

«**أَخْرَجَاهُ**»: أي أخرجه الشيخان، البخاري ومسلم في صحيحيهما.

قوله ﷺ: «**مَنْ شَهِدَ**»: لابد في الشهادة من العلم والعمل والصدق والإخلاص.

فبالعلم ينجو من طريقة النصارى الذين عمِلوا بغير علم فضلوا، وبالعمل ينجو من طريقة اليهود الذين لم يعمَلُوا بعلمهم فغضب الله عليهم، وبالصدق ينجو من طريقة المنافقين الذين يُبطنون خلاف ما يظهرونه، وبالإخلاص ينجو من طريقة المشركين الذين أشركوا مع الله غيره.

فكلمة التوحيد لا تنفع إلا من أتى بشروطها كما سبق بيانه.

ووصف عيسى بأنه «**كَلِمَةُ اللهِ**»؛ لأنه خُلِق بكلمة «**كُنْ**» فكان، وليس هو كلمة الله القائمة به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأن عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مخلوق، وكلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ صفة من صفاته، غير مخلوق.

وقوله ﷺ: «**وَرُوحٌ مِنْهُ**»، أي: روحٌ خلقها الله، نُفِخت في ذلك الجسد فصار بشرا من غير أب. فـ «**مِن**» للابتداء وليست للتبعيض، يعني ليست تلك الروح جزءا من الله – تعالى الله عن ذلك –، فهذا فهم شنيع، بل هذه الآية كقوله تعالى: ﴿**وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ**﴾ [الجاثية: ١٣].

والمسلمون وسط في عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بين اليهود الذين قالوا: «إنه ولد زنا»! والنصارى الذين جعلوه إلها، أو ابنا لله، أو ثالث ثلاثة! ففي قوله ﷺ: «**عَبْدُ اللهِ**»: رد على النصارى، وفي قوله: «**وَرَسُولُهُ**»: رد على اليهود.

وقوله ﷺ: «**أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ**»: بيانٌ لجزاء من شهد بالأمور الخمسة المذكورة في الحديث.

- **وإدخال الجنة قسمان:**

الأول: إدخال لم يُسبق بعذاب.

الثاني: إدخال مسبوق بعذاب.

وقوله ﷺ: «**عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ**»: يحتمل معنيين(١):

الأول: أدخله الله الجنة، وإن كان مقصِّرا وله ذنوب؛ لأن الموحِّد لا بد له من دخول الجنة.

الثاني: أدخله الله الجنة، وتكون منزلته فيها على حسب عمله.

والشاهد من الحديث قولُه ﷺ: «**أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ**»، أي: مصيره إلى الجنة على ما قدَّم من عمل، إما من أول الأمر، أو بعد تطهيره من ذنوبه، وهذا من فضائل التوحيد أنَّ من مات عليه فمصيرُه إلى الجنة، ولله الحمد والمنة.

ooo

(١) ينظر: «الملخص في شرح كتاب التوحيد» ص٢٦.

النص الثالث: حديث عتبان بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مرفوعا إلى النبي ﷺ أنَّه قال: «**فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ**»(١).

وهذا الحديث فيه إشارة إلى شرط من شروط «لا إله إلا الله»؛ وهو الإخلاص. فالمنافقون في عهد النبي ﷺ كانوا يقولونها، لكنهم في الدَّرك الأسفل من النار، لا تنفعهم؛ لأنهم لم يبتغوا بها وجه الله. وفي حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ، مَنْ قَالَ: «لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ، أَوْ نَفْسِهِ**»(٢).

- **وتحريم دخول النار نوعان:**

الأول: تحريم مطلق الدخول، بمعنى: أنه لا يدخلها أبدا.

الثاني: تحريم الدخول المؤبد، بمعنى: أنه لا يخلد فيها، وإن دخلها جزاء على بعض معاصيه.

ooo

النص الرابع: عن أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن رسول الله ﷺ قال: «**قَالَ مُوسَى: يَا رَبِّ، عَلِّمْنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ وَأَدْعُوكَ بِهِ. قَالَ: قُلْ - يَا مُوسَى -:**

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

«لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ». قَالَ: يَا رَبِّ، كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هَذَا. قَالَ: يَا مُوسَى، لَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ غَيْرِي، وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ فِي كِفَّةٍ، وَ«لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» فِي كِفَّةٍ، مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»(١).

هذا الحديث في إسناده مقال تقدَّمت الإشارة إليه.

وقوله ﷺ: «**أَذْكُرُكَ وَأَدْعُوكَ بِهِ**»، أي: يجتمع فيه الأمران: الثناء والحمد، مع السؤال والطلب.

وكلمة التوحيد دعاء عبادة، وهو مستلزم لدعاء المسألة. ودعاء المسألة (نحو: رب اغفر لي) متضمن لدعاء العبادة.

ووجه الدلالة من الحديث: بيان فضل كلمة التوحيد وعظمتها، وأن السماوات السبع ومن يعمُرُهن غير الله - عز وجل -، والأرضين السبع لو كانت في كفة، وهذه الكلمة في كفة، لرجحت بهن لا إله إلا الله.

ooo

النص الخامس: حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**قَالَ اللهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً**»(٢).

وقوله تعالى في هذا الحديث القدسي: «**لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا**»: يعني ما يقارب مِلأَها خطايا وذنوبا.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

وكلمة «**شَيْئًا**» في قوله تعالى: «**ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا**»: نكرة في سياق النفي، فتفيد العموم، يعني: لا تشرك بي شركا أكبر ولا أصغر، جلِيًّا ولا خفِيًّا.

فما جزاء من وفَّى بالشرط؟

قال تعالى: «**لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً**»، أي: لأتيتك بما يقاربها مغفرة لك، وهذا الحديث - كما ذكر أهل العلم - محمول على التوحيد الخالص الذي كمُلت شرائطه. وهو مطابق للترجمة؛ حيث دل على أن التوحيد سبب لتكفير الذنوب.

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لَمَّا أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، انْتُهِيَ بِهِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى - وَهِيَ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، إِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُعْرَجُ بِهِ مِنَ الْأَرْضِ فَيُقْبَضُ مِنْهَا، وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُهْبَطُ بِهِ مِنْ فَوْقِهَا فَيُقْبَضُ مِنْهَا - ... قَالَ: فَأُعْطِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَلَاثًا: أُعْطِيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، وَأُعْطِيَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَغُفِرَ لِمَنْ لَمْ يُشْرِكْ بِاللهِ مِنْ أُمَّتِهِ شَيْئًا، الْمُقْحِمَاتُ»(١).

قال النووي: «المُقْحِمَاتُ: هو بضم الميم وإسكان القاف وكسر الحاء، ومعناه: الذنوب العظام الكبائر التي تُهلِك أصحابها وتوردهم النار وتقحمهم إياها .. ومعنى الكلام: من مات من هذه الأمة غيرَ مشرك بالله غُفِر له المُقحِمات. والمراد - والله أعلم - بغُفرانها: أنه لا يخلَّد في النار بخلاف

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٣).

المشركين، وليس المراد أنه لا يُعذب أصلا؛ فقد تقررت نصوص الشرع وإجماع أهل السنة على إثبات عذاب بعض العصاة من الموحدين»(١).

قلتُ: ومن تأمل ما سبق - وغيرَه - من فضائل التوحيد وتدبَّرَها، أورثت له همة في العناية به، فاللهَ اللهَ في التوحيد، تعلموه، وافهموه، وحقِّقوه! وانظروا فيما يناقضه أو يخِل بكماله، أو يخدش صفاءه، فاجتنبوه؛ فإن النجاة يوم القيامة بهذا الأمر العظيم، وما كان كذلك فإنَّه حقيق أن يُعضَّ عليه بالنواجذ.

وكما يخاطَب الأفراد بذلك، فإن الخطاب مُوجَّه للجماعة - أيضا -. وإنَّ مما يؤخذ على بعض الجماعات والجمعيات الإسلامية - مع ما لها من جهود تُذكر فتُشكر، جزاهم الله عنها خيرا - عدمُ الاعتناء بقضية التوحيد بالقدر الذي تستحقه! فترى بعض هذه الجماعات أو الجمعيات مشغولة بقضايا حركية، وأمور تنظيمية من غير تركيز ولا تأكيد على قضية التوحيد، إلا قليلا. والواجب على من فتح الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ له بابا للدعوة إليه: أن يعتني بقضية التوحيد غاية الاعتناء ويقدِّمها في البرامج والخطط والمشاريع الدعوية والإغاثية على غيرها من القضايا. وذلك بالدعوة إلى أصل التوحيد، وإلى تصحيحه وتنقيته وتصفيته من الشركِ وشوائبِهِ ووسائله، وبالتخويف من الشرك صغيره وكبيره.

* * *

(١) «المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج» (٣/ ٣)، وذكر هناك قولا آخر.

٢- باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب

وَقالَ تَعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل: ١٢٠].

وَقالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [المؤمنون: ٥٩].

عَنْ حُصَيْنِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ رَأَى الْكَوْكَبَ الَّذِي انْقَضَّ الْبَارِحَةَ؟ فَقُلْتُ: أَنَا. ثُمَّ قُلْتُ: أَمَّا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلَاةٍ، وَلَكِنِّي لُدِغْتُ. قَالَ: فَمَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: ارْتَقَيْتُ. قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟ قُلْتُ: حَدِيثٌ حَدَّثَنَاهُ الشَّعْبِيُّ. قَالَ: وَمَا حَدَّثَكُمْ؟ قُلْتُ: حَدَّثَنَا عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ الْحُصَيْبِ أَنَّهُ قَالَ: «لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ»(١). فَقَالَ: قَدْ أَحْسَنَ مَنِ انْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ. وَلَكِنْ حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ! إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ. فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ

---

(١) أخرج هذه الجملة - مرفوعة - أبو داود في «السنن» (٣٨٨٤)، والترمذي (٣٨٨٤)، وصححها الألباني.

لِي: **هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ**». ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ، فَخَاضَ النَّاسُ فِي أُولَئِكَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ فَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا. وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ. فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ فَقَالَ: «**هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**». فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ، فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ. قَالَ: «**أَنْتَ مِنْهُمْ**». ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ. فَقَالَ: «**سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ**»(١).

ooo

الشرح:

ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب آيتين وحديثا واحدا.

والكلام على هذا الباب في ثلاثة فصول:

* * *

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٥٧٠٥) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٢٠).

الفصل الأول: مقصود الباب، وموضوعه العام

هذا الباب كالمُتَمِّم للباب الذي قبله؛ فإنه لما ذكر فضل التوحيد، ذكر ما يحصُل به تحقيقه، وما يترتب على ذلك من كمال الفضل الذي يكون لخواص هذه الأمة، وذلك من فضل التوحيد - أيضا -، لكنه فضل خاص لطائفة خاصة من الموحدين.

وقوله ﷺ: «**بغير حساب**»: اعلم أن الناس يوم القيامة - من جهة الحساب - ثلاثةُ أصناف:

أولا: من يُحاسَب حسابا عسيرا: بأن يُناقَش ويُستقصى عليه. وهذا خاصٌّ بالكفرة والمشركين، وبعض عصاة الموحدين.

ثانيا: من يُحاسَب حسابا يسيرا: بأن تُعرض عليه ذنوبه ويُقَرَّر بها، ثم يتجاوز الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عنها. وهذا معنى قوله تبارك وتعالى: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨**﴾ [الانشقاق: ٧- ٨].

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ قال: «**لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاسَبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا هَلَكَ**» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللَّهُ - تعالى -: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨**﴾ [الانشقاق :٧- ٨]، فَقَالَ

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّمَا ذَلِكِ العَرْضُ، وَلَيْسَ أَحَدٌ يُنَاقَشُ الحِسَابَ يَوْمَ القِيَامَةِ إِلَّا عُذِّبَ**»[1].

ثالثا: من يدخل الجنة بغير حِساب: وهم الصفوة الأخيار المذكورون في الحديث، نسأل اللهَ أن يجعلنا منهم.

* * *

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٦٥٣٧) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٨٧٦).

الفصل الثاني: المباحث الموضوعية

المبحث الأول: معنى تحقيق التوحيد، وبم يكون؟

تحقيق التوحيد قدر زائد على أصل التوحيد، فهناك مَن معه أصل التوحيد، وهناك آخر أعلى قدرا، وهو من حقَّقَ التوحيد.

وتحقيق التوحيد: تهذيبه وتصفيته من كل ما يُكدِّرُه.

وتحقيق التوحيد على وجهين[1]:

أولا: القدر الواجب: ويكون ذلك بتخليص التوحيد وتصفيته من شوائب الشرك والبدع والمعاصي؛ لأن الشرك ينافي التوحيد، والبدع تنافي كماله الواجب، والمعاصي تقدح فيه وتُنقِص ثوابه، فلا يكون العبد محقِّقا للتوحيد حتى يَسْلَم من الشرك بنوعيه، ويسلم من البدع والمعاصي.

ثانيا: القدر المندُوب: وهو تحقيق المقرَّبين الذين تركوا ما لا بأس به حذرا مما به بأس. وحقيقة هذا النوع: انجذاب الروح إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بحيث لا يكون في القلب شيء لغيره - سبحانه -، وهذه مرتبة عزيزة!

والخلاصة أن تحقيق التوحيد: الإتيان به على كماله.

مسألة: وسائل تحقيق التوحيد:

لا بد لتحقيق التوحيد من ثلاثة أمور[2]:

---

(١) ينظر: «حاشية كتاب التوحيد لابن قاسم» ص٣٧.

(٢) ينظر: «القول المفيد» (١/ ٨٥).

أولا: العلم: لأنه لا يمكن أن تُحقِّق شيئا لا تعلمه، قال تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد:١٩]، فمن أراد تحقيق التوحيد فلا بد أن يبدأ بتعلُّم التوحيد كما جاء في الكتاب والسنة.

ثانيا: الاعتقاد: فمن علِم ولم يعتقد فقد استكبر، وقد ذكر الله - عز وجل - عن الكافرين أنهم قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥﴾ [ص:٥]، فهم علِموا لكنهم لم يعتقدوا، فلم ينفعهم ذلك شيئا.

ثالثا: الانقياد: فلا يكفي العلم والاعتقاد، بل لابد من الانقياد والعمل، وهذه ثمرة العلم.

ومن أراد تحقيق التوحيد فلا بد له - أيضا - من الاستعانة بربِّه، مع مجاهدة النفس ومحاسبتها، والموفَّق من وفقه الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ. ومن حقَّق التَّوحيد، فإنَّ الجنة دارُه بغير حساب ولا عذاب، نسأل الله - عزَّ وجلَّ - من فضله.

ооо

المبحث الثاني: القَوادِح في تحقيق التوحيد:

القوادح في تحقيق التوحيد أربعة:

أولا: الشرك الأكبر الذي ينافي أصل التوحيد.

ثانيا: الشرك الأصغر، الذي ينافي كمال التوحيد الواجب.

ثالثا: البدع التي تقدح في التوحيد.

رابعا: المعاصي التي تخدش التوحيد وتُنقِص ثوابه.

ооо

المبحث الثالث: هل تعد المعاصي من الشرك؟

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المعاصي بالمعنى الأعم شرك؛ لأنها صادرة عن هوى مخالف للشرع، وقد قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية:٢٣].

أما بالنسبة للمعنى الأخص، فيقسمها العلماء قسمين: شرك وفسوق.

وتحقيق التوحيد لا يكون إلا باجتناب الشرك بالمعنى الأعم، ولكن ليس معنى هذا ألا تقع منهم المعاصي؛ لأن كل ابن آدم خطاء، وليس بمعصوم، ولكن إذا عصوا، فإنهم يتوبون ولا يستمِرُّون عليها»[1].

وقال ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تحقيق التوحيد: تهذيبُه وتصفيته من الشرك الأكبر والأصغر، ومن البِدَع القولية الاعتقادية، والبدع الفعلية العملية، ومِن المعاصي. وذلك بكمال الإخلاص لله في الأقوال والأفعال والإرادات، وبالسلامة من الشرك الأكبر المناقض لأصل التوحيد، ومن الشرك الأصغر المنافي لكماله، وبالسلامة من البدع والمعاصي التي تُكَدِّر التوحيد، وتمنع كماله وتعوقه عن حصول آثاره. فمن حقق توحيده بأن امتلأ قلبه من الإيمان والتوحيد والإخلاص، وصَدَّقَتْه الأعمال بأن انقادت لأوامر الله طائعة مُنِيبة

---

(١) «القول المفيد» (١/ ٩٠)، وانظر منه أيضا: (١/ ٦١)، و«لقاءات الباب المفتوح» (١٣/ ١٩٢).

مُخْبِتَة إلى الله، ولم يجرح ذلك بالإصرار على شيء من المعاصي، فهذا الذي يدخل الجنة بغير حساب»[(١)].

وقال ابن رجب: «اتِّباع هوى النفس فيما نهى الله عنه قادح في تمام التوحيد وكماله، ولهذا أطلق الشرع على كثير من الذنوب التي منشؤها من هوى النفس أنها كفر وشرك، كقتال المسلم، ومن أتى حائضا أو امرأة في دُبُرها، ومن شرب الخمرة في المرة الرابعة، وإن كان ذلك لا يخرجه عن الملة. ولهذا قال السلف: كفر دون كفر، وشرك دون شرك. وقد ورد إطلاق الإله على الهوى المتبع، قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية:٢٣]»[(٢)].

ومما سبق يتبين أن من وقع في كبيرة من الكبائر كالربا والزنا؛ لا يقال: إنه مشرك، لكنه لم يحقِّق التوحيد، فتحقيق التوحيد قدر زائد على أصل التوحيد، كما سبق.

ولا يُفهم أن منزلة تحقيق التَّوحيد يشترط لها ألا يعصِي الله، فليس أحد من البشر معصوما، وإنما المُراد أنه يجتنب المعاصي، وإذا وقع في شيء منها بحكم الضعف البشريِّ والشهوة المركبة؛ فإنه يبادر بالتوبة والندم.

---

(١) «القول السديد» لابن سعدي ص٢٩.

(٢) «كلمة الإخلاص» ص٢٣.

وإني لأراك - أيها الموحد - ممن يلهج بكلمة التوحيد صباح مساء، وإنَّ لي معك وقفة:

هل تأملت يوما هذه الكلمة العظيمة، وأجلت فكرك فيها؟

إنها تقتضي أن لا إله لك غير الله، والإله هو الذي يطاع فلا يُعصى هيبة له وإجلالا، ومحبة وخوفا، ورجاء وتوكلا عليه، ولا يصلح ذلك كله إلا لله - عز وجل -.

وأما من تعلَّق قلبُه بغير الله جَلَّجَلَالُهُ حتَّى ألهاه عن طاعة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فهذا نوع عبادة لغير الله - تعالى - وشرك به - سبحانه -، كما قال ﷺ: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ ...**»(١).

فسماه عبدا للدينار والدِّرهم مع كونه لم يسجد للدينار، ولم يذبح له! وإنَّما لأنه توجَّه بقلبه إليه، وتعلق به، بحيث صار يصبح ويمسي وهمُّه الدرهم والدينار.

وأيضا فقد سمى الله - تعالى - طاعة الشيطان في معصية الله «عبادة»، كما في قوله - تعالى -: ﴿**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ٦٠**﴾ [يس: ٦٠].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤٣٥).

ومن هنا فإنه يجب على الموحِّد أن ينتبه إلى أنَّ تحقيق التوحيد والعبودية التامة لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يكون إلا بتمام انشغال القلب بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وجمع الهم على أمر الآخرة!

نسأل الله أن يملأ بذلك قلوبنا ..

* * *

الفصل الثالث: التعليق على النصوص، وربطها بالباب

النص الأول: قولُ الله - تعالى -: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٠].

قوله - تعالى -: ﴿أُمَّةً﴾، أي: إماما وقدوة ومعلِّما للخير. ويُحتمل أنه وُصِف بالأُمة لما اجتمع فيه من صفات الخير التي لا تجتمع إلا في أُمة.

والقولان متلازمان؛ فإنه أُمة على الحق وحده، وإمام لجميع الحُنفاء، يقتدون به في ما كان عليه من الخير.

وقوله: ﴿قَانِتًا﴾، أي: خاشعا مطيعا. والقنوت دوام الطاعة.

وقوله: ﴿حَنِيفًا﴾، أي: مائلا عن الشرك إلى التوحيد.

وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: فارقهم بالقلب واللسان والبدن، وأنكر ما كانوا عليه من الشرك، وما ذاك إلا من أجل تحقيقه التوحيد، وقد قصَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علينا قوله ﷺ لقومه: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ [الزخرف:٢٦]، وقوله: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [مريم:٤٨].

ومناسبة الآية للترجمة: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وصف خليله بهذه الصفات التي هي الغاية في تحقيق التوحيد، وقد أمرنا بالتأسي والاقتداء به، فقال:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ ...﴾ [الممتحنة:٤]، ثم ذكر مآله فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [البقرة :١٣٠]؛ استجابةً لدعائه: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الشعراء :٨٣].

وقال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾؛ لئلا يَستوحش سالك الطريق من قلة السالكين، ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾، لا للمُلوك ولا للتجار المترفين. ﴿حَنِيفًا﴾: لا يميل يمينا ولا شمالا، كفعل العلماء المفتونين. ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، خلافا لمن كثَّر سوادهم، وزعم أنه من المسلمين.

ooo

النص الثاني: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون:٥٩].

هذا وصف للمؤمنين السابقين إلى الجنة، حيث أثنى عليهم بهذه الصفات الحميدة، فقال جلَّ ذكرُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٥٩]، فذكر من صفاتهم هذه الآية التي تدل على إخلاصهم، وسلامتهم من الشرك قليلِه وكثيره، صغيره وكبيره.

وهذا في مقام الثناء، والحث على الاقتداء.

ooo

النص الثالث: عن حُصَينِ بن عبد الرحمن قال: كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ رَأَى الْكَوْكَبَ الَّذِي انْقَضَّ الْبَارِحَةَ؟ فَقُلْتُ: أَنَا. ثُمَّ قُلْتُ: أَمَّا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلَاةٍ، وَلَكِنِّي لُدِغتُ. قَالَ: فَمَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: ارْتَقَيْتُ. قَالَ: فَمَا حَملكَ عَلَى ذَلِكَ؟ قُلْتُ: حَدِيثٌ حَدَّثَنَاهُ الشَّعْبِيُّ. قَالَ: وَمَا حَدَّثَكُمْ؟ قُلْتُ: حَدَّثَنَا عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ الْحُصَيْبِ أَنَّهُ قَالَ: «**لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ**». فَقَالَ: قَدْ أَحْسَنَ مَنِ انْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ. وَلَكِنْ حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ! إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ. فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ**». ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ، فَخَاضَ النَّاسُ فِي أُولَئِكَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمْ الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمْ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ فَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا. وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ. فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: «**هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**». فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ فَقَالَ: اُدْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ. قَالَ: «**أَنْتَ مِنْهُمْ**». ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ: اُدْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ. فَقَالَ: «**سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ**»(١).

---

(١) تقدم تخريجه.

هذا الحديث يذكر فيه حُصَين بن عبدالرحمن أنهم كانوا عند سعيد بن جبير – وهو من أئمة التابعين ومشاهير المفسرين، من تلاميذ ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا – ، فقال سعيد: «أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة؟» فقال حصين: «أنا»، ثم استدرك خشيةَ أن يُفهم أنه كان يصلي في الليل، وهذا من حرصهم على الإخلاص وبعدهم عن الرياء، فقال: «أما إني لم أكن في صلاة»، يعني لا تفهموا أني كنت أصلي، لكني كنت مستيقظا؛ لأني لدغت! فقال سعيد: «فما صنعت؟» قال: «ارتقيت»، يعني طلبت الرقية، قال: فما حملك على ذلك؟ فذكر مستنده، وهو حديث: «**لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ**»[١]، والحُمَة (بضم الحاء وتخفيف الميم المفتوحة) هي: سُم ذوات السُّم، كالحية والعقرب. ومعنى: «**لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ**»: لا رقية أولى وأشفى.

الطِيرة: التشاؤم بمَرئيٍّ، أو مسموع، أو زمان، أو مكان. وأفرد لها المؤلف بابا.

وقوله ﷺ: «**وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**»: قال ابن قاسم رَحِمَهُٱللَّهُ: «وعطفه [التوكُّل] على تلك من عطف العام على الخاص؛ لأن كل واحدة منها صفة خاصة من التوكل، وهو أعم من ذلك»[٢].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «حاشية كتاب التوحيد» ص٤٦.

ودل الحديث على أن طائفة من هذه الأمة يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، وذاك لكمال توحيدهم وتحقيقهم له.

إشكالات حول الحديث:

أولا: الجمع بين الخبرين في هذا الحديث «**لَا رُقْيَةَ إِلَّا ...**» وقوله ﷺ: «**لَا يَسْتَرْقُونَ**»، حيث أثبت الرقية في الأول، ونفاها في الثاني؟

والجواب:

الإنسان له ثلاثة أحوال من حيث الرقية: إما أن يرقي غيره، أو يُرقَى من غير طلب، أو يسترقي (أي: يطلب الرقية من غيره).

والحديث الأول فيمن رَقَى ورُقِي من غير طلب، والثاني في من طلب الرقية (استرقى).

والنبي ﷺ رَقى(١) ورُقِي(٢)، ولم يَسْتَرِقِ.

والفرق بين الراقي والمسترقِي: أن المسترقِيَ سائل مُسْتَعْطٍ ملتفِتٌ بقلبه إلى غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بينما الراقي محسن. وإنما المراد وصف السبعين ألفا بتمام

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ينظر: صحيح البخاري (٣١٩١ و٤٧٢٨)، وصحيح مسلم (٢١٩٢)، وغيرها كثير.

التوكل؛ لأنهم لا يسألون غيرهم أن يرقيهم لقوة اعتمادهم وتعلُّقهم بالله - تعالى -، ولا يُفهم من هذا أن الاسترقاء محرم.

ثانيا: الجمع بين ما يُفيده الحديث من ترك سؤال المخلوق، وما ورد من السؤال؟

والجواب:

سؤال المخلوق نوعان[1]:

الأول: سؤال ليس فيه استعطاف ولا تذلل، ولا إحساس برفعة المسؤول على السائل. كسؤال الابن والخادم والصديق والزوجين فيما بينهما ونحوه. وعليه يحمل ما ورد من سؤاله ﷺ لأزواجه وأصحابه.

الثاني: سؤال فيه استعطاف وتذلُّل، وهذا هو الذي يُنقِص تحقيق التوحيد.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن سؤال المخلوقين فيه ثلاث مفاسد: مفسدة الافتقار إلى غير الله، وهي من نوع الشرك. ومفسدة إيذاء المسؤول، وهي من نوع ظلم الخلق. وفيه ذل لغير الله وهو ظلم النفس»[2].

ثالثا: الجمع بين ما ورد في الكي؟

---

(١) ينظر: «الجمع والتجريد» ص٧٧.

(٢) «قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة» ص٧٢.

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النبي ﷺ قال: «**الشِّفَاءُ فِي ثَلاثَةٍ: شَرْبَةِ عَسَلٍ، وَشَرْطَةِ مِحْجَمٍ، وَكَيَّةِ نَارٍ. وَأَنْهَى أُمَّتِي عَنِ الكَيِّ**»(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «قد تضمنت أحاديث الكي أربعة أنواع: أحدها: فعله، والثاني: عدم محبته، والثالث: الثناء على من تركه، والرابع: النهي عنه. ولا تعارض بينها؛ فإن فعله له يدل على جوازه، وعدم محبته لا يدل على المنع منه، وأما الثناء على تاركه فيدل على أن تركه أولى وأفضل، وأما النهي عنه فعلى سبيل الاختيار والكراهة، أو عن النوع الذي لا يُحتاج إليه، بل يُفعل خوفا من حدوث الداء»(٢).

ومراد ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ بفعله: فعلُه ﷺ بغيرِه، كما قال جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: رُمِيَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ فِي أَكْحَلِهِ، قَالَ: «فَحَسَمَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِيَدِهِ بِمِشْقَصٍ، ثُمَّ وَرِمَتْ فَحَسَمَهُ الثَّانِيَةَ»(٣).

وأمَّا هو ﷺ فلم يثبت أنَّه اكتوى قطُّ. قال الحافظ ابن حجر: «لم أر في أثر صحيح أن النبي ﷺ اكتوى»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٥٦٨٠، و٥٦٨١).

(٢) «زاد المعاد» (٤/ ٥٨).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٠٨). والحَسْم هو الكي.

(٤) «الفتح» (١٠/ ١٦٤).

رابعا: هل يدل الحديثُ على عدم مباشرة الأسباب؟

«الحديث لا يدل على أنهم لا يباشرون الأسباب أصلا؛ فإن مباشرة الأسباب في الجملة أمر فطري ضروري، بل نفس التوكل مباشرة لأعظم الأسباب، وإنما المراد أنهم يتركون الأمور المكروهة مع حاجتهم إليها؛ توكُّلا على الله، كالاكتواء والاسترِقاء. وأما مباشرة الأسباب والتداوي على وجه لا كراهة فيه، فغير قادح في التوكل، فلا يكون تركه مشروعا»[(١)].

قلتُ: وهذا الكلام إنَّما يراد به بعض ما تركوه لا جميعه؛ فإنَّ «التطيُّر» من جملة الأمور التي نصَّ عليها الحديث، وهو من المحرَّمات لا المكروهات.

○○○

مسألة: كثرة من يدخل الجنة من هذه الأمة:

جاء في الأحاديث ما يدلُّ على كثرة من يدخل الجنة من هذه الأمة مُقارنة بغيرها من الأمم، ومِن ذلك حديث أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الجَنَّةِ**»، فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: «**أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ**» فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: «**أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الجَنَّةِ**»،

---

(١) «حاشية كتاب التوحيد» لابن قاسم ص٤٦.

فكَبَّرْنَا، فقَالَ: «**مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ إِلَّا كَالشَّعَرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَبْيَضَ، أَوْ كَشَعَرَةٍ بَيْضَاءَ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَسْوَدَ**»(١).

وصحَّ كذلك عددٌ من الأحاديث التي تدلُّ على أنَّ الذين يدخلون الجنة بلا حساب يزيدون على سبعين ألفا(٢)؛ ومنها:

عن أبي أُمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**وَعَدَنِي رَبِّي أَنْ يُدْخِلَ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا لا حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلا عَذَابَ، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا وَثَلاثُ حَثَيَاتٍ مِنْ حَثَيَاتِهِ**»(٣).

وعن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أُعْطِيتُ سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وُجُوهُهُمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَقُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَاسْتَزَدْتُ رَبِّي - عَزَّ وَجَلَّ -، فَزَادَنِي مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ سَبْعِينَ أَلْفًا**»(٤).

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣٣٤٨) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٢٢).

(٢) تتبعها الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في «فتح الباري» (كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفا بغير حساب).

(٣) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٢٤٣٧)، وابن ماجه (٤٢٨٦)، وصححه الألباني.

(٤) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٢)، وأبو يعلى (١١٢)، وقال محققو «المسند» (١/٢٠٣): «إسناده ضعيف لجهالة الرجل الراوي عن أبي بكر، والمسعودي اختلط» اهـ. وله شاهد مرسل أخرجه الضياء المقدسي في «المختارة» (٣/٢٧٨)، وضعف الألباني سندَه في «الصحيحة» (١٤٨٤) لكنه صححه لشواهده، وذكر منها شاهدا واحدا، لكن بلفظ: «مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعِينَ أَلْفًا»! وساق شواهده جاسم الدوسري في «النهج السديد» ص٤٠.

فالحاصل أنهم سبعون ألفا مع كل ألف سبعون ألفا، فيصير العدد قرابة خمسة ملايين (٤٩٧٠٠٠٠)، وثلاث حثيات، الله أعلم بقدرها، جعلنا الله منهم بمنِّه وكرمه.

* * *

٣- باب الخوف من الشرك

وَقَولِ اللهِ - عزَّ وجَلَّ -: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] الآيَةَ.

وَقالَ الخَلِيلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۝٣٥﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وَفِي الحَدِيْثِ: «أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ: الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ»، فَسُئِلَ عَنْهُ، فقالَ: «الرِّيَاءُ»(١).

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ: «مَنْ مَاتَ وَهْوَ يَدْعُو للهِ نِدًّا دَخَلَ النَّارَ»(٢). رَواهُ البُخارِيُّ.

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ جابِرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ: «مَنْ لَقِيَ اللهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ»(٣).

ooo

---

(١) **حسن**: أخرجه أحمد في «المسند» (٣٨٤) وفي مواضع أخرى، والبيهقي في «الشعب» (٦٤١٢)، وحسَّنه الأرناؤوط.

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٤٤٩٧) وفي مواضع أخرى، واللفظ له، ومسلم (٩٢).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٩٣).

الشرح:

ذكر الشيخ في هذا الباب آيتين وثلاثة أحاديث.

والكلام عليه في ثلاثة فصول:

* * *

الفصل الأول: مقصود الباب، وموضوعه العام

لما ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الباب الأول منزلة التوحيد، ثم ذكر في الباب الثاني فضل التوحيد وما يكفِّر من الذنوب، ثم ذكر في الباب الثالث تحقيق التوحيد والأجر المترتب عليه، ناسب أن يذكر ضِدَّه وهو الشرك؛ لأجل أن يحذره المؤمن ويخافه على نفسه.

ومن لوازم تحقيق التوحيد: الخوفُ من الشرك بأنواعه؛ فهو أعظم شرٍّ يمكن أن يصيب إنسانا، وقد قال حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي»[1].

وقال سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَنْ أَمِنَ اللهَ عَلَى دِينِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ سَلَبَهُ إِيَّاهُ»[2].

وكما قال القائل:

عَرَفْتُ الشَّرَّ لا لِلشَّرِّ لَكِنْ لِتَوَقِّيهِ
وَمَنْ لَمْ يَعْرِفِ الشَّرَّ مِنَ النَاسِ، يقعْ فيهِ[3]

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣٦٠٦، و٧٠٨٤)، ومسلم (١٨٤٧).

(٢) «البدع» لابن وضاح (٢/ ٩٦).

(٣) ينظر: «يتيمة الدهر» لأبي منصور الثعالبي (١/ ٨٤).

ومن المفاهيم الخاطئة عند كثير من الناس استبعادُ الوقوع في الشرك، ولذا لو حدثته بهذا لانتفض، وقال: هل رأيتنا نطوف على قبر، أو نذبح للجن، أو نسجد لصنم؟! نحن موحدون، والحمد لله.

وكأنَّ الشرك محصور في هذه المسائل؟!

ألم يخبر النبي ﷺ بشدة خفاء الشرك؟!

ألم يخفْهُ على خير الناسِ؟!

ألم يَدْعُ الخليل إبراهيم ﷺ، وهو شيخ الموحدين، ربه أن يُجَنِّبَه عبادة الأصنام؟!

ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم؟!.

* * *

الفصل الثاني: المباحث الموضوعية

احتوى هذا الباب على عدد من المباحث التأصيلية المهمة في موضوع الشرك، وسنعرض فيما يلي - بإذن الله تعالى - لأهم تلك المباحث.

المبحث الأول: معنى الشرك لغة، واصطلاحا:

الشرك في اللُّغة[1]: الاقتران وعدم الانفراد، ومنه الشَّرِكة؛ لأنه اجتمع فيها أكثر من واحد. ومن ذلك قول موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ٣٢﴾ [طه: ٣٢]، أي: اجعله معي شريكا، فلا أكون منفردا بهذا الأمر.

وفي الاصطلاح: عُرِّف بتعريفات كثيرة متقاربة.

ويمكن أن يُقال: الشِّرك هو: أن يُجعَل للهِ ندٌّ فيما يجب له أو يختص به.

فالشرك اتخاذ النِّدِّ والشريك مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقد يقع باعتقاد القلب، أو بقول اللسان، أو بعمل الجوارح.

فمثال الاعتقاد: أن يعتقد أن مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلٰها يستحق العبادة، أو أن فلانا من الناس بيده الضر والنفع.

---

(١) ينظر: «الصحاح» (٤/١٥٩٣)، و«لسان العرب» (١٠/ ٤٤٨)، و«تاج العروس» (٢٧/٢٢٣).

ومثال القول: أن يحلف بغير الله، أو يدعو غيره.

ومثال الفعل: أن يسجد للقبر، أو يذبح للمخلوق.

ooo

المبحث الثاني: هل الأصل في الإنسان التوحيد أم الشرك؟

لا ريب أنَّ الأصل في الإنسان التوحيد، ويدل على ذلك قول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، وقوله جل وعلا: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ١٧٢﴾ [الأعراف: ١٧٢].

فاللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ خلق الخلقَ حنفاء موحدين في أصل فطرتهم، ثم عرضت لهم انحرافات أفسدت لهم هذا الأصل وحرفتهم إلى الشرك، ويدل على ذلك قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣]. قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين»(١).

---

(١) «تفسير الطبري» (٢٣/ ٦٣٩)، وصححه الألباني في «الصحيحة»، تحت حديث رقم: (٣٢٨٩).

فقد كان الناس على الهُدى والتوحيد، ثم اختلفوا وانحرفوا إلى الشرك، فبعث الله النبيين، وكان أول من بُعِث هو نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. وفي الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ**» ثم يقول أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ﴿**فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا**﴾[(١)].

وجاء في الحديث عن النبي ﷺ قال: «**وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ**»[(٢)].

وقوله ﷺ: «**اجْتَالَتْهُمْ**»: يعني استخفَّتهم؛ فصرفتهم عن دينهم.

فهذه الأدلة السابقة صريحة في تقرير هذا الأصل: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خلق العباد على الحنيفية، وهي: عبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده لا شريك له، وأن الشياطين صرفتهم عن ذلك، وأوقعتهم في الشرك. فلما اختلفوا بعث الله النبيين والرسل ليبينوا لهم الحق، ويدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

فهذا هو القول الفصل في هذه المسألة، ولا التفات إلى ما سواه من الآراء والنظريات التي تزعُم أن الأصل هو الوثنية والخرافة، وأن التوحيد مرحلة من مراحل التطور الديني. وقد تَبَنَّى ذلك بعض نظريات علمي النفس والاجتماع،

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

وهو ما يُعبَّر عنه بـ«المذهب الطبيعي» أو «المذهب الروحي» و«النظرية الفرويدية» المنسوبة إلى سيغموند فرويد، والتي تأثر بها بعض المفكرين الإسلاميين!

ooo

المبحث الثالث: أسباب وقوع الشرك في بني آدم، وكيف كان مبدؤه؟

أولا: أسباب الوقوع في الشِّرك:

إن المتأمل في تاريخ تلوُّث الفِطَر البشرية بالشرك وانحرافها عن التوحيد، ليجد أن هناك أسبابا واضحة أدت إلى الوقوع فيه، لعل من أهمها:

١- الغلو:

وقد أفرد له المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أكثر من باب[١]، وسيأتي تفصيل الحديث عنه هناك، إن شاء الله تعالى.

٢- الجهل بقَدْر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

ولهذا تكرر في القرآن قوله تعالى: ﴿**وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ**﴾ **[الأنعام: ٩١، والزمر: ٣٩]**؛ لأنَّ من قَدَر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حق قدره؛ لا يُتصور أن يجعلَ معه شريكا ونِدًّا.

---

(١) ينظر: «باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين»، و«باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانا تعبد من دون الله».

ولهذا - أيضا - يُذكَرُ الجهلُ في مقام التنفير من الشرك، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤].

٣- تعظيم القبور، والعُكوف عندها:

وقد أفرد المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لهذه المسألة أكثر من باب - أيضا -، وسيأتي تفصيل الحديث عنها في مواضعها، إن شاء الله تعالى(١).

٤- التقليد:

ويُراد به التقليد المذموم؛ وهو: قبول قول الغير، من غير حجة.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا السبب، في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، وقوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [القصص: ٣٦].

وقال قوم صالح له: ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [هود: ٦٢].

وقال قوم إبراهيم له: ﴿بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٤].

---

(١) ينظر: «باب ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح»، و«باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانا تعبد من دون الله».

وقال مشركو العرب لمحمد ﷺ لما دعاهم لكلمة التوحيد: ﴿**مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧**﴾ [ص: ٧].

فهذه الآيات – وما في معناها – تدلُّ على أثر تقليد الآباء والقُدَماء في ترك التوحيد، والبقاء على التنديد.

وفي قصة أبي طالب عم النبي ﷺ لما حضرته الوفاة، فأتاه النبي ﷺ وعرض عليه كلمة التوحيد: «يا عم قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله»، لكن رفقاء السوء: أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية – قبل أن يُسلم –، ثبَّطاه وكانا يلقنانِه: أترغب عن ملة عبدالمطلب؟![1].

عظَّما الأمر عليه، هذا شيء كان عليه أبوك، كيف ترغب عنه؟! سِر على ما سار عليه، ومُت على ما مات عليه. ولم يزل في تلك الساعة العصيبة يتوارد عليه الحق والباطل، حتى مات على ملة عبد المطلب!.

وقد كان في قرارة نفسه يقر بصدق النبي ﷺ وهو القائل:

وعَرَضتَ دِيناً قَد عَرَفْتُ بأنَّهُ ... من خيرِ أَدْيانِ البَرِيَّةِ دِيْناً

لولا المَلامَةُ أو حِذارُ مَسَبَّةٍ ... لَوَجَدتَّني سَمْحًا بذاك مُبِينًا[2]

(١) ينظر: صحيح البخاري (٤٧٧٢) وأطرافه، وصحيح مسلم (٢٤).

(٢) ينظر: «سيرة ابن إسحاق» ص١٥٥.

٥- **التصوير:**

وقد أفرد له الشيخُ بابا خاصا في أواخر الكتاب.

ثانيا: مبدأ الشِّرك:

أول شرك وقع في تاريخ البشرية كان سببُه الغلوَ والتصوير، كما جاء في صحيح البخاري عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في تفسير قوله تعالى: ﴿**وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾**﴾ [نوح: ٢٣]، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ: أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ العِلْمُ، عُبِدَتْ»(١).

وقال محمد بن قيس: «كَانُوا قَوْمًا صَالِحَيْنَ مِنْ بَنَى آدَمَ، وَكَانَ لَهُمْ أَتْبَاعٌ يَقْتَدُونَ بِهِمْ، فَلَمَّا مَاتُوا قَالَ أَصْحَابُهُمُ الَّذِينَ كَانُوا يَقْتَدُونَ بِهِمْ: لَوْ صَوَّرْنَاهُمْ كَانَ أَشْوَقَ لَنَا إِلَى الْعِبَادَةِ إِذَا ذَكَرْنَاهُمْ، فَصَوَّرُوهُمْ. فَلَمَّا مَاتُوا، وَجَاءَ آخَرُونَ دَبَّ إِلَيْهِمْ إِبْلِيسُ، فَقَالَ: إِنَّمَا كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ، وَبِهِمْ يُسْقَوْنَ الْمَطَرَ؛ فَعَبَدُوهُمْ»(٢).

---

(١) سيأتي تخريجه، بإذن الله – تعالى –.

(٢) «تفسير الطبري» (٢٣/ ٦٣٩).

فهذا تاريخ بدء الشرك في البشرية، كان بسبب التصوير والغُلو، وكان الباعثُ الأول: تذكُّرَهم والنشاطَ للعبادة عند رؤية صُوَرِهم، فانظر إلى مكر الشيطان وخطواته! ثم جاء الجيل الذي يليه فوقعوا في عبادتهم.

وهذا يفيد طالب العلم: أن يكون حارسا أمينا على حمى التوحيد وأسواره، لا ينخدع بزُخرف قول شياطين الإنس، ولا بوسوسة شياطين الجن في تهوين هذه المداخل والوسائل، وكما قيل: الدفع أهون من الرَّفْع.

ثم استمر الشرك بعد قوم نوح في عاد وثمود، وأقوام إبراهيم ولوط ويوسف وشعيب وموسى وعيسى، وكان الله - عز وجل - يبعث في هذه الأمم رسُلا يدعون أقوامهم، ولهذا حين نقرأ القرآن ونتدبره نجد أن دعوة الأنبياء واحدة، كل نبي يقول: ﴿**يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ**﴾ [الأعراف: ٥٩] ومواضع أخرى.

أمَّا العرب: فكانوا قبل البعثة المحمدية على الحنيفِيَّة ملة إبراهيم ﷺ، فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كَانَ النَّاسُ بَعْدَ إِسْمَاعِيلَ عَلَى الإِسْلامِ ، فَكَانَ الشَّيْطَانُ يُحَدِّثُ النَّاسَ بِالشَّيْءِ، يُرِيدُ أَنْ يَرُدَّهُمْ عَنِ الإِسْلامِ، حَتَّى أَدْخَلَ عَلَيْهِمْ فِي التَّلْبِيَة: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، إلاَّ شَرِيكٌ هُوَ لَكَ تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ! قَالَ: فَمَا زَالَ حَتَّى أَخْرَجَهُمْ عَنِ الإِسْلامِ إِلَى الشِّرْكِ»(١).

---

(١) «مسند البزار» (٧١٨٨).

وكان أول من غيَّر دين إبراهيم: عمرو بن لحي الخُزاعي؛ وجد الأصنام التي كانت تُعْبَد زمنَ نوح وإدريس، وهي وَدٌّ وسُواع ويَغُوث ويَعُوق ونَسْر، فحملها إلى مكة ودعا إلى عبادتها، فانتشرت بسبب ذلك عبادة الأصنام في العرب. وقد أخبر النبيُّ ﷺ أنه رآه يجر أمعاءه في النار[1].

وكان من العرب من يعبد الجن، كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ**﴾ [الأنعام: ١٠٠]، وقوله: ﴿**بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ**﴾ [سبأ: ٤١].

ومن عجائبهم ما ذكر أبو رجاء العُطاردي في قوله: «كُنَّا نَعْبُدُ الحَجَرَ، فَإِذَا وَجَدْنَا حَجَرًا هُوَ أَخْيَرُ مِنْهُ أَلْقَيْنَاهُ، وَأَخَذْنَا الآخَرَ، فَإِذَا لَمْ نَجِدْ حَجَرًا جَمَعْنَا جُثْوَةً مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ جِئْنَا بِالشَّاةِ فَحَلَبْنَاهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُفْنَا بِهِ»[2].

ooo

المبحث الرابع: وقوع الشرك في هذه الأمة:

أنكر البعضُ إمكان وقوع هذه الأمة في الشرك بعد أن هداها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلى الإسلام، والحق أنَّ وقوع الشرك في الأمة أمر دلت عليه النصوص الشرعية،

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (كتاب المناقب، باب قصة خزاعة)، و«صحيح مسلم» (٢٨٥٦). وينظر، أيضا: «كتاب الأصنام» للكلبي. و«المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام» لجواد علي؛ فقد توسع في هذه المسألة.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٣٧٦).

وسيأتي - إن شاء الله تعالى - بيانُه بأدلته مصحوبا بالجواب عن الشبهات حوله في باب «ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان».

ooo

المبحث الخامس: خطر الشرك، وضرورة الخوف منه:

وهذا المبحث موافق لترجمة الباب «باب الخوف من الشرك». ولا ريب في أنَّ الشِّرك أعظم خطر يمكن أن يعرِض للمسلم. ومما يشهد لذلك:

أولا: أن الشرك هو الذنب الذي لا يغفره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أبدا، إلا بالتوبة منه:

وقد دلَّ على ذلك قولُه تعالى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ**﴾ [النساء: ٤٨]، ونحوها.

ثانيا: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حرَّم الجنة على المشرك، وجعل مأواه النار:

قال الله - تعالى -، حاكيا قول عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿**إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ**﴾ [المائدة: ٧٢].

ثالثا: أن عمل المشرك حابط، لا ينتفع به:

ويشهد لذلك قول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا**﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿**وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ**﴾ [الأنعام: ٨٨].

رابعا: أن الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ خاف الشرك على نفسه، فمن دونه أولى:

قال الخليل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في دعائه: ﴿**وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾**﴾ [إبراهيم:٣٥]. يقول هذا وهو خليل الرحمن، ومَن حطَّم الأصنام بيده، وأفضل الرسل بعد محمد ﷺ!.

خامسا: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وصف الشرك وأهله بالنجاسة:

قال تعالى: ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ**﴾ [التوبة:٢٨]، وهي نجاسة معنوية، كما هو مقرَّر في كتب التفسير والفقه.

سادسا: أنه أخوف ما خافه الرسول ﷺ علينا:

فعن محمود بن لبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ**»(١). فهذا الحديث يدل على أن الشرك الأصغر أخوف المخوفات، وهذا يدعو المؤمن للخوف والحذر منه، ومن الشرك الأكبر من باب أولى.

سابعا: أن الشرك مُذهِب للأمن، جالب للخوف والفزع:

قال الله – تعالى –: ﴿**ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾**﴾ [الأنعام:٨٢]. وقد سبق الكلام على معنى الآية في «باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب».

ooo

(١) تقدَّم تخريجه.

المبحث السادس: أقسام الشرك:

يُقَسَّم الشرك بعدة اعتبارات؛ أشهرها اعتباران:

- **الأول: تقسيمه باعتبار نوعه وأثره إلى شرك أكبر وأصغر:**

ويندرج تحت كلِّ قسم من هذين نوعان:

فالقسم الأول (الشرك الأكبر) ينقسم إلى:

١- **شرك أكبر جَلِي**: مثل السجود للأصنام.

٢- **شرك أكبر خَفِي**: ومثاله عقائد المنافقين الذين يظهرون الإسلام، ويبطنون الشرك، وما يسمِّيه العلماء بـ«خوف السر»، وسيأتي الكلام عليه في بابه، إن شاء الله تعالى.

والقسم الثاني (الشرك الأصغر) ينقسم إلى:

١- **شرك أصغر جَلِي**: كالحلف بغير الله.

٢- **شرك أصغر خَفِي**: كالرِّياء.

- **والاعتبار الثاني: تقسيم الشرك باعتبار أنواع التوحيد:**

وينقسم بهذا الاعتبار إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الشرك في الألوهية: وهو الشرك في العِبادة، بصرف نوع من أنواعها لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ كالدعاء والسجود والذبح وغيرها.

القسم الثاني: الشرك في الربوبية: وهو جعل شريك لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في أفعاله؛ كالخلق والرزق والتدبير. كحال النَّمرود الذي قال: «أَنَا أُحْيِي وَأُمِيْتُ»(١)، وحال من يعتقد أنَّ أحدًا من المخلوقين يؤثر في حركة الأجسام العُلوية، أو أنَّ بيده الضر والنفع، وحال كثير من الرافضة الذين يعتقدون في الأئمة علم الغيب! فهذا كلُّه شرك في الربوبية.

القسم الثالث: الشرك في الأسماء والصفات: وهو اعتقاد مثيل لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فيما يختص به من الأسماء والصفات. كحال من يعتقد في الأولياء القدرة على السمع على القرب والبُعدِ، وحال من شبَّه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بخلقه، فقال: يد الله كيد فلان، أو سمعه كسمع كذا وكذا.

وكذا تسمية الآلهة الباطلة بأسماء الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، كتسمية المشركين آلهتهم بأسماء مشتقة من أسماء الله - تعالى -، قال تعالى:﴿ **وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ١٨٠** ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وجاء عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أن إلحادهم في أسمائه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أنهم سمَّوا بها أوثانهم، وزادوا فيها ونقصوا منها، فاشتقوا اللات من الله، والعزَّى من العزيز، ومناة من المنَّان(٢).

ooo

(١) ينظر تفسير الآية الثامنة والخمسين بعد المئتين، من سورة البقرة.

(٢) ينظر: «زاد المسير» (٣/ ٦١).

المبحث السابع: متى يُسمَّى الفعل شركا[1]؟

يُوصف الفعل بأنَّه «شرك» إذا تحقَّق فيه أحد الضوابط التالية:

الضابط الأول: تسمية الشرع له بأنه شِّرك:

فكل ما سماه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أو رسوله ﷺ شركا - من قولٍ أو فعل أو اعتقاد -، فهو شرك.

الضابط الثاني: أن يكون فيه تشبيه للمخلوق بالخالق، فيما هو من خصائص الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المشرِك مشبه للمخلوق بالخالق في خصائص الإلٰهية؛ فإن من خصائص الإلٰهية: التفرد بملك الضر والنفع والعطاء والمنع، وذلك يوجب تعليق الدعاء والخوف والرجاء والتوكل به وحده، فمن علَّق ذلك بمخلوق فقد شبَّهه بالخالق»[2].

الضابط الثالث: صرف شيء من العبادات؛ تقربا لغير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ:

فمن صرف شيئا من العِبادة لغير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فقد وقع في الشرك، لا ريب في ذلك. وهذا لُبُّ هذا الكتاب وموضوعُه الرئيس.

---

(١) ينظر: «الشرك بالله» لماجد شبالة ص٢٥٧.

(٢) «الداء والدواء» ص١٣٦.

الضابط الرابع: إثبات وسائط بين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وبين خلقه:

فمن جعل بين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وبين عباده وسائطَ تُرفع إليهم الحوائج، فقد وقع في الشرك الصريح الذي كان عليه أهل الجاهلية الأولى، ولو ادَّعى أنَّه ما فعل ذلك إلا ليكونوا شفعاء له عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وسيأتي شرح هذه الضوابط بأدلتها وأمثلتها خلال شرح أبواب الكتاب، إن شاء الله تعالى.

* * *

الفصل الثالث: التعليق على النصوص، وربطها بالباب

النص الأول: قول الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

ومناسبة الآية للباب واضحة؛ لأنَّه إذا كان الشِّرك لا يغفره الله - سبحانه -؛ فهذا مما يوجب الخوف والحذر منه.

ooo

النَّص الثاني: قال الخليل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

ومناسبة الآية للباب: أنَّه إذا كان الخليل ﷺ إمامُ الحنفاء، وشيخُ الموحدين، الذي جعله الله أمة وحده، واصطفاه بخُلَّتِه، وكسَّر الأصنام بيده، يخاف أن يقع في الشرك، فكيف بمن هو دونه بمراتب؟!.

قال إبراهيم التيمي: «ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم»(١).

وذكر الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ في سورة الأنعام ثمانيةَ عشَرَ نبيا، ثم قال سبحانه: ﴿وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٨٨﴾ [الأنعام: ٨٨].

(١) «الوسيط في تفسير القرآن المجيد»، للواحدي (٣/ ٣٣).

فائدة:

يتعلَّق بقوله تعالى: ﴿**وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ**﴾: بيانُ معنى الصنم، والفرق بينه وبين الوثن. **فالصَّنم**: ما كان مُصَوَّرا على أي صورة. **والوثن**: ما عُبِد من دون الله على أي شكل كان، كالشجر والحجر.

والصنم قد يسمى وثنا، كما قال الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿**إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا**﴾ [العنكبوت:١٧].كما أن القبور تسمَّى أوثانا، وفي الحديث: «**اللهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا**»[١]، فالوثن أعم.

ooo

النَّص الثالث: حديث: «**أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ: الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ**»، فسُئِلَ عنه، فقال: «**الرِّياءُ**»[٢].

إذا كان النبي ﷺ يخاف هذا الشرك على أصحابه الذين هم أفضل القرون عِلما وعملا، فكيف بمن بعدهم؟! لا شك أن هذا يوجب شِدَّة الخوف من الوقوع في هذا الشرك، فضلا عن ما هو أعظم منه.

وقد أفرد المؤلف للرياء بابا خاصا.

ooo

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد في المسند (٧٣٥٨)، وأبو يعلى (٦٦٨١) بلفظ: «**لَا تَجْعَلُنَّ قَبْرِي وَثَنًا**»، وقال الأرناؤوط: إسناده قوي. وأصله في الصحيحين بدون موضع الشاهد.

(٢) تقدَّم تخريجه.

النص الرابع: عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ مَاتَ وَهْوَ يَدْعُو لِلَّهِ نِدًّا دَخَلَ النَّارَ**»[(١)].

النِّدُّ: المِثل والشبيه. وقوله ﷺ: «**يَدْعُو**»: يشمل دعاء العبادة والمسألة، وسيأتي - بإذن الله تعالى - بيان المقصود بهما.

ولا ريب أنَّ كل مسلم - بل كل عاقل - يرجو النجاة والفِكاك مِن النار، فمن أيقن في قول النبي ﷺ هذا خاف وتباعد عن أسباب دخولها، التي أعظمها الإشراك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

○○○

النص الخامس: عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ لَقِيَ اللهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ**»[(٢)].

فيه الحكم بدخول النار لمن مات مشركا.

وقوله ﷺ: «**شَيْئًا**»: نكرة في سياق الشرط، فتعُمُّ.

لكن هل يلزم من دخول المشرك النار أن يخلد فيها؟

---

(١) تقدَّم تخريجه.

(٢) تقدَّم تخريجه.

الجواب: هذا بحسب نوع الشِّرك؛ فقد دلَّت النصوص على أنَّ الشرك إن كان أصغرَ، لم يلزم منه خلود صاحبه في النار. وإن كان شركا أكبر، لزم منه الخلود في النار، عياذا بالله تعالى.

ومن مات غير مشرك فدخوله الجنة مقطوع به. وإن كان مذنبا فهو تحت المشيئة، إن شاء الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ عفا عنه فدخل الجنة بغير عذاب، وإن شاء عذَّبه، ثم يكون مآله إلى الجنَّة.

قال الشيخ ابن قاسم: «واقتصر على نفي الشرك لاستدعائه التوحيد بالاقتضاء، واستدعائه إثبات الرسالة باللزوم، فالمراد: من مات حال كونه مؤمنا بجميع ما يجب الإيمان به إجمالا في الإجمالي، وتفصيلا في التفصيلي»[١].

❋ ❋ ❋

(١) «حاشية كتاب التوحيد» ص٥٣.

٤- باب
الدّعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله

وَقَوْلِ اللهِ - تَعالى -: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف:١٠٨].

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ، قَالَ لَهُ: «**إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ** - وَفِي رِوَايَةٍ: «**إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ**» -، **فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ**»(١). أَخْرَجَاهُ.

وَلَهُمَا عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ: «**لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ**»، فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ، أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا؟! فَلَمَّا أَصْبَحُوا، غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا، فَقَالَ: «**أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟**»،

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (١٤٩٦) وفي مواضع أخرى، ومسلم (١٩).

فَقِيلَ: هُوَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ. فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ، فَأُتِيَ بِهِ، فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ، وَدَعَا لَهُ، فَبَرَأَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ، فَقَالَ: «**انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ، حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ - تَعَالَى - فِيهِ. فَوَاللَّهِ، لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ**»(١).

«**يَدُوكُونَ**»، أَيْ: يَخُوضُونَ.

ooo

الشرح:

ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب آية وحديثين.

والكلام على هذا الباب في ثلاثة فصول:

* * *

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣٠٠٩) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٤٠٦).

الفصل الأول: مقصود الباب، وموضوعه العام

لما ذكر المصنِّفُ التوحيدَ وفضله وتحقيقه، وما يوجب الخوف من ضده، نَبَّه بهذه الترجمة على أنه لا ينبغي لمن عرَف ذلك أن يقتصر على نفسه، فإن الرجل إذا علم وجب عليه العملُ، فإذا عَلِم وعمِل وجبت عليه الدعوةُ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، حتى يكون من ورثة الأنبياء وعلى طريقهم وطريق أتباعهم.

والدعوة إلى الله هي: الدعوة إلى توحيده والإيمان به وبما جاءت به رُسُله.

وأول ما يُبدأ به: الدعوة إلى التوحيد الذي هو معنى الشهادة، كما كان شأن المرسلين وأتباعهم. وكل واحد من الأمة يجب عليه أن يقوم من الدعوة بما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره(١).

و«لا إله إلا الله» هي كلمة التوحيد؛ فـ«الدُّعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله»، معناه: الدُّعاء إلى التوحيد.

* * *

(١) سيأتي من الأدلة ما يُبيِّن هذا ويؤكِّده، بإذن الله - تعالى -.

الفصل الثاني: المباحث الموضوعية

المبحث الأول: أهمية الدعوة إلى التوحيد، وأولويته:

النصوص في فضل الدعوة والحث عليها كثيرة مشهورة، كقوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقوله سبحانه: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فصلت: ٣٣].

- **ومما يدُلُّ على أهمية الدعوة إلى التوحيد، وأولويَّتِه: اتفاقُ الأنبياء على البدء بالدعوة إلى التوحيد:**

فقد كان الناس أمة واحدة على التوحيد، متفقين على الإيمان بالله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عشرةَ قرون، حتى وقع الشرك الأول في قوم نوح. قال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وأخرج الطبري عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا: «كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين»(١).

---

(١) تقدم تخريجه.

وهكذا سار الرُّسُل بعد نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يدعون إلى التوحيد:

قال تعالى: ﴿**وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ**﴾ [هود: ٥٠]، وقال: ﴿**وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ**﴾ [هود: ٦١]، وقال: ﴿**وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ**﴾ [الشعراء: ٦٩-٧٠]، الآيات، وقال - جلَّ ذكره -: ﴿**وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ**﴾ [هود: ٨٤].

ونبيُّنا صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكث عشر سنين، كلُّها في الدعوة إلى التوحيد، والنهي عن ضده، وهو الشرك. فلمَّا كثُرت التشريعات بعد ذلك لم تشغله الدعوة إليها عن دعوته صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى التوحيد، وبقِي على ذلك إلى أن لقِي ربَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وفي حديث أبي سفيان بن حرب مع هرقل أنه سأله: «**مَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟ قُلْتُ: يَقُولُ: اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**»(١).

وعن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ بِالسَّيْفِ؛ حَتَّى يُعْبَدَ اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ**»(٢).

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٧) وفي مواضع كثيرة، ومسلم (١٧٧٣).

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود مختصرا (٤٠٣١)، وأحمد (٥١١٥) واللفظ له، وصححه الألباني وأحمد شاكر.

وعن ربيعة بن عِباد الدِّيَلِيِّ - وكان جاهليا فأسلم- قال: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَصَرَ عَيْنِي بِسُوقِ ذِي الْمَجَازِ، يَقُولُ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) تُفْلِحُوا ...**»(١).

وبوَّب البخاري في صحيحه في كتاب التوحيد: «باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله - تعالى -».

وهكذا دعوة الأنبياء جميعا إلى توحيد الله - تعالى -، وإفرادِه بالعبادة، كما قال ﷺ: «**الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ**»(٢).

والإخوة لعَلَّات هم الإخوة لأب؛ أبوهم واحد وأمهاتهم متعددات، وهكذا الأنبياء أصل دعوتهم واحد، وهو الدعوة إلى توحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بينما شرائعهم مختلفة، ﴿**لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا**﴾ [المائدة: ٤٨].

ooo

المبحث الثاني: كيفية الدعوة (مراتب الدعوة):

دلَّت الآية الأولى التي ساقها المؤلف (وهي قوله تعالى: ﴿**قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ**﴾ [يوسف: ١٠٨]) على أن الدعوة إلى الله - تعالى - لا بد أن تكون على بصيرة.

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد في «المسند» (١٦٠٢٣) وفي مواضع أخرى، والطبراني في «الكبير» (٤٥٨٢)، وصححه الأرناؤوط.

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣٤٤٣) واللفظ له، ومسلم (٢٣٦٥).

- **والبصيرة تتعلق بثلاثة أمور:**

أولا: البصيرة بما يدعو إليه:

وهذه تعني العلم بما يدعو إليه؛ إذ لا يصح أن يدعو المرء إلى شيء يجهله.

ثانيا: البصيرة بحال المدعوين:

ومن شواهد هذا: أنَّ النبي ﷺ لمَّا بعث مُعاذا إلى اليمن، قال له: «**إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ** ...»؛ فنبَّهَهُ على حالهم، وأن عندهم كتابا وأثارة من علم، وليسوا كأعراب الحجاز؛ ليخاطبهم بما يناسب حالهم.

ثالثا: البصيرة بكيفية الدعوة:

وهذا يختلف باختلاف الأزمان والأماكن والأشخاص. فبعض الناس يناسبه الدعوة الفردية، وبعضهم يلائمه الوعظ، وآخر يحتاج إلى النقاش العقلي، وهكذا.

والحاصل أنه لا بُد من مراعاة هذه الأمور الثلاثة، وألَّا يدفعنا الحماس والعواطف إلى تقحُّم جبهات لا نملك سلاحها؛ كمقارعة أهل البدع والانحرافات الفكرية عبر وسائل الإعلام أو الإنترنت، دون التأهل الكافي لذلك الميدان من جهة العلم والبيان.

وأورد ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ قولَه تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥]، ثم قال: «ذكر سبحانه مراتب الدعوة، وجعلها ثلاثة أقسام بحسب حال المدعو؛ فإنه:

إما أن يكون طالبا للحق راغبا فيه محبا له مُؤْثِرا له على غيره إذا عرفه: فهذا يُدعى بالحكمة، ولا يحتاج إلى موعظة ولا جدال.

وإما أن يكون مُعرِضا مشتغلا بضد الحق، ولكن لو عرفه آثره واتبعه: فهذا يحتاج مع الحكمة إلى الموعظة بالترغيب والترهيب.

وإما أن يكون مُعانِدا معارضا: فهذا يُجادَل بالتي هي أحسن، فإن رجع إلى الحق، وإلا انتُقِل معه من الجدال إلى الجِلَاد، إن أمكن. فلِمُناظرة المُبْطِل فائدتان:

أحدهما: أن يُردَّ عن باطله، ويرجع إلى الحق.

الثانية: أن ينكف شرُّه وعداوته، ويتبين للناس أن الذي معه باطل»[1].

* * *

(١) «الصواعق المرسلة» (٤/ ١٢٧٦).

الفصل الثالث: التعليق على النصوص، وربطها بالباب

ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب ثلاثة نصوص: آية، وحديثين.

النص الأول: قول الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨].

وقوله - سبحانه -: ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾: فيه الإشارة إلى الإخلاص، وقوله: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾: فيه إشارة إلى العلم، فجمعت الآية أهم ما يجب توفُّره في الداعية: الإخلاص، والعلم. وبيَّنت أن طريقة النبي ﷺ ومنهجه: الدعوة إلى الله على بصيرة. وبالنظر في سيرته وسنته نجد أنه ﷺ كان يعتني بالتوحيد ويُقدِّمه على غيره.

ooo

النص الثاني: حديث ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ، قَالَ لَهُ: «**إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ - وَفِي رِوَايَةٍ: «إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ» -، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ**

أَغْنِيَائِهِمْ فَتَرُدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ»[1].

وقوله ﷺ: «**فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ شَهَادَةُ ...**»: اللام في «**فَلْيَكُنْ**» للأمر، وهي تفيد الوجوب. وفيه النص على الأوَّلِيَّة، والتقديم على غيره. وفي اللفظ الآخر: «**فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ**».

وهذا خاصٌّ بغير المسلمين ومن وقعوا في شِرك أو عندهم خلل فيه؛ فيُبدأ معهم بالتَّوحيد. أمَّا إذا ذهب الإنسان إلى أُناس مسلمين مُوحِّدين ليس عندهم من مظاهر الشرك شيء، فلا بأس أن يَبدأ بما يحتاجونه من أمور العبادات والمعاملات والأخلاق وما إلى ذلك، مع التَّذكير بين الفَيْنَة والأخرى بقضايا ومسائل التَّوحيد.

ooo

النص الثالث: حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ: «**لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ**»، فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ، أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا؟! فَلَمَّا أَصْبَحُوا، غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا، فَقَالَ: «**أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟**»، فَقِيلَ: هُوَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ. فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ، فَأُتِيَ بِهِ، فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ، وَدَعَا لَهُ، فَبَرَأَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ، فَقَالَ: «**انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ، حَتَّى تَنْزِلَ**

---

(١) تقدم تخريجه.

بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ - تَعَالَى - فِيهِ. فَوَاللَّهِ، لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ»[١].

قوله ﷺ: «**ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ**»: فيه البدء بالدعوة إلى التوحيد؛ لأنَّ الدعوة إلى الإسلام دعوة إلى التوحيد؛ إذ الإسلام هو: الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة والبراءة من الشرك وأهله.

وقوله ﷺ: «**وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ - تَعَالَى - فِيهِ**»، أي: في الإسلام. وأعظم حق لله - تعالى - في الإسلام: توحيده جل وعلا.

وقد سبق في أول الكتاب الكلامُ على حديث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**»[٢].

وقوله: «**كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا**»: فيه حرصُ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على الخير، واهتمامهم به، وعُلُوُّ مرتبتهم في العلم والإيمان، فينبغي الاقتداء بهم في التنافس في الخير، وعلو الهمة في طلبه.

وفي رواية لمسلم[٣]: أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**مَا أَحْبَبْتُ الْإِمَارَةَ إِلَّا يَوْمَئِذٍ**».

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجها مسلم في صحيحه، حديث رقم (٢٤٠٥).

وقوله ﷺ: «**حُمْرِ النَّعَمِ**»: بضم الحاء وسكون الميم، جمع أحمر. وهذه من أنفَس الإبل وأغلاها.

ومن فوائد الحديث: أنه يَبْعَث في نفس المسلم الحرص على أن يكون سببا في هداية الخلق، وهذا لا يكون بالأماني والكسل، وإنما بالجد والاجتهاد في طلب العلم، وفي نشره، ودعوة الناس إلى الخير والهُدى.

* * *

٥- باب
تفسير التوحيد، وشهادة أن لا إله إلا الله

وَقولِ اللهِ - تَعالى -: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧] الآيَةَ.

وَقولِهِ: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ [الزخرف: ٢٦- ٢٧] الآيَةَ.

وَقولِهِ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] الآيَةَ.

وَقولِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] الآيَةَ.

وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ قَالَ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مَنْ دُونِ اللهِ، حَرُمَ مَالُهُ، وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ -»[١].

○○○

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٣)، من حديث طارق بن أشيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الشرح:

ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب أربع آيات وحديثا.

والكلام على هذا الباب في ثلاثة فصول:

* * *

الفصل الأول: مقصود الباب، وموضوعه العام

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**باب تفسير التوحيد**»: المراد بالتوحيد - هنا -: توحيد العبادة، وهو معنى شهادة أن لا إله إلا الله.

وقوله: «**تفسير التوحيد، وشهادة أنَّ لا إله إلا الله**»: قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العطف هنا من باب عطف المترادفين؛ لأن التوحيد - حقيقة - هو شهادة أن لا إله إلا الله»(١).

وقال الشيخ صالح الفوزان: «لما ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الأبواب السابقة التوحيدَ وفضائله والدعوة إليه، والخوف من ضده الذي هو الشرك، بيَّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب معناه؛ لأن بعض الناس يخطِئ في فهم معناه، فيظن أنَّ معناه الإقرار بتوحيد الربوبية فقط، وهذا ليس هو المراد بالتوحيد، وإنما المراد به: ما دلت عليه النصوص التي ساق المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ طَرَفا منها في هذا الباب، مِن أنه إفراد الله بالعبادة، والخلوص من الشرك»(٢).

ومن تمام البصيرة في الدعوة: أن تفقَه التوحيد، وتفهم حقيقته قبل أن تدعو إليه؛ لتكون الأمور واضحة، فتنطلِق - على بركة الله - في ميدان الدعوة.

ولذا لو قُدِّم هذا الباب على الذي قبله لكان أنسب فيما يظهر.

* * *

---

(١) «القول المفيد» (١/١٤٣).

(٢) «الملخص» ص٦١.

الفصل الثاني: المباحث الموضوعية

هذا الباب يتكون من شقين:

الأول: التوحيد. وسبق الكلام عليه.

الثاني: شهادة أن لا إله إلا الله. وسيكون الكلام عليها - إن شاء الله - في المباحث الآتية:

المبحث الأول: معنى كلمة التوحيد (لا إله إلا الله):

معناها: لا معبود بحق إلا الله.

ف«**لا**»: نافية للجنس تعمل عمل «إنَّ»، واسمها: «إله»، والخبر مقدَّر، تقديره: «حقٌّ»، ولا يصح تقديره بـ«موجود»؛ لأنه يوجد آلهة غير الله تُعبد، لكنها باطلة. قال تعالى: ﴿**ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ**﴾ [الحج: ٦٢].

وقد كان كفار قريش مُقِرِّين بتوحيد الربوبية في الجملة - كما سبق بيانه -، وإنما كانت الخصومة معهم في توحيد العبادة، ﴿**وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ**﴾ [ص: ٤ - ٥].

ooo

المبحث الثاني: أركان كلمة التوحيد:

لكلمة التوحيد ركنان تقوم عليهما:

الأول: النفي، وهو في قولنا: «لا إله».

الثاني: الإثبات، وهو في قولنا: «إلا الله».

وهذا الأسلوب يسمى أسلوب القَصر، وهو من أقوى الأساليب في تقرير الكلام، ودَفْع ما قد يقع في نفس السامع من إنكار وشك.

ooo

المبحث الثالث: فضل كلمة التوحيد:

هذه الكلمة كلمة عظيمة جليلة، قد تكاثرت فضائلها وعظُمت. ومن ذلك(١):

أولا: هي العروة الوثقى: التي جاء ذكرها في قوله - تعالى -: ﴿**فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة: ٢٥٦](٢).

ثانيا: هي كلمة الحق: المُشار إليها في قوله - تعالى -: ﴿**إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ [الزخرف: ٨٦](٣).

---

(١) ينظر: كُتيب «لا إله إلا الله» للشيخ محمد الحمد.

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٥/ ٤٢١)، و«الدعاء» للطبراني (١٥٦٥).

(٣) ينظر: «زاد المسير» لابن الجوزي (٤/ ٨٦)، وتفسير القرطبي (١٦/ ١٢٢).

ثالثا: هي كلمة التقوى: التي ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في قوله: ﴿**وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا**﴾ [الفتح: ٢٦](١).

رابعا: هي القول الثابت: الذي ذُكِر في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ**﴾ [إبراهيم: ٢٧](٢).

خامسا: هي الكلمة الطيبة: المضروبةُ مثلا في قوله - تعالى -: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ**﴾ [إبراهيم: ٢٤](٣).

سادسا: هي سبب الفوز بالجنة، والنجاة من النار: ورد في ذلك أحاديث سبق طرف منها في «باب فضل التوحيد».

سابعا: هي الغاية من خلق الجن والإنس: كما دلَّ عليه قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات: ٥٦].

ثامنا: هي أول واجب على المكلف: لقوله ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ...**»(٤).

---

(١) ينظر: سنن الترمذي (٣٢٦٥)، ومسند أحمد (٢١٢٥٥).

(٢) ينظر: صحيح البخاري (٤٦٩٩)، ومسلم (٢٨٧١).

(٣) ينظر: تفسير الطبري (١٦/ ٥٦٧)، و«الدعاء» للطبراني (١٥٩٨، و١٥٩٩)، وغيرها كثير.

(٤) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

تاسعا: هي الغاية التي لأجلها أُرسلت الرُّسُل، وأُنزِلت الكتب. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

عاشرا: هي أفضل الحسنات: كما جاء عن أبي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ أنَّه قال: قُلْتُ: يا رَسُولَ اللهِ، أَوْصِنِي. قالَ: «**إِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً فَأَتْبِعْهَا حَسَنَةً تَمْحُهَا**». قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَمِنَ الْحَسَنَاتِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؟ قَالَ: «**هِيَ أَفْضَلُ الْحَسَنَاتِ**»(١).

حادي عشر: هي أفضل الذكر: كما جاء في حديث جابر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**أَفْضَلُ الذِّكْرِ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الحَمْدُ لِلَّهِ**»(٢).

ثاني عشر: هي أعلى شُعَب الإيمان: لما ورد في الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**الإيمانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ - أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً -؛ فَأَفْضَلُها قَوْلُ «لا إلهَ إِلَّا اللهُ»، وَأَدْناها إماطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، والحَياءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإيمانِ**»(٣).

---

(١) **حسن لغيره:** أخرجه أحمد في «المسند» (٢١٤٨٧)، والطبراني في «الدعاء» (١٥٠٠)، وقال الأرناؤوط: حسن لغيره.

(٢) **حسن:** أخرجه الترمذي (٣٣٨٣)، وابن ماجه (٣٨٠٠)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٥٩٩)، وحسنه الألباني والأرناؤوط.

(٣) **متفق عليه:** أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥) واللفظ له.

ثالث عشر: هي السبب الأعظم لتفريج كُرُبات الدنيا والآخرة: ولمَّا وقع نبيُّ الله يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ في الكرب، فأُلقِي في اليَمِّ، وابتلعه الحوت، وصار في ظلمات ثلاث، ما الذي أنجاه بفضل الله؟!

إنها كلمة التَّوحيد التي كان يلهَجُ بها وهو في بطن الحوت، ﴿**لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ**﴾، قال الله - تعالى -: ﴿**فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ**﴾، وانتبه إلى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعدها: ﴿**وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الأنبياء: ٨٧- ٨٨]، يعني أن هذا ليس خاصًّا بيونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، بل له ولمن بعده، وهذا مما يسُرُّ المؤمن، وهو من فضل الله - تعالى -.

ومن اللطائف في شأن هذه الكلمة؛ ما ذكره الشيخ ابن قاسم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: «أحرُفها كلُّها جَوْفِيَّة، ليس فيها حرف شفوي؛ فيمكن قائلَها أن يقولها من غير فتحِ فَمِه، وهو أسلم وأبعد عن الرياء، وفي كونها جوفيةً - أيضا - إشارة إلى أنها تخرج من القلب. وأحرُفُها كلها مُهمَلة فتُنْبِئ عن التجرُّد من كل معبود سوى الله»(١).

ooo

المبحث الرابع: شروط كلمة التوحيد:

ذكر أهل العلم لها سبعة شروط، جمعها الشيخ حافظ الحكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في منظومته «سلم الوصول»(٢) فقال:

---

(١) «حاشية كتاب التوحيد» ص٣١.

(٢) البيتان (٩٤- ٩٥).

العِلْـــمُ واليَقِـــينُ والقَبُـــولُ والاِنْقِيَـــادُ فَـــادْرِ مَـــا أَقُـــولُ
والصِّـدْقُ والإِخْـلاصُ والمَحَبَّـهْ وَفَّقَـــكَ اللهُ لِمَـــا أَحَبَّـــهْ

أولا: العلم، المُضاد للجهل:

ومن أدلته قول الله – تعالى –: ﴿**فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ**﴾ [محمد: ١٩]، وعن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، دَخَلَ الْجَنَّةَ**»(١).

ثانيا: اليقين، المضاد للشك:

ومن أدلته ما رَوَى أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ لَقِيتَ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْحَائِطِ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ، فَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ**»(٢).

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، لَا يَلْقَى اللهَ بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ، فَيُحْجَبَ عَنِ الْجَنَّةِ**»(٣).

ثالثا: القبول، المنافي للرَّدِّ:

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٣١)، وفيه قصة.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٧)، وللحديث سبب ورود عظيم، فانظره في الموضع المذكور.

ومن أدلته قول الله - تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

رابعا: الانقياد، المنافي للتَّرْكِ:

ومن أدلته قول الله - جل وعلا -: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

ويُمكن أن يُفَرَّق بين القبول والانقياد، بأن القبول يحصُل باعتقاد بالقلب ونطق اللسان، أما الانقياد فيكون بالفعل.

خامسا: الصدق، المنافي للكذب:

ومن أدلته قول الله - تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

وعن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، صَادِقًا مِنْ قَلْبِهِ، دَخَلَ الْجَنَّةَ**»[١].

والصدق يشمل صدق القلب، وصدق اللسان.

سادسا: الإخلاص، المنافي للشِّرك:

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (١٢٨)، ومسلم (٣٢).

ومن أدلته قوله - تعالى -: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مَنْ قَالَ: «لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ، أَوْ نَفْسِهِ**»(١).

وفي الصحيحين من حديث عِتبان أن النبي ﷺ قال: «**فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ**»(٢).

سابعا: المحبة، المنافية للكُره:

ودليلُها قوله - تعالى -: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

ooo

المبحث الخامس: اشتمال «لا إله إلا الله» على أنواع التوحيد:

إذا قال العبد: «أشهد أنَّ لا إله إلا الله»؛ فإنها تدل على توحيد الألوهية (العبادة) بالمطابقة.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٩٩ و٦٥٧٠).

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٤٢٥) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٣٣).

وسبَق أنَّ توحيد الألوهِيَّة متضمِّن لتوحيد الرُّبوبية؛ لأن من عبَد الله وحده (أي: أفرده بالعبادة)، فإنه لا يمكن أن يعبده حتى يُقرَّ له بالرُّبوبية.

وكذلك فإن العاقِل لا يعبد إلَّا من علِم أنَّه مستحِقٌّ للعبادة؛ لما له من الأسماء والصفات العُلى، كما قال إبراهيم لأبيه: ﴿**يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا**﴾ [مريم: ٤٢]، وهذا من قُوة الحُجَّة التي أوتيها إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، كما قال تعالى: ﴿**وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَـٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ**﴾ [الأنعام: ٨٣].

فتبين أن هذه الكلمة تشتمل على أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الألوهية مطابقة، وتوحيدَي الربوبية والأسماء والصفات تضمنا[١].

* * *

(١) ينظر: «مجموع فتاوى ورسائل العثيمين» (١/ ٨٢).

الفصل الثالث: التعليق على النصوص، وربطها بالباب

النص الأول: قول الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧]، الآية.

يتبين معنى هذه الآية بذكر ما قبلها، وهو قوله - تعالى -: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦].

وقوله - تعالى -: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: يُراد به المعبودون، وهو مبتدأ، وخبره: ﴿يَبۡتَغُونَ﴾، والضمير في ﴿يَدۡعُونَ﴾ للكفار، وفي ﴿يَبۡتَغُونَ﴾ للمعبودين. و﴿ٱلۡوَسِيلَةَ﴾: ما يُتقرَّب به، وأعظم القُرُبات: التوحيد الذي بعث الله به رسله.

فيكون معنى الآية: أولئك المعبودون من أهل الصلاح - الذين يعبدهم الكفار ويتعلَّقون بهم - يبتغون إلى ربهم كل وسيلة تقربهم إليه.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالآية خطاب لكل من دعا من دون الله مدعُوًّا، وذلك المدعُوُّ يبتغي إلى الله الوسيلة، ويرجو رحمته ويخاف عذابه! وهذا موجود في الملائكة والجن والإنس»(١).

---

(١) «الرد على البكري» (٢/ ٥٣٨).

ومناسبة الآية للباب: أنها اشتملت على الثناء على صالحي عباده بأنهم يبتغون القُربة إلى الله وحده دون غيره. ووجه الحصر تقديم الجار والمجرور في قوله – تعالى –: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمُ﴾. وإذا كان هذا حالَ المعبود فينبغي للعابد أن يقتدي ويتأسىَّ بهذا المعبود؛ هذا هو المقصود[1].

ooo

النص الثاني: قول الله – عزَّ وجلَّ –: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ...﴾ [الزخرف: ٢٦– ٢٧]، الآية.

وتتمة الآية قولُه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ ...﴾ [الزخرف: ٢٧– ٢٨]، والكلمة هي: لا إله إلا الله، بإجماع أهل العلم[2]. وهذه الآية فيها معنى لا إله إلا الله مطابقة.

وقوله: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾: نفيٌ يقابلُه «لا إله»، وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾: إثبات يقابلُه «إلا الله».

ooo

---

(١) ينظر: «التمهيد» للشيخ صالح آل الشيخ ص٧٩، وقال الشيخ ابن عثيمين في «القول المفيد» (١/ ١٤٥): «مناسبة الآية للباب فيها شيء من الخفاء».

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٢٢٥).

النص الثالث: قول الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿**ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ** ...﴾ [التوبة: ٣١]، الآية.

والأحبار هم العلماء، والرهبان هم العُبَّاد، جعلوهم مُشَرِّعين في تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل، فصاروا بذلك أربابا؛ لأن التشريع من خصائص الربوبية، كما أن العبادة من مستحَقَّاتها. وفسر رسول الله ﷺ هذه الآية لعدي بن حاتم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ، فقال: «**يُحِلُّونَ لَهُمْ ما حَرَّمَ اللهُ فَيَسْتَحِلُّونَهُ، وَيُحَرِّمُونَ عَلَيْهِمْ ما أَحَلَّ اللهُ فَيُحَرِّمُونَهُ، فَتِلْكَ عِبادَتُهُمْ لَهُمْ**»(١).

وقال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا شرك الطاعة، وهو بتوحيد الربوبية ألصق من توحيد الألوهية؛ لأن الحكم - شَرْعِيًّا كان أو كونيا - إلى الله - تعالى -؛ فهو من تمام ربوبيته»(٢).

فالتحليل والتحريم لله - تعالى -، ومن جعلهما لغيره وأطاعه في ذلك، فقد اتخذه شريكا مع الله.

---

(١) **حسن:** أخرجه الترمذي في سننه (٣٠٩٥)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١١٦/١٠) واللفظ له، وحسنه الألباني.

(٢) «القول المفيد» (١/ ١٦٠). وقال الشيخ صالح آل الشيخ في «التمهيد» ص٨٣: «الربوبية هنا هي: العبادة».

وقد عقد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بابا في هذا الكتاب، فقال: «باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرمه، فقد اتخذهم أربابا من دون الله».

ooo

النص الرابع: قول الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِ ...﴾ [البقرة: ١٦٥]، الآيةَ.

هذه الآية أفرد لها المؤلف بابا مستقلا، سيأتي إن شاء الله.

وجاءت هذه الآية في سياق الذم والإنكار لمن اتخذ نِدًّا يحبه كحب الله، محبةَ العبودية المقترنة بالذل والتعظيم. ويُعرف التوحيد من جهة المقابلة بأن يُفرد الله وحده بهذه المحبة.

ooo

النص الخامس: حديث طارق بن أشيم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أنَّ النبي ﷺ قال: «**مَنْ قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مَنْ دُونِ اللهِ، حَرُمَ مَالُهُ، وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ -**»(١).

هذا لفظ مسلم، ولفظه في مسند أحمد: «**مَنْ وَحَّدَ اللهَ - تَعَالَى -، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ، حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ -**»(٢).

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «المسند» (ح: ١٥٨٧٥).

فيؤخذ منه تفسير التوحيد بـ «لا إله إلا الله»، والكفر بما يعبد من دون الله.

فمن قال: «لا إله إلا الله»، واعتقد أن دين اليهود أو النصارى صحيح؛ فهذا ليس بمُوحِّد.

وعلَّق المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ على الحديث في المسائل، فقال: «وهذا من أعظم ما يُبَيِّن معنى «لا إله إلا الله»؛ فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصمًا للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له! بل لا يحرُم ماله ودمه حتى يُضِيفَ إلى ذلك الكفر بما يُعْبَد من دون الله. فإن شك أو توقف لم يحرُم مالُه ودمُه.

فيا لها من مسألة ما أعظمَها وأجلَّها! ويا له من بيان ما أوضحَه! وحجةٍ ما أقطعها للمنازع!»(١).

ثم قال الشيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن ساق نصوصَ البابِ: «وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب».

والترجمة هي: العنوان. يعني: أن شرح عُنوان هذا الباب فيما يأتي من الأبواب القادمة؛ فموضُوع الكتاب في تفسير التوحيد ولوازمه، وذِكر ما يضادُّه أو يُضاد كماله، أو يكون وسيلة إلى ما يضاده، وهو الشرك.

---

(١) «كتاب التوحيد» ص١٤٠.

فما سبق من الأبواب تمهيدٌ وتوطئة؛ لبناء قاعدة تأصيلية في هذا العلم، ثم تأتي مسائل هذا العلم في الأبواب القادمة.

* * *

٦- باب
من الشِّرك لُبس الحلقة والخيط ونحوهما؛ لرفع البلاء أو دفعه

وَقولِ اللهِ - تَعالى -: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ [الزمر: ٣٨] الآيَةَ.

عَنْ عِمْرَانَ بْنُ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى رَجُلًا فِي يَدِهِ حَلْقَةٌ مِنْ صُفْرٍ، فَقَالَ: «**مَا هَذِهِ؟**» قَالَ: مِنَ الْوَاهِنَةِ. فقَالَ: «**انزعها؛ فَإِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا؛ فَإِنَّكَ لَوْ مِتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ مَا أَفْلَحْتَ أَبَدًا**»(١). رَواهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ لا بَأْسَ بِهِ.

وله عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «**مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدَعَةً فَلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ**»(٢)، وَفِي رِوايَةٍ(٣): «**مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ**».

---

(١) **ضعيف**: أخرجه بنحوه ابن ماجه (٣٥٣١)، وأحمد (٢٠٠٠٠)، وضعفه الألباني والأرناؤوط.

(٢) **حسن بشواهده**: أخرجه أحمد في «المسند» (١٧٤٠٤)، وابن حبان في صحيحه (٦٠٨٦)، وحسنه الأرناؤوط.

(٣) أخرجها أحمد في «المسند» (١٧٤٢٢)، بلفظ: «**مَنْ عَلَّقَ ...**»، وقال الأرناؤوط: إسناده قوي.

ولِابنِ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا فِي يَدِهِ خَيْطٌ مِنْ الحُمَّى، فَقَطَعَهُ، وَتَلَى قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ**﴾ [يوسف: ١٠٦][(١)].

* * *

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، رقم: (١٢٠٤٠).

٧- باب
ما جاء في الرُّقى والتمائم

فِي الصَّحِيْحِ عَنْ أَبِي بَشِيرٍ الأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَأَرْسَلَ رَسُولًا: «**أَلَّا يَبْقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلادَةٌ مِنْ وَتَرٍ، أَوْ قِلادَةٌ إِلَّا قُطِعَتْ**»(١).

وعَنْ ابنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ الرُّقَى، وَالتَّمَائِمَ، وَالتِّوَلَةَ، شِرْكٌ**»(٢). رَواهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ.

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُكَيْمٍ مَرْفُوعًا: «**مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ**»(٣). رَواهُ أَحْمَدُ والتِّرْمِذِيُّ.

التَّمَائِمُ: شَيْءٌ يُعَلَّقُ عَلَى الأَوْلَادِ عنَ الْعَيْنِ، لَكِنْ إِذَا كَانَ المُعَلَّقُ مِنَ القُرْآنِ فَرَخَّصَ فِيهِ بَعْضُ السَّلَفِ، وَبَعْضُهُمْ لَمْ يُرَخِّص فِيهِ، وَيَجْعَلُهُ مِن المَنْهِي عَنْهُ، مِنْهُمْ: ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣٠٠٥)، ومسلم (٢١١٥).

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٥٢٠٨)، وابن ماجه (٣٥٣٠)، وأحمد (٣٦١٥)، وصححه الألباني.

(٣) **حسن**: أخرجه الترمذي (٢٠٧٢)، وأحمد (١٨٧٨١)، وحسنه الألباني والأرناؤوط.

وَ**الرُّقَى**: هِيَ الَّتِي تُسَمَّى العَزَائِمَ، وَخَصَّ مِنْهَا الدَّلِيلُ مَا خَلَا مِنَ الشِّرْكِ؛ فَقَدْ رَخَّصَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ العَيْنِ وَالْحُمَةِ.

و**التِّوَلَةُ**: شَيْءٌ يَصْنَعُونَهُ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ يُحَبِّبُ المَرْأَةَ إِلَى زَوْجِهَا، وَالرَّجُلَ إِلَى امْرَأَتِهِ.

وَرَوَى الإِمامُ أَحْمَدُ عَنْ رُوَيْفِعَ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**يَا رُوَيْفِعُ، لَعَلَّ الْحَيَاةَ سَتَطُولُ بِكَ؛ فَأَخْبِرِ النَّاسَ أَنَّ مَنْ عَقَدَ لِحْيَتَهُ، أَوْ تَقَلَّدَ وَتَرًا، أَوْ اسْتَنْجَى بِرَجِيعِ دَابَّةٍ أَوْ عَظْمٍ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا بَرِيءٌ مِنْهُ**»[1].

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: «مَنْ قَطَعَ تَمِيمَةً مِنْ إِنْسَانٍ كَانَ كَعَدْلِ رَقَبَةٍ»[2]. رَوَاهُ وَكِيعٌ.

وَلَهُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: «كَانُوا يَكْرَهُونَ التَّمَائِمَ كُلَّهَا، مِنَ القُرْآنِ وَغَيْرِ القُرْآنِ»[3].

○○○

الشرح:

هذان البابان بينهما ترابط وثيق، ويكمِّل أحدهما الآخر؛ ولذا ضممناهما؛ ليكون شرحهما في سياق واحد.

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٣٦)، والنسائي (٥٠٦٧)، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٢٣٩٣٩).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٢٣٩٣٣)، وإبراهيم هو النَّخَعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وفَهم هذين البابين ومقصودِهما مما يغرس أصل التوحيد، ويجرِّدُ تعلق القلب بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وحده، ويجتث التعلق بغيره من جذور القلب، ولذا كان حَرِيًّا بكل مؤمن ومؤمنة أن يسعى في فهم هذين البابين والعمل بما فيهما.

والكلام على هذين البابين - كما جرت عادتُنا - في ثلاثة فصول:

* * *

الفصل الأول: مقصود البابين، وموضوعهما العام

أولا: باب من الشرك لُبس الحلقة والخيط ونحوهما؛ لرفع البلاء أو دفعه:

«**مِن**»: تبعيضية، و«**لُبس**»: بضم اللام. وقوله «**من الشِّرك**»: اسم جنس يشمل النَّوعين، وسيأتي بيان نوع الشرك في هذا العمل.

و«**الحلقة**»: كل شيء استدار من صُفر وغيره.

وقولُه: «**والخيط، ونحوهما**»: كالوَدَعة والتميمة والمسمار والخَرَزَة والصدَفة، ونحو ذلك.

وقوله: «**لِرَفع البلاء**»، أي: إزالته بعد نزوله، وقوله: «**أو دفعه**»، أي: منعه قبل نزوله.

فلُبس هذه الأشياء وتعليقها لا يخلو من حالين:

الأُولى: أن يلبسها بعد وقوع البلاء استشفاء من هذا المرض.

الثانية: أن يلبسها قبل نزول المرض؛ لأجل أن تدفع عنه العين والسحر والآفات، ونحو ذلك.

واتخاذ تلك الأشياء ونحوها من أعمال الجاهلية؛ كانوا يعلقونها على أولادهم ودوابهم.

ولما تكلم المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن تفسير التوحيد، وشهادة أن لا إله إلا الله، أراد أن يشرح ذلك بذكر شيء مما يضاده من أنواع الشرك الأكبر والأصغر؛ فإن الضد لا يعرف إلا بضده، كما قيل: وبضدها تتميز الأشياء. فمن لم يعرف الشرك لم يعرف التوحيد وبالعكس، وقدَّم الشرك الأصغر تَرَقِّيًا من الأدنى إلى الأعلى.

ووجه كون لُبس الحلقة والخيط ونحوهما من الشرك؛ لأن القلب تعلق بهما، وجعلهما سببين لرفع البلاء أو دفعه.

ooo

ثانيا: باب ما جاء في الرقى والتمائم:

الرُّقَى منها المشروع، ومنها الممنوع الذي يصل إلى الشرك، والتمائم منها الشِّركِيَّة، ومنها ما اختُلِف فيه؛ فلذا عقد المؤلِّف هذا الباب لبيان ذلك، ولم يجزم بكونهما من الشرك؛ لأن فيهما تفصيلا، بخلاف الباب السابق فقد جزم بالحكم فيه فقال: «باب من الشرك لبس الحلقة ...».

* * *

الفصل الثاني: المباحث الموضوعية

المبحث الأول: الأسباب. وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: معنى السبب:

السبب هو: كل شيء يُتوصل به إلى غيره. ويُطلق في اللغة على الحَبْل، ومنه قوله – تعالى –: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ [الحج: ١٥][(١)].

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو مسبب الأسباب.

المطلب الثاني: أقسام الناس في الأسباب:

انقسم الناس في إثبات الأسباب وتأثيرها إلى ثلاثة أقسام (طرفين ووسط):

فالقسم الأول: نُفاة الأسباب:

قالوا: إنَّ الأفعال تُضاف إلى الله وحده، فليست النار سببا للإحراق، ولا أَكل السُّم سببا للهلاك، ولا تناول الطعام سببا للشِّبَع؛ وإنما حصل الاحتراق بأمر الله عند اشتعال النار لا بسببها. ومن رَمَى زجاجة بحجر فانكسرت، فرَمْي الحجر ليس سببا في كسر الزجاجة، ولكنها انكسرت عند رمي الحجر لا بسببه، وهكذا! وهذا مذهب الجبرية الجهمية، والأشاعرة.

---

(١) ينظر مادة «سبب» في: «لسان العرب» (١/٤٥٨)، و«تاج العروس» (٣/٣٧).

والقسم الثاني: الغُلاة في إثبات الأسباب:

وهؤلاء غَلَوا في السَّبب حتى جعلوه العِلَّة الفاعلة، وقالوا: السبب يوجب المسبَّب، والعلة تؤثر في معلولها دون مشيئة الله! وهذا قول الفلاسفة قديما، والماديين حديثا، الذين يغلون في المادة وإثباتها.

والقسم الثالث: الوسط:

قالوا بإثبات الأسباب لكن لا بذاتها، وإنما بما أودعه الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ فيها، والأمر إلى مشيئة الله؛ فإن شاء أمضى أثرها، وإن شاء منع مقتضاها، كمن تزوج وعاشر امرأته، فهذا سبب لحصول الولد، لكنه ليس بحَتم؛ فربما يُرزق بالولد، وربما لا يُرزق.

بل إن شاء سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ جعل الأسباب مُقتضِية لضد أحكامها، كما جعل النار المحرقة بردا وسلاما على إبراهيم عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ.

فالسبب له أثر في حصول المسبَّب، لكنه ليس مقتضِيا له، بل ذلك خاضع لمشيئة الله النافذة، وحكمته البالغة. قال تعالى: ﴿**وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ**﴾ [البقرة: ١٠٢]، وقال سبحانه: ﴿**وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ**﴾ [الأنفال: ١٧].

ومما قد يُشكِل على هذا قولُ الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿**وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ**﴾ [الزخرف: ٧٢]؛ إذ قد يُفهم من ظاهرها أن العمل

الصالح موجِبٌ لدخول الجنة. لكنَّ معنى الآية يتَّضح إذا جمعنا إليها حديثَ أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «**لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الجَنَّةَ**» قالُوا: وَلا أَنْتَ، يا رَسُولَ اللَّهِ؟ قالَ: «**لا، وَلا أَنا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ**»[(١)].

فالمنفِيُّ في الحديث أن يكون دخول الجنة مقابلَ العمل على وجه المُعاوَضَة والمُقابَلَة، كما تقول: اشتريتُ الكتاب بعشرة دراهم، فهذا غير وارد هنا؛ لأن العمل الصالح سبب لدخول الجنة لا ثمنٌ له! ولا بُدَّ من رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وفضله لإعمال هذا السبب، فلا يصح الاعتماد على العمل الصالح وحده، كما لا يصح الاعتماد على رحمة الله - تعالى - دون عمل.

وهذا الرأي الثالث مذهب أهل السنة، ولا ريب أنَّه الحق الأبلج.

تنبيه:

يجِب الحذر في باب الأسباب من أمرين:

الأول: الاعتماد على السبب والتعلق به:

فنُثبِت الأسباب، مع تَعلُّق القلوب بمُسبِّبها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحدَه.

الثاني: ترك السبب:

ولترك السبب صورتان:

الأولى: تركُه إنكارا له، كما وقع من الجبرية.

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٥٦٧٣) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٨١٦).

الثانية: تركُه إعراضا عنه. فهو يُثبت السبب لكنه لا يفعله، كما نُقِل عن بعضهم أنه يخوض الصحراء بلا زاد، ويقول: أنا متوكل على الله!، وهذا فيه إخلال بحقيقة التوكل؛ لأن حقيقته: اعتماد القلب على الله، مع فعل الأسباب(١). والنبي ﷺ - وهو سيد المتوكلين - فعل الأسباب وأخذ بها، كما سيأتي.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الالتفات إليها - يعني الأسباب - بالكُلِّيَّة شرك مناف للتوحيد، وإنكار أن تكون أسبابا بالكلية قدح في الشرع والحكمة، والإعراض عنها مع العلم بكونها أسبابا نقصان في العقل! وتنزيلها منازلها، ومدافعة بعضها ببعض، وتسليط بعضها على بعض، وشهود الجمع في تفرقها والقيام بها، هو محض العبودية والمعرفة وإثبات التوحيد والشرع والقدر والحكمة»(٢).

المطلب الثالث: مشروعية الأخذ بالأسباب:

الأخذ بالأسباب ومباشرتها هو مقتضى الشرع والعقل والفطرة.

والأدلة الشرعية على ذلك كثيرة جدًّا؛ منها:

قول الله - تعالى -: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ أَسۡلِحَتَهُمۡۖ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلۡيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمۡ وَلۡتَأۡتِ طَآئِفَةٌ أُخۡرَىٰ لَمۡ يُصَلُّواْ فَلۡيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلۡيَأۡخُذُواْ حِذۡرَهُمۡ ...﴾[النساء: ١٠٢]، الآية.

وقوله - سبحانه -: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾[الأنفال: ٦٠].

---

(١) يُنظر: «مدارج السالكين» (٢/ ١٣٣).

(٢) المرجع السابق (١/ ٢٥٧).

وعن المقدام بن مَعْدِ يْكَرِبَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا - قَطُّ - خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ**»[١].

وعن أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَعْقِلُهَا وَأَتَوَكَّلُ، أَوْ أُطْلِقُهَا وَأَتَوَكَّلُ؟ قَالَ ﷺ: «**اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ**»[٢].

والنبي ﷺ لبس المِغْفَر، وظاهر بين دِرْعَين يوم أُحد[٣]، أي لم يكتفِ بِدِرع واحد يقيه، بل لبس درعا فوق الآخر، واستأجر هاديا يدله الطريق لما خرج مهاجرا إلى المدينة[٤]، وكان يدَّخِرُ لأهله قُوْتَ سنة[٥].

وهذا لا يقدح في التوكل، بل هو من تمام التوكل: أن يأخذ بالأسباب، ويتعلق قلبُه بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فَفَرقٌ بين الأخذ بالسبب، والاعتماد على السبب.

المطلب الرابع: أنواع الأسباب، وأحكامها:

الأسباب قسمان:

- **القسم الأول: أسباب حقيقية:** وهي ما ثبتت سببيته بالشرع، أو بالحس

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٠٧٢).

(٢) **حسن**: أخرجه الترمذي (٢٥١٧)، والبيهقي في الشعب (١١٦١)، وحسنه الألباني.

(٣) ينظر: سنن ابن ماجه، أبواب الجهاد، باب السلاح.

(٤) ينظر: «المستدرك»، حديث رقم: (٤٢٧٤).

(٥) ينظر: صحيح البخاري، حديث رقم (٥٣٥٧).

والتجربة.

وهذا القسم أنواع:

النوع الأول: أسباب مشروعة:

كالدعاء والصدقة، والتصبُّح بسبع تمرات للوقاية من السم والسحر، والرُّقية الشرعية والأوراد لدفع السحر والعين.

النوع الثاني: أسباب مباحة:

وهي ما عُلِم أثره عقلا أو حِسًّا، وليس فيه محذور شرعي.

مثل استعمال بعض العقاقير الحديثة في خفض حرارة الجسم.

النوع الثالث: أسباب مكروهة:

وهي من جِنس الأسباب المباحة، لكن دل الدليل على كراهتها؛ كالاستِرقاء والاكتواء.

النوع الرابع: أسباب محرمة:

وهي أسباب حقيقية، لكن جاء الشرع بتحريمها؛ مثل: تخليل الخمر، بأن يفعل مالكُها شيئا يكون سببا في تحوُّل الخمر إلى خل نافع، كأن يُلقي فيه ملحا

أو بصلا أو نحو ذلك، فهذا لا يجوز لحديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عَنِ الْخَمْرِ تُتَّخَذُ خَلًّا، فَقَالَ: «**لَا**»(١).

ومثل الذَّكاة بالسِّن والظُّفر؛ فإنه سبب في إزهاق الروح وإنهار الدم، لكن جاء الشرع بتحريمه في قوله ﷺ: «**مَا أَنْهَرَ الدَّمَ، وَذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ فَكُلُوهُ، لَيْسَ السِّنَّ وَالظُّفُرَ**»(٢).

- **القسم الثاني: أسباب وهمية:**

وهي ما يُعتقد أنها أسباب لحصول أشياء، وليس في الشرع أو التجربة والحس ما يدل على سببيتها، بل ذلك اعتقاد موهوم لا حقيقة له.

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: «كل من أثبت لشيء سببا غير شرعي ولا حسي؛ فإنه قد أتى نوعا من الشرك؛ لأنه جعل نفسه مسبِّبا مع الله، وثبوت الأسباب لمسبباتها إنما يُتلقى من قِبَل الشرع»(٣).

وإذا نظرنا في ترجمة الباب (باب من الشرك لبس الحلقة أو الخيط ونحوهما؛ لرفع البلاء أو دفعه)، وتساءلنا: هل هناك ارتباط بين لبس حلقة في اليد، أو ربط خيط على العنق، وبين رفع المرض والشفاء منه؟

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٩٨٣).

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٢٤٨٨) وفي مواضع كثيرة، ومسلم (١٩٦٨).

(٣) «مجموع فتاوى ورسائل العثيمين» (١/ ١٠٨).

الجواب: لا، فلم يدلَّ الشرع ولا التجربة ولا الحس على أنَّ فعل ذلك سبب في الشفاء من المرض.

ومثل ذلك: لو أن رجلا أصيب بمرض في بطنه، فصار يتمَسَّح بجلد شاة طلبا للشفاء! وآخر: علَّق في مدخل بيته – أو في سيارته – صورةَ كفٍّ فيه عين؛ لأجل أنها سبب في دفع العين! وثالث: اتخذ جلود الذئاب لطرد الشياطين عند السكن في منزل جديد! ورابعة: قيل لها: إنَّ لبس خاتم الفضة يحمي من إسقاط الجنين في الحمل.

فهذه أسباب موهومة تُخِلُّ بجناب التوحيد. والأمثلة كثيرة، لكن المقصود ضبط الأصل، دون التوسع في ذكر الفروع.

المطلب الخامس: علاقة الأسباب بالشرك:

يكون السبب شِركا في حالين:

الحال الأولى: الاعتماد على السبب، وتعَلُّق القلب به:

وهذا مخالف لحقيقة التوكل، وفي الحديث أنه ﷺ قال: «**مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ**»[1]، وهذا النوع من الشِّرك من باب الشِّرك العملي الأصغر. لكن إذا اعتقد أن هذا السبب يستقل بالفعل، وأنه المؤثر بذاته، والعِلة الفاعلة، صار شركا أكبر، كمن يشرب الدواء معتقدا أنه الشافي بذاته.

(١) تقدم تخريجه.

الحال الثانية: إثبات سبب وهمي:

وسبق بيان الأسباب الوهمية. فمن باشر شيئا منها فقد وقع في الشرك الأصغر من حيثُ الأصل، وقد يصل الأمر إلى الشرك الأكبر.

المطلب السادس: أمثلة للشرك الواقع في هذا الباب:

الأمثلة كثيرة، سبق طرَفٌ منها. ومما يُذكر أيضا:

أولا: الرُّقى والتمائم: وسيأتي الكلام عليها مفصَّلا، إن شاء الله.

ثانيا: لُبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه: وهذه من جنس التمائم.

ثالثا: اعتقاد انتقال العدوى بمجرد مخالطة المريض:

وورد في هذه المسألة قولُه ﷺ: «**لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَة**»(١)، وهذا يفيد نفي العدوى. وورد - كذلك - قولُه ﷺ: «**فِرَّ مِنَ الْمَجْذُومِ كَمَا تَفِرُّ مِنَ الْأَسَدِ**»(٢)، وقولُه ﷺ: «**لا يُورِدَنَّ مُمْرِضٌ عَلَى مُصِحٍّ**»(٣)، وهذا يدلُّ على إثبات العدوى فيما يُسمى بـ«الأمراض المُعدِية».

---

(١) **متفق عليه:** أخرجه البخاري (٥٧٠٧)، وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٢٢٥)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٥٧٠٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأوَّله موافق للحديث السابق.

(٣) **متفق عليه:** أخرجه البخاري (٥٧٧١)، ومسلم (٢٢٢١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهذه المسألة من أشهر الأمثلة في «مختلف الحديث» - وهو أحد أنواع علوم الحديث -، وللعلماء كلام طويل في توجيه الإشكال في هذه المسألة.

ولعل الأقرب - والله أعلم - أن مخالطة الصحيح للمريض سبب لانتقال المرض (العدوى)، وأما حديث «**لَا عَدْوَى**»، فالنفي فيه ليس نفيا للوجود، وإنما نفي للتأثير؛ لأن المؤثر المسبِّب هو الله - عز وجل -، والمرض لا ينتقل بنفسه وإنما ينتقل بمشيئة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فلا عدوى بذاتها. ولهذا ربما يخالط الصحيحُ المريضَ فلا يصاب بالمرض؛ فمخالطة المريض سببٌ في انتقال المرض إلى الصحيح، وهذا السبب تحت مشيئة الله - تعالى -؛ إن شاء أجراه فانتقل المرض، وإن شاء منعه فلم ينتقل المرض.

وقد اكتُشِف الآن أن العدوى عبارة عن انتقال حاملات المرض، والتي تُسمَّى في العلم الحديث «الميكروبات»، وانتقال هذه الميكروبات هو (العدوى).

ooo

المبحث الثاني: الرقى. وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: تعريف الرقية، وما يشابهها:

الرُّقية: هي الكلمات التي تُقرأ لدفع البلاء أو رفعه. وجمعها رُقى.

فهي كلمات تُقرأ لدفع البلاء قبل نزوله، أو لرفعه بعد نزوله. وغلب اقتران بعض الأفعال بالرُّقية؛ كالنَّفْث، ووضع اليد على موضع العلة.

ومن خلال هذا التعريف يتبين أن الرقية لها معنيان: خاص، وعام.

المعنى الخاص: هي التعويذة التي يُعوَّذ بها صاحب الآفة الذي وقع به البلاء.

والمعنى العام: كل ما يُتعوذ به من الشرور، من الأمراض وغيرها، قبل نزول البلاء وبعده.

- **وهناك ألفاظ ذات صلة بالرقية؛ منها:**

أولا: العزائم:

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مسائل هذا الباب: «الرُّقى هي التي تسمى العزائم».

وتفسير العزائم بالرُّقى قال به غير واحد من أهل اللُّغة؛ كالجوهري والفيروزآبادي[١].

وتسمية العزائم بذلك من جهتين: من جهة النظر إلى حال القارئ، لأنه يعزِم قلبه، ويستجمع قوة نفسه في هذه الرقية. ومن جهة النظر إلى المقروء، وذلك باختيار آيات أو سور مخصوصة لمزيد فضل فيها.

قال ابن فارس: «عزمت على الجني، وذلك أن تقرأ عليه من عزائم القرآن، وهي الآيات التي يُرجى بها قطع الآفة عن المؤوف»[٢].

فالحاصل أن العزائم حالة خاصة من أحوال الرُّقى، يُراعى فيها حال القارئ أو المقروء أو هما جميعا[٣].

---

(١) يُنظر: «الصحاح» للجوهري (١٩٨٥/٥)، و«القاموس» للفيروزآبادي، مادة «عزم».

(٢) «معجم مقاييس اللغة» (٣٠٨/٤).

(٣) فرق بينهما القرافي في «الفروق» (١٤٧/٤).

ثانيا: النُّشْرة:

هي نوع من الرُّقى يعالَج بها من كان به سحر أو مس من الجن.

وأفرد لها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بابا خاصا.

ثالثا: التمائم:

تشترك الرقى والتمائم في أن كلا منهما تعويذة، يعني أشياء يتعوَّذ بها الإنسان من الشر الواقع أو المتوقَّع. لكن الفرق بينهما أن الرُّقى كلمات تُقرأ، وأما التمائم فهي أشياء تعلق.

وثمة رأي آخر أن التمائم صورة من صور الرُّقى، فكل تميمة رقية، ولا عكس.

وهذا مبنِيٌّ على معنى الرقية، وأنها التعويذةُ مطلقا، سواء كان بقراءة شيء، أو بكتابته وتعليقه.

المطلب الثاني: حكم الرقى، ومتى تكون شركا؟

الرُّقى لها صورتان:

الأولى: أن تكون غير جامعة لشروط الرقية الشرعية، فهذه محرَّمة، وهي على درجات منها ما يبلُغ الشرك، ومنها ما دون ذلك.

الثانية: أن تكون جامعة لشروط الرقية. ولها جهتان:

الجهة الأولى: جهة الراقي:

فالرقية في حقِّه سُنة، سواء كانت لنفسه أو لغيره. وفي ذلك أدلة، منها:

عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا: «**أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا اشْتَكَى يَقْرَأُ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ وَيَنْفُثُ، فَلَمَّا اشْتَدَّ وَجَعُهُ كُنْتُ أَقْرَأُ عَلَيْهِ وَأَمْسَحُ بِيَدِهِ رَجَاءَ بَرَكَتِهَا**»[(١)].

وعنها رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا قالت: كانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا مَرِضَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهِ نَفَثَ عَلَيْهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ[(٢)].

وعنها رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا: أن رسول الله ﷺ كان يرقي بهذه الرقية: «**أَذْهِبِ الْبَاسَ، رَبَّ النَّاسِ، وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا**»[(٣)].

ولِما في الرقية من الإحسان إلى الغير، كما جاء عن جابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا قال: لَدَغَتْ رَجُلًا مِنَّا عَقْرَبٌ، ونَحْنُ جُلُوسٌ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ أَرْقِي؟ قَالَ: «**مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ فَلْيَفْعَلْ**»[(٤)].

الجهة الثانية: جهة المَرقِي:

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٥٠١٦) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢١٩٢).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢١٩٢)، وهو من روايات الحديث السابق.

(٣) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٥٦٧٥)، ومسلم (٢١٩١) واللفظ له.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (٢١٩٩).

فإن كانت بطلب منه: فهي جائزة غير محظورة، لكنَّ تركها أفضل؛ لحديث السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، وفيه وصفهم أنهم: «**لَا يَسْتَرْقُونَ**»(١).

وإن كانت بغير طلب: فهي مباحة أو مستحبة، لحديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كَانَ إِذَا اشْتَكَى رَسُولُ اللهِ ﷺ رَقَاهُ جِبْرِيلُ، قَالَ: «**بِاسْمِ اللهِ يُبْرِيكَ، وَمِنْ كُلِّ دَاءٍ يَشْفِيكَ، وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ، وَشَرِّ كُلِّ ذِي عَيْنٍ**»(٢). وتقدَّم عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها رقت النبي ﷺ، أيضا.

- **وتصل الرقية إلى الشرك في صور كثيرة؛ منها:**

أولا: اعتقاد أن الرُّقية هي المؤثرة الفاعلة، وأنها بذاتها تدفع الضر وترفعه. وهذا شرك أكبر.

ثانيا: الاعتماد على الرُّقية وتعلق القلب بها، مع اعتقاد عدم استقلالها بالتأثير. وهذا شرك أصغر، كما سبق في مبحث الأسباب.

ثالثا: إذا تضمَّنت الرُّقية صورة من صور الشرك؛ كدعاء غير الله - تعالى -، أو الاستعاذة أو القسَم به.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢١٨٥).

المطلب الثالث: شروط الرقية الشرعية:

اختلف أهل العلم في عدد هذه الشروط، وعند النظر والتأمل فيما ذكروه نجد أن بعض الشروط داخل في بعض، وأنَّ بعضها مُفتَقِر إلى الدليل. ولعل الأقرب أن الرقية الشرعية يُشترط لها ثلاثة شروط:

أولا: خلوها من المحظور الشرعي؛ كالشرك والسحر وادِّعاء علم الغيب، ونحو ذلك.

ثانيا: أن يُعتقد أنها لا تؤثر بنفسها، وإنما هي سبب من الأسباب. فيكون التعلق بالله - تعالى -، وهذا من صميم التوحيد: أن يتعلق القلب عند الرقية بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ توكُّلا ورجاء ورغبة، والقلب إذا شعَّ فيه نور التَّوحيد صلُح، وزَكى وطابت حياته.

ثالثا: أن تكون الرقية مفهومة المعنى.

فلا تكون بطلاسمَ وكلام مُبهَم لا يُدرى معناه، ولا يشترط أن تكون باللغة العربية. وهذا مذهب جماعة من الأئمة المحققين؛ كالخطابي والبغوي وابن حجر وغيرهم.

المطلب الرابع: هل الرُّقى توقيفية؟

أي: هل يُقتصر في الرُّقى على ما ورد في القرآن والسنة الصحيحة، ولا يجوز الرقية بغيرها، أم يجوز ذلك مع مراعاة الشروط السابقة؟.

قال بعض أهل العلم: الرُّقى توقيفية، ولا يُزاد على ما ورد.

وقال آخرون: بل الرُّقى اجتهادية، لكن لا بد من التقيد بشروط الرقية السابقة.

وهذا الرأي الثاني هو الأرجح - والله أعلم -. ومن أدلته:

- حديث عَوفِ بن مالك الأشجَعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كُنَّا نَرْقِي فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ تَرَى فِي ذَلِكَ؟ فَقَالَ ﷺ: «**اعْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ، لَا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ**»[١].

ووجه الدَّلالة في الحديث: أن النبي ﷺ أقرَّ الرُّقى التي لم يرِد بها النص، لكن اشترط أن تكون خالية من الشرك.

- وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كَانَ لِي خَالٌ يَرْقِي مِنَ الْعَقْرَبِ، فَنَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الرُّقَى، قَالَ: فَأَتَاهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّكَ نَهَيْتَ عَنِ الرُّقَى، وَأَنَا أَرْقِي مِنَ الْعَقْرَبِ، فَقَالَ: «**مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ فَلْيَفْعَلْ**»[٢].

ووجه الدلالة في الحديث: أنه لو كانت رقيتُه مما أخذها عن النبي ﷺ لما احتاج أن يسأله عنها، فدلَّ على أنها كانت اجتهادا منه، فاحتاج إلى السؤال عنها.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٠٠).

(٢) تقدم تخريجه.

ومشى على ذلك عدد من العلماء. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يكتب في إناء نظيف ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ۝٣ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ﴾ [الانشقاق: ١- ٤]، وتشرب منه الحامل، ويُرَشُّ على بطنها.

كتاب للرعاف: كان شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ يكتب على جبهته ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ [هود: ٤٤]، وسمعته يقول: كتبتها لغير واحد فبرأ، فقال: ولا يجوز كتابتُها بدَم الرَّاعِف، كما يفعله الجهال؛ فإن الدم نجس، فلا يجوز أن يكتب به كلام الله - تعالى - ...

كتاب لوجع الضرس: يكتب على الخد الذي يلي الوجع: بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣]، وإن شاء كتب: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١٣]»(١).

ونص ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ على أن الرُّقية من جنس الدُّعاء(٢)، والدعاء ليس توقيفِيًّا.

---

(١) «زاد المعاد» (٤/٣٢٦-٣٢٩).

(٢) ينظر: «مجموع الفتاوى» (١/١٨٢).

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي الحديث: جوازُ الرقية بكتاب الله، ويلتحق به ما كان بالذِّكر والدعاء المأثور، وكذا غير المأثور مما لا يخالف ما في المأثور»(١).

المطلب الخامس: أقسام الرقية:

يمكن أن تُقسم الرقية بعدة اعتبارات:

- **أولا: باعتبار وقتها.** وتنقسم بهذا الاعتبار إلى قسمين:

القسم الأول: قبل نزول البلاء:

وهذا ما عبر عنه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله في ترجمة الباب: «باب من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما؛ لرفع البلاء أو دفعه»؛ فدفع البلاء يعني قبل نزوله.

وورد في السنة ما يشهد لهذا. فعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: كانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعَوِّذُ الحَسَنَ وَالحُسَيْنَ، وَيَقُولُ: «**إِنَّ أَبَاكُمَا كَانَ يُعَوِّذُ بِهَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ، مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لامَّةٍ**»(٢).

وهذا مما يحسُن بالأبوين أن يفعلاه مع أولادهما.

---

(١) «فتح الباري»، تعليقا على حديث رقم (٢٢٧٦).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٣٧١).

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ، ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا فَقَرَأَ فِيهِمَا: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ، يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ. يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ»(١).

وعن خَوْلَةَ بنت حكيم السُّلَمِية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا، فَقَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ، حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ**»(٢).

قال ابن القيم: «واعلم أنَّ الأدوية الطبيعية الإلهية تنفع من الداء بعد حصولِه، وتمنع من وقوعه، وإن وقع لم يقع وقوعا مُضِرًّا، وإن كان مؤذيا. والأدوية الطبيعية إنما تنفع بعد حصول الداء. فالتعوُّذات والأذكار إما أن تمنع وقوع هذه الأسباب، وإما أن تحُول بينها وبين كمال تأثيرها بحسب كمال التعوذ وقوته وضعفه، فالرُّقى والعُوَذ تُستعمل لحفظ الصحة ولإزالة المرض»(٣).

القسم الثاني: بعد نزول البلاء:

والرقية بعد نزول البلاء تشمل الأمراض العضوية والنفسية.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٥٠١٧)، وفي مواضع أخرى.

(٢) سيأتي تخريجه، بإذن الله - تعالى -.

(٣) «زاد المعاد» (٤/ ١٦٥).

ومن شواهد استعمالها في الأمراض العضوية: ما سبق في باب «الدعاء إلى شهادة إلى لا إله إلا الله»، في حديث غزوة خيبر، وفيه أن النبي ﷺ قال: «**أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟**»، فَقِيلَ: هُوَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ. فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ، فَأُتِيَ بِهِ، فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ، وَدَعَا لَهُ، فَبَرَأَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ[(١)].

وفي حديث يزيد بن أبي عُبيد، قال: رَأَيْتُ أَثَرَ ضَرْبَةٍ فِي سَاقِ سَلَمَةَ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا مُسْلِمٍ، مَا هَذِهِ الضَّرْبَةُ؟ فَقَالَ: «هَذِهِ ضَرْبَةٌ أَصَابَتْنِي يَوْمَ خَيْبَرَ، فَقَالَ النَّاسُ: أُصِيبَ سَلَمَةُ، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَنَفَثَ فِيهِ ثَلاثَ نَفَثَاتٍ، فَمَا اشْتَكَيْتُهَا حَتَّى السَّاعَةِ»[(٢)].

- **ثانيا: باعتبار الرَّاقي**. وتنقسم بهذا الاعتبار إلى قسمين، أيضا:

١- أن يرقي نفسه، وهذا هو الأفضل.

٢- أن يرقيه غيره. وهذا القسم له صورتان:

فإما أن يكون بطلب، وإمَّا أن يكون بغير طلب. وسبق بيان حكم ذلك وأدلته في «حُكم الرُّقى».

○○○

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٢٠٦).

المبحث الثالث: التمائم والتِّوَلة. وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: تعريف التمائم:

التمائم: جمع تميمة؛ وهي: شيء يُعلَّق يُستَدْفع به البلاء، وخاصة العين.

وسُمِّيت تمائم تفاؤلا بأنه يحصل بها تمام الشفاء، وهذا من استعمالات العرب، كما يسمُّون اللَّدِيغ سليما، تفاؤلا بسلامته وشفائه، ويسمون الصحراء القاحلة مفازة تفاؤلا بالنجاة.

وصور التمائم غير محصورة: فتكون أصدافا، وتكون من جِلد، وتكون خَرَزات، وغير ذلك.

وسبق الإشارة إلى العلاقة بين الرُّقى والتمائم، وأنهما يشتركان في كون كلٍّ منهما تعويذة، لكن الرُّقى تعويذة قولية، أما التمائم فهي تعويذة مُعلَّقة.

المطلب الثاني: النصوص الواردة فيها:

ورد في التمائم - وما في حكمها - جملة من النصوص، ساق الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ طرفا منها. ومن ذلك:

عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أَنَّهُ رَأَى فِي عُنُقِهَا خَيْطًا، قَالَ: مَا هَذَا الْخَيْطُ؟ قَالَتْ: قُلْتُ: خَيْطٌ أُرْقِيَ لِي فِيهِ، قَالَتْ: فَأَخَذَهُ فَقَطَعَهُ، ثُمَّ قَالَ:

إِنَّ آلَ عَبْدِ اللَّهِ لَأَغْنِيَاءُ عَنِ الشِّرْكِ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ الرُّقَى، وَالتَّمَائِمَ، وَالتِّوَلَةَ، شِرْكٌ**»(١).

وعن عُقبة بن عامر الجُهنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَقْبَلَ إِلَيْهِ رَهْطٌ، فَبَايَعَ تِسْعَةً وَأَمْسَكَ عَنْ وَاحِدٍ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، بَايَعْتَ تِسْعَةً وَتَرَكْتَ هَذَا؟ قَالَ: «**إِنَّ عَلَيْهِ تَمِيمَةً**». فَأَدْخَلَ يَدَهُ فَقَطَعَهَا، فَبَايَعَهُ، وَقَالَ: «**مَنْ عَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ**»(٢).

وعن أبي بشير الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَسُولًا أَنْ: «**لَا يَبْقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلَادَةٌ مِنْ وَتَرٍ، أَوْ قِلَادَةٌ إِلَّا قُطِعَتْ**»(٣).

المطلب الثالث: حكم التمائم:

حينما نتأمل في تبويب الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ نجد أنه جزم بالشرك في صورة، ولم يذكر الحكم في صورة أخرى، فقال: «باب من الشرك لبس الحلقة والخيط ...»، وقال: «باب ما جاء في الرقى والتمائم»، فالرُّقى فيها تفصيل سبق بيانه، وبيان أن منها الشرعي ومنها الشركي.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

- **وأما التمائم فلها صورتان:**

الأُولى: أن تكون من غير القرآن والأذكار والأدعية المشروعة:

كأن يُعلِّق خرزات أو أصدافا أو رقعة كُتِب فيها طلاسم، ونحو ذلك، فهذا له أحوال:

١- إذا اعتقد أنها مؤثرة بذاتها، وأنها الشافية الحافظة بنفسها: فهذا شرك أكبر، وهو شرك في الربوبية؛ لأن التأثير في المخلوقات من أفعال الله - تعالى -.

٢- إذا اعتقد أنها سبب يدفع البلاء أو يرفعه بعد نزوله، وليست مؤثرة بذاتها: فهذا شرك أصغر، كما سبق في قاعدة الأسباب.

الثانية: أن تكون التميمة من القرآن ونحوه:

وهذه الصورة اختلف أهل العلم في حكمها، والأقرب - والله أعلم - المنع، وهو الذي عليه الفتوى. ودليل ذلك:

١- عموم أدلة النهي؛ فقد جاءت بصيغ العموم ولم تخصِّص. كما في قوله ﷺ: «**إِنَّ الرُّقَى، وَالتَّمَائِمَ، وَالتِّوَلَةَ، شِرْكٌ**»[١]. وهذا من صيغ العموم (المحلى بـ «أل»)، وقوله ﷺ: «**مَنْ عَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ**»[٢]؛ فقوله: «**تَمِيمَةً**»: نكره في سياق الشرط فتفيد العموم.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

٢- أنَّ فيه تعريضَ كلامِ الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ للامتهان؛ لأنه قد يدخل بها الخلاء، أو يقضي حاجته، ونحو ذلك.

٣- قاعدة سد الذريعة؛ لأن فتح الباب قد يُفضي إلى تعليق ما ليس كذلك.

وأيضا؛ فإن من يُعلِّق التمائم القرآنية يفضي به ذلك إلى الاستغناء عن القرآن والتعلُّق به قراءة وتدبرا؛ لأنه يقول: أفضل القرآن الفاتحة وآية الكرسي معلقة على صدري، فلا حاجة أن أقرأها.

وهذا مذهب ابن مسعود، كما سبق في خبر امرأته زينب رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا.

وقال إبراهيم النخعي: «كانوا يكرهون التمائم كلها، من القرآن وغير القرآن»(١).

ومن أقوى ما استدل به المجيزون: ما جاء عن عبد الله بن عمرو أنَّ رسول الله ﷺ كان يُعلِّمُهم من الفزع كلماتٍ: «**أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ، مِنْ غَضَبِهِ وَشَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونِ**»، وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرو يُعَلِّمُهُنَّ مَنْ عَقَلَ مِنْ بَنِيهِ، وَمَنْ لَمْ يَعْقِلْ كَتَبَهُ فَعَلَّقَهُ عَلَيْهِ(٢).

وأجيب عنه بجوابين:

الأول: ضعف هذا الأثر، كما ذكرنا في تخريجه.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) **ضعيف**: أخرجه أبو داود (٣٨٩٣)، والترمذي (٣٥٢٨)، وأحمد في «المسند» (٦٦٩٦)، بإسناد ضعيف؛ فيه عنعنة محمد بن إسحاق، وهو مدلس.

الثاني: أنه لو صح؛ فيُحمل على أنه فعل ذلك؛ لأجل أن يَحفَظ أولادُه ما كتب عليها[١].

وجوَّز بعض أهل العلم هذه التمائم بعد نزول البلاء لا قبلَه. واستدلوا بما جاء عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قالت: «التَّمَائِمُ مَا عُلِّقَ قَبْلَ نُزُولِ الْبَلَاءِ، وَمَا عُلِّقَ بَعْدَهُ فَلَيْسَ بِتَمِيمَةٍ»[٢].

ومع القول بالمنع في هذه الصورة، إلَّا أنَّه لا يُشدد فيها كالصورة الأولى، ولا تُوصف بأنها شركية.

- **ومن أمثلة وتطبيقات هذا الباب:**

أولا: تعليق شيء من القرآن على جدار البيت أو المكتب ونحوه: وهذا يختلف حكمه باختلاف الباعث عليه:

فإن كان تعليقه لأجل الزينة - فترى الآيات في هذه الحال مزخرفة ملونة، ورُبَّما رسمت على أشكال معينة يتعَب الناظر في قراءتها -: فهذا خروج بالقرآن العظيم عن المراد به؛ فهو كتاب هداية ونور، وجعلُه وسيلة زينة وتجمُّل نوع امتهان له. ولا يجوز ذلك.

---

(١) ذكره الشيخ ابن باز في تعليقه على «فتح المجيد» ص ١٠٩.

(٢) أخرجه الطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٧١٧٤)، والحاكم في «المستدرك» (٨٢٩١)، والبيهقي في «الكبرى» (٩/ ٣٥٠)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

وإن كان تعليقُه تبرُّكا به: فهذا التبرك غير مشروع على هذا الوجه، كما سيأتي مفصلا في «باب من تبرك بشجر أو حجر».

وإن كان تعليقُه تحصُّنا، ودفعا للبلاء والشرور: فهذا من جنس التمائم. وسبق الكلام على التمائم إذا كانت من القرآن ونحوه من الأذكار المشروعة، وأن الأقرب والأحوط المنعُ منها.

وإن كان تعليقُه تذكيرا بما فيها، كمن يعلق في المجلس قوله - تعالى -: **﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾** [الحجرات: ١٢]؛ تذكيرا وتحذيرا من الوقوع في هذه المحظورات: فهذا لا بأس به، لأنه داخل في عموم التذكير والوعظ بكتاب الله - تعالى -، فقد يكون بالقول، وقد يكون بالكتابة.

ونظير ذلك من يعلِّق حديث كفارة المجلس في المجلس تذكيرا بها.

ثانيا: لبس الأسورة المعدنية لعلاج بعض الأمراض: فهذه يُرجع فيها إلى قاعدة الأسباب السابقة:

فإن كانت هذه الأسورة لها تأثير مباشر محسوس بسبب مادتها أو شدِّها على موضع من الجسم، أو بسبب ما يصدر عنها من موجات: فهي من الأسباب المباحة.

وإن كان تعليقها مع عدم ثبوت كونها سببا مباشرا، وإنما من باب الاعتقادات الفاسدة، أو الأوهام والخيالات الباطلة: فهي ممنوعة.

المطلب الرابع: التِّوَلَة:

ورد في أحاديث الباب قوله ﷺ: «**إِنَّ الرُّقَى، وَالتَّمَائِمَ، وَالتِّوَلَةَ، شِرْكٌ**»[1].

و«**التِّوَلَة**»: نوع من السِّحر تُحَبَّبُ به المرأة إلى زوجها. وهو ما يُسمى بالعَطف. والصَّرْف بخلافِه؛ تُصرف به المرأةُ عن زوجها. وهذا له تعلُّق بالسحر وسيأتي في بابه، إن شاء الله - تعالى -.

وإذا كان هذا الشيء مما يُعَلَّق فهو داخل في التمائم، وإن كان لا يُعَلَّق فهو من جنس السحر.

ويدخل في هذا ما يُسمى «بالدِّبْلة» - وهو خاتم يلبسه الرجل والمرأة عند الخطوبة - إذا صاحبها اعتقاد أن هذا الخاتم يجلب المحبة بين الزوجين، وأن خلعها يؤثِّر على ذلك، فتجد أنه لو أُخِذ الخاتم منه ورُمِي لأزعجه ذلك، وصار في قلبه قلق وهَمٌّ.

* * *

(١) تقدم تخريجه.

الفصل الثالث: التعليق على النصوص، وربطها بالباب

النص الأول: قول الله - تعالى -: ﴿**قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ**﴾[الزمر: ٣٨]، الآية.

الخطاب للمُشركين: إذا كانت آلهتهم التي يدعونها من دون الله - مع عظمتها في قلوبهم - لا قُدرة لها على كشف ضُرٍّ أراده الله بعبده، أو إمساك رحمةٍ أنزلها على عبده، فكيف بغير الآلهة من الخيوط والحِلق؟!. فيلزمهم بذلك أن يكون الله هو معبودَهم وحده لا شريك له.

وَقَالَ مُقَاتِلٌ فِي الآية: «اسْتَخْبَرَهُمْ فَسَكَتُوا»(١)، أي: سأل النبيُّ ﷺ المشركين بها في الآية: ﴿**قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ** ...﴾، فسكتوا.

وقال الشيخ ابنُ قاسم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ استدَلَّ بالآية النازلة في الأكبر على الأصغر، كما استدل بها ابن عباس وحذيفة وغيرهما. وهذه الآية وأمثالها تُبطِل تعلق القلب بغير الله في جلب نفع أو دفع ضر، وأن ذلك لا يكون إلا بالله وحده، وأن جميع أنواع العبادة لا يصلح منها شيء لغير الله، كما

---

(١) «البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٢٠٦).

دل عليه الكتاب والسنة وإجماع الأمة، وكذلك لا يصلح شيء من أنواع التعلُّقات بغير الله - عز وجل -»[1].

ooo

النص الثاني: عن عمران بن حصين رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى رَجُلًا فِي يَدِهِ حَلْقَةٌ مِنْ صُفْرٍ، فَقَالَ: «**مَا هَذِهِ؟**» قَالَ: مِنَ الْوَاهِنَةِ. فقَالَ: «**انزعها؛ فإِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا، فَإِنَّكَ لَوْ مِتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ مَا أَفْلَحْتَ أَبَدًا**»[2].

هذا الحديث ضعَّفه جماعة من أهل العلم، ويُغني عنه الحديث الآتي.

وقوله: «**رَأَى رَجُلًا**»: هكذا مبهما، وهو عمران رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ راوي الحديث، كما في رواية الحاكم.

وقوله: «**مِنْ صُفْرٍ**»: هو النحاس الأصفر. كان المشركون يجعلونها في أعضادهم، يزعمون أنها تحفظهم من أذى العين والجن ونحوهما، وكذا لُبس حلقة الفضة للبركة، أو لمنع البواسير، وخواتيم لها فصوص مخصوصة للحفظ من الجن وغيرها.

وقوله: «**مِنَ الْوَاهِنَةِ**»: هي عِرق يأخذ بالمنكب أو باليد فيُرقَى منها.

---

(١) «حاشية ابن قاسم على كتاب التوحيد» ص٧٥.

(٢) تقدم تخريجه.

وأخبر النبي ﷺ أن هذه الحلقة لا تنفعه بل تزيده وهَنا؛ لأنه علق قلبه بما لا ينفعه، وهكذا كل سبب لم تثبت سببيته بالشرع، أو بالحس والتجربة الظاهرة، فإنه لا ينفع؛ لقوله ﷺ: «**إِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا؛ فَإِنَّكَ لَوْ مِتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ مَا أَفْلَحْتَ أَبَدًا**».

ooo

النص الثالث: عن عُقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعا: «**مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدَعَةً فَلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ**»[١]، وفي رواية[٢]: «**مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ**».

قوله ﷺ: «**فَلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ**»، أي: لا ترك له ما يحب، أو لا جعله في دعة وسكون، بل حرَّك عليه كل مؤذ، وهذا دعاء عليه؛ معاملةً له بنقيض قصدِه.

والشاهد قوله ﷺ: «**فَقَدْ أَشْرَكَ**»؛ فهذا حكم صريح بالشرك فيمن فعل هذا الفعل، كما بوَّب المؤلف.

قال الشيخ ابن قاسم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإنما كان شركا لما يقوم بقلبه من التعلق على غير الله، في جلب نفع أو دفع ضر، وكمال التوحيد لا يحصل إلا بترك ذلك»[٣].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجها.

(٣) «حاشية كتاب التوحيد» ص ٧٨.

فالتَّوحيد أن تجعل الله واحدا في قلبك؛ تفرغه من كل معبود ومقصود سواه، وتجعل القصد والغاية ربَّ العباد سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ. والناس في التَّوحيد متفاوتون، ليسوا على درجة واحدة.

فلواحدٍ كُن واحدًا في واحدِ أعني سبيلَ الحقِّ والإيمانِ(١)

تنبيه:

قولُ المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي رِوَايَةٍ»: يُوهم أنه مُتَعَلِّق بالحديث السابق، كما جرى عليه اصطلاحُ أهل العلم. والصَّحيحُ أنهما حديثان مستقلان، حديث: «**مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ**»، وحديث: «**مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ**»(٢).

○○○

- **وأما نصوص الباب التالي (باب ما جاء في الرُّقى والتَّمائم):**

النص الأول: عن أبي بشير الأنصاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَأَرْسَلَ رَسُولًا: «**أَلَّا يَبْقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلادَةٌ مِنْ وَتَرٍ، أَوْ قِلادَةٌ إِلَّا قُطِعَتْ**»(٣).

---

(١) «الكافية الشافية» المعروفة بنونية ابن القيم، بيت رقم (٣٤٨١).

(٢) نبَّه على ذلك الشيخ سليمان بن عبد الله في «تيسير العزيز الحميد» ص ١٢٦.

(٣) تقدم تخريجه.

«**البَعِير**»: يقع على الذكر والأنثى، و«**الوَتَر**»، بفتحتين: واحد أوتار القوس، وكان أهل الجاهلية إذا خَلُقَ الوترُ أبدلوه بغيره، وقلَّدوا الدواب القديم؛ اعتقادا منهم أنه يدفع عن الدابة العين، ويدفع عنهم المكاره والشرور!

والشاهد: أن إنكار النبي ﷺ تعليق مثل هذه القلائد، وإرسال من يقوم بقطعها، يدُلُّ على شناعة الفعل.

ooo

النص الثاني: عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ الرُّقَى، وَالتَّمَائِمَ، وَالتِّوَلَةَ، شِرْكٌ**»[١].

هذا الحديث له قصة، روَتْها زينبُ امرأةِ عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قالت: كَانَ عَبْدُ اللَّهِ إِذَا جَاءَ مِنْ حَاجَةٍ فَانْتَهَى إِلَى الْبَابِ تَنَحْنَحَ وَبَزَقَ؛ كَرَاهِيَةَ أَنْ يَهْجُمَ مِنَّا عَلَى شَيْءٍ يَكْرَهُهُ، قَالَتْ: وَإِنَّهُ جَاءَ ذَاتَ يَوْمٍ فَتَنَحْنَحَ، قَالَتْ: وَعِنْدِي عَجُوزٌ تَرْقِينِي مِنْ الْحُمْرَةِ[٢]، فَأَدْخَلْتُهَا تَحْتَ السَّرِيرِ، فَدَخَلَ فَجَلَسَ إِلَى جَنْبِي فَرَأَى فِي عُنُقِي خَيْطًا! قَالَ: مَا هَذَا الْخَيْطُ؟ قَالَتْ: قُلْتُ: خَيْطٌ أُرْقِيَ لِي

(١) تقدم تخريجه.

(٢) قال الزبيدي في «تاج العروس»، مادة «حمر» (١١/ ٨٥): «الحُمرة: داء يعتري الناس فيحمر موضعها. وقال الأزهري: هو (ورم من جنس الطواعين)، نعوذ بالله منها».

فِيهِ. قَالَتْ: فَأَخَذَهُ فَقَطَعَهُ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ آلَ عَبْدِ اللَّهِ لَأَغْنِيَاءُ عَنْ الشِّرْكِ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ الرُّقَى، وَالتَّمَائِمَ، وَالتِّوَلَةَ، شِرْكٌ**»(١).

وهذا الحديث نص في الحكم على هذه الثلاثة، لكن قوله ﷺ: «**إِنَّ الرُّقى شِرْكٌ**»، من العام الذي أريد به الخاص؛ لأن من الرُّقى ما ليس بشرك، والنَّبي ﷺ رَقى ورُقِي، وقال: «**لَا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ**»(٢).

ooo

النص الثالث: عن عبد الله بن عُكَيْم مرفوعا: «**مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ**»(٣).

التعلق يكون بالقلب، ويكون بالفعل، ويكون بهما جميعا، فمن تعلَّق شيئا وكَله الله إلى ذلك الشيء الذي تعلَّقه؛ فمن تعلق باللهِ وأنزل حوائجه به والتجأ إليه، وفوَّض أمره إليه كفاه، ومن تعلق بغيره، أو سكن إلى رأيه وعقله ودوائه وتمائمه ونحو ذلك، وكلَه الله إلى ذلك وخذله، وهذا أمر معروف بالنصوص والتجارب: ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ**﴾ [الطلاق: ١٣](٤).

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) ينظر: «حاشية ابن قاسم» ص٨٤.

فيا خسارة من وُكِل إلى خرقة أو خيط أو خرزات!.

وهذا يدعو المؤمن أن يعتني بقلبه ومتعلَّقاته، بِمَ يتعلق؟.

ولْيكن تعلُّق القلب بخالقه لا بالمخلوق؛ سواء تعلق بهم في قضاء الحاجات، أو تعلق بالذوات، وهو ما يسمى بالعشق أو الإعجاب، وهو داء عظيم يفسد القلب والنفس.

وهذا يدل على أن المُوحِّد كلما جرد تعلقه بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، زادت قوته وثباته، والعكس بالعكس. وهذا مظهر من مظاهر وآثار التوحيد على قوة القلب وصحة النفس.

فائدة:

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أقسام التعلق بغير الله:

الأول: ما يُنافي التوحيد مِن أصله، وهو أن يتعلق بشيء لا يمكن أن يكون له تأثير، ويعتمد عليه اعتمادا، مُعرِضا عن الله، مثل تعلُّق عُبَّاد القبور بمن فيها عند حلول المصائب ...: فهذا لا شك أنه شرك أكبر مخرج من الملة.

الثاني: ما ينافي كمال التوحيد، وهو أن يعتمِدَ على سبب شرعي صحيح مع الغفلة عن المسبب، وهو الله - عز وجل - وعدم صرف قلبِه إليه: فهذا نوع من الشرك، ولا نقول شرك أكبر؛ لأن هذا السبب جعله الله سببا.

الثالث: أن يتعلق بالسبب تعلُّقا مجردا؛ لكونه سببا فقط، مع اعتماده الأصلي على الله؛ فيعتقد أن هذا السبب من الله، وأن الله لو شاء لأبطل أثره، ولو شاء لأبقاه، وأنه لا أثر للسبب إلا بمشيئة الله - عز وجل -: فهذا لا ينافي التوحيد لا كمالا ولا أصلا، وعلى هذا لا إثم فيه»(١).

ooo

النص الرابع: عن رُوَيْفِع قال: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**يَا رُوَيْفِعُ، لَعَلَّ الْحَيَاةَ سَتَطُولُ بِكَ؛ فَأَخْبِرِ النَّاسَ أَنَّ مَنْ عَقَدَ لِحْيَتَهُ، أَوْ تَقَلَّدَ وَتَرًا، أَوْ اسْتَنْجَى بِرَجِيعِ دَابَّةٍ أَوْ عَظْمٍ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا بَرِيءٌ مِنْهُ**»(٢).

والشاهد قوله ﷺ: «**أَوْ تَقَلَّدَ وَتَرًا**»، والوَتَر حَبْلُ القوس الذي يُشَدُّ به السَّهْم عند إرادة رميه، كانوا يعلِّقُونه في أعناقهم أو دوابهم يزعمون أنه يمنع العين.

وقوله ﷺ: «**فَإِنَّ مُحَمَّدًا بَرِيءٌ مِنْهُ**»: هذه الصيغة تدل على أن هذا الفعل من الكبائر.

ooo

---

(١) «القول المفيد» (١/ ١٨٣).

(٢) تقدم تخريجه.

النص الخامس: عن سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «مَنْ قَطَعَ تَمِيمَةً مِنْ إِنْسَانٍ كَانَ كَعَدْلِ رَقَبَةٍ»(١).

وقوله: «كَعَدْلِ رَقَبَةٍ»: يعني له ثواب كثواب من أعتق رقبة.

ووجه المشابهة: أن معلِّق التميمة كأنه مستعبَدٌ للشيطان، فإذا قطعها الإنسان منه أعتقه من أسر الشيطان وشِركه؛ فكلاهما فيه تحرير من رقِّ العبودية: عبودية القلب في معلِّق التميمة، وعبودية المال في العبد الذي يباع.

ooo

النص السادس: عن إبراهيم قال: «كَانُوا يَكْرَهُونَ التَّمَائِمَ كُلَّهَا، مِنَ القُرْآنِ وَغَيْرِ القُرْآنِ»(٢).

إبراهيم هو النخَعِيُّ الإمام الكُوفي المشهور، أخذ العلم عن أصحاب ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وقوله «كَانُوا»: الواو عائدة على أصحاب عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، كان مذهبهم الكراهة، والكراهة في زمن السَّلف تُطلق على المُحَرَّم.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

وهذا استعمال القرآن أيضا؛ فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لما ذكر جملة من كبائر الذنوب: كقتل النفس، والزنا، وأكل مال اليتيم، وغيرها، قال: ﴿**كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا**﴾ [الإسراء: ٣٨]، وهذا بخلاف ما اصطَلَح عليه المتأخرون، وتقرر في علم أصول الفقه من التفريق بين المحرم والمكروه في الأحكام الشرعية التكليفية.

* * *

٨- باب
من تبرك بشَجر أو حجر ونحوهما

وَقَوْلِ اللَّهِ -تعالَى-: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ [النجم: ١٩] الآياتِ.

عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى حُنَيْنٍ، وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ، وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ يَعْكفُونَ عِنْدَهَا وينُوطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ يُقَالُ لَهَا «ذَاتُ أَنْوَاطٍ»! فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**اللَّهُ أَكْبَرُ! إِنَّهَا السُّنَنُ! قُلْتُمْ -وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ- كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾** [الأعراف: ١٣٨]. **لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ**». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ(١).

ooo

الشرح:

ذكر المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ في هذا الباب آية وحديثا واحدا.

والكلام على هذا الباب في ثلاثة فصول:

* * *

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذي في سننه (٢١٨٠)، وأحمد في «المسند» (٢١٨٩٧)، وصححه الألباني.

الفصل الأول: مقصود الباب، وموضوعه العام

مقصود هذا الباب: الإشارةُ إلى صورة من صور الشرك، وبيان التبرك الممنوع، والتحذير منه. والتوحيد يتجَلَّى ببيان ضِدِّه، كما قيل: وبضدها تتميز الأشياءُ، والشِّرك ضدُّ التوحيد.

وقولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الترجمة: «باب مَن تَبَرَّك بشجر أو حجر ونحوهما»، يُحتمل أن تكون «مَن» فيه شَرطية، و«تَبَرَّك» فعل الشرط، والجواب محذوف تقديره: فقد أشرك بالله.

ويُحتمل أن تكون موصولة فيكون معناها: باب بيان حُكم من تَبَرَّك بالأشجار والأحجار ونحوها، وما يترتب عليه من الوعيد.

* * *

الفصل الثاني: المباحث الموضوعية

مسألة البركة والتبرُّك مما زلت فيه الأقدام، وضلت فيه الأفهام، وعلى طالب العلم أن يحرِّرَها ويضبط صورها وأحكامها بلا غُلُو ولا جفاء.

المبحث الأول: معنى البركة، وما يتصل بها من ألفاظ(١):

«**التَّبَرُّك**»: هو طلب البركة.

و«**البَرَكَة**» تُطلق على معنيين: الأول: الثُّبُوت، والثاني: النماء والزيادة.

وهي مأخوذة من البِرْكَة؛ لكون مائها ثابتا وكثيرا؛ لأنه يجتمع ويستقرُّ فيها.

فالمراد بالبَرَكة: كثرة الخير، وثبوته في شيء ما. سواء كان هذا الشيء آدميًّا أو جمادا؛ كالحجر والشجر.

و«**التَّبرك بِالشَّيء**»: هو طلب البركة بواسطته.

فيكون معنى الترجمة (**بابُ مَنْ تَبَرَّكَ بِشَجَرٍ أَوْ حَجَرٍ**) أي: طلَبَ البركة بواسطة ما ذُكِر.

(١) يُنظر لهذا المبحث: مادة «برك» في: «لسان العرب» (١٠/ ٣٩٦)، و«تاج العروس» (٢٧/ ٥٩)، وغيرها كثير.

«**والتَّبْرِيك**»: الدعاء بالبركة، وفي الحديث أنَّ أسماء بنت أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا لمَّا ولدت عبد الله بن الزبير رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، أتت به النبي ﷺ: فـ«حَنَّكَهُ بِتَمْرَةٍ ثُمَّ دَعَا لَهُ، **وَبَرَّكَ عَلَيْهِ**»[(١)]، أي: أي دعا له بالبركة.

ومن الألفاظ المُشتقَّة من هذه المادَّة: لفظ «**تَبَارَكَ**»، ومعناه: تعالى وتعاظَم وتقدَّس، وهذه اللفظة (تبَارك) لم يُوصف بها أحدٌ في الكتاب والسُّنة إلا الله - عزَّ وجلَّ -، فلا يُقال في حق المخلوق «تَبَارك فلان».

ورجح ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ أن معنى «تبارك» أقرب إلى الوصف من الفعل؛ لأنَّ تبارك لازم، وبارك مُتعدٍّ[(٢)].

ооо

المبحث الثاني: أقسام التبرك. وفيه مطلبان:

المطلب الأول: التبرك المشروع:

التبرُّك المشروع: هو ما دَلَّ الدليل على ثُبوت الخير فيه، ومشروعية التَّبرك به. فإذا ثبت هذا فهو تبرك مشروع، وهذا يقع في الأشخاص، والأزمان، والأعيان، والأماكن.

ومن أمثلته:

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٣٩٠٩)، ومسلم (٢١٤٦).

(٢) يُنظر: «بدائع الفوائد» (٢/ ١٨٦).

أولا: القرآن الكريم: قال الله – تعالى –: ﴿**وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٌ**﴾ [الأنعام: ٩٢]، فالقرآن مبارك، وتُطلب به البركة.

ثانيا: آثار النَّبي ﷺ: فهي مباركة، تُطلب بها البركة، وهذا من خصوصياته ﷺ. ولهذا كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يحرِصون على آثاره ﷺ، من شَعرِه، وعرَقِه، وكادوا يقتتلون على فضل وضوئه.

ثالثا: السَّحور للصائم: يدلُّ على بركتِه قولُ النبي ﷺ: «**تَسَحَّرُوا فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَةً**»(١).

رابعا: البيت الحرام: دلَّ على بركتِه قول الله – تعالى –: ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ**﴾ [آل عمران: ٩٦].

خامسا: الاجتماع على الطعام، وذِكْر اسم الله عليه: فهذا من أسباب البركة لقوله ﷺ: «**اجْتَمِعُوا عَلَى طَعَامِكُمْ، وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ، يُبَارَكْ لَكُمْ فِيهِ**»(٢).

سادسا: الزيتون: فشجرته مباركة، كما جاء في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ**﴾ [النور: ٣٥].

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (١٩٢٣)، ومسلم (١٠٩٥)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) **حسن**: أخرجه أبو داود (٣٧٦٤)، وابن ماجه (٣٢٨٦)، من حديث وحشي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحسنه الألباني والأرناؤوط، وفي أوله سبب ورود.

سابعا: التبكير: فهو من أسباب حصول البركة؛ لقوله ﷺ: «**بورِكَ لأمَّتي في بُكورِها**»[1]، فمن أراد الإنجاز والإنتاج في عمله - عِلما أو تجارة أو صناعة أو غير ذلك -، فعليه بالبُكور.

ثامنا: الخيل: فهي من الأعيان المباركة، كما يدل عليه قول النبي ﷺ: «**الخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الخَيْرُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ: الأَجْرُ وَالمَغْنَمُ**»[2].

المطلب الثاني: التبرك الممنوع، ومتى يكون التبرك شركا؟

التبرك الممنوع: هو ما لم يتحقق فيه ضابط التبرُّك المشروع. ومنه ما ذُكِر في حديث الباب من قصة «ذات أنواط»، وإنكار النبي ﷺ عليهم ذلك. ومن أمثلته أيضا: التَّبرك بآثار الصالحين؛ كثيابهم وبقايا طعامهم.

- **والتبرك الممنوع له صورتان:**

الأولى: أن يعتقد النَّفع في المتبَرَّك به استقلالا من دون الله، بمعنى: أن يعتقد أن هذا الذي يُتَبرَّك به ينفع ويضر استقلالا بذاته. ولا ريب أنَّ هذا من الشرك الأكبر.

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٢٦٠٦)، والترمذي (١٢١٢)، وابن ماجه (٢٢٣٦)، وصححه الألباني.

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٢٨٥٢) وفي مواضع أخرى، ومسلم (١٨٧٣)، من حديث عروة البارقي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومثاله: من ذَهب إلى شجرة مُعظَّمة وأخذ يتمسح بها، وفي قلبه تعظيمٌ لها، واعتقاد أن هذه الشجرة تجلب له النفع، أو تدفع عنه الضر. فإذا قام بقلبه هذا الاعتقاد، فقد وقع في الشرك الأكبر المُخرِج عن الملة. وهو شرك في الربوبية؛ لأن هذه الأمور من أفعال الله - تعالى -.

وعن سالم بن أبي الجَعدِ عن جابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: قَدْ رَأَيْتُنِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ حَضَرَتِ العَصْرُ، وَلَيْسَ مَعَنَا مَاءٌ غَيْرَ فَضْلَةٍ، فَجُعِلَ فِي إِنَاءٍ فَأُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِهِ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهِ وَفَرَّجَ أَصَابِعَهُ، ثُمَّ قَالَ: «**حَيَّ عَلَى أَهْلِ الوُضُوءِ، البَرَكَةُ مِنَ اللَّهِ**». فَلَقَدْ رَأَيْتُ المَاءَ يَتَفَجَّرُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ، فَتَوَضَّأَ النَّاسُ وَشَرِبُوا، فَجَعَلْتُ لا آلُو مَا جَعَلْتُ فِي بَطْنِي مِنْهُ، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ بَرَكَةٌ. قُلْتُ لِجَابِرٍ: كَمْ كُنْتُمْ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: أَلْفًا وَأَرْبَعَ مِئَةٍ[(١)].

وعند التأمل فيما صنعه المشركون المذكورون في الحديث، نجد أنهم جمعوا ثلاثة أمور: التعظيم لتلك الشجرة، والعكُوف عندها، كما قال في الحديث: «**وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا**»، وطلب البركة منها.

والثانية: أن يعتقد المتبرِّك بشيء أنه سبب للبركة، مع كون هذا الشيء لم تثبتْ له البركة.

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٥٦٣٩) وفي مواضع أخرى، واللفظ له، ومسلم (١٨٥٦).

مثل أن يذهب إلى قبر، أو شجر، أو حجر، ويتمسَّح به، يعتقد أن هذا التَّمسُّح سبب لحصول مطلوبه؛ كشفاء مريض، أو تيسُّر رزق، أو زواج أو حصول ولد، أو غير ذلك.

فهو لم يعتقد فيه التأثير بذاته، وأنه يفعل ذلك استقلالا، وإنما اعتقد أنه سبب في حصوله. فلو قُدِّر حصول المطلوب، وسئل: من أحدث ذلك؟ لقال: الله. فإن قيل له: لم جئت إلى هذا، وتمسحَّت به؟ لقال: لأنه سبب في حصوله.

وها هنا أمر يجب التفطن له، وهو أن قضية الشرك مبنية - في كثير من الصور على اعتقاد القلب - فبحسب ما يقوم في القلب من الاعتقاد يختلِف الحُكم ويتأثر. والحكم في هذه الصورة: أنه شرك أصغر، بناء على قاعدة الأسباب السابق ذكرها.

والحاصل أنه يُنظر في هذه المسألة إلى جانبين:

الأول: المُتبرَّك به، بأن تكون بركته ثابتة.

الثاني: صفة وكيفية التبرُّك، بأن تكون مشروعة.

ooo

المبحث الثالث: أمثلة تطبيقية:

المراد بهذا المبحث ترسيخ ما سبق من التأصيل لهذا الموضوع؛ بالتطبيق على بعض الأمثلة.

أولا: المسجد الحرام:

المسجد الحرام بُقعة مباركة، والتبرك بها يكون بالاستكثار من الطواف - الذي لا يكون في غيره -، ومن الصلاة التي تُضاعف فيه بمئة ألف صلاة[1]. والكعبة مباركة بنص القرآن: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦].

وليس من التبرك به التمسُّح بجدرانه أو التزام أعمدته مثلا.

ثانيا: التمسح بأستار الكعبة:

وسبق أنَّ الكعبة بناء مبارك، لكنَّ التمسح بسُتورها له صور:

الأولى: أن يعتقد النفع فيها استقلالا، وأنها جالبة للخير بذاتها، أو فَعَل ذلك لأنها واسطة إلى الله: فهذا شرك أكبر.

الثانية: أن يفعل ذلك طلبا للبركة منها، وأنها سبب لحصولها: فهذا شرك أصغر.

الثالثة: أن يفعل ذلك تعبُّدا وتقربا إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: فهذا بدعة.

وفرق بين التعبُّد والتبُّرك؛ فنحن نمسح الحجر الأسود ونقبِّلُه؛ تعبُّدا لا تبرُّكا، كما قال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «واللهِ، إنِّي لَأُقَبِّلُكَ، وَإِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ، وَأَنَّكَ لا تَضُرُّ وَلا تَنْفَعُ، وَلَوْلا أَنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَبَّلَكَ ما قَبَّلْتُكَ»[2].

---

(١) ينظر: صحيح البخاري (١١٨٩)، ومسلم (١٣٩٧).

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (١٥٩٧) وفي مواضع أخرى، ومسلم (١٢٧٠).

وعلامة قَصدِ التبرُّك ما يفعله البعض أنه يمسح بيده على صدره، أو على وجهِه، أو على صدر طفلِه ووجهه، وهذا ليس بمشروع.

الرابعة: أن يفعله لينظر ملمسه ومادة صنعه: فهذا جائز، لكنَّه لا ينبغي لمن يُقتدى به.

ثالثا: العالم بالشريعة:

علماء الشريعة مباركون؛ بمعنى: أنَّ فيهم بركةً لما يحملون في صدورهم من علم وبركة القرآن والسنة. والتبرُّك بالعالم يكون بأن يُنهل من علمِه ويُعمل به، لا بأن يُتَمَسَّح ببدنه أو بثيابه.

والتبرُّك بالذات خاص بالنبي ﷺ، كما كان الصحابة يتبركون بشعره وعرَقه، ويقتتلون على فضل وضوئه ﷺ. أما غيره من الصالحين والعلماء فلا يُتبرك بذواتهم؛ لأمور:

منها: أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لم يفعلوا ذلك مع سادات الصالحين، ورؤوس العلم؛ كالخلفاء الأربعة وبقية العشرة، وكابن مسعود وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وغيرهم. ولم يفعله التابعون مع الصحابة، وكل خير في اتباع من سلف.

ومنها: أن هذا ذريعة إلى الغُلُو فيهم، فربَّما جَرَّ إلى الوقوع في الشرك بسبب ذلك، كما حصل لقوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ومنها: أنَّ فيه فتنة عظيمة للمتبرَّك به، والحي لا تؤمن عليه الفتنة.

ولهذا لمَّا جاء رجل إلى الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ فمسح يده على ثيابه ومسح بهما وجهه، غضب الإمام وأنكر ذلك أشد الإنكار، وقال: عمن أخذتم هذا الأمر؟!(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن بركة الرجل: تعليمُه للخير حيث حَلَّ، ونصحه لكل من اجتمع به، قال الله - تعالى -؛ إخبارا عن المسيح: ﴿**وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ**﴾ [مريم: ٣١]، أي: مُعلِّما للخير داعيا إلى الله، مُذَكِّرا به مُرَغِّبا في طاعته، فهذا من بركة الرجل، ومَن خلا مِن هذا؛ فقد خلا من البركة، ومحقت بركة لقائه»(٢).

رابعا: القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿**كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٌ**﴾ [ص: ٢٩]، ومن بركة القرآن: أنه شفاء، ومن قرأ منه حرفا فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها(٣). والتبرُّك به يكون بتلاوته، وطلب الهداية، والاستشفاء به، لا بالتمسح به، أو وضعه على السيارة، أو تعليقه على الجدران.

---

(١) «الحكم الجديرة بالإذاعة» ص ٤٧.

(٢) «رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه» ص ٥.

(٣) ينظر: سنن الترمذي (٢٩١٠).

خامسا: ليلة الإسراء:

لا شكَّ أنَّ الإسراء كان خيرا وبركة على المسلمين، لكنَّ ليلته لم تكن غير ظرف له؛ ولذلك لم يرد فيها شيء، فلا يصح أن نتبرك بها لذاتها من كل عام.

ooo

المبحث الرابع: حكم بعض الألفاظ المتعلقة بالبركة:

أولا: تباركت علينا:

سبق معنا بيان معنى كلمة «تبارك». وفي جواب للشيخ محمد بن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «(تبارك) بهذه الصيغة يقولون: إنها خاصة بالله، والعوام لا يقصدون المعنى الخاص بالله أبدا، وإنما يقصدون بقولهم: (تباركت علينا) أنه حصل في مجيئك بركة وخير. [والبركة يصح إضافتها إلى الإنسان، قال أُسيد بن حضير رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ - لما نزلت آية التيمم بسبب عِقد عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا الذي ضاع منها-: «مَا هِيَ بِأَوَّلِ بَرَكَتِكُمْ، يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ»[1]. ثم هذه البركة إن كانت بركة صوفية، بمعنى: أن البركة في شخصه فقط؛ فهذه حرام، وإن كانت البركة أنه أسدى إليهم علما، بأن جلس وعلمهم مثلا، أو نفعهم بمال: فهذا حق. وإن لم ينفعهم: فهو كذب لا يجوز»[2].

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣٣٤) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٣٦٧).

(٢) ينظر: «لقاءات الباب المفتوح» (٢٢٧ / ١٥)، والزيادة من مجموع فتاويه (٣/ ٩١).

ثانيا: زارتنا البركة:

هذه من العبارات الدارجة، ولها حالان - بحسب من قيلت فيه -:

الحال الأولى: أن يكون فيه بركة ظاهرة، من عِلم ودعوة، أو نفع بمال وجاه ونحو ذلك.

فهنا: إنْ قصد البركة المعنوية بما يحصل من أثر علمه وماله: فجائز، والأَولى تركُها؛ لما فيها من المدح، ولما يخشى منها من الفتنة والعُجب، لا سيما مع هذا التعريف «البركة»، ولما فيها من الإيهام عند عوام السامعين الذين يظنون المراد: بركة الذات.

وإن قصد البركة الذاتية «الصوفية»: فلا يجوز. ويختلف الحكم بحسب المعتقَد.

الحال الثانية: ألا يكون فيه بركة ظاهرة: فهذه كذب، وإطراء يتضمن مفاسد كما سبق.

فالأَولى استبدالها بعبارة أخرى؛ مثل: مرحبا، حياكم الله، ونحوها.

وكذا عبارة «كلُّه بركة» أو «كلُّك بركة»: فهذه لو كان المَقول فيه صاحب بركة في علمه أو ماله فينبغي اجتنابها؛ لأنه مهما بلغ فلا يكون «كله بركة»، مع ما فيها من الإطراء، وخشية العُجب والفتنة.

ثالثا: هذا من بركاتك أو بركات فلان:

وهذه جائزة إن كان حصل منه خير ينفع الناس بعلم أو دعوة أو مال، ونحو ذلك.

وقد أثبت الكتاب والسنة البركة لبعض الناس، قال تعالى: ﴿**وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ**﴾ [مريم: ٣١]. ولمَّا نزلت آية التيمم بعد إقامتهم على عِقد عائشة، قال أسيد بن حضير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا هِيَ بِأَوَّلِ بَرَكَتِكُمْ يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ»(١). ولما تزوَّج النبي ﷺ جُوَيْرِية بنت الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قال الناسُ: أصهار رسول الله ﷺ؛ فأرسلوا ما بأيديهم. قالت عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «فَمَا رَأَيْنَا امْرَأَةً كَانَتْ أَعْظَمَ بَرَكَةً عَلَى قَوْمِهَا مِنْهَا، أُعْتِقَ فِي سَبَبِهَا مِئَةُ أَهْلِ بَيْتٍ مِنْ بَنِي الْمُصْطَلِقِ»(٢).

* * *

(١) تقدم تخريجه.

(٢) **حسن**: أخرجه أبو داود (٣٩٣١)، وأحمد (٢٦٣٦٥)، وحسنه الألباني.

الفصل الثالث: التعليق على النصوص، وربطها بالباب

النص الأول: قول الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ [النجم: ١٩] الآياتِ.

ومناسبة الآية للترجمة: أن عِبادة المشركين لها إنما كانت بالتفات القلوب رغبةً إليها في حصول ما يرجونه ببركتها؛ من جلب نفع أو دفع ضر، فصارت أوثانًا تُعبد من دون الله[1].

و«**اللَّاتُ**»: صخرة بيضاء منقوشة، وعليها بيت بالطائف له أستار وسَدَنة. اشتقوا اسمها من الله - تعالى -. وحُكِي عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، ومجاهد، والربيع بن أنس: أنهم قرأوا «اللَّاتَّ» بتشديد التاء، وفسروه بأنه كان رجلا يَلُتُّ السَّوِيقَ للحجيج في الجاهلية، فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه.

و«**العُزَّى**»: كانت شجرة عليها بناء وأستار بنَخْلَة، وهي بين مكة والطائف.

و«**مَنَاة**»: صنم بالمُشَلَّلِ عند قُدَيْد، بين مكة والمدينة.

ooo

النص الثاني: عن أبي واقِد اللَّيْثِيِّ قال: «خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى حُنَيْنٍ، وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ، وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا وَيَنُوطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ يُقَالُ لَهَا «ذَاتُ أَنْوَاطٍ»! فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ،

---

(١) «حاشية كتاب التوحيد» ص٩١.

اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**اللَّهُ أَكْبَرُ! إِنَّهَا السُّنَنُ! قُلْتُمْ - وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ -كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾** [الأعراف: ١٣٨]. **لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ**»(١).

قال الشيخ ابن قاسم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «(وَيَنُوطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ)، أي: يعقلونها عليها لتنالهم بركتها؛ فعبادتهم لها بالتعظيم والعُكوف والتبرك، وبهذه الثلاثة (العكوف والتعظيم والتبرك) عُبِدت الأوثان من دون الله»(٢).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإذا كان اتخاذ هذه الشجرة؛ لتعليق الأسلحة والعُكوف حولها، اتخاذَ إله مع الله - تعالى -، مع أنهم لا يعبدونها ولا يسألونها، فما الظن بالعكوف حول القبر والدعاء به، ودعائه، والدعاء عنده؟! فأيُّ نسبة للفتنة بشجرة إلى الفتنة بالقبر، لو كان أهل الشرك والبدعة يعلمون؟!»(٣).

* * *

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «حاشية كتاب التوحيد» ص٩٣.

(٣) «إغاثة اللهفان» (١/ ٣٧٢).

٩- باب
ما جاء في الذبح لغير الله

وَقَوْلِ اللهِ - تَعالى -: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ...﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣] الآيةَ.

وَقولِه: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢].

عَنْ عَلِي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قالَ: حَدَّثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ بِأَرْبَعِ كَلِماتٍ: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ آوَى مُحْدِثًا، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ غَيْرِ مَنَارَ الْأَرْضِ»(١). رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «دَخَلَ الْجَنَّةَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ، وَدَخَلَ النَّارَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ». قَالُوا: وَكَيْفَ ذَلِكَ، يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «مَرَّ رَجُلَانِ عَلَى قَوْمٍ لَهُمْ صَنَمٌ لَا يَجُوزُهُ أَحَدٌ حَتَّى يُقَرِّبَ لَهُ شَيْئًا، فَقَالُوا لِأَحَدِهِمَا: قَرِّبْ. قَالَ: لَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ أُقَرِّبُهُ. قَالُوا لَهُ: قَرِّبْ وَلَوْ ذُبَابًا، فَقَرَّبَ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٩٧٨).

ذُبَابًا، فَخَلَّوا سَبِيلَهُ، فَدَخَلَ النَّارَ! وَقَالُوا لِلْآخَرِ: قَرِّبْ. فَقَالَ: مَا كُنْتُ لِأُقَرِّبَ لِأَحَدٍ شَيْئًا دُونَ اللَّهِ -عزَّ وجَلَّ-، فَضَرَبُوا عُنُقَهُ؛ فَدَخَلَ الْجَنَّةَ»[1]. رَوَاهُ أَحْمَدُ.

ooo

الشرح:

ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب آيتين وحديثين.

والكلام عليه في ثلاثة فصول:

* * *

(١) **موقوف صحيح، ولم أقف عليه مرفوعا:** أخرجه أحمد في «الزهد» (٨٤)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٣٠٣٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٠٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٩٦٢)، جميعهم من حديث طارق بن شهاب عن سلمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا. وقد ذكره الألباني في السلسلة الضعيفة (٥٨٢٩)، وصححه، وعلّق عليه تعليقات نافعة تتعلق بهذا الباب.

الفصل الأول: مقصود الباب، وموضوعه العام

بيان نوع من أنواع الشرك الأكبر المضاد للتوحيد، وهو الذبح لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

* * *

الفصل الثاني: المباحث الموضوعية

المبحث الأول: الشِّرك الأكبر:

سبقت الإشارة إلى أن الشرك قسمان: أكبر، وأصغر. وهذا أول موضع يُشار فيه إلى الشرك الأكبر؛ ولذا يحسُن أن نؤصِّل لهذا الباب من خلال المطالب الثلاثة التالية:

المطلب الأول: ضابط الشرك الأكبر:

«كل شيء فُعِل لغير الله - تعالى - على وجه التعبُّد».

وهذه العبارة - على اختصارها - كافية لبيان حقيقة الشرك الأكبر وضابطه؛ فكل ما تَعبَّد به الإنسان لغير الله فهو شرك أكبر.

المطلب الثاني: حكم الشرك الأكبر:

- الشرك أعظم ما نهى الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عنه. قال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النساء: ٣٦].
- وهو أول المحرمات كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [الأنعام: ١٥١].
- ومَن وقع فيه خرج عن الملة.

- وصاحبه خالد مُخلَّد في النار. قال تعالى: ﴿**إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ**﴾ [المائدة: ٧٢].
- وهو الذنب الذي لا يغفره الله – عز وجل–. قال تعالى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ**﴾ [النساء: ٤٨].
- وهذا الشرك يُحبِط العمل. قال تعالى: ﴿**وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ**﴾ [الأنعام: ٨٨]، وقال جلَّ ذكرُه: ﴿**وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ**﴾ [الزمر: ٦٥].
- وتحرُم ذبيحة المشرك شِركا أكبر، بينما تحل ذبيحة اليهودي والنصراني!.
- وصاحب هذا الشرك لا يرِث ولا يُورث، بل ماله لبيت المال.
- ولو مات فلا يُصلَّى عليه، ولا يدفن في مقابر المسلمين، وإنما يُحفَر له حفرة في البرِّ، ويُلقَى فيها تخلُّصا منه – والعياذ بالله –.

هذه بعض أحكام الشرك الأكبر، وكما هو ملاحظ فإنها أحكام شديدة توجِبُ على المسلم أن يَحذر غاية الحذر، ويُحذِّر إخوانه من الوقوع فيه.

المطلب الثالث: أقسام الشرك الأكبر:

- **ينقسم الشرك الأكبر – باعتبار محلِّه – إلى ثلاثة أقسام:**

الأول: الشرك الأكبر في الاعتقاد وعمل القلب: ويندرج تحته صور:

١- اعتقاد شريك مع الله - تعالى - في التأثير والتدبير. كمن يعتقد أن الولِيَّ الفلاني ينفع ويضر، ويقدر على إنزال المطر وشفاء المرضى.

٢- اعتقاد شريك مع الله - تعالى - في علم الغيب المطلق.

٣- أعمال القلب؛ كالمحبة والرجاء والخوف والتوكل. وستأتي في أبوابها، إن شاء الله - تعالى -.

الثاني: الشرك الأكبر في الأقوال: ويندرج تحته صور:

١- الدعاء.

٢- التوبة والإنابة.

٣- وصف المخلوق بما لا يوصف به إلا الله - تعالى -. كمن وصف فلانا من الخلق بأنه يعلم الغيب أو له الحياة المُطلقة، أو بيده الإحياء والإماتة، أو تصريف الكون. وهذا يقع في بعض الشعر والإطراء.

الثالث: الشرك الأكبر في الأفعال:

وهذا باب واسع، وضابطه: «كل شيء فُعِل على وجه التعبد لغير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ»؛ كالركوع والسجود والطواف والذبح وغيرها.

- **ويمكن أن يقسَّم الشرك الأكبر، باعتبار أنواع التوحيد، إلى ثلاثة أقسام، أيضا:**

الأول: الشرك الأكبر في توحيد الربوبية: كاعتقاد متصرِّف مع الله - عز وجل- في أي شيء من تدبير الكون، من إيجاد أو إعدام، أو إحياء أو إماتة.

الثاني: الشرك الأكبر في توحيد الأسماء والصفات: كمن شبَّه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بصفات المخلوقين، كاليهود. أو أثبت صفات الخالق للمخلوق، كالعلم المطلق.

الثالث: الشرك الأكبر في توحيد الألوهية: بصرف شيء من أنواع العبادة لغير الله - تعالى -.

ooo

المبحث الثاني: الذبح لغير الله. وفيه مطلبان:

المطلب الأول: معنى الذَّبْح:

الذَّبْح في اللُّغة: هو الشَّقُّ والقطع[1]. واصطلاحا: إزهاق الرُّوح بقَطع الحُلْقُوم وإراقة الدم.

المطلب الثاني: أقسام الذَّبْح:

ينقسم الذبح إلى قسمين:

القسم الأول: الذَّبح على وجه التَّقرُّب والتعبُّد. وهذا القسم له صورتان؛ توحيد وشرك.

١- **فالتَّوحيد**: أن يكون لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا من أعظم القُرَب. ومما يدل على منزلة هذه العبادة أن الله - تعالى - قرنها بالصلاة في موضعين من كتابه كما ذكر المؤلف. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣]، وقال جلَّ ذكره: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢].

---

(١) ينظر مادة «ذبح» في: «الصحاح» (١/ ٣٦٢)، و«تاج العروس» (٦/ ٣٦٧)، وغيرها.

والذبح لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تعبُّدا؛ قد يكون:

واجبا: كهدي التمتُّع، والوفاء بالنذر.

أو مسنونا: كالأضحية والعقيقة على مذهب الجمهور.

- ومما يحسن التنبيه عليه والتذكير به، استحضار نية التعبُّد والتوحيد والتقرب عند ذبح التعبُّد. والواقع أنه يغيب عنا هذا الشعور كثيرا، وننشغل بشراء الذبيحة، واستعدادات الذبح وتوابعه، والطبخ والأكل، فنغفل عن مقصود العبادة وروحها، ألا وهو: تحقيق التوحيد وتجريده، والتقرب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بإراقة الدماء تعبُّدا وذلا وتعظيما.

٢- **والشِّرك**: أن يكون الذبح لغير لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. وهذا شرك أكبر مخرج من الملة، عقد له المؤلف هذا الباب، وساق أهمَّ أدلته.

وتأمل قوله في الحديث: «**قَرِّبْ، وَلَوْ ذُبَابًا**»، فمقصودُهم التقرب والتعبد بأي شيء كان، وإلا فالذباب لا قيمة له!

أمثلة معاصرة لهذا النوع:

أولا: الذبح عند قبور الأولياء والصالحين تقرُّبا إليهم:

وهذا الذبح عند القبر له حالان:

الحال الأولى: أن يذبح لأجل القبر. ولها صورتان:

١- أن يذبح لأجل القبر، ويذكر اسم الله عند الذبح. كمن يأتي عند قبر البدوي مثلا، ويريد أن يتقرب له بذبح شاة، فيقول: بسم الله، ويذبحها.

٢- أن يذبح لأجل القبر، ولا يذكر اسم الله عند الذبح؛ سواء ذكر اسم صاحب القبر أو غيره أو لم يذكر شيئا. كمن يأتي عند قبر الحسين مثلا، ويريد أن يتقرب له بذبح شاة، فيقول: باسم الحسين، ويذبحها.

والصورتان كلتاهما شرك أكبر بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والثانية أشد.

الحال الثانية: أن يذبح لله - تعالى -، ويذكر اسم الله عند القبر: فهذا بدعة، وليس شِركا.

١- **الذبح بأمر السَّحرة والدجالين للجن ونحوهم**؛ لأجل تحقيق ما يراد منهم. فيحصُل كثيرا أن يُصاب أحد الناس بصرع ونحوه، فيذهب به أهله إلى أحد الدجالين الذين يتظاهرون - أحيانا - باحتراف الرُّقى أو الطب الشعبي، فيأمرهم أن يحضروا ديكا أحمر، ويذبحوه للجن؛ ليذهب الذي تلبس به، ويسميه بعضُهم «الزار»!

٢- **الذبح عند قدوم الملوك ومرورهم على وجه التعظيم والتقرب لهم.**

ومن صور التعظيم ذكر اسم غير الله - تعالى -؛ كمن يقول: باسم المسيح، أو باسم الحسين! فهذا شرك، وفيه - أيضا - نوع استعانة بغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فلا بد في الذبح أن يكون لله، ويُذكر عليه اسم الله - تعالى -.

مسألة:

بعض الناس إذا سكن منزلا جديدا يذبح شاة على عتبة المنزل، ويذكر اسم الله عليها، وقصدُه طرد الشياطين والجن والعين؛ فما حكم ذلك؟.

الجواب: أن هذا شرك أصغر؛ بناء على قاعدة الأسباب السابقة، فهذا سبب وهمي، لم يثبت كونه سببا لا في الشرع، ولا في التجربة والحس.

أما لو كان ذَبَح الشاة شكرا لله - تعالى - على نعمة المنزل الجديد، ودعا بعض أقاربه أو جيرانه على هذه الوليمة؛ فهذا لا بأس به.

القسم الثاني من أقسام الذبح: الذبح لا على وجه التقرب والتعبد: وهذا له صور، منها:

١- الذبح لأجل الأكل:

قال تعالى: ﴿**وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ**﴾ [النحل: ٥]، وهذا كما يقول القائل: ذبحت شاة للثلاجة. وهذا مباح، بل قد يثاب عليه إذا نوى النفقة على أهله.

٢- الذبح لإكرام الضيف:

كما يُقال: جاءني ضيف فذبحت له شاة. وهذا مندوب، إذا كان بغير إسراف ومفاخرة؛ لقوله ﷺ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ**»(١).

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٦٠١٩) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٤٨).

وعن جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَنَا مَعَهُ، فَدَخَلَ عَلَى امْرَأَةٍ مِنَ الأَنْصَارِ، فَذَبَحَتْ لَهُ شَاةً، فَأَكَلَ»(١).

٣- الذبح للتجارة:

كمن يذبح شياها أو بقرا أو إبلا؛ ليبيع لحمها ويتربَّح منه.

وجواز الصور السابقة مشروط بما يذكره الفقهاء في أحكام الذكاة؛ إذ أمر الذَّبح يتعلق به جانب اعتقادي وجانب فقهي.

فإذا ذبح المسلم أو الكتابي ولم يذكر اسم الله عليها كانت حراما، فإن كان الذبح بقصد التعظيم والتقرب والتعبُّد لغير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ صار شركا، ولو ذكر اسم الله عليه.

* * *

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٨٠)، وأحمد (١٥١٦٢) وفي مواضع أخري، وقال الألباني: حسن صحيح.

الفصل الثالث: التعليق على النصوص، وربطها بالباب

النص الأول: قول الله - تعالى -: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٣].

دلت الآية على أن النُّسك (الذبح) لا يكون إلَّا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده لا شريك له؛ فصرفه لغيره شرك.

قال الشيخ ابن قاسم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومطابقة الآية للترجمة: أن الله تعبَّد عباده بأن يتقربوا إليه بالنُّسُك، كما تعبدهم أن يتقربوا إليه بالصلاة، وإذا تقربوا إلى غيره بالذبح فقد جعلوا له شريكا في عبادته، وهو ظاهر في قوله: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٣]»(١).

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ لله استحقاقا، ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ لله ملكا وتدبيرا وتصرُّفا.

الصلاة والنسك متعلقة بالألوهية، والمحيا والممات متعلقة بالربوبية.

---

(١) «حاشية كتاب التوحيد» ص٩٦.

وهذه العبادة (النُّسك) جعلها الله لكل أمة مؤمنة سلفت، جعل لها مناسك من الذبح وإراقة الدماء. قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ۗ فَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤].

ooo

النص الثاني: قول الله – عز وجل –: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢].

وجه الدلالة: الأمر بهما: ﴿صَلِّ﴾، و﴿ٱنْحَرْ﴾، وما أمر به فهو مما يحبه، وما أحبَّه فهو من العبادة، والعبادة يجب صرفها لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده لا شريك له. كما قال: ﴿لِرَبِّكَ﴾ لا لغيره.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أمَرَه الله أن يجمع بين هاتين العبادتين العظيمتين وهما: الصلاة والنسك، الدالتان على القرب والتواضع والافتقار وحسن الظن وقوة اليقين وطمأنينة القلب إلى الله وإلى عِدَتِه وأمره وفضله وخُلفِه ... وقد امتثل النبي ﷺ أمر ربه فكان كثير الصلاة لربه، كثير النحر حتى نحر بيده في حجة الوداع ثلاثا وستين بدنة، وكان ينحر في الأعياد وغيرها»[١].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٥٣١).

ومن الأدلة القرآنية - أيضا - قولُه تعالى: ﴿**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ**﴾ [المائدة: ٣]. أي حرَّم الله عليكم ما ذُبِح لغير الله على ما يُنصب للعبادة من حجر أو غيره.

ooo

النص الثالث: عن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: حَدَّثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ «**لَعَنَ اللَّهُ منْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ، لَعَنَ اللَّهُ مِنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ آوَى مُحْدِثًا، لَعَنَ اللَّهُ مِنْ غَيْرِ مَنَارَ الْأَرْضِ**»(١).

وهذا وجهُ مناسبة هذا الحديث لـ «باب ما جاء في الذبح لغير الله»، يعني: مِن الوعيد، وأنه شرك وصاحبه ملعون.

وقوله: «**لَعَنَ اللهُ**»: يحتمل أن تكون خبرية، أو إنشائية دعائية.

واللعنة من الله: الطرد والإبعاد عن رحمته، ومن المخلوقين: السبُّ والدعاء.

ooo

النص الرابع: عن طارق بن شهاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «دَخَلَ الْجَنَّةَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ، وَدَخَلَ النَّارَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ». قَالُوا: وَكَيْفَ ذَلِكَ،

(١) تقدم تخريجه.

يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «مَرَّ رَجُلَانِ عَلَى قَوْمٍ لَهُمْ صَنَمٌ لَا يَجُوزُهُ أَحَدٌ حَتَّى يُقَرِّبَ لَهُ شَيْئًا، فَقَالُوا لِأَحَدِهِمَا: قَرِّبْ. قَالَ: لَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ أُقَرِّبُهُ. قَالُوا لَهُ: قَرِّبْ وَلَوْ ذُبَابًا، فَقَرَّبَ ذُبَابًا، فَخَلَّوا سَبِيلَهُ، فَدَخَلَ النَّارَ! وَقَالُوا لِلْآخَرِ: قَرِّبْ. فَقَالَ: مَا كُنْتُ لِأُقَرِّبَ لِأَحَدٍ شَيْئًا دُونَ اللَّهِ، فَضَرَبُوا عُنُقَهُ؛ فَدَخَلَ الْجَنَّةَ»(١).

هذا الحديث صحَّ موقوفا من حديث سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وفي رفعه وعزوه لأحمدَ إشكالات أشرنا إليها إشارة سريعة عند تخريجه، فلتُراجع.

والحديث يدلُّ على أن الذبح صورة من أعظم صُوَر التقرُّب والتعظيم، وما كان كذلك فيجب إفراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به لا شريك له.

وقول الثاني (المؤمن): «**مَا كُنْتُ لِأُقَرِّبَ لِأَحَدٍ شَيْئًا دُونَ اللَّهِ**»: «**شَيْئًا**» هذه نكرة في سياق النفي، فتُفِيد العموم، يعني أن المبدأ مرفوض تماما مهما كان المتقرَّب به حقيرا، وهذا يدل على صلابته في دينه.

إشكال وجوابه:

ألا يُقال: إن الرجل هنا مكرَه بالقتل، والمكرَه معذور، كما قال تعالى: ﴿**إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ**﴾ [النحل: ١٠٦]؟.

وأجيب بأحد أمرين:

---

(١) تقدم تخريجه.

الأول: أن هذا لا يُعد إكراها؛ لأنهم لم يقولوا: إما أن تذبح أو نقتلك، وإنما قالوا: لا تجوز هذا المكان حتى تقرِّب. وكان بالإمكان أن يترك هذا الطريق إلى غيره.

الثاني: أنه كان في شرعهم لا يُرخص بالكفر عند الإكراه، ثُمَّ رُخِّص في ذلك في شرعنا، وهذا داخل في قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن نبيه محمد ﷺ وشريعته: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

* * *

١٠- باب
لا يُذبح لله بمكان يُذبَح فيه لغير الله

وَقولِ اللهِ - تَعالى -: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ...﴾ [التوبة: ١٠٨] الآيَةَ.

عَنْ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «نَذَرَ رَجُلٌ أَنْ يَنْحَرَ إِبِلًا بِبُوَانَةَ، فَسَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ؟ فَقَالَ: «**هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ؟**» قَالُوا: لَا. قَالَ: «**فَهَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟**» قَالُوا: لَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَوْفِ بِنَذْرِكَ؛ فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ**»[(١)]. رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَإِسْنَادُهُ عَلَى شَرْطِهِمَا.

○○○

الشرح:

هذا الباب مرتبط بالباب الذي قبله، وذكر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الباب آية وحديثا. وسيكون الكلام عليه في ثلاثة فصول:

* * *

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٣٣١٣) واللفظ له، والترمذي (١٥٢٧) مختصرا، وصححه الألباني. وله شواهد كثيرة.

الفصل الأول: مقصود الباب، وموضوعه العام

قوله: «لا يُذْبَح»: لا نافية، ويحتمل أنها للنهي. والمعنى: لا يجوز الذبح لله بمكان عُرِفَ فيه الذبح لغير الله؛ لأن ذلك فيه مشابهة وموافقة للمشركين في المكان الذي يشركون فيه بالله.

والتشبه بالمشركين منهي عنه، كما في الحديث: «**مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ**»[(١)].

فالمقصود: النهي عن قصد أماكن الشِّرك ومشابهة المشركين بفعلهم، ولو كان الفاعل يريد بعبادته وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

* * *

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٤٠٣١)، وأحمد (٥١١٤) وفي مواضع أخرى، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وقال الألباني: حديث حسن صحيح.

الفصل الثاني: المباحث الموضوعية

هذا الباب من الأهمية بمكان، ويحتاجه دارسُ التَّوحيد في مسائل وصور كثيرة من توحيد العبادة؛ لأنه يشير إلى موضوع «وسائل الشرك»؛ ولذا سنُفرد لها مبحثا خاصا.

المبحث الأول: وسائل الشرك. وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: معنى وسائل الشرك:

وسائل الشرك هي: الطُّرُق التي توصل إلى الشرك قطعا أو ظنا.

المطلب الثاني: حكم وسائل الشرك:

حكمها: المنع والتحريم، ولا يقال: إنها شرك كما ذكره بعض الأفاضل؛ لأنه لم يصرف العبادة لغير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

وقد يقول قائل: أليست القاعدة المقررة أن: «الوسائل لها أحكام المقاصد»؟.

والجواب: بلى، لكن المراد بالأحكام المذكورة في القاعدة: الأحكام التكليفية، فلا يدخل في ذلك الأحكام الوضعية أو الوصفية. والحكم الوصفي: مثل كونه أشرك أو زنا أو سرق، ونحو ذلك. فمن استدرج امرأة

بكلام أو رسالة فهذا وسيلة إلى الزنا، ولا يوصف فعلُه بأنه زنا؛ لكن يوصف بالحكم التكليفي، وهو التحريم.

المطلب الثالث: أنواع وسائل الشرك:

الوسائل المُفضِية إلى الشرك نوعان:

الأولى: وسيلة مشروعة في أصلها: كدعاء الله، والذبح له عند القبر. فأصل دعاء الله - تعالى - والذبح له عبادة مشروعة، لكنه قصد بالدعاء القبر؛ لاعتقاد فضيلة المكان ورجاءِ الإجابة عنده، وتراه يستقبل القبر بالدعاء وربما استدبر القبلة، كما يشاهد عند قبر النبي ﷺ!

الثانية: وسيلة غير مشروعة: كالتمسح بتراب القبر، أو التمسح بالحجرة النبوية والتبرك بها.

وغير المشروع على درجات:

١- فمنه ما هو شرك أصغر، وهو الذي يكون وسيلة إلى الشرك الأكبر.

٢- ومنه ما هو بدعة.

٣- ومنه ما هو مُحرَّم فحسب.

المطلب الرابع: أسباب وقوع وسائل الشرك:

الحديث عن أسباب وقوع تلك الوسائل يطول، لكن يمكن إجمالها في أربعة أسباب رئيسة؛ هي: الجهل، والتقليد، واتباع الهوى[1]، والغُلُو.

---

(١) الهوى: ما تدعو إليه النفس مما يخالف الحق، وهو يهوِي بصاحبه إن استرسل معه. قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

المطلب الخامس: أقسام وسائل الشرك:

وسائل الشرك كثيرة متنوعة، يمكن تقسيمها - بحسب ما تقع به - إلى ثلاثة أقسام:

أولا: الوسائل القلبية:

وهي كل وسيلة تؤدِّي إلى الشرك تكون باعتقاد القلب. ومن أمثلة ذلك:

١- الاعتقاد في الأسباب:

وذلك بأن يعتقد في إنسان أو حجر أو شجر أو جماد أنه سبب لتحصيل المطلوب، وليس هو كذلك. أو يكون سببا بالفعل لكن يعتمد عليه بقلبه بدلا من الاعتماد على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ. وهذا الاعتقاد وسيلة إلى الشرك الأكبر باعتقاد تأثيرها بنفسها.

٢- الغلو بالقلب:

وذلك بأن يقع في القلب غلو وتعظيم لإنسان أو جماد أو زمان أو مكان، وقد يكون ذلك الشيء ليس محلا للتعظيم، أو يتجاوز فيه القدر الذي يستحقه.

وهذا الغلو وسيلة إلى محاذير كثيرة: كتعلق القلب به، وطلب البركة منه، واعتماد القلب عليه في تحصيل المقصود، وربما يجره ذلك - مع غلبة الجهل والتعظيم - إلى اعتقاد أنه يجلب النفع ويدفع الضر بذاته.

ثانيا: الوسائل القولية:

وهي كل وسيلة تؤدي إلى الشرك تكون بقول اللسان. ومن أمثلتها:

١- نسبة التأثير والتدبير لغير الله - تعالى -:

كقول: «مُطِرنا بنوء كذا وكذا»؛ فإنه وسيلة إلى اعتقاد تأثير تلك المخلوقات بنفسها.

٢- سَبُّ الدهر والريح:

لأنه وسيلة إلى سب الله - تعالى - مقلب الأيام والليالي، ومدبر الأمر.

٣- الغُلُو في الصالحين بالقول:

مثل: إطلاق لفظ «السيد»، و«أطعم ربك»، واستعمال الأسماء التي فيها تعظيم لا يليق إلا بالله - تعالى -؛ مثل: «شاهان شاه»، والأسماء التي سمَّى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها نفسه ولوحظ فيها معنى الصفة، والأسماء المعبدة لغير الله - تعالى -.

وكل هذه الأمثلة القولية السابقة ستأتي في أبواب الكتاب إن شاء الله - تعالى -.

٤- قصد العبادات القولية عند القبور:

كالدعاء، وقراءة القرآن، والذكر عند القبور. وهذه وسائل قد تُفضِي - مع مرور الزمن وغلبة الجهل والعادة - إلى صرف العبادة للمقبور.

٥- التوسل:

فهو وسيلة إلى التعلُّق بهذه الوسيلة، وربما جرَّه إلى صرف شيء من أنواع العبادة لها.

ثالثا: الوسائل الفعلية:

وهي كل وسيلة تؤدِّي إلى الشرك تكون بالفِعل. ومن أمثلتها:

١- **التصوير**: وسيأتي مفردا بباب، إن شاء الله - تعالى -.

٢- **التبرك**: وسبق الحديث عنه.

٣- **الغلو**: وسيأتي مفردا بباب، إن شاء الله - تعالى -.

٤- **تعظيم القبور بغير المشروع**: وأمثلته كثيرة؛ منها:

أ- بناء القباب على القبور.

ب- اتخاذ السرج على القبور.

ج- زخرفة القبور وتزيينها.

د- اتخاذها أعيادا مكانية.

ه- البناء على القبور.

و- رفع القبور.

ز- وضع المصحف على القبر.

ح- تقبيل القبر، والتمسح به.

ط- الكتابة على القبر.

ي- كسوة القبر بثياب الحرير.

ك- شد الرِّحال والسفر إلى القبور.

٥- **عبادة الله - تعالى - بالفعل عند القبور:** ومن صور ذلك:

أ- اتخاذ القبور مساجد.

ب- الذبح لله - تعالى - عند القبر.

ج- الطواف لله - تعالى - عند القبر.

وقد يستبعد بعض الناس وقوع هذا، لكنه واقع، وقد رأيته بنفسي قبل سنوات في مقبرة البقيع المجاورة للمسجد النبوي؛ دخلتُ المقبرة بُعَيد طلوع الشمس، فرأيت رجلا يطوف على أحد القبور كما نطوف على الكعبة!.

د- الاعتكاف عند القبر.

٦- **إتيان السحرة والكهنة والمنجِّمين ونحوهم**: وسيأتي مُفرَدا بباب، إن شاء الله - تعالى -.

٧- **التشبه بالمشركين.**

ooo

المبحث الثاني: قصد عبادة الله - تعالى - عند أماكن الشرك:

المراد: قصد عبادة الله - تعالى - في أماكن الشرك، وأعياد المشركين التي يتقربون فيها إلى آلهتهم؛ فهذا مما يُنهى عنه؛ لأنه من وسائل الشرك. وذلك لأمور:

الأول: أن قصد ذلك المكان يدل على نوع تعظيم له، وهذا ربما يجرُّه إلى الوقوع في الشرك نفسه.

الثاني: فيه مشابهة للمُشركين في الصورة الظاهرة - كالذبح، مثلا -، وقد قال ﷺ: «**مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ**»(١).

---

(١) تقدم تخريجه.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المشابهة والمشاكلة في الأمور الظاهرة توجِب مشابهة ومشاكلة في الأمور الباطنة على وجه المسارقة والتدريج الخفي ... والمشاركة في الهدي الظاهر توجب أيضا مناسبة وائتلافا وإن بعُد المكان والزمان، فهذا أيضا أمر محسوس. فمشابهتهم في أعيادهم - ولو بالقليل - هو سبب لنوع ما من اكتساب أخلاقهم التي هي ملعونة، وما كان مظنة لفساد خفي غير منضبط علق الحكم به ودار التحريم عليه»[1].

الثالث: فيه إغراء بفعل المشركين؛ لأنه إذا تتابع الموحِّدُون على الذبح لله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ في أماكن ذبح المشركين، ظن العوام أن فعلهم جائز.

الرابع: وفيه تقوية للمشركين في شركهم وتكثير لسوادهم.

* * *

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» ص٢٢٠.

الفصل الثالث: التعليق على النصوص، وربطها بالباب

النص الأول: قول الله – تعالى –: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ [التوبة: ١٠٨]، الآية.

والمقصود في الآية هو مسجد الضِّرار، وتمام الآيات: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًاۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٧-١٠٨]. وقد هُدِم المسجد وأحرق.

قال الشيخ ابن قاسم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مطابقة الآية للترجمة: أن هذا المسجد لمَّا أُسِّس على معصية الله والكُفر به، صار محل غضب، فنهى الله نبيه ﷺ أن يقوم فيه؛ لوجود العلة المانعة. وهو ﷺ لا يصلي إلا لله، فكذلك المواضع المُعَدَّة للذبح لغير الله يجب اجتناب الذبح فيها لله»(١).

وقال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقريب من ذلك النهي عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها؛ لأنها وقتان يسجد فيهما الكفار للشمس»(٢).

---

(١) «حاشية كتاب التوحيد» ص١٠٣.

(٢) «القول المفيد» (١/ ٢٣٥).

إيــراد:

كيف تُوجَّه صلاةُ عمر وبعض الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ في الكنيسة التي يشرَك فيها بالله - تعالى -، مع نهي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نبيَّه ﷺ عن الصلاة في مسجد الضِّرار؟

الفرق: اختلاف صورة صلاة المسلمين عن صلاة النَّصارى في كنائسهم، واتفاقها مع صورة صلاة المنافقين في مسجد الضِّرار، وكذلك الذبح. ولهذا لو أراد إنسان أن يصلي في مكان يُذبح فيه لغير الله لجاز ذلك؛ لأنه ليس من نوع العبادة التي يفعلها المشركون في هذا المكان(١).

ooo

النص الثاني: عن ثابت بن الضَّحَّاك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «نَذَرَ رَجُلٌ أَنْ يَنْحَرَ إِبِلًا بِبُوَانَةَ، فَسَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ؟ فَقَالَ: «**هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ؟**» قَالُوا: لَا. قَالَ: «**فَهَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟**» قَالُوا: لَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَوْفِ بِنَذْرِكَ؛ فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ**»(٢).

«**الوَثَنُ**»: يتناول كل معبود من دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ من صورة أو قبر.

---

(١) ينظر: «القول المفيد» (١/ ٢٤١).

(٢) تقدم تخريجه.

و«العِيد»: اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد؛ إما بعود السنة أو الشهر أو الأسبوع. فالعيد يجمَع أمورا: **منها**: يوم عائد كيوم الفطر ويوم الجمعة. **ومنها**: اجتماع فيه. **ومنها**: أعمال تتبع ذلك من العبادات والعادات.

وقد يختص العيد بمكان بعينه، وقد يكون مطلقا.

وهذا الحديث نصٌّ في المراد بهذا الباب.

* * *

١١- باب
من الشرك النذر لغير الله

وَقَوْلِ اللهِ - تعالى -: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ [الإنسان: ٧].

وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ [البقرة: ٢٧٠].

وَفِي الصَّحِيحِ عن عَائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنهَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللَّهَ فَلَا يَعْصِهِ»[١].

ooo

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٦٩٦ و٦٧٠٠)، ولفظه: «وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَهُ فَلا يَعْصِهِ».

١٢- باب
من الشرك الاستعاذة بغير الله

وقوْلِه تَعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

وعَن خَوْلَةَ بنتِ حَكيم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قَالَت: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَن نَزَلَ مَنزِلًا، فَقَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِن شَرِّ مَا خَلَق، لَم يَضُرَّه شَيءٌ، حَتَّى يَرْحَلَ مِن مَنزِلِهِ ذَلِكَ»(١). رَواهُ مُسْلِمٌ.

ooo

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٧٠٨)، ولفظه: «حَتَّى يَرْتَحِلَ».

١٣- باب
من الشرك أن يستغيث بغير الله، أو يدعو غيره

وَقَوْلِ اللهِ - تعالى -: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٦ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [يونس: ١٠٦-١٠٧] الآيَةَ.

وَقَوْلِهِ: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ ...﴾ [العنكبوت: ١٧] الآيَةَ.

وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأحقاف: ٥] الآيَتَيْنِ.

وَقَوْلِهِ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ...﴾ [النمل: ٦٢].

وَرَوَى الطَّبَرَانِيُّ بِإِسْنَادِهِ: أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ النَّبِي ﷺ مُنَافِقٌ يُؤْذِي الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: قُومُوا بِنَا نَسْتَغِيثُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي، وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِاللهِ - عزَّ وجَلَّ -»[1].

○○○

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير»، كما في «مجمع الزوائد» (١٠-١٥٩/ ١٧٢٧٢)، وقال: «رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة».

الشرح:

عقَدَ المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الأبواب الثلاثة المتعاقبة، وبينها تقارب موضوعي؛ ولذا سيكون الكلام عليها سويا في الفصلين التاليين:

* * *

الفصل الأول: مقصود الأبواب الثلاثة، وموضوعها العام

مقصود هذه الأبواب الثلاثة بيان أنَّ النذر والاستعاذة والاستغاثة، عبادات يجب صرفُها لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وحده، وصرفُها لغيره شرك به.

وعقد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لكلٍّ منها بابا خاصا، أتى فيه بما يناسبه من النصوص، وإن كان ثَم تقاربٌ بين معنى الاستعاذة والاستغاثة، على ما سيأتي بيانه، إن شاء الله - تعالى -.

* * *

الفصل الثاني: المباحث الموضوعية

سبق الكلام عن الشرك الأكبر تأصيلا في باب «ما جاء في الذبح لغير الله»، وذِكر أقسامه الثلاثة (الشرك الأكبر في الاعتقاد، وفي القول، وفي الفعل). وهذه الأبواب الثلاثة صورة من صور الشرك الأكبر بالقول.

المبحث الأول: النذر لغير الله - تعالى -. وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعريف النذر:

النَّذر في اللُّغةِ: بمعنى الإيجاب. يُقال: نذرتُ كذا، أي: أوجبتُه على نفسي[(١)].

واصطلاحا: «إلزام المكلف نفسَه شيئا يملكه، لا يلزمه بأصل الشرع؛ تقربا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ».

فمن نذر شيئا لا يملكه فلا ينعقد نذره كمن نذر أن يعتق الحر أو يتصدق بمال غيره؛ لحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعا: «**لَا نَذْرَ لِابْنِ آدَمَ فِيمَا لَا يَمْلِكُ**»[(٢)].

---

(١) ينظر مادة «نذر» في كل من: «تهذيب اللغة» (١٤/ ٣٠٢)، و«لسان العرب» (٥/ ٢٠٠)، و«تاج العروس» (١٤/ ١٩٨)، وغيرها.

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٣٢٧٤)، والترمذي (١١٨١) واللفظ له، والنسائي (٣٧٩٢)، وصححه الألباني.

وليس للنَّذر صيغة مخصوصة، وإنَّما ينعقد بكل قول يدل على الالتزام؛ مثل: لله علي نذر، لله علي عهد، لله علي أن أفعل كذا. وفيه تفاصيل محلها علم الفقه.

المطلب الثاني: حكم النذر:

المقصود هنا نذر الطاعة؛ وهو نوعان:

الأول: نذر البر والقربة: كمن يقول: لله علي أن أقرأ اليوم ثلاثة أجزاء من القرآن.

الثاني: نذر المجازاة: كمن يقول: إن شُفي ابني فلِلَّهِ عليَّ أن اعتمر عمرة.

فكلاهما نذر لله، وفي طاعة من الطاعات.

وحكم هذا النذر بنوعيه - من جهة الحكم الوضعي - أنه صحيح منعقد.

ومن جهة الحكم التكليفي: يجب الوفاء به؛ لقوله تعالى: ﴿**وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ**﴾ [الحج: ٢٩]، ولحديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا عن النبي ﷺ قال: «**مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَهُ فَلا يَعْصِهِ**»(١).

أما نذر البِر: فعليه أن يفعل ما نذره. وأما نذر المجازاة: فعليه كذلك إذا وقع الشرط.

---

(١) تقدم تخريجه.

أما حكم ابتدائه: فنذر المجازاة أقل أحواله الكراهة؛ لحديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ: أَنَّهُ نَهَى عَنِ النَّذْرِ، وَقَالَ: «**إِنَّهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ، وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ**»(١).

فهذا الناذر يقول: يا رب، إن فعلتَ مطلوبي فعلتُ لك العبادة، وإن لم تفعل لم أفعل!، وهذا شأن البخيل؛ لا يعطي شيئا إلا بمقابل. وفي لفظ في الصحيحين: «**النَّذْرُ لَا يُقَدِّمُ شَيْئًا، وَلَا يُؤَخِّرُهُ، وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ**»(٢).

وبعض الناس يضيق بالمقدور، ويظن أن النذر هو الذي سيرفعه، فينشِئ نذرا يشق عليه في عمره كله. والواجب على المسلم أن يوقن أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأنَّ ما قضاه الله من خير أو شر كائنٌ لا محالة، دون الحاجة إلى إنشاء النذور.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «أخرج الطبري بسند صحيح عن قتادة في قوله تعالى: ﴿**يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ**﴾ [الإنسان: ٧]، قال: كانوا ينذرون طاعة الله من الصلاة والصيام والزكاة والحج والعمرة وما افترض عليهم؛ فسماهم الله أبرارا. وهذا صريح في أنَّ الثناء وقع في غير نذر المجازاة»(٣).

ومما سبق يتبين أن النهي عن النذر محمول على صورة نذر المجازاة.

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٦٦٠٨) وفي مواضع أخرى، ومسلم (١٦٣٩).

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٦٦٩٢)، ومسلم (١٦٣٩).

(٣) «فتح الباري» (١١/٥٨٧).

المطلب الثالث: النذر بين التوحيد والشرك:

النذر له تعلُّق بعِلمَي التوحيد والفقه. والفقهاء يقسمونه إلى خمسة أقسام، وبعضهم يزيد على ذلك.

لكن المقصود هنا تعلقه بالتوحيد من جهة أنه عبادة، والعبادة لا يجوز صرفها لغير الله - تعالى -.

ومن الأدلة على أن النذر عبادة:

أولا: قول الله - تعالى -: ﴿**يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا**﴾ [الإنسان: ٧].

أثنى الله عليهم بهذا الفعل، وثناء الله على الشيء يدل على محبته له، وما أحبه الله ففِعلُه عبادة؛ لأن العبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة.

ثانيا: قوله تعالى: ﴿**وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ**﴾ [الحج: ٢٩]؛ فأمْر الله بالشيء يدل على أنه طاعة له وعبادة يحبها.

ثالثا: حديث الباب: «**مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعْهُ**»(١)؛ جاء - أيضا - بصيغة الأمر.

---

(١) تقدم تخريجه.

- **والنذر من جهة التوحيد له ثلاث صور:**

الأولى: أن يقع النذر لله - تعالى -:

مثل قول القائل: لله علي أن أصلي عشر ركعات هذه الليلة.

الثانية: أن يقع النذر لغير الله - تعالى -:

مثل قول القائل: إن شفى الله مريضي فللولي الفلاني عليَّ كذا وكذا. فهذا شرك أكبر.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والنذر للمخلوقات أعظم من الحلِف بها، فمن نذر لمخلوق لم ينعقِدْ نذره ولا وفاء عليه باتفاق العلماء ... فمن نذر لغير الله فهو مشرك أعظمَ من شرك الحلف بغير الله، وهو كالسجود لغير الله»(١).

الثالثة: أن يقع النذر لله - تعالى - على وجه يُشابه فعل المشركين:

مثل قول القائل: إن رزقني الله الولد فلِلَّه علي أن أذبح له شاة عند قبر الولي فلان. فهذا محرم، ووسيلة من وسائل الشرك.

وسبق حديث ثابت بن الضحاك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «نَذَرَ رَجُلٌ أَنْ يَنْحَرَ إِبِلًا بِبُوَانَةَ ...»(٢).

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣٣/ ١٢٣).

(٢) تقدم تخريجه.

والصورة الأولى نذر طاعة، والثانية والثالثة نذر معصية، وفي الباب حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللَّهَ فَلَا يَعْصِهِ**»(١).

والشِّرك يوصف بأنه محرم من جهة حكمه التكليفي، قال تعالى: ﴿**قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا**﴾[الأنعام: ١٥١].

فالمسلم عند النذر لا بد له من أمرين: أن يكون نذره لله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وأن ينذر طاعة لا معصية.

ومِن نذر المعصية: أن ينذر لله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، ويجعل مصرفه للسدنة والمجاورين عند القبور، أو ما يحتاجه الضريح من زيت وشموع ومصابيح وستور، ونحو ذلك؛ لأنه إعانة على الباطل.

ooo

المبحث الثاني: الدعاء. وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: معنى الدعاء في اللغة والشرع:

«الدعاء» يُطلق على المصدر، ويُطلق على اسم المفعول. فيُطلق على المصدر الذي هو التكلُّم؛ فالإنسان حين يسأل الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ؛ فكلامه هذا دعاء.

---

(١) تقدم تخريجه.

ويُطلق على المفعول الذي هو الألفاظ، فحينما أقول: «اللّٰهم اغفر لي»، هذه الجملة الملفوظة: «اللّٰهم اغفر لي» دعاء وعبادة.

وأما الدُّعاء في الاصطلاح: فقد عرَّفه العلماء بتعريفات مُتقاربة، ويمكن أن يقال:

الدعاء هو: التوجه إلى الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ وسؤاله تحقيق مطلوب أو دفع مكروه، أو التذلل له بالطاعة.

وهذا التعريف يشمل دعاء العبادة، ودعاء المسألة.

والتوجه إلى الله - تعالى - والطلب منه يكون بصيغة السؤال أو الخبر كما سيأتي في أقسام الدعاء.

المطلب الثاني: أنواع الدعاء[1]:

أولا: يتنوع الدعاء - باعتبار معناه - إلى نوعين:

١- **دُعاء المسألة:** هو الطلب والسؤال بتحصيل محبوب أو دفع مكروه.

٢- **دُعاء العبادة:** ويراد به التعبُّد، يعني العبادات عموما مهما كان جنسها أو نوعها، فكل عبادة فهي دعاء عبادة.

وأوَّل من صرَّح بهذا التقسيم: ابن تيمية وتبعه ابن القيم، وإن كان موجودا ضمن كلام بعض السلف.

---

(١) ينظر: «الدعاء» للعروسي (١/ ١٠٥-١٤٥).

وهناك ارتباط وثيق بين النَّوعين: فدعاء المسألة يتضمن دعاء العبادة؛ لأنه حينما يتوجه الإنسان المسلم إلى ربِّه ويسأله حاجاته فهو في عبادة.

وأما دعاء العبادة فهو يستلزم دعاء المسألة. يعني يدل عليه بدلالة الالتزام أو التضمن أيضا. فالإنسان حينما يعبد الله - عز وجل- يُصلي، يصوم، يجاهد في سبيل الله، فإن هذا التعبد وهذه العبادات في حقيقتها سؤال بلسان الحال: أريد ثواب الله وجنته، والسلامة من عقابه.

أمثلة على النوعين:

فمن أمثلة دعاء المسألة: قول الله - تعالى -: ﴿**أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ**﴾ [النمل: ٦٢]، فنجد هنا اضطرارا وسؤالا وطلبا، ومن أمثلته - أيضا - قوله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿**وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥ**﴾ [يونس: ١٢]، وهنا سؤال وطلب.

ومن أمثلة دعاء العبادة: قوله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿**قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ**﴾ [الأنعام: ٥٦]، وقوله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ**﴾ [العنكبوت: ٤٢].

جاء التعبير عن العبادة بالدعاء؛ مما يدل على شأن الدعاء وعظيم منزلته.

واشتملت سورة الفاتحة على النوعين: دعاء الثناء والعبادة، ودعاء السؤال والطلب. واشتملت سورة الإخلاص على دعاء الثناء، والمعوذتان على دعاء المسألة.

ثانيا: يتنوع الدعاء - باعتبار صيغه - إلى نوعين:

١- دعاء صيغته طلبية:

وهو: ما كان بصيغة افعل أو لا تفعل. واجتمعت الصيغتان في قوله تعالى: **﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾** [آل عمران: ٨].

٢- دعاء صيغته خبرية:

وهو: ما تضمَّن وصفا لحال الداعي، أو ثناء ووصفا لربه، أو الأمرين معا.

فأما وصف حاله: فذلك كقول موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: **﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾** [القصص: ٢٤]؛ فهذا وصف لحاله بأنه فقير إلى ما أنزل الله إليه من الخير، وهو متضمن لسؤال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إنزال الخير إليه.

وأما وصف حال المسؤول: فكقول القائل: اللّٰهم أنت العفو الكريم، الغفور الرحيم، وسعت رحمتك كل شيء.

وأما وصف الحالين: فذلك كقول الله - تعالى - عن نبيه أيوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: **﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾** [الأنبياء: ٨٣]،

فوصف نفسه، ووصف ربه بوصف يتضمن سؤال رحمته بكشف ضره، وهي صيغة خبر تضمنت السؤال، وهذا من حسن الأدب في السؤال والدعاء.

وإذا جمع الدعاءُ هذه الأمور الثلاثة كان أكمل، كما في قوله ﷺ للصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ**»[١].

فقوله: «**اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي**»: فيه وصف حال السائل. وقوله: «**وَلا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ**»: فيه وصف حال المسؤول. وقوله: «**فَاغْفِرْ لِي**»: فيه سؤال وطلب. ثم ختم الدعاء باسم من أسمائه الحسنى يناسب المطلوب ويقتضيه (**الغَفُورُ الرَّحِيمُ**)؛ فهذا ونحوه أكمل أنواع الدعاء.

المطلب الثالث: العلاقة بين الدعاء وبين ما يشابهه[٢]:

وهذا مُهِم في فهم الأبواب التي عقدها المؤلف.

أولا: العبادة:

إن أريد بالدعاء دعاء العبادة: فتكون العلاقة بينهما الترادف.

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٨٣٤) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٧٠٥).

(٢) ينظر: «الدعاء» للعروسي (١/ ٥١-١٠٣).

كما في حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: «**الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ**» ثم قرأ: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ**﴾ [غافر: ٦٠]»[1].

وإن أريد بالدعاء دعاء المسألة: فالعلاقة أن العبادة أعم من الدعاء؛ فبينهما عموم وخصوص مطلق. بمعنى: أن كل دعاء مسألة فهو عبادة، وليست كل عبادة دعاءَ مسألة.

ثانيا: الذِّكر:

الظاهر أن بينهما عموما وخصوصا من وجه؛ فإن أريد بالدعاء «دعاء العبادة» فيكون الدعاء أعمَّ من الذكر؛ لأن من العبادات ما ليس فيه ذكر باللسان كالصيام.

وإن أريد بالدعاء «دعاء المسألة» فيكون الذِّكر أعم؛ لأن كل مسألة لله فهي ذكر له، وليس كل ذكر يكون طلبا وسؤالا.

ثالثا: الاستعانة:

الاستعانة هي: طلب العَون، وهي من دعاء المسألة؛ لأنها طلب وسؤال، فالعلاقة بينها وبين الدعاء أنها من دعاء المسألة.

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩ و٣٢٤٧)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، وصححه الألباني.

رابعا: الاستعاذة:

الاستعاذة هي: الالتجاء والاعتصام.

وحقيقتها: الالتجاء إلى الله – تعالى –، والالتصاق بجانبه من شر كل ذي شر[1].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعلم أن لفظ عاذ وما تصرف منها يدل على التحرُّز والتحصن والنجاة، وحقيقة معناها: الهروب من شيء تخافه إلى من يعصمك منه»[2].

فالاستعاذة خاصة بدفع الشر الحاضر أو المتوقَّع: فالحاضر كقوله ﷺ: «**أَعُوذُ بِاللهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ**»[3]، والمتوقع كقوله ﷺ: «**أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ اللَّيْلَةِ، وَشَرِّ مَا بَعْدَهَا**»[4].

أما الدعاء: فيعُمُّ ما كان لدفع الشدة ورفعها، أو لحصول المنفعة والخير، فالاستعاذة نوع من الدعاء خاص بدفع الضرر، فكل استعاذة دعاء، وليس كل دعاء استعاذة.

خامسا: الاستغاثة:

الاستغاثة في اللغة: مصدر استغاث، والاسم الغَوْث والغُواث والغَواث، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو غياث المستغيثين.

---

(١) يُنظر: تفسير ابن كثير (١/ ١٥).

(٢) «بدائع الفوائد» (٣/ ٢٨٧).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٠٢).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٧٢٣).

والمراد بها: طلب الغوث، وهو التخليص من الشدة[1]. فهي بمعنى الاستعانة لكنها استعانة خاصة بحال الشدة.

ومن هنا تتضح العلاقة بين الاستغاثة والدعاء، وهي: أن الاستغاثة نوع من الدعاء خاص برفع الشدائد والكُرَب، والدعاء يعم الدعاء بالخير والشر، ويكون من المكروب وغيره؛ فعلى هذا: كل استغاثة دعاء، وليس كل دعاء استغاثة.

وقريب منها لفظ «الاسْتِجارَة»؛ فهي خاصة بطلب دفع المضار والمكاره.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الاستعاذة، والاستجارة، والاستغاثة كلها من نوع الدعاء أو الطلب، وهي ألفاظ متقاربة»[2].

سادسا: الاستغفار:

الاستغفار في اللغة: مصدر استغفر، يقال: استغفَر الله من ذنبه ولذنبه، بمعنى: طلب من اللهِ مغفرته. وأصل الغَفْر: التغطية والستر، وغفر اللهُ ذنوبه غَفْرا وغُفرانا ومَغْفِرة، أي: سترها[3].

---

(١) يُنظر مادة «غوث» في: «الصحاح» (١/ ٢٨٩)، و«تاج العروس» (٥/ ٣١٣)، و«المعجم الوسيط» (٢/ ٦٦٥).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٢٢٧).

(٣) ينظر مادة «غفر» في: «تهذيب اللغة» (٨/ ١١٢)، و«مقاييس اللغة» (٤/ ٣٨٥)، وغيرها.

والعلاقة بين الدعاء والاستغفار: أن الاستغفار خاص بطلب دفع شر الذنوب، والدعاء يعم ما كان طلبا للخير أو طلبا لدفع الشر، فكل استغفار دعاء، وليس كل دعاء استغفارا.

سابعا: الابتهال:

الابتهال هو: التضرُّع والمبالغة في السؤال. يُقال: ابتهل في الدعاء إذا اجتهد، والمبتهل: الداعي(١).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن رسول الله ﷺ قال: «**هَكَذَا الْإِخْلَاصُ**»، يُشِيرُ بِأُصْبُعِهِ الَّتِي تَلِي الْإِبْهَامَ، «**وَهَذَا الدُّعَاءُ**»، فَرَفَعَ يَدَيْهِ حَذْوَ مَنْكِبَيهِ، «**وَهَذَا الِابْتِهَالُ**» فَرَفَعَ يَدَيْهِ مَدًّا»(٢).

ويظهر من تتبع إطلاقات الابتهال أنه خاص بالدعاء المبالغ فيه، والذي اجتهد الداعي فيه وبالغ، كما يُستفاد ذلك - أيضا - من عبارات اللُّغويين فيه.

---

(١) ينظر مادة «بهل» في: «تهذيب اللغة» (٦/ ١٦٥)، و«لسان العرب» (١١/ ٧٢)، وغيرها.

(٢) **جاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعا وموقوفا:**

فأخرجه مرفوعا: أبو داود (١٤٩١)، والطبراني في «الدعاء» (٢٠٨ و٢١٧٨) واللفظ له، والحاكم في «المستدرك» (٧٩٠٣) وصححه، وقال الذهبي: منكر بمرة! وصححه الألباني، وقال الأرناؤوط: رجاله ثقات.

وأخرجه موقوفا: أبو داود (١٤٨٩، و١٤٩٠)، ومن طريقه الضياء في «المختارة» (٤٦٩)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٣٢٤٧)، وابن أبي شيبة (٢٩٤٠٨)، وصححه الألباني والأرناؤوط.

ومن صور المبالغة والاجتهاد وآدابه: مد اليدين جميعا. فيكون الابتهال خاصا بصفة معينة من صفات الدعاء[1].

المطلب الرابع: منزلة الدعاء، وعلاقته بأنواع التوحيد[2]:

الدعاء يزيد في الإيمان والتوحيد والمعرفة وحياة القلب، ويقوِّي الفطرة. وهذا الأمر مجرَّب يعرفه من وقع في كُربة فاضطره ذلك إلى الالتجاء والتضرع إلى الله، والرغبة إليه والانطراح بين يديه.

الدعاء صلة بين العبد وربِّه، ووسيلة إليه لبث شكواه، وطلب حاجاته، وله أثر كبير في زيادة الإيمان، وذَوقِ حلاوته، والتنعم بلذيذ المناجاة، وبرد اليقين، وانشراح الصدر، وطمأنينة النفس، وراحة البال، وسرور الروح، مما تقصر العبارات عن وصفه. لا سيما إن وقع في مكان أو زمان فاضل، أو وافق انكسارا وذلا وإخباتا من العبد.

فالداعي يجتمع له مقامان: الأول: مشاهدة كمال الرب المسؤول وعظمته، وشدة الحاجة إليه. والثاني: مقام العجز والتقصير والتفريط من نفسه. فيتكون من هذين المقامين حال محبوبة لله، وهي من ثمرات الدعاء. قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

---

(١) ينظر: «الدعاء» للعروسي (١٠٢/١).

(٢) ينظر: المرجع السابق (١/ ٢٣٩).

أنـــــا الفقـــــــير إلى رب البَرِيَّــــــــات
أنـــــا المُسَـــــيْكِيْنُ في مجمــــــوع حــــــالاتي
أنـــــا الظلـــــوم لنفـــــسي، وَهْـــــي ظـــــالمتي
والخـــــير إن يأتِنـــــا مـــــن عنـــــده يـــــأتي
لا أســـــتطيع لنفـــــسي جلـــــبَ منفعـــــة
ولا عـــــن الـــــنفس لي دفـــــع المضـــــرَّات
فمـــــن بغَـــــى مطلبـــــا مـــــن غـــــير خالقـــــه
فهـــــو الجهُـــــول الظلـــــوم المُـــــشرِك العـــــاتي
والحمـــــد لله مـــــلءَ الكـــــون أجمعِـــــهِ
مـــــا كـــــان منـــــه ومـــــا مـــــن بعـــــد قـــــد يـــــاتي(١)

- **والدعاء له ارتباط بأنواع التوحيد الثلاثة:**

فأما توحيد الربوبية: فهو إفراد الله - تعالى - بأفعاله، ومن أفعاله: إجابة الداعي، وإعانة المستعين، وإغاثة المستغيث. قال تعالى: ﴿**أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ**﴾ [النمل: ٦٢].

ولذا كان أكثر الدعاء - لا سيما دعاء الأنبياء - مبدوءا بالربوبية: رب، ربنا.

(١) نقل ابن القيم هذه الأبيات عنه مع غيرها، في «مدارج السالكين» (١/ ٥٢٠-٥٢١).

وأما توحيد الأسماء والصفات: فلما يتضمنه الدعاء من الأسماء والحسنى والصفات العلى، والإيمان بعلم الله وقدرته المطلقة، والإيمان بأنه النافع الضار، السميع البصير، الحي القيوم، وإثبات العلو لله - عز وجل -.

وذكروا أن أبا المعالي الجويني كان يقرر نفي استواء الله على عرشه، فقال له الهمداني: دعنا من ذكر العرش؛ فما تقول في هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا: ما قال عارف قط: يا الله! إلا وجد من قلبه ضرورة بطلب العلو؟! فصرخ أبو المعالي ولطم على رأسه، وقال: حيرني الهمداني، حيرني الهمداني![1].

وأما علاقته بتوحيد العبادة: فهي في غاية الجلاء؛ لأن الدعاء هو العبادة بنص الحديث[2].

- **والدعاء يجتمع فيه أنواع من العبادات القلبية والقولية والفعلية:**

فمن العبادات القلبية: التعلق بالله، ورجاؤه، والتوكل عليه، ومحبته، وتعظيمه، والانكسار بين يديه.

ومن العبادات القولية: ما يتلفظ به الداعي من الثناء والسؤال.

---

(١) ينظر: «الاستقامة» لشيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١/ ١٦٧).

(٢) تقدَّم تخريجه.

ومن العبادات الفعلية: رفع اليدين، والبكاء.

وأغلب شرك الأوَّلين والآخرين: في الشرك في الدعاء؛ فهو أصل الشرك.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذكر أنواع الشرك: «ومن أنواعه: طلب الحوائج من الموتى والاستغاثة بهم والتوجه إليهم، وهذا أصل شرك العالم»[١].

وقال الشيخ حمد بن معمر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا نعلم نوعًا من أنواع الكفر والردة ورد فيه النصوص مثل ما ورد في دعاء غير الله؛ بالنهي عنه، والتحذير من فعله، والوعيد عليه»[٢].

المطلب الخامس: حكم الدعاء[٣]:

الدُّعاء تدور عليه الأحكام التكليفية الخمسة، وإن كان الأصل فيه الندب.

فقد يكون واجبا: كدعاء الفاتحة في الصلاة. أو مستحبا: كدعاء الاستخارة. أو مكروها: كالمتضمن للسجع المتكلف. أو محرما: كدعاء غير الله. أو مباحا: كطلب الفضول التي لا معصية فيها.

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٤٦).

(٢) «النبذة المنيفة الشريفة» ص٣٧.

(٣) ينظر: «الدعاء» للعروسي (١/ ٣٧٩)، و«الدعاء وأحكامه الفقهية» ص٤.

• **ويمكن أن يُقال – وهو أجود –:** ينقسم الدعاء إلى قسمين: مشروع، وغير مشروع:

أولا: الدعاء المشروع: وهو نوعان:

١- **دعاء واجب**: مثل دعاء الفاتحة في الصلاة؛ لقوله ﷺ: «**لا صَلاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ**»(١). ومثله في الحكم دعاء التوبة والاستغفار. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من الدعاء ما هو واجب، وهو الدعاء بالتوبة والاستغفار من الذنوب، والهداية والعفو، وغيرها. وقد روى عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِنَّهُ مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ**»(٢)، والغضب لا يكون إلا على ترك واجب أو فعل محرم»(٣).

ومثله – أيضا – الدعاء للميت في صلاة الجنازة على قول.

٢- **دعاء مستحب:** مثل دعاء الاستخارة، ودعاء الاستسقاء، وأدعية الصباح والمساء، ونحو ذلك.

ثانيا: الدعاء غير المشروع: وهو أنواع:

١- **الدعاء الشركي. وله صور؛ منها:**

أ- دعاء الميت. وله صورتان:

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٧٥٦)، ومسلم (٣٩٤).

(٢) **حسن**: أخرجه الترمذي (٣٣٧٣) واللفظ له، وابن ماجه (٣٨٢٧)، وحسنه الألباني.

(٣) «جلاء الأفهام» ص٣٥٢.

الأولى: أن يسأل الميت، وقد حضر عند قبره ووقف عليه.

وهذا كالذي يقع من الزائرين عند الأضرحة والقباب والمشاهِد؛ حيث يصرخون وينادون ويستغيثون بصاحب القبر، ويقولون: يا أيها الولي الفلاني، أنا ببابك وفي حضرتك، أسألك كذا. ويقول أحدهم مثلا: يا سيدي عبد القادر، ارزقني ولدا!.

الثانية: أن يسأل الميت ويستغيث به من مكان بعيد، فيسأله شفاء المريض، أو تفريج الكربات، أو غير ذلك. وربما وقع ذلك في مكان أو زمان فاضل.

وحكم هذا النوع - بصورتَيْهِ -: أنَّه شرك أكبر مخرج عن الملة؛ لما يأتي من الأدلة. والصورة الثانية أشد من الأولى.

ب- دعاء الحي الغائب. وله صورتان، أيضا:

الأولى: أن يسأله ما يقدر عليه لو كان حاضرا. كما لو سقط رجل في بئر، فنادى: يا سيدي فلان - من الأحياء - خلِّصني مما أنا فيه.

الثانية: أن يسألَه ما لا يقدر عليه لو كان حاضرا، كجعل الحَمْلِ ذكرا.

وحكم هذا النوع: أنَّه شرك أكبر مخرج من الملَّة، أيضا. والصُّورة الثانية فيه أشد من الأولى.

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «دعاؤه إياه يدل على أنه يعتقد أن له تصرفا في الكون؛ فيكون بذلك مشركا»(١).

فكل من الصورتين يدلُّ على اعتقاد علم الغيب في هذا المدعو، والقدرة على التصرف في الكون!. وتزيد الثانية: صرف الدعاء فيما لا يقدر عليه إلا الله.

ج- دعاء الحي الحاضر غير القادر على وجه التعبد:

وصورته ومثاله: أن يسأل الحي الحاضر ما لا يقدر عليه، فيقف بين يديه ويقول مثلا: يا سيدي فلان، أجدبت الأرض فأغثنا بالمطر، المدَدَ المدَدَ. أو يأتيه آخر يطلب منه الولد. وتكثر هذه الصورة بين المريدين وشيوخهم عند غلاة الصوفية.

وحكم هذا النوع، كسابِقَيه: أنَّه من الشرك الأكبر المخرج من الملَّة؛ لأن الدعاء عبادة، وقد صرفها لغير الله. ثم إن هذا لا يصدُر إلا مع اعتقاد قوة خفية وقدرة على التصرف في الكون في هذا المدعو؛ فهذا شرك في الربوبية، تبعه شرك في الألوهية.

د-سؤال الميت أو الغائب أن يدعو الله أو أن يشفع عند الله:

وله صورتان:

الأولى: أن يسأل ميتا أو حيا أن يدعو الله له، وهو بعيد عنه.

---

(١) «شرح ثلاثة الأصول» ص٣٥.

فهذه الصورة تقع من بعض المسلمين، إذا وقع أحدهم في شدة أو كرب؛ نادى: يا سيدي البدوي، يا ولي الله – من الأحياء –، ادعُ الله لي بالخلاص، وهو بعيد عنه.

وحكم هذه الصورة: أنَّها من الصُّور الشِّركِيَّة؛ لأنه يعتقد في هذا الميت من صفات الربوبية، كعلم الغيب وسماع الأصوات البعيدة.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فهذه الأنواع من خطاب الملائكة والأنبياء والصالحين بعد موتهم عند قبورهم وفي مغيبهم، وخطاب تماثيلهم، هو **من أعظم أنواع الشرك** الموجود في المشركين من غير أهل الكتاب، وفي مبتدعة أهل الكتاب والمسلمين الذين أحدثوا من الشرك والعبادات ما لم يأذن به الله – تعالى –. قال الله – تعالى –: ﴿**أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ**﴾ [الشورى: ٢١]»(١).

وقال – أيضا –: «ومن رحمة الله – تعالى – أن الدعاء المتضمن شركا؛ كدعاء غيره أن يفعل، أو دعائه أن يدعو الله، ونحو ذلك، لا يحصل به غرض صاحبه ...»(٢).

(١) «قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة» ص٤٤.

(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم» ص٣٥٦.

الثانية: أن يسأل ميِّتا عند قبرِهِ وضريحه؛ فيقول: يا رسول الله، أو يا سيدي ادع الله أن يغفر لي.

وحكم هذه الصورة: أنَّها من البِّدع ووسائل الشرك؛ حيث تؤدي إلى دعاء الميت نفسه فيما بعد.

ولهذا لم يتوسل الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ إلى الله بطلب الدعاء من رسوله ﷺ بعد موته؛ فإن الناس لما أصابهم الجدب في عهد عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا»(١).

وهذه المسألة متعلقة بسماع الأموات. والأصل أنهم لا يسمعون؛ لقوله تعالى: ﴿**وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ**﴾ [فاطر: ٢٢]، إلا ما استثني بالدليل كأصحاب قليب بدر، وسماع المدفون قرع النعال.

وهذه المسألة - أعني الصورة الثانية - محل خلاف بين أهل العلم.

ولا يقال بأنها شرك؛ لعدم مُوجِبه، وفرق بينها وبين ما قبلها.

فمحل هذه الصورة في النوع الثاني الآتي (الدعاء البدعي)، وإنما ذُكِرت هنا لمناسبة التقسيم.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١٠١٠ و٣٧١٠).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فعُلِم أنه لا يجوز أن يسأل الميت شيئا: لا يطلب منه أن يدعو الله له ولا غير ذلك، ولا يجوز أن يُشكَى إليه شيء من مصائب الدنيا والدين؛ ولو جاز أن يُشكَى إليه ذلك في حياته فإن ذلك في حياته لا يفضي إلى الشرك، وهذا يفضي إلى الشرك»(١).

تنبيه:

في الصور السابقة يستوي الحكم فيما لو أفرد المدعو أو أشركه مع الله، قال تعالى: ﴿**وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ**﴾ [المؤمنون: ١١٧].

٢- **الدعاء البدعي. وله صور**(٢):

أ- قصد الدعاء عند القبور والأضرحة والمقامات:

وصورته: أن يقصد قبر النبي ﷺ أو أحد الصحابة أو الأولياء والصالحين، ويدعو الله عنده معتقِدا أن الدعاء هناك أفضل، وله مزية، وأقرب للإجابة.

وهذا يقع كثيرا عند قبر النبي ﷺ؛ حيث يُستقبل القبر بالدعاء، وتُستدبر القبلة!.

(١) «مجموع الفتاوى» (١/ ٣٥٤).

(٢) ينظر: «الدعاء» للعروسي (٢/ ٦٠٤).

وحكم هذه الصورة: أنَّها بدعة؛ إذ لم يفعلها النبي ﷺ ولا أصحابه ولا أحد من سلف الأمة. ولو كان خيرا لسبقونا إليه.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وما أحفظ لا عن صحابي ولا عن تابعي ولا عن إمام معروف أنه استحب قصدَ شيء من القبور للدعاء عنده، ولا روى أحد في ذلك شيئا، لا عن النبي ﷺ ولا عن أحد من الأئمة المعروفين، وقد صنف الناس في الدعاء وأوقاته وأمكِنَتِه وذكروا فيه الآثار، فما ذكر أحد منهم في فضل الدعاء عند شيء من القبور حرفا واحدا فيما أعلم»[١].

ولما فتح الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ بيت المقدس لم يقصدوا قبر الخليل ولا غيره للدعاء أو الصلاة. بل المنقول عنهم أنهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ لما فتحوا أرض الشام والعراق وغيرِهما إذا وجدوا قبرا يُقصد الدعاء عنده غيَّبوه وأخفوه[٢].

والقاعدة: أنَّ تخصيص العبادة بمكان معين لم يأت به الشرع بدعة في هذا العمل. والآثار عن السلف في ذلك كثيرة:

منها: ما جاء عن علي بن الحسين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: أنه رأى رجلا يجئ إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ فيدخل فيها فيدعو، فقال: ألا أحدثك بحديث

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» ص٣٦٨.

(٢) ينظر: «منهاج السنة» (٢/٤٣٨)، و«إغاثة اللهفان» (١/١٥٨).

سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله ﷺ قال: «**لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا، وَلَا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُمَا كُنْتُمْ**»(١).

وقال الإمام مالك: «لا أرى أن يقف عند قبر النبي ﷺ يدعو، ولكن يسلم ويمضي»(٢).

كما أنَّ المنع هو مقتضى قاعدة «سد الذرائع»؛ لأن الدعاء عند القبرِ وسيلة إلى طلب الدعاء منه، ثم دعائه.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما الزيارة البدعية؛ فهي التي يُقصَد بها أن يطلب من الميت الحوائج، أو يطلب منه الدُّعاء والشفاعة، أو يقصد الدعاء عند قبره لظن القاصد أن ذلك أَجْوَبُ للدُّعاء. فالزيارة على هذه الوجوه كلها مبتدعة لم يشرعها النبي ﷺ، ولا فعلها الصحابة لا عند قبر النبي ﷺ ولا عند غيره، وهي من جنس الشرك وأسباب الشرك»(٣).

ب- طلب الدعاء من الميت عند قبره:

بأن يسأل ميتا عند قبره وضريحه فيقول: يا رسول الله، أو يا سيدي، ادع الله أن يغفر لي. وهذه هي الصورة الثانية من النوع الرابع من الدعاء الشركي، وسبق ذكرها وبيان حكمها.

---

(١) سيأتي تخريجه، بإذن الله - تعالى -.

(٢) نقله القاضي عياض في «الشفا» (٢/ ٨٥).

(٣) «قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة» ص٥٠.

ج- التوسل:

التوسل يُطلق في الشرع وفي كلام السلف رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ على أمرين[1]:

الأول: التقرب إلى الله - تعالى - بما شرعه من الإيمان به وتوحيده والإيمان برسوله ﷺ وتصديقه ومحبته وطاعته، وجميع الأعمال الصالحة والمشروعة. قال تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ**﴾ [المائدة: ٣٥].

الثاني: طلب الدعاء والشفاعة من الرَّجُل الحي الحاضر؛ كما في قول عمر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: «اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا...»[2].

ثم حدث إطلاقان آخران عند المتأخرين لا يعرفون من التوسل إلا إياهما.

الأول: التوسُّل بذوات الصالحين.

الثاني: نداء الأموات والغائبين واستغاثتهم، والصراخ والهتاف بأسمائهم.

فهذان المعنَيان يُطلق عليهما لفظ التوسل عند المتأخرين، مع أن هذا الإطلاق لم يكن معروفا لا في اللُّغة العربية ولا في الشرع ولا في إطلاقات السلف.

---

(١) ينظر: «الدعاء» للعروسي (٢/٦٢٨).

(٢) تقدم تخريجه.

والحديث عن التوسُّل يطول، لكن المقصود ذكرُ ما يتصل به من صور الدعاء غير المشروع، وهي: **التوسل بجاه النبي ﷺ أو غيره من الصالحين في الدعاء**؛ كأن يقول: اللّٰهم إني أسألك بجاه نبيك أن تغفر لي.

فهذا توسل بدعي؛ لأن جاه ذي الجاه ليس له أثر في قبول الدعاء؛ لأنه لا يتعلق بالداعي، ولا بالمدعو، وإنما هو من شأن ذي الجاه وحدَه، فليس بنافع لك في حصول مطلوبك، أو دفع مكروبك، ووسيلة الشيء ما كان موصلا إليه، والتوسل بالشيء إلى ما لا يوصل إليه نوع من العبث، فلا يليق أن تتخذه فيما بينك وبين ربك(١).

د-الأدعية الراتبة المحدثة:

وهذا مما وقع فيه كثيرون، لاسيما أصحاب الطرق الصوفية؛ كالتيجانية، والنقشبندية، والشاذلية، وغيرها.

---

(١) ينظر: «مجموع فتاوى الشيخ ابن عثيمين» (٢/٣٤٣)، وذكر فائدة جليلة، فقال: «التوسل بالنبي ﷺ أقسام: **الأول**: أن يتوسل بالإيمان به؛ فهذا التوسل صحيح، مثل أن يقول: اللّٰهم إني آمنت بك وبرسولك؛ فاغفر لي. **الثاني**: أن يتوسل بدعائه ﷺ؛ أي بأن يدعو للمشفوع له، وهذا أيضًا جائز وثابت لكنه لا يمكن أن يكون إلا في حياة الرسول ﷺ. وقد ثبت عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا». **الثالث**: أن يتوسل بجاه الرسول ﷺ سواء في حياته، أو بعد مماته: فهذا توسل بدعي لا يجوز» اهـ.

وهذه الأوراد المحدثة يقع في بعضها شركيات ومخالفات.

كما جاء في وظيفة ابن مشيش[1] أن يقول: «اللّٰهم انشلني من أوحال التوحيد وألقني في بحار الوحدة»!.

وكما يلتزمه أصحاب الطريقة التيجانية مما يسمى بصلاة الفاتح: «اللّٰهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أُغلِق، والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق ...» ويرددونه مع كل صلاة!.

والمقصود أن التزام أدعية راتبة في اليوم والليلة لم ترد، بدعة في الدين.

• ولا يُفهم من هذا أن الدعاء كلَّه توقيفي، وأنَّه لا يُدعى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلا بما ورد! بل التوقيفي من الدعاء ما دلَّ الكتاب أو السنة على تخصيصه بزمان أو مكان أو حال ما. وللمُسلم - بعد ذلك - أن يدعو ربَّه بما أحب من خيري الدنيا والآخرة، ولو كان غير وارد، ما دام أنه خال من المحذور الشرعي.

٣- الدعاء المحرم:

مثل: الدعاء بالمُحال؛ كأن يسأل العبدُ منازل الأنبياء، أو الخلود في الدنيا.

---

(١) هو: عبد السلام بن مشيش بن أبي بكر الإدريسي الحسني، ولد في «تطوان» ومات فيها، اشتهر برسالة له تدعى «الصلاة المشيشية»، توفي سنة اثنتين وعشرين وست مئة (٦٢٢هـ). وهو شيخ أبي الحسن الشاذلي، صاحب الطريقة الصوفية المعروفة. ينظر: «الأعلام» للزركلي (٤/ ٩).

ومثل: الدعاء بالإثم؛ كأن يسأل الله - تعالى - ما يعينه على الكفر والفسوق والعصيان، كأن يقول: اللّٰهم مكني من فلانة - بالحرام -، أو يسِّر لي خمرا.

٤- الدعاء المكروه:

ومنه: التكلُّف في الدعاء بذكر التفصيلات والتشقيق، وتكلف السجع.

عن عبد الله بن مغفَّل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّه سَمِعَ ابْنَهُ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْقَصْرَ الْأَبْيَضَ، عَنْ يَمِينِ الْجَنَّةِ إِذَا دَخَلْتُهَا، فَقَالَ: أَيْ بُنَيَّ، سَلِ اللَّهَ الْجَنَّةَ، وَتَعَوَّذْ بِهِ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**إِنَّهُ سَيَكُونُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الطَّهُورِ وَالدُّعَاءِ**»(١).

المطلب السادس: الشرك في الدعاء(٢):

وفيه مسائل:

- **المسألة الأولى: الأدلة على وجوب إفراد الله بالدعاء، والتحذير من دعاء غيره:** والأدلة على ذلك كثيرة جدًّا، يمكن تقسيمها إلى عِدَّة أقسام:

١- الأدلة على أن الدعاء عبادة:

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٩٦)، وابن ماجه (٣٨٦٤)، وصححه الألباني، وحسنه الأرناؤوط.

(٢) ينظر: كتاب «الدعاء» للعروسي (٢/ ٥٢٩) وما بعدها.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وقوله سبحانه، حكاية عن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ...﴾ [مريم: ٤٨- ٤٩].

وقال ﷺ: «**الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ**»(١).

٢- أدلة وصفت دعاء غير الله بأنه شرك أو كفر، أو رتَّبت وعيدا عليه، أو وصفت الداعين غيره بصفة الشرك أو الكفر:

منها قوله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٠]، وقوله سبحانه: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

---

(١) تقدَّم تخريجه.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ۝٦٥ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥-٦٦].

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قالَ النَّبِيُّ ﷺ كَلِمَةً، وَقُلْتُ أُخْرَى: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ مَاتَ وَهْوَ يَدْعُو للَّهِ نِدًّا دَخَلَ النَّارَ**»، وَقُلْتُ أَنَا: «مَنْ مَاتَ وَهْوَ لا يَدْعُو لِلَّهِ نِدًّا دَخَلَ الجَنَّةَ»(١).

وقال الشيخ حَمَد بن معمر رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا نعلم نوعا من أنواع الكفر والرِّدَّة ورد فيه من النصوص مثل ما ورد في دعاء غير الله بالنهي عنه، والتحذير من فعله، والوعيد عليه»(٢).

- **المسألة الثانية: الاستعاذة والاستغاثة:**

ذكر المؤلف بابين يتَّصلان بالدعاء: أحدهما في الاستعاذة، والآخر في الاستغاثة.

أولا: الاستعاذة:

وسبق بيان معناها، والكلام هنا على أنواعها:

النوع الأول: الاستعاذة المشروعة:

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري(٤٤٩٧)، وفي مواضع أخرى، ومسلم(٩٢).

(٢) «مجموعة الرسائل والمسائل النجدية» (٤/ ٦٠٢).

وهي الاستعاذة بالله - تعالى - أو بصفة من صفاته، والتي تتضمَّن كمال اللجوء والذل والافتقار إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أو بصفة من صفاته.

ومما ورد في ذلك:

١- عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كانَ يَقُولُ إذا دَخَلَ المَسْجِدَ: «**أَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**»(١).

٢- وقول النبي ﷺ: «**أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ**»(٢)، وقوله ﷺ: «**أَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي**»(٣)، وقوله ﷺ: «**أَعُوذُ بِاللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ**»(٤)، وقوله ﷺ: «**أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ...**»(٥)، وغيرها كثير.

النوع الثاني: الاستعاذة الممنوعة:

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٤٦٦)، والترمذي (٢٠٧٥)، وابن ماجه (٣٥٢٦)، وصححه الألباني.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٥٠٧٤)، والنسائي (٥٥٢٩)، وابن ماجه (٣٨٧١)، وصححه الألباني.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٠٢).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه (٤٨٦).

ومن صُورِها: الاستعاذة بالأموات؛ كأن يأتي إلى الميت أو يطلب منه أن يُعِيذه ويُجِيره من الشر الذي وقع فيه أو الذي يخشاه، أو الاستعاذة بالأحياء الغائبين.

فهذا من الشرك كما قال الله - عز وجل-: ﴿**وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقًا**﴾ [الجن: ٦].

النوع الثالث: الاستعاذة الجائزة:

وهي الاستعاذة بالمخلوق الحي الحاضر القادر؛ كما جاء في بعض الأحاديث أنَّ النبي ﷺ ذكر الفتن، فقال: «**مَنْ تَشَرَّفَ لَهَا تَسْتَشْرِفْهُ؛ فَمَنْ وَجَدَ مِنْهَا مَلْجَأً أَوْ مَعَاذًا، فَلْيَعُذْ بِهِ**»(١)، وفي الحديث أيضا: «أَنَّ امْرَأَةً مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ سَرَقَتْ، فَأُتِيَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ ، فَعَاذَتْ بِأُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ»(٢).

وهذا النوع إذا كان لا يترتب عليه محذور، فالأصل فيه الجواز، وربما يكون له حكم آخر بحسب المقاصد في ذلك.

ثانيا: الاستغاثة:

سبق بيان معناها، ويقال في أنواعها ما قيل في أنواع الاستعاذة.

* * *

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٧٠٨١) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٨٨٦).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١٦٨٩).

١٤- باب قول الله - تعالى -:
﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ...﴾ [الأعراف: ١٩١- ١٩٢]، الآية.

وَقَوْلِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣] الآيَةَ.

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «شُجَّ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ، فَقَالَ «**كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ**؟» فَنَزَلَتْ: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ**﴾ [آل عمران: ١٢٨]»(١).

وَفِيهِ: عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ، إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فِي الرَّكْعَةِ الْأَخِيرَةِ مِنَ الْفَجْرِ: «**اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا**»، بَعْدَ مَا يَقُولُ: «**سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ**»؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ**﴾ [آل عمران: ١٢٨](٢).

---

(١) أخرجه البخاري معلقا في: كتاب التفسير، باب «لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ»، وأخرجه مسلم في صحيحه (١٧٩١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٠٦٩) وفي مواضع أخرى.

وَفِي رِوَايَةٍ: «يَدْعُو عَلَى صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ، وَسُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو، وَالْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ، فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]»(١).

وَفِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، قَالَ: «**يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ** – أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا – **اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ؛ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا. يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ؛ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا**»(٢).

ooo

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٠٧٠).

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٢٧٥٣ و٤٧٧١)، ومسلم (٢٠٦).

١٥- باب قول الله - تعالى -: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ؛ كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ**: ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ**﴾ [سبأ: ٢٣]، **فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ** - وَصَفَهُ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ؛ فَحَرَّفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ - **فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ، فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الْآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الْكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِئَةَ كَذْبَةٍ، فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا؟ فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ**»(١).

وَعَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِذَا أَرَادَ اللَّهُ - تَعَالَى - أَنْ يُوحِيَ بِالْأَمْرِ تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ، أَخَذَتِ السَّمَوَاتِ مِنْهُ رَجْفَةٌ** - أَوْ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٨٠٠) وفي مواضع أخرى.

قَالَ: رِعْدَةٌ - شَدِيدَةٌ خَوْفًا مِنْ اللَّهِ - عَزَّ وجلَّ - فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ أَهْلُ السَّمَوَاتِ، صَعِقُوا وَخَرُّوا لِلَّهِ سُجَّدًا، فَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ فَيُكَلِّمُهُ اللَّهُ مِنْ وَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ، ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرِيلُ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ سَأَلَهُ مَلَائِكَتُهَا: مَاذَا قَالَ رَبُّنَا، يَا جِبْرِيلُ؟ فَيَقُولُ جِبْرِيلُ: (قَالَ الْحَقَّ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ). قالَ: فَيَقُولُونَ كُلُّهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ جِبْرِيلُ، فَيَنْتَهِي جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ إِلَى حَيْثُ أَمَرَهُ اللَّهُ - عزَّ وجلَّ -»[1].

ooo

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (٥١٥)، وابن خزيمة في «التوحيد» (١/٣٤٩)، والطبراني في «مسند الشاميين» (٥٩١)، وإسناده ضعيف، غير أنَّ له شواهد، منها ما قبله.

١٦- باب
الشفاعة

وَقَوْلِ اللهِ - عزَّ وجلَّ -: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾[الأنعام: ٥١].

وَقَوْلِهِ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾[الزمر: ٤٤].

وَقَوْلِهِ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[البقرة: ٢٥٥].

وَقَوْلِهِ: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦].

وَقَوْلِهِ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[سبأ: ٢٢] الآيتَينِ.

ooo

١٧- باب قول الله – تعالى – :

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ...﴾ [القصص:٥٦]، الآية.

فِي الصَّحِيحِ عَنِ ابْنِ الْمُسَيَّبِ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ، جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعِنْدَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ وَأَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ لَهُ: «**يَا عَمِّ قُلْ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ**». فَقَالَا لَهُ: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟! فَأَعَادَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَعَادَا، فَكَانَ آخِرَ مَا قَالَ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ! وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ». فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ**». فَأَنْزَلَ اللَّهُ: **﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾** [التوبة: ١١٣]، وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي أَبِي طَالِبٍ: **﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾** [القصص:٥٦]»[(١)].

ooo

الشرح:

هذه الأبواب الأربعة تجمعُها وحدة موضوعية، وهي: عرض بعض شبهات المشركين ونقضها، وسيكون الكلام عليها في ثلاثة فصول:

* * *

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (١٣٦٠) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٤).

الفصل الأول: مقصود الأبواب الأربعة، وموضوعها العام

تُشِير هذه الأبواب الأربعة إلى أمرين:

الأول: الرَّدُّ على كل مُشرِك كائنا من كان، وبيانُ حالِ المدعُوِّين من دون الله: أنهم لا ينفعون ولا يضرون، مهما بلغت منزلتُهم، سواء في ذلك الأنبياء والصالحون وغيرهم. وقد ناقش ذلك في الأبواب الرابع والخامس والسابع عشر.

الثاني: الرَّدُّ على شُبهة المشركين في أنهم يدعون الصالحين؛ ليكونوا شفعاء ووُسَطاء لهم عند الله، ولا يريدون جعلهم آلهة، وبيان حقيقة الشفاعة. وقد ناقش ذلك في الباب السادس عشر.

* * *

الفصل الثاني: المباحث الموضوعية

هذه الأبواب الأربعة تندرج تحت موضوع مهم في باب توحيد العبادة، ولا بُدَّ لطالب العلم من الإلمام به لترسَخ قدمُه في علم التوحيد، وهو: «**شبهات المشركين والقُبُورِيِّين: عرض ونقض**»، وقد اعتنى بذلك أهل العلم، ومنهم المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ فأفرد له مؤلَّفًا خاصا، هو كتابه: «كشف الشبهات». وسأُفرِد كل شبهة بمبحث خاص.

المبحث الأول: عظمة هؤلاء المدعُوِّين، ورفعة قدرهم عند رب العالمين:

إذا أنكرت على من صرف شيئا من أنواع العبادة لبعض المُعَظَّمين من الأنبياء أو الملائكة أو الصالحين، أو غلا فيهم غلوا مذموما، لاستنكر هذا الإنكار، وقال: هؤلاء لهم منزلة عظيمة، وقدر جليل عند الله – تعالى –، فليسوا كآحاد البشر.

وأشار المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى هذه الشبهة في الباب الرابع عشر (باب قول الله – تعالى –: ﴿**أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ١٩١ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا** ...﴾ [الأعراف: ١٩١-١٩٢]، الآية).

وفي الباب الخامس عشر (باب قول الله - تعالى -: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]) ذكر الملائكة الكرام وحالَهم، وذكر النصوص الواردة في هذا.

وفي الباب السابع عشر (باب قول الله - تعالى -: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦])، ردٌّ على الغُلاة في النبي ﷺ؛ إذ المخاطب في الآية هو رسول الله ﷺ، والآية تنفي عنه ﷺ مِلكَ شيء من أمر الهداية. وإذا كان النَّبيُّ ﷺ لا يملِك الهداية فغيره من باب أولى.

فمهما بلغ المدعُوُّ - من دون الله - من الفضل والمنزلة، فهو في منزلة العبودية، وهو لا يملك الضرَّ والنفعَ لنفسه، فضلا أن تكون له خصائصُ الربوبية أو الألوهية.

ooo

المبحث الثاني: دعاء غير الله لغرض الشفاعة:

يقولون: إن دعاءنا غير الله؛ ليكونوا وسطاء وشفعاء لنا عند الله، فمَن ندعوهم لهم منزلةٌ عظيمة وجاهٌ عند الله، وهم أصحابُ تقىً وصلاح، ونحن أصحابُ ذنوب وتقصير.

فصرفوا العبادات لهم - من دعاء وذبح ونذر وخوف ورجاء وغيرها -؛ طلبا لشفاعتهم.

قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]. لكن هذه الآمال كسراب بقيعة لا يجدون منها شيئا، ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الروم: ١٢-١٣].

والمصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أشار إلى هذه الشُّبهة في الباب السادس عشر (باب الشفاعة).

والكلام على الشفاعة في مطالب[(١)]:

المطلب الأول: معنى الشفاعة:

الشفاعة في اللُّغة: مأخُوذة من الشَّفع، الذي هو ضد الوتر. وقد أقسم الله به في قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾ [الفجر: ٣]، يعني: كل شفع وكل فرد.

والشفع: الزوجي، والوتر: الفردي، بلغة الرياضيات المعاصرة.

ومعناها في اللغة يدُل على ضمِّ شيئين ومقارنتهما، فالواحد إذا ضمَمْتَه إلى آخر صارا اثنين. وكذلك الشفاعة؛ فإنَّ الشافع يأتي مع المشفوع له، فصارا اثنين. هذا أصلُ الاشتقاق اللغوي.

والشفاعة في الاصطلاح: التوسط للغير بجلْبِ منفعة أو دفع مضَرَّة.

---

(١) استفدت في هذه المطالب من كتاب «الشفاعة عند أهل السنة» للدكتور ناصر الجديع.

وقد تكون الشفاعة حسنة يُثاب عليها الإنسان، كما قال ﷺ: «**اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا**»(١)، وقد تكون سيئة يأثم عليها الشافع، كما قال الله - تعالى -: ﴿**مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَاۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا**﴾ [النساء: ٨٥]، يعني: يكن له نصيب من الثواب في الشفاعة الحسنة، ونصيب من الإثم في الشفاعة السيئة.

ولهذا لما شفع أسامةُ بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في المرأة المخزومية التي سرقت؛ غضِب النَّبي ﷺ وقال: «**أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ ؟!**»(٢)؛ فالحُدُود ليس فيها شفاعة.

المطلب الثاني: أقسام الشفاعة:

يُقسِّم العلماء الشفاعة إلى قسمين:

القسم الأول: **شفاعةٌ مُثبَتة**: وهي ما جاء الشرع بإثباتها.

القسم الثاني: **شفاعةٌ مَنْفِيَّة**: وهي الشفاعة التي يتشبث بها المشركون قديما وحديثا، والتي زيَّن لهم الشيطان أعمالهم وشِرْكهم بسببها؛ فصرفوا أنواعا من

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (١٤٣٢) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٦٢٧)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣٤٧٥ و٦٧٨٨)، ومسلم (١٦٨٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

العبادات لهؤلاء المخلوقين والمقبورين بدعوى طلب الشفاعة، وهي مسألة ذكرها القرآن عَرْضًا ورَدًّا.

قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ۝٤٣ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [الزمر: ٤٣-٤٤].

ويوم القيامة تطيش العقول، وتحِل الحسرات، ويُخذَل المشركون، قال تعالى: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

فتنقلب عبادتُهم في الدنيا لأولئك الشركاء إلى كفر بهم!، قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝١٢ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ [الروم: ١٢-١٣].

المطلب الثالث: أنواع الشفاعة المُثْبَتَة، باعتبار الشافع:

أولا: شفاعة الرسول ﷺ. ولها صُوَر:

١- الشفاعة العُظمى:

وهي الشفاعة الخاصَّة بالنَّبي ﷺ لأهل الموقف، حينما يحشر الناس ويُساقون إلى ذلك الموقف الرهيب العصيب، الذي تشيب منه الوِلْدَان، وتدنو الشمس منهم قَدْرَ ميل، ويلحق بهم من الكَرْب ما لا يطيقون؛ لذلك يتمنون الخلاص؛

«فَيَأْتُونَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟! أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟! فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ! نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ.

فَيَأْتُونَ نُوحًا، فَيَقُولُون: يَا نُوحُ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟! فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي -عَزَّ وَجَلَّ- قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِي! نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ.

فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟! فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلَاثَ كَذِبَاتٍ! نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى.

فَيَأْتُونَ مُوسَى، فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، فَضَّلَكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟! فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ

قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ.

فَيَأْتُونَ عِيسَى، فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟! فَيَقُولُ عِيسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ قَطُّ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْبًا، نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي! اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ.

فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا، فَيَقُولُونَ :يَا مُحَمَّدُ، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، وَخَاتِمُ الأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟! قال ﷺ: فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ العَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي – عَزَّ وَجَلَّ –، ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا، لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ»(١).

وهذه الشفاعة العُظمى للنَّبِيِّ ﷺ هي المذكورة في قول الله – عزَّ وجلَّ –: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

٢- الشفاعة في استفتاح باب الجنة:

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٤٧١٢) وفي مواضع أخرى، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهذه ثابتة في الأحاديث الصحيحة؛ كقوله ﷺ: «**أَنَا أَوَّلُ شَفِيعٍ فِي الْجَنَّةِ**»(١)، وقوله ﷺ: «**آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ**»(٢).

وهاتان الشَّفاعتان الأولى والثانية خاصَّة بالنَّبي ﷺ.

٣- الشفاعة في تخفيف العذاب عمَّن استحقه:

والمقصود بها شفاعته لعمِّه أبي طالب؛ لأنه كان يحُوط النبي ﷺ، وينصره، ويُدافع عنه، فكوفِئ بذلك أن شفع له ﷺ بتخفيف العذاب دون رفعه. فعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ، وَذُكِرَ عِنْدَهُ عَمُّهُ، فَقَالَ: «**لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ فَيُجْعَلُ فِي ضَحْضَاحٍ مِنَ النَّارِ يَبْلُغُ كَعْبَيْهِ، يَغْلِي مِنْهُ دِمَاغُهُ**»(٣).

٤- الشفاعة فيمن دخل النار من أهل الكبائر، أن يخرُج منها:

وهذه شفاعته ﷺ في عُصاة المُوحِّدين الذين دخلوا النار، فيشفعُ لهم في خروجهم منها. والدليل عليها قوله ﷺ: «**شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي**»(٤).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٩٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١٩٧) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣٨٨٥ و٦٥٦٤)، ومسلم (٢١٠).

(٤) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٤٧٣٩)، والترمذي (٢٤٣٥)، وأحمد (١٣٢٢٢)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَوَرد في هذا أحاديث أخرى؛ منها: قوله ﷺ في حديث الشفاعة الطويل: «**فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ – أَوْ خَرْدَلَةٍ – مِنْ إِيمَانٍ**»(١). فسيخرج أقوامٌ من النار بشفاعة النَّبي ﷺ، يخرجون ويدخلون الجنة، وهؤلاء يُسمُّون: «**الجَهَنَّمِيُّون**»(٢).

ثانيا: شفاعة الملائكة:

فالملائكة يشفعون، والدليل على ذلك قول الله – عزَّ وجلَّ –: ﴿**وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ**﴾ [النجم: ٢٦].

وفي حديث الشفاعة الطويل يقول الله – عزَّ وجلَّ –: «**شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**»(٣).

ثالثا: شفاعة النبيين:

والدليل عليه الحديث السابق، وفيه قول الله – عَزَّ وَجَلَّ –: «**شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ**»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٥١٠)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: صحيح البخاري (٧٤٥٠).

(٣) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣) واللفظ له، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) تقدم تخريجه.

رابعا: شفاعة المؤمنين:

وهذه أيضا شفاعة ثابتة في الآخرة، للحديث السابق.

وعن أبي أُمامة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النَّبي ﷺ قال: «**لَيَدْخُلَنَّ الجَنَّةَ بِشَفَاعَةِ رَجُلٍ لَيْسَ بِنَبِيٍّ مِثْلُ الحَيَّيْنِ، أَوْ مِثْلُ أَحَدِ الحَيَّيْنِ: رَبِيعَةَ وَمُضَرَ**»(١)، أي: أن هذا رجل ليس بنبي، ومع ذلك يشفع، ويدخل الجنةَ بشفاعته هذا العدد الكبير من الناس.

خامسا: شفاعة الشهداء:

الشهداء هم الذين قتلوا لتكون كلمة الله هي العليا. ومرتبتُهم فوق مرتبة الصالحين، كما قال الله – تعالى –: ﴿**فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ**﴾ [النساء: ٦٩].

والشهداء لهم كرامات عند الله؛ منها ما جاء في قوله ﷺ: «**لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ سِتُّ خِصَالٍ: يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دفْعَةٍ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنَ الفَزَعِ الأَكْبَرِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الوَقَارِ، اليَاقُوتَةُ مِنْهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَيُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الحُورِ العِينِ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقَارِبِهِ**»(٢).

---

(١) **صحيح بطرقه وشواهده**: أخرجه أحمد (٢٢٢١٥)، والطبراني في «الكبير» (٧٦٣٨)، وقال الأرناؤوط: صحيح بطرقه وشواهده.

(٢) **صحيح**: أخرجه الترمذي (١٦٦٣)، وابن ماجه (٢٧٩٩)، وصححه الألباني.

سادسا: شفاعة بعض الأعمال الصالحة: ومن ذلك:

١- القرآن:

كما في قوله ﷺ: «**اقْرَءُوا الْقُرْآنَ؛ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ**»(١).

فهذا القرآن يشفع لصاحبه الذي كان يتلوه ويعمل به في الدنيا.

وورد أيضا إثبات الشفاعة في بعض السور، كما في قوله ﷺ: «**إِنَّ سُورَةً فِي الْقُرْآنِ ثَلَاثُونَ آيَةً، شَفَعَتْ لِصَاحِبِهَا حَتَّى غُفِرَ لَهُ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾**»(٢).

٢- الصيام:

لقوله ﷺ: «**الصِّيَامُ وَالْقُرْآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ الصِّيَامُ: أَيْ رَبِّ، مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّهَوَاتِ بِالنَّهَارِ، فَشَفِّعْنِي فِيهِ. وَيَقُولُ الْقُرْآنُ: مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ، فَشَفِّعْنِي فِيهِ. قَالَ: فَيُشَفَّعَانِ**»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨٠٤)، من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) **حسن**: أخرجه الترمذي (٢٨٩١)، وابن ماجه (٣٧٨٦) واللفظ له، وأحمد (٧٩٧٥ و٨٢٧٦)، وحسنه الألباني.

(٣) **صحيح**: أخرجه أحمد (٦٦٢٦)، والحاكم في «المستدرك» (٢٠٣٦)، وقال: «صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٨٨٢).

المطلب الرابع: شروط الشفاعة:

مع إثبات الشفاعة فلا بد لها من شرطين دلت عليهما الأدلة:

الشرط الأول: إذْنُ الله للشافع أن يشفع:

كما قال - جلَّ وعلا - في آية الكرسي: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩]، وغيرهما من الآيات.

الشرط الثاني: رضا الله - تعالى - عن المشفوع له:

كما في الآية السابقة، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

إشكالان وجوابهما:

الأول: هل إثبات شفاعة النبي ﷺ لأهل الموقف، وفيهم كفَّار، يُعارض ما تقرَّر من أنَّ الكافر لا ينتفع بالشفاعة، وأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يرضى الكُفر؟

والجواب: أن هذه الشفاعة لا تُنجِّي الكافر من النار، وإنما هي لفصل القضاء، فحقيقة الأمر أن الكافر يُعجَّل إلى العذاب؛ فهذه الشفاعة تعجيل إلى شرٍّ بالنسبة للكافر، وليست خيرا له.

الثاني: سبق ذكر شفاعته ﷺ لعمه أبي طالب، وقد مات على الشرك، فهل يعارض هذا ما ذكر هنا أن من شروط الشفاعة: الرِّضا عن المشفوع؟

والجواب: أن الشفاعة في أبي طالب شفاعة تخفيف وليست شفاعة نجاة، وشفاعة النَّبي ﷺ لعمِّه أبي طالب مخصوصة من العموم، يخص بها العموم السابق. أي أن الشفاعة لا تنفع إلا المؤمن الذي رضي الله قوله، هذا هو الأصل والقاعدة العامة، لكن يُخصُّ من هذا العموم صورة واحدة فقط، وهي: شفاعة النَّبي ﷺ لعمِّه أبي طالب.

المطلب الخامس: أسباب الحصول على الشفاعة:

وهذا مما تتسابق عليه همم المؤمنين؛ لعلمهم بأهوال يوم الدين، وشدة الكرب يوم فصل القضاء بين يدي رب العالمين؛ فهم يبحثون عما ينفعهم في تلك الدار الآخرة من شفاعة الشافعين، ويطلبون أسبابها؛ ليعملوا بها في هذه الدار التي هي محل ابتلاء العاملين.

السبب الأول: تحقيق التَّوحيد، وإخلاص العبادة لله:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ القِيَامَةِ؟ فَقَالَ ﷺ: «**لَقَدْ ظَنَنْتُ – يَا أَبَا هُرَيْرَةَ – أَنْ لا يَسْأَلُنِي عَنْ هَذَا الحَدِيثِ**

أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ؛ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الحَدِيثِ. أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ، مَنْ قَالَ: «لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ، أَوْ نَفْسِهِ»[1].

وهذا الحديث يدل على اعتناء الصحابة بأمر الشفاعة في الآخرة، وحرصهم عليها، فعلينا أن نقتدي بهم بتحقيق هذا السبب، وهو تحقيق التوحيد خالصا من القلب.

وفي الحديث الآخر قال ﷺ: «**لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ – إِنْ شَاءَ اللهُ – مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا**»[2].

وهذا يدل على حرص النَّبي ﷺ على أمته، قال تعالى: ﴿**لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ [التوبة: ١٢٨].

وقوله ﷺ: «**فَهِيَ نَائِلَةٌ**»، أي: ينالها من اتصف بهذا الوصف. والأمر المعلَّق على وصف يزيد بزيادته وينقص بنقصانه، فكلما كان الإنسان أكثر تحقيقا للتوحيد كان أقرب إلى حصول الشفاعة من النبي ﷺ.

السبب الثاني: قراءة القرآن:

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١٩٩).

لقوله ﷺ: «**اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ**»(١)، والوصية أن نتشبث بهذا السبب، وأن نقوِّي صلتنا بالقرآن العظيم: تلاوة، وتدبرا، وعملا.

السبب الثالث: الصيام:

لما تقدَّم من قوله ﷺ: «**الصِّيَامُ وَالْقُرْآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(٢).

السبب الرابع: الدُّعاء بما ورد عند الأذان:

لقوله ﷺ: «**مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ: اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ، وَالصَّلاةِ الْقَائِمَةِ آتِ مُحَمَّدًا الوَسِيلَةَ وَالفَضِيلَةَ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ، حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ**»(٣).

فينبغي لكل مسلم ومسلمة أن يردد كلمات الأذان مع المؤذن، وإذا فرغ صلَّى على النبي ﷺ، ثم أتى بهذا الدعاء؛ تقربا إلى الله، ورغبة في حصول هذا الأجر.

السبب الخامس: سُكنَى المدينة، والصبر عليها، والموت فيها:

وورد في هذا عِدَّةُ أحاديث؛ منها:

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٦١٤ و٤٧١٩)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لَا يَصْبِرُ أَحَدٌ عَلَى لَأْوَائِهَا، فَيَمُوتُ، إِلَّا كُنْتُ لَهُ شَفِيعًا - أَوْ شَهِيدًا - يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِذَا كَانَ مُسْلِمًا**»[1].

وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَمُوتَ بِالمَدِينَةِ فَلْيَمُتْ بِهَا؛ فَإِنِّي أَشْفَعُ لِمَنْ يَمُوتُ بِهَا**»[2].

السبب السادس: الصلاة على النَّبي ﷺ:

ويدل عليه قوله ﷺ: «**أَوْلَى النَّاسِ بِي يَوْمَ القِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ عَلَيَّ صَلَاةً**»[3].

فلا يزال لسانُك رطبا بالصلاة على هذا النبي الكريم ﷺ، رزقنا الله شفاعته يوم القيامة.

السبب السابع: أن يصلي على الميت المسلم جماعة من المسلمين:

وورد في هذا أحاديث أيضا، منها:

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن النبي ﷺ قال: «**مَا مِنْ ميِّتٍ يُصَلِّي عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ المُسْلِمِيْنَ يَبْلُغُوْنَ مِئَةً؛ كُلُّهُمْ يَشْفَعُوْنَ لَهُ، إِلَّا شُفِّعُوا فِيْهِ**»[4].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٣٧٤).

(٢) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٣٩١٧) واللفظ له، وابن ماجه (٣١١٢)، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه (٤٨٤)، وابن حبان في صحيحه (٩١١)، وضعَّفه الألباني في تحقيقه للأول، ثم حسنه لشواهده في تعليقه على الثاني.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (٩٤٧).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ، فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا، لَا يُشْرِكُونَ بِاللهِ شَيْئًا، إِلَّا شَفَّعَهُمُ اللهُ فِيهِ**»(١).

السبب الثامن: كثرة السجود:

وهو كناية عن الصلاة، ودليل ذلك ما جاء عن خادمٍ للنبي ﷺ أنَّه قال: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ مِمَّا يَقُولُ لِلْخَادِمِ: «**أَلَكَ حَاجَةٌ؟**» قَالَ: حَتَّى كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، حَاجَتِي. قَالَ: «**وَمَا حَاجَتُكَ؟**» قَالَ: حَاجَتِي أَنْ تَشْفَعَ لِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ. قَالَ: «**وَمَنْ دَلَّكَ عَلَى هَذَا؟**» قَالَ: رَبِّي. قَالَ: «**إِمَّا لَا، فَأَعِنِّي بِكَثْرَةِ السُّجُودِ**»(٢).

السبب التاسع: الدعاء:

وذلك بأن يدعو العبد ربه أن يُشَفِّع فيه نَبِيَّه ﷺ.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٩٤٨).

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد في «المسند» (١٦٠٧٦)، ومُسدد في مسنده، كما في «المطالب العالية» (٥٧٣)، وصححه الأرناؤوط. وقال محققو «المسند»: «(إمَّا لا): بكسر الهمزة وتشديد الميم، بإدغام نون «إن» الشرطية في ميم «ما» الزائدة، والتقدير، أي: لا تترك هذه الحاجة. وفيه تعظيم لهذه الحاجة، وأنها تحتاج إلى معين، فكن أنت معينا لي على قضائها بكثرة السجود» اهـ.

والدعاء سبب شرعي لنيل المراد من خيرَي الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

فهذه الأسباب هي من العلم النافع الذي ينبغي تعلُّمه ونشره، والاجتهاد في العمل به، فإن ثمرته وعاقبته خير وسعادة وقرة عين.

المطلب السادس: الشفاعة عند القبوريين والمشركين:

الشفاعة من القضايا التي انقسم فيها الناس إلى طرفين ووسط: فطائفة من الناس أنكرت الشفاعة بالكلية، وهم الخوارج. وقابلتهم طائفة أخرى غَلَوا فيها، فأثبتوها فيما نفاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهم القبوريون والمشركون، الذين اعتقدوا ثبوت الشفاعة في الأموات، فجعلوا ذلك سُلَّما إلى التعلق بهم، والاستغاثة والاستعانة بهم، وسؤالهم تحقيق الحاجات وتفريج الكربات.

وهذه حُجة أسلافهم في الجاهلية، الذين قال الله - تعالى - عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، وقال - جلَّ وعلا -: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

وكان قصدهم من هذه العبادة أن تشفع لهم عند الله في: نصرهم، ورزقهم، وما يحتاجون إليه من أمور الدنيا، أما البعث فكانوا ينكرونه، كما قال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧].

واستندوا فيما ذهبوا إليه في أمر الشفاعة على بعض الشبهات؛ منها[1]:

الشبهة الأولى: قالوا: لم يرد دليل يمنع من ذلك، فبأي وجه تنكرون علينا ما نفعله مع أصحاب القبور؟!

والجواب: هذه الأفعال – من الدعاء والاستغاثة ونحوهما – عبادات، والقاعدة: أن العبادات مبناها على التوقيف. بمعنى: أن العبادة الصحيحة لا بد لها من دليل يدل على مشروعيتها، وفي الزمان والمكان إن كانت مقيدة بذلك.

فالمشروعية – هنا – ليست متوقفة على انتفاء الدليل، وإنما متوقفة على ثبوت الدليل، فلا يصح للمُخالف أن يقول: لم يرِد دليل بالمنع. بل نقول: أين الدليل المُثبِت للفعل؛ لأن فعلك هذا حادِثٌ لم يُعرف عن السَّلف الماضين، ولم يُعرف عن الصحابة ولا التابعين، ولا عن تابعيهم، وهم القرون المفضلة الذين هم خير القرون، ولم يُرشِد إليه النبيُّ ﷺ بقوله ولا بفعله، ولو كان خيرا لسبقونا إليه، فبطل بهذا احتجاجهم.

وأيضا؛ فإن مبدأ الشرك كان بمثل هذه الأعمال، فأول شرك وقع في البشرية – في قوم نوح – كان بسبب تعظيم هؤلاء الصالحين، والغُلُو فيهم.

الشبهة الثانية: قالوا: نحن نمتثل ما جاء في قول الله – تعالى –: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ

---

(١) يُنظر: «شبهات المبتدعة في توحيد العبادة» (٢/ ١٠٠٧).

تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤]؛ فإذا ظلمنا أنفسنا ووقعنا في الهفوات والزلات، جئنا إلى النبي ﷺ وطلبنا منه الاستغفار لنا.

والجواب عن هذه الشبهة من أوجُه:

الأول: أن (**إِذ**) في قوله تعالى: **﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ﴾**؛ ظرف لما مضى، وليست ظرفا للمستقبل، فلم يقل الله: «ولو أنهم إذا ظلموا أنفسهم»، بل قال: **﴿إِذ ظَّلَمُوٓاْ﴾**، فهذا حديث عن أمر وقع في حياة الرسول ﷺ. واستغفار الرسول ﷺ بعد مماته أمر متعذر؛ لأنه «**إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ** ...»(١) كما قال ﷺ. فلا يُمْكِن لإنسان بعد موته أن يستغفر لأحد، بل ولا أن يستغفر لنفسه - أيضا -؛ لأن عمله انقطع.

والآية واردة في سياق الحديث عن بعض المنافقين الذين تحاكموا إلى الطاغوت، وقد أُمِرُوا أن يكفروا به، ولذلك قال تعالى بعد الآية المذكورة: **﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾** [النساء: ٦٥].

الثاني: أنه لو كان معناها كما ذكرتم (أن كل من وقع في ظُلمٍ لنفسه ذهب إلى قبر النَّبي ﷺ)، فيلزم على ذلك أن يكون قبره ﷺ أعظم الأعياد

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٦٣١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والمجتمعات؛ لأنه لا يخلو مسلم من ظلم لنفسه، ولكان القبر عيدا مكانيا عظيما، وهذا عين ما نهى عنه النبي ﷺ بقوله: «**لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا**»(١).

الثالث: أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الذين عايشوا التنزيل، وهم أفقه الناس في معاني القرآن، لم يفهموا هذا المعنى، ولم يُنقلْ عن أحد منهم أنه كان إذا وقع في ذنب أو خطأ أو هَفْوة، ذهب إلى قبر النَّبي ﷺ! ولو كان هذا مشروعا، أو مفهوما من الآية، لكانوا أسبق الناس إليه. ولهذا طلبوا الدعاء من العباس عَمِّ النَّبي ﷺ، مع كون قبر النَّبي ﷺ عندهم في المدينة، ولو كان هذا المعنى صحيحا، لكان الذهاب إليه ﷺ أولى وأنفع من الذهاب إلى غيره، بلا شك. بل قال عُمَر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِيْنَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا، قالَ: فَيُسْقَوْنَ»(٢).

الشبهة الثالثة: الاستدلال ببعض الحكايات:

وحكاياتهم وقصصهم في ذلك كثيرة! ومن أشهرها:

الأولى: حكاية العُتْبِيِّ:

وهي ما جاء عن محمد بن عبيد الله العُتبي، قال: دخلتُ المدينة فأتيت قبر النَّبي ﷺ، فزُرْتُه وجلست بحذائه، فجاء أعرابي فزاره، ثم قال: يا خير الرسل، إن الله أنزل عليك كتابًا قال فيه: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ**

---

(١) سيأتي تخريجه، بإذن الله – تعالى –.

(٢) تقدم تخريجه.

جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ٦٤]، وإني جئتك مستغفرا من ذنوبي، مستشفِعًا فيها بك، ثم بكى وأنشد يقول:

يا خير من دُفِنت بالقاع أعْظُمُه ... فطاب من طيبهن القاعُ والأكَمُ

نفسي الفِداءُ لقبر أنت ساكنُه ... فيه العفافُ، وفيه الجودُ والكرمُ

ثم استغفر وانصرف.

قال العُتبِي: رقَدْتُ فرأيت النَّبي ﷺ في منامي، وهو يقول: الْحَق الرجلَ، وبشِّره أن الله قد غَفَرَ له بشفاعتي. قال: فطلبتُه فلم أجده.

وهذه الحكاية ذكرها أيضا بعض أهل السُّنة والعِلم كالموفَّق ابنُ قدامة في كتابه «المغني»، لكنه ذكرها بصيغة التمريض(١).

الثانية: حكاية الأعرابي بعد دفن النبي ﷺ:

ذُكِر عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قدم علينا أعرابيٌّ بعد ما دفنا رسول الله ﷺ بثلاثة أيام، فرمَى بنفسه على قبر النَّبي ﷺ، وحثَا من ترابه على رأسه، وقال: يا رسول الله، قُلتَ فسمعنا قولَك، ووعيْتَ عن الله فوعينا عنك، وكان فيما أُنزل عليك: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ

---

(١) ينظر: «المغني» (٣/ ٤٧٨). والقصة أخرجها ابن عساكر في «معجم الشيوخ» (١/ ٥٩٩) وآخرون، وذكرها ابن عبد الهادي في «الصارم المُنكِي» ص ٢٥٢، وفنَّد أسانيدها.

﴿ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤]، قد جئتك، يا رسول الله، وقد ظلَمْتُ، وجئتك تستغفر لي، فنُودي من القبر: قد غُفِر لك[١].

والجواب عن هاتين الحكايتين:

أنهما حكايتان باطلتان، ليس لهما خِطام ولا زِمام، ومثل هذا لا تُنَاط به الأحكام، فضلا عن عَقْد العقائد في مثل هذه المسائل الكبار!.

الشبهة الرابعة: الاستشفاع بالصالحين وطلب الدعاء منهم، وأنَّ هذا جائز في حياتهم مستمر بعد موتهم:

فهم يقولون: إن طلب الشفاعة من الميت الصالح غايتُه أن يكون طلبا لدعائه اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يشفِّعَه فينا، وطلب الدعاء من الميت كطلبه من الحي؛ لأن الأصل استمرارُ الحكم!.

وهذه المسألة سبقت الإشارة إليها في الدعاء البدعي «طلب الدعاء من الميت».

ويذكرون في هذا أيضا: ما جاء عن مالك الدارِيِّ – وكان خازنَ عُمَرَ على الطعامِ – قال: أصابَ الناسَ قحطٌ في زمن عمرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فجاء رجلٌ إلى قبرِ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، استسق لأمتك؛ فإنهم قد هلكوا، فأُتِي الرجل في المنام، فقيل له: ائت عمر، فأقرئه السلام، وأخبره أنكم مسقِيُّون، وقل له:

---

(١) ذكرها المتقي الهندي في «كنز العمال» من غير عزو، وفندها ابن عبد الهادي – أيضا – في «الصارم المُنكِي» ص ٣٢٢.

عليك الكَيْسَ عليك الكَيْسَ. فأتى عمرَ فأخبره؛ فبكى عمرُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ثم قال: يا رب، لا آلو إلا ما عجزت عنه(١).

والجواب عن هذه الحكاية من عدة أوجه:

الأول: الخلاف في صِحَّتها، فقد أعلَّها بعض أهل العلم وضعَّفوها، وصحَّح سندها آخرون كالحافظين ابن كثير وابن حجر(٢).

الثاني: على فرض أنها صحيحة، فيجاب بقاعدة الراسخين في العلم: يُرَدُّ المتشابه إلى المحكم، قال تعالى: ﴿**هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا**﴾ [آل عمران: ٧].

فعندنا نصوص محكمة تدل على منع دعاء غير الله، وتحذِّر من اتخاذ القبور المساجد، وكذلك ما عُرف من حال الرَّسول ﷺ، وحال أصحابه من عدم فعل هذا.

الثالث: أن هذه الحكاية منقوضة بفعل عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ والصحابة، وذلك أنهم لما أصابهم القحط، جمع عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الصحابة وهو في المدينة، وقبر

---

(١) أخرجها ابن أبي شيبة في «المصنف» (٦/ ٣٥٦).

(٢) ينظر: «فتح الباري» (٢/ ٤٩٥).

النَّبي ﷺ قريب، فقال: «اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا ﷺ فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا»(١).

فلو كان طلب الدعاء من النَّبي ﷺ في قبره مشروعا، لما تركوا الفاضل إلى المفضول!.

ففِعلُ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومتابعة الصحابة له يدُل دلالة واضحة على أن ما جاء في القصة المذكورة ليس بمُعتمَد، وأن المعتمَد هو ما قرَّرتْه النصوص الكثيرة الثَّابتة المحكمة من منع دعاء غير الله، أو طلب الدعاء من الأموات ولو كان النبيَّ ﷺ، فضلا عمن هو دونه.

الرابع، وهو جواب عام: أنَّ الميت قد انقطع عمله لنفسه ولغيره، فكيف يُطلب منه الدعاء، والحال كذلك؟!.

* * *

(١) تقدم تخريجه.

الفصل الثالث: التعليق على النصوص، وربطها بالباب

أولا: باب قول الله - تعالى -: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝١٩١ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ...﴾ [الأعراف: ١٩١-١٩٢]، الآيةَ.

والآية عنوان الترجمة فيها نقاش عقلي مبدوءٌ باستفهام إنكار، وتوبيخ، وتعنيف - أيضا - لهؤلاء المشركين في عبادتهم مع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من لا يخلق شيئا.

فإذا كان معبودهم - من الحجر، والشجر، أو غيرهما - لا يخلُق شيئا، فلا يمكن أن يكون إلها يُعبد! بل هو مخلوق، والمخلوق لا يستحق أن يكون شريكا للخالق في العبادة؛ إذ كيف يُجعل المخلوق كالخالق؟! هذا ضلال وسفَهٌ في العقل.

ثم زاد على ذلك أمرا ثالثا: أن هؤلاء المعبودات لا يستطيعون لهم نصرا؛ فمَن سألهم النصر فلن يستطيعوا نصره.

ثم زاد أمرا رابعا: ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾، أي: حتى هذا المعبود لا يستطيع أن يملك لنفسه نصرا ولا نفعا ولا ضرًّا، كما حصل للأصنام المعبودة حين جاءها إبراهيم الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فأخذ في تحطيمها، وما فعلت شيئا!.

وهذه الآية تلزم المشركين بعدد من الأسئلة التي لا يملكون لها جوابا عقليا صحيحا؛ فهي تسائلهم:

١- هل هذا المعبود يَخْلُق شيئا؟ فإذا قالوا: لا. قيل لهم: كيف تشركون بالخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شيئا لا يَخْلُق؟!.

٢- وإذا كان هذا المعبود مخلوقًا، فكيف يكون المخلوق الحادث إلها؟!.

٣- ثم أنت إذا طلبت نُصرتَه؛ فهل ينصرك؟ إنَّه لا يملك ذلك.

٤- بل، هل يملك لنفسه – هو – نصرًا أو نفعا أو ضرا؟ كلَّا، إنه لا يملك ذلك، ولا يستطِيعه.

فهذه أربع حُجج في مناقشة، أو في دحض حُجَّة وشبهة المشركين.

ooo

النص الأول: قول الله – عزَّ وجلَّ –: ﴿**وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٍ**﴾[فاطر: ١٤].

هذه الآية تشتمل على إبطال عقلي لحُجج كلِّ من يَعبُدُ من دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شيئا من المعبودات مهما بلغت، جاء الخطاب لهم: ﴿**وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ**﴾، مهما كانوا، ﴿**مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ**﴾: وهي القشرة على النَّواة، فهذا الشيء الحقير لا تملكه تلك المعبودات!.

فذكر الله – عزَّ وجلَّ – أربع صفات تُبطِل استحقاقهم للعبادة:

الأولى: عدم المِلك لشيء مطلقا، ولو كان قليلا حقيرا، ﴿**مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ**﴾.

الثانية: أن هذه المعبودات لا تسمعُ دعاء من دعاها، ﴿**إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ**﴾.

الثالثة: لو فُرض أنهم سمِعُوا فلن يستجيبوا لمن دعاهم، ﴿**وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ**﴾.

الرابعة، وهي الفاقرة: أنَّ هذه المعبودات الباطلة تنقلب يوم القيامة على من عبدها، ﴿**وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ**﴾، فيتَبَرَّؤون منكم ومن فِعلكم.

ووجه الدلالة من الآية: أنَّ ما فيها من البراهين والحُجج يُبطِل استحقاق أي أحد للعبادة سوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ooo

النص الثاني: حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «شُجَّ النَّبِيُّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ أُحُدٍ وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ، فَقَالَ: «**كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ؟**» فَنَزَلَتْ: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ**﴾ [آل عمران: ١٢٨]»(١).

---

(١) تقدم تخريجه.

قوله: «**شُجَّ**»: الشَّجُّ هو: الجُرح في الوجه والرأس خاصة.

وقوله: «**رَبَاعِيَتُهُ**»: الرَّبَاعِيَة هي: السِّن الذي بعد الثنايا. فمجموع ثنايا الإنسان أربع، وهي التي تكون في المقدمة (في الفَكَّين العلوي والسفلي)، بعدها أربع رَباعيات، بعد الرباعيات الأنياب، وبعد الأنياب النواجذ، والباقي أضراس، فعند الإنسان اثنان وثلاثون سِنًّا، أربع ثنايا، وأربع رباعيات، وأربع أنياب، وأربعة نواجذ، والبقية أضراس.

وقوله تعالى: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ**﴾ [آل عمران: ١٢٨]، الخطاب فيه للنَّبي ﷺ، أي: ليس لك من الحكم شيء، وإنما أنت عبد مأمورٌ بالإنذار والجهاد، وليس لك إلا ما أُمِرت به. وهذا فيه بيان قَدْرِ النَّبي ﷺ، وأنه لا يصل إلى مقام الرُّبوبية أو الألوهية، إنما هو عبد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ورسول أرسله. قال تعالى: ﴿**قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ [الأعراف: ١٨٨].

فمن كانت هذه حاله لا يجوز أن يُدْعَى من دون الله، ولا أن يُعبد من دونه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأيِّ نوع من أنواع العبادة، وإذا كان هذا مقام النبي ﷺ؛ فغيره من باب أولى.

ooo

النص الثالث: عن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ، إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنْ الرُّكُوعِ فِي الرَّكْعَةِ الْأَخِيرَةِ مِنَ الْفَجْرِ: «**اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا**»، بَعْدَ مَا يَقُولُ: «**سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ**»؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ**﴾ [آل عمران: ١٢٨][(١)].

وَفِي رِوَايَةٍ: «يَدْعُو عَلَى صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ، وَسُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو، وَالْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ، فَنَزَلَتْ: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ**﴾ [آل عمران: ١٢٨]» [(٢)].

قوله تعالى: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ**﴾، فتاب الله عليهم؛ حيث أسلم هؤلاء الذين دعا عليهم، وحَسُن إسلامهم.

والمقصود أن نتدبر: فهذا رسول الله ﷺ، دعا في الصلاة، وهو أفضل الخلق، وخلْفَه الصحابة يؤمِّنُون على دعائه، وهم صفوة الخلق، ومع ذلك لم يُستَجَبْ دعاؤه، بل أنزل اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هذه الآية في شأنه.

وفي هذا أبلغ الدلالة لمن عقل: أنه يجب ألا يبقى في قلب أحد شيءٌ من التعلق بغير الله – عزَّ وجلَّ –، وأن الرسول ﷺ لا يملك ولا يقدِر إلا على ما أقدره الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عليه، فهو عَبدٌ لا يُعبد، ورسولٌ لا يُكَذَّب.

ooo

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجها.

النص الرابع: عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، فَقَالَ: «**يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ**– أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا – **اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ؛ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا. يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، لَا أُغْنِكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ؛ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا**»(١).

أخبر النبيُّ ﷺ في هذا الحديث أنه لا يُغني عن قرابته شيئا، وأن مجرَّد قرابتهم منه لا تنفعهم، ولا تنجيهم من عذاب الله إذا لم يؤمنوا، وخصَّ بالنذارة من هم أقرب الناس إليه، وفيهم ابنته فاطمة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا التي هي بَضْعَةٌ منه، وهذا يدل على أنه لا يملِكُ نفعا ولا ضرًّا إلا ما أقدَره الله عليه.

فائدة:

عماتُ النَّبي ﷺ ستٌّ(٢)؛ وهنَّ: «صفية، وأم حكيم البيضاء، وعاتكة، وأميمة، وأروى، وبرَّة»، أسلمن منهن: صفية بنت عبد المطلب رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، واختُلِف في إسلام عاتكة وأروى.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ينظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/١١٣)، و«سبل الهدى والرشاد» (١١/ ٨٢).

والشاهد: أنه إذا كان النَّبي ﷺ لا ينفع ابنته، ولا عمَّه العباس، ولا عمَّته صفية، ولا قرابتَه، فغيرُهم بطريق الأولى والأحرى.

والخلاصة: أنَّ المعبودات من دون الله مهما بلَغت، لا تملك نفعا ولا ضرًّا، ولو كان هذا المعبودُ رسولَ الله ﷺ الذي هو أفضل الخلق عند الله - تعالى -.

○○○

ثانيا: باب قول الله - تعالى -: ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ**﴾ [سبأ: ٢٣].

أراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذا الباب، وما ذُكِر فيه من النصوص، بيانَ حال الملائكة الذين هم أقوى وأعظم مَن عُبد مِن دون الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فالملائكة يسبحون الله الليل والنهار لا يفترون، ﴿**لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ**﴾ [التحريم: ٦]، ومع هذه المنزلة فإنهم لا يملكون ضرًّا ولا نفعًا، بل هم عاجزون، كما دَلَّت على ذلك الآية وتفسيرها فيما تلاها من الأحاديث.

فمِثل هؤلاء إذا كانوا لا يقدرون على شيء؛ فلا يجوز أن يُعبدوا من دون الله.

وهذا الباب إذا ضمَمْتَه إلى الباب الذي قبله، صار لديك برهان وحُجة على من صَرَف شيئا من أنواع العبادة؛ فمن رأيته يدعو وليا، أو يذبح له، أو يستغيث به، فقل له: أيهما أفضل هذا الولي أم رسول الله ﷺ؟! هذا الولي أم

الملائكة (جبريل وميكائيل وإسرافيل)؟ فسيقول لك: الرَّسول والملائكة. وهنا تورِدُ عليه هذه الأدلة ودلالاتها.

ooo

النص الأول: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبي ﷺ قَالَ: «**إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ؛ كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ:** ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]، **فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ** - وَصَفَهُ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ؛ فَحَرَّفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ - **فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ، فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الْآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوْ الْكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِئَةَ كَذْبَةٍ، فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا؟ فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنْ السَّمَاءِ**»(١).

وقوله ﷺ: «**إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ**»، أي: إذا تكلم الله في الأمر الذي شاء كونَه، وذلك بوحيِه إلى جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ. فماذا يحدث إذا أوحى الله إلى جبريل بأمر؟ قال ﷺ: «**ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ**». الصَّفْوان: هو الحجر الأملس.

---

(١) تقدم تخريجه.

وقوله ﷺ: «**يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ**»، يعني: يخلُص ذلك القول - الذي هو قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -، ينفُذُ في قلوب الملائكة؛ فيصيبهم فزع! فإذا ذهب الفَزَعُ، وهذا معنى قوله: ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ**﴾، أي: ذهب الفزع، وزال الخوف، قالت الملائكة بعضُهم لبعض: ﴿**مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡ**﴾، ثمَّ يجيب بعضهم بعضا: ﴿**قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ**﴾.

وقوله ﷺ: «**يَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ**»: مُسْتَرِقُ السمع من الشَّياطين؛ فإنهم يركبُ بعضهم بعضا، حتى يبلغوا مكانا يسمعون فيه حديث الملائكة بالأمر مما يقضيه الله - تعالى -.

وبَيَّن الرَّاوي صفةَ هؤلاء الشياطين الذين يسترقون السمع، بأن بعضهم يركب بعضا، «وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ»، أي: فرَّق وباعد بين أصابعه.

ووجه الدلالة من الحديث: أن هؤلاء الملائكة مع مكانتهم ومنزلتهم وعُلوِّ شأنهم عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، إلا أنهم ضعفاء، يصيبهم فزع وخوف ولا يدرُون؛ ولهذا يسألون: ماذا قال ربكم؟! فمن كانت هذه حاله، لا يجوز أن يُتخَّذَ إلهًا معبودا. فإذا لم يجُزْ هذا في الملائكة، فغيرُهم من باب أولى.

وفي هذا الحديث إشارة إلى موضوع استراقِ السمع، وهو مما تحدَّث عنه الكتاب والسنة. **وهذه بعض الفوائد حوله:**

• **الفائدة الأولى**: استراق الجِن للسمع ثابت في الكتاب والسُّنَّة في آيات وأحاديث كثيرة، منها قول الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿**وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ١٦ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ١٧ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ**﴾ [الحجر: ١٦-١٨]، وقوله تعالى، حكاية عن الجِنِّ: ﴿**وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ**﴾[الجن:٩].

• **الفائدة الثانية**: مرَّ استراق السمع بثلاث مراحل:

الأولى: قبل البعثة: وكان استراق السمع فيها كثيرًا، كما قال الجن: ﴿**وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْأَنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا**﴾[الجن: ٨- ٩].

الثانية: بعد البعثة: وانقطع فيها استراق السمع؛ حتى لا يختلِط الوحي بكلام الكُهَّان، وفي حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «انطلَقَ النَّبِيُّ ﷺ فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ، وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ»(١).

الثالثة: بعد وفاة النَّبي ﷺ: حيثُ رجع فيها استراق السمع، لكنه أخفُّ مما كان عليه قبل البعثة. ويدُلُّ عليه ما رواه ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: طَلَّقَ غَيْلَانُ بْنُ سَلَمَةَ الثَّقَفِيُّ نِسَاءَهُ وَقَسَمَ مَالَهُ بَيْنَ بَنِيهِ، - قَالَ: فِي خِلَافَةِ عُمَرَ -. فَبَلَغَ

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٧٧٣) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٤٤٩).

ذَلِكَ عُمَرَ، فَقَالَ: «طَلَّقْتَ نِسَاءَكَ، وَقَسَمْتَ مَالَكَ بَيْنَ بَنِيكَ؟» قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «وَاللَّهِ، إِنِّي لَأَرَى الشَّيْطَانَ فِيمَا يَسْرِقُ مِنَ السَّمْعِ سَمِعَ بِمَوْتِكَ، فَأَلْقَاهُ فِي نَفْسِكِ؛ فَلَعَلَّكَ أَنْ لَا تَمْكُثَ إِلَّا قَلِيلًا. وَايْمُ اللَّهِ، لَئِنْ لَمْ تُرَاجِعْ نِسَاءَكَ، وَتَرْجِعْ فِي مَالِكَ، لَأُوَرِّثُهُنَّ مِنْكَ إِذَا مُتَّ، ثُمَّ لَآمُرَنَّ بِقَبْرِكَ فَلَيُرْجَمَنَّ كَمَا رُجِمَ قَبْرُ أَبِي رُغَالٍ». قَالَ: فَرَاجَعَ نِسَاءَهُ وَرَاجَعَ مَالَهُ.

قال نافع: فما مكث إلَّا سبعا حتَّى مات(١).

• **الفائدة الثالثة**: رجْمُ الجن المسترِقة للسمع بالشُّهب ثابت بالكتاب والسُّنة. قال الله - جلَّ وعلا -: ﴿**لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ**﴾ [الصافات: ٨-١٠].

ورجمُهم يكون بنيازكَ عبارة عن شعل نارية، منفصلة من النجوم - وليست هي النجوم - ذات نور وضياء تصيبهم فتحرقهم، وربما أصابه الشهاب قبل نقل ما استرقه، وربما بعدَه.

عن عبد الله بن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: أَخْبَرَنِي رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الأَنْصَارِ، أَنَّهُمْ بَيْنَمَا هُمْ جُلُوسٌ لَيْلَةً مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، رُمِيَ بِنَجْمٍ

---

(١) **صحيح موقوف**: أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (١٢٢١٦)، وأحمد (٤٦٣١)، وإسناده صحيح.

فَاسْتَنَارَ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَاذَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا رُمِيَ بِمِثْلِ هَذَا؟**»، قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، كُنَّا نَقُولُ: وُلِدَ اللَّيْلَةَ رَجُلٌ عَظِيمٌ، وَمَاتَ رَجُلٌ عَظِيمٌ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**فَإِنَّهَا لَا يُرْمَى بِهَا لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنْ رَبُّنَا - تَبَارَكَ وَتَعَالَى اسْمُهُ - إِذَا قَضَى أَمْرًا سَبَّحَ حَمَلَةُ الْعَرْشِ، ثُمَّ سَبَّحَ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ حَتَّى يَبْلُغَ التَّسْبِيحُ أَهْلَ هَذِهِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، ثُمَّ قَالَ الَّذِينَ يَلُونَ حَمَلَةَ الْعَرْشِ لِحَمَلَةِ الْعَرْشِ: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ فَيُخْبِرُونَهُمْ مَاذَا قَالَ. قَالَ: فَيَسْتَخْبِرُ بَعْضُ أَهْلِ السَّمَوَاتِ بَعْضًا حَتَّى يَبْلُغَ الْخَبَرُ هَذِهِ السَّمَاءَ الدُّنْيَا، فَتَخْطَفُ الْجِنُّ السَّمْعَ فَيَقْذِفُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ وَيُرْمَوْنَ بِهِ؛ فَمَا جَاءُوا بِهِ عَلَى وَجْهِهِ فَهُوَ حَقٌّ وَلَكِنَّهُمْ يَقْرِفُونَ فِيهِ وَيَزِيدُونَ**»(١).

○○○

النص الثاني: عن النوَّاس بن سمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِذَا أَرَادَ اللَّهُ - تَعَالَى - أَنْ يُوحِيَ بِالْأَمْرِ تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ، أَخَذَتِ السَّمَوَاتِ مِنْهُ رَجْفَةٌ** - أَوْ قَالَ: **رِعْدَةٌ - شَدِيدَةٌ خَوْفًا مِنَ اللَّهِ - عَزَّ وجلَّ - فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ أَهْلُ السَّمَوَاتِ، صَعِقُوا وَخَرُّوا لِلَّهِ سُجَّدًا، فَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ فَيُكَلِّمُهُ اللَّهُ مِنْ وَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ، ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرِيلُ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ سَأَلَهُ مَلَائِكَتُهَا: مَاذَا قَالَ رَبُّنَا، يَا جِبْرِيلُ؟ فَيَقُولُ جِبْرِيلُ: (قَالَ الْحَقَّ، وَهُوَ الْعَلِيُّ**

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٢٩).

الْكَبِيرُ). قالَ: فَيَقُولُونَ كُلُّهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ جِبْرِيلُ، فَيَنْتَهِي جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ إِلَى حَيْثُ أَمَرَهُ اللَّهُ - عزَّ وجلَّ -»[1].

هذا الحديث، وإن كان في سنده ضعف، غير أنَّه يشهد له الحديث السابق.

والشاهد منه: أنه يدل على ضعف الملائكة وعجزهم، فلا يصح أن يُتَّخَذوا آلهة! وإذا كان هذا حال الملائكة، فكيف بمن هو أضعف وأعجز منهم؟!.

ooo

ثالثا: باب قول الله - تعالى -: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ...﴾ [القصص: ٥٦]، الآيةَ.

هذه الأبواب الثلاثة: باب ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا﴾ [الأعراف: ١٩١]، وباب ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ [سبأ: ٢٣]، وباب ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]؛ كلها تدور في فلك واحد، وهو: أن المعبودات من دون الله - تعالى - لا تملك لأنفسها نفعا ولا ضرًّا، ولو بلغت من الفضل والمنزلة ما بلغت، كالأنبياء والملائكة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾: الخطاب فيه للنبيِّ ﷺ.

والهداية نوعان:

(١) تقدم تخريجه.

الأول: هداية توفيق وإلهام، وهذه خاصة بالله – عزَّ وجلَّ –.

والثاني: هداية دلالة وإرشاد، وهذه ثابتة للبشر، أيضا.

وبهذا التقسيم يتبيَّن الجمع بين آيتين: الأولى قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]، والآية الثانية قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]؛ ففي الأول نفي للهداية عن النبي ﷺ، وفي الثانية إثبات لها!.

والجمع بين الآيتين: أن النفي في قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، متَّجه إلى هداية التوفيق والإلهام. والإثباتُ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، متَّجه إلى هداية الدَّلالة والإرشاد.

والمقصود بهذا الباب الرَّدُّ على عُبَّاد القبور (القُبوريِّين) الذين يعتقدون في الأنبياء والصالحين أنهم ينفعون ويضُرُّون، فذكر الله – عزَّ وجلَّ – أن النبي ﷺ لا يقدِر على هداية من أحبَّ هدايته، وهو عمه أبو طالب! وظهر بذلك أنَّه ﷺ لا يملك ضرًّا ولا نفعا، وأنه لا يقدر إلا على ما أقدره الله عليه، وأن الأمر كله لله، فبطَلَت عبادتُه ﷺ، مع أنه أشرف الخلق، وعبادة غيره من المخلوقات أَولى بالبطلان.

* * *

١٨- باب
ما جاء أنَّ سبب كُفر بني آدم، وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين

وَقَوْلِ اللهِ - عزَّ وجلَّ -: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ﴾ [النساء: ١٧١].

فِي الصَّحِيحِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِ اللَّهِ - تَعَالَى -: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]، قَالَ: «هَذِهِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنِ انْصُبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ فِيهَا أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ، وَنُسِيَ الْعِلْمُ، عُبِدَتْ»(١).

وَقَالَ ابنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ السَّلَفِ: لَمَّا مَاتُوا، عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِمْ، ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ، ثُمَّ طَالَ عَلَيْهِمِ الْأَمَدُ فَعَبَدُوهُمْ»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٩٢٠).

(٢) «إغاثة اللهفان» (١/ ١٨٤).

وَعَنْ عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ؛ إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ؛ فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ**»(١). أَخْرَجَاهُ.

[وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا] قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ؛ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الْغُلُوُّ**»(٢).

وَلِمُسْلِمٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ**»، قَالَهَا ثَلَاثًا(٣).

ooo

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٤٤٥)، ولم أره عند مسلم.

(٢) **صحيح**: أخرجه النسائي (٣٠٥٧)، وابن ماجه (٣٠٢٩)، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٧٠).

١٩- باب
ما جاء من التغليظ في من عبَد اللّهَ عند قبر رجل صالح. فكيف إذا عبَده؟!

فِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنهَا: أنَّ أُمَّ سَلَمَةَ ذَكَرَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَنِيسَةً رَأَتْهَا بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ، وَمَا فِيهَا مِنْ الصُّوَرِ، فَقَالَ: «**أُولَئِكَ إِذَا مَاتَ فِيهِمْ الرَّجُلُ الصَّالِحُ - أَوْ الْعَبْدُ الصَّالِحُ -، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ**»(١).

فَهَؤُلَاءِ جَمَعُوا بَيْنَ الْفِتْنَتَيْنِ: فِتْنَةِ الْقُبُورِ، وَفِتْنَةِ التَّمَاثِيلِ.

وَلَهُمَا عَنْهَا، قَالَتْ: «لَمَّا نُزِلَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا، فَقَالَ - وَهُوَ كَذَلِكَ -: «**لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى اليهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»(٢)؛ يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا، وَلَوْلَا ذَلِكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ خَشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا. أَخْرَجَاهُ.

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٤٢٧) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٥٢٨).

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٤٣٥) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٥٣١)، من حديث عائشة وابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنهُم.

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِي ﷺ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ، وَهُوَ يَقُولُ: «**إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ؛ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا. وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا. أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ**»[1].

فَقَدْ نَهَى عَنْهُ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ لَعَنَ - وَهُوَ فِي السِّيَاقِ - مَنْ فَعَلَهُ. وَالصَّلَاةُ عِنْدَهَا مِنْ ذَلِك، وَإِنْ لَمْ يُبْنَ مَسْجِدٌ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِها: «خَشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا»؛ فَإِنَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لَمْ يَكُونُوا لِيَبْنُوا حَوْلَ قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَكُلُّ مَوْضِعٍ قُصِدَتِ الصَّلَاةُ فِيهِ فَقَدِ اتُّخِذَ مَسْجِدًا، بَلْ كُلُّ مَوْضِعٍ يُصَلَّى فِيهِ يُسَمَّى مَسْجِدًا، كَمَا قَالَ ﷺ: «**جُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا**»[2].

وَلِأَحْمَدَ - بِسَنَدٍ جَيِّدٍ - عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «**إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ**»[3].

وَرَوَاهُ أَبُو حَاتِمٍ فِي صَحِيحِهِ.

ooo

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٥٣٢).

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣٣٥ و٤٣٨)، ومسلم(٥٢١)، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) **صحيح**: أخرجه أحمد (٣٨٤٤) وفي مواضع أخرى، وابن حبان (٢٣٢٥)، وقال الألباني: حسن صحيح، وحسنَّه الأرناؤوط. وهو عند البخاري معلقا مجزوما به، دون الجملة الأخيرة منه.

٢٠- باب
ما جاء أنَّ الغُلو في قبور الصالحين يُصيِّرها أوثانا تُعبد من دون اللّه

رَوَى مَالِكٌ فِي «المُوَطَّأ» أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ، اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»[١].

وَلِابْنِ جَرِيرٍ بِسَنَدِهِ عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿**أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ**﴾ [النجم: ١٩]، قَالَ: كَانَ يَلُتُّ لَهُمُ السَّوِيقَ، فَمَاتَ، فَعَكَفُوا عَلَى قَبْرِهِ[٢].

وَكَذَا قَالَ أَبُو الجَوْزَاءِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كَانَ يَلُتُّ السَّوِيقَ لِلْحَاجِّ»[٣].

---

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» (٨٥) من حديث عطاء بن أبي رباح، مرسلا.

وله شاهد أخرجه أحمد (٧٣٥٨)، وأبو يعلى(٦٦٨١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعا، وقال الأرناؤوط: «إسناده قوي»، وصححه حسين سليم.

(٢) تفسير الطبري (٢٢/ ٥٢٣).

(٣) تفسير الطبري (٢٢/ ٤٨).

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَائِرَاتِ الْقُبُورِ، وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ»(١). رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ.

ooo

الشرح:

هذه الأبواب الثلاثة تشترك في وحدة موضوعية واحدة، وكما تعوَّدنا فإنَّ شرح الأبواب سيكون في ثلاثة فصول، بإذن الله - تعالى -.

* * *

(١) **ضعيف**: أخرجه أبو داود (٣٢٣٦)، والترمذي (٣٢٠)، والنسائي (٢٠٤٣)، وأحمد (٢٠٣٠)، وصحح سنده أحمد شاكر في تعليقه على المسند! وضعفه الألباني والأرناؤوط، وضعفه - كذلك - العصيمي في «الدر النضيد» ص٧٣، وهو الصواب. فيه أبو صالح باذام: ضعيف جدا، ولم يسمع من ابن عباس، وقد تفرد به.

الفصل الأول: مقصود الأبواب الثلاثة، وموضوعها العام

مقصود هذه الأبواب وموضوعها العام هو: الإشارة إلى بعض أسباب الوقوع في الشرك، ووسائله، مع التحذير منها، ولا سِيَّما الغُلُوُّ الذي هو من أخطر تلك الأسباب وأكثرها إفسادا.

* * *

الفصل الثاني: المباحث الموضوعية

تمهيد: في تلخيص المراد بوسائل الشرك:

سبق - في باب: «لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله» - تأصيلُ موضوع وسائل الشرك. ومن ذلك بيان المراد بوسائل الشرك، وأنها: الطُّرُق التي توصل إلى الشرك قطعا أو ظنا. وأن هذه الوسائل قد تكون قلبية أو قولية أو فعلية، وذِكر الأمثلة على كل منها.

المبحث الأول: الغُلو في الصالحين وسيلة من وسائل الشرك:

وهذا المبحث يتعلق بالبابين: الثامن عشر (باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم، وتركهم دينهم، هو الغلو في الصالحين)، والعشرين (باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يُصيِّرُها أوثانا تعبد من دون الله).

والكلام على هذا المبحث في عدة مطالب:

المطلب الأول: تعريف الغُلو، وبيان أنواعه:

الغُلو في اللُّغة هو: مجاوزة الحد[1].

وهو في الاصطلاح: مجاوزة الحد المشروع.

---

(١) ينظر مادة «غلا» في: «تهذيب اللغة» (٨/ ١٦٨)، و«الصحاح» (٦/ ٢٤٤٨)، وغيرها.

وهو نوعان:

الأول: غُلُو اعتقادي: كالغلو في الأنبياء والصالحين، بأن يعتقد فيهم النفع والضر، أو علم الغيب، فهذا غُلُو مَحِلُّه القلب.

الثاني: غُلُو عملي: يدخل فيه فعل الجوارح، ومنها اللسان؛ فيشمل الأقوال والأفعال. وهذا النوع درجات ومراتب.

ومنه: ما جاء في حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: جَاءَ ثَلاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟! قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلا أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا. فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: «**أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟! أَمَا إِنِّي أَخْشَاكُمْ للهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»(١).

المطلب الثاني: أدلة النهي عن الغُلو:

الأدلة كثيرة، ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ طرفا منها في الباب الثامن عشر: (باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين)؛ فمنها:

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

أولا: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١].

ثانيا: قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [سورة المائدة: ٧٧].

ثالثا: عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ غَدَاةَ الْعَقَبَةِ، وَهُوَ وَاقِفٌ عَلَى رَاحِلَتِهِ: «**هَاتِ، الْقُطْ لِي**»، فَلَقَطْتُ لَهُ حَصَيَاتٍ هُنَّ حَصَى الْخَذْفِ، فَوَضَعَهُنَّ فِي يَدِهِ، فَقَالَ: «**بِأَمْثَالِ هَؤُلَاءِ**»، وَقَالَ: «**إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ؛ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالْغُلُوِّ فِي الدِّينِ**»(١).

وعقَّب عليه ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقال: «عام في جميع أنواع الغلو في الاعتقادات والأعمال»(٢).

رابعا: عن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ؛ إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ؛ فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ**»(٣).

والإطراء: مجاوزة الحد في المدح، والكذبُ فيه.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/١٠٦).

(٣) تقدم تخريجه.

خامسا: عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ، هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ، هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ**»(١).

والمتنطِّع - كما قال النووي في شرح مسلم - هو: المتعمِّق في الشيء، المُغالي فيه، المجاوز حدَّ الشرع فيه، سواء أكان قولا أم فعلا أم اعتقادا(٢).

سادسا: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ**»(٣).

فالدِّينُ يُسر، ومَن شدَّد فيه وغلا غُلِب، والمطلوب التَّسديد والمقاربة، «**فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا**».

لكن، ما الضابط في التمييز بين الغُلو وغيره؟

دلت النصوص السابقة على النهي والتحذير من الغلو، لكن ما ضابطه؟ وهل من تمسَّك بالسُّنن التي هجرها الناس يعد غاليا؟

الضابط في التمييز بين الغلو والوسط في الدين هو ميزان الشرع؛ فما كان فيما جاء به الشرع فهو الوسط، وما جاوزه فهو الغُلُو.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ينظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١٦/ ٢٢٠).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٩).

المطلب الثالث: أثر الغُلو في الوصول إلى الشرك:

يظهر ذلك جليا بتدبر واقع البشرية، وكيف وقعوا في الشرك؟ وسأذكر ما يتعلق بذلك في النقاط الآتية:

• **الغلو في الصالحين**: هو السبب في أول شرك ظهر على وجه الأرض؛ فقد روى البخاري عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: أَنَّ وَدًّا وسُواعًا ويَغُوثَ ويَعُوقَ ونَسْرًا: «هَذِهِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنِ انْصُبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمْ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ فِيهَا أَنْصَابًا، وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ، وَنُسِيَ الْعِلْمُ، عُبِدَتْ»[(١)].

وروى ابن جرير بإسناده إلى محمد بن قيس قال: «كانوا قومًا صالحين من بني آدم، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين يقتدون بهم: لو صوَّرناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوَّروهم. فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يسقَون المطر فعبدوهم»[(٢)].

• ثم وقع الشرك بعد قوم نوح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ في الأمم الأخرى بسبب الغلو في الصالحين - أيضا -، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تفسير الطبري (٢٣/ ٣٠٣).

ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠].

ولم يقتصر غُلُو اليهود والنصارى على أنبيائهم فقط، بل تجاوزوه إلى الغلو في العلماء والعُبَّاد، قال تعالى: ﴿**ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ**﴾ [التوبة: ٣١].

• ثم وقع الشرك في مشركي العرب بسبب الغُلُو في الصالحين – أيضا –، ومما يدل على ذلك: ما أخرجه البخاري بسنده عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالى: ﴿**ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ**﴾ [النجم: ١٩]، قال: «كانَ اللَّاتُّ رَجُلًا يَلُتُّ سَوِيْقَ الحَاجِّ»(١). وفي رواية ابن أبي حاتم زيادة: كانَ يَلُتُّ السَّوِيقَ عَلَى الحَجَرِ فَلا يَشْرَبُ مِنْهُ أَحَدٌ إِلَّا سَمِنَ، فَعَبَدُوهُ(٢).

وقال مجاهد: «كان يلُتُّ السَّويق فمات، فعكفوا على قبره»(٣).

وهذا على أن اللفظة «اللَّاتُّ» بتشديد التاء، يعني: اسم فاعل من لتَّ يَلُتُّ فهو لَاتٌّ.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٨٥٩).

(٢) «فتح الباري» (٨/ ٦١٢)، و«الدر المنثور» (٧/ ٦٥٣).

(٣) تفسير الطبري (٢٢/ ٤٨).

• ثم وقع الشرك في هذه الأمة المحمدية بسبب الغلو في الصالحين، وذلك أن أول شرك في الأنداد حدث في هذه الأمة هو شرك السبئية الذين غَلَوا في علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حتى أَلَّهُوه، وقالوا له: أنت ربنا، وخالقنا، ورازقنا. وهؤلاء استتابهم علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأبوا فأحرقهم بالنار، وقال:

لما رأيتُ الأمرَ أمرا منكَرا   أَجَّجْتُ ناري ودعوتُ قُنبرا[1]

وتبِعَهم غلاة الرافضة فغلوا في أهل البيت، ونعتوهم بصفات الربوبية من التصرف في الكون، والقُدرة المطلقة، وعلم الغيب.

وأظهر ما يكون الغلو في الطوائف: الرافضة والصوفية.

• ثم ظهر ذلك جليا في القُبُوريين الذين عظَّموا القبور وغلوا في أصحابها، ووقعوا في الشرك أو ما يوصل إليه.

ومن ذلك ما قاله أحدهم في البدوي:

يا مَن رماه الدهرُ بالإزعاجِ

نادِ بعَزم: يا أبا فرَّاجِ

فهو الأمانُ من الحوادث إن أتَت

وهو الملاذ لنا وعَونُ الراجِي

وهو المرادُ إذا الخُطُوبُ تراكَمت

---

(١) ينظر: صحيح البخاري (٣٠١٧)، و«معجم ابن الأعرابي» (١٥٥٣).

وهـــــو المجيـــــبُ لـــــدعوة المُحتــــــاجِ

وهــــو الطبيــــبُ لنـــا، ومَـــرْهَمُ طِبِّـــهِ

يُـــبْرِي ضـــعيفَ الحــــالِ دون عـــلاجِ[1]

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فصل: ومن أسباب عبادة الأصنام: الغلو في المخلوق وإعطاؤه فوق منزلته ...»[2]، إلى آخر كلامه، وهو جميل مؤثر، يُنصح بمراجعته.

والخلاصة: أن الصالحين يُعرف قدرُهم، وتُحفظ منزلتُهم، بلا غلو ولا جفاء.

ooo

المبحث الثاني: قَصْد عبادة الله - تعالى - عند القبور:

عقد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لهذا المقصد باب: «ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده؟!»، وهذا التغليظ فيمن عبد الله - تعالى - عند القبر، فكيف بمن عبد صاحب القبر نفسه؟! وذكر الشيخ في الباب أربعة أحاديث تضمنت النهي عن اتخاذ القبور مساجد.

(١) ينظر: «السيد البدوي بين الحقيقة والخرافة»، لأحمد صبحي منصور.

(٢) «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٢٦).

وقَصْدُ عبادةِ الله – تعالى – عند القبور من وسائل الشرك، وسبقت الإشارة إليها في باب: (لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله). وهي أيضا من صور الغلو في الصالحين.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المشابهة والمشاكلة في الأمور الظاهرة توجب مشابهة ومشاكلة في الأمور الباطنة على وجه المسارقة والتدريج الخفي»[1].

وسيكون عرض هذه المسألة من خلال أربع صور، هي المشهورة المنتشرة في هذا الباب، نسوقها في مطالب:

المطلب الأول: اتخاذ القبور مساجد:

وفيه مسائل:

- **المسألة الأولى: النصوص الواردة في المسألة:**

ساق المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أربعة أحاديث، وفي الباب أحاديث كثيرة ساق منها الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ أربعة عشر حديثا في «تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد». ويلاحظ تنوع ألفاظ تلك الأحاديث والوعيد الوارد فيها، كما يأتي:

أولا: اللعن:

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» ص٢٢٠.

ورد في عدة أحاديث منها: عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا عن النبي ﷺ قال: «**لَعْنَةُ اللَّهُ عَلَى اليهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»[١].

ثانيا: الدعاء بمقاتلة الله لمن فعله:

عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**قَاتَلَ اللَّهُ اليَهُودَ؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»[٢].

ثالثا: الحكم بأنهم شِرار الخلق يوم القيامة:

عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا عن النبي ﷺ قال: «**أُولَئِكَ إِذَا مَاتَ فِيهِمْ الرَّجُلُ الصَّالِحُ - أَوْ الْعَبْدُ الصَّالِحُ -، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ**»[٣].

رابعا: التصريح بالنهي عنه:

عن جُنْدُب بن عبد اللَّه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: سَمِعْتُ النَّبي ﷺ، وَهُوَ يَقُولُ: «**أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، أَلا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ؛ فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ**»[٤].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٤٣٧)، ومسلم (٥٣٠).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

خامسا: التأكيد على ذلك في آخر حياته ﷺ:

وهذا مما يدل على شدة اهتمامه وعنايته ﷺ بهذا الأمر، مع ما هو فيه من المرض والشدة. ففي حديث جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «سَمِعْتُ النَّبِي ﷺ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ ...»(١).

وفي حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «قَالَ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ...»(٢).

وعن أبي عُبَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: آخِرُ مَا تَكَلَّمَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَخْرِجُوا يَهُودَ أَهْلِ الْحِجَازِ، وَأَهْلِ نَجْرَانَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ شِرَارَ النَّاسِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»(٣).

ومما سبق يتبين أن هذا الفعل أقلُّ أحواله أنه كبيرة من الكبائر.

- **المسألة الثانية: صورة اتخاذ القبور مساجد:**

يتضمن النهي عن اتخاذ القبور مساجد ثلاث صور:

الأولى: الصلاة على القبور بمعنى السجود عليها:

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (١٣٣٠) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٥٢٩).

(٣) **صحيح**: أخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ٢٢١)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢٣٥)، وصححه الأرناؤوط. وله شواهد كثيرة.

ومثاله: أراد رجل أن يصلي الضحى، فذهب إلى قبر رجل صالح، وكبَّر وجعل سجوده على القبر. وهو يقصد الصلاة لله - تعالى -.

الثانية: استقبال القبر بالصلاة والدعاء:

وصورته: أن يتوجه بالصلاة إلى جهة القبر، بأن يجعل القبر بينه وبين القبلة؛ فيكون القبر في قبلته، يسجد إليه، ولا يسجد عليه.

وجاء في هذه الصورة نهيٌ صريح، وهو حديث أبي مَرْثَد الغَنَوِيِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا تَجْلِسُوا عَلَى الْقُبُورِ، وَلَا تُصَلُّوا إِلَيْهَا**»[(١)].

ولو فعل فالصلاة باطلة؛ لأن النهي عائد إلى ذات المنهيِّ عنه.

ويُستثنى من ذلك: صلاة الجنازة؛ لحديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أَنَّ امْرَأَةً سَوْدَاءَ كَانَتْ تَقُمُّ الْمَسْجِدَ - أَوْ شَابًّا - فَفَقَدَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَسَأَلَ عَنْهَا - أَوْ عَنْهُ - فَقَالُوا: مَاتَ، قَالَ: «**أَفَلَا كُنْتُمْ آذَنْتُمُونِي؟**» قَالَ: فَكَأَنَّهُمْ صَغَّرُوا أَمْرَهَا - أَوْ أَمْرَهُ - فَقَالَ: «**دُلُّونِي عَلَى قَبْرِهِ**». فَدَلُّوهُ، فَصَلَّى عَلَيْهَا، ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ هَذِهِ الْقُبُورَ مَمْلُوءَةٌ ظُلْمَةً عَلَى أَهْلِهَا، وَإِنَّ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - يُنَوِّرُهَا لَهُمْ بِصَلَاتِي عَلَيْهِمْ**»[(٢)].

الثالثة: بناء المساجد على القبور وقصد الصلاة فيها:

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٩٧٢).

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (١٣٣٧)، ومسلم (٩٥٦) واللفظ له.

بمعنى أن يكون هناك قبر رجل صالح، فيُبنى مسجد على هذا القبر، فيكون القبر في داخل المسجد. وبَوَّب البخاري في صحيحه في كتاب الجنائز: «باب ما يكره من اتِّخاذ المساجد على القبور». وساق فيه حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ: «**لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسْجِدًا**». قَالَتْ: وَلَوْلَا ذَلِكَ لَأَبْرَزُوا قَبْرَهُ، غَيْرَ أَنِّي أَخْشَى أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا[1].

- **المسألة الثالثة: حكمة النهي عن اتخاذ القبور مساجد:**

الحكمة - والله أعلم -: أن في هذا الفعل تعظيما زائدا للمخلوق وغُلُوا فيه، وهو وسيلة إلى عبادته، كما وقع لقوم نوح في الرجال الصالحين: وَدٍّ وسُوَاع ... إلخ؛ فإن الشيطان تدرَّج بهم على خطوات: بدأ بالعكوف على قبورهم، ثم انتقل إلى تصوير أصنام على صورهم؛ لتذكيرهم وتشويقهم وتحميسهم للعبادة إذا رأوها. وانتهى بعبادتهم، عياذا بالله - تعالى -.

- **المسألة الرابعة: حكم هذه المشاهد:**

هذه المساجد والمقامات التي بُنيت على القبور وعُظِّمت، وجُعل لها الستور، والنذور، والذبائح، ما حكمها في دين الله؟.

(١) تقدم تخريجه.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذه المساجد المبنية على قبور الأنبياء والصالحين، والملوك وغيرهم يتعين إزالتها بهدم أو بغيره، هذا مما لا أعلم فيه خلافا بين العلماء المعروفين»(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها وإبطالها يوما واحدا، فإنها شعائر الكفر والشرك وهي أعظم المنكرات، فلا يجوز الإقرار عليها مع القدرة البتة، وهذا حكم المشاهد التي بنيت على القبور التي اتخذت أوثانا وطواغيت تعبد من دون الله»(٢).

وقال أيضا: «يُهدم المسجد إذا بُني على قبر، كما ينبش الميت إذا دفن في المسجد، نص على ذلك الإمام أحمد وغيره. **فلا يجتمع في دين الإسلام مسجد وقبر**، بل أيهما طرأ على الآخر منع منه، وكان الحكم للسابق. فلو وضعا معا لم يجز، ولا يصح هذا الوقف، ولا يجوز، ولا تصح الصلاة في هذا المسجد؛ لنهي رسول الله ﷺ عن ذلك، ولعنه من اتخذ القبر مسجدا أو أوقد عليه سراجا، فهذا دين الإسلام الذي بعث الله به رسوله ونبيه، وغربته بين الناس كما ترى»(٣).

---

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٧٥).

(٢) «زاد المعاد» (٣/ ٤٣٦).

(٣) المرجع السابق (٣/ ٥٠٠).

والخلاصة أن الحكم للأسبق: فإن كان القبر أسبق ثم بني عليه مسجد، فيهدم المسجد ويزال. وإن كان المسجد أسبق ثم دفن فيه الميت، فينبش القبر ويخرج الميت من المسجد.

وينبغي التنبيه هنا أن هذا الأمر منوط بالقدرة، والنظر في قاعدة المصالح والمفاسد في تغيير المنكر.

- **المسألة الخامسة: اتخاذ الآثار مساجد:**

والمراد بالآثار: الأماكن التي لابسها الصالحون من الأنبياء وغيرهم، بجلوس أو عبادة ونحوهما.

واتخاذها مساجد بأن تقصد للعبادة لاعتقاد فضلها وبركتها.

وهذه الآثار ليست قبورا، فهل تأخذ أحكام القبور؟.

هذه المسألة عدها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من المسائل التي خالف فيها رسولُ الله ﷺ أهلَ الجاهلية.

وعن المَعْرُورِ بن سُويد قال: خَرَجْنَا مَعَ عُمَرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فِي حَجَّةٍ حَجَّهَا، فَقَرَأَ بِنَا فِي الْفَجْرِ: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ**﴾ [الفيل: ١]، و﴿**لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ**﴾ [قريش: ١]، فَلَمَّا قَضَى حَجَّهُ وَرَجَعَ، وَالنَّاسُ يَبْتَدِرُونَ، فَقَالَ: «مَا هَذَا؟». فَقَالُوا: مَسْجِدٌ صَلَّى فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «هَكَذَا

هَلَكَ أَهْلُ الْكِتَابِ؛ اتَّخَذُوا آثَارَ أَنْبِيَائِهِمْ بِيَعًا! مَنْ عَرَضَتْ لَهُ مِنْكُمْ فِيهِ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ، وَمَنْ لَمْ تَعْرِضْ لَهُ مِنْكُمْ فِيهِ الصَّلَاةُ فَلَا يُصَلِّ»(١).

وعن نافع قال: بلغ عمرَ بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن ناسا يأتون الشجرة التي بُويع تحتها - بيعة الرضوان - فأمر بها فقُطِعت(٢).

وعن قَزَعَة قال: سَأَلْتُ ابنَ عُمَرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: آتِي الطُّورَ؟، وهو الجبلُ الذي كَلَّمَ اللهُ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عَلَيْهِ. فقال: دَعْ الطُّورَ وَلَا تَأْتِهَا، وقَال: لَا تَشُدُّوا الرِّحَالَ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِد(٣).

وسبق عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في قول الله - تعالى -: ﴿**وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا**﴾

---

(١) **صحيح موقوف**: أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٢٧٣٤)، وابن أبي شيبة (٧٥٥٠)، وقال الألباني في «تحذير الساجد» ص١٢٥: سنده صحيح على شرط الشيخين.

(٢) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٢/ ١٠٠)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٧٥٤٥)، ورجاله ثقات غير أنه منقطع.

(٣) **صحيح موقوف**: أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٩١٧١) ووقع فيه عن عرفجة عن ابن عمر، وهو تصحيف، وابن أبي شيبة (١٥٥٤٤)، والطبراني في «الكبير» (١٣٦٨٣)، وصحح سنده الألباني في «تحذير الساجد» ص١٢٧.

وأخرجه مرفوعا: الأزرقي في «أخبار مكة» (٢/ ٦٥)، والفاكهي (١١٩٣)، وصححه الألباني - أيضا - في «أحكام الجنائز» ص٢٢٦، وسيأتي قريبا، إن شاء الله - تعالى -.

[نوح: ٢٣]، قَالَ: «هَذِهِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنِ انْصُبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمْ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ فِيهَا أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ، وَنُسِيَ الْعِلْمُ، عُبِدَتْ»(١).

قال ابن وضَّاح القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكان مالك بن أنس وغيره من علماء المدينة يكرهون إتيان المساجد وتلك الآثار للنبي ﷺ، ما عدا قباء وأُحدا»(٢).

وخلاصة الكلام في هذه المسألة: أن الآثار لا تُقصد بالعبادة، أي لا يتعمَّد المسلم قصدها، وأداء عبادة الله فيها. وكما قرَّرنا في القبور نُقرِّر في الآثار؛ لأن هذا يؤدي إلى تعظيمها والغُلو فيها.

ولهذا لا يُشرَع زيارة الآثار الموجودة في المدينة النبوية وقصدها بالعبادة، مثل: مسجد القبلتين، والمساجد السبعة. بل المشروع لمن زار المدينة الصلاة في المسجد النبوي، ومسجد قُباء. ويُشرع للرجال زيارة مقبرة البقيع وشهداء أحد.

- **المسألة السادسة: حكم الصلاة في مسجد فيه قبر:**

وهذه مسألة عملية تمس الحاجة إليها لوجود ذلك في عدد من بلدان المسلمين.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «البدع والنهي عنها» ص٤٣، وانظر المزيد في المسألة:
http://islamqa.info/ar/١١٦٦٩

والجواب: أن هذه المسألة لها صورتان:

الصورة الأولى: أن يكون القبر سابقا على المسجد، بحيث يبنى المسجد على القبر.

والحكم في هذه الصورة: أنه يجب هجر هذا المسجد وعدم الصلاة فيه، وعلى من بناه أن يهدمه، فإن لم يفعل وجب على ولي أمر المسلمين أن يهدمه.

وهذا المسجد بُني على الشرك لا على التقوى، وهو من جنس مساجد الضرار، وقد قال الله - تعالى - لنبيه ﷺ: ﴿**لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ**﴾ [التوبة: ١٠٨].

فلا يُصلَّى في هذا المسجد، ولو ترتب عليه ترك الجماعة.

الصورة الثانية: أن يكون المسجدُ سابقا على القبر، بحيث يدفن الميت فيه بعد بناء المسجد.

والحكم في هذه الصورة: أنه يجب نبش القبر، وإخراج الميت، ودفنه في المقابر مع الناس.

وأما الصلاة في هذا المسجد فتجوز حتى قبل أن يُنبش القبر.

فإذا كان هذا المسجد بُنِي على التقوى، مؤسَّسا لعبادة الله، ثم طرأ عليه اعتداء؛ فَقُبِرَ فيه ميِّت، فننظر إلى الأصل، وهو أنه مسجد مبني للعبادة والطاعة

فيبقى على حكمِه، والصلاة فيه صحيحة. ويُقيَّد ذلك بعدم كون القبر في جهة القبلة مباشرة؛ كيلا يستقبل المصلي القبر، فإذا كان القبر في الجهة اليُمنى أو اليسرى أو من خلف أو نحو ذلك، فالصلاة فيه صحيحة وجائزة.

ومن أقوى ما يُستدل به على هذا: ما عُلم من سيرة النَّبي ﷺ قبل الهجرة وبعدها - كما في عمرة القضاء في السنة السابعة للهجرة -، أنه كان يصلي في المسجد الحرام ويطوف، وكان حوله ثلاث مئة وستون صنما.

وهذه الأصنام معالِم من معالم الشرك تُعبد من دون الله، ومع ذلك لم يمنع من الصلاة والطواف فيه؛ لأن المسجد الحرام بُني على التقوى، أسسه وبناه خليل الله إبراهيم ﷺ، وحدوث المخالفة طارئ على المسجد واعتداء عليه، لا يغير من حكمه.

وبهذا يُعلم أنه لا أثر لإدخال حجرة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في المسجد، وفي الحُجرة قبرُه ﷺ وقبر صاحبَيه، لا أثر لهذا على فضيلة مسجده ﷺ، ولا على صِحَّة الصلاة فيه.

- **المسألة السابعة: شبهات وجوابها:**

الشبهة الأولى: الاستدلال بقوله - تعالى - في سورة الكهف: ﴿**قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا**﴾ [الكهف: ٢١].

والقِصة معروفة في سورة الكهف، فقالوا: لنتخذن على مكانهم مسجدا لعبادة الله، وهذا ذكره الله في كتابه، **والقاعدة:** أن شرع من قبلنا شرع لنا، وقد حكاه الله -عز وجل- ولم يتعقبه بما يدل على ردِّه أو إنكاره، مما يدل على مشروعيته.

الجواب عن هذه الشبهة من وجوه:

الأول: على التسليم بأن شرعَ من قبلنا شرعٌ لنا؛ فهذا مقيَّد بما لم يرِد شرعنا بخلافه، وهكذا نصت القاعدة: «شرع من قبلنا شرع لنا إذا لم يأت شرعنا بخلافه». وقد جاء شرعُنا في هذه المسألة بخلافه، كما سبق. فالعجب ممن يستدل بهذه الآية وهو يعلم النصوص القطعية الصريحة الواضحة في المسألة، وهذه طريقة أهل الزيغ، كما قال تعالى: ﴿**فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ**﴾ [آل عمران: ٧].

الثاني: لا يُسلَّم بأن ذلك شرع لهم -أيضا-؛ إذ ليس في الآية دلالة على أن ذاك المذكور كان شرعا لهم، بل غاية ما في الآية أن جماعة من الناس قالوا: ﴿**لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا**﴾ [الكهف: ٢١]، فليس في الآية تصريحٌ بأنهم كانوا مؤمنين، وعلى التسليم بأنهم مؤمنون؛ فلا يلزم أنهم كانوا صالحين يقتدى بهم.

جاء في تفسير ابن كثير: «حكى ابن جرير في القائلين ذلك قولين: أحدهما: إنهم المسلمون منهم. والثاني: أهل الشرك منهم، فالله أعلم. والظاهر أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ. ولكن هل هم محمودون أم لا؟ فيه

نظر؛ لأن النبي ﷺ قال: «**لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسْجِدًا**»[١] يُحَذِّرُ مَا فَعَلُوا»[٢].

بل جعل ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الآية دليلا على المنع، فقال: «وقد دل القرآن على مثل ما دل عليه هذا الحديث، وهو قول الله - عز وجل - في قصة أصحاب الكهف: ﴿**قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا**﴾ [الكهف: ٢١]، فجعل اتخاذ القبور على المساجد مِن فِعل أهل الغلبة على الأمور، وذلك يُشعر بأن مستنده القهر والغلبة واتباع الهوى، وأنه ليس من فعل أهل العلم والفضل المنتصر لما أنزل الله على رسله من الهدى»[٣].

وجاء ذلك بعد قوله: ﴿**إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم...**﴾ [الكهف: ٢١]، فهناك تنازع بين طرفين، ولا بُد في التنازع من الاختلاف والانقسام.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تفسير ابن كثير (٥/ ١٤٧).

(٣) «فتح الباري» للحافظ ابن رجب (٣/ ١٩٣).

وقال الآلوسي: «واستُدِل بالآية على جواز البناء على قبور الصلحاء واتخاذ مسجد عليها وجواز الصلاة في ذلك، وممن ذكر ذلك: الشهاب الخفاجي في حواشيه على البيضاوي، وهو قول باطل عاطل فاسد كاسد»[1].

الشبهة الثانية: قبر النبي ﷺ في مسجده، ولو كان هذا محرما لما أقره المسلمون:

الجواب: أن النبي ﷺ لم يُدفن في المسجد، بل دُفِن في حجرته الملاصقة للمسجد، وهي منفصلة عنه. وأما المسجد أعظم مساجد المسلمين وأفضلها بعد المسجد الحرام، وقد أُسِّس على التقوى من أول يوم، وشارك النبي ﷺ في بنائه.

وهكذا بقي في عهد الخلفاء الراشدين خاليا من القبر مصونا منفصلا عنه، واستمر على ذلك سبعة وسبعين عاما بعد وفاته.

وفي عام ثمانية وثمانين، في عهد الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي، كتب إلى أميره على المدينة عمر بن عبد العزيز أن يهدم المسجد النبوي ويضيف إليه حُجَر زوجات النبي ﷺ، فجمع عمر وجوه الناس والفقهاء ولم يكن في المدينة أحد من الصحابة، وقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين الوليد فشق عليهم

---

(١) «روح المعاني» (١٥/ ٢٣٧).

وانظر تحقيقا في الآية في «عمارة القبور» للمعلمي ص٢٨٩- ٣١١.

ذلك، وقالوا: تركُها على حالها أدعى للعبرة، ويُحكى أن سعيد بن المسيب أنكر إدخال حجرة عائشة في المسجد؛ كأنه خشي أن يتخذ القبر مسجدا، فكتب عمرُ بذلك إلى الوليد، فأرسل الوليد إليه يأمره بالتنفيذ، فلم يكن لعمرَ بُدٌّ من ذلك.

وقد سبقه عمر وعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بتوسعة المسجد، ولم يُدخِلا القبر فيه.

وجاء عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «إنه لا سبيلَ إليها»[1]؛ إشارة إلى حُجر أمهات المؤمنين - رضي الله عنهن -.

قال الشيخ ابن باز: «لما وسع الوليد بن عبد الملك مسجد النبي ﷺ في آخر القرن الأول أدخل الحجرة في المسجد، وقد أساء في ذلك، وأنكر عليه بعض أهل العلم »[2].

فتبين أن النبي ﷺ لم يُقبر في المسجد، ولم يُبْنَ المسجد على قبره، فلا حُجَّة فيه لمحتج على الدفن في المساجد أو بنائها على القبور.

ومع ما وقع فقد احتاطوا في الأمر، قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «لمَّا وُسِّع المسجدُ جُعِلت حجرتها -يعني: حجرة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- مثلَّثَة الشكل محدَّدة؛ حتى لا يتأتَّى لأحد أن يُصلِّي إلى جهة القبر مع استقبال القبلة»[3].

---

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٤/ ٢١)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٦/ ٣٧٠).

(٢) «مجموع فتاوى ابن باز» (١٣/ ٢٣٥).

(٣) «فتح الباري» (٣/ ٢٠٠).

وبُني على القبر جُدران مرتفعة، فصار القبر مستترا لا يُرى، وهذا استجابة لدعاء النَّبي ﷺ حين قال: «**اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ**»(١).

مسألة: هل يجوز الدَّفن في الدار؟

اتفق الفقهاء أن السُّنَّة الدفن في المقبرة المُعدَّة لدفن أموات المسلمين. أما قبرُ الميت في الدار فهذا مكروه؛ لقوله ﷺ: «**لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ**»(٢)، على أحد التفسيرين.

فهذا الحديث له تأويلان عند أهل العلم:

الأول: لا تتخذوا البيوت مكانا للدفن.

الثاني: لا تجعلوها كالمقابر مهجورة من العبادة، والذكر، وقراءة القرآن.

وأمَّا دفنُه ﷺ في بيته فهذا من خصائصه؛ لئلا تقع الفتنة به، كما جاء في الحديث: «وَلَوْلَا ذَلِكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ خَشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا»(٣).

والأصل أن المسلم يُدفن في المقبرة، ويُستثنى من ذلك الأنبياء. وكذلك الشهداء يُدفنون في مصارعهم، أي: في مكان موتهم؛ لأنهم لا يُغسَّلون، ولا يُصلَّى عليهم.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٧٨٠).

(٣) تقدم تخريجه.

المطلب الثاني: الدعاء:

الدعاء عند القبر له ثلاث صور:

الأولى: أن يدعوَ صاحب القبر، ويسأله قضاء الحاجات. فيقول: يا فلان، أغثني، يا سيدي، أسألك الولد، أسألك المدد.

وحكم هذه الصورة: أنها شرك؛ لأن الدعاء بهذه الصورة عبادة لا يجوز صرفها لغير الله - تعالى -.

الثانية: أن يقصد دعاء الله عنده؛ لاعتقاد أنه أفضل وأقرب للإجابة، وأن هذا المكان فيه خصوصية وبركة، فيذهب للقبر ويستقبله ويرفع يديه يدعو اللهَ - تعالى -، ويقول: اللّٰهم إني أسألك كذا وكذا.

وحكم هذه الصورة: أنها بدعة، ووسيلة من وسائل الشرك؛ لأن هذا من الغُلو في المخلوق، ومن تعظيم القبور غير المشروع.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وما أحفظ لا عن صاحب، ولا عن تابع، ولا عن إمام معروف أنه استحب قصد شيء من القبور للدعاء عنده، ولا روى أحد في ذلك شيئا، لا عن النبي ﷺ، ولا عن الصحابة، ولا عن أحد من الأئمة المعروفين»(١).

---

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/٣٦٨).

الثالثة: أن يدعوَ اللهَ لصاحب القبر. فيذهب للقبر ويدعو، فيقول - مثلا -: اللّٰهم اغفر لصاحب هذا القبر، واجعل قبره روضة من رياض الجنة. ونحو ذلك.

وحكم هذه الصورة: أنها مشرُوعة، كما جاءت السنة بذلك.

وسبق في «باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره» ذكرُ صور الدعاء، وأنَّ منه دعاء شركيا، ودعاء بدعيا، ودعاء محرَّما.

المطلب الثالث: قراءة القرآن عند القبور:

قراءة القرآن عند القبر لها صورتان:

الأولى: أن يكون ذلك تبعا غير مقصود: وهذه الصورة لا بأس بها.

ومن أدلة ذلك حديث عليٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: كُنَّا فِي جَنَازَةٍ فِي بَقِيعِ الْغَرْقَدِ فَأَتَانَا النَّبِيُّ ﷺ، فَقَعَدَ وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ، وَمَعَهُ مِخْصَرَةٌ، فَنَكَّسَ فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِمِخْصَرَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ، مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ إِلَّا كُتِبَ مَكَانُهَا مِنْ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَإِلَّا قَدْ كُتِبَ شَقِيَّةً أَوْ سَعِيدَةً**». فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا وَنَدَعُ الْعَمَلَ؟ فَمَنْ كَانَ مِنَّا مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنَّا مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ. قَالَ: «**أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ**

فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ الشَّقَاوَةِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الليل: ٥-٦] الْآيَةَ»[١].

فلو أن إنسانا رأى غفلة في الناس عند القبر، فذكرهم وقال: تذَكَّروا يا إخواني هذا المصير، ثم تلا قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، فهذا حسن.

الثانية: أن يكون ذلك قصدا، لاعتقاد فضل المكان:

فيذهب إلى قبر معين، ويقف أمامه، ثم يقرأ ورده أو سورة من القرآن، فهذا بدعة؛ لم تُعرف عن النبي ﷺ، ولا علَّمَها أصحابه عند زيارة القبور.

وفي قوله ﷺ: «**لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ؛ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ**»[٢]، إشارةٌ إلى أن القبور ليست موضعا للقراءة شرعا، فلذلك حضَّ على قراءة القرآن في البيوت، ونهى عن جعلها كالمقابر التي لا يقرأ فيها.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والقراءة على الميت بعد موته بدعة»[٣].

المطلب الرابع: الذبح عند القبور:

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (١٣٦٢) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٦٤٧).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣)«المستدرك على مجموع الفتاوى» جمع ابن قاسم ص ١١٧.

الذبح عند القبر له صورتان:

الأولى: أن يذبح لصاحب القبر تعبُّدا؛ فيريق الدَّم تقرُّبا إلى هذا الميت.

وحكم هذه الصورة: أنَّها شرك أكبر.

الثانية: أن يذبح لله - تعالى - عند القبر. بمعنى أن يقصد قبرا معينا يعتقد فيه الفضل، ويذبح لله وباسمه - تعالى -. وهذه الصورة سبقت في «باب لا يذبح لله في مكان يذبح فيه لغير الله».

وحكمها: أنَّها محرمة، وهي وسيلة من وسائل الشرك.

ومن الأدلة فيها:

حديث ثابت بن الضحاك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: نَذَرَ رَجُلٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَنْحَرَ إِبِلًا بِبُوَانَةَ، فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: إِنِّي نَذَرْتُ أَنْ أَنْحَرَ إِبِلًا بِبُوَانَةَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ؟**» قَالُوا: لَا. قَالَ: «**هَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟**»، قَالُوا: لَا. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَوْفِ بِنَذْرِكَ؛ فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ**»(١).

فدلَّ الحديث على أنه لو كان فيه وثنٌ من أوثان الجاهلية فلا يجوز الذبح.

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا عَقْرَ فِي الْإِسْلَامِ**».

---

(١) تقدم تخريجه.

قال عبد الرزَّاق: «كَانُوا يَعْقِرُونَ عِنْدَ الْقَبْرِ بَقَرَةً أَوْ شَاةً»[1].

وقال ابن الأثير: «(**لَا عَقْرَ فِي الْإِسْلَامِ**)؛ كانوا يَعْقِرون الإبل على قبور الموتى، أي: ينحرونها، ويقولون: إن صاحب القبر كان يَعْقِر للأضياف أيام حياته، فنكافئه بمثل صَنِيعه بعد وفاته»[2].

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يشرع لأحد أن يذبح الأضحية ولا غيرها عند القبور، بل ولا يشرع شيء من العبادات الأصلية؛ كالصلاة والصيام والصدقة عند القبور. فمن ظن أن التضحية عند القبور مستحبة وأنها أفضل؛ فهو جاهل ضال مخالف لإجماع المسلمين»[3].

ooo

المبحث الثالث: تعظيم القبور بغير المشروع:

هذا المبحث متعلق بالباب العشرين. وتأمَّل في عبارة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حينما عقد الباب فقال: «باب ما جاء أن الغُلو في قبور الصالحين يصيِّرُها أوثانا تعبد من دون الله»، وذكر في هذا الباب حديثين: قولَه ﷺ: «**اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ قَبْرِي**

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٣٢٢٢)، وأحمد (١٣٠٣٢) مطولا، وصححه الألباني.

(٢) «النهاية في غريب الأثر» (٣/ ٥٢٩).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٧/ ٤٩٥).

وَثَنًا يُعْبَدُ؛ اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»[1]، وعن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّه ﷺ زَائِرَاتِ الْقُبُورِ، وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ»[2]، ثم أثرين عن ابن عباس ومجاهد في معنى «اللات».

والمقصود أن تعظيم القبور بغير المشروع وسيلة من وسائل الشرك الفِعلية، وقد أصَّلنا الحديث في وسائل الشرك من قبل، وذكرنا أنها تكون: وسائل قولية، وفعلية، واعتقادية.

والكلام في هذا المبحث عن أمور عمَّ بها البلاء وطمَّ، واشتدت الفتنة بها وعظُمت في بلاد المسلمين، فمن شرَّق أو غرَّب في أطراف الأرض وتجوَّل في ديار المسلمين، تبيَّن له غُربة الدين، وحاجة الناس إلى تحقيق توحيد رب العالمين؛ لما يرى من مظاهر التعظيم والغُلو في هذه القبور بغير المشروع الذي جاء به الشرع. وإنما وقعوا في الممنوع الذي حذَّر منه الشارع، فكان لا بُد من التعلُّم؛ اتقاءً لهذه الفتنة، ثم العمل بمجانبتها، ثم الدَّعوة إلى ذلك بالتحذير والبيان.

- **ومن صور تعظيم القبور بغير المشروع:**

الصورة الأولى: بناء القِباب والمشاهد على القبور:

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

وهذا منهي عنه؛ لحديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يُجَصَّصَ الْقَبْرُ، وَأَنْ يُقْعَدَ عَلَيْهِ، وَأَنْ يُبْنَى عَلَيْهِ»(١).

وَرَأَى ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فُسْطَاطًا عَلَى قَبْرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بن أبي بكر، فَقَالَ: «انْزِعْهُ يَا غُلامُ، فَإِنَّمَا يُظِلُّهُ عَمَلُهُ»(٢). والفسطاط كالخيمة.

وعن محمد بن كعب القرضي رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «هَذِهِ الْفَسَاطِيطُ الَّتِي عَلَى الْقُبُورِ مُحْدَثَةٌ» (٣).

وهذا البناء على القبر قد يكون قُبة أو مسجدًا أو خيمة أو عريشا.

وعِلة النهي عنه: ما فيه من تعظيم أهل القبور، وكونُه وسيلة وذَرِيعة إلى أن تُعبد هذه القبور وتُتخذ آلهة مع الله، كما هو الشأن في كثير من الأبنية التي بُنيت على القبور، كانت البدايات خفيفة ثم تطور الأمر وتوالت خطوات الشيطان فأصبح الناس يشركون بأصحاب هذه القبور، ويدعونها مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهذه المشاهد والقباب والمقامات كثيرة في بلاد المسلمين؛ مثل: مقام الإمام الشافعي في القاهرة، ومقام أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الإسكندرية، وغيرهما مما ينتشر في بلاد العالم الإسلامي(١).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٩٧٠).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه معلَّقا مجزوما به في (كتاب الجنائز، باب الجريد على القبر).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١١٧٥٢).

مسألة: القبة الخضراء فوق قبر النبي ﷺ:

هذه القبة حادثة في القرن السابع الهجري، لم تكن في عهد النَّبي ﷺ، ولا في عهد الصحابة، ولا التابعين، ولا في القرون المفضلة، عمِلَها الملك المنصور قلاوون الصالحي سنة ٦٧٨ هـ، وقد أخطأ بفعله - عفا الله عنه -، فشيَّد هذه القبة وكانت زرقاء اللون، واستمرت حتى جاء السلطان العثماني محمود بن السلطان عبد الحميد، فأمر بتجديدها، وأُعِيد بناؤها سنة ١٢٣٣هـ، وصبغت باللون الأخضر، وبقيت إلى اليوم.

هذه القبة مبنية في مسجد رسول الله ﷺ، وفوق قبره ﷺ، فهل يعني ذلك جواز الفعل؟

الجواب: لا؛ فوجودها لا يغير من الحكم شيئا، والواجب هدم القباب على القبور، لكنها تركت خشية الفتنة وإثارة القلاقل بين المسلمين، ورمي الدولة ببغض النبي ﷺ، والتأليب عليهم في أقطار الأرض.

الصورة الثانية: اتخاذ السُّرُج على القبور:

---

(١) للمزيد من النصوص في هدم القباب والمساجد على القبور، يُنظر: «إغاثة اللهفان» (١/ ٣٨٠).

وجاء في فتاوى اللجنة (٤١٣/١): «البناء على القبور بدعة منكرة، فيها غلو في تعظيم من دفن في ذلك وهو ذريعة إلى الشرك، فيجب على ولي أمر المسلمين أو نائبه الأمر بإزالة ما على القبور من ذلك وتسويتها بالأرض؛ قضاء على هذه البدعة، وسدا لذريعة الشرك».

ذكر الشيخ في الباب حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَائِرَاتِ الْقُبُورِ، وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ»(١).

والسُّرُج: جمع سِراج، وهو ما يُتخذ للإضاءة.

قلت: ولم أقف على أثر صحيح في المسألة، لا عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا عن أحد من أصحابه.

فالظاهر أنها تُرَدُّ إلى القواعد العامة، فيقال: إن كان الإسراج يتضمن الغلو أو التعظيم للمقبور، أو يكون على وجه يخشى منه ذلك، فيمنع؛ حماية لحمى التوحيد، وسدا للذريعة.

ومن صور ذلك: أن يكون الإسراج بالمصابيح أو الشموع على القبر نفسه، أو على مجموعة من القبور على هيئة تدل على إرادة التعظيم.

وإن كان الإسراج بخلاف ما سبق، فلا يظهر المنع منه.

ومن صور الإسراج الجائز: إضاءة المقبرة بأعمدة إنارة؛ لأجل أن يرى الزوار والمشيعون طريقهم في الليل، وتكون الأعمدة في شوارع المقبرة، وليست على القبور.

هذا ما ظهر لي بعد التأمل، والله أعلم.

---

(١) تقدم تخريجه.

الصورة الثالثة: اتخاذ القبور أعيادا مكانية:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ**»[١].

والعيد المكاني: كل اجتماع عام يحدِثُه الناس أو يعتادونه في مكان معين.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «هو المكان الذي يُقصد الاجتماع فيه وانتيابه للعبادة أو لغيرها»[٢].

فمنها ما هو مشروع؛ كمِنى وعرفة ومزدلفة.

ومنها ما هو غير مشروع، ومن ذلك: أن يجتمع الناس عند قبر فلان، في يوم ميلاده أو وفاته أو في يوم ما من السنة، ويعقِدُون لذلك اجتماعا وينصبون خياما وسرادقات، ويعملون أعمالا خاصة واحتفالات.

فهذا العمل ينطوي على غُلُو وتعظيم للمقبور، وشدٍّ للرحال إليه، وهذا وسيلة إلى تعلق القلب به، ومن ثمَّ دعاؤه ورجاؤه، فنُهي عنه ولو كان لأفضل الخلق ﷺ، فكيف بمن دونه؟!.

الصورة الرابعة: شدُّ الرِّحال إلى القبور:

---

(١) سيأتي تخريجه، بإذن الله – تعالى –.

(٢) «إغاثة اللهفان» (١/ ٣٤٥).

هذه مسألة عظيمة مشهورة، أُلِّفَت فيها مؤلفات، وجرت حولها ردود ومناقشات. وبسببها امتُحِن شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وسُجِن حين أفتى بتحريم شد الرحل لزيارة القبور.

وألَّف تقي الدين السبكي الشافعي «شفاء السقام في زيارة خير الأنام»؛ ردا على ما أفتى به ابن تيمية. فتصدَّى له الحافظ ابن عبدالهادي في «الصارم المُنْكِي في الرد على السُّبكي»، ونصر فيه رأي ابن تيمية[1].

وقد بغى المخالفون لابن تيمية حين حملوا كلامه على أنه يمنع زيارة قبر النبي ﷺ وغيره من قبور الأنبياء والصالحين، وهو براء من ذلك! وإنما كلامه في السفر وشد الرحال الذي انتشر في القرون المتأخرة متزامنا مع ظهور المشاهد والمقامات، واعتناء الناس بها، وغُلوهم في أصحابها بأمور، منها شد الرحال إليها.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأول من وضع هذه الأحاديث في السفر لزيارة المشاهد التي على القبور: أهل البدع من الرافضة ونحوهم»[2].

ومن هنا تعلم أنه وقع الخلط بين مسألتين: مسألة زيارة القبور، ومسألة السفر إلى القبور. والكلام - هنا - في الثانية، وشيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يمنع

---

(١) قال عنه الألباني في «أحكام الجنائز» ص٢٣٠: «فيه فوائد أخرى كثيرة، فقهية وحديثية وتاريخية، حرِيٌّ بكل طالب علم أن يسعى إلى الاطلاع عليها».

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٧/ ١٩١).

زيارة القبور، لا قبر النَّبي ﷺ، ولا قبر غيره، لكنه يمنع شَدَّ الرَّحل إليها، أي: أن يُنشِئ الإنسان سفرا خاصًّا؛ لأجل أن يزور القبر. هذا هو الذي منَع منه.

والقول المحرَّر الذي قرَّره المحققون، وعليه الفتوى: أنه لا يجوز السفر لزيارة القبر. ودليل ذلك حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «**لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى، وَمَسْجِدِي هَذَا**»[1]. ولفظ مسلم: «**لا تَشُدُّوا**»، بالنهي.

ولمسلم - أيضا - من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّمَا يُسَافَرُ إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: مَسْجِدِ الْكَعْبَةِ، وَمَسْجِدِي، وَمَسْجِدِ إِيلِيَاءَ**»[2].

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «الرِّحال، بالمهملة: جمع رَحْل، وهو للبعير كالسَّرْج للفرس. وكنَّى بشد الرحال عن السفر؛ لأنه لازمه، وخرج ذكرها مخرج الغالب في ركوب المسافر. وإلا فلا فرق بين ركوب الرَّواحِل والخيل والبغال والحمير، والمشي في المعنى المذكور، ويدلُّ عليه قوله في بعض طرقه «**إِنَّما يُسَافَرُ**» أخرجه مسلم»[3].

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (١٨٦٤) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٨٢٧). وله شاهد عندهما - أيضا - من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١٣٩٧).

(٣) «فتح الباري» (٣/ ٦٤).

وفي الباب أحاديث ساقها الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «أحكام الجنائز»، ثم قال: «وفي هذه الأحاديث تحريم السفر إلى موضع من المواضع المباركة؛ مثل: مقابر الأنبياء والصالحين»[١].

ومن أجاز السفر لزيارة القبور فكان عمدتُه ما يلي:

أولا: أحاديث فضل زيارة القبور. وهذه خارج البحث؛ لأن الكلام في السفر لا في مطلق الزيارة.

ثانيا: أحاديث في فضل الإتيان لقبر النبي ﷺ. وهي واهية، وبعضها موضوع.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كل حديث يُروى في زيارة قبر النبي ﷺ فإنه ضعيف بل موضوع، ولم يروِ أهل الصحاح والسنن والمسانيد كمسند أحمد وغيره من ذلك شيء»[٢].

وقال ابن عبد الهادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وجميع الأحاديث التي ذكرها المعترض - السبكي - في هذا الباب، وزعم أنها بضعة عشر حديثا ليس فيها حديث صحيح، بل كلها ضعيفة واهية، وقد بلغ الضعف ببعضها إلى أن حكم عليه الأئمة الحُفَّاظ بالوضع»[٣].

---

(١) «أحكام الجنائز» ص٢٢٦.

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٧/ ١٦).

(٣) «الصارم المُنكِي» ص٢١.

فقه الحديث ومعناه:

النهي في حديث: «**لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ**»: **يشمل كُلَّ مكان يُقصد للتقرب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيه؛ سواء كان مسجدا أو قبرا أو غير ذلك.**

فالمعتبر قصد المكان لذاته؛ فمن سافر لطلب العلم أو صلة الرحم أو زيارة أخ أو للتجارة، فهذا لم يسافر لأجل البقعة والمكان لكن لأجل غرض ما، ولذا لو كان غرضه في مكان آخر لذهب إليه، والمحذور شد الرحل لبقعة معينة تعبُّدًا.

وخص بعضُهم الحديث بالمساجد، فجعل معناه: لا تشد الرحال إلى مسجد إلا إلى ثلاثة مساجد. **وأُجيب عن هذا بأمرين:**

الأول: أنه وردت أحاديث تدل على التعميم في غير المسجد، ومنها:

حديث أبي بَصْرَةَ الغِفاريِّ: أنَّه لَقِيَ أَبَا هُرَيْرَةَ، وَهُوَ (أي: أبو بصرة) جَاءٍ مِنَ الطُّورِ، فَقَالَ: مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ؟ قَالَ: مِنَ الطُّورِ، صَلَّيْتُ فِيهِ. قَالَ: أَمَا لَوْ أَدْرَكْتُكَ قَبْلَ أَنْ تَرْحَلَ إِلَيْهِ مَا رَحَلْتَ؛ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِي هَذَا، وَالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى**»[(١)].

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد في المسند (٢٣٨٥٠)، وصححه الأرناؤوط. وقال الألباني في «الثمر المستطاب» ص٥٥٤: «وهو على شرط الشيخين...».

وأصله في الصحيحين، بدون القصة: أخرجه البخاري (١١٨٩)، ومسلم (١٣٩٧).

وعن قَزَعَةَ قال: أَرَدْتُ الْخُرُوجَ إِلَى الطُّورِ، فَسَأَلْتُ ابْنَ عُمَرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ النَّبِيِّ ﷺ، وَالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى**»، وَدَعْ عَنْكَ الطُّورَ، فَلَا تَأْتِهِ[١].

والشاهد منهما أن الطور جبل وليس بمسجد.

الثاني: قياس الأَوْلى:

ووجهُه: أن الحديث لو كان نهيا عن المساجد باللفظ، فإنه يفيد النهي عن غيرها من سائر البقاع التي يُعتقد فضيلتها بالتنبيه والفحوى وطريق الأَولى؛ فإن المساجد والعبادة فيها أحبُّ إلى الله من العبادة في تلك البقاع بالنص والإجماع، فإذا كان السفر إلى البقاع الفاضلة قد نُهي عنه فالسفر إلى المفضُولة أولى[٢].

- **الصورة الخامسة: وضع الزهور والنباتات على القبور:**

وهذا الفعل له صورتان:

الصورة الأُولى: أن يكون على وجه الإكرام والتعظيم والتقدير:

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ذكره ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٢٧/ ٢٤٧).

فهذا يُمنع؛ لأن هذا الفعل باب إلى الغلو في القبور وأصحابها، وينبغي سد هذا الباب والاحتياط فيه. فإهداء الزهور يجُرُّ إلى إهداء التحف ثم المجوهرات والأموال ثم القرابين، وهكذا.

الصورة الثانية: أن يكون بقصد التخفيف:

فهذا اختلف فيه العلماء على قولين:

القول الأول: أنه لا بأس بذلك، بل استحبه بعضهم. واستدلوا بما يأتي:

حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ: أَنَّهُ مَرَّ بِقَبْرَيْنِ، فَقَالَ: «**إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ؛ أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لا يَسْتَتِرُ مِنَ البَوْلِ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ**» ثُمَّ أَخَذَ جَرِيدَةً رَطْبَةً، فَشَقَّهَا نِصْفَيْنِ، فَغَرَزَ فِي كُلِّ قَبْرٍ وَاحِدَةً، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لِمَ فَعَلْتَ هَذَا؟ قَالَ: «**لَعَلَّهُ يُخَفِّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا**»[1].

وحديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وقد أمره رسول الله ﷺ أن يضع غُصنين من شجرتين عن يمينه وعن شماله فقال جابر: فَعَمَّ ذَاكَ؟ قَالَ: «**إِنِّي مَرَرْتُ بِقَبْرَيْنِ يُعَذَّبَانِ؛ فَأَحْبَبْتُ - بِشَفَاعَتِي - أَنْ يُرَفَّهَ عَنْهُمَا، مَا دَامَ الْغُصْنَانِ رَطْبَيْنِ**»[2].

وعن بُرَيْدَةَ الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ أَوْصَى أَنْ يُجْعَلَ فِي قَبْرِهِ جَرِيدَانِ[3].

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٢١٨) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٩٢).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٣٠١٢).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه معلَّقا مجزوما به في (كتاب الجنائز، باب الجريد على القبر).

ونص على ذلك بعض الفقهاء، فقال صاحب «أخصر المختصرات»: «وسُنَّ لرجال زيارةُ قبرِ مسلم، والقراءة عنده، وما يخفِّفُ عنه، ولو بجعل جريدة رطبة في القبر»[1].

القول الثاني: عدم المشروعية، وأن ذلك من خصوصيات النبي ﷺ؛ ولذا لم يُعرف عن الصحابة سوى ما نقل عن بُرَيْدَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، واختلف في معناه.

وأيَّدوا هذا القول بأمور:

منها: أنه لا يُمكِن لأحد أن يعلم أن هذا القبر يُعذَّب إلا بوحي! وقد انقطع الوحي.

ومنها: أنه لم يُنقل عن كبار الصحابة وفقهائهم فعلُ ذلك، فلو كان هذا مشروعا لفعلوه، ولو فعلُوه لنُقِل.

ومنها: أن الشرع جاء بما هو خير من ذلك وهو الدعاء، فإذا فُرِغ من دفن الميت فيُستغفر له ويُسأل له التثبيت، كما قال ﷺ: «**اسْتَغْفِرُوا لأخِيكُمْ، واسْأَلُوا اللهَ لَهُ التَّثْبِيتَ؛ فَإِنَّهُ الآنَ يُسَأَلُ**»[2].

---

(١) «أخصر المختصرات» ص ١٣٦.

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٣٢٢١)، والحاكم (١٣٧٢) وصححه، ووافقه الذهبي والألباني.

جاء في «فتاوى اللجنة الدائمة»: «إن وضع النبي ﷺ الجريدة على القبرين، ورجاءَه تخفيف العذاب عمن وضعت على قبرهما، واقعة عين لا عموم لها، في شخصين أطْلَعَه الله على تعذيبهما، وأن ذلك خاص برسول الله ﷺ، وأنه لم يكن منه سنة مُطَّرِدَة في قبور المسلمين، وإنما كان مرتين أو ثلاثا على تقدير تعدد الواقعة لا أكثر. ولم يعرف فعل ذلك عن أحد من الصحابة وهم أحرص المسلمين على الاقتداء به ﷺ، وأحرصهم على نفع المسلمين، إلا ما رُوي عن بريدة الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه أوصى أن يجعل في قبره جريدتان، ولا نعلم أن أحدا من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وافق بريدة على ذلك. وبالله التوفيق»[1].

وقد عقد الإمام البخاري بابا في كتاب الجنائز بعنوان: «باب الجريد على القبر».

وقال الحافظ في «الفتح»: «قال ابن رشيد: ويظهر من تصرف البخاري أن ذلك خاص بهما - يعني صاحب القبرين -؛ فلذلك عقبه بقول ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إنما يُظِلُّه عمله»[2].

وعلَّقَ الألباني على حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المتقدم، وفيه قولُه ﷺ: «**فَأَحْبَبْتُ بِشَفَاعَتِي أَنْ يُرَفَّهَ عَنْهُمَا مَا دَامَ الْغُصْنَانِ رَطْبَيْنِ**»، فقال: «فهذا صريح في أنَّ رفعَ العذاب إنما هو بسبب شفاعته ﷺ ودعائه لا بسبب النداوة»[1].

---

(١) «فتاوى اللجنة الدائمة» (٣/ ٤٥٣).

(٢) «فتح الباري» (٣/ ٢٢٣).

فالأقرب عدم المشروعية، لكِنْ من فعل ذلك فلا يوصف بالشرك أو البدعة، بل هي مسألة اجتهادية.

* * *

(١) «أحكام الجنائز» ص ٢٠١.

الفصل الثالث: التعليق على النصوص، وربطها بالباب

أولا: باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين:

النص الأول: قول الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١].

أهل الكتاب هم اليهود والنصارى، والغلو في النصارى كثير؛ فإنهم غلوا في عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلهًا من دون الله، واليهود تنقصوه فحطُّوه عن منزلته، حتى جعلوه ولد بغِيٍّ! فالنصارى أفرَطوا، واليهود فرَّطوا، والخطاب وإن كان لأهل الكتاب، فهو تحذير لهذه الأمة أن يفعلوا مع نبيهم ما فعلت النصارى مع المسيح، واليهود مع العُزَيْر(١). والمشهور في عُزَيْر أنه لم يكن نبيا، وإنما هو حَبْرٌ كبير من أحبار اليهود.

ooo

النص الثاني: حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا قال: في قول الله - تعالى -: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾ [نوح: ٢٣]، قال: «هَذِهِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنِ انْصُبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمْ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ

(١) ينظر: حاشية ابن قاسم، ص٢٠.

فِيهَا أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ، وَنُسِيَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ»[١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال غير واحد من السلف: لما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوَّروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد، فعبدوهم»[٢].

الأنصاب: جمع نُصُب ونُصْب، والأمر منه بالكسر. والمراد بالأنصاب هنا: الأصنام المصوَّرة على صور أولئك الصالحين التي نصبوها في مجالسهم؛ ليتذكروا أفعالهم بها.

وقوله: «وَنُسِيَ الْعِلْمُ»، يحتمل معنيين:

الأول: نُسِي العلمُ الذي فيه بيان الشرك والتوحيد.

والثاني: نُسِي العلم الذي نصبُوا لأجله الأنصاب، وهو تذكُّر العلم الذي كانوا يأخذونه عنهم، والعبادة التي كانوا يفعلونها؛ ليتأسوا بهم فيها.

وفيه بيان أثر العِلم، وأثر الغلو.

○○○

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «إغاثة اللهفان» (١/ ١٨٤).

النص الثالث: حديث عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ؛ إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ؛ فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ**»(١). الإطراء: مجاوزة الحد في المدح، والكذب فيه.

فأبَى المشركون إلا مجاوزة أمره، وارتكاب نهيه، وعظَّموه بما نهاهم عنه، وضاهَوا النصارى في غُلُوهم وشركهم، وناقضوا أمره أعظم مناقضة، وأظهر لهم الشيطان هذا الشرك في قالب التعظيم للنبي ﷺ ومحبته، وأظهر التوحيد والإخلاص في قالب التنقص.

ooo

النص الرابع: حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ؛ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الْغُلُوُّ**»(٢).

فيه أن الغلو سبب هلاك الأمم السابقة، وجاء التعبير بالحصر مما يدل على عظم أثره وخطره.

ooo

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

النص الخامس: حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ**»، قَالَهَا ثَلَاثًا(١).

المُتَنَطِّعُ: هو المتعمِّق في الشيء، المغالي فيه، المجاوِزُ حدَّ الشرع فيه، سواء أكان قولا أم فعلا أم اعتقادا. والتنَطُّع من الغلو.

وهذه الأدلة كلُّها تدل على التحذير من الغُلو، وأن الغُلُو باب ووسيلة إلى الشرك كما سبق.

○○○

ثانيا: باب ما جاء من التغليظ في من عبَد الله عند قبر رجُل صالح، فكيف إذا عبَدَه؟!

النص الأول: حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ذَكَرَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَنِيسَةً رَأَتْهَا بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ، وَمَا فِيهَا مِنْ الصُّوَرِ، فَقَالَ ﷺ: «**أُولَئِكَ إِذَا مَاتَ فِيهِمْ الرَّجُلُ الصَّالِحُ - أَوْ الْعَبْدُ الصَّالِحُ -، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ**»(٢).

وعقَّب عليه المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: «فهؤلاء جمعوا بين الفتْنَتَين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل». ذكَر حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في البِناء على القبور، فذكر فتنة

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

القبور بتعظيمها والغلو فيها، وفتنة التماثيل والصور التي آلت بهم إلى عبادتها، وهذا كله من وسائل الشرك: الغُلُو، والتَّصوير.

ooo

النص الثاني: حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «لَمَّا نُزِلَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا، فَقَالَ، وَهُوَ كَذَلِكَ: «**لَعْنَةُ اللَّهُ عَلَى اليهُودِ وَالنَّصَارَى؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»؛ يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا، وَلَوْلَا ذَلِكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ خَشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا»(١).

قولها: «وَلَوْلَا ذَلِكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ»: أي: ولولا تحذير النَّبي ﷺ مما صنعوا، ولَعْنُه من فعل ذلك؛ لأُبرِزَ قبره، أي جُعل بارزا ظاهرا، ودُفن خارج البيت، أو دفن مع أصحابه فكان واضحا، لكنه لم يبْرَز خشية أن يُتَّخذ مسجدا، فهو مختفٍ ومستورٌ في هذه الغرفة التي بُنيت عليها الحيطان والجدران.

ooo

النص الثالث: حديث جُنْدُبِ بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ النَّبي ﷺ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ، وَهُوَ يَقُولُ: «**إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ؛ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا. وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ**

(١) تقدم تخريجه.

أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا. أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ؛ فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ»(١).

وعقَّب عليه المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: «فقد نهى عنه في آخر حياته، ثم إنه لعَن - وهو في السياق - من فعَلَه، والصلاة عندها من ذلك، وإن لم يُبنَ مسجد، وهو معنى قولها [يعني: قول عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا]: «خَشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا»؛ فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجدا. وكل موضع قُصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجدا، بل كل موضع يصلَّى فيه يسمى مسجدا، كما قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (**جُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا**)»(٢).

فهذه القضية اهتم لها النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كثيرا، فبيَّن لهم أولا، ثم قبل موته بخمسٍ قال ما قال، ثم لما كان في النَّزْع لم يكتف بما تقدم، بل لعن من فعل ذلك، وهو في هذه الحال العصيبة!.

ooo

النص الرابع: حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مرفوعا: «**إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ**»(٣).

ooo

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

ثالثا: باب ما جاء أنَّ الغُلُوَّ في قبور الصالحين يُصيِّرُها أوثانا تُعبَد من دون الله:

النص الأول: حديث عطاء بن أبي رباح، مرسلا: «**اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ؛ اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»(١).

الوثن: يتناول كل معبود من دون الله من صورة أو قبر. وقد استجاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ دعاءه ﷺ فصان قبره، وأحاطه بثلاثة جدران مثلثة، لا يستطيع أحد الوصول إليه ولا استقباله. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فأجـــــاب ربُّ العـــــالمين دعـــــاءَه
وأحاطَـــــه بثلاثـــــة الجُـــــدرانِ
حتـــــى غَـــــدَت أرجـــــاؤه بدعائـــــه
في عِـــــزَّة وحمايـــــة وصِـــــيانِ(٢)

فدل الحديث على أنَّ قبر النبي ﷺ لو عُبِد لكان وثنا، لكِن حماه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بما حال بينه وبين الناس، فلا يوصَل إليه، ودلَّ على أن الوثن هو ما يباشره العابد من القبور والتوابيت التي عليها(٣).

ooo

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «الكافية الشافية» المعروفة بنونية ابن القيم، البيتان (٤٠٤٢-٤٠٤٣).

(٣) ينظر: حاشية ابن قاسم ص١٢٢.

النص الثاني والثالث: أثرا مجاهد وابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ:

عن مجاهد رَحِمَهُٱللَّهُ قال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ [النجم: ١٩]، قال: كَانَ يَلُتُّ لَهُمْ السَّوِيقَ، فَمَاتَ، فَعَكَفُوا عَلَى قَبْرِهِ(١).

وعن ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: «كَانَ يَلُتُّ السَّوِيقَ لِلْحَاجِّ»(٢).

ذكَر أثرين عن ابن عباس ومجاهد في معنى اللَّات. واللَّات إذا كانت بتخفيف التاء لها معنى، وإذا كانت بتشديد التاء لها معنى آخر.

فعلى قراءة التشديد (اللَّاتّ): فهو رجل كان يَلُتُّ السَّويق للحَجيج، فمات فعكفوا على قبره، أي: كان رجلا صالحا يصنع السويق، وهو: دقيق الحنطة أو الشعير. و«يلُتُّه»: يخلطه بالسمن أو الماء، كان يصنع هذا الطعام ويُطعِمُه للحُجاج، وكان مُعَظَّمًا. ولما مات عظَّموه وذكروه، فعكفوا على قبره. وهذا فيه غلو في قبور الصالحين، وأن هذا يؤول ويصير إلى أن تكون أوثانا تعبد من دون الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

○○○

النص الرابع: حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: «**لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَائِرَاتِ الْقُبُورِ، وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ**»(٣).

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

أمَّا اتخاذ المساجد على القبور: فهذا مُتواتر في الباب الذي قبله في أحاديث كثيرة. وأمَّا اتخاذ السُّرج على القبور: فسبق الكلام عليه من جهة الرواية والدراية.

❋ ❋ ❋

٢١- باب
ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد، وسدِّه كل طريق يُوصل إلى الشرك

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] الآيَةَ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ**»[١]. رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ، وَرُوَاتُهُ ثِقَاتٌ.

وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً يَجِيءُ إِلَى فُرْجَةٍ كَانَتْ عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ فَيَدْخُلُ فِيهَا فَيَدْعُو، فَنَهَاهُ، وَقَالَ: أَلَا أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي عَنْ جَدِّي عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا، وَلَا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا؛ فَإِنَّ تَسْلِيمَكُمْ يَبْلُغُنِي أَيْنَ كُنْتُمْ**»[٢]. رَوَاهُ فِي الْمُخْتَارَةِ.

ooo

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٢٠٤٢)، وأحمد في المسند (٨٨٠٤)، وصححه الألباني. وأصله عند مسلم (٧٨٠) مختصرا، بدون موضع الشاهد.

(٢) **ضعيف**: أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٦٧٢٦)، وابن أبي شيبة (٧٥٤٢)، ومن طريقه أبو يعلى في مسنده (٤٦٩)، ومن طريقهما الضياءُ في «المختارة» (٤٢٨)، وقال محققه: إسناده ضعيف.

وحسنه السخاوي في «القول البديع» ص١٦١، وقال العصيمي في «الدر النضيد» ص٧٩: «في الإسناد يسير ضعف، والشواهد المتقدمة تجعله حسنا».

الشرح:

ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب آية وحديثين.

والكلام على هذا الباب في ثلاثة فصول:

* * *

الفصل الأول: مقصود الباب، وموضوعه العام

هذا الباب مقصودُه وخلاصته بيان عناية النَّبي ﷺ بالتَّوحيد، وحمايته لجنابه: بتعظيم أمره، وبيان فضله وأثره، والتَّحذيرِ مما يَنْقُضُه أو يُنقِصُه أو يَخْدِشُه. وذلك أنه ﷺ سدَّ كل طريق ومدخل يُوصِل إلى الشرك، وكانت عنايته بهذا الباب عظيمة جدًّا.

وعقَد المصنِّف في أواخر الكتاب - في الباب قبل الأخير - «باب ما جاء في حماية النبي ﷺ حمى التوحيد وسده طرق الشرك»، وهو قريب من هذا. وكأن هذا الباب في الوسائل الفعلية، وذاك في الوسائل القولية، ولو جُمعا لكان أحسن.

والأبواب المتقدمة جاء فيها شيء من حماية النَّبي ﷺ لجناب التَّوحيد، لكن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كأنه أراد بهذا الباب الحماية الخاصة.

* * *

الفصل الثاني: المباحث الموضوعية

المبحث الأول: حرص النبي ﷺ ونصحه للأمة:

دَلَّ على ذلك أدلة كثيرة جدًّا؛ منها:

قول الله - عز وجل -: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾[التوبة: ١٢٨].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: أنَّ النبي ﷺ قال: «**إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ**»(١).

وعن أبي ذر رضي الله عنه: أنَّ النبي ﷺ قال: «**مَا بَقِيَ شَيْءٌ يُقَرِّبُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُبَاعِدُ مِنَ النَّارِ، إِلَّا وَقَدْ بُيِّنَ لَكُمْ**»(٢).

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ بِمَنْزِلَةِ الْوَالِدِ، أُعَلِّمُكُمْ**»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٨٤٤).

(٢) **صحيح**: أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٦٤٧)، وقال الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٨٠٣): «هذا إسناد صحيح رجاله كلهم ثقات». وأصل الحديث - بدون موضع الشاهد - أخرجه أحمد في «المسند» (٢١٣٦١)، وحسنه الأرناؤوط.

(٣) **حسن**: أخرجه أبو داود (٨)، وابن ماجه (٣١٣)، وحسنه الألباني.

فهذه الأدلة تقتضي أنه بيَّن لهم أهم المهمات، وأوجب الواجبات، وهو التوحيد، وحذرهم من ضده وهو الشرك، ومن كل وسيلة تؤدي إليه.

وما أحسنَ وأولى أن يستحضر طالبُ العلم هذه النصوص العظيمة المُنِيفة التي تزيد المؤمن حبا لنبيه ﷺ، وتزيده يقينا بعِظَم حرصه ونصحه لأمته ﷺ.

ooo

المبحث الثاني: مظاهر حماية النبي ﷺ حمى التوحيد:

من المظاهر والأمثلة التي تُجلِّي حماية النبي ﷺ حِمَى التَّوحيد، وسَدِّه كلَّ منفذ وطريق يمكن أن يُتوصل من خلاله إلى الشرك:

أولا: النهي عن الغلو والتحذير منه.

ثانيا: النهي عن اتخاذ القبور مساجد.

ثالثا: النهي عن الذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله - تعالى -.

رابعا: النهي عن البناء على القبور.

خامسا: النهي عن اتخاذ القبور أعيادا.

سادسا: النهي عن شد الرحال لغير المساجد الثلاثة.

سابعا: النهي عن التصوير.

ثامنا: التخويف من الشرك، وبيان خفائه.

وسبق الكلام عليها كلها في مواضعها، سوى التصوير فسيأتي في باب يخصُّه في أواخر الكتاب، إن شاء الله - تعالى -.

* * *

الفصل الثالث: التعليق على النصوص، وربطها بالباب

النص الأول: قول الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

قوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾: هذا وصفٌ للنَّبي ﷺ أنَّه من أنفُسنا، أي: مِنَّا، ومن جِنْسنا، ليس من جنس آخر، بل هو معروفٌ نسبُه، معروف مدخله ومخرجه، كما جاء في حديث هرقل حين سأل أبا سفيان: «كَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُم؟ قَالَ: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ»(١)، أي: نسَبُه شريف معروف.

وقوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾، أي: يشُقُّ عليه ما يشُقُّ عليكم.

وقوله: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾، فهو حريص على كل ما فيه خير ومصلحة لنا.

فاقتضت هذه الأوصاف أن يعتنيَ ﷺ بأهمِّ المهمات، وهو: بيان التَّوحيد، وحمايته أن يُنال منه شيء، وقد فعل ذلك ﷺ ووَفَّى به أعظم وفاء، وكان حريصا على سدِّ كل باب إلى الشرك.

(١) تقدم تخريجه.

ولهذا ينبغي أن يكون الإنسان مقتديا برسول الله ﷺ في هذا، فمن أنعم الله عليه بالدعوة والتعليم - وهذه أشرف المناصب والمقامات - فعليه أن يعتني بهذا الباب.

ooo

النص الثاني: حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ**»[(١)].

قوله: «**لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا**»، أي: لا تُعَطِّلُوها من الصلاة فيها والدعاء والقراءة؛ فتكون بمنزلة القبور، وقد سبق أنَّ للحديث تأويلَين هذا أشهرهما. ويشهد له قوله ﷺ في الحديث الآخر: «**اجْعَلُوا مِنْ صَلَاتِكُمْ فِي بُيُوتِكُمْ، وَلَا تَتَّخِذُوهَا قُبُورًا**»[(٢)].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٤٣٢ و١١٨٧)، ومسلم (٧٧٧) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فينبغي أن تحيا البيوت بالعبادة، كما كان عليه السلف الصالح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، يُسمع لبيوتهم دَوِيٌّ كدَوِيِّ النحل من التلاوة. و«**أَفْضَل الصَّلاةِ صَلاةُ المَرْءِ فِي بَيْتِهِ إِلَّا المَكْتُوبَةَ**»[1]، كما قال رسول الله ﷺ.

وإذا رأى الأولاد والديهم يتعبدون في البيت بصلاة أو تلاوة أو ذكر ودعاء، فلهذا أثر عظيم في نفوسهم.

وقوله ﷺ: «**وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا**»: هذا نهي أن يُتخذ قبره عيدا مكانيا، بأن يزار على وجه مخصوص، واجتماع معهود كالعيد. وهو يدل على المنع في جميع القبور من باب أَولى. وهذا محل الشاهد من الحديث؛ لأن جعل القبور أعيادا مكانية صورة من صور الغُلو فيها، وهو وسيلة إلى الشرك بها، وسبق الكلام على ذلك.

مسألة: كيف تبلغه الصلاةُ عليه ﷺ؟

الجواب: صحَّ عن النبي ﷺ قولُه: «**إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الْأَرْضِ يُبَلِّغُونِي مِنْ أُمَّتِي السَّلَامَ**»[2]، فهذه هي الكيفية.

ooo

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٧٣١) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٧٨١)، من حديث زيد ابن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) **صحيح**: أخرجه النسائي (١٢٨٢)، وأحمد (٣٦٦٦) وفي مواضع أخرى، من حديث عبد الله بن مسعود، وصححه الألباني.

النص الثالث: حديث علي بن الحسين رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً يَجِيءُ إِلَى فُرْجَةٍ كَانَتْ عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ فَيَدْخُلُ فِيهَا فَيَدْعُو، فَنَهَاهُ، وَقَالَ: أَلَا أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي عَنْ جَدِّي عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا، وَلَا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا؛ فَإِنَّ تَسْلِيمَكُمْ يَبْلُغُنِي أَيْنَ كُنْتُمْ**»(١).

قال المصنِّف رَحِمَهُٱللَّهُ، بعد روايته هذا الحديث: «رواهُ في المُختارة»: وهو كتاب: «الأحاديث المختارة» للحافظ المقدسي، جمع فيه الأحاديث الصحيحة على شرطه. وهذا الحديث رواه - أيضا - أبو بكر بن أبي شيبة في «المصنَّف»، وعنه أبو يعلى في مسنده، ولفظهما: «**وَصَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي ...**»، وليست هذه الجملة في «المُختارة»، وإنما فيها: «**وَلَا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا؛ فَإِنَّ تَسْلِيمَكُمْ يَبْلُغُنِي أَيْنَ كُنْتُمْ**».

وهذا الحديث بمعنى السابق تماما.

قال ابن قاسم: «وفيه حِرصُ السلف على قطع الوسائل والذرائع، وسد أبوابها المُفضِية إلى الشرك ... فيه دليل على النهي عن قصد القبور والمشاهد لأجل الدعاء والصلاة عندها؛ لأن ذلك نوع من اتخاذها عيدا. ويدل - أيضا -

(١) تقدم تخريجه.

على أن قصد الرجل القبر لأجل السلام، إذا لم يكن يريد المسجد، من اتخاذه عيدا المنهي عنه»[١].

* * *

(١) «حاشية كتاب التوحيد» لابن قاسم ص١٧٢.

٢٢- باب
ما جاء أنَّ بعض هذه الأمة يعبد الأوثان

وَقَوْلِه تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

وقَوْلِه تعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠].

وقَوْلِه تَعَالَى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١].

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟! قَالَ: «فَمَنْ؟»(١). أَخْرِجَاهُ.

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِيَ الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا،

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣٤٥٦ و٧٣٢٠)، ومسلم (٢٦٦٩)، وقد ذكره المصنف رَحِمَهُٱللَّهُ بلفظ مقارب.

وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ. وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ. وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَلَّا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا»[1].

وَرَوَاهُ الْبَرْقَانِيُّ فِي صَحِيحِهِ، وَزَادَ: «وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ، وَإِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمُ السَّيْفُ لَمْ يُرْفَعْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ، وَحَتَّى تَعْبُدَ فِئَامٌ مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانَ. وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلَاثُونَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي. وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ مَنْصُورَةٌ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى -»[2].

ooo

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٨٩).

(٢) زيادة البرقاني أخرجها: أبو داود (٤٢٥٢)، وابن ماجه (٣٩٥٢)، وأحمد (٢٢٣٩٥)، بسند صحيح.

الشرح:

ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب ثلاث آيات، وحديثين.

والكلام على هذا الباب في ثلاثة فصول:

* * *

الفصل الأول: مقصود الباب، وموضوعه العام

لما ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ التوحيد وما ينافيه من الشِّرك، أو يُنافي كمالَه، أو ما يكون وسيلة إلى ما يُنافِيه، ذكر أن الشرك لا بُدَّ أن يقع في هذه الأمة بعبادة الأوثان.

مسألة: الفرق بين الصنم والوثن:

الصنم: ما كان مُصوَّرًا على أي صورة، والوثن: ما عُبِد من دون الله على أي شكل كان. والصنم قد يسمى وثنا، كما قال الخليل: ﴿**إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا**﴾ [العنكبوت: ١٧]. فالأصنام المصوَّرَة أوثان، والقبور أوثان كما جاء في الحديث: «**اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ**»(١)، وفي حديث عَدِيِّ بن حاتم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَال: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَقَال: «**يَا عَدِيُّ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الوَثَنَ**»(٢)، فالوثن أعم.

وهذا الباب له تعلُّق بالخوف من الشرك.

* * *

(١) تقدم تخريجه.

(٢) **حسن**: أخرجه الترمذي في سننه (٣٠٩٥) واللفظ له، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/١١٦)، وحسنه الألباني.

الفصل الثاني: المباحث الموضوعية

المبحث الأول: الأدلة على وقوع الشرك في هذه الأمة:

الأدلة على ذلك كثيرة؛ منها:

أولا: عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَضْطَرِبَ أَلَيَاتُ نِسَاءِ دَوْسٍ عَلَى ذِي الخَلَصَةِ**». وَذُو الخَلَصَةِ: طَاغِيَةُ دَوْسٍ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَ فِي الجَاهِلِيَّةِ(١).

ثانيا: عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قالت: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقُولُ: «**لا يَذْهَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى تُعْبَدَ اللاَّتُ وَالْعُزَّى**»(٢).

ثالثا: حديث ثوبان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في الباب، وفيه: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ، وَحَتَّى تَعْبُدَ فِئَامٌ مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانَ**»(٣).

وقد حصل شيءٌ من ذلك في بعض بلاد المسلمين، حين صُرفت بعض أنواع العبادة لغير الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ؛ كالدعاء، والنذر، والنحر لأصحاب القبور.

ooo

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٧١١٦)، ومسلم (٢٩٠٦).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٩٠٧).

(٣) تقدم تخريجه.

المبحث الثاني: شبهات ورُدود:

من الدعاوى التي أقامها خصوم دعوة التوحيد: تساهُل أئمتها في تكفير المسلمين، ورميهم بالشرك. قالوا: وهذه الأُمة معصومة من الشرك، كما دلت عليه أدلة:

الدليل الأول: عن عُقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ يَوْمًا فَصَلَّى عَلَى أَهْلِ أُحُدٍ صَلَاتَهُ عَلَى الْمَيِّتِ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى الْمِنْبَرِ، فَقَالَ: «**إِنِّي فَرَطٌ لَكُمْ، وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ. وَإِنِّي - واللهِ - لَأَنْظُرُ إِلَى حَوْضِي الْآنَ، وَإِنِّي أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الْأَرْضِ - أَوْ مَفَاتِيحَ الْأَرْضِ -. وَإِنِّي - واللهِ - مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي، وَلَكِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا**»(١).

فهذا حديث ثابت في الصحيحين يُبيِّن فيه ﷺ أنه لا يخاف على أمته الشرك، وإنما يخاف عليها التنافس في الدنيا.

وأجيب عن الحديث بأجوبة:

منها: أن الخطاب للصحابة، فيكون خاصا بهم دون سائر الأمة، ويشير إليه قوله في أول الحديث: «**إِنِّي فَرَطٌ لَكُمْ، وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ**».

ومنها: أن المراد مجموع الأمة، فلا يمكن أن تقع الأمة كلها في الشرك؛ لما ورد أنه لا تزال طائفة من الأمة على الحق. وهذا جواب قوي.

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (١٣٤٤) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٢٩٦).

ومنها: أنه قال ذلك في أول الأمر، ثم أخبر بأن من الأُمَّة من يقع في الشرك.

ooo

والدليل الثاني: حديث جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ**»(١).

فالشيطان قد يَئِسَ أن يعبُدَه المُصَلُّون في جزيرة العرب؛ فهذا يدل على أنه لن يقع شيء من ذلك.

وأجيب عنه بأجوبة:

منها: أنَّ هذا إخبار عما وقع في نفس الشيطان ذلك الوقت؛ لما رأى ظهور الدين وكثرة الداخلين فيه، ولكنه لا يدل على عدم الوقوع.

كما يقع أحيانا من المُعَلِّم إذا رأى كسل الطلاب وإهمالهم أن ييأس من نجاحهم لكن يتغير الحال، فيهتمون بالدراسة ثم ينجحون.

ومنها: أن المراد المجموعُ، فهذا ميؤوس منه أن تجتمع الأمة كلها على عبادة الشيطان. ويدل عليه لفظ «**المُصَلُّونَ**» الذي يفيد العموم.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨١٢).

ومنها: أن الميؤوس منه من أقام الصلاة لظاهر الحديث «**المُصَلُّونَ**»، ولا شك أن من أقام الصلاة حق إقامتِها يبعُد أن يقع في عبادة الأوثان؛ فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وأعظم المنكرات الشرك بالله.

والصلاة لها صورة من قيام، وقعود، وركوع، وسجود، ولها حقيقة من خشوع، وحُضور قلب. فإذا أُدِّيت بصورتها وحقيقتها كان لها أعظم الأثر على العبد في راحة القلب وطمأنينته، وانشراح الصدر، وتهذيب السلوك.

* * *

الفصل الثالث: التعليق على النصوص، وربطها بالباب

النص الأول: قول الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قَدِمَ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ وَكَعْبُ بْنُ الأَشْرَفِ مَكَّةَ عَلَى قُرَيْشٍ فَحَالَفُوهُمْ عَلَى قِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا لَهُمْ: أَنْتُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ الْقَدِيمِ، وَأَهْلُ الْكِتَابِ، فَأَخْبِرُونَا عَنَّا وَعَنْ مُحَمَّدٍ. قَالُوا: وَمَا أَنْتُمْ، وَمَا مُحَمَّدٌ؟ قَالُوا: نَحْنُ نَنْحَرُ الْكَوْمَاءَ(١)، وَنَسْقِي اللَّبَنَ عَلَى الْمَاءِ، ونَفُكُّ الْعُنَاةَ، وَنَسْقِي الْحَجِيجَ، ونَصِلُ الأَرْحَامَ. قَالُوا: فَمَا مُحَمَّدٌ؟ قَالُوا: صُنْبُورٌ قَطَعَ أَرْحامَنا، وَاتَّبَعَهُ سُرَّاقُ الْحَجِيجِ بَنُو غِفَارٍ. قَالُوا: بَلْ أَنْتُمْ خَيْرٌ مِنْهُ، وَأَهْدَى سَبِيلا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١]، إِلَى آخِرِ الآيَةِ(٢).

وسيأتي الكلام على الجِبت والطاغوت في باب السحر، إن شاء الله - تعالى -.

---

(١) الكوماء هي: النَّاقة العظيمة السِّنام.

(٢) أخرجه سعيد بن منصور في سننه (٦٤٨)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٦٠٣)، والطبراني في «الكبير» (١١٦٤٥)، وفيه ضعف.

قال ابن قاسم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومطابقة الآية للترجمة: أنه إذا كان الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت؛ فهذه الأمة التي أوتيت القرآن لا يُستَنكر ولا يُستَبْعد أن تعبد الجبت والطاغوت؛ فإن الرسول ﷺ قد أخبر أن هذه الأمة ستفعل مثل ما فعلت الأمم قبلها»(١).

ooo

النص الثاني: قول الله - تعالى -: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠].

الخطاب للنبي ﷺ، وفيه أمر له أن يقول للمؤمنين: هل أخبركم بمن يُجازَى يوم القيامة جزاءً أشدَّ مِن جزاء هؤلاء الفاسقين؟ إنهم أسلافهم الذين طردهم الله من رحمته وغَضِب عليهم، ومَسَخَ خَلْقهم، فجعل منهم القردة والخنازير، بعصيانهم وافترائهم وتكبرهم، كما كان منهم عُبَّاد الطاغوت.

﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾، أي: وجعل منهم من عبد الطاغوت.

جاء في حاشية ابن قاسم: «ومطابقة الآية للترجمة: أنه إذا كان اليهود ممن عبد الطاغوت، فكذلك يكون في هذه الأمة»(٢).

---

(١) «حاشية كتاب التوحيد» ص ١٧٦.

(٢) المرجع السابق ص ١٧٧.

مسألة: هل المذكور في الآية هم القردة والخنازير الموجودة الآن؟

الجواب: لا. لحديث عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، الْقِرَدَةُ وَالْخَنَازِيرُ، هِيَ مِمَّا مُسِخَ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - لَمْ يُهْلِكْ قَوْمًا، أَوْ يُعَذِّبْ قَوْمًا، فَيَجْعَلَ لَهُمْ نَسْلًا، وَإِنَّ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ**»(١).

أي أن أولئك الممسوخين انقطع نسلُهم، أما هذه القردة والخنازير الموجودة فقد كانت موجودة قبل ذلك.

ooo

النص الثالث: قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾ [الكهف: ٢١].

وقد سبق الكلام على هذا النص بالتفصيل في شرح الباب السابق.

ooo

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٦٣).

النص الرابع: حديث أبي سعيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ**». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: «**فَمَنْ ؟**»(١).

قوله ﷺ: «**سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ**»، أي: طرقهم.

وقوله: «**حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ**»: القُذَّة، بضم القاف: واحدة القُذَذ، وهي ريش السهم، وهي متساوية لا تزيد واحدة على الأخرى. وهذا مبالغة منه ﷺ في البيان.

وهذا المعنى مؤكد بمؤكدات أربعة: الأول: القسم المقدر الذي دلَّت عليه اللام في «**لَتَتَّبِعُنَّ**»، وهذا فيه قسم تقديره «والله». **والثاني:** اللام في «**لَتَتَّبِعُنَّ**». **والثالث:** نون التوكيد الثقيلة. **والرابع:** التأكيد بالمثال في قوله ﷺ: «**حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ**».

قال ابن قاسم رَحِمَهُ اللَّهُ: «بيَّن ﷺ في هذا الحديث ونحوه: أن كل ما وقع من أهل الكتاب مما ذمهم الله به في هذه الآيات وغيرها لا بد أن يقع جميعه في هذه الأمة، وهذا اللفظ، وإن كان خبرا، فمعناه: النهي عن متابعتهم. وهذا من علامة نبوته ﷺ ومن معجزاته، فقد سلك كثير من أُمته مسلك اليهود والنصارى في إقامة سائر شعائرهم في الأديان، وفي عاداتهم من تعظيم القبور، واتخاذها مساجد حتى عبدوها، وإقامة الحدود والتعزيرات على الضعفاء دون

(١) تقدم تخريجه.

الأقوياء، وملابسهم ومراكبهم، والتسليم بالإشارة، واتخاذ الأحبار والرهبان أربابا، والإعراض عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والإقبال على كتب البدع والضلال، وغير ذلك مما نهى الله عنه»(١).

○○○

النص الخامس: حديث ثَوْبانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِيَ الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ. وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ. وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَلَّا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِيَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا**»(٢).

وَرَوَاهُ الْبَرْقَانِيُّ فِي صَحِيحِهِ، وَزَادَ: «**وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ، وَإِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمُ السَّيْفُ لَمْ يُرْفَعْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ، وَحَتَّى تَعْبُدَ فِئَامٌ مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانَ. وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي**

---

(١) «حاشية كتاب التوحيد» ص ١٧٨.

(٢) تقدم تخريجه.

كَذَّابُونَ ثَلَاثُونَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي. وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ مَنْصُورَةٌ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى -»[١].

قوله ﷺ: «**زَوَى لِيَ الْأَرْضَ**»: قال القرطبي: ظاهر اللفظ يقتضي أن الله قوَّى إدراك بصره، ورفع عنه الموانع المعتادة، فأدرك البعيد من موضعه، كما أدرك بيت المقدس من مكة، وأخذ يخبرهم عنه وهو ينظر إليه.

وقوله: «**وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ**»: عبَّر بالأحمر عن كنز قيصر؛ لأن الغالب عندهم الذهب، وبالأبيض عن كسرى؛ لأن الغالب عندهم الجوهر والفضة.

وقوله: «**بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ**»: هذه رواية في صحيح مسلم وغيره، وفي بعضها بحذفها، قال القرطبي: وكأنها زائدة؛ لأن عامة صفة السنة. والسنة: الجدب الذي يكون به الهلاك العام، ويسمى الجدب والقحط سنة، ويجمع على سنين كقوله: ﴿**وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ**﴾[الأعراف: ١٣٠] أي: الجدب المتوالي.

وعن خباب بن الأرت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاةً فَأَطَالَهَا، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّيْتَ صَلَاةً لَمْ تَكُنْ تُصَلِّيهَا! قَالَ: «**أَجَلْ إِنَّهَا صَلَاةُ رَغْبَةٍ وَرَهْبَةٍ؛ إِنِّي سَأَلْتُ اللَّهَ فِيهَا ثَلَاثًا، فَأَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ، وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً: سَأَلْتُهُ أَنْ لَا**

---

(١) تقدم تخريجها.

يُهْلِكَ أُمَّتِي بِسَنَةٍ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُذِيقَ بَعْضَهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ فَمَنَعَنِيهَا»[١].

وقوله ﷺ: «**وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ**»: قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هل المراد باللُّحوق هنا اللحوق البدني؟، بمعنى: أنه يذهب هذا الحي إلى المشركين ويدخلون فيهم، أو اللحوق الحكمي؟، بمعنى: أن يعملوا بعمل المشركين، أو الأمران معا؟ الظاهر أن المراد جميع ذلك»[٢].

والشاهد من الحديث قوله ﷺ: «**وَحَتَّى تَعْبُدَ فِئَامٌ مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانَ**»، ولفظُه في المسند وغيره: «**حَتَّى تَعْبُدَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانَ**»[٣].

قال ابن قاسم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفيه الرد على من أنكر وقوع الشرك وعبادة الأوثان في هذه الأمة»[٤].

* * *

---

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٢١٧٥) واللفظ له، والنسائي (١٦٣٨)، وأحمد (٢١٠٥٣)، وصححه الألباني. وله شاهد أخرجه مسلم (٢٨٩٠) من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) «القول المفيد» (١/ ٤٩٣).

(٣) أخرجه بهذا اللفظ: أبو داود في سننه (٤٢٥٢)، وابن ماجه (٣٩٥٢)، والطيالسي (١٠٨٤)، وأحمد (٢٢٣٩٥)، وغيرهم.

(٤) «حاشية كتاب التوحيد» ص ١٨٣.

٢٣- باب
ما جاء في السِّحر

وَقَوْلِ اللهِ - تَعَالَى -: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وقَوْلِه: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

قَالَ عُمَرُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «الْجِبْتُ: السِّحْرُ، وَالطَّاغُوتُ: الشَّيْطَانُ»(١).

وَقَالَ جَابِرٌ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «الطَّوَاغِيتُ: كُهَّانٌ كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ، فِي كُلِّ حَيٍّ وَاحِدٌ»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه معلقا مجزوما به، في (كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ ...﴾ [النساء: ٤٣])، ووصله سعيد بن منصور في سننه (٢٥٣٤). وقال الحافظ في «فتح الباري» (٨/ ٢٥٢): «إسناده قوي».

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه معلقا مجزوما به، في (كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ ...﴾ [النساء: ٤٣]). وقال الحافظ في «فتح الباري» (٨/ ٢٥٢): «وصله ابن أبي حاتم، من طريق وهب بن منبه».

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ**». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «**الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ**»[(١)].

وَعَنْ جُنْدَبٍ مَرْفُوعًا: «حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبُهُ بِالسَّيْفِ»[(٢)]. رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: الصَّحِيحُ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ.

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ بَجَالَةَ بْنِ عَبَدَةَ قَالَ: كَتَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ اقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ». قَالَ: فَقَتَلْنَا ثَلَاثَ سَوَاحِرَ[(٣)].

وَصَحَّ عَنْ حَفْصَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّهَا أَمَرَتْ بِقَتْلِ جَارِيَةٍ لَهَا سَحَرَتْهَا فَقُتِلَتْ»[(٤)].

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٢٧٦٦ و٦٨٥٧)، ومسلم (٨٩).

(٢) **صحيح موقوفا**: أخرجه الترمذي في سننه (١٤٦٠)، والحاكم في «المستدرك» (٨٠٧٣)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٦٦٥)، ولفظه: «**ضَرْبَةٌ بِالسَّيْفِ**»، وقال الترمذي: «الصحيح عن جندب موقوفا»، وضعَّف الألباني رفعه في «السلسلة الضعيفة» (١٤٤٦).

(٣) أخرجه الشافعي في مسنده، ترتيب السندي (٢٩٠)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٩٩٧٢)، وابن أبي شيبة (٢٨٩٨٢)، وآخرون. وصححه ابن حزم في المحلى (١١/٣٩٦). ولم أجده في البخاري بهذا اللفظ.

(٤) أخرجه مالك في «الموطأ» (٢/٨٧١-١٤) بلاغا، والشافعي في مسنده، ترتيب السندي (٢٩٠) موصولا، وعبد الرزاق في «المصنف» (١٨٧٤٧)، وابن أبي شيبة

وَكَذَلِكَ صَحَّ عَنْ جُنْدَبٍ[1].

قَالَ أَحْمَدُ: عَنْ ثَلَاثَةٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ.

* * *

(٢٧٩١٢)، وصححه ابن القيم في «زاد المعاد» (٥/ ٥٧).

(١) ينظر: «السنن الكبرى» للبيهقي (١٦٥٠١)، و«السنن» للدارقطني (٣٢٠٥).

٢٤- باب
بيان شيء من أنواع السِّحر

قَالَ أَحْمَدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا عَوْفٌ، عَنْ حَيَّانَ بْنِ الْعَلَاءِ، حَدَّثَنَا قَطَنُ بْنُ قَبِيصَةَ عَنْ أَبِيهِ: أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ الْعِيَافَةَ، وَالطَّرْقَ، وَالطِّيَرَةَ، مِنَ الْجِبْتِ**»[(١)].

قَالَ عَوْفٌ: الْعِيَافَةُ: زَجْرُ الطَّيْرِ، وَالطَّرْقُ: الْخَطُّ يُخَطُّ بِالْأَرْضِ، وَالْجِبْتُ: قَالَ الْحَسَنُ: رَنَّةُ الشَّيْطَانِ. إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ. وَلِأَبِي دَاوُدَ، وَالنَّسَائِيِّ، وَابْنِ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ، الْمُسْنَدُ مِنْهُ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ، فَقَدِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ، زَادَ مَا زَادَ**»[(٢)]. رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

---

(١) **ضعيف**: أخرجه أبو داود (٣٩٠٧)، وأحمد (١٥٩١٥و ٢٠٦٠٣)، والنسائي في «الكبرى» (١١٠٤٣)، وابن حبان (٦١٣١)، وضعفه الألباني والأرناؤوط.

وقوَّاه جماعة؛ كابن حبان، والنووي في «رياض الصالحين» (١٦٧٠).

(٢) **حسن**: أخرجه أبو داود (٣٩٠٥)، وابن ماجه (٣٧٢٦)، وأحمد (٢٠٠٠)، وحسنه الألباني، ولفظه عندهم: «**مَنِ اقْتَبَسَ عِلْمًا مِنَ النُّجُومِ...**».

وَلِلنَّسَائِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا، فَقَدْ سَحَرَ، وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ**»[1].

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**أَلَا، هَلْ أُنَبِّئُكُمْ مَا الْعَضْهُ؟ هِيَ النَّمِيمَةُ، الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ**»[2]، رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَلَهُمَا عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا**»[3].

* * *

(١) **ضعيف**: أخرجه النسائي في سننه (٤٠٧٩)، وفي «الكبرى» (٣٥٢٨)، والطبراني في «الأوسط» (١٤٦٩)، وضعفه الألباني.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٠٦).

(٣) أخرجه البخاري (٥١٤٦ و٥٧٦٧) من حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا. وهو عند مسلم (٨٦٩) من حديث عمار رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

٢٦- باب
ما جاء في النُّشرة

عَنْ جَابِرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عَنْ النُّشْرَةِ؟ فَقَالَ: «**هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ**»[١]، رَوَاهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ، وَأَبُو دَاوُدَ.

وَقَالَ: سُئِلَ أَحْمَدُ عَنْهَا؟ فَقَالَ: «ابْنُ مَسْعُودٍ يَكْرَهُ هَذَا كُلَّهُ»[٢].

وَفِي الْبُخَارِيِّ عَنْ قَتَادَةَ: قُلْتُ لِابْنِ الْمُسَيِّبِ: «رَجُلٌ بِهِ طِبٌّ، أَوْ يُؤَخَّذُ عَنِ امْرَأَتِهِ، أَيُحَلُّ عَنْهُ أَوْ يُنَشَّرُ؟ قَالَ: لَا بَأْسَ بِهِ؛ إِنَّمَا يُرِيدُونَ بِهِ الْإِصْلَاحَ. فَأَمَّا مَا يَنْفَعُ، فَلَمْ يُنْهَ عَنْهُ»[٣] انْتَهَى.

وَرُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَحُلُّ السِّحْرَ إِلَّا سَاحِرٌ»[٤].

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٣٨٦٨)، وأحمد (١٤١٣٥)، وصححه الألباني.

(٢) ينظر: «الآداب الشرعية» لابن مفلح (٣/ ٧٧).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه معلقا مجزوما به، في (كتاب الطب، باب هل يُستخرج السحر؟)، ووصله الطبري في «تهذيب الآثار»، وأبو بكر الأثرم كما في «تغليق التعليق» لابن حجر (٥/ ٤٩)، وصحح إسناده.

(٤) أخرجه الطبري في «تهذيب الآثار» بنحوه، كما في «تغليق التعليق» لابن حجر (٥/ ٤٩).

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ: «النُّشْرَةُ: حَلُّ السِّحَرِ عَنِ الْمَسْحُورِ، وَهِيَ نَوْعَانِ: حَلٌّ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ، وَهُوَ الَّذِي مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ، وَعَلَيْهِ يُحْمَلُ قَوْلُ الْحَسَنِ، فَيَتَقَرَّبُ النَّاشِرُ وَالْمُنْتَشِرُ إِلَى الشَّيْطَانِ بِمَا يُحِبُّ، فَيُبْطِلُ عَمَلَهُ عَنِ الْمَسْحُورِ. وَالثَّانِي: النُّشْرَةُ بِالرُّقْيَةِ وَالتَّعَوُّذَاتِ وَالْأَدْوِيَةِ وَالدَّعَوَاتِ الْمُبَاحَةِ، فَهَذَا جَائِزٌ»(١).

○○○

الشرح:

عقد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الأبواب الثلاثة، وكلُّها تتعلق بموضوع السحر: حقيقته، وأنواعه، وحُكمه، وأثره على التوحيد، ومتى يكون شركا مخرِجا عن الملة؟، ومتى لا يكون كذلك؟، وما علاجه؟.

وكان قبل «باب ما جاء في النُّشرة» باب آخر بعنوان: «باب ما جاء في الكُهَّان، ونحوهم»، فرأيت تأخيره؛ لشدَّة تعلُّق النُّشرة بأبواب السحر، وتعلُّق «باب ما جاء في الكُهَّان» بما بعده من أبواب، كما سيأتي بيانه، إن شاء الله – تعالى –.

والكلام على هذه الأبواب في الفصول الثلاثة التالية:

* * *

(١) «أعلام الموقعين» (٤/ ٣٠١).

الفصل الأول: مقصود الأبواب الثلاثة، وموضوعها العام

تجتمع هذه الأبواب الثلاثة لتقرير المقاصد الآتية:

أولا: بيان خطر السحر على التوحيد، وأن الساحر لا يصل إلى مطلوبه إلا بالشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثانيا: بيان أنواع السحر، وأثر كل منها.

ثالثا: الطريق الصحيح في علاج السحر لمن ابتُلِي به.

* * *

الفصل الثاني: المباحث الموضوعية

المبحث الأول: تعريف السحر:

السحر في اللغة: يطلق على معان؛ أشهرها:

أولا: ما لطُف مأخذه ودَقَّ، وخفِي سببُه.

ثانيا: يطلق على صرف الشيء عن حقيقته إلى غيره.

ثالثا: يطلق على إخراج الباطل في صورة الحق.

رابعا: على ما يجري مجرى التَّمويه والخداع[1].

- **وللسِّحر أسماءُ أخرى؛ أشهرها:**

أولا: العِضَه:

كما في حديث الباب: «**أَلَا، هَلْ أُنَبِّئُكُمْ مَا العَضْه؟ هِيَ النَّمِيمَةُ، القَالَة بَيْنَ النَّاسِ**»[2].

(١) وهناك معان أخرى تتبعتْها: حياة با أخضر في رسالتها «موقف الإسلام من السحر» ص٤ - ١٩.

(٢) تقدم تخريجه.

والعِضَه: هي السحر بلغة قريش، ويقولون للساحر: عاضِه. وسمي بذلك؛ لأنه كذبٌ وتخييل لا حقيقة له.

وجاء في تفسير القرطبي: «قال ابن مسعود: كنا نُسمِّي السِّحر في الجاهلية العِضَه. والعِضَه عند العرب: شِدَّةُ البُهت وتمويهِ الكذب. قال الشاعر:

أعــوذُ بربِّي من النَّــافِثا   تِ في عِضَهِ العاضِهِ المُعْضِهِ»[1].

ثانيا: التِّوَلَةُ:

وهو نوع من السحر، سبق في «باب ما جاء في الرقى والتمائم»، أنَّه: شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها، والرجل إلى امرأته.

ثالثا: الجِبْت:

يأتي بمعنى: الصنم، والساحر، والكاهن. وقد فسره عمرُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بالسحر، كما نقل المصنف.

- **وأمَّا السحر في الاصطلاح:** فقد عُرِّفَ بتعريفات كثيرة تزيد على العشرة[2]، وستأتي الإشارة إلى سبب ذلك. ومن تلك التعريفات، على سبيل المثال:

---

(١) تفسير القرطبي (٢/ ٤٤).

(٢) ينظر: «الحذر من السحر» الجريسي ص٧٩، و«موقف الإسلام من السحر» با أخضر ص٢١، وغيرهما.

١- عرَّفه الجَصَّاص، فقال: «السِّحر: كلُّ أمر خَفِي سببُه، وتُخُيِّل على غير حقيقته، ويجري مجرى التمويه والخداع»[١]. وتبعه الرازي على هذا التعريف[٢].

٢- وقريب منه ما نقله الإمام الطبري في تفسيره عن بعضهم قال: «هو خِدَع، ومخاريق، ومعان يفعلها الساحر، حتى يُخَيَّل إلى المسحور الشيءَ أنه بخلاف ما هو به؛ نظيرُ الذي يرى السراب من بعيد، فيخيل إليه أنه ماء، ويرى الشيء من بعيد فيثبته بخلاف ما هو على حقيقته»[٣].

٣- وعرفه المُوَفَّق ابن قدامة بقوله: «عزائمُ ورُقى وعُقَد تؤثر في الأبدان والقلوب، فيُمرِض، ويقتُل، ويُفَرِّق بين المرء وزوجه»[٤].

٤- وفي تفسير البيضاوي: «والمراد بالسِّحر: ما يُستعان في تحصيله بالتقرب إلى الشيطان مما لا يستقل به الإنسان. وذلك لا يستَتِبُّ إلا لمن يناسبه في الشرارة وخُبثِ النفس»[٥].

٥- وقال الآلوسي: «أمر غريب يشبه الخارِق وليس به؛ إذ يجري فيه التعلُّم، ويُستعان في تحصيله بالتقرُّب إلى الشيطان، بارتكاب القبائح: قولا؛

---

(١) «أحكام القرآن» (١/ ٥١).

(٢) ينظر: تفسير الرازي (٣/ ٦١٩).

(٣) تفسير الطبري (٢/ ٣٥٠).

(٤) «الكافي» (٤/ ١٦٤).

(٥) تفسير البيضاوي (١/ ٩٧).

كالرُّقى التي فيها ألفاظ الشرك ومدح الشيطان وتسخيره، وعملا؛ كعبادة الكواكب والتزام الجناية وسائر الفسوق، واعتقادا: كاستحسان ما يُوجِب التقرب إليه ومحبته إياه. وذلك لا يستتب إلا بمن يناسبه في الشرارة وخبث النفس»[1].

٦- وقال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «السِّحر في الشرع؛ ينقسم إلى قسمين:

الأول: عُقد ورُقى؛ أي: قراءات وطلاسم يتوصَّل بها الساحر إلى استخدام الشياطين فيما يريد به ضرر المسحور، لكن قد قال الله - تعالى -: ﴿**وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ**﴾[البقرة: ١٠٢].

الثاني: أدوية وعقاقير تؤثِّر على بدن المسحور وعقله وإرادته وميله؛ فتجده ينصرف ويميل، وهو ما يسمى عندهم بالصَّرْف والعَطْف»[2].

وذكَرَ أن الأول شرك، والثاني عُدوان وفسق.

- **ويرجع اختلاف عبارات العلماء في حدِّ السحر وضابطه إلى أمور؛ أهمُّها:**

أولا: الخلاف في السحر: هل له حقيقة أم لا؟

(١) «روح المعاني» (١/ ٣٣٨).

(٢) «القول المفيد» (١/ ٤٨٩).

ثانيا: والخلاف فيما يقع من جنس السِّحر - من حيث الخفاءُ واللُّطف والتأثير - بغير مكفِّر، هل يسمى سحرا في الشرع أم لا[1]؟

ولهذا نصَّ جماعة من أهل العلم على صعوبة ضبط السِّحر بتعريف جامع مانع:

قال الشافعي: «والسِّحر اسم جامع لمعان مختلفة»[2].

وقال القِرافي: «أطلق المالكية وجماعة معهم الكفر على الساحر، وأن السحر كفر، ولا شك أن هذا قريب من حيث الجُملة، غير أنه عند الفتيا في جزئيات الوقائع يقع فيه الغلَط العظيم المؤدِّي إلى هلاك المفتي، والسبب في ذلك أنه إذا قيل للفقيه: ما هو السحر، وما حقيقته؟ حتى يقضِي بوجوده على كفر فاعليه، يعسُر عليه ذلك جدا... »[3].

وقال: «الكتب الموضوعة في السِّحر وُضِع فيها هذا الاسم على ما هو كذلك كفر ومحرم، وعلى ما ليس كذلك، وكذلك السَّحَرة يطلِقُون لفظ السحر على القسمين: فلا بد من التعرض لبيان ذلك ...»[4].

---

(١) وسيأتي مزيد بيان لذلك عند الكلام على مسألة «كفر الساحر»، إن شاء الله - تعالى -.

(٢) «الأم» (١/ ٢٩٣).

(٣) «الفروق» (٤/ ١٣٥).

(٤) المرجع السابق (٤/ ١٣٧). وانظر بقية كلامه. وقد عقد للجواب فصلا، عنون له بقوله: «الفرق الثاني والأربعون والمائتان بين قاعدة ما هو سحر يكفر به، وبين قاعدة ما ليس كذلك».

وقال التهانَوي: «لم يصل إليَّ تعريفٌ يعوَّل عليه في كتب الفقه»[1].

وقال الشنقيطي: «اعلم أن السحر في الاصطلاح لا يمكن حَدُّه بحدٍّ جامع مانع؛ لكثرة الأنواع المختلفة الداخلة تحته، ولا يتحقق قدرٌ مشترَك بينها يكون جامعا لها مانعا لغيرها. ومن هنا اختلفت عبارات العلماء في حَدِّه اختلافا متباينا»[2].

• **قلتُ: ولعلَّ الأقربَ في حدِّ السحر وضابطه، أن يُقال:** هو السعي في التأثير على الغير بأمر خفِي يُشبِه الخارق للعادة، بعمل مكفِّر.

ويكون ذلك غالبا عن طريق عزائم ورقى وعُقد يُنفَثُ فيها، أو كتابة طلاسم يُتوصل بها إلى استخدام الشياطين فيما يريد السحرة، مقابل كفرهم بالله - تعالى -.

فجملةُ: «**السعي في التأثير على الغير**»: هذا التأثير يشمل ما كان فيه ضرر، وما ليس فيه ضرر، كما في سحر التخييل. يعني التأثير على الناظر والرائي، كما حصل من سحرة فرعون.

وقيد التعريف: «**بأمر خَفِي**»؛ لأن مبني السحر على الخفاء، وهذا أصل معناه في اللغة.

(١) «كشَّاف اصطلاحات الفنون» ص٩٣٥.

(٢) «أضواء البيان» (٤/ ٤١).

وقيد: «**يُشبِه الخارق للعادة**»؛ لأنهم يأتون بأشياء مخاريق، وأمور غريبة، وما إلى ذلك. ولهذا اعتنى العلماءُ ببيان الفروق بين السِّحر وبين الكرامة والمُعجزة.

فالمُعجزة (آيات الأنبياء): ما يأتي به النبَّي، مما يكون على وجه التَّحدي.

والكرامة: ما تظهر على يد الولي الصالح.

والسِّحر: ما يكون على يد الفُسَّاق المردة.

وقولنا: «**بعمل مُكَفِّر**»: هذا ضابط للسحر؛ لأن الساحر لا يتوصل إلى سحره إلا بعملٍ مُكفِّر.

فالسِّحر الاصطلاحي يكون الكفرُ والشرك بوَّابة له؛ لأجل الحصول على هذه الخوارق؛ لأن السحر فيه استخدام للشياطين، وهذه الشياطين لا تَخدِم حتى تُخدَم، كما قال تعالى: ﴿**وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا**﴾ [الأنعام: ١٢٨]، فكل من الجن والإنس استمتع بالآخر؛ فالجن استمتعت بالإنس: بالتَّقرب إليهم وصرف شيء من أنواع العبادات. والإنس استمتعوا من الجن بهذه الخدمة وقضاء الحاجات.

ولهذا؛ فإنَّه ينبغي على طالب العلم عامة، وطالب علم التوحيد خاصة، أن يَحْذَر ويُحَذِّر غاية الحَذَر والتَّحذِير من وباء السحر، الذي هو سُم زعاف في

جسد التوحيد؛ فإنه ما انتشر في بلد أو في جماعة إلا كان كالآفة والدودة السوداء التي تنْخَر في جسد التوحيد الصحيح.

تنبيه:

يجب التأنِّي في الحُكم على فعل ما بأنه سحر؛ لأن الأثر المترتب على ذلك كبير وخطير من جهة الحكم الديني، والعقوبة الدنيوية. وقد يقع بعض التعجُّل في إطلاق الحكم بالسِّحْر على فعل ما لوجه من المُشابهة، وهذا مما يؤكد أهمية تحرير ضابط السحر وحَدِّه.

ونحن نرى في الواقع ما يسمى بـ «السِّيرك»، والأعمال البهلوانية المقترنة بخفة اليد، وبعض الخدع والتمويهات البصرية، والحِيَل العلمية، والخدع «السينمائية»، ونحو ذلك، مما لا ينبغي إطلاق القول فيها إلا بعد فهم صورتها، وتحرير معنى السحر، والنظر في اندراجها فيه من عدمه.

ooo

المبحث الثاني: مبدأ السحر[1]:

السِّحر قديم جدا، وقد اتُّهم كثير من أنبياء الله ورسله بالسِّحر: كصالح، وشعيب، وموسى، وعيسى، ومحمد - عليهم الصلاة والسلام -؛ مما يدل على اشتهاره قديما.

---

(١) ينظر: «موقف الإسلام من السحر» با أخضر ص٦١، و«عالم السحر» للأشقر ص١٥.

قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

ومعنى الآية - كما في «التفسير الميسر» -: أن اليهود اتَّبعوا ما تُحَدِّث الشياطينُ به السحرَةَ على عهد مُلْكِ سليمان بن داود عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وما كفر سليمانُ وما تعلَّم السحر، ولكنَّ الشياطين هم الذين كفروا بالله حين علَّموا الناسَ السحر؛ إفسادا لدينهم. وكذلك اتبع اليهودُ السحرَ الذي أُنزِل على الملكين هاروت وماروت، بأرض بابل في العراق؛ امتحانا وابتلاء من الله لعباده، وما يُعَلِّم الملكان من أحد حتى ينصحاه ويحذراه من تعلُّم السحر، ويقولا له: لا تكفر بتعلم السحر وطاعة الشياطين.

وقد ورد في بعض الآثار أن هاروت وماروت كانا حين بُدِئ الخلق، والله أعلم متى كان تعليمهما السحر ببابل؟.

وعلَّق ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ على هذه الآية، فقال: «وفي هذه الآية بيان أصل السِّحْر الذي يعمل به اليهود، ثم هو مما وضعته الشياطين على سليمان بن داود

عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ومما أنزل على هاروت وماروت بأرض بابل، والثاني متقدِّم العهد على الأول؛ لأن قصة هاروت وماروت كانت من قبل زمن نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على مَا ذكر ابن إسحاق وغيرُه»[1].

وقد ذكر بعض أهل العلم في سبب نزول هذه الآية: أن سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أخذ كتب السحر من الشياطين، ودفنها تحت كرسيِّه، والشياطين لا يستطيعون أن يقتربوا من كرسيه، فلما مات سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ جاءت الشياطين واستخرجت هذه الكتب ونشرتها بين الناس، وقالوا: هذا الذي كان سليمان يُسخِّر به الجِنَّ والإنس والدواب؛ لأن الله - عزَّ وجلَّ - سخَّر له الإنس والجِنَّ والدَّوابَّ والريح، فاعتقد اليهود وأهل الكتاب الذِين أخذوا هذا السحر أن سليمان ساحر. وهذا وجه المناسبة من ذكر سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في هذه الآية؛ ولهذا فإنَّ اليهود - إلى الآن - يعتقدون أن سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ساحر، فأنزل الله - تعالى - هذه الآية تكذيبًا لهم، قال: ﴿**وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُواْ**﴾ [البقرة: ١٠٢].

إشكال وجوابه:

كيف يقع تعليم السحر من مَلَكَينِ، والسِّحرُ كُفر كما دلت الآية، والملائكة معصومون لا يعصون الله ما أمرهم؟

---

(١) «فتح الباري» (١٠/ ٢٢٣).

الجواب: أنهما ممتثلان لأمر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في ذلك؛ فهما مُكلَّفان طائعان، وتعليمُهما السحر من باب الفتنة والاختبار، بعد البيان والتحذير، وهذا من مواضع الامتحان أن يتيسر للعبدِ المعصيةُ، ويكون الوصول إليها قريبا منه.

وهذا الأمر خاص بهما؛ فلا يجوز لأحد أن يُعَلِّم السحر اقتداءً بالملَكَينِ.

ooo

المبحث الثالث: أنواع السحر:

ضبطُ أنواع السحر من المواضع المشكِلة؛ لكثرة أنواعه وتداخلها، وقد سبق من كلام أهل العلم ما يؤيِّد ذلك.

وقد اشتهر عن الرازِي تقسيمُه السحرَ إلى ثمانية أقسام؛ ذكرها وعلَّق عليها ابنُ كثير في تفسير الآية الثانية بعد المئة من سورة «البقرة»[1]، والشنقيطي في تفسير الآية التاسعة بعد الستين من سورة «طه»[2]، وزاد أقساما أخرى.

قال ابن كثير عقبها: «وإنما أدخل كثيرا من هذه الأنواع المذكورة في فَنَّ السحر، لِلَطافة مداركِها؛ لأن السحر في اللغة: عبارة عما لطُف وخَفِي سببُه.

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢٥١-٢٥٥).

(٢) ينظر: «أضواء البيان» (٤/ ٤١-٤٩).

ولهذا جاء في الحديث: «**إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا**»(١). وسُمِّي السُّحور؛ لكونه يقع خفِيًّا آخر الليل»(٢).

قلتُ: وبعد التأمل ظهر لي أن السحر ثلاثة أنواع رئيسة:

النوع الأول: السحر الشركي:

وهو السِّحر الذي يستلزم الإشراك بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ كالاستعانة بالشياطين، والتقرب إليهم، ونحو ذلك.

ولهذا النوع صور؛ منها:

١- السحر بواسطة الكواكب ونحوها:

وكان مشتهرا عند الكِلدانيين والبابليين والصابئة؛ كانوا يعتقدون إلهية الكواكب، ويصرِفُون لها شيئا من العبادة. ومنهم الذين بعث إليهم الخليل إبراهيم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ.

وهو يقوم على تسخير روحانية الكواكب والأفلاك، واستنزال قواها بالتقرب لها؛ حيث يعتقدون أن هذه الكواكب هي المُدَبِّرة للعالم وما يحدث فيه من خير وشر؛ ولذلك اتخذوا لكل كوكب هيكلا خاصا وصنما معينا.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٣٧١).

فيقومون بعمل رُقى وعزائم، أو تماثيل وصور، مع الدُّخُون، وفيها تضرع وطلب من الكواكب بالغرض المطلوب.

ولكل كوكب طريقة وشروط خاصة حتى يتم تسخيرُه بما يراد منه، فصَّلها الرازي في بعض كتبه.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وذلك أن النجوم التي من السِّحر نوعان:

أحدهما: علمِيٌّ، وهو: الاستدلال بحركات النجوم على الحوادث، من جنس الاستقسام بالأزلام.

الثاني: عمَلِيٌّ، وهو: الذي يقولون: إنه تخريج القوى السماوية بالقوى المنفعلة الأرضية، كطلاسم ونحوها، وهذا من أرفع أنواع السحر»(١).

٢- السحر بواسطة الشياطين:

ويكون ذلك بالتقرُّب إليهم بأمر كفري؛ لكي يخدمون الساحر فيما يريد من التأثير.

قال تعالى: ﴿**وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ**﴾ [الأنعام: ١٢٨]، وقد سبق الإشارة إلى معنى الآية، وذكر علماء التفسير أن استمتاع الجن بالإنس: بعبادتهم إياهم بالذبائح والنذور والدعاء، وأن استمتاع الإنس بالجن: قضاء حوائجهم التي يطلبونها منهم، وإخبارهم

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ١٧١).

ببعض المغيبات التي يطلع عليها الجن في بعض الجهات النائية، أو يسترقونها من السمع أو يكذبونه، وهو الأكثر.

النوع الثاني: السحر الفِسْقي:

وهو السحر الذي يكون بمحرَّم لا يصل إلى الكفر. كاستعمال بعض الأدوية والعقاقير، ونحوها في التأثير.

جاء في «تيسير العزيز الحميد»: «وأما سحر الأدوية والتدخين ونحوه: فليس بسحر، وإن سُمِّي سحرًا، فعلى سبيل المجاز كتسمية القول البليغ والنميمة سِحرًا، ولكنه يكون حراما لمضرته، يُعَزَّرُ من يفعله تعزيرا بليغا»[1].

النوع الثالث: السحر المجازي:

وهو ما سمي سحرا لمشابهته معنى السحر في اللغة، ويختلف حكمُه من صورة لأخرى. **ومن صُوره:**

١- النميمة:

عن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**أَلَا، هَلْ أُنَبِّئُكُمْ مَا العَضْهُ؟ هِيَ النَّمِيمَةُ، الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ**»[2]؛ لأن النَّمام يسعى في الإفساد على وجه خفِي لطيف.

---

(١) «تيسير العزيز الحميد» ص٣٢٧.

(٢) تقدم تخريجه.

٢- البيان:

كما جاء في الحديث الذي أورده المؤلف، وهو قوله ﷺ: «**إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا**»(١).

ووجه عَدِّه سِحْرا ما له من عظيم الأثرِ؛ فكما أن السِّحر يؤثر في الإنسان، فكذلك البيان. وأكثر الناس إذا سمعوا متحدِّثا فصيحا بليغا، ينتقي العبارات وينَمِّق الكلمات، ويختار التراكيب القوية والعبارات الجزلة، فإنه يؤثر فيهم تأثيرا خفِيًّا من حيث لا يشعرون.

وبيَّن العلماء أن وصف البيان بالسِّحر يحتمل أن يكون في مقام المدح، أو في مقام الذم.

فيكون في مقام الذَّم: إذا اشتمل على تصوير الباطل في صورة الحق، والتَّفَيْهُق والتَّشَدُّق، وهذا مذموم؛ لأن بعض الناس يُعطيه الله لسانًا كالسيف، لكنه يُسخِّرُ هذه النِّعمة في الباطل، فيبدأ يُنافح عن الباطل وأهله، ويحُطُّ من الحق وأهله.

ويكون في مقام المدح إذا استُعمِل البيان في إحقاق الحقِّ، وإبطال الباطل، ونشر الخير، والتَّحذِير من الشَّر.

---

(١) تقدم تخريجه.

٣- العِيافَة، والطَرْق، والطِيَرَة:

عن قَطَن بن قَبِيْصَة عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ الْعِيَافَةَ، وَالطَّرْقَ، وَالطِّيَرَةَ، مِنَ الْجِبْتِ**»(١).

فهذه شبيهة بالسِّحر من جهة التأثير في النفس تأثيرا خفيًّا.

٤- التخييل، والخداع البصري المبنيان على خفة اليد:

مِثل من يدير ثلاث زجاجات في الهواء بسرعة وخفة؛ بحيث تبدو للناظر كأنها واحدة.

فهذا إذا لم يكن فيه استعمال لشياطين ولا أشياء محرمة، فهذا قد يُسمى سحرا مجازا، لا اصطلاحا.

وقد يكون التخيِيل سحرا شركيا، إذا كان فيه استعانة بالشياطين أو برُقى وعزائم شركية تؤثر على الرائي.

جاء في تفسير البيضاوي: «وأما ما يُتعجَّب منه - كما يفعله أصحاب الحِيل بمعونة الآلات والأدوية، أو يريه صاحبُ خفة اليد - فغير مذموم، وتسميته سحرًا على التجوز، أو لما فيه من الدقة؛ لأنه في الأصل لما خفِي سببه»(٢).

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تفسير البيضاوي (١/ ٩٧).

- والسِّحر عند الإطلاق ينصرف إلى النوع الأول (الشركي)، وهو المقصود هنا.

ooo

المبحث الرابع: صفة الساحر، ووسيلته في السحر:

يتصف الساحر بصفات منها:

أولا: أن نفسه خبيثة لتلائم نفس الشيطان.

ثانيا: الاستعداد لارتكاب القبائح عُرفا وشرعا؛ ليتحقق له معونة الشياطين فيما يريد، ومن أعظمها الكفر بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ. ويفعلون في ذلك فظائع؛ كالذبح لغير الله، وإهانة المصحف برميه في القاذورات، أو كتابة كلام الله بالنجاسة كدم الحيض!.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والإنسان إذا فسدت نفسُه أو مزاجه يشتهي ما يضرُّه ويلتذ به؛ بل يعشق ذلك عشقا يفسد عقله ودينه وخلقه وبدَنَه وماله. والشيطان هو نفسُه خبيث، فإذا تقرب صاحب العزائم والأقسام وكُتُبِ الروحانيات السحرية وأمثال ذلك إليهم بما يحبونه من الكفر والشرك، صار ذلك كالرِّشوة والبِرْطِيلِ لهم فيقضون بعض أغراضه»(١).

ثالثا: الاعتماد على السرية والخفاء في عمل السحر.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٩/ ٣٤).

- **وأما وسيلة الساحر في السحر والتأثير – بإذن الله – فهي متعددة؛ منها:**

أولا: رقى وعزائم:

وهي خطوط أو كلمات مجهولةُ المعنى وفق ترتيب معين، وتتضمن هذه الرقى والعزائم في كثير من الأحيان طلاسم، ويزعمون أنهم يتوصلون بهذه الطلاسم إلى القُدرة على التأثير. وقد تتضمن تلك الرُّقى والعزائم بعض الآيات والأدعية.

وتُكتب تلك الرقى والعزائم في سطور كالكتابة المعتادة، وقد تكتب على شكل هندسي.

وتؤدَّى تلك الرُّقى بطريقة خاصة لكي يحصل بها التأثير.

ثانيا: عُقَد يَنفُثُ فيها الساحر:

قال تعالى: ﴿**وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ**﴾ [الفلق: ٤]، وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا، فَقَدْ سَحَرَ، وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ**»(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ، في تأويل آية سورة «الفلق»: «النفاثات – هنا – هُنَّ الأرواح والأنفس النفاثات لا النساء النفَّاثات؛ لأن تأثير السحر إنما هو من

---

(١) تقدم تخريجه.

جهة الأنفس الخبيثة والأرواح الشريرة، وسلطانُه إنما يظهر منها؛ فلهذا ذكرت النفاثات هنا بلفظ التأنيث دون التذكير»[١].

فالساحر ينفث على كل عقدة حتى ينعقد ما يريد من السحر.

والنَّفْثُ هو: النفخ مع ريق، وهو دون التَّفْل، فهو مرتبة بين النفخ والتفل.

ثالثا: أخذ أشياء من متعلقات المسحور؛ كشعره وظفره:

وهذا يقع كثيرا من الخدم أن يوجد معها شيء من شعر أهل البيت، تُرسِلُه إلى الساحر ليعمل السحر، وله نظائر قديمة، ستأتي الإشارة إليها، إن شاء الله - تعالى -.

وفي الحديث أن النبي ﷺ سُحِر في مُشْط ومُشَاطَة.

والمُشاطَة: الشَّعر الذي يسقط من الرأس واللحية عند ترجيلهما بالمُشط.

رابعا: إعطاء الشخص المراد سَحْره مأكولا أو مشروبا:

يقرأ الساحر عليه طلاسَمه، ويُبخِّرُه ببخور عنده في ساعة يعرفها مناسبة لعمله، ثم يحاول إطعامه أو سقايته لمن يريد سَحْره.

خامسا: أمور حسابية وفلكية دقيقة:

ولهم في ذلك جداول مقررة بالغة في الدقة يَحكُمُون بها - بزعمهم - من خلال حساب حروف الاسم، واسم الأم، وزمن الولادة، ومكانها.

---

(١) «بدائع الفوائد» (٣/ ٣٢٠).

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «**مَنِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ، فَقَدِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ، زَادَ مَا زَادَ**»(١).

وعلى كُلِّ حال؛ فالسحر لا يقع إلا بإذن الله الكونِيِّ؛ فهو أمر أُذِن به قدرا، لكن لم يُؤذنْ به شرعا، كما قال الله - تعالى - عن السَّحَرة: ﴿**وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ**﴾ [البقرة: ١٠٢].

ooo

المبحث الخامس: حكم السحر تعلُّما، وتعليما، وعملا:

سبق أن السحر أنواع: منه الشركي الكفري، ومنه ما دون ذلك. **ولذا فإنَّ حكمه يرجع إلى نوعه:**

- **فإن اشتمل سحر الساحر على مُكفِّر فإنه يكفر به. ومن صور ذلك:**

أولا: صرف شيء من أنواع العبادة لغير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، من الجن والشياطين؛ كالدعاء والاستغاثة والذبح ونحوها.

ثانيا: اعتقاد شيء من خصائص الربوبية في غير الله - تعالى -. كمن يعتقد القدرة المطلقة أو علم الغيب أو شفاء المرضى، ونحو ذلك في مخلوق من المخلوقات.

---

(١) تقدم تخريجه.

ثالثا: الإتيان بما يخرج من الدين من قول أو فعل أو اعتقاد؛ كمن يسب الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، أو رسوله ﷺ، أو دينه، أو يهين المصحف بوضعه تحت قدمه أو رميه في قاذورة أو كتابته بنجاسة!.

قال أبو حيان: «وأما حكم السحر، فما كان منه يُعظَّم به غير الله من الكواكب والشياطين، وإضافة ما يُحدِثُه اللَّه إليها، فهو كفر إجماعا، لا يحل تعلُّمه ولا العملُ به»(١).

- **ومن الأدلة على كفر مرتكب هذا النوع:**

أولا: قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلْأٓخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌۚ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٠٢ - ١٠٣].

ويُستدل بهذه الآيات على كفر الساحر من وجوه:

(١) «البحر المحيط» (١/ ٥٢٦).

١- قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾؛ فظاهر هذا أنهم إنما كفروا بتعليمهم السحر؛ لأن ترتيب الحكم على الوصف يشعر بعلِّيَّتِه، والآيةُ صرَّحت بكون كفر الشياطين منوطا بتعليم السحر للناس.

٢- قولُه تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾، يعني من حظ ولا نصيب.

قال الشيخ حافظ الحكمي معلقا على الآية: «وهذا الوعيد لم يطلَق إلا فيما هو كفر لا بقاء للإيمان معه، فإنه ما من مؤمن إلا ويدخل الجنة، وكفى بدخول الجنة خلاقا، ولا يدخل الجنة إلا نفس مُؤمنة»[1].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾.

قال الجصَّاص - معلِّقا على الآية -: «فجعل ضِدَّ هذا الإيمان فعلَ السحر؛ لأنه جعل الإيمان في مقابلة فعل السِّحر، وهذا يدل على أن الساحر كافر. فإذا ثبت كفرُه، فإن كان مسلما قبل ذلك، فقد كفر بفعل السحر، فاستحق القتل»[2].

---

(١) «معارج القبول» (٢/ ٥٥٤).

(٢) «أحكام القرآن» (١/ ٦٤). وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٣٦٥): «وقد استدل بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ ...﴾ من ذهب إلى تكفير الساحر».

وقال الحكَمِي - عن هذا الدليل -: «وهذا من أصرح الأدلة على كفر الساحر، ونفي الإيمان عنه بالكلية؛ فإنه لا يُقال للمؤمن المتقي: (ولو أنه آمن واتقى)، وإنما قال تعالى ذلك لمن كفر وفجر، وعمل بالسحر، واتبعه، وخاصم به رسوله، ونبذ الكتاب وراء ظهره»[1].

ثانيا: قوله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه:٦٩]:

قال الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُه تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿**وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ**﴾ الآيةَ؛ يعمُّ نفيَ جميع أنواع الفلاح عن الساحر، وأكَّد ذلك بالتعميم في الأمكنة بقوله: ﴿**حَيْثُ أَتَىٰ**﴾، وذلك دليل على كفره؛ لأن الفلاح لا ينفى بالكلية نفيا عامًّا إلا عمَّن لا خير فيه، وهو الكافر»[2].

ثالثا: أن النبي ﷺ قرن السِّحر بالشرك، وفي بعض الأحاديث سماه شركا، وحكم ﷺ بالكفر على من أتى ساحرا فصدَّقه، كما تبرأ ﷺ مِن الساحر والمسحور:

فعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ**». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «**الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ ...**»[3] الحديث.

---

(١) «معارج القبول» (٢/ ٥٥٤).

(٢) «أضواء البيان» (٤/ ٣٩).

(٣) تقدم تخريجه.

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ الرُّقَى، وَالتَّمَائِمَ، وَالتِّوَلَةَ، شِرْكٌ**»[1].

والتِّوَلةُ: ضَرب من السحر. قال الأصمعي: وهو الذي يحبِّبُ المرأة إلى زوجها.

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**مَنْ أَتَى عَرَّافًا أَوْ سَاحِرًا أَوْ كَاهِنًا فَسَأَلَهُ فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ**»[2].

وعن عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطُيِّرَ لَهُ، أَوْ تَكَهَّنَ أَوْ تُكُهِّنَ لَهُ، أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ ...**»[3] الحديث.

رابعا: أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أمروا بقتل أولئك السحرة: وقد تقرر شرعا أن دماء المسلمين محظورة إلا ما استثناه الشرع بقوله ﷺ: «**لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ**»[4].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) سيأتي تخريجه، بإذن الله - تعالى -.

(٣) **صحيح**: أخرجه البزار (٣٥٧٨)، والطبراني في «الكبير» (٣٥٥)، وقال الألباني في «الصحيحة» (٢١٩٥): صحيح بمجموع طرقه.

(٤) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وليس الساحر زانيا محصَنا، ولا قاتلَ نفس، فتعيَّن أن يكون كافرا مرتدا.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أكثر العلماء على أن الساحر كافر يجبُ قتله، وقد ثبت قتلُ الساحر عن عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وحفصة بنت عمر، وعبد الله بن عمر، وجندب بن عبد الله ...»[(١)].

خامسا: أن السحر الكفري لا يخلو من أمرٍ مكفر؛ إما قولي، أو فعلي، أو اعتقادي: وقد سبقت الإشارة إلى أمثلة على ذلك.

أمَّا عن حُكم تعلُّمِه وتعليمه:

قال ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تعلُّم السحر وتعليمه حرام، لا نعلم فيه خلافا بين أهل العلم»[(٢)].

قال تعالى: ﴿**وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ**﴾، وقال: ﴿**وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ**﴾، فكيف يجوز تعلُّم ما هو ضرر محض لا نفع فيه؟! ثم إن تعلُّمَه وسيلة إلى فعله، والوسائل لها أحكام المقاصد.

ooo

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٩/ ٣٨٤).

(٢) «المغني» (١٠/ ١٠٤).

المبحث السادس: السحر بين الحقيقة والخيال:

السحر له حقيقة وتأثير حسِي، لكن بإذن الله القدري، قال تعالى: ﴿**وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ**﴾. وهذا مذهب جماهير العلماء سلفا وخلفا.

قال الشيخ حافظ حكمي:

والسِّحر حقٌّ ولهُ تأثيرُ لكِنْ بما قدَّره القَدِيرُ[1]

والدليل على ذلك:

أولا: قول الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿**وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ**﴾ [الفلق: ٤]، أي: السواحر أو الأنفُس الخبيثة اللَّاتي يعقِدن في سحرهن، وينفُثن عليه. ولولا أن السحر له حقيقة لما أمر الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ بالاستعاذة منه.

ثانيا: قوله تعالى: ﴿**يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦ**﴾، فالأثر هنا واضح، حصل به التفريق بين المرء وزوجه، فهو يؤثِّر في الأبدان، ويؤثر في القلوب؛ فيُمرِض ويقتُل، ويفرق بين المرء وزوجه.

---

(١) «سلم الوصول»، مع «معارج القبول» (٢/ ٥٤٣).

ثالثا: وفي الصحيحَينِ أنَّ النبي ﷺ سُحِر، حتى كان يُخيَّل إليه أنه يأتي الشيء ولم يفعله[1]. وهذا يدل على أن له حقيقة وتأثيرا.

رابعا: قوله ﷺ: «**مَنْ تَصَبَّحَ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعَ تَمَرَاتٍ عَجْوَةً، لَمْ يَضُرَّهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمَ سُمٌّ وَلَا سِحْرٌ**»[2]، فأثبت أنَّ السِّحر يضُرُّ. وهذا يدُلُّ على أن له تأثيرا وحقيقة.

تنبيه:

إثبات حقيقة السحر وتأثيره لا يعني نفيَ التخييل عنه، بل منه ما يكون حقيقة، ومنه ما يكون تخييلا في النَّظرِ، كما قال تعالى: ﴿**يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ**﴾ [طه: ٦٦].

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وجمهور علماء الأمة على إثبات السحر وأن له حقيقة كحقيقة غيره من الأشياء الثابتة، خلافا لمن أنكر ذلك ونفى حقيقته، وأضاف ما يقع منه إلى خيالات باطلة لا حقائق لها»[3].

ooo

(١) يأتي تخريجه بعد قليل، إن شاء الله - تعالى -.

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٥٤٤٥) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٠٤٧).

(٣) شرح النووي على مسلم (١٤/ ١٧٤).

المبحث السابع: مسائل وفوائد:

- **المسألة الأولى: هل ثبت أن النبي ﷺ سُحِر؟ وهل يؤثر ذلك على مقام النبوة؟**

الجواب: نعم. ثبت ذلك في الصحيحين من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُحِرَ، حَتَّى كَانَ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ صَنَعَ شَيْئًا وَلَمْ يَصْنَعْهُ»[(١)].

وفي الحديث أن الذي سحَرَهُ لبيدُ بن الأعصم[(٢)].

وقد تلقَّى ذلك أهلُ السنة بالقبول.

إشكال:

أورد البعضُ إشكالا حول الحديث، خلاصته: كيف يُسحر النبي ﷺ وهو معصوم، وهو المبلغ عن الله، وهل يؤثر ذلك على مقام النبوة والرسالة؟

الجواب: أنَّ ذلك لا يؤثر على مقامه، وليس كما ظنَّه بعض الناس أنه نقصٌ وعيب، بل هو من جنس ما يعتري الأنبياء وغيرهم من الأسقام والأوجاع، فهو مرض من الأمراض، فإصابته بالسحر كإصابته بالسُّمِّ، وغاية ما أثَّر ذلك «كَانَ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ صَنَعَ شَيْئًا وَلَمْ يَصْنَعْهُ» وفي بعض الروايات: «سُحِرَ، حَتَّى كَانَ يَرَى

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣١٧٥) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢١٨٩).

(٢) ينظر: صحيح البخاري (٣٢٦٨) وبقية أطراف الحديث، وصحيح مسلم (٢١٨٩).

أَنَّهُ يَأْتِي النِّسَاءَ وَلا يَأْتِيهِنَّ»[١]، فليس في هذا ما يؤثِّر على مقام النبوة وجناب الرسالة؛ لأنه ﷺ معصوم، والإجماع دالٌّ على ذلك. وغاية ما هنالك أنه أثر عليه في بعض أمور دنياه التي لا علاقة لها بتبليغ الرسالة وبيان أمور الدين.

فالحديث صحيح ولا يؤثِّر على مقام النبوة، والله - تعالى - قد عصم نبيه ﷺ قبلَ السِّحر، وأثناءه، وبعده.

وكما أن الإنسان الصالح يُبتلى بالأمراض، فالسحر من جملة الأمراض، والنبي ﷺ - وهو أفضل الخلق - سُحِر، وكذلك عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وهي من خِيرة نساء العالمين سُحِرت، سحرتها جارية لها، كما جاء في مسند أحمد بسند صحيح[٢].

وسُحِرت حفصة بنت عمر، زوج النَّبي ﷺ، سحرتها أيضا جارية لها[٣].

فالبلوى في هذا الباب من الخدم قديمة.

- **المسألة الثانية: حدود قدرة الساحر، وهل يقع بالسحر انقلاب عين؟**

إذا تقرر أن السحر له حقيقة وتأثير؛ فإنه يرد هنا سؤال: ما هي حدود عمل الساحر وقدرته؟ هل تأثيره مطلق؟ فيستطيع أن يقلب الأعيان، ويحول

---

(١) ينظر: صحيح البخاري (٥٧٦٥).

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد (٢٤١٢٦)، وعبد الرزاق في «المصنف» (١٦٦٦٧)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١٦٢)، والحاكم في «المستدرك» (٧٥١٦) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، وصححه الألباني في تحقيق «الأدب المفرد».

(٣) تقدم تخريجه.

الإنسان إلى قرد، مثلا. وهل يستطيع أن يطير في الهواء، أو أن يمشي على الماء؟ وما حدود قدرته وتأثيره؟.

والجواب عن هذه المسألة التي خاض فيها الناس، وارتبكت فيها الأفهام، يحتاج إلى تحرير محل النزاع؛ ببيان محل الاتفاق والاختلاف في هذه المسألة:

أولا: القدر الذي يبلغه الساحر بلا خلاف:

مثل: التَّفريق بين الزوجين، والمرض الذي يصيب المسحور من السِّحر، ونحو ذلك، فهذا لا إشكال أنه يصل إلى هذا القدر من التأثير.

ثانيا: القدر الذي لا يبلغه الساحر بلا خلاف:

مثل: إحياء الموتى؛ فلا يمكن لإنسان مات أبوه أن يأتي إلى ساحر، ويقول: أحْيِهِ لي بما شئت من المال. وكذا لا يمكن أن يبلغ عملُ الساحر وقدرته ما كان من جنس آيات الأنبياء؛ كفلق البحر وقلب العصا.

ثالثا: القدر الوسط بين الأمرين السابقين:

مثل قلب الأعيان؛ كأن يقلب الإنسان حيوانا، والحيوان إنسانا، أو أن يطير في الهواء، أو أن يصغِّر الحجم، حتى يدخل - مثلا - من فتحة الباب، ونحو ذلك من الأمور، فهذا محلُّ خلافٍ بين أهل العلم، بعضُهم يثبتُ هذا، وبعضهم لا يثبتُه.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «محل النزاع: هل يقع بالسحر انقلاب عين أو لا؟ فمن قال: إنه تخييل فقط؛ منع ذلك. ومن قال: إن له حقيقة؛ اختلفوا: هل له تأثير فقط، بحيث يغير المزاج فيكون نوعا من الأمراض، أو ينتهي إلى الاحالة بحيث يصير الجماد حيوانا مثلا وعكسه.

فالذي عليه الجمهور هو الأول، وذهبت طائفة قليلة إلى الثاني. فإن كان بالنظر إلى القدرة الإلهية فمُسَلَّم، وإن كان بالنظر إلى الواقع فهو محل الخلاف فإن كثيرا ممن يدعي ذلك لا يستطيع إقامة البرهان عليه»[1].

قال الشيخ الشنقيطي: «أما بالنسبة إلى أن الله قادر على أن يفعل جميع ذلك، وأنه يسبب ما شاء من المسببات على ما شاء من الأسباب، وإن لم تكن هناك مناسبة عقلية بين السبب والمسبب .. فلا مانع من ذلك.

وأما بالنسبة إلى ثبوت وقوع مثل ذلك بالفعل، فلم يقم عليه دليل مقنع؛ لأن غالب ما يستدل عليه به قائله حكايات لم تثبت عن عدول، ويجوز أن يكون ما وقع منها من جنس الشعوذة، والأخذ بالعيون، لا قلب الحقيقة - مثلا - إلى حقيقة أخرى. وهذا هو الأظهر عندي»[2].

---

(١) «فتح الباري» (١٠/ ٢٢٢).

(٢) «أضواء البيان» (٤/ ٥٩).

يعني أن يكون من باب التخييل وليس من باب الحقيقة، فيُخيَّل للناس في العين كما خَيَّل سحرة فرعون لموسى، فصار يخيل إليه أن هذه العِصِي صارت ثعابين تسعى، فهو من قبيل التخْييل.

وقرر الأشقر: أن المسألة راجعة إلى قُدرة الشياطين؛ لأن الساحر يتوصل إلى هذه الأمور الخارقة بمعونة الشياطين، فما كان داخلا تحت قدرتهم فيمكن للساحر أن يفعله، وما لا فلا[1].

ومما ورد في قدرة الشيطان:

١- **النزيف الذي يصيب المرأة، وهو ما يعرف بـ«الاستحاضة»**: كما جاء في حديث حَمْنَةَ بنت جحشٍ رَضِيَٱللَّهُعَنهَا قالت: قلتُ: يَا رَسُول الله، إِنِّي امْرَأَة أُسْتَحَاضُ حَيْضَةً كَثِيرَة شَدِيدَة فَمَا تَرَى فِيهَا؟ قَد مَنَعَتْنِي الصَّلَاةَ والصَّومَ ... الحديثَ، وفيه قوله ﷺ: «**إِنَّمَا هَذِهِ رَكْضَةٌ مِنْ رَكَضَاتِ الشَّيْطَان**»[2].

---

(١) ينظر: «عالم السحر» ص١٤، وتفسير ابن كثير (١/ ٣٦١).

وجاء في «شرح فتح المجيد» للشيخ الغنيمان (٤/٧٣ الشاملة): «السِّحر الذي له حقيقة ليس معناه - كما يقول بعض الناس - إنه قد يغير الأعيان ويقلبها من عين إلى عين أخرى، هذا لا يمكن؛ لأنه لو كان هذا لكان السحرة ملوك الدنيا، وأغنياء الخلق».

(٢) **حسن**: أخرجه أبو داود (٢٨٧)، والترمذي (١٢٨)، وابن ماجه (٦٢٢)، وحسنه الألباني.

وفي الصحاح للجوهري: «الرَّكْضُ: تحريك الرِّجل. ومنه قوله تعالى: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ [ص: ٤٢]»(١).

وهذا يفيد أن الشيطان يصل إلى رحم المرأة، وجاء عن مجاهد قال: «إذا جامع الرجل أهله ولم يسمِّ انطوى الجانُّ على إحليله فجامع معه، فذلك قوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٥٦]»(٢).

ولا مانع أن يكون له أثرٌ فيما تعانيه بعض النساء من الإسقاط المتكرِّر الذي لا يُعرف سببُه عند الأطباء، أو التأثير في منع حصول الحمل! فعن أسماءَ بنت أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: أَنَّهَا حَمَلَتْ بِعَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ بِمَكَّةَ، قَالَتْ: فَخَرَجْتُ وَأَنَا مُتِمٌّ - أي قد تمَّ حملُها - فَأَتَيْتُ الْمَدِينَةَ فَنَزَلْتُ قُبَاء فَوَلَدْتُ بِقُبَاء، ثُمَّ أَتَيْتُ بِهِ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَوَضَعْتُهُ فِي حَجْرِهِ، ثُمَّ دَعَا بِتَمْرَةٍ فَمَضَغَهَا، ثُمَّ تَفَلَ فِي فِيهِ فَكَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ دَخَلَ جَوْفَهُ رِيقُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، ثُمَّ حَنَّكَهُ بِالتَّمْرَةِ، ثُمَّ دَعَا لَهُ فَبَرَّكَ عَلَيْهِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَوْلُودٍ وُلِدَ فِي الإِسْلامِ، فَفَرِحُوا بِهِ فَرَحًا شَدِيدًا؛ لأَنَّهُمْ قِيلَ لَهُمْ: إِنَّ الْيَهُودَ قَدْ سَحَرَتْكُمْ فَلا يُولَدُ لَكُمْ(٣).

٢- مرض الطاعون:

---

(١) «الصحاح» (٤/٢١٦).

(٢) تفسير الطبري (٢٣/٦٥).

(٣) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٥٤٦٩)، ومسلم (٢١٤٦) بدون الجزء الأخير.

عن أبي موسى الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**فَنَاءُ أُمَّتِي بِالطَّعْنِ والطَّاعُونِ**». فَقِيلَ: يَا رَسُول اللّهِ، هَذَا الطَّعَن قَد عَرِفْنَاه، فَمَا الطَّاعُون؟ قَال: «**وَخْزُ أَعْدَائِكُمْ مِنَ الْجِنِّ، وَفِي كُلٍّ شُهَدَاءُ**»(١).

وجاء في «آكام المرجان»: «قال ابن الأثير: الوخْز: طعنٌ ليس بنافذ. والشيطان له ركض، وهمز، ونَفث، ونفخ، ووخز»(٢).

٣- التأثير على العين بخروج السوائل:

عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: أَنَّ عبد اللهِ بنَ مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ رَأَى فِي عُنُقِها خَيطًا، قَالَ: مَا هَذَا الْخَيْطُ؟ قَالَتْ: قُلْتُ: خَيْطٌ أُرْقِيَ لِي فِيهِ، قَالَتْ: فَأَخَذَهُ فَقَطَعَهُ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ آلَ عَبْدِ اللهِ لَأَغْنِيَاءُ عَنِ الشِّرْكِ! سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ الرُّقَى، وَالتَّمَائِمَ، وَالتِّوَلَةَ، شِرْكٌ**». قَالَتْ: فَقُلْتُ لَهُ: لِمَ تَقُولُ هَذَا، وَقَدْ كَانَتْ عَيْنِي تَقْذِفُ، فَكُنْتُ أَخْتَلِفُ إِلَى فُلَانٍ الْيَهُودِيِّ يَرْقِيهَا، وَكَانَ إِذَا رَقَاهَا سَكَنَتْ؟! قَالَ: إِنَّمَا ذَلِكَ عَمَلُ الشَّيْطَانِ؛ كَانَ يَنْخُسُهَا بِيَدِهِ، فَإِذَا رَقَيْتِهَا كَفَّ عَنْهَا! إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكِ أَنْ تَقُولِي كَمَا قَالَ رَسُولُ

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (١٩٥٢٨) وفي مواضع أخرى، والحاكم (١٥٨) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه»، وصححه الألباني.

(٢) «آكام المرجان في أحكام الجان» ص١٦٨.

اللهِ ﷺ: «**أَذْهِبِ الْبَاسَ، رَبَّ النَّاسِ، اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا**»[١].

وقولها: «عَيْنِي تَقْذِفُ»، أي: ترمي بما يهيِّج الوجع من الدمع أو الرَّمَص، وهو ما جمد من الوسخ في مؤخر العين[٢].

فهذا يدل على أن للشيطان قدرةً على التأثير على بدن الإنسان.

وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَحْضُرُ أَحَدَكُمْ عِنْدَ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ شَأْنِهِ** ...»[٣].

ооо

المبحث الثامن: صور السحر (أنواعه):

أنواع السحر وآثاره كثيرة، لكن أشهر صوره وأنواعه أربعة:

الأول: سحر التفريق:

وهو ما يُسمى بالصَّرْف. وهذا الصرف يسعى فيه الساحر إلى التفريق بين اثنين متحابين، وأكثر ما يقع ذلك بين المرء وزوجه. وهذا منصوص عليه في

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ينظر: «عون المعبود» مع حاشية ابن القيم (١٠/ ٢٦٣).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٠٣٣).

قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦ**﴾ [البقرة: ١٠٢]. وربما يقع التفريق بين الأم وابنها، وبين الأخ وأخيه، وبين الصَّديق وصديقه، ونحو ذلك. وهذا من أحب الأشياء إلى إبليس.

فعن جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ، فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا، قَالَ ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ، قَالَ: فَيُدْنِيهِ مِنْهُ، وَيَقُولُ: نِعْمَ أَنْتَ**»(١).

وهذا النوع من الأنواع المنتشرة بين الأزواج، ومنه ما يكون حسيًّا، وما يكون معنويًّا، وقد يكون بالأمرين جميعا.

فأما الحسيُّ؛ فمعناه: أن يُصْرَف الرجل عن امرأته، فلا يستطيع إتيانها ومعاشرتها. ويكون معها في غير ذلك على الوجه المعتاد، فيجالسُها ويؤاكِلُها ويتحدث معها، ويسافر معها، لكن في ذلك الأمر الخاص لا يقدر عليه.

ويسميه بعضهم «الرَّبْطُ»، أي يُربط الرجل عن زوجِه.

وأما المعنوي؛ فالمراد به: أن يشعُر أحد الزوجين نحو الآخر بنُفرة وكُرهٍ، فلا يطيق الجلوس أو الحديث معه، وهذه النُّفرة والبغض تكون دون سبب واضح. فهذا فيه إشارة إلى أن الشقاق راجع إلى سحر.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨١٣).

النوع الثاني: سحر العَطْف:

وهو مقابل للنوع الأول، ويُسمى سِحر المحبَّة، ومنه التِّوَلة الواردة في الحديث. وهذا يلجأ إليه بعض الناس في جذب مَن يراد محبته وتعلقه. وتقع فيه بعض النساء من فرط حبها لزوجها؛ أو غيرتها عليه، أو خوفها من الانصراف عنها، أو حين يتزوج عليها، فتعمل له السحر الذي يؤثر فيه حتى يكون كـ«الخاتم في يدها»!.

وأصل الغيرة طبيعية في المرأة، لكن المحظور أن تتجاوز الحد إلى الوقوع في مثل هذه الموبقة العظيمة: السحر، فهذه كبيرةٌ لا تُعذر فيها.

النوع الثالث: سحر الأمراض:

حيث يلجأ الساحر بعمله إلى التسبب بإيقاع المرض بهذا المسحور، وهذا مثل ما وقع للنَّبي ﷺ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن سحر النبي ﷺ: «هو من جنس ما كان يَعتَريه ﷺ من الأسقام والأوجاع، وهو مرض من الأمراض، وإصابتُه به كإصابته بالسُّمِّ لا فرقَ بينهما»[1].

النوع الرابع: سحر الوهم والتخييل:

---

(١) «زاد المعاد» (٤/ ١٢٤).

وهو الوارد في قوله تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦]، فهو عبارة عن خيال ووهم ليس له حقيقة[١].

ooo

المبحث التاسع: علاج السحر:

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الوقاية من السحر قبل وقوعه:

وهي التحصينات التي تقي الإنسان من السحر؛ ومنها:

أولا: التوحيد:

وهو من أعظم التحصينات القوية المانعة - بإذن الله - من ضرر السِّحر، قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨١]، وقال عن الشيطان: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩- ١٠٠].

---

(١) جاء في «فتح الباري» لابن حجر (١٠/ ٢٢٥): «هذه الآية عُمدة من زعم أن السحر إنما هو تخييل، ولا حُجة له بها؛ لأن هذه وردت في قصة سَحَرة فرعون، وكان سحرهم كذلك، ولا يلزم منه أن جميع أنواع السحر تخييل».

فكلما كان قلبُ العبد محقِّقا للتوحيد ممتلئا به، كان ذلك أكبر حصن من كيد الشيطان بالسحر وغيره.

ثانيا: الأذكار:

وهي سبب قوي في منع وقوعِ أثر السِّحر وضرره، ومما يُنصح به على وجه الخصوص: أن يواظب العبد على مئة تهليلة كل يوم، لما جاء في الحديث أنه ﷺ قال: «**مَنْ قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» فِي يَوْمٍ مِئَةَ مَرَّةٍ، كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَ لَهُ مِئَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِئَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنْ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ. وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ، إِلَّا رَجُلٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْهُ**»[1].

ثالثا: التصبح بسبع تمرات:

لما جاء في قوله ﷺ: «**مَنْ تَصَبَّحَ بِسَبْعِ تَمَرَاتٍ عَجْوَةً لَمْ يَضُرَّهُ ذَلِكَ الْيَوْم سُمٌّ وَلَا سِحْرٌ**»[2].

رابعا: الصدَّقة:

فالصدقة لها أثر عظيم، وجاء في الحديث أنه ﷺ قال: «**ما يُخْرِجُ رَجُلٌ شَيْئًا مِنَ الصَّدَقَةِ حَتَّى يَفُكَّ عَنْهَا لَحْيَيْ سَبْعِينَ شَيْطَانًا**»[1].

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣٢٩٣) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٦٩١).

(٢) تقدم تخريجه.

خامسا: المواظبة على الصلوات في أوقاتها بخشوع، ولا سيما صلاة الصبح:

عن جُنْدَب بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «**مَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللهِ، فَلَا يَطْلُبَنَّكُمُ اللهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ فَيُدْرِكَهُ، فَيَكُبَّهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ**»[٢].

سادسا: الدعاء:

فالدعاء سبب قوي - بإذن الله - في حماية الإنسان من كيد الشيطان وتأثيره، وشواهد ذلك أكثر من أن تُحصى، وقد تقدَّم كثير منها.

سابعا: حفظ الجوارح من المعاصي:

فإذا حفظ الإنسان جوارحه، حفظه الله، وفي الحديث أنَّ النبي ﷺ قال: «**احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ**»[٣]. فمن حفِظ الله في حدوده، حفِظَه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من شر الأشرار ومن كيد الفجار.

ثامنا: التوكل على الله:

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٩٦٢)، والحاكم (١٥٢١) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه»، وابن خزيمة (٢٤٥٧)، وقال الأعظمي: «إسناده ضعيف: الأعمش مدلس، قال عنه أبو معاوية في هذا الحديث: ما أراه سمعه منه».

و«**لَحْيَي**»: مثنى لَحْي؛ وهما: منبِت اللحية من الإنسان وغيره، أو العظمان اللذان فيهما الأسنان.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٦٥٧).

(٣) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد (٢٦٦٩)، وصححه الألباني.

وهو أحد أعمال القلوب العظيمة، وقد أشاد به اللهُ - تعالى - في كتابه في مواضع كثيرة، وأفرده الشيخُ بباب مفرد يأتي لاحقا، إن شاء الله - تعالى -.

تاسعا: القوة في الدين، وصدق الإيمان واليقين:

فلا يكون الإنسانُ مائعا رخوًا في دينه، وإنما يكون قويَّ القلب، ثابت النفس. وكلما صلُب المرء في دينه كان ذلك أقوى لقلبه، وأثبت، وأشجع، وكان ذلك - أيضا - أمنع له من تسلُّل الشيطان إليه، قال ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيْفِ**»[1].

المطلب الثاني: علاج السحر بعد وقوعه:

إذا وقع السِّحر، ونزل البلاء، فيوصَى المبتلى بأمور؛ منها:

أولا: الرُّقى والتعاويذ:

وهذه سبب عظيم في علاجه وفكِّه بإذن الله - عزَّ وجلَّ -، لكن هذه الرقى والأدعية كالسلاح، وقوة السلاح بحسب ضاربه[2].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٦٤).

(٢) قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الجواب الكافي» ص٩: «الأذكار والآيات والأدعية التي يُستشفى بها ويُرقى بها، هي في نفسها نافعة شافية، ولكن تستدعي قبول المحل، وقوة همة الفاعل وتأثيره، فمتى تخلف الشفاء كان لضعف تأثير الفاعل، أو لعدم قبول المنفعل، أو لمانع قوي فيه يمنع أن ينجع فيه الدواء».

فلو أن شيخا كبيرا ترتعش يداه أعطيناه سيفا صقيلا حادا؛ فلن يؤثر ضربُه إلا قليلا. وكذلك الأدعية والرُّقى المأثورة إذا صدرت عن قلب ضعيف الإيمان واليقين؛ فلن يكون أثرها قويا، بخلاف من قرأها بإقبال وتعلق وتضرع وافتقار ويقين بأن الله – تعالى – هو النافع الضار الشافي.

ثانيا: استخراج السحر وإبطاله:

وهو من أعظم ما يُعالَج به السحر إذا عُلِم مكانه. فيسعى في البحث عنه واستخراجه، وقد يكون عُقَدًا فتُستَخْرج وتفك العقد، وقد يكون أوراقًا مطوية بطريقه معينة، وقد يكون شَعرا أو آثارا من بدن الإنسان، المهم إذا عُرف هذا السحر فإنه يُستخرج ويبطل.

وهذا ما وقع للنَّبي ﷺ؛ فإنهم استخرجوا ذلك السحر من بئر، ووجدوه في مُشط ومُشَاطَة، كما جاء في الحديث[١]، فلما استُخرِج ذهب ما به.

ثالثا: استعمال الأدوية المباحة:

ومن ذلك – وهو علاج نافع للرجل إذا حُبِس عن جماع أهله –: أن يأخذ سبع ورقات من السِّدر الأخضر فيدقها بحجر ونحوه، ويجعلها في إناء ويصب عليها من الماء ما يكفيه للغسل، ويقرأ فيها «آية الكرسي»، و﴿**قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ**﴾، و﴿**قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ**﴾، و﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ**﴾،

(١) تقدم تخريجه.

و﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، وآيات السحر التي في سورة الأعراف، وهي قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ١١٧ فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١١٨ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ١١٩ وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ١٢٠ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧-١٢١].

والآيات التي في سورة يونس، وهي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ٧٩ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ٨٠ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٨١ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [يونس: ٧٩- ٨٢].

والآيات التي في سورة طه، وهي قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ٦٥ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ٦٦ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ٦٧ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٦٨ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٥-٦٩]. وبعد أن يقرأ في الماء ما ذُكِر، يشرب بعض الشيء ويغتسل بالباقي وبذلك يزول الداء، إن شاء الله - تعالى-.

رابعا: التَّداوي بالحجامة:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أثناء كلامه على علاج السحر: «النوع الثاني: الاستفراغ في المحل الذي يصل إليه أذى السحر؛ فإن للسحر تأثيرا في الطبيعة، وهيجان أخلاطها، وتشويش مزاجها. فإذا ظهر أثره في عضو، وأمكن استفراغ المادة الرديئة من ذلك العضو نفع جدا. وقد ذكر أبو عبيد في كتاب «غريب الحديث» له بإسناده عن عبد الرحمن بن أبي ليلى أن النبي ﷺ احتجم على رأسه بقرن حين طُبَّ. قال أبو عبيد: معنى طُبَّ، أي: سُحِر»[1].

وقال: «... فهذه عشرة أسباب يندفع بها شر الحاسد والعائن والساحر، وليس له أنفع من التوجه إلى الله، وإقباله عليه، وتوكله عليه، وثقته به ...»[2].

المطلب الثالث: علاج السحر بسحر مثله:

أفرد الشيخ هذه المسألة بباب مفرد، فقال: «باب ما جاء في النُّشرة». والنُّشْرَة: هي حَلُّ السِّحر.

وهي نوعان:

الأول: حَلُّ السحر بالرُّقى والأدعية المشروعة. وهو المشروع.

والثاني: حَلُّ السحر بسحر مثله. وهو الممنوع.

---

(١) «زاد المعاد» (٤/ ١١٣). وينظر: «غريب الحديث» للقاسم بن سلام (٢/ ٤٣).

(٢) «بدائع الفوائد» (٣/ ٣٦٠).

ومن الأدلة على منعه:

أولا: قوله تعالى: ﴿**وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ**﴾ [البقرة: ١٠٢]، فصرَّحت الآية بأن السحر ضرر محضٌ، ولا يتأتَّى منه نفع، فكيف يُنتَفع بهذا السحر في الدَّواء والعلاج؟!.

ثانيا: قوله تعالى: ﴿**وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ**﴾ [طه:٦٩]، وهذا يفيد العموم كما سبق، فكيف يرجى الفلاح ممن نُفِي عنه الفلاح في كتاب الله؟!.

ثالثا: وعن جابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قالَ: سُئِلَ رسولُ اللَّهِ ﷺ عنِ النُّشرةِ، فقال: «**هُوَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ**»(١). فكيف يسلُك المسلم مسالك الشيطان؟!.

رابعا: أن علاج السحر بالسحر يستلزم الذهاب إلى الساحر وسؤاله؛ لأجل أن يبطل السحر الأول، والساحر من جنس الكاهن، وقد قال ﷺ: «**مَنْ أَتَى عَرَّافًا أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ فِيمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ**»(٢)، وجاء عن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بسند صحيح أنه قال: «**مَنْ أَتَى عَرَّافًا أَوْ ساحِرًا أَوْ كاهِنًا فَسَأَلَهُ فَصَدَّقَهُ بِما يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِما أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ**»(٣).

وهذا عليه جماهير أهل العلم سلفا وخلفا، وعليه الفتوى.

ooo

(١) تقدم تخريجه.

(٢) سيأتي تخريجه، بإذن الله – تعالى –.

(٣) تقدم تخريجه.

المبحث العاشر: عقوبة الساحر:

وهذه المسألة أشار إليها الشيخ في ثنايَا هذه الأبواب، ونقل بعض الآثار الواردة في عقوبة الساحر.

وأهل العلم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ لهم قولان في هذه المسألة:

الأول: أن الساحر يُقتل مطلقا.

الثاني: أن الساحر لا يُقتل بمجرد السحر، وإنما بحسب نوع سحرهِ؛ فإن كان في سحره ما هو كفرٌ فإنه يُقتل، وإلا فيُعزَّر.

ويشبه أن يكون الخلاف في هذه المسألة لفظيا، فهو عائدٌ إلى ضابط السِّحر وحقيقته؛ فإن قلنا إن السحر لا يكون إلا بمُكَفِّر؛ فمآل هذا القول أن الساحر كافر، والكافر يقتل رِدَّةً.

ومن الأدلة على أنه يُقتل:

أولا: قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ**﴾ [البقرة: ١٠٢]، والسَّاحر كافر، وإذا ثبت أنه كافرٌ، فإنَّه يُقتل لقوله ﷺ: «**مَنْ بدَّلَ دِيْنَهُ فَاقْتُلُوهُ**»(١).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٠١٧).

ثانيا: حديث جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبي ﷺ قال: «**حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبُهُ بِالسَّيْفِ**»(١).

ثالثا: عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كتب إلى عُمَّالِهِ: «**أَنِ اقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ**»(٢).

وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ له سُنة متبعة، كما قال ﷺ: «**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي**»(٣).

رابعا: عن حفصة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قتلت جاريةً لها سحرتها.

وجاء هذا عن غيرهم من السلف(٤).

وأُورِد على هذا القول حديثُ النَّبي ﷺ: «**لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ**»(٥). قالوا: الساحر ليس واحدا من هؤلاء الثلاثة، فكيف يباح دمه؟.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢)، وصححه الألباني.

(٤) ينظر تخريج آثار الباب.

(٥) تقدم تخريجه.

الجواب: أن السِّحر لا يكون إلا بعد الكُفر والشرك بالله، فيدخل السَّاحر في قوله: «**التَّارِكُ لِدِيْنِهِ**»، وقد تقدَّم بيان ذلك.

* * *

فهـرس
موضوعات الجزء الأول

●●●

شرح
كتاب التوحيد

للشيخ الدكتور

خالد بن عبد العزيز الباتلي

الأستاذ المساعد بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

نسخة معتمدة من الشيخ – حفظه الله –.

النشرة الأولى || رجب ١٤٣٨ هـ

الجزء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

٢٥- باب
ما جاء في الكهان ونحوهم

رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ فَصَدَّقَهُ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا**»(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ**»(٢). رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.

وَلِلْأَرْبَعَةِ وَالْحَاكِمِ - وَقَالَ: «صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِهِمَا» -، عَنْ [أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]: «**مَنْ أَتَى عَرَّافًا أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ**»(٣).

وَلِأَبِي يَعْلَى بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ مِثْلُهُ مَوْقُوفًا(٤).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٣٠)، وأحمد (١٦٦٣٨) واللفظ له.

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٣٩٠٤) بلفظ مقارب، وانظر الحديث التالي.

(٣) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٣٩٠٤)، والترمذي (١٣٥)، وابن ماجه (٦٣٩). وأخرجه النسائي في «الكبرى» (٨٩٦٨)، والحاكم في «المستدرك» (١٥)، واللفظ له، وصححه الألباني.

(٤) **صحيح**: أخرجه الطيالسي في مسنده (٣٨١)، وأبو يعلى (٥٤٠٨)، والطبراني في «الكبير» (١٠٠٠٥). وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٤/٩٠): إسناده جيد، وقال الألباني في

وَعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطُيِّرَ لَهُ، أَوْ تَكَهَّنَ أَوْ تُكُهِّنَ لَهُ، أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ، وَمَنْ أَتَى كَاهِنًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ**»(١). رَوَاهُ الْبَزَّارُ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ.

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ - بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ - مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ، دُونَ قَوْلِهِ: «**وَمَنْ أَتَى ...**» إِلَى آخِرِهِ(٢).

ooo

«صحيح الترغيب والترهيب» (٣/ ٩٨): صحيح موقوف، ومثله له حكم الرفع.

(١) **صحيح**: أخرجه البزار في مسنده (٣٥٧٨)، والطبراني في «الكبير» (٣٥٥)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢١٩٥).

(٢) **حسن**: أخرجه الطبراني في الأوسط (٤٢٦٢)، وقال المنذري في «الترغيب والترهيب»: إسناده حسن.

٢٨- باب
ما جاء في التنجيم

قَالَ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ: قَالَ قَتَادَةُ: «خَلَقَ اللَّهُ هَذِهِ النُّجُومَ لِثَلَاثٍ: زِينَةً لِلسَّمَاءِ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ، وَعَلَامَاتٍ يُهْتَدَى بِهَا. فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا غَيْرَ ذَلِكَ، أَخْطَأَ وَأَضَاعَ نَصِيبَهُ، وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ»(١). انْتَهَى.

وَكَرِهَ قَتَادَةُ تَعَلُّمَ مَنَازِلِ الْقَمَرِ، وَلَمْ يُرَخِّصِ ابْنُ عُيَيْنَةَ فِيهِ. ذَكَرَهُ حَرْبٌ عَنْهُمَا(٢). وَرَخَّصَ فِي تَعَلُّمِ الْمَنَازِلِ أَحْمَدُ وَإِسْحَاقُ(٣).

وَعَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ: مُدْمِنُ الْخَمْرِ، وَقَاطِعُ الرَّحِمِ، وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحْرِ**»(٤). رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ.

ooo

(١) أخرجه البخاري في صحيحه معلقا في (كتاب بدء الخلق، باب في النجوم)، ووصله أبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١٢٢٦).

(٢) ينظر: «مسائل حرب الكرماني» ، رقم (١٣١٠، و١٣١١).

(٣) ينظر: المرجع السابق، رقم (١٣٠٥).

(٤) **ضعيف**: أخرجه أحمد في «المسند» (١٩٥٦٩)، وابن حبان في صحيحه (٥٣٤٦ و٦١٣٧)، والحاكم في «المستدرك» (٧٢٣٤). وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (١٤٦٣)، وقال الأرناؤوط: إسناده ضعيف.

٢٩- باب
ما جاء في الاستسقاء بالأنواء

وَقَوْلِ اللهِ - تَعالَى -: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢].

وَعَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ بِالْأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ**». وَقَالَ: «**النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا، تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ، وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ**»(١). رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَلَهُمَا عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: «**هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟**» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمَ. قَالَ: «**قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ؛ فَأَمَّا مَنْ قَالَ: «مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ»، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: «مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا»، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ**»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٩٣٤).

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٨٤٦) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٧١).

وَلَهُما مِنْ حَدِيْثِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَعْناهُ، وَفِيْهِ: «**وَقالَ بَعْضُهُمْ: لَقَدْ صَدَقَ نَوْءُ كَذَا وَكَذا**» قالَ: فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿**فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ** ...﴾[الواقعة: ٧٥]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿**تُكَذِّبُونَ**﴾[الواقعة: ٨٢].

ooo

الشرح:

هذه الأبواب الثلاثة لم تأت متتابعة في الكتاب، كما سبق الإشارة إليه. لكن نظرا لاشتراكها في وحدة موضوعية واحدة، فسوف نشرحها معا، بإذن الله - تعالى -.

* * *

الفصل الأول: مقصود الأبواب الثلاثة، وموضوعها العام

هذه الأبواب الثلاثة تُقرِّر أمرين مهمين، لا بُد أن تَغرِسَها في سُوَيْدَاء قلبك، أيها الموحِّدُ، وتَعَضَّ عليها بالنواجذ:

الأول: إفراد الله وحده بعِلم الغيب، والتحذيرُ من دعوى مشاركة أحد لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في ذلك، وبيانُ أن ذلك هَضْمٌ لجناب الربوبية.

الثاني: إفراد الله وحده بالتدبير والتصرف في الكون؛ بإحياء الموتى، وإنزال المطر، ونحو ذلك. وأن أحدا من الخلق لا يملك ذلك، لا النجوم ولا غيرها.

فهذه الأبواب الثلاثة متعلقة بمقام توحيد الربوبية بالدرجة الأولى.

* * *

الفصل الثاني: المباحث الموضوعية

المبحث الأول: إفراد الله بالخلق، والتدبير، وعلم الغيب:

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: إفراد الله بالخلق والتدبير:

الله جَلَّجَلَالُهُ قد فطر الخلق على الإقرار بربوبيته، والاعتراف بأنه لا خالق ولا رازق ولا مدبِّر في هذا الكون إلا هو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وأنه لا نافع ولا ضارَّ ولا مانع ولا مُعطِي إلا بإذنه، والقلوب مفطورةٌ على ذلك، كما قالت الرسل -عليهم السلام -: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠]، بل كان المشركون الأوائل مقرِّين بهذا: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس: ٣١].

فهم كانوا مُقرِّين بهذه الأمور في الجُملة: إفراد الله بالخلق، والرِّزق، والتدبير، والتَّصرف في الكون، وكانت الخصومة معهم في قضية إفرادِ الله بالعبادة وحده لا شريك له.

وقد يقع الشرك بالله - تعالى - في جانب الخلق والتدبير، بأن يعتقد المرء أن ثمَّة موجودا غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقدر على الخلق، والتصرُّف في الكون، والإحياءِ، والإماتة، وشفاء المرضى، وإنزال المطر، ونحو ذلك.

فهذا الاعتقاد شركٌ بالله - جلَّ وعلا - في أمر من خصائصه التي انفرد بها، وهي القدرةُ على الخلق والتدبير، والتصرف في الكون.

ومن الأدلة على ذلك قوله - جلَّ وعلا -: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢]، وقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال - أيضا -: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [يونس: ٣].

وقال سبحانه - يَعِيب على أولئك المشركين -: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣].

ومفهوم الآية: أن الذي يملك هذه الأشياء هو المُستحق للعبادة، وهذا فيه إشارة إلى كمال الرب سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فتدبير أمر الكون قضية عظيمة إذا تغَلْغَلَت في القلب أثمرت تعظيم الله – جلَّ وعلا –، واستحضار أن هذا الكون الفسيح من المجرة إلى الذَّرة كله يسير بتدبير الله – جلَّ وعلا –، فهو يسير في نظام محكم متقن.

وما أجمل أن يُغرَس هذا المعنى في نفوس الصغار؛ لأن هذه المعاني إذا غُرِست في نفس الصغير تنفعه بإذن الله، وتبني فيه البناء الإيماني الذي نحتاجه في هذه الأزمنة – أزمنة الفِتن –؛ لأنك لا تستطيع أن تراقبه ليلا ونهارا، وإنما تغرس فيه ما يسمى بـ«الرقابة الذاتية».

فالرقابة الذاتية: أن تملأ قلبه بتعظيم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وأن بيده التدبير، والتصرف، والخلق، ونحو ذلك من المعاني السابقة.

وما أجمل حديثَ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لمَّا علَّمه النَّبي ﷺ فقال: «**يَا غُلَامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ. وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ**

بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ»(١).

إذا تقرر هذا الأمر، فيَرِد سؤال، وهو: هل وقع شركٌ في هذا النوع من التوحيد؟

الجواب: نعم.

ومن صور ذلك:

الصورة الأولى: عبادة الكواكب، والشمس، والقمر:

فالذين عبدوها اعتقدوا فيها التأثير؛ فهم يعتقدون أن هذه الكواكب مؤثِّرة بذاتها، وأنها تملِك العِلَّة الفاعلة التي تؤهِّلها أن تتصرف في بعض أحداث الكون، فهذا شرك في العبادة يتضمَّن شركا في الربوبية، جمَع بين السوأتين.

الصورة الثانية: اعتقاد أن أرواح الأولياء لها تصرُّف بعد الموت:

وهذا وقع من بعض غلاة عُبَّاد القبور، اعتقدوا أن أرواح الأولياء تتصرف بعد الموت في قضاء الحاجات وتفريج الكربات.

المطلب الثاني: إفراد الله بعلم الغيب:

وفيه ثلاث مسائل:

- **المسألة الأولى: معنى الغيب، وأقسامه:**

---

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٢٥١٦) وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني.

الغَيْبُ لغة: هو ما غَاب عن الخَلق مما لا يعلمه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. ومنه الغِيبة المعروفة؛ سُميَت بهذا لأنها لا تُقال إلا في الغيبة[1].

والغَيْبُ في الاصطلاح: هو ما غاب عن العباد مما أخبر به النَّبي ﷺ من الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر بتفاصيله ومشاهده؛ مما نُقِل إلينا في الكتاب أو السنة، فنؤمن بها ولم نرَ شيئا منها، وهذا من الإيمان بالغيب.

وقد مدح الله من يؤمن بالغيب، فقال تعالى: ﴿**الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ**﴾ [البقرة: ١-٢]، ما صفاتهم؟ أول صفة ذُكِرت لهم: ﴿**ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ**﴾ [البقرة: ٣].

فالغيب لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإفراد الله بعلم الغيب هذا من توحيده في الربوبية.

أقسام الغيب:

يُقسِّم أهلُ العلم الغيبَ إلى قسمين:

الأول: الغيب المُطلق:

وهو الذي اختص الله - تعالى - بعِلمه، فلا يمكن لغيره أن يعلَمه، لا مَلك مُقرب، ولا نبي مُرسل، فضلا عما سوى ذلك من الأولياء أو الكُهَّان والمنجِّمين والعرَّافين والدَّجالين، وغيرهم.

---

(١) ينظر: مادة «غيب» في «مقاييس اللغة» (٤/ ٤٠٣).

قال - عزَّ وجلَّ -: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧]، وقال سبحانه: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [النمل: ٦٥]، وهذا من أقوى أساليب الحصر: النَّفي والاستثناء، وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ [الأنعام: ٥٩].

الثاني: الغيب المُقيَّد (أو الغيب النِّسبي):

وهو ما علِمه بعض المخلوقات دون بعض، فمن غاب عنه هذا العِلم يعتبر غيبا بالنسبة له، ومن عَلِمه يعتبر شهادة؛ لأنه شهِدَه وعَلِمه.

فمثلا: ما يحدث في المنزل المجاور غيب بالنسبة لنا، وهو بالنسبة للذين في المنزل شهادة، فهذا من الغيب النِّسبي.

قال الله - تعالى -: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

- **المسألة الثانية: الأدلة على اختصاص الله - تعالى - بالغيب:**

دلَّ الكتاب والسنة على اختصاص الله - تعالى - واستئثاره بعلم الغيب دون جميع خلقه، وسبق ذكر شيء من تلك النصوص.

ومنها، أيضا:

قوله تعالى: ﴿**وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَ**﴾[الأنعام: ٥٩]، ومفاتح الغيب بيَّنها الرسول ﷺ في قوله: «**مَفَاتِحُ الغَيْبِ خَمْسٌ، لا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ: لا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا اللَّهُ، وَلا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ إِلَّا اللَّهُ، وَلا يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي المَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ، وَلا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ، وَلا يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللَّهُ**»(١).

ووصف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نفسه في غير موضع بأنه علَّام الغيوب، وأنه عالم الغيب، وهذا الوصف لا يستحقُّه إلا هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

- **المسألة الثالثة: اعتقاد علم الغيب في غير الله – تعالى –:**

عِلم الغيب من خصائص الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ – كما سبق بيانه –، فمن ادَّعى ذلك في نفسه أو في غيره، سواء كان نبيا أو وَلِيًّا أو مَلَكا أو جِنِّيا أو إماما أو كاهنا أو غيرهم، فقد أشرك بالله غيرَه، وشِرْكه – هنا – في مقام الربوبية.

ومن مظاهر ذلك:

أولا: الكهانة ونحوها. وسيأتي الكلام عليها.

ثانيا: نسبة علم الغيب إلى الأنبياء والأولياء.

فمن اعتقد أن النَّبِي، أو الوليَّ يعْلَم الغيب، فقد وقع في هذا النوع من الشرك؛ لأنه صادَم قول الله – تعالى –: ﴿**قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُ**﴾[النمل: ٦٥]. وهذا له أمثلة في كلام بعض الغُلاة،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٦٩٧) وفي مواضع أخرى.

وبعض القُبُوريين، وبعض المبتدعة، كما قال البُوصيري في البُرْدَة المشهورة في مدح النَّبي ﷺ:

فإنَّ مِن جودِك الدنيا وضَرَّتَها ومِن عُلومك علمُ اللوحِ والقلمِ[1]

وضرة الدنيا هي الآخرة، فإذا كان من جود النَّبي ﷺ الدنيا والآخرة، ومن علومه – وليس كله – علم اللوح والقلم؛ فماذا بقي لله – تعالى –؟!.

وكثير من الباطنية من الرافضة والنصيرية والإسماعيلية وغلاة الصوفية يعتقدون أن لأئمتهم القدرة على الاطلاع على الغيب.

وقد نفى الرسل ذلك عن أنفسهم، وهم أرفع الناس قدرا:

قال نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ [هود: ٣١].

وقال عن نبينا ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وقرَّرَ ذلك عن جميع الرسل، فقال: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩].

فإذا انتفى ذلك عن أفضل الخلق (وهم الرسل)، فغيرهم من باب أولى.

ooo

(١) ينظر: «الرد على البُردة»، للعلامة عبد الله بن عبد الرحمن أبا بطين ص٢٨.

المبحث الثاني: الكهانة. وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: تعريف الكهانة:

الكهانة (بفتح الكاف وكسرها) عُرِّفت بتعريفات كثيرة. ومن أحسن ما وقفت عليه وأخصره:

قول القرطبي: «**الكهانة**: ادِّعاء علم الغيب»(١).

وقد ورد ذكرُها في القرآن في موضعين: ﴿**فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ**﴾ [الطور: ٢٩]، وقوله: ﴿**وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ**﴾ [الحاقة: ٤٢].

قال الخطَّابي: «الكَهَنَةُ: قوم لهم أذهان حادَّة ونفوس شِرِّيرة وطباع ناريَّة؛ فألِفَتْهُم الشياطِينُ لما بينهم من التناسب في هذه الأمور، وساعدتهم بكل ما تصل قدرتُهم إليه. وكانت الكهانة في الجاهلية فاشية خصوصا في العرب؛ لانقطاع النبوة فيهم»(٢).

والكاهن يصدُق قليلا، ويكذِب كثيرا؛ فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: سَأَلَ أُنَاسٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الكُهَّانِ، فقال لهم ﷺ: «**إِنَّهُمْ لَيْسُوا بِشَيْءٍ**». قَالُوا: يَا رَسُول اللهِ، فَإِنَّهُمْ يُحَدِّثُونَ أَحْيَانًا بِالشَّيْءِ يَكُونُ حَقًّا! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

---

(١) «المفهم» (٥/ ٦٣٣).

(٢) «فتح الباري» (١٠/ ٢١٧).

«**تِلْكَ الْكَلِمَةُ مِنَ الحَقِّ يَخْطَفُهَا الجِنِّيُّ، فَيَقْذِفُهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ، فَيَخْلِطُونَ فِيهَا أَكْثَرَ مِنْ مِئَةِ كَذِبَةٍ**»[1]. وقال الله - تعالى -: ﴿**هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ۝ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ**﴾ [الشعراء: ٢٢١-٢٢٢].

ومن علامات الكاهن عند العرب: أنه يأتي بكلام مسجُوع، وله قَرِينٌ من الجِنِّ يُمِدُّه بالأخبار[2].

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: اقْتَتَلَتِ امْرَأَتَانِ مِنْ هُذَيْلٍ، فَرَمَتْ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى بِحَجَرٍ، فَقَتَلَتْهَا وَمَا فِي بَطْنِهَا، فَاخْتَصَمُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَّ دِيَةَ جَنِينِهَا غُرَّةٌ: عَبْدٌ، أَوْ وَلِيدَةٌ، وَقَضَى بِدِيَةِ الْمَرْأَةِ عَلَى عَاقِلَتِهَا، وَوَرَّثَهَا وَلَدَهَا وَمَنْ مَعَهُمْ، فَقَالَ حَمَلُ بْنُ النَّابِغَةِ الْهُذَلِيُّ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ أَغْرَمُ مَنْ لَا شَرِبَ وَلَا أَكَلَ، وَلَا نَطَقَ وَلَا اسْتَهَلَّ، فَمِثْلُ ذَلِكَ يُطَلُّ؟! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّمَا هَذَا مِنْ إِخْوَانِ الْكُهَّانِ**»[3]؛ مِنْ أَجْلِ سَجْعِهِ الَّذِي سَجَعَ.

المطلب الثاني: أقسام الكهانة:

الكهانة - باعتبار مصدرها - ثلاثة أقسام:

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٥٧٦٢) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٢٢٨).

(٢) ينظر: «النبوات»، لابن تيمية (٢/ ١٠٤٨).

(٣) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٥٧٥٨) وفي مواضع أخرى، ومسلم (١٦٨١).

الأول: ما يكون بواسطة إلقاء الشياطين:

بمعنى: أن يكون للكاهن وَلِيٌّ (رِئْيٌ) من الجن؛ يخبِرُه بما يطرأ أو يكون في أقطار الأرض مما يخفى عنه، أو يخبره بما يسترقه من السمع من السماء.

وكان استراق السمع كثيرا قبل بعثة النبي ﷺ، ثم انقطع زمن البعثة، ثم عاد بعد وفاته ﷺ أخَفَّ مما كان عليه قبل بعثته، كما تقدَّم بيانه.

وهذا القسم هو أصل الكهانة، كما قال الحافظ: «والأصل فيه استراقُ الجنيِّ السمعَ من كلام الملائكة، فيُلقِيه في أُذُن الكاهن»(١).

وهذا من جنس استمتاع الإنس بشياطين الجن، الذي أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

فائدة:

ها هنا ثلاثة ألفاظ يحسُن التفريق بينها: «شيطان»، و«جنِّي»، و«إبليس».

فالشيطان: كُلُّ عاتٍ متمرد طاغ. ويكون في الجن والإنس(٢).

والمراد بالشيطان عند الحديث عن الكهانة: شيطان الجن.

---

(١) «فتح الباري» (١٠/ ٢١٦).

(٢) ينظر: مادة «شطن» في: «مقاييس اللغة» (٣/ ١٨٤)، و«لسان العرب» (١٣/ ٢٣٨).

وأبوهم ورئيسهم: **إبليس**.

والجن: جنس مخلوق من نار، فيهم المؤمن والكافر، كما جاء في القرآن: ﴿**وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا**﴾ [الجن: ١١].

والجِنُّ قسيم للإنس، وقد بُعث النبيُّ ﷺ إلى الجن والإنس كافة.

وميَّز الله جنس الجن على الإنس ببعض الخصائص(١)؛ منها:

١- القدرة على سرعة الحركة والتنقل.

قال تعالى: ﴿**قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ**...﴾ [النمل: ٣٩]، فهذا من الجن الذين كانوا يخدمُون سليمان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وقوله: ﴿**ءَاتِيكَ بِهِ**﴾، المقصود: عرش بلقيس ملكة سبأ في اليمن، وهذا يدل على قُدرته. وقال تعالى، عن الجن: ﴿**وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِ**...﴾ [الجن: ٩].

٢- القدرة على الأعمال الشاقة.

قال تعالى، عن الجن المُسَخَّرِين لسليمان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿**يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍ**﴾ [سبأ: ١٣].

٣- قدرتُهم على النفوذ في جسم الإنسان.

---

(١) ينظر: «موقف الإسلام من السحر» ص١٨٦.

وهو ما يسمى بالتلَبُّس (تلبُّس الجني بالإنسي)، قال تعالى: ﴿**ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّ**...﴾ [البقرة: ٢٧٥]. قال الإمام القرطبي في تفسيره: «في هذه الآية دليل على فساد إنكار من أنكر الصرع من جهة الجن، وزعم أنه من فعل الطبائع، وأن الشيطان لا يسلُك في الإنسان، ولا يكون منه مس!»[(١)].

وقال ﷺ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ**»[(٢)]، على أحد الأقوال في معنى الحديث.

٤- قدرتهم على التشكُّل بأشكال مختلفة.

كأشكال الإنس والحيوانات والعقارب والحيَّات. ولهذا شواهد من السنة يطول الحديثُ بذكرها.

الثاني: بواسطة أحكام النجوم:

وذلك بالنظر فيها، واختلاف أحوالها، وربط ذلك بما يكون في الأرض، فيقول: سيحدث كذا وكذا. وسيأتي الكلام عنه.

---

(١) تفسير القرطبي (٣/ ٣٥٥).

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٢٠٣٩) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢١٧٥).

وذكر الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذين القسمين، ثم قال: «وكان كلٌّ من الأمرين في الجاهلية شائعا ذائعا، إلى أن أظهر اللهُ الإسلامَ فانكسرت شوكتهم وأنكر الشرع الاعتماد عليهم»[1].

الثالث: بواسطة أشياء أخرى:

الكهانة هي ادعاء علم الغيب، وقد يتوَصَّلُ الكاهن إلى ذلك بغير ما مضى في القسمين السابقين. ومن ذلك - على سبيل المثال -:

١- ادعاء علم الغيب بواسطة الخط على الأرض، والضرب بالحصى.

٢- ادعاء علم الغيب بواسطة الحروف، والأرقام.

٣- ادعاء علم الغيب بواسطة الظَّنِّ، والتخمين، والحدس.

وهناك صور أخرى استجدت، ولا تزال، يستخف بها هؤلاء عقولَ الناس؛ لأكل أموالهم بالباطل، وصارت تجارة رابحة، قامت لها مؤسسات إعلامية، ودورات تدريبية، وغير ذلك.

المطلب الثالث: الألفاظ ذات الصلة بالكهانة:

هناك ألفاظ وردت في الأحاديث، وساقها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ثنايا هذه الأبواب، وهي متعلقة بالكهانة. ومن المهم معرفتُها، ومعرفة العلاقة بينها وبين الكهانة. وهي:

---

(١) «فتح الباري» (١/ ٥٤).

أولا: العِرافة، ويقال لصاحبها «عرَّاف»:

وهي صورة من صور الكهانة، يزعم صاحبها أنه يَعْرِف الأمور بمُقَدِّمات وأسباب يَسْتَدِلُّ بها على مَواقِعها من كلام مَن يسأله أو فِعْلِه أو حاله.

كالذي يدَّعي معرفة الشيء المسروق ومكان الضَّالَّة ونحوهما[1].

وقال الراغب في بيان الفرق بين الكهانة والعرافة: «الكهانة: مختصة بالأمور المستقبَلة، والعرافة: مختصة بالأمور الماضية»[2].

ثانيا: العِيافة:

قال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هو: زجْرُ الطير والتخرُّص على الغيب بالحَدْس والظن»[3].

كانوا يزجرون الطير للتشاؤم أو التفاؤل، فإذا زُجِر الطائر وذهب شمالا تشاءموا، وإذا ذهب يمينا تفاءلوا.

وقال ابن الأثير: «العِيَافَة: زَجْر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها ومَمَرِّها، وهو من عادة العرب كثيرا، وهو كثير في أشعارهم. يقال: عَافَ يَعِيفُ عَيْفًا، إذا زَجَر وحَدَس وظَنَّ. وبنو أسد يُذكَرون بالعِيَافَة ويُوصفون بها»[1].

---

(١) ينظر: «النهاية» لابن الأثير (٤/ ٢١٥).

(٢) «الذريعة الى مكارم الشريعة» ص١٩٠.

(٣) «مشارق الأنوار على صحاح الآثار» (٢/ ١٠٧).

ثالثا: التنجيم:

وسيأتي الكلام عليه في مبحث مفرد، إن شاء الله - تعالى -.

رابعا: الخطُّ في الرِّمال:

أي: ادعاء معرفة الغيب عن طريق الخط في الرمل، أو الضرب بالحصى.

وفي حديث معاوية بن الحكم السلمي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ، وَقَدْ جَاءَ اللهُ بِالْإِسْلَامِ، وَإِنَّ مِنَّا رِجَالًا يَأْتُونَ الْكُهَّانَ؟ قَالَ: «**فَلَا تَأْتِهِمْ**». قَالَ: وَمِنَّا رِجَالٌ يَتَطَيَّرُونَ؟ قَالَ: «**ذَاكَ شَيْءٌ يَجِدُونَهُ فِي صُدُورِهِمْ، فَلَا يَصُدَّنَّهُمْ**». قَالَ: قُلْتُ: وَمِنَّا رِجَالٌ يَخُطُّونَ؟ قَالَ: «**كَانَ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ يَخُطُّ، فَمَنْ وَافَقَ خَطَّهُ فَذَاكَ**»[2].

وقال النووي: (قولُه: وَمِنَّا رِجَالٌ يَخُطُّونَ، قَالَ: «**كَانَ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ يَخُطُّ، فَمَنْ وَافَقَ خَطَّهُ فَذَاكَ**»): اختلف العلماء في معناه. فالصحيح أن معناه: من وافق خَطُّهُ فهو مباح له، ولكن لا طريق لنا إلى العلم اليقيني بالموافقة فلا يُباح. والمقصود أنه حرام؛ لأنه لا يباح إلا بيقين الموافقة، وليس لنا يقين بها»[3].

---

(١) «النهاية» (٣/ ٣٣٠).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٥٣٧).

(٣) شرح النووي على مسلم (٥/ ٢٣).

وسبق - في «باب بيان شيء من أنواع السحر» - حديثُ: «**إِنَّ العِيَافَةَ، وَالطَّرْقَ، وَالطِّيَرَةَ مِن الجِبْتِ**»(١).

وفسَّره عَوف - أحد رواته -، فقال: العيافة: زجر الطير. والطَّرْق: الخط يخط بالأرض.

قال الشنقيطي: «ولا خلاف بين العلماء في منع العِيافة والكهانة والعِرافة والطَّرْق والزَّجْر والنُّجُوم، وكل ذلك يدخل في الكهانة؛ لأنها تشمل جميع أنواع ادِّعاء الاطلاع على علم الغيب. وقد سئل رسول الله ﷺ عن الكُهَّان، فقال: (**لَيْسُوا بِشَيْءٍ**)(٢)»(٣).

وذكر بعضهم أن الرَّمَّال إذا جاءه شخص يسأله عن أمر ما، فإنَّه يخط خطوطا بصورة سريعة بحيث لا يُنتبه إلى عددها، ثم يبدأ يمسح خطين خطين، فإذا بقي في النهاية خطَّان فهو علامة على الفلاح والنجاح، وقال له: امضِ. وإذا لم يبقَ إلا خط واحد، قال: هذا علامة على النَّحس والسُّوء، وأمَرَه بالكَفِّ عن هذا الفعل.

ومن الصور المعاصرة للكهانة:

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «أضواء البيان» (٢/١٩٧).

(٣) تقدم تخريجه.

١- قراءة الكف:

وصورتُه: أن ينظر العَرَّاف أو الكاهن إلى خطوط كَفِّ شخص، فيخبره بما يحدث معه مستقبلا، استدلالا بهذه الخطوط والتعرجات.

٢- قراءة الفنجان:

وهو أن يجعلك تشرب في فنجان قهوة مثلا، وبعد فراغك من شربه يديره عدة مرات ثم ينظر ما عَلق بجدران الفنجان من خطوط من بقايا القهوة، فإن تشكَّل فيها ما يشبه الحية تشاءم! وإن ظهر ما يشبه الوردة تفاءل، فحثك على الأمر الذي تتردد فيه؛ كسفر أو زواج أو نحو ذلك.

٣- فتح المصحف أو الكتاب:

والمراد به: أن يتردد إنسان في أمر ما - كسفر أو تجارة أو زواج - فيذهب إلى عراف قد يسمونه شيخا، فيأمره بفتح الكتاب أو المصحف بعد تحريكه، ثم ينظر إلى أول ما وقعت عينه عليه، فإن كان أمرا طيبا كالجنة، أمره بالإقدام وأنه سينجح في أمره، وإلا أمره بالكف؛ لأن عاقبته الخسارة والفشل.

المطلب الرابع: العلاقة بين السحر والكهانة[1]:

هناك وجه افتراق، وأوجه اتفاق بينهما.

---

(١) ينظر: «موقف الإسلام من السحر» ص٢٢٩.

فأما وجه الاختلاف والافتراق: فهو أن مقصود الكهانة: الإخبار عن المغيَّبات، أما السحر: فمقصودُه التأثير على الغير. فالكاهن لا يصل إلى التأثير والإضرار على البدن، بخلاف الساحر.

وأما أوجه الاتفاق؛ فمنها:

١- الاستعانة بالشياطين في هذه الأعمال القبيحة، فكُل من الساحر والكاهن له رِئْيٌ ومُعِين من هؤلاء المَرَدة من شياطين الجن، يُعينه ويُمِدُّه بهذه الأمور المنكَرة.

٢- التقرب إلى الشياطين بما يكون ثمنا لهذه الخدمة؛ فخدمة شياطين الجن ليست مجانية، بل بثمن غال، وهو دين المرء وتوحيده.

٣- الكذب، وخُبث النفس، وهذه صفة مشتركة في الساحر والكاهن.

المطلب الخامس: حكم إتيان الكهان والمنجِّمين:

إتيان المنجمين والكُهَّان له ثلاث حالات[(١)]:

الأولى: أن يأتي إلى الكاهن فيسأله من غير أن يصدقه.

وحكمها: أنَّها محرمة، وعقوبةُ فاعلها أن لا تقبل له صلاة أربعين يومًا، كما ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ فَصَدَّقَهُ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا**»[(٢)].

---

(١) ينظر: «مجموع فتاوى ورسائل العثيمين» (٢/ ١٨٤).

(٢) تقدم تخريجه.

والثانية: أن يأتي إلى الكاهن فيسألُه ويصدقه بما أخبر به.

وحكمها: أنَّها كفر بالله – عز وجل –؛ لأنه صدَّقه في دعوى علمه الغيب، وهذا تكذيب لقول الله – تعالى –: ﴿**قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُ**﴾ [النمل: ٦٥].

ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «**مَنْ أَتَى عَرَّافًا أَوْ كَاهِنًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ**»(١).

والثالثة: أن يأتي إلى الكاهن فيسألَه؛ ليبين حاله للناس، وأن عمله كهانة وتمويه وتضليل.

وحكمها: أنَّها لا بأس بها. ودليل ذلك أن النبي ﷺ أتاه ابنُ صيَّاد، فأضمر له النبيُّ ﷺ شيئا في نفسه، فقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنِّي قَدْ خَبَأْتُ لَكَ خَبِيئًا**». قَالَ ابْنُ صَيَّادٍ: هُوَ الدُّخُّ – يريد الدُّخان –، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**اخْسَأْ، فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ**»(٢).

- **ومن صور الإتيان المعاصرة**: الاتصال عليهم في القنوات الفضائية؛ لأن بعض القنوات خصصت برامج خاصة مباشرة لهؤلاء، وخدعت الناس والبسطاء لأكل أموالهم!.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣٠٥٥) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٩٣٠).

ومنها، أيضا: مراسلتهم في المجلات والمواقع الإلكترونية، والتواصل معهم عبر وسائل التواصل المعاصرة.

ooo

المبحث الثالث: التنجيم. وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: تعريفه، وأنواعه:

التنجيم: هو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية التي لم تقع. كمن يستدل بسقوط نجم على أنه سيحدث كذا وكذا.

وهو من جنس الكهانة؛ لما فيه من ادعاء علم الغيب.

والتنجيم ثلاثة أنواع:

النوع الأول: عِلم التدبير:

وهو اعتقاد أن هذه الكواكب تدبر هذا الكون، وأنها أحياء ناطقة مختارة، منها يصدر الخير والشر، وأن حركاتها تُحدِث جميع حوادث الكون.

وحكم هذا النَّوع: أنه شرك أكبر في جانب توحيد الربوبية.

النوع الثاني: علم التأثير:

وله صورتان:

الأولى: الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الكونية الغيبية، فينظر المنجم في النجوم، ثم يقول: سيكون كذا من خير كنزول أمطار، أو شر كزلازل ونحوها.

وحكم هذه الصورة: أنها باطلة وادِّعاء لمشاركة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في علم الغيب الذي انفرد به، أو تصديق لمن ادعى ذلك، وهذا ينافي التوحيد لما فيه من هذه الدعوى الباطلة، ولما فيه من تعلُّق القلب بغير الله، ولما فيه من فساد العقل؛ لأن سلوك الطرق الباطلة وتصديقَها من مفسدات العقول والأديان.

وسبق في المبحث الأول (إفراد الله بالخلق والتدبير وعلم الغيب)، ذكر الأدلة في إبطال هذا الاعتقاد. قال الخليل بن أحمد:

أبلغـا عنـي المـنجِّمَ أني
كـافرٌ بالـذي قضـتهُ الكواكـبُ
عـالمٌ أن مـا يكـون ومـا كـان
قضـاءٌ مـن المهـيمنِ واجـبُ
مـوقنٌ أن مـن تكهَّـنَ أو
نجَّـمَ، كـلٌّ عـلى المقـادير كـاذبُ[1]

والثانية: اعتقاد أن للنجوم أثرا، وأنها سبب في حدوث الخير والشر. وهؤلاء إذا وقع شيء نسبوه للنجوم.

---

(١) «القول في علم النجوم» للخطيب ص٢١٠.

وحكم هذه الصورة: أنها شرك أصغر؛ لما فيها من إضافة الحوادث إلى ما ليس سببا لها شرعا ولا حسا، بناءً على قاعدة الأسباب السابقة.

الفرق بين الصورتين:

في الصورة الأولى: استدلال بهذه النجوم والكواكب على أمر سيحدث في المستقبل.

أما في الصورة الثانية: فشيءٌ حدث وانتهى، ويجعل سببه النجم. فإذا حدث فيضان في بلد - مثلا -، قالوا: هذا الفيضان سببُه حركة النجم الفلاني، والكوكب الفلاني.

النوع الثالث: علم التسيير:

وهو الاستدلال بسَير الشمس والقمر والكواكب والنجوم على القبلة والأوقات والجهات.

وحكم هذا النَّوع: أنه لا بأس به، بل كثير منه نافع قد حث عليه الشارع، إذا كان وسيلة إلى معرفة أوقات العبادات، أو إلى الاهتداء به إلى الجهات.

ويُستفاد منه في معرفة الفصول والمناخ ومواسم الزراعة؛ فإذا دخل النجم الفلاني فهو موسم زراعة كذا وكذا من الثمار أو الحبوب. وهذه من فوائد النجوم كما سيأتي.

المطلب الثاني: الحكمة من خلق النجوم:

قال قتادة: «﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾[الملك: ٥]، خلق الله هذه النجوم لثلاث: جعلها زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فمن تأول فيها بغير ذلك أخطأ، وأضاع نصيبه، وتكلف مالا علم له به»[١].

فهذه ثلاثُ وظائف خلقت لها النُّجوم، ودلَّ عليها كتاب الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ:

أولا: زينة للسماء:

وقد دلت نصوص القرآن الكريم على هذه الحكمة، في قول الله - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾[الحجر: ١٦]، أي: زيَّنا السماء بالكواكب لمن نظر إليها وأبصرها.

وقوله - جل وعلا -: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات: ٦]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥]، فكما تتزين المرأة بالذَّهب والألماس والجواهر، فهذه السماء فوقنا تتزين وتترصع بالنجوم التي تتلألأ وتلمع في الليل. ونحن لا ندرك هذه الزينة بسبب الحياة المدنية، وما فيها من وهج الأنوار والكهرباء، وإلا لو خرج الإنسان إلى البر في ظلمة الليل لرأى السماء بمظهر آخر.

---

(١) تقدم تخريجه.

ثانيا: رجومًا للشياطين:

قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ...﴾ [الملك: ٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ٦-١٠].

فحُفظت السماء بهذه النجوم التي تُسلَّط على الشياطين، تُرمى الشُّهب عليهم وتحرقهم.

ثالثا: علامات يهتدى بها:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧]، وقال: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

المطلب الثالث: حكم تعلم علم الفلك؟ وهل كان إبراهيم الخليل ﷺ منَجِّما؟:

تعلُّم علم الفلك والنجوم يختلف حكمه بحسب نوعه:

١- فإن كان مِن عِلم التدبير أو التأثير؛ فمحرَّم لا يجوز.

٢- وأما إن كان مِن عِلم التسيير:

فإن كان يتعلق بمصلحة دينية، فهو مشروع، وقد يكون واجبا؛ كما لو توقفت معرفة القبلة أو معرفة دخول رمضان وخروجه على ذلك.

وإن كان يتعلَّق بمصلحة دنيوية؛ فهو جائز ومفيد من جهتين:

الأولى: معرفة الجهات؛ كالاستدلال بالقطب على جهة الشمال.

الثانية: معرفة الفصول، من خلال منازل القمر. ويُستفاد منه - أيضا - في مواسم زراعة المحاصيل، وغير ذلك مما يشار إليه في بعض التقاويم.

هل كان إبراهيم الخليل ﷺ منجما؟.

استدل من يروِّج لصناعة التنجيم بقوله تعالى: ﴿**فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ۝٨٨ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ**﴾ [الصافات: ٨٨-٨٩]، وأن إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أخبر بما يصيبه من المرض بعد نظره في النجوم.

وهذا قول باطل من أكثر من وجه:

أولا: أن الآية لا تدل عليه، فليس في الآية أكثر من أنه نظر نظرة في النجوم، ثم قال: ﴿**إِنِّي سَقِيمٌ**﴾. فمَن ظن مِن هذا أن عِلم أحكام النجوم من علم الأنبياء، وأنهم كانوا يراعونه، فقد كذب على الأنبياء، ونسبَهم إلى ما لا يليق، وهو من جنس نِسبَتِهم إلى الكهانة والسحر.

ثانيا: أن الرسل بُعثت بمَحْق الشرك من الأرض ومحق أهله، وقطع أسبابه، ولا شك أن ما وقع فيه قوم إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ كان من الشرك بالنجوم

والكواكب، فكيف يُظَن بإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنه كان يتعاطى علم النجوم، ويأخذ منه أحكام الحوادث؟.

وإذا تقرر تنزيه الخليل ﷺ عن ذلك، فكيف توجَّه الآية؟

أولا: ذهب ابن القيم[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيرُه إلى أن النَّظْرة التي نظرها إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في النجوم كانت من معاريض الأفعال، كما كان قوله: ﴿**بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا**﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وقوله: ﴿**إِنِّي سَقِيمٌ**﴾، وقوله عن سارة: «**هَذِهِ أُخْتِيْ**»[2] من معاريض المقال؛ ليتوصل بها إلى غرضه من كسر الأصنام، فلهذا نظر الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في النجوم نظر تورية وتعريض محض ينفي به عنه تهمة قومه، ويتوصل إلى كيد أصنامهم.

ثانيا: ذهب قتادةُ إلى أنه نظر إلى السماء متفكِّرًا فيما يلهيهم به، والعربُ تقول لمن تفكَّر: نظر في النجوم.

ومما يؤيد قولَ قتادة:

١ - أن الفعل «نَظَرَ» يختلف معناه بحسب ما يتعدَّى به، فإن تعدَّى بنفسه فمعناه الانتظار، ومنه قوله تعالى: ﴿**ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ**﴾ [الحديد: ١٣]، وإن تعدَّى بـ«إلى» فمعناه النظر بالأبصار، ومنه قوله تعالى:

(١) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ١٩٨)، وهو من أوسع الكتب التي تحدثت عن التنجيم والمنجمين.

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٢١٧) وأطرافه، ومسلم (٢٣٧١).

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧]، وإن تعدَّى بـ«في» فمعناه التفكُّر والاعتبار، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وهنا عُدِّي بـ«في».

٢- أنَّ الرسول ﷺ لم يذكرها في الكَذِبات الثلاث، وكلُّها من المعاريض، وإن اعتبرنا هذه من المعاريض - أيضا - عُدَّت رابعة، وهذا مخالف للحَصرِ الوارد في الحديث.

٣- أن هذا الفعل - مع فرضِ أنه صدر على سبيل التعريض- فيه نوع محاباة وتأييد لعبادة النجوم، والمعروف من حال إبراهيم عَلَيهِ ٱلسَّلَامُ خلافُ هذا.

المطلب الرابع: الاستسقاء بالنجوم:

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء». **والاستسقاء**: طلب السُّقيا، **والأنواء**: جمع نَوء، وهي النجوم حال سقوطها مع الفجر في جهة المغرب(١). والقمر له ثمانية وعشرون منزلا، ينزل كل ليلة منزلا منها، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ ...﴾ [يس: ٣٩].

والاستسقاء بالأنواء من أمور الجاهلية، كما في حديث الباب عن أبي مالك الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا**

(١) ينظر مادة «نوأ» من: «الصحاح» (١/ ٧٩)، و«لسان العرب» (١/ ١٧٦)، وغيرها.

يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ بِالْأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ»[(١)].

وفي حكمه تفصيل:

فالاستسقاء بالأنواء ينقسم إلى قسمين:

الأول: شرك أكبر: وهذا له صورتان:

الصورة الأولى: أن يدعو الأنواء بالسُّقيا، كأن يقول: يا نوء كذا أسقنا، أو أغثنا، وما أشبه ذلك.

وهذه الصورة - من صور الاستسقاء بالنجوم - شرك أكبر، كما ذكرنا؛ لقوله تعالى: ﴿**وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ**﴾ [المؤمنون: ١١٧]، وقوله - عز وجل -: ﴿**وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ**﴾ [يونس: ١٠٦]، وهذا شركٌ في العبادة والربوبية.

والصورة الثانية: أن ينسِب حصول الأمطار إلى هذا النوء على جهة الاستقلال، أي: معتقدا أنها الفاعلة بنفسها، وأنها هي التي تنزل المطر دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهذه الصورة شرك أكبر في الربوبية.

---

(١) تقدم تخريجه.

القسم الثاني: شرك أصغر:

وهو أن يجعل هذه الأنواء سببا، مع اعتقاده أنَّ الله هو الخالق الفاعل. وإنما كانت هذه الصورة شركا أصغر؛ لأن كل من جعل سببا لم يجعله الله سببا لا بوحيه ولا بقَدَرِه، فهو مشرك شركا أصغر.

وعليه يُحمَل حديثُ زيد بن خالد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وفيه قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: «**وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا**»، والباء هنا للسببية، «**فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ**»[1]، صار كافرا بالله - تعالى -؛ لأنه أنكر نعمة الله، ونسبها إلى سبب لم يجعله الله سببا، فتعلَّقَت نفسه بهذا السبب، ونسِي نعمة الله.

وهذا الكفر لا يُخرِج من الملة؛ لأن المراد نسبة المطر إلى النوء على أنه سبب، وليس إلى النوء على أنه فاعل، ويشهد لذلك أنه قال: «**مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا**»، ولم يقل: «أَنزَل علينا المطرَ نوءُ كذا»، ولو قال ذلك لكان نسبةُ المطر إلى النوء نسبةَ إيجاد. وبهذا نعرف خطأ من قال: إن المراد بقوله: «**مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا**» نسبة المطر إلى النَّوءِ نسبةَ إيجاد. وعُلِم بهذا أن المراد: أن من أقر بأن الذي خلق المطر وأنزله هو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لكن النوء هو السبب، فهو كافر كفرا أصغر لا يخرج من الملة.

---

(١) تقدم تخريجه.

تنبيه:

إذا قال: مُطِرنا بنوء كذا، ومرادُه نسبة وقتٍ، أي: جاءنا المطر في وقت هذا النوء، فتكون الباء ظرفية لا سببية، فهذا لا بأس به. وهذا كما في لهجة أهل القصيم، يقولون: مُطِرنا بالوسم، ويقصدون فيه لا بسببه.

المطلب الخامس: صور معاصرة في التنجيم:

من الصُّور المعاصرة ما يعرف بالأبراج (أبراج الحظ)، أو (اعرف حظك من برجك).

والأبراج اثنا عشر برجا؛ منها: الحَمَل، والجَدْي، والسرَطان، والأسد، والجَوْزاء، والعقرب، وغيرها.

ويربِطُون السَّعد والنَّحْس بهذه الأبراج، أو ما يسمى بالطالع.

وحكم التعاطي مع هذه الأبراج راجع إلى مسألة إتيان الكهان والمنجمين؛ فالقارئ لهذه الأبراج له أحوال:

الأولى: أن يقرأها معتقدا صدقها. فهذا شرك بالله؛ لأنه إما اعتقد مدبرا مع الله، أو اعتقد أن غير الله يعلم الغيب.

الثانية: أن يقرأها للتسلية، فهذا لا يجوز، ولا تقبل له صلاة أربعين يوما.

الثالثة: أن يقرأها للرد عليها، والتحذير منها، وهو مؤهَّل لذلك؛ فلا بأس به.

المطلب السادس: مسائل ليست من التنجيم:

الأولى: معرفة الكسوف والخسوف في المستقبل، وتحديد وقته بالدقيقة والثانية، فهذا ليس من التنجيم؛ لأنه علم مبني على الحساب الذي يدرك بالتعلُّم.

الثانية: توقع الأحوال الجوية. وهذا ليس من التنجيم؛ لأنه توقُّع وليس قطعا. وهو قائم على أسباب واضحة؛ كالنظر في حركة السحاب والرياح، وصور الأقمار الصناعية، ونحو ذلك.

* * *

٢٧- باب
ما جاء في التَّطَيُّر

وَقَوْلِ اللهِ - تَعالى -: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

وقَوْلِه: ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ...﴾ [يس: ١٩] الآيَةَ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَا عَدْوَى، وَلَا طِيَرَةَ، وَلَا هَامَةَ، وَلَا صَفَرَ**»(١). أَخْرَجَاهُ. زَادَ مُسْلِمٌ: «**وَلَا نَوْءَ، وَلَا غُولَ**»(٢).

وَلَهُمَا عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَا عَدْوَى، وَلَا طِيَرَةَ، وَيُعْجِبُنِي الْفَأْلُ**». قَالُوا: وَمَا الْفَأْلُ؟ قَالَ: «**الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ**»(٣).

وَلِأَبِي دَاوُدَ - بِسَنَدٍ صَحِيحٍ - عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: ذُكِرَتِ الطِّيَرَةُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «**أَحْسَنُهَا الْفَأْلُ، وَلَا تَرُدُّ مُسْلِمًا، فَإِذَا رَأَى**

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٥٧٥٧) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٢٢٠).

(٢) لم أقف على هذه الزيادة بهذا اللفظ، وإنما وقعت زيادة «**لَا نَوْءَ**» عند مسلم في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ السابق، وزيادة «**لا غُولَ**» في حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رقم (٢٢٢٢).

(٣) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٥٧٧٦)، ومسلم (٢٢٢٤).

أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ، فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ»[1].

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «(الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، الطِّيَرَةُ شِرْكٌ). وَمَا مِنَّا إِلَّا، وَلَكِنَّ اللَّهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ»[2]، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ، وَجَعَلَ آخِرَهُ مِنْ قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ.

وَلِأَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَمْرٍو: «مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ عَنْ حَاجَتِهِ، فَقَدْ أَشْرَكَ». قَالُوا: فَمَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ؟ قَالَ: «أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، وَلَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ»[3].

وَلَهُ مِنْ حَدِيثِ الْفَضْلِ بْنِ العَبَّاسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّمَا الطِّيَرَةُ مَا أَمْضَاكَ أَوْ رَدَّكَ»[4].

○○○

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٩١٩)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٦٣٩٢)، وضعَّفه الألباني، وصححه النووي في «رياض الصالحين»، رقم (١٦٧٧)، وقال الأرناؤوط: حسن لغيره.

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٣٩١٠)، والترمذي (١٦١٤) وابن ماجه (٣٥٣٨)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح ... سمعت محمد بن إسماعيل يقول: «كان سليمان بن حرب يقول في هذا الحديث: (مَا مِنَّا، وَلَكِنَّ اللَّهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ). قال سليمان: هذا عندي قول عبد الله بن مسعود (وَمَا مِنَّا)». وصححه الألباني.

(٣) **حسن**: أخرجه أحمد (٧٠٤٥)، والطبراني في الكبير (٣٨)، وحسنه الأرناؤوط.

(٤) **ضعيف**: أخرجه أحمد (١٨٢٤)، وضعَّفه أحمد شاكر والأرناؤوط؛ لانقطاعه.

الشرح:

ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب آيتين وستة أحاديث.

والكلام على هذا الباب في الفصلين التاليين:

* * *

الفصل الأول: مقصود الباب، وموضوعه العام

عقد المؤلِّفُ هذا الباب للتحذير من التطيُّر، وهو: التشاؤم بما يُرى أو يُسمع، وبيان أثر ذلك على التوحيد.

فيا أيها الموحِّد، إن أردت أن يسْلَم لك توحيدك صافيا نقيًّا من الدَّنس والدَّغَل، فاحذر من هذه الواردات، والتعلُّق بهذه الأوهام، وهي التشاؤم بالمرئيات والمسموعات، ونحو ذلك.

* * *

الفصل الثاني: المباحث الموضوعية

المبحث الأول: معنى التطير، وبيان الألفاظ ذات الصلة:

الطِّيَرة والتَّطَيُّر بمعنى واحد[١]؛ فالتَّطَيُّر مصدر الفعل تَطَيَّر يَتَطَيَّرُ، والطِيَرة اسم المصدر.

مثل تَخَيَّر يَتَخَيَّرُ تَخيُّرا، وخِيَرة، ويقال: تطيَّرت من الشيء، وبالشيء.

والطِيَرة هي: التشاؤم بما لم يجعل الله له أثرا. والتشاؤم: توقُّع حدوث الشر[٢].

قال ابن عاشور في: «التَّشاؤُم: هو عَدُّ الشيء مشؤوما، أي: يكون وجودُه سببًا في وجود ما يُحزِنُ وَيَضُرُّ»[٣].

وهذا التشاؤم له صور؛ منها:

١- **التشاؤم بمرئي**: كمن يعزِمُ على أمر فإذا خرج من بيته رأى شخصا أعور، أو رأى بومة - وهي الهامة الواردة في الحديث، على أحد الأقوال -، أو يتشاءم ببعض الألوان؛ كمن يرى اللون الأحمر، فيشعر أنَّ عمله سيفشل أو سيجلب له ضررا، فيترك عمله الذي أراده بسبب رؤية لون!.

---

(١) فرق بينهما القرافي في «الفروق» (٤/ ٢٩٥).

(٢) ينظر مادة «طير»: في «الصحاح» (٢/ ٧٢٨)، و«لسان العرب» (٤/ ٥١٢)، وغيرها.

(٣) «التحرير والتنوير» (٩/ ٦٦).

٢- **التشاؤم بمسموع**: كأن يعزم إنسان على تجارة، فإذا خرج من بيته سمع رجلا ينادي صاحبه: «يا فاشل»، فيرجع! أو إنسان يعزم على سفر، فلما خرج من بيته سمع شخصا يتكلم عن حادث فيتشاءم ويترك. وبعض الناس يتشاءم من بعض الأرقام كالرقم ثلاثة عشر، حتَّى أنَّ بعض شركات الطيران حذفته من ترقيم المقاعد!.

٣- **التشاؤم بزمان**: كمن يتشاءم بشهر شوال، أو شهر صَفَر[1]، أو يوم الأربعاء.

٤- **التشاؤم بمكان**: كمن يتشاءم ببعض البلدان أو الطُّرُق.

فالتطيُّر مبنِيٌّ على توهم أن هذه الأشياء سبب في حصول الشر.

---

(١) **فائدة في قوله ﷺ «وَلا صَفَرَ»**:

اختُلِف في المراد به، فقيل: هو داء يأخذ البطن، وبوَّب على هذا البخاري في صحيحه، في «كتاب الطب»، فقال: «باب لا صَفَر، وهو داء يأخذ البطن». وقال في «الفتح» (١٠/ ١٧١): «فعلى هذا فالمراد بنفي الصفر ما كانوا يعتقدونه فيه من العدوى. ورجح عند البخاري هذا القول لكونه قرن في الحديث بالعدوى ... وقيل في الصفر قول آخر، وهو: أن المراد به شهر صَفَر، وذلك أن العرب كانت تحرم صفر وتستحل المحرم» اهـ. وذكر في الفتح أقوالا أخرى ليس فيها التشاؤم بصفر، وكذا لم يذكره النووي في شرح مسلم (١٤/ ٢١٤). لكن أثبت هذا المعنى الشيخ ابن عثيمين في «القول المفيد» (١/ ٥٦٤).

ومما ينبَّه له: أن بعض الناس قابل هذا الاعتقاد بتسمية شهر صفر بـ«صفر الخير»، وهذا لا داعي له، فصفر شهر من الشهور، لا نعتقد فيه شرا ولا خيرا.

وكانت الطِيَرة عند العرب، وأصلها: أنهم كانوا إذا أرادوا فعل أمر أو تركه زجروا الطير حتى يطير؛ فإن طار يمينا أقدَموا، وإن طار شمالا أحجَموا! ومن ثمَّ اشتُق الاسم من هذا، ثم استعمل في غير الطَّيْرِ مما يتشاءم به.

ونُقِل عن بعض العرب الترفع عن ذلك، كما قال أحدهم:

وما أنا ممن يزجر الطيرَ، همُّهُ
أطارَ غرابٌ أم تعرَّضَ ثعلبُ
ولا السانحاتُ البارحاتُ عشيةً
أمَرَّ سليمُ القَرْنِ أم مَرَّ أعضبُ[(١)]

والسانح: ما ولاك ميامنَه، والبارِح: ما ولاك مياسرَه.

والتطيُّر قديم الوجود في الأمم؛ فقد أخبرنا الله - سبحانه - أن فرعون وقومه تطيروا بموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ومن معه، كما جاء في قوله - تعالى -: ﴿**فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾[الأعراف: ١٣١].

وقبل ذلك تشاءم قوم صالح بصالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقالوا: ﴿**ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ**﴾[النمل: ٤٧].

وكذلك أصحاب القرية تطيروا برسل الله إليهم، وقالوا: ﴿**إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ**﴾[يس: ١٨].

---

(١) ينظر: «زهر الآداب وثمر الألباب» (٢/ ٥٢٤).

وكان الرد عليهم جميعا: أن ما حَلَّ بهم من شر أو نقص في نفس أو مال، أو ما نزل بهم من عقوبة ما هو إلا من قِبَل أنفسهم؛ بسبب كفرهم وعنادهم واستكبارهم، وكله بتقدير الله، ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٣١].

- **أما الألفاظ ذات الصلة؛ فأهمها:**

أولا: العِيافة:

جاء في «النهاية»: «العِيَافَة: زَجْر الطَّير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرها. وهو من عادة العرب كثيرا. وهو كثير في أشعارهم. يقال: عاف يعِيفُ عَيْفا، إذا زجَر وحَدَس وظَنَّ. وبنو أسد يذكرون بالعيافة ويوصفون بها»[١].

قال لبيد:

لَعَمْرُكَ ما تدرِي الضوارِبُ بالحَصى ولا زاجراتُ الطير ما اللهُ صانعُ[٢]

والفرق بينهما:

أنَّ العِيَافة: زجر الطير، وقد ينجم عنها تفاؤل أو تشاؤم. **أما الطِيَرة**: فهي تشاؤم بالطير أو بغيره.

عن أم كُرْز أنها سمعت النبِيَّ ﷺ يقول: «**أَقِرُّوا الطَّيْرَ عَلَى مَكِنَاتِهَا**»[٣].

---

(١) «النهاية» (٣/ ٣٣٠).

(٢) «الشعر والشعراء» لابن قتيبة (١/ ٢٧١).

(٣) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٢٨٣٥)، وأحمد (٢٧١٣٩)، وصححه الألباني.

وفي «عون المعبود» (٨/ ٢٦): «(**مَكِنَاتِها**): قال الطيبي: بفتح الميم وكسر الكاف، جمع مَكِنة، وهي: بيضَة الضَّبِّ، ويُضَم الحرفان منها أيضا ... قال أبو عبيد: جائز في الكلام أن

والمعنى: أي اتركوا الطير ولا تحركوها، كما كان يصنعه أهل الجاهلية، فإن تحريكها وما يتبعه من الطيرة لا يصنع شيئا، وإنما يصنع فيما تتوجهون له قضاء الله - عز وجل -.

ثانيا: الفأل: وسيأتي في مبحث خاص، إن شاء الله - تعالى -.

ooo

المبحث الثاني: صور التطير، وحكمها:

إذا أراد المرءُ عملَ شيء ما كسَفر أو تجارة أو زواج، ثم سمع أو رأى شيئا يقع به التطيُّر، **فلا يخلو من أربعة أحوال:**

الأول: أن يعتقد أن هذا الشيء يُحدِث الأثر بذاته، وأنَّ من خصائصه النفعَ والضر. **وهذا شرك أكبر في جانب الربوبية.**

الثاني: أن يعتقد أن هذا الشيء سبب لحصول الأثر، والفاعل هو الله - تعالى -، فتجده يُحجِم ويتراجع عن عمله ويستجيب لهذه الطيرة. **وهذا شرك أصغر؛ بناء على قاعدة الأسباب.**

يُستعار مَكِن الضِّبَاب، فيجعل للطير. وقيل: المَكِنات بمعنى الأمكنة؛ يقال: (الناس على مَكِناتهم وسَكِناتهم)، أي: على أمكنتهم ومساكنهم. ومعناه: أن الرجل في الجاهلية كان إذا أراد حاجة أتى طيرا ساقطا، أو في وكره، فنَفَّرَه؛ فإن طار ذات اليمين مضى لحاجته وإن طار ذات الشمال رجع، فنُهُوا عن ذلك، أي: لا تزجروها وأَقِرُّوها على مواضِعها التي جعلها الله لها؛ فإنها لا تضر ولا تنفع».

الثالث: أن يمضي لكن في قلق وهَمٍّ وغَمٍّ، يخشى من تأثير هذا المتطَيَّر به. **وهذا أهوَنُ مما قبلَه، لكن فيه نقص في التوحيد، وضعف في القلب، وضعف في تحقيق مقام التوكل.**

الرابع: ألا يلتفت له، بل يمضي بإقدام وانشراح صدر، متوكِّلا على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، محسِنا الظنَّ بربه، متعلقا برجائه. **وهذا هو الواجب المطلوب من المسلم.**

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إنْ مَضَيْتَ فمُتَوكِّل، وإنْ نَكَصْتَ فمُتَطَيِّر»[1].

ooo

المبحث الثالث: الأحاديث الواردة في التطير:

الأول: حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، وسبق في أوائل كتاب التوحيد «باب من حقق التوحيد دخل الجنة بلا حساب ولا عذاب». والشاهد منه أن النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصف هؤلاء السبعين ألفًا، فقال: «**هُمُ الَّذِينَ لا يَسْتَرْقُونَ، وَلا يَتَطَيَّرُونَ، وَلا يَكْتَوُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**»[2].

فمن أراد أن يكون من هؤلاء فَلْيَنْأَ بنفسه عن التطير والتشاؤم.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (١٠/٤٠٤)، والبيهقي في «الشعب» (١١٣٢).

(٢) تقدم تخريجه.

الثاني: أحاديث فيها نفي التطَيُّر؛ مثل ما جاء من حديث جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ومن حديث غيره أن النبي ﷺ قال: «**لَا عَدْوَى، وَلَا طِيَرَةَ**»[١].

وهذا نَفْي بمعنى النَّهي، وحينما يأتي النَّهْي بصيغة النَّفي فهذا في اللغة أبلغ من صيغة النهي.

كما في حديث: «**لا يَبِيعُ الرَّجُلُ عَلَى بَيْعِ أَخِيهِ**»[٢]، هذا نفي، وهو أبلغ من صيغة النَّهي.

الثالث: حديث ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النَّبي ﷺ قال: «**الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، الطِّيَرَةُ شِرْكٌ. وما مِنَّا إلا، ولكن الله يُذهبُهُ بالتَّوَكُّل**»[٣]، وآخره (ومَا مِنَّا إلَّا ...)، هذا من كلام ابن مسعود، أي: ما منا إلا وقد يعتريه هذا الأمر، ويرد عليه، لكن الله - تعالى - يذهبه بالتوكل، وتمام اعتماد القلب على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

الرابع: حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: أنَّ النَّبي ﷺ قال: «**مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ عَنْ حَاجَتِهِ فَقَدْ أَشْرَكَ**». قالوا: يا رسولَ اللَّهِ، ما كفَّارةُ ذلكَ؟ قال: «**أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ لا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، وَلَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ**»[٤].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٢١٤٠)، ومسلم (١٤١٢).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

الخامس: حديث معاوية بن الحَكَم السُّلمي لما جاء إلى النَّبي ﷺ، وفيه أنه قال: ومِنَّا رِجَالٌ يَتَطَيَّرُونَ. قال ﷺ: «**ذَاكَ شَيْءٌ يَجِدُونَهُ فِي صُدُورِهِمْ، فَلَا يَصُدَّنَّهُمْ** - وفي رواية: فَلَا يَصُدَّنَّكُمْ -»[(١)].

السادس: حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: «**لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ. وَالشُّؤْمُ فِي ثَلَاثٍ: فِي الْمَرْأَةِ، وَالدَّارِ، وَالدَّابَّةِ**»[(٢)]. وعند مسلم قال: «**إِنْ كَانَ الشُّؤْمُ فِي شَيْءٍ، فَفِي: الْفَرَسِ، وَالْمَسْكَنِ، وَالْمَرْأَةِ**».

وهذا الحديث يحتاج إلى وقفة، وهو من الأحاديث المُشكِلة التي أشكَل معناها، وأطال الشُّرَّاح وأهل العلم في الكلام عليه.

ووجه الإشكال: أنه أثبت الشُّؤم في هذه الأشياء الثلاثة (المرأة، والدَّار، والفرس)، بينما نهى عن الشؤم، ونفَى الشؤم، وحذَّر من الشؤم الذي هو التطيُّر، وبيَّن أنه شرك، فكيف نجمع بين هذا الحديث والأحاديث السابقة؟

الجواب: أن يقال: إن الأحاديث الواردة في هذا على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما ورد فيها إثبات الشُّؤم كقوله ﷺ: «**الشُّؤْمُ فِي ثَلاثٍ**»[(٣)]، و«**إِنَّمَا الشُّؤْمُ فِي ثَلاثٍ**»[(٣)].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٥٧٧٣) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٢٢٥).

(٣) تقدم تخريجه.

القسم الثاني: ما ورد بصيغة التعليق: «**إِنْ كَانَ الشُّؤْمُ فِي شَيْءٍ، فَفِي: الدَّارِ، وَالْمَرْأَةِ، وَالفَرَسِ**»[1]. وأكثر روايات الصحابة لهذا الحديث جاءت بصيغة التعليق، جاء هذا من رواية سهل بن سعد في صحيح مسلم[2]، وجاء من حديث جابر[3]، ومن حديث سعد بن أبي وقاص[4]، وأبي سعيد[5]، وأنس[6]، بل جاء من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نفسه في صحيح مسلم بهذه الصيغة[7].

القسم الثالث: ما ورد فيها نفيُ الشؤم حتى عن هذه الثلاث؛ فعن أبي حسَّانٍ، قال: دَخَلَ رَجُلَانِ مِنْ بَنِي عَامِرٍ عَلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَأَخْبَرَاهَا أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُحَدِّثُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّهُ قَالَ: «**الطِّيَرَةُ فِي: الدَّارِ، وَالْمَرْأَةِ، وَالْفَرَسِ**»، فَغَضِبَتْ فَطَارَتْ شِقَّةٌ مِنْهَا فِي السَّمَاءِ، وَشِقَّةٌ فِي الْأَرْضِ! وَقَالَتْ: وَالَّذِي أَنْزَلَ الْفُرْقَانَ عَلَى مُحَمَّدٍ، مَا قَالَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَطُّ، إِنَّمَا قَالَ: «**كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَتَطَيَّرُونَ مِنْ ذَلِكَ**»، ثم قرأتْ عائشةُ:

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ينظر: صحيح البخاري (٢٨٥٩ و٥٠٩٥)، ومسلم (٢٢٢٦).

(٣) ينظر: صحيح مسلم (٢٢٢٧).

(٤) ينظر: سنن أبي داود (٣٩٢١)، ومسند أحمد (١٥٥٤).

(٥) ينظر: «تهذيب الآثار»، مسند علي (٥٩ و٦٠)، و«شرح معاني الآثار» (٧١٠٤).

(٦) ينظر: سنن أبي داود (٣٩٢٤).

(٧) تقدم تخريجه.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآ﴾ [الحديد: ٢٢][1].

فكأنها خطَّأت هذه الرواية، وبيَّنَت الصواب في هذا الحديث.

وبعد هذا العرض نقول:

إنَّ الأصحَّ والأقرب في لفظ الحديث هو رواية جمهور الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ، بل حتى ابن عمر الذي روى صيغة الحصر، ورد عنه التعليق: «**إِنْ كَانَ الشُّؤْمُ فِي شَيْءٍ فَفِي ...**»، كما مرَّ. فالأظهر - والله أعلم - أن الحديث جاء بصيغة التعليق: «**إِنْ كَانَ الشُّؤْمُ فِي شَيْءٍ، فَفِي: ...**».

وهل هذه الصيغة تفيد إثبات الشؤم في هذه الأشياء أو نفيه؟

الجواب: هذه الصيغة لا تفيد إثبات الشؤم، بل هي إلى النفي أقرب، كما قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُٱللَّهُ: «إن هذا التعبير إلى النفي أقرب منه إلى الإيجاب؛ لأن قول القائل: إن كان في هذه الدار أحدٌ فزَيْدٌ، غير إثبات منه أن فيها زيدا، بل ذلك إلى النفي أقرب»[2].

فالمعنى أنه ليس في البيت أحد، لا زيد ولا غيره، وإن وجد فهو زيد.

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (٢٦٠٨٨) وفي مواضع أخرى، والحاكم (٣٧٨٨) وصححه ووافقه الذهبي. وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٢) «تهذيب الآثار» (٣/ ٣٢).

والخلاصة:

من جهة الرواية: فالمحفوظ في الحديث صيغة التعليق: «**إِنْ كَانَ الشُّؤْمُ فِي شَيْءٍ، فَفِي**: ...»، أو «**إِنْ يَكُنِ الشُّؤْمُ فِي شَيْءٍ، فَفِي**: ...». وهذا الذي عليه أكثر الروايات.

ومن جهة المعنى: فإن هذا اللفظ لا يفيد إثبات الشؤم، بل هو أقرب إلى نفي الشؤم. **ويدل على ذلك ويقرره أيضا عدة أمور؛ منها:**

نفي عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، وهي من فقهاء الصحابة؛ فإنها نفت هذا الأمر على وجه الجزم والتأكيد.

أنه لا يستقيم النَّهي عن الطِّيَرة، والتحذيرُ منها، وبيان أنها شرك، ثم إثباتها!.

أن راوي الحديث الذي فيه إثبات الشؤم في هذه الثلاث ورد عنه رواية بغير الجزم توافق رواية الأكثرين، وهي رواية التعليق: «**إِنْ كَانَ الشُّؤْمُ فِي شَيْءٍ، فَفِي**: ...».

وخلاصة ما دلت عليه النصوص الواردة في الطيرة:

أولا: التطير من أعمال الجاهلية، وذكره الله عن أعداء الرسل.

ثانيا: التطير من الشرك، والشرك بحسب اعتقاد صاحبه؛ لحديث ابن مسعود وابن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

ثالثا: لا علاقة بين ما يُتَطَيَّر منه، وبين حصول المضار أو فوات المنافع.

كما في أحاديث: «**لا طِيَرَةَ**»[1]، وحديث: «**لَا تَرُدُّ مُسْلِمًا**»[2]، وحديث معاوية بن الحكَم: «**ذَاكَ شَيْءٌ يَجِدُونَهُ فِي صُدُورِهِمْ، فَلَا يَصُدَّنَّهُمْ**»[3].

رابعا: تحريم الالتفات إلى هذه الواردات وتعلُّق القلب بها.

وقد كان النبيُّ ﷺ يتفاءل ولا يتطَيَّر، وأثنى على من ترك التطير، كما في حديث السبعين ألفا.

ولهذا ينبغي على المسلم أن يكون قويَّ القلب، ثابت الجنان، لا يلتفت إلى هذه الأمور والكلمات والمرئيات التي لا علاقة بينها وبين حدوث الأثر والمسبَّب.

- **وقد امتثل السلف ذلك تماما:**

فمن هذا ما جاء عن عكرمة قال: كنتُ عندَ عبدِ اللهِ بن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَمَرَّ طَائِرٌ يَصِيحُ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ: خَيْرٌ خَيْرٌ. فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «مَا عِنْدَ هَذَا خَيْرٌ وَلَا شَرٌّ»[4].

وقال ابنُ عبد الحكم: لما خرج عمر بن عبد العزيز من المدينة، قال مُزاحِمٌ: فنظرت فإذا القمر في الدَّبَرانِ[5]، فكرهت أن أقول له، فقلتُ: ألا تنظر إلى القمرِ، ما أحسن استواءَه في هذه الليلة! قال: فنظر عمرُ فإذا هو في الدَّبَران،

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) «المنتقى شرح الموطأ» (٧/ ٢٩٤).

(٥) في «الصحاح» مادة «دبر» (٢/ ٦٥٣): «هو من منازل القمر».

فقال: كأنك أردت أن تعلِمَني أن القمر في الدَّبَران يا مُزاحِم! إنا لا نخرج بشمس ولا بقمر، ولكنا نخرج بالله الواحد القهار[1].

ooo

المبحث الرابع: علاج التطير:

أولا: استحضار خطَر الطِّيَرة، وقدحها في جناب التوحيد.

فإذا استحضر المسلم خطورة الأمر، وأنه يرقى إلى مرتبة الشرك؛ أورث له ذلك البعدَ والتحرُّز منها؛ صيانة لتوحيده وتجريد العبادة لربه - تعالى-.

ثانيا: تحقيق مقام التوكل، وتعلق القلب بالله - تعالى -.

فإذا توكل العبد على ربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وسلَّم له، وفوَّض إليه أمره؛ أمدَّه الله بالقوة والعزيمة والصبر، بخِلاف من التفت إلى الطِّيَرة، فإنها تجلب للعبد الخوف والهم والقلق.

ثالثا: الدعاء، ولا سيما الوارد. ومنه: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ**»[2]، ومنه - أيضا -: «**اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، وَلَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ**»[3].

---

(١) «سيرة عمر بن عبد العزيز» لابن عبد الحكم ص ٣٢.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٧١٦)، وأبو يعلى في مسنده (٥٨)، وصححه الألباني.

(٣) تقدم تخريجه.

رابعا: حسن الظن بالله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وتقوية جانب الرجاء به.

خامسا: تقوية الإيمان بالقضاء والقدر، وتيقن أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبَك.

سادسا: الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم؛ لأن هذا من نزغات الشيطان ومن توهيمه، والله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ يقول: ﴿**وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ**﴾ [فصلت: ٣٦].

سابعا: الاستخارة والاستشارة عند التردد، أي: استخارة الخالق، واستشارة المخلوق. وقد قيل: ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار.

○○○

المبحث الخامس: الفأل. وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: معنى الفأل:

هو أن تسمع كلاما حسنا فتتيمن به، كأن يكون الرجل مريضا فيسمع آخر يقول: يا سالم، أو يكون قد فقد شيئا، وطفق يبحث عنه، فسمع آخر يقول: يا واجد، فيتفاءل أنه سيجد هذا الشيء المفقود. هذا هو معنى الفأل أو التفاؤل.

المطلب الثاني: الأحاديث الواردة في الفأل:

ورد في الفأل عِدَّة أحاديث؛ منها:

عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا طِيَرَةَ، وَخَيْرُهَا الفَأْلُ**». قَالُوا: وَمَا الفَأْلُ؟ قَالَ: «**الكَلِمَةُ الصَّالِحَةُ يَسْمَعُهَا أَحَدُكُمْ**»(١).

وعن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «**لا عَدْوَى وَلا طِيَرَةَ، وَيُعْجِبُنِي الفَأْلُ**». قَالُوا: وَمَا الفَأْلُ؟ قَالَ: «**كَلِمَةٌ طَيِّبَةٌ**»(٢).

وعن بُرَيْدة بن الحُصيب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ لَا يَتَطَيَّرُ مِنْ شَيْءٍ، وَكَانَ إِذَا بَعَثَ عَامِلًا سَأَلَ عَنِ اسْمِهِ، فَإِذَا أَعْجَبَهُ اسْمُهُ فَرِحَ بِهِ وَرُئِيَ بِشْرُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، وَإِنْ كَرِهَ اسْمَهُ رُئِيَ كَرَاهِيَةُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، وَإِذَا دَخَلَ قَرْيَةً سَأَلَ عَنِ اسْمِهَا، فَإِنْ أَعْجَبَهُ اسْمُهَا فَرِحَ وَرُئِيَ بِشْرُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، وَإِنْ كَرِهَ اسْمَهَا رُئِيَ كَرَاهِيَةُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ»(٣).

وعن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُعْجِبُهُ إِذَا خَرَجَ لِحَاجَتِهِ أَنْ يَسْمَعَ: يَا رَاشِدُ، يَا نَجِيحُ(٤).

أي: إذا سمع «راشد» يتفاءل بالرُّشد، وإذا سمع «نجيح» يتفاءل بالنجاح.

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٥٧٥٤ و٥٧٥٥)، ومسلم (٢٢٢٣).

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٥٧٥٦ و٥٧٧٦)، ومسلم (٢٢٢٤).

(٣) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٣٩٢٠)، وأحمد (٢٢٩٤٦)، وابن حبان (٥٨٢٧)، والنسائي (٨٧٧١)، وصححه الألباني.

(٤) **صحيح**: أخرجه الترمذي (١٦١٦) وقال: حديث حسن صحيح غريب، والطبراني في الأوسط (٤١٨١)، وصححه الألباني.

وجاء في حديث صلح الحديبية الطويل، وما جرى فيها من مفاوضات بين النَّبي ﷺ وقريش: أنَّ قريشًا لما بعثتْ سُهَيْلَ بنَ عمروٍ مفاوضا، ورآه النبي ﷺ، قال: «**لَقَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ**»[1]، تفاءَل باسمه سهيل، إشارة إلى سهولة الأمر وانفراجه.

وظهر من هذه الأحاديث - ظهورا جليًّا - معنى الفأل، ومشروعيته، وأنه كان مما يُعجب النبي ﷺ ويحبه.

وأُنبِّه - هنا - على حديث مشهور شائع على ألسنة الناس، وهو قولهم: «تفاءلوا بالخير تجدوه»[2]، وهذا لا يصح عنه ﷺ.

المطلب الثالث: الفرق بين الفأل والتطير:

الفأل والتطير كلاهما فيه تأثير على النفس، لكن الفأل يبعث على انشراح النفس، ورجاء الخير، وقوة القلب، وليس فيه تأثير على العقيدة أو تعلق القلب بغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

أما التطير فيبعث على سوء الظن، وضعف القلب، وانشغال الفكر، وتوقع البلاء والشر، وحلِّ العزيمة، وهو - فوق ذلك - ثَلْم في بناء التوحيد.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٧٣١). وهو عند مسلم مختصرا (١٧٨٤)، وبدون موضع الشاهد.

(٢) قال الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «السلسلة الضعيفة» (١٣/ ٨٢٩): «لا أعرف له أصلا».

المطلب الرابع: ضابط الفأل المشروع[1]:

أولا: أن يقع اتفاقا لا قصدا.

بمعنى: أنه لا يُرتَّب له؛ فمثلا: لو كان عند شخص امتحان غدا، فاتَّفق مع صديقه، يقول له: إذا خرجتُ في الصباح من البيت، فاخرج وقُل: يا ناجح يا ناجح!، فهذا ليس من الفأل، وإنما الفأل يقع اتفاقا لا قصدا.

ثانيا: ألا يتعلق قلبُه به، فيكون هو الحاملَ له على العمل، أو يظنه سببا في زوال الضر.

قال ابن تيمية: «والفأل الذي يحِبُّه ﷺ هو: أن يفعل أمرا أو يعزم عليه متوكلا على الله، فيسمع الكلمة الحسنة التي تسُرُّه، مثل أن يسمع: يا نجيح، يا مفلح، يا سعيد، يا منصور، ونحو ذلك»[2].

ومن الصور الخاطئة في هذا الباب: أخذ الفأل من المصحف. أي: فتحه والنظر فيما يخرُج، وبناءُ التصرُّف على ذلك، فيكون الشخص متردِّدًا في أمر، فيفتح المصحف، وأولُّ ما تقع عينه عليه يطلب الفأل منه. فإن وقعت عينه على ما يسر - كالجنة، والرزق، والمطر، ونحوها -، تفاءل وأقدم على عمله. وإن

---

(١) مستفاد من «التوكل» للدميجي ص٢٤٩.

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٦٦).

وقعت عينُه على كلمة لا تسُرُّ - كالنار والعذاب والجوع ونحوها -، يُحجم ويترك الفعل.

وهذا محرم، وهو من جنس الاستقسام بالأزلام، ولأنه قد يخرج له ما لا يريد فيؤدي ذلك إلى التشاؤم بالقرآن! بخلاف الفأل الحسنِ الذي يأتي بعد مباشرة الإنسان للعمل، فيسمع كلمة حسنة دون قصد ولا بحث.

تنبيه:

ينبغي التفريق بين هذه الصورة وما سبق في الصور المعاصرة للكهانة؛ ففي الباب السابق كان يُؤخذ من النظر في المصحف علمُ الغيب. وصورته: أن يأتي الكاهنَ ونحوَه شخصٌ يسأله عن أمر يخصه، فيقول له الكاهن: افتح المصحف، فإذا وقعت عينُه على كلمة خير، قال: سيكون لك كذا، ستربح في هذه التجارة، ستنجح في عملك، فيَبْنِي علم الغيب على النظر! ففيه ادِّعاء علم الغيب، ولهذا ذكرناه هناك لما تكلمنا عن ادِّعاء علم الغيب.

أما هنا ليس فيه ادِّعاء علم الغيب، وإنما يبني تصرُّفَه إقداما أو إحجاما على هذا النظر.

والصورة الأولى أشد، كما هو واضح؛ لأن فيها ادعاء علم الغيب.

* * *

٣٠- باب قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وَقَوْله: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ ...﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ...﴾ [التوبة: ٢٤] الآيَةَ.

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[١]. أَخْرَجَاهُ.

وَلَهُمَا عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ، وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»[٢].

وَفِي رِوَايَةٍ: «لَا يَجِدُ أَحَدٌ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى ...»[٣]، إِلَى آخِرِهِ.

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤).

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (١٦) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٤٣).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٠٤١).

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ فِي اللَّهِ، وَأَبْغَضَ فِي اللَّهِ، وَوَالَى فِي اللَّهِ، وَعَادَى فِي اللَّهِ، فَإِنَّمَا تُنَالُ وَلَايَةُ اللَّهِ بِذَلِكَ، وَلَنْ يَجِدَ عَبْدٌ طَعْمَ الْإِيمَانِ - وَإِنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ وَصَوْمُهُ - حَتَّى يَكُونَ كَذَلِكَ، وَقَدْ صَارَتْ عَامَّةُ مُؤَاخَاةِ النَّاسِ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا، وَذَلِكَ لَا يُجْدِي عَلَى أَهْلِهِ شَيْئًا»(١). رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦] قَالَ: «الْمَوَدَّةُ»(٢).

ooo

الشرح:

ذكر المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ في هذا الباب آيتين وحديثين وأثرَيْن.

والكلام على هذا الباب في الفصلين التاليين:

* * *

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٤٧٧٠)، والمروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٣٩٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٠٦٩)، ولم أجده عند الطبري.

(٢) تفسير الطبري (٣/ ٢٧).

الفصل الأول: مقصود الباب، وموضوعه العام

عقد المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب لبيان أنَّ من المحبة ما يصلح إلا لله - عز وجل -، وهي محبة العبودية المستلزمة للذُّل والخضوع وكمال الطاعة، فيجب أن يوحد اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بها، ومن صرفها لغيره وقع في الشرك.

وترجم الشيخ لهذا الباب بآية من القرآن، ويمكن أن يعنون الباب بـ: «باب المحبة».

* * *

الفصل الثاني: المباحث الموضوعية

المبحث الأول: أهمية العناية بعمل القلب، وأسباب صلاحه[1]:

شرع الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب في ذكر بعض الأعمال القلبية، بدأها بالمحبة، وسيُتْبِعُه أبوابا لغيرها من أعمال القلوب؛ كالخوف، والتوكل، والإخلاص، وغيرها.

ويظن بعض الناس أن أعمال القلوب من الكمالات والنوافل، وهذا خطأ.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أعمال القلوب من أصول الإيمان وقواعد الدين؛ مثل: محبة الله ورسوله، والتوكل على الله، وإخلاص الدين له، والشكر له، والصبر على حُكْمه، والخوف منه، والرجاء له، وما يتبع ذلك. فهذه الأعمال جميعها واجبة على جميع الخلق باتفاق أئمة الدين»[2].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وطائفة تظُن أن التوكل إنما هو من مقامات الخاصة المتقربين بالنوافل، وكذلك قولهم في أعمال القلب وتوابعها؛ من: الحب،

(١) مستفاد من: «عمل القلب الفريضة الغائبة» للكنهل.

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/٦) بتصرف يسير.

والرجاء، والخوف، والشكر، ونحوه! وهذا ضلال مبين، بل جميع هذه الأمور فرض على الأعيان باتفاق أهل الإيمان»[١].

إذن، المسألة عظيمة، وفي غاية الأهمية، ومن فروض الأعيان، وهذا من نفيس العلم الذي يُعَضُّ عليه بالنواجذ. ولعلي أعرض الموضوع من خلال مطلبين:

المطلب الأول: أهمية العناية بعمل القلب:

تتجلى أهمية العناية بأعمال القلوب من خلال الأمور الآتية:

أولا: القيام بفرض عيني:

فالمسألة ليست من الكمالات أو المستحبات، بل هي فرض من فروض الأعيان.

ثانيا: صلاح الجوارح بصلاح القلب:

كما قال النَّبي ﷺ في الحديث المشهور: «**أَلا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلا وَهِيَ القَلْبُ**»[٢].

فالقلب مِلِكُ الأعضاء؛ صلاحها بصلاحه وفسادها بفساده.

---

(١) «مختصر الفتاوى المصرية» ص١٢٣.

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩)، من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وجاء في أثرٍ عن سلمان الفارسي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه قال: «لِكُلِّ امْرِئٍ جَوَّانِيٌّ وَبَرَّانِيٌّ، فَمَنْ أَصْلَحَ جَوَّانِيَّهُ أَصْلَحَ اللَّهُ بَرَّانِيَّهُ، وَمَنْ أَفْسَدَ جَوَّانِيَّهُ أَفْسَدَ اللَّهُ بَرَّانِيَّهُ»(١).

ثالثا: القلب كثير التَّقلُّب:

كما ورد في الحديث عن النَّبي ﷺ أنه قال: «**لَقَلْبُ ابْنِ آدَمَ أَشَدُّ انْقِلَابًا مِنَ الْقِدْرِ إِذَا اجْتَمَعَ غَلَيَانًا**»(٢)، وكان أكثر دعاءِ النَّبي ﷺ: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**»(٣).

وكما قال القائل:

وما سُمِّي الإنسانُ إلا لنَسْيِهِ ... ولا القلبُ إلا أنه يتقَلَّبُ

فالقلب سريع التقلُّب، ونرى من حولنا كثرة التَّحوُّلات والانحرافات والتغيُّرات؛ فهذا مما يُوجب على الإنسان أن يعتني بأمر قلبه وما يصلحه، وأن يسأل الله أن يثبِّته.

---

(١) أخرجه أبو داود السجستاني في «الزهد» (٢٥٩)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٢٠٣)، وابن المبارك في «الزهد» ص١٧.

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد (٢٣٨١٦)، والحاكم (٣١٤٢)، من حديث المقداد بن الأسود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ. وقال الحاكم: «صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في الصحيحة (١٧٧٢).

(٣) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٢١٤٠)، وابن ماجه (٣٨٣٤)، وصححه الألباني.

رابعا: خفاء أعمال القلوب ودقتها حتى على بعض الصالحين:

كما جاء في الحديث أنه ﷺ قال: «**أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ؛ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ**»(١)، فهو خفِيٌّ، وهذا مما يُوجب العناية به.

خامسا: كثرة النصوص في ذكر القلب:

كل قارئ للقرآن بتأمُّلٍ وتدبرٍ لا تُخطِئه هذه الملحوظة، حتى أحصى بعضهم مئة وثلاثين موضعًا في القرآن تتعلق بالقلب، وهذا دليل على أهميته.

سادسا: القلب موضع نظر الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا ينظر إلى صورنا، ولا إلى أجسامنا وإنما ينظر إلى قلوبنا وأعمالنا، كما قال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**»(٢).

سابعا: تفاضُل الأعمال عند الله - تعالى - بحسب ما في قلوب العاملين:

فالتفاضل ليس بكثرة العمل فحسب، وإنما بما يقوم في القلب. **وهذه القاعدة دلَّ عليها عِدَّة نصوص؛ منها:**

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٩٥٤٧)، وأحمد في «المسند» (١٩٦٠٦)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بإسناد فيه مقال يسير، غير أنَّ له شواهد كثيرة تقوِّيه، وقد صححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٧٣٠).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٦٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡ﴾ [الحج: ٣٧].

وقال ﷺ: «**لا تَسُبُّوا أَصْحَابِي؛ فلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أحدٍ ذهبًا، ما بَلَغَ مُدَّ أحدِهم ولا نَصِيفَهُ**»(١)، بمعنى: لو أنَّ أحدًا تصدَّق بمثل جبل أحد من الذهب، ما ساوى صدقة الصحابي بمقدار المُدِّ، الذي هو: ملءُ الكفَّينِ. وإنَّما بلغ الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ هذه المنزلة السامية بما كان في قلوبهم من الإيمان واليقين.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تفاضُل الأعمال عند الله بتفاضل ما في القلوب من: الإيمان، والإخلاص، والمحبة، وتوابعها»(٢).

وقال حسان بن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الرجلَينِ ليكونان في الصَّلاة الواحدة، وإن ما بينهما في الفضل كما بين السماء والأرض، وذلك أن أحدَهُما مُقبِلٌ بقلبه على الله، والآخر ساهٍ غافل»(٣).

ولهذا نلاحظ أن جملة من الأعمال عُلِّق ثوابها على أعمال القلوب؛ كما في قوله ﷺ: «**إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ ...**»(١)، وقوله ﷺ: «**مَنْ صَامَ رَمَضَانَ، إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا...**»(٢)، وقوله ﷺ: «**مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا...**»(٣)، وهكذا.

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

(٢) «الوابل الصيب» ص١٠.

(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٢/ ٢٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٧١)، وإسناده صحيح.

ثامنا: العناية بالقلب سبب النجاة:

دلَّ على ذلك عدَّة أدلة؛ منها:

١- قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]، فالنجاة يوم القيامة، يوم الفزَع والأهوال، والشَّدائد العظام، إنما هي لمن أتى الله بقلب سليم.

٢- وقال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿**وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ**﴾ [ق: ٣١-٣٣].

٣- وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في وصف أهل الإيمان: ﴿**إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾ [الأنفال: ٢]، ولاحِظ وصفهم بهذه الأوصاف التي كلُّها من أعمال القلوب (الوَجَل والتوكُّل)، ثم قال: ﴿**ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ**﴾ [الأنفال: ٣]، فقدَّم أعمال القلوب؛ لأنها الأصل والأهم، ثم أتبعها بأعمال الجوارح.

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٥٦) وفي مواضع أخرى، ومسلم (١٦٢٨)، من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣٨ و٢٠١٤)، ومسلم (٧٦٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣٧) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٧٥٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

تاسعا: فساد القلب سببُ الخُسران:

ونعني الخسارة في الآخرة، قال الله – جلَّ وعلا –: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]، وقال: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩] وقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في خبر الثلاثة الذين هم أول من تُسعَّر بهم النار يوم القيامة: قارئ القرآن طالب العلم، والمجاهد في سبيل الله، والمنفق في سبيل الله(١)، لكنهم بلغوا هذه الدَّرَكة لما أَخَلُّوا بعمل من أعمال القلوب؛ وهو الإخلاص.

عاشرا: صلاح القلب طريق إلى حلاوة الإيمان:

فالإيمان له حلاوة وطعم مميز؛ كما في حديث الباب: أنَّ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ** ...»(٢)، وفي الحديث الآخر قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ باللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا**»(٣).

---

(١) ينظر: صحيح مسلم (١٩٠٥).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٣٤)، من حديث العباس بن عبد المطلب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

والمحبة في الحديث الأول، والرضا في الحديث الثاني، كلاهما من أعمال القلوب.

ونستفيد من هذين الحديثين أن الطريق إلى تذوُّق حلاوة الإيمان وطعمه هو العناية بأعمال القلوب؛ كالمحبة والرضا.

ومن آثار ضَعْفِ العناية بأعمال القلوب كثرةُ الأمراض النفسية: كالقلق، والاكتئاب، وضيق الصَّدر ونحوها؛ لأن القلوبَ إذا تعلَّقت بالدُّنيا وحُطامها، وضعف تعلقها بخالقها، أورث ذلك ضعفا في القلب، فتواردت عليه العِلل، وكلما كان القلب متعلقا بالله، كان قويًّا ثابتا شجاعا تتوالى عليه مشاعرُ الرضا، والطمأنينة، والسعادة.

ولهذا نرى بعض الفقراء يعيش في سعادة وانشراح صدر وراحة بال مع ضيق المعيشة، ونرى بعض الأغنياء المترفين يعيش في ضيق ونكد. ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن في الدنيا جنة من لم يدخلها، لم يدخل جنة الآخرة»[(١)].

وقال بعض الصالحين: مساكين أهل الدنيا، خرجوا من الدُّنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها، فقيل له: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله والأنس به، والشوق إلى لقائه، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه[(٢)].

---

(١) نقلها عنه تلميذه ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ٤٥٢)، وفي مواضع أخرى من كتبه.

(٢) نسبه ابن رجب لابن المبارك وغيره، كما في «مجموع رسائل ابن رجب» (٢/ ٨٠٢).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «في القلب شعَثٌ لا يلُمُّه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس به في خلوته، وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته وصدقُ معاملته، وفيه قَلَق لا يُسَكِّنُه إلا الاجتماع عليه والفرار إليه، وفيه نيرانُ حسَرات لا يطفِئُها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه، ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه، وفيه فاقَةٌ لا يسدُّها إلا محبته، والإنابة إليه، وداوم ذكره، وصدق الإخلاص له، ولو أُعطِي الدُّنيا وما فيها لم تُسَدَّ تلك الفاقَة منه أبدًا»(١).

حادي عشر: إهمال القلب له أثر وارتباط بسوء الخاتمة:

فمن أسباب سوء الخاتمة إهمالُ العبد قلبه، نعوذ بالله من ذلك.

وقد أُشِير إلى ذلك في حديث سهل بن سعد أن النَّبي ﷺ قال: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَإِنَّهُ لَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ**»(٢).

وزاد البخاري في إحدى الروايات: «**وَإِنَّمَا الأَعْمَالُ بِخَوَاتِيمِهَا**»(٣).

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قوله ﷺ: «**فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ**»، إشارة إلى أن باطنَّ الأمر يكون بخلاف ذلك، وأن خاتمة السوء تكون بسبب دسيسة

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ١٥٦).

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٢٨٩٨) وفي مواضع أخرى، ومسلم (١١٢).

(٣) «صحيح البخاري» (٦٤٩٣).

باطنة لا يطَّلع عليها الناس، إما من جهة عمل سيٍّء ونحو ذلك، فتلك الخصلة الخفِيَّة تُوجب سوء الخاتمة عند الموت»[1].

وسوء الخاتمة هو الأمر الذي أقضَّ مضاجِع الصالحين، وأسهر ليلهم، وأظمأ نهارهم، وهذا مما يدعو المسلم إلى شدة الاعتناء بقلبه وداخلة أمره.

ثاني عشر: في صلاح القلب بركة العمل:

فإذا صلح القلب بارك الله في العمل القليل، وضاعف الأجر، كما جاء عن أبي الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ حكيم هذه الأمة، قال: «يَا حَبَّذَا نَوْمُ الأَكْيَاسِ وَفِطْرُهُمْ، كَيْفَ يَغبُنُونَ قِيامَ الْحَمْقَى وَصَوْمَهُمْ، وَلَمِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ بِرٍّ مِنْ صَاحِبِ تَقْوَى وَيَقِينٍ أَفْضَلُ مِنْ أَمْثَالِ الْجِبَالِ عِبَادَةً مِنَ الْمُغْتَرِينَ»[2].

وهذا أثر عظيم، وفيه فقه عميق، وعَلَّق علَّيه ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ فقال: «هذا من جواهر الكلام وأدلِّه على كمال فقه الصحابة، وتقدُّمِهم على مَن بعدهم»[3].

وحاصل الأمر أن العبد يسير إلى الله بقلبه لا ببدنه، فإذا صلح القلب فصاحبه في نَومه وفِطْرِه أفضل ممن كان في عبادة الصيام والقيام مع إهمال

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/ ١٧٢).

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (٧٣٨)، وابن أبي الدنيا في «اليقين» (٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢١١).

(٣) «الفوائد» ص ١٤١.

القلب، والتَّقوى في الحقيقة تقوى القلوب، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

وجاء عن عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «رُبَّ عَمَل صغير تُعظِّمُه النية، ورُبَّ عَمَل كبير تُصَغِّره النية»(١).

وقال بكر بن عبد الله المُزَني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما سبقكم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صوم، ولكن سبقكم بشيء وقر في قلبه»(٢).

ثالث عشر: عرض الفتن على القلوب:

فالقلب هو المحِل الذي تُعرض عليه الفتن، وبحسب قبوله لهذه الفتن يعظم اسودادُه، حتى يُغطَّى عليه، فلا يَعرِف معروفا ولا ينكر منكرا. كما جاء في الحديث: أنَّ النبي ﷺ قال: «**تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا: فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ ...**»(٣).

المطلب الثاني: أسباب صلاح القلب:

لا ريب أنَّ القلب لا يصلُح إلا بطاعة الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، ومن أعظم الطاعات التي تُثمر صلاحه:

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٧١).

(٢) السابق (١/ ١١٤).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (١٤٤)، من حديث حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ.

أولا: إخلاصُ العمل لله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

ثانيا: مناصحةُ أئمة المسلمين.

ثالثا: لزومُ الجماعة.

وقد اجتمعت في قوله ﷺ: «**ثَلاثٌ لا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ: إِخْلاصُ العَمَلِ لِلَّهِ، وَمُنَاصَحَةُ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ؛ فَإِنَّ الدَّعْوَةَ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ**»[1].

والمعنى أن هذه الخلال الثلاث تُستَصلَح بها القلوب، فمن تمسَّك بها طهُر قلبه من الخيانة والدَّغَل والشر.

رابعا: الاستعانة بالله - عزَّ وجلَّ -.

وهذه الاستعانة تتجلى في جانبين:

الأول: جانب قلبي، وهو: التوكل. بمعنى أن يتوكل العبد على ربه في صلاح قلبه، ويستحضر الافتقار والاضطرار إلى ربه في استقامة قلبه. قال تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ**﴾ [فاطر: ١٥].

---

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٢٦٥٨)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٠٨٦)، من حديث ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، وصححه الألباني. وهو عند غيرهما مختصرا بدون موضع الشاهد.
وللحديث شواهد كثيرة عن عدد من الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ، كما في هامش «مسند أحمد» (٢١/٦١)، بتحقيق الأرناؤوط وجماعة.

وبعض الناس يظن أن معنى التوكل على الله مرتبط بقضية الرزق وتحصيل المعاش فحسب، وتغيب عنه مثل هذه المعاني.

الثاني: جانب عملي، وهو: الدعاء. بأن يلهج الإنسان داعيا متضرِّعا إلى ربه أن يُصلح الله قلبَه؛ فيقول ويكرر: «اللّهم أصلح قلبي وعملي»، ونحو ذلك من الأدعية.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العجب ممن تَعْرِض له حاجة فيصرف رغبته وهمته فيها إلى الله ليقضيها له، ولا يتصدَّى للسؤال لحياة قلبه من موت الجهل والإعراض، وشفائه من داء الشهوات والشبهات، ولكن إذا مات القلب لم يشعر بمعصيته»(١).

وقال الرسول ﷺ: «**إِنَّ الْإِيمَانَ لَيَخْلَقُ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلَقُ الثَّوْبُ الْخَلِقُ، فَاسْأَلُوا اللَّهَ أَنْ يُجَدِّدَ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ**»(٢).

- **ولعلي أذكر بعض الأدعية التي تتعلق بهذا المطلب العزيز (صلاح القلب):**

فمنها ما جاء في قول الله – تعالى –: ﴿**رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ**﴾ [الأعراف: ١٢٦].

---

(١) «الفوائد» ص ١١٢.

(٢) **صحيح**: أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٥) واللفظ له، والطبراني في الكبير (٨٤)، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٥٨٥).

وقولُ: «اللّٰهمَّ جَدِّدِ الإيْمانَ فِي قُلُوبِنا»، كما أشار إليه الحديث السابق.

وقوله ﷺ: «**اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ، أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الْوَفَاةَ خَيْرًا لِي، اللَّهُمَّ وَأَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ، وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَنْفَدُ، وَأَسْأَلُكَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقَطِعُ، وَأَسْأَلُكَ الرِّضَاءَ بَعْدَ الْقَضَاءِ وَبَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَلَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَفِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ**»(١).

وقوله ﷺ: «**اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى**»(٢).

وقوله ﷺ: «**اللهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا تَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمَنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ، وَمَنَ الْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ عَلَيْنَا مَصَائِبَ الدُّنْيَا**»(٣).

وقوله ﷺ: «**اللهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ**»(١).

---

(١) **صحيح**: أخرجه النسائي (١٣٠٥و١٣٠٦)، وأحمد (١٨٣٢٥)، وابن حبان (١٩٧١)، من حديث عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٧٢١)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) **حسن**: أخرجه الترمذي (٣٥٠٢)، والحاكم (١٩٣٤)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وقال الترمذي: حديث حسن غريب، وقال الحاكم: حديث صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه، وحسنه الألباني.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٥٤)، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وقوله ﷺ: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ**»(١).

وقوله ﷺ: «**اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ**»(٢).

وقوله ﷺ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْبُخْلِ وَالْهَرَمِ، وَالْقَسْوَةِ وَالْغَفْلَةِ، وَالذِّلَّةِ وَالْمَسْكَنَةِ**»(٣).

ونحوها من الأدعية التي تدور في هذا الفلَك.

خامسا: تلاوة كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالتدبر والتفهُّم:

قراءة القرآن بالتدبر من أعظم ما يُصلح القلب. قال تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ**﴾ [يونس: ٥٧]، وما في الصدور هو القلوب.

وقال تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [الشورى: ٥٢] فسمَّاه الله رُوحا؛ لأنه تحيا به القلوب، كما أن الروح تحيا بها الأبدان، وسماه نورًا يهتدى به.

---

(١) **صحيح**: أخرجه ابن ماجه (١٩٩) وأحمد (١٧٦٣٠)، من حديث النَّوَّاس بن سمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٧٢٢)، من حديث زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) **صحيح**: أخرجه ابن حبان (١٠٢٣)، والحاكم (١٩٤٤)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني والأرناؤوط.

فتدبُّر القرآن يزيد الإيمان، ويقوِّي إرادة القلب، ويحثُّ على أعمال القلوب، كالتوكل، والإخلاص، ونحو ذلك.

سادسا: دوام ذكر الله – تعالى – على كل حال:

فيلهج المسلم بذكر الله، بلسانه وقلبه. قال تعالى: ﴿**أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ**﴾ [الرعد: ٢٨].

وقال ﷺ: «**مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لا يَذْكُرُ رَبَّهُ، مَثَلُ الحَيِّ وَالمَيِّتِ**»[١].

ومن أعظم الذِّكر: التوبة والاستغفار، كما جاء في الحديث أنه ﷺ قال: «**إِنَّ العَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُهُ**»[٢].

وكان النَّبِيُّ ﷺ يستغفر في اليوم مئة مرة[١]، مع أنه غُفِر له ما تقدم من ذنبه.

سابعا: زيارة الرجال للقبور:

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٦٤٠٧) واللفظ له، ومسلم (٧٧٩)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) **حسن**: أخرجه الترمذي (٣٣٣٤)، وابن ماجه (٤٢٤٤)، وأحمد (٧٩٥٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحسنه الألباني.

(١) ينظر: صحيح مسلم (٢٧٠٢).

فزيارة القبور مما يُرقق القلب ويُصلحه. قال ﷺ: «**كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ أَلَا فَزُورُوهَا، فَإِنَّهَا تُرِقُّ الْقَلْبَ، وَتُدْمِعُ الْعَيْنَ، وَتُذَكِّرُ الْآخِرَةَ، وَلَا تَقُولُوا هُجْرًا**»(١).

ثامنا: العناية بأعمال السر:

بأن يحرص المسلِمُ أن تكون له أعمال خفِيَّة بينه وبين الله، لا يطَّلع عليها أحد، حتى أقرب الناس إليه من زوجة، أو والد، وولد، فهذا - بإذن الله - من أسباب صلاح القلب.

وفي الأثر: «**مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ خَبِيئَةٌ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ، فَلْيَفْعَلْ**»(٢).

تاسعا: طلب العلم الشرعي:

طلب العلم الشرعي والثباتُ عليه من أعظم أسباب صلاح القلب وثباتِه. قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ**﴾ [فاطر: ٢٨]، وطالب

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (١٣٤٨٧)، والحاكم (١٣٩٣)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٥٨٤). وأصله عند مسلم (٩٧٧)، من حديث بريدة الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بدون موضع الشاهد.

(٢) **صحيح موقوفا**: أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١١٠٩)، وابن الجعد في مسنده (٦٨٢)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣٤٦٢٥)، والنسائي في «الكبرى» (١١٨٣٤)، موقوفا على الزبير بن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه القُضاعي في مسنده (٤٣٤) مرفوعا من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وصحح الدارقطني وقفه، كما في «العلل» (٤/ ٢٤٥).

العلم متى خلُصَتْ نيَّته كان ذلك طريقَه إلى الربانية، كما قال الله – تعالى –: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

عاشرا: مطالعة القلب لأسماء الله – تعالى – وصفاته:

هذا من عظيم العِلم وشريفه، التَّعرُّفُ على أسماء الله – تعالى – وصفاته، ومن كان بالله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أعرف كان منه أخوف.

قال ﷺ: «**إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِئَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ**»(١)، وإحصاؤها يكون بمعرفة ألفاظها، ومعانيها، والتَّعبد لله بمقتضاها.

فمطالعة أسماء الجمال تورث العبد المحبة والشوق إليه. ومطالعة أسماء الجلال تورث الخشية والإخبات إليه.

قال الله – تعالى –: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ٢١٧ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ٢١٩ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[الشعراء: ٢١٧-٢٢٠]، فتأمل الارتباط بين أعمال القلوب وبين أسماء الله – تعالى – وصفاته.

حادي عشر: مطالعة سيرة النَّبي ﷺ:

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ.

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]. والنَّظرُ في أحداث السيرة – نظرَ طالب للهداية والرشد، متأمل متدبر فيها، لا مجرد متتبع للأحداث والوقائع – له أثر في حياة القلب وتقوية الإيمان.

وربما نُعَمِّمُ فنقول: النظر في قصص الأنبياء – عموما – له أثر في صلاح العبد؛ لأنهم المصطفون الأخيار، وقد أمرنا الله بالاقتداء بهم، فقال: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأعراف: ٩٠].

ثاني عشر: اجتناب المعاصي:

فالمعاصي نُكَتٌ سوداء في القلب، تعطِّل مسيره، وتُشوِّه صورته الصافية البيضاء النقية، وقد أجاد العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان آثار الذنوب والمعاصي في صدر كتابه «الجواب الكافي».

ومما ذكره: أن المعاصي تحرم القلبَ العلمَ؛ لأن العلم نور وهذا النور تُطفِئُه المعصية. وذكر – أيضا – أن المعاصي إذا تكاثرت طُبِع على قلب صاحبها، فكان من الغافلين، كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، قال بعض السلف: هو الذَّنب على الذَّنْب حتى يعمى القلب[١].

(١) ينسب إلى الحسن البصري، كما في تفسير الطبري (٢٤/ ٢٨٧).

والمعاصي تُضعِف سير القلب إلى الله والدار الآخرة، وتعوقه عن مسيره، بل ربما ترده إلى الوراء .

ثالثَ عشر: اجتناب مفسدات القلب:

ثمة أمور تؤثر على القلب، وإن كانت لا تُعد من المحرمات، لكنها تؤثر على القلب؛ مثل: كثرة مخالطة الناس، وفضول الأكل، وفضول النوم، وفضول الكلام.

وهناك فرق بين مخالطة العوام، ومخالطة أهل العلم والصلاح، فمخالطة العوام تؤثر على القلب، ومخالطة العلماء وأهل الصلاح من أسباب صلاح القلب، كما سبق؛ فإن مجالسهم كالغذاء لصلاح القلب. وأما مجالسة البطَّالين وأهل الدنيا والكلام الفارغ الذي لا ثمرة منه فهذه تؤثر على القلب، وهذا واضح ومجرب.

وقد تكلم العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن ذلك في مواضع من كتبه، تحدث عن آثار هذا الفضول وأثره على القلب.

فالحاصل: أننا ربما استطردنا في هذا المبحث ولابُد منه، فلا يخلو من الفائدة والأهمية، ولاسيما أنه يأتي في مقدمة هذه الأبواب المتعلقة بأعمال القلوب؛ حيث بدأ الشيخ بالمحبة، ويتلوه أبواب أخرى في أعمال القلوب: كالتوكل، والإخلاص، وغير ذلك.

ومما ينبغي على المسلم أن يتعاهد نفسه به بين فترة وأخرى، موضوع صلاح القلب، وما ورد فيه، وأقوال السلف في ذلك، وحكاياتهم وأحوالهم وما إلى ذلك؛ لأن هذا من الأهمية بمكان، ومن أسباب نجاته، وفوزه، وسعادته في دنياه وأُخراه.

ooo

المبحث الثاني: معنى المحبة وأهميتها:

المحبة والحب: ضد البغض، وهو أمر قلبي معروف(١).

وهي مراتب(٢):

أولها: العلاقة. وسميت علاقة؛ لتعلُّق القلب بالمحبوب.

الثانية: الإرادة. وهي: ميل القلب إلى محبوبه وطلبُه له.

الثالثة: الصَّبابة. وهي: انصباب القلب إليه، بحيث لا يملكه صاحبه كانصباب الماء في الحَدُور.

الرابعة: الغرام. وهو: الحب اللازم للقلب الذي لا يفارقه بل يلازمه كملازمة الغريم لغريمه. ومنه سمي عذاب النار غراما؛ للزومه لأهله وعدم مفارقته لهم. قال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥].

---

(١) ينظر مادة «حبب» في: «تهذيب اللغة» (٤/ ٨)، و«لسان العرب» (١/ ٢٨٩).

(٢) ذكرها ابن القيم في عدد من كتبه، لعل من أوفاها «مدارج السالكين» (٣/٢٧) .

الخامسة: الوداد. وهو: صفو المحبة وخالصها ولبُّها، والوَدُود من أسماء الرب – تعالى –، وفيه قولان: **أحدهما**: أنه المودود. قال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صحيحه: ﴿**ٱلْوَدُودُ**﴾ [البروج: ١٤]: الحبيب[١]. **والثاني**: أنه الوادُّ لعباده، أي المحب لهم. فُسِّر بالفاعل والمفعول؛ فهو سبحانه يُحِب ويُحَب.

السادسة: الشغف. يقال شُغِف بكذا، أي: وصل حبُّه إلى شغاف قلبه، وهو داخله، كما قال النسوة عن امرأة العزيز: ﴿**قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا**﴾ [يوسف: ٣٠]، يعني تغلغل حُبُّهُ داخل قلبها.

السابعة: العشق. وهو: الحُبُّ المفرط الذي يخاف على صاحبه منه.

الثامنة: التَّتَيُّم. وهو: التعبُّد والتذلل؛ يقال: تيَّمه الحب، أي: ذلَّلَه وعبَّدَه، وتيم الله: عبد الله.

التاسعة: التعبد. وهو فوق التَّتَيُّم؛ فإن العبد هو الذي قد ملك المحبوب رِقَّه، فلم يبق له شيء من نفسه البتة، بل كله عبد لمحبوبه ظاهرا وباطنا. وهذا هو حقيقة العبودية، كما قال ﷺ: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ ...**»[١].

---

(١) صحيح البخاري (كتاب التوحيد، باب: ﴿**وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ**﴾ [هود: ٧]).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٨٨٦و٦٤٣٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

العاشرة: مرتبة الخُلة. وهي المحبة التي تخلَّلَت رُوح المُحِب وقلبه، حتى لم يبقَ فيه موضع لغير المحبوب، كما قيل:

قد تخلَّلَت مسلكَ الرُّوح مني ... ولذا سُمِّي الخليلُ خليلا

وهذه المرتبة انفرد بها الخليلان إبراهيم ومحمد - صلى الله عليهما وسلم -. قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، وقال ﷺ: «**فَإِنَّ اللهِ - تَعَالَى - قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا**»(١)، وقال ﷺ: «**لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا، لَاتَّخَذْتُ ابْنَ أَبِي قُحَافَةَ خَلِيلًا، وَلَكِنْ صَاحِبُكُمْ خَلِيلُ اللهِ**»(٢).

والمراد في هذا الباب: محبة العبودية المقترنة بالذل والتعظيم، والمستلزمة للطاعة والقبول.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وخاصية التعبد: الحب مع الخضوع والذل للمحبوب، فمن أحب شيئا وخضع له فقد تعبد قلبُه له»(١).

والمحبة هي المحرِّكة، فلا يعمل المرء إلا ما يحبه إما لذاته، أو لغيره كالدواء.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٥٣٢)، من حديث جندب بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٣٨٣)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(١) «الجواب الكافي» ص١٢٨.

وهي ركن العبادة:

وعبـــادة الـــرحمن غايـــةُ حبِّـــه

مـــع ذلِّ عابـــدِه همـــا قُطْبـــانِ

وعلـــيهما فلَـــك العبـــادة دائِـــرٌ

مـــا دار حتَّـــى قامـــت القُطْبـــانِ[1]

قال الله عن المشركين: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:٩٧-٩٨]، وقال: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، وهذه التسوية وهذا العدل؛ إنما هو في المحبة لا في الخلق والرزق والربوبية، فهم يقولون: الله الذي خلقنا ورزقنا.

وفي نهاية هذا المبحث أُحِبُّ أن أشير إلى قضية: وهي أن الإسلام دين الحُب والمحبة، ونحن أهل الحبِّ والمحبَّة، ولكن شُوِّهَتْ هذه الصورة بسبب هذا الغُثاء من المسلسلات والأفلام التي شوَّهت صورة الحب، وأظهرت الفُحْش بأنه هو الحُب، وكيف أن المرأة تُقيم علاقة مع رجل أجنبي، هذا هو الحب!.

وعلَّموا الفتاة كيف تتمَرَّد على أهلها من أجل عشيقها باسم الحب، فإذا أنكر ذلك الصالحون، قالوا: أنتم أهل الجفاء والشِّدة، تحاربون الحُب، ولا تعرفونه، وهذا خطأ وتلبيس، بل المؤمنون هم أعرف الناس بالحُب، لكنَّه

(١) «الكافية الشافية» (٥١٤-٥١٥).

الحبُّ الحقيقي، فالمؤمن يُحِب الله، ويحب رسوله، ويحب أباه وأمه، ويحب زوجه، ويحب أولاده، ويحب إخوانه، وهكذا، هو يعيش في دائرة الحب.

○○○

المبحث الثالث: درجات محبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

محبة الله – تعالى – على درجتين[1]:

الأولى: درجة المقتصدين. وهي فرض لازم.

وهي المحبة التي توجب للعبد محبةَ ما يُحِبُّه الله من الواجبات، وكراهة ما يكرهه من المحرمات. وأنشد بعضُهم:

تعصـــــي الإلهَ وأنـــــتَ تــــزعُمُ حبَّـــــهُ
هـــــذا لعَمْــــرِي في القيـــاسِ شَــــنِيعُ
لــــو كـــان حبُّـــك صـــادقًا لأطعْتَـــه
إن المُحِـــــبَّ لمـــــن يحـــــبُّ مُطيــــعُ[1]

ومتى أخل العبد ببعض الواجبات، أو ارتكب بعض المحرمات فمحبته لربه غير تامة، فالواجب عليه المبادرة بالتوبة، والاجتهاد في تكميل المحبة.

الثانية: درجة السابقين المقربين:

---

(١) ينظر: «اختيار الأولى» لابن رجب ص١٢٦.

(١) نسبه البيهقي لأبي العتاهية، كما في «شعب الإيمان» (٢٤٩)، بنحوه.

وهي أن يمتلئ القلب بمحبة الله – تعالى – حتى توجب له محبة النوافل، والاجتهاد فيها، وكراهة المكروهات، والانكفاف عنها، والرضا بالأقضية والأقدار المؤلمة للنفوس لصدورها عن المحبوب. كما قال عامر بن قيس: أحببت الله حُبًّا هوَّن عليَّ كل مصيبة، ورضَّاني بكل بَلِية، فلا أُبالي – مع حبي إياه – على ما أصبحت عليه، ولا على ما أمسيت[1].

إذن، محبة الله – تعالى – منها ما هو فرض لازم، ومنها ما هو كمال ونَفْل.

ooo

المبحث الرابع: علامة المحبة:

أجلى علامات محبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ اثنتان:

أولا: اتباع السنة النبوية:

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادَّعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأحواله»[1].

ثانيا: محبة القرآن كلامِ الله:

(١) «اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى» لابن رجب الحنبلي ص ١٢٧.

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٢).

عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُحِبَّ اللهَ وَرَسُولَهُ فَلْيَقْرَأْ فِي الْمُصْحَفِ**»(١).

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من أراد أن يعلم أنه يحب الله فليعرض نفسه على القرآن؛ فإن أحب القرآن فهو يحب الله، فإنما القرآن كلام الله جَلَّ جَلَالُهُ»(٢).

وقال ابن عُينية: لا تبلغون ذروة هذا الأمر حتى لا يكون شيء أحب إليكم من الله - عز وجل -، ومن أحبَّ القرآن فقد أحب الله - عز وجل -(١).

ooo

المبحث الخامس: الأسباب الجالبة للمحبة والموجبة لها:

قد يقول قائل: قد اشتاقت النفوس إلى نيْل هذه الرتبة الشريفة، فهل من سبيل يوصل إلى ذلك؟

الجواب: نعم، لكن قبل ذلك ينبغي أن يُعلَم أن المحبة لها صورتان:

الأولى: أن يحب العبدُ ربَّه، فاللهُ هو المحبوب.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٢٠٩) وقال: غريب، تفرد به الحر بن مالك، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٠٢٧) وقال: هكذا رُوي بهذا الإسناد مرفوعا، وهو منكر، تفرد به أبو سهل الحر بن مالك عن شعبة. وحسنه الألباني في الصحيحة (٢٣٤٢).

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في كتاب «السنة» (١٢٥)، والطبراني في «الكبير» (٨٦٥٧).

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٢٧٧)، والبيهقي في «الشعب» (٤٠٣).

الثانية: أن يحب اللهُ العبدَ، فالله هو المُحِب.

وكلاهما ثابت بنص القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿**يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾ [المائدة: ٥٤]، فتثبت لله صفة المحبة على القاعدة السلفية.

وعلى العبد أن يسعى في الصورتين جميعا: بأن يملأ قلبَه بمحبة ربه، ويأتي بآثار المحبة ولوازمها من الطاعة والقبول. وعليه - أيضا - أن يسعى في تحصيل محبة الله له، وهذه أعز المطالب، وأشرف المواهب.

قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كفى بالله مُحِبًّا وبالقرآن مُؤْنِسًا وبالموت واعظا، اتخذ الله صاحبا، ودع الناس جانبا»(١).

وذكر ابن القيم في «المدارج» عشرة أسباب جالبة لمحبة الله للعبد، وهي:

أولا: قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه.

ثانيا: التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض. كما قال الله - تعالى - في الحديث القدسي: «**وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ**»(٢).

ثالثا: دوام ذكره على كل حال باللسان والقلب والعمل والحال، فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر.

---

(١) «شرح مشكاة المصابيح» للطيبي (١٠/ ٣٢٣٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٥٠٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

رابعا: إيثار محاب الله على محاب النفس عند غلبات الهوى. وكثيرا ما يقع الإنسان في حال تتجاذبه محبة الله ومحبة نفسه وهواه، فلينظر مع أيها يميل؟.

خامسا: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته، وتقلبه في رياض هذه المعرفة، فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبه لا محالة.

سادسا: مشاهدة بره وإحسانه وآلائه ونعمه الباطنة والظاهرة فإنها داعية إلى محبته.

سابعا: وهو من أعجبها، انكسار القلب بكلِّيَّتِه بين يدي الله – تعالى –.

ثامنا: الخلوة به وقت النزول الإلهي لمناجاته وتلاوة كلامه والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه، ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة.

تاسعا: مجالسة المحبين الصادقين والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما ينتقى أطايب الثمر.

عاشرا: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله – عز و جل –.

فمن هذه الأسباب العشرة وصل المُحِبُّون إلى منازل المحبة ودخلوا على الحبيب. وملاك ذلك كله أمران:

استعداد الروح لهذا الشأن، وانفتاح عين البصيرة، وبالله التوفيق(١).

أسأل الله – جلَّ وعلَا – أن يعمر قلوبنا بمحبته، وأن يشرِّفنا بمحبة الله لنا.

ooo

(١) ينظر: «مدارج السالكين» (١٧/٣).

المبحث السادس: أقسام المحبة، وأحكامها:

تنقسم المحبة إلى قسمين:

القسم الأول: محبة عِبادة. وهي التي توجب التذلُّلَ والتعظيم في القلب، وتقتضي امتثال الأمر واجتناب النهي. وهذه خاصة بالله، فمن أحب مع الله غيره محبة عبادة؛ فهو مشرك شركا أكبر. قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾[البقرة: ١٦٥].

ويعبر العلماء عنها بـ«المحبة الخاصة».

القسم الثاني: محبة ليست بعبادة في ذاتها.

وهذه أنواع:

١- المحبة لله وفي الله، وذلك بأن يكون الجالِبُ لها محبةَ الله، أي: كون الشيء محبوبا لله - تعالى - من أشخاص: كالأنبياء، والصحابة، والصالحين، أو أعمال: كالصلاة، والذكر. وهذا النوع تابع للقسم الأول الذي هو محبة الله، كما قيل: من تمام محبة المحبوب: محبة ما يحِبُّه المحبوب.

ففرْقٌ بين محبة الله أصلا، والمحبة له تبعا، والمحبة معه شركا.

وفرْقٌ بين محبة الأخ في الله المبنية على طاعة الله، وبين الإعجاب المبني على تعلق القلب بذات المحبوب والفتنة بشكله وصورته، وهو ما يسمى بالعِشق والتعلق الذي يهوي بصاحبه في منحدرات سحيقة إن لم يتدارك نفسه، ويقطع

هذه العلاقة؛ لأنه إن استرسل معها تمكَّنت منه وصعُب عليه أن يفارقها، وأصبح يعيش في حسرة.

وعلى المرء أن يضبط عواطفه ويملِكَها، ويحذر من إرسالها فتملكه وتتحكم فيه.

٢- محبة إشفاق ورحمة. وذلك كمحبة الولد، والأطفال، والضعفاء، والمرضى.

٣- محبة إجلال وتعظيم يناسب المخلوقَ، لا تعظيم عبادة؛ كمحبة الوالد، والمُعَلِّم، والكبير من أهل الخير.

٤- محبة طبيعية؛ كمحبة الطعام، والشراب، والملبَس، والمَرْكَب، والمسكن، والصديق.

وفي الآية التي ذكرها الشيخ - آية المحبوبات الثمانية -: ﴿**قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ** ...﴾ [التوبة: ٢٤]، لم يذم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ محبة هذه الأشياء، وإنما ذَمَّ أن تُقَدَّم وتكون أحب إلى العبد من الله ورسوله وجهاد في سبيله.

وأشرف هذه الأنواع النوع الأول، والبقية من قسم المباح، إلا إذا اقترن بها ما يقتضي التعبُّد فتصير بهذا عبادة؛ فالإنسان يحِبُّ والده محبة إجلال وتعظيم، وإذا اقترن بها أن يتعبد لله بهذا الحب؛ من أجل أن يقوم ببر والده، صارت عبادة، وكذلك يحب ولده محبة شفقة، وإذا اقترن بها ما يقتضي أن يقوم بأمر الله بإصلاح هذا الولد، صارت عبادة.

وكذلك المحبة الطبيعية؛ كالأكل والشُّرب، إذا قصد بها الاستعانة على العبادة صارت عبادة. قال النبي ﷺ: «**حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمُ النِّسَاءُ وَالطِّيبُ**»[1].

وفي الحديث: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحِبُّ الحَلْوَاءَ وَالعَسَلَ»[2]، و«كانَ أَحَبُّ الثِّيابِ إِلَيْهِ ﷺ القَمِيْصَ»[1].

وهذا المبحث هو لُبُّ الباب وخلاصته، فينبغي أن نُحْكِمهُ ونعتني بفهمه؛ لأن به تنضبط مسائلُ المحبة في باب التوحيد: متى تكون المحبة شركًا؟، وكيف تكون عبادة؟، ومتى تكون مباحة؟. فإذا ضبطت أصول هذه المسألة؛ سهُلَ تطبيق الفروع.

فائدة:

قد يجتمع في قلب المؤمن المحبة الفطرية الطبيعية والبُغض الديني؛ كما كان النبي ﷺ يحب أبا طالب لقرابَتِه ونُصْرَتِه له، ويبغضه لكفره. والمسلم قد يحب

---

(١) **حسن صحيح**: أخرجه النسائي (٣٩٣٩)، وأحمد (١٢٢٩٣) وفي مواضع أخرى، وقال الألباني: حسن صحيح.

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٥٤٣١) وفي مواضع أخرى، ومسلم (١٤٧٤)، من حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٤٠٢٥)، والترمذي (١٧٦٢)، من حديث أم المؤمنين أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وصححه الألباني.

زوجته اليهودية؛ لكونها زوجته وشريكة حياته، ويبغضها لكفرها، أو يحب أمَّهُ الكافرة من وجه ويبغضها من وجه.

فالحب والبُغض إذا كانا مُنصبَّينِ على جهة واحدة لم يمكن اجتماعهما؛ لأنهما ضدان، لكن إذا انفكَّتِ الجهة أمكن الاجتماع.

ooo

المبحث السابع: الشرك في المحبة:

المحبة المحرمة لها صور:

أولا: محبة العبودية المستلزمة للإجلال والتعظيم والذل والخضوع.

حكمها: لا تنبغي إلا لله وحده لا شريك له، ومتى صرَف العبدُ هذه المحبةَ لغير الله، فقد أشرك به الشرك الأكبر.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أصل الإشراك العملي بالله الإشراك في المحبة»(١).

ثانيا: محبة المعصية محبةً تستقر في القلب، كمن يحب الزنا.

حكمها: هذه معصية لا تصل إلى الشرك. قال تعالى: **﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾** [التوبة: ٢٤].

---

(١) «قاعدة في المحبة» ص ٦٩.

أما إن كانت هذه المحبة لا تستقر في القلب بمعنى أن صاحبها ينازعها ويجاهد نفسه في تركها، وفي تحقيق محبة الله، فهو على خير وجهاد، لا على إثم ونفاق. وقد أخبر النبي ﷺ أن النار حفت بالشهوات التي تهواها النفس وتميل إليها.

وَقد كتبُوا إلى عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يسألونه عن هذه المسالة أيهما أفضل: رجل لم تخطر له الشهوات ولم تمر بباله، أو رجل نازعته إليها نفسه فترَكها لله؟ فكتب عمر: أن الذي تشتهي نفسه المعاصي ويتركها لله - عز وجل - من الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم[١].

ooo

المبحث الثامن: محبة الرسول ﷺ بين الغلو والجفاء:

محبة الرسول ﷺ تعني: أن يميل قلبُ المسلم إلى رسول الله ﷺ ميلا يتجلى فيه إيثاره ﷺ على كل محبوب من نفس ووالد وولد، لما خصَّه اللهُ من كريم الخصال وعظيم الشمائل، وما أجراه الله على يديه من صنوف الخير والبركات.

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» كما في تفسير ابن كثير (٧/ ٣٦٨)، و«الدر المنثور» (١٣/ ٥٣٨).

وهذه المحبة تابعةٌ لمحبة الله – تعالى – لازمة لها، وتليها في المرتبة فلا تنفك إحدى المحبتين عن الأخرى، فمن أحب الله – تعالى – أحب رسوله ﷺ، قال – عز وجل –: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[آل عمران: ٣١]، وهي أصل عظيم من أصول الإيمان.

المطلب الأول: مراتب محبة النبي ﷺ:

هي على مرتبتين:

المرتبة الأولى: فرض. وهي المحبة التي تقتضي قبول ما جاء به الرسول ﷺ، وتلقِّيه بالمحبة والرضا والتعظيم والتسليم، وتصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، ونصرة دينه والجهاد لمن خالفه بحسب القدرة .

المرتبة الثانية: فضل ونفل. وهي المحبة التي تقتضي حُسْن التأسِّي به، وتحقيق الاقتداء بسنته في أخلاقه وآدابه وهديه وشمائله.

قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾[الأحزاب: ٦]، فهذه الآية إخبارٌ عن مكانة الرسول ﷺ بين المؤمنين، كما أنها إخبار عن الحال التي ينبغي أن يكون فيها المؤمنون مع الرسول ﷺ، فهو أولى بهم من أنفسهم ولا يكون كذلك حتى يكون أحب إليهم من أنفُسِهم، واستدل بعض أهل العلم بهذه الآية على أن من لم يكن الرسول ﷺ أولى به من نفسه فليس من المؤمنين.

ومما يبين وجوب محبته ﷺ آيةُ المحبوبات الثمانية، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

ومن أجلى الأدلة على وجوب محبة النبي ﷺ ما أخرجه الشيخان عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ، وَوَلَدِهِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**»(١).

يعني: لا يؤمن تمامَ الإيمان. فهذا حديث سمعناه كثيرا، ويمر علينا مرورا عابرا، لكنه ليس كذلك مع رجل من أمثال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ**». فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الآنَ، وَاللَّهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**الآنَ يَا عُمَرُ**»(١).

المطلب الثاني: ثمرات محبة النبي ﷺ:

أولا: ذوق حلاوة الإيمان:

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٦٣٢).

كما في الصحيحين عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعا: «**ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا** ...»(١)، الحديث.

والإيمان له حلاوة وطعم لا يعرِفُه إلا من ذاقه، وهي حلاوة معنوية من استِلْذَاذِ الطاعات، وتحمل المشقَّات في سبيل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثانيا: معيته في الآخرة:

عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ السَّاعَةِ، فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: «**وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا**». قَالَ: لا شَيْءَ، إِلَّا أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «**أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**»(١).

ويا له من شرف وفضل، أن تكون في ذلك الموقف الرهيب العصيب مع النبي الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. هذه المعِيَّة لا تُقدَّر بثمن، وتُبذل في سبيلها المُهَج والأموال. والسبيل إليها محبةُ النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

المطلب الثالث: علامات محبة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

أولا: طاعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واتباعه. وقد قيل: إن المُحِبَّ لمن يحب مطيع.

ثانيا: تعظيمُه وتوقيرُه والأدبُ معه. كما كان الصحابة وسلف هذه الأمة على قدر كبير من هذا. فقد قال عروة بن مسعود لقُريشٍ: «وَاللَّهِ، لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى

---

(١) تقدم تخريجه.

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣٦٨٨) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٦٣٩).

الْمُلُوكِ، وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ، وَكِسْرَى، وَالنَّجَاشِيِّ، وَاللَّهِ، إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ مُحَمَّدًا! وَاللَّهِ، إِنْ تَنَخَّمَ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ! وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ! وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ،! وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ! وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ؛ تَعْظِيمًا لَهُ!»[(١)].

وسُئِلَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَيْفَ كَانَ حُبُّكُمْ لِرَسُولِ اللَّه ﷺ؟ فَقَالَ: كَانَ – والله – أَحَبَّ إِلَيْنَا من أَمْوَالِنَا وَأَوْلادِنَا وَآبَائِنَا وأُمَّهَاتِنَا، وَمِنَ المَاءِ الْبَارِدِ عَلَى الظَّمَإِ[(١)].

ثالثا: نصر سنته والذب عن شريعته.

رابعا: الحرصُ على رؤيته، وكثرة تذكُّرِه وتمني رؤيته، والشوق إلى لقائه؛ لأن من أحب شيئا أكثر من ذكره، وقد قال ﷺ: «**مِنْ أَشَدِّ أُمَّتِي لِي حُبًّا، نَاسٌ يَكُونُونَ بَعْدِي، يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ رَآنِي بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ**»[(٢)].

ولما احتضر بلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نادت امرأته: واويلاه، وهو يقول: «وافرحاه؛ غدا نلقى الأحبة محمدا وحزبه»[(١)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٧٣١).

(١) «الشفا» (٢/ ٢٢).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٣٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

خامسا: محبة سنته، ومحبة الداعين إليها والمتمسكين بها:

قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، منكرا على أصحابه: يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء! أقول لكم: قال رسول الله، وتقولون: قال أبو بكر وعمر!(٢).

وكان الإمام أحمد رَحِمَهُٱللَّهُ يقول: «عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته يذهبون إلى رأي سفيان، والله – تعالى – يقول: ﴿**فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [النور: ٦٣]، أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشِّرك. لعله إذا ردَّ بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلِك»(١).

* * *

(١) «تاريخ دمشق» (١٠/ ٤٥٧).

(٢) سيأتي تخريجه.

(١) «الصارم المسلول» ص ٥٦.

٣١- باب قول الله تعالى:
﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ...﴾ [التوبة: ١٨] الآيَةَ.

وَقَوْلِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠] الآيَةَ.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ، وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللَّهِ، وَأَنْ تَذُمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ؛ إِنَّ رِزْقَ اللَّهِ لَا يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةُ كَارِهٍ»[(١)].

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنِ الْتَمَسَ رِضَا اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسَ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضا النَّاسِ

(١) **موضوع**: أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٤١)، والبيهقي في «الشعب» (٢٠٣)، وقال الألباني في «الضعيفة» (١٤٨٢): «موضوع».

بِسَخَطِ اللَّهِ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ»[1]. رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ».

ooo

الشرح:

هذا الباب هو الحلقة الثانية في سلسلة أعمال القلوب، وهو الخوف. وذكر فيه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ثلاث آيات وحديثين.

والكلام على هذا الباب في الفصلين التاليين:

* * *

(١) **صحيح**: أخرجه ابن حبان (٢٧٦)، والشهاب في مسنده (٥٠٠)، وصححه الألباني.

الفصل الأول: مقصود الباب، وموضوعه العام

بيان أن من صور الخوف ما يكون عبادة لا يجوز صرفها لغير الله - تعالى -، ومن فعل ذلك وقع في الشرك.

* * *

الفصل الثاني: المباحث الموضوعية

المبحث الأول: معنى الخوف، والفرقُ بينه وبين ما يشابهه:

قال الراغِبُ: «الخوفُ: توقُّع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة. ويُضاد الخوفَ الأمنُ، ويُستعمل ذلك في الأمور الدنيوية والأُخروية»[1].

- **والفرق بين الخوف والخشية:**

أنَّ الخشية أخصُّ من الخوف من جهتين:

الأولى: أن الخشية تكون مع العلم بالمَخْشِيِّ وحاله؛ لقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ**﴾ [فاطر: ٢٨]، والخوف قد يكون من الجاهل.

الثانية: أن الخشية تكون بسبب عظمة المَخْشِيِّ، بخلاف الخوف؛ فقد يكون من ضعف الخائف لا من قوة المَخُوف.

- **والفرق بين الخوف والرهبة:**

قال الراغب: «الرَّهْبَةُ والرُّهْبُ: مخافة مع تحرُّز واضطراب»[2].

وقال ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الرهبة: الخوف المثمر للهرب من المخوف، فهي خوف مقرون بعمل»[3].

(١) «المفردات» ص ٣٠٣.

(٢) «المفردات» ص٣٦٦.

(٣) «شرح ثلاثة الأصول» ص٣٨.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وقال سبحانه: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠].

ooo

المبحث الثاني: منزلة الخوف:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن منزلة الخوف: «من أجلِّ منازل الطريق إلى الله، وأنفعِها للقلب، وهي فرض على كل أحد»(١).

وكان السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يعدُّون الفقيه من يخاف الله، كما قال مجاهد بن جبر رحمه الله: الفقيه من يخاف الله - عز وجل -. ونُقِل عن بعضهم قوله: من كان بالله أعرف كان منه أخوف(٢).

فكلما زاد عِلمُ العبد بربه ازداد خوفا منه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، يعني من يخشى اللهَ حق خشيته هم العلماءُ، والخشية أخصُّ من الخوف؛ فهي خوف مقرون بمعرفة وتعظيم.

ولذا كان أرفع الناس منزلة فيها محمدا ﷺ الذي قال عن نفسه: «**فَوَاللَّهِ، إِنِّي لَأَعْلَمُهُمْ بِاللَّهِ، وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً**»(٣). وكان ﷺ يصلِّي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء(١)، أي: يخرج من صدره صوت كصوت القِدر التي تغلي.

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٥٠٧).

(٢) ينسب إلى أحمد بن عاصم الأنطاكي، كما في: «البداية والنهاية» (١٠/ ٣٥١).

(٣) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٦١٠١ و٧٣٠١)، ومسلم (٢٣٥٦).

(١) ينظر: سنن أبي داود (٩٠٤)، والنسائي (١٢١٤).

وقرأ عليه عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ سورة النساء حتى بلغ قوله تعالى: **﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾** [النساء: ٤١]، فقال ﷺ: «**حَسْبُكَ الآنَ**»، فإذا عيناه تذرِفان(١).

وكان ﷺ شديد الخوف من عذاب الله، وقام ليلة يردد قوله تعالى: **﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾** [المائدة: ١١٨]، حَتَّى أَصْبَحَ(٢).

وهكذا كان الأنبياء - عليهم السلام -، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنهم: **﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾** [الأحزاب: ٣٩].

وهذه صفة الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترُون، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنهم: **﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾** [النحل: ٥٠].

وأفضلُهم جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، يقول عنه المصطفى ﷺ: «**مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى، وَجِبْرِيلُ كَالْحِلْسِ الْبَالِي مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -**»(١). الحِلْس: الكساء الذي يلي ظهر البعير.

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٥٠٥٠) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٨٠٠).

(٢) ينظر: سنن النسائي (١٠١٠)، وابن ماجه (١٣٥٠)، وحسنه الألباني.

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (٦٢١)، والطبراني في «الأوسط» (٤٦٧٩)، من حديث جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وحسنه الألباني.

وقد أمر الله جَلَّجَلَالُهُ عباده بالخوف منه، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[آل عمران: ١٧٥]، وقال: ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ﴾[المائدة: ٤٤]. وأمره سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ بالشيء يدل على أنه يُحبه، ومحبة الله له تدل على أنه عبادة من العبادات.

وجعل الله جَلَّجَلَالُهُ الخوف من أخص صفات المؤمنين، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾[الأنفال: ٢]، وتكرَّر ذكر الخوف في القرآن في أربعة وعشرين ومئة موضع.

○○○

المبحث الثالث: ضابط الخوف الشرعي:

يتضمن الخوف الشرعي ما يأتي:

أولا: الخوفُ من جلال الله وعظمته، وجبروته وكبريائه. قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾[آل عمران: ٣٠]، ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا﴾[نوح: ١٣].

ثانيا: الخوف من اليوم الآخر والموقف بين يديه. قال تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴾[الإنسان: ٧]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي﴾[إبراهيم: ١٤]، وقال جلَّ ذكرُه: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[الرحمن: ٤٦].

ثالثا: الخوف من عقابه ووعيده جَلَّجَلَالُهُ لمن عصاه. قال تعالى: ﴿**ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي**﴾ [إبراهيم: ١٤].

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**القَدْر الواجب من الخوف**: ما حمَل على أداء الفرائض واجتناب المحارم، فإن زاد على ذلك بحيث صار باعثا للنفوس على التشمير في نوافل الطاعات والانكفاف عن دقائق المكروهات والتبسط في فضول المباحات، كان ذلك **فضلا محمودا**، فإن تزايد على ذلك بأن أورث مرضا أو موتا أو همًّا لازما بحيث يقطع عن السعي في اكتساب الفضائل المطلوبة المحبوبة لله – عز وجل – **لم يكن محمودا** ... والقَدْر النافع من ذلك ما كان عونا على التقرب إلى الله بفعل ما يحبه وترك ما يكرهه، ومتى صار الخوف مانعا من ذلك وقاطعا عنه، فقد انعكس المقصود منه»[١].

أما الخوف من الله وخشيتُه في الخلوات والسر، فله شأن آخر عند رب العالمين. قال تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ**﴾ [الملك: ١٢]، ومن السبعة الذين يظلهم الله في ظلِّه يوم لا ظل إلا ظله: رجلٌ ذكرَ اللهَ خاليا، ففاضت عيناه[١].

---

(١) «التخويف من النار» ص٣٤.

(١) ينظر: صحيح البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

وذُكِر أن رجلا خلا بامرأة في ظلام الليل، فقال: ما ثَم إلا أنا وأنتِ، وهذه الكواكب في السماء، فقالت: هذه الكواكب، فأين مكوكبها؟!(١).

وما أحسنَ قولَ القائل:

إذا مــا خَلَــوت الــدَّهر يومــا فــلا تقُــلْ: خلــوتُ، ولكــن قُــل: عَــلَيَّ رقيــبُ

فــلا تحســبَنَّ الله يغفــل ســاعة ولا أنَّ مــا تخفِــي عَليــهِ يغِيــبُ(٢)

ooo

المبحث الرابع: ثمرات الخوف من الله:

أولا: الخوف من الله من أسباب النجاة. قال تعالى في حديث أهل الجنة بعضهم لبعض: ﴿**وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ**﴾ [الطور: ٢٥-٢٦]، أي: كنَّا في الدنيا ونحن بين أهلينا خائفين من ربنا مُشفِقين من عذابه وعقابه، ﴿**فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ**﴾ [الطور: ٢٧].

---

(١) ينظر: «اعتلال القلوب» للخرائطي (٨٣).

(٢) ينظر: «حلية الأولياء» (٩/ ٢٢٠).

وعن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مرفوعا: «**ثَلَاثٌ مُنَجِّيَاتٌ: خَشْيَةُ اللَّهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، وَالْعَدْلُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا، وَالْقَصْدُ فِي الْغِنَى وَالْفَقْرِ**»(١).

ثانيا: من خاف الله في الدنيا فهنيئا له الأمن يوم القيامة يوم المخاوف؛ فعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أن النبي ﷺ قال: «**يَقُولُ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ -: وَعِزَّتِي، لَا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ وَأَمْنَيْنِ: إِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِذَا أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ القِيامَةِ**»(٢).

ثالثا: الخوف من الله - عز وجلَّ - سبب لمغفرة الذنوب. قال تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ**﴾ [الملك: ١٢].

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أن النبي ﷺ قال: «**كَانَ رَجُلٌ يُسْرِفُ عَلَى نَفْسِهِ، فَلَمَّا حَضَرَهُ المَوْتُ قَالَ لِبَنِيهِ: إِذَا أَنَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي، ثُمَّ اطْحَنُونِي، ثُمَّ ذَرُّونِي فِي الرِّيحِ، فَوَاللَّهِ، لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبَنِّي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ أَحَدًا! فَلَمَّا مَاتَ فُعِلَ بِهِ ذَلِكَ، فَأَمَرَ اللَّهُ الأَرْضَ، فَقَالَ: «اجْمَعِي مَا فِيكِ مِنْهُ»، فَفَعَلَتْ، فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ،**

(١) **حسن**: أخرجه البزار في مسنده (٦٤٩١)، والطبراني في «الأوسط» (٥٤٥٢)، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٨٠٢) بمجموع طرقه.

(٢) **حسن**: أخرجه ابن حبان (٦٤٠)، والبيهقي في «الشعب» (٧٥٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (٧٤٢ و ٢٦٦٦).

فَقَالَ: «مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟» قَالَ: يَا رَبِّ خَشْيَتُكَ! فَغَفَرَ لَهُ»، وفي رواية: «**مَخَافَتُكَ يَا رَبِّ**»(١).

رابعا: الخوف من الله سبب للخلود في الجنان، وحلول الرضوان من الرحمن.

قال تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ**﴾ [البينة: ٧-٨].

الخائف من الله موعود بجنتين فُضلَيَينِ، دونَهما جنتان. قال تعالى: ﴿**وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ**﴾ [الرحمن: ٤٦]، ثم قال بعد وصفهما: ﴿**وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ**﴾ [الرحمن: ٦٢].

خامسا: الخوف من الله سبب في حصول الانتفاع والتأثر بآيات الكتاب العزيز. قال سبحانه: ﴿**ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ**﴾ [الزمر: ٢٣]، وقال -أيضا-: ﴿**سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ**﴾ [الأعلى: ١٠].

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣٤٨١) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٧٥٦).

سادسا: الخوف من الله يسوق صاحبه للمسارعة في الخيرات، والمنافسة في الطاعات إذا أحس فتورا في نفسه. قال تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ**﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١].

فإذا عُمِّر القلب بالخوف من ربه أورثه نورا وحياة، وساقه إلى العمل والاجتهاد، كما قال ﷺ: «**مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ المَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الجَنَّةُ**»[(١)]. ومعنى: «**أَدْلَجَ**»: سار من أول الليل، والمراد التشمير والمسارعة في الطاعة.

فالخوف يسوق العبد إلى ربِّه، والخائف لا مفر له من ربه إلا إليه.

سابعا: الخوف دواء لداء الشهوات. ومن كان يصارع الشهوات، فدواؤه الخوف من الله جَلَّجَلَالُهُ، وبذلك حفِظ الله يوسف عَلَيْهِٱلسَّلَامُ؛ فلما امتُحِنَ يوسف عَلَيْهِٱلسَّلَامُ بفتنة النساء، عصمه ربُّه جَلَّجَلَالُهُ بالخوف منه، فقال: ﴿**مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ**﴾ [يوسف: ٢٣].

---

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٢٤٥٠)، والحاكم (٧٨٥١) وصححه، ووافقه الذهبي والألباني.

قال إبراهيم بن سُفيان: إذا سكن الخوفُ القلبَ أحرق مواضع الشهوات منه، وطرد الدُّنيا عنه(١).

وقال الغزالي: «لا تنقمع الشهوة بشيء كما تُقمع بنار الخوف، فالخوف هو النار المحرقة للشهوات»(٢).

ثامنا: الخوف من الله خير سبب لمحاربة الجريمة؛ فإذا خاف الناس ربهم ردَعَهم ذلك عن الجرائم: كالقتل، والسرقة، والزنا، وغيرها. فما الذي ردع هابيل أن يقتل أخاه سوى خوفه من ربه، وقال: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨]، فإذا غُرِس الخوف في نفوس الناشئة، وفي نفوس الناس، ووُعِظوا، وذُكِّروا بذلك، كان أعظم رادع، يفعل ما لا تفعله الكاميرات، والمراقبات، ونحوها.

○○○

المبحث الخامس: وسائل تنمية الخوف في القلب:

أولا: تدبُّر كلام الله؛ فهو شفاء القلوب. هذا القرآن الذي لو أُنزل على جبل ﴿لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، فهو مصدر من مصادر الخشية.

---

(١) «بصائر ذوي التمييز» (٢/ ٥٧٧).

(٢) «إحياء علوم الدين» (٤/ ١٦٠).

ثانيا: التفكر في عظمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وصفات جلاله وقوته، فهو العظيم الكبير المتعال شديدُ المِحال .. من صفاته الغضب والبطش والانتقام. قال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿**وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [الزمر: ٦٧].

قال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قَرَأَ النَّبِيُّ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى الْمِنْبَرِ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ هَكَذَا بِيَدِهِ، وَيُحَرِّكُهَا، يُقْبِلُ بِهَا وَيُدْبِرُ: «**يُمَجِّدُ الرَّبُّ نَفْسَهُ: أَنَا الْجَبَّارُ، أَنَا الْمُتَكَبِّرُ، أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْعَزِيزُ، أَنَا الْكَرِيمُ**»، فَرَجَفَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ الْمِنْبَرُ حَتَّى قُلْنَا: لَيَخِرَّنَّ بِهِ[1].

وقام النبيُّ ﷺ في أصحابه يوما يخبرهم عن ربهم - جل وعلا -، فقال: «**إِنَّ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**»[2].

فالعِلمُ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سبب للخوف منه؛ فمن كان بربه أعرف كان منه أخوف.

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (٥٤١٤)، وابن حبان (٧٣٢٧)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وصححه الألباني. وأصل الحديث في الصحيحين بدون موضع الشاهد.

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٩)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لا تَسْمَعُونَ: أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ؛ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلاَّ وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ، وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ**»(١).

ثالثا: تذكر الموت وما بعده. فكيف لا يخاف اللهَ من يؤمن بأهوال عظام تنتظره من نزع الروح وسكرة الموت، وقبر ضيق مظلم، وبعث وحشر وحساب وأهوال يشيب منها الوليدُ؟! عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعا: «**كَيْفَ أَنْعَمُ، وَقَدِ التَقَمَ صَاحِبُ القَرْنِ القَرْنَ، وَحَنَى جَبْهَتَهُ، وَأَصْغَى سَمْعَهُ، يَنْتَظِرُ أَنْ يُؤْمَرَ أَنْ يَنْفُخَ فَيَنْفُخَ**». قَالَ المُسْلِمُونَ: فَكَيْفَ نَقُولُ، يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**قُولُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ، تَوَكَّلْنَا عَلَى اللهِ رَبِّنَا**»(٢).

يـــا غافــلَ القلـــبِ عـــن ذكـــر المَنِيَّـــاتِ
عـــما قليـــلٍ سَـــتُثْوى بـــين أمـــواتِ
لا تطمـــئِنَّ إلى الـــدُّنيا و زينتِهـــا
قـــد آن للمـــوت - يـــا ذا اللُّـــبِّ - أن يـــاتي(٣)

---

(١) **حسن**: أخرجه الترمذي (٢٣١٢)، وابن ماجه (٤١٩٠)، وحسنه الألباني.

(٢) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٣٢٤٣)، وأحمد (١١٠٣٩)، وصححه الألباني.

(٣) ينظر: «مثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن» لابن الجوزي (٢/٣٣٦).

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١-٢].

رابعا: مجالسة الصالحين، وسماع المواعظ، وحضور مجالس الذكر التي تذكِّر بالله والدار الآخرة؛ فحاجة القلب إلى هذه المجالس أشدُّ من حاجة السمك إلى الماء.

إن منزلة الخوف من الله قد تقهقرت في النفوس وضعُفت في القلوب، نرى الناس يدفنون موتاهم بأيديهم، ثم يخرجون من أبواب المقابر ضاحكين وإلى غفلتهم راجعين!.

ومخافة الله رأس الحكمة؛ لأنها تضبط النفس الجامحة، وتمنعها مجاوزةَ حدها.

لنعُدْ إلى قلوبنا فنغسلَها بماء الخوف الطهور، ونغذِّيها بهذه المعاني الإيمانية فنحجز النفس عن أهوائها، وحينذاك ستصلح القلوب، وتستقيم النفوس، وتسعد في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

اللّٰهم إنا نسألك خوف العالِمين بك، وعِلم الخائفين منك، اللّٰهم إنا نسألك خشيتك في السر والعلانية.

ooo

المبحث السادس: أقسام الخوف، وحكم كل قسم:

يمكن أن يُقسَّم الخوف إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: خوف واجب. وهو الخوف من الله - تعالى - الذي يحمل على فعل الواجب وترك المحرم.

القسم الثاني: خوف مستحب. وهو الخوف من الله - تعالى - الذي يحمل على فعل المندوب وترك المكروه.

القسم الثالث: خوف مباح. وهو الخوف الطبيعي؛ كخوف الإنسان من الأسد، وخوفه من النار، ونحو ذلك. قال الله - تعالى - عن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ١٨]

قال الشيخ ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا النوع ليس عبادة، وقد يوجد من كثير من المؤمنين، ولا يُنافي الإيمان. وهذا إذا كان خوفا محققا قد انعقدت أسبابه فليس بمذموم. وإن كان هذا خوفا وهميا كالخوف الذي ليس له سبب أصلا، أو له سبب ضعيف، فهذا مذموم يدخل صاحبه في وصف الجبناء، وقد تعوذ ﷺ من الجُبن، فهو من الأخلاق الرذيلة»(١).

القسم الرابع: خوف محرم. وهو نوعان:

أولا: الخوف الشركي. ومن صوره:

---

(١) «القول السديد» ص١١٨.

١- أن يخاف من المخلوق في أمر لا يقدر عليه إلا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، أو أن يتعبَّد لهذا المخلوق بالخوف منه؛ تذللا وتعظيما وخضوعا، فهذه عبادة لا يجوز صرفها لغير الله.

وتقرير ذلك مبني على مقدمتين تفضيانِ إلى نتيجة.

المقدمة الأولى: أمرُ الله بالشيء يدُلُّ على محبته له.

قال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٣]، فهذا أمر بخوف الله وخشيته.

المقدمة الثانية: محبة الله للشيء تدل على أنه عبادة له. لأن ضابط العبادة أنها اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه.

النتيجة: أنَّ أمر الله بالشيء يدلُّ على أنَّ هذا الشيء عبادة له سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

ومعلوم أنَّ من صرف شيئا من العبادات - كالخوف - لغير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فقد وقع في الشرك.

٢- خوف السر: وهو أن يخاف من غائب أو ميت، أن يؤثر فيه أو يتصرف فيه. وهذا لا يحصل إلا عن اعتقاد أن لهذا المخوف تصرُّفا وقدرة في الكون، وهذا يقع من عُبَّاد الأوثان والمتعلقين بالأضرحة ونحوهم.

ثانيا: خوف محرم، لا يصل إلى الشَّرك. وهو الخوف الذي يؤدي إلى ترك واجب أو فعل محرم.

* * *

٣٢- باب قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ...﴾ [الأنفال:٢] الآيَةَ.

وَقولِهِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ ...﴾[الأنفال: ٦٤] الآيَةَ.

وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ﴾ [الطلاق:٣].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنهُمَا قال: «حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ، قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ ﷺ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا...﴾[آل عمران: ١٧٣] الْآيَةَ»[1]. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

○○○

الشرح:

ذكر المؤلفُ رَحِمَهُٱللَّهُ في هذا الباب ثلاث آيات، وأثرا واحدا.

والكلام على هذا الباب في الفصلين التاليين:

* * *

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٥٦٣).

الفصل الأول: مقصود الباب، وموضوعه العام

بيان أن التوكل فريضة وعبادة من أعمال القلوب، يجب إخلاصها لله وحده لا شريك له.

* * *

الفصل الثاني: المباحث الموضوعية

المبحث الأول: حقيقة التوكل:

التوكل عمل قلبي محض، كما قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: التوكل عمل القلب[1].

والتعريف الجامع لمعنى التوكل أن يقال: هو صدق الاعتماد على الله - عز وجل - في جلب المنافع ودفع المضار، مع فعل الأسباب التي أمر الله بها.

ولا بد من استحضار أصلين عظيمين هنا، هما: علم القلب، وعمله.

فالأول: الثقة في الله - عز وجل -.

والثاني: اعتماد القلب عليه.

وليس بين هذين الأصلين تلازم، وتوضيح ذلك: أن العبد قد يثق بواحد من الناس، لكنه لا يعتمد عليه في أموره؛ لاستغنائه عنه. وقد يعتمد عليه مع عدم ثقته به؛ لحاجته إليه، وعدم من يقوم مقامه[2].

والثقة بالله تقوم على: تعظيم الرب في القلب، ومعرفة قدْرَه.

(١) «طريق الهجرتين» ص ٢٥٧.

(٢) ينظر: «مدارج السالكين» (١/ ٥٩).

فأنت تتعلق برب عظيم، لا حَدَّ لقدرته، وشمولِ علمه، وكمال صفاته، وهو الذي بيده كفاية من توكل عليه. ويجتمع مع ذلك إحسان الظن بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والنظر في سعة رحمته، وعظيم جوده وإحسانه.

والثقة بالله تقتضي أن يفوِّض العبد أموره إلى ربه؛ ليقينِه بحكمته وحُسن تدبيره وسعة علمه. والتفويض هو روح التوكل ولبُّه وحقيقته(١).

ومع أن التوكل في الأصل عمل قلبي إلا أنه يشرع التلفظ به، مع عقد القلب عليه، كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ٨٤ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤ – ٨٥]، فقالوه لفظا عاقدين القلب عليه.

وقد جاء التلفظ بذلك في دعاء إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ والمؤمنين معه: ﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

وأمر الله نبيه بالتلفظ به في مُحاجة المعرضين، فقال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩].

ooo

(١) ينظر: المرجع السابق (٢/٨٩–٩٠).

المبحث الثاني: منزلة التوكل:

التوكل على الله قوة عند المُلِمَّات، وعُدَّةٌ في النَّائبات، وثبات على الحق أمام التحديات.

وهو للمؤمن جَنَّة عاجلة، وغنيمة سانحة، وطمأنينة وارِفَة .. هو الحصن الذي من دخله لا يخشى، ومن لاذ به لا يشقى، ومن اعتصم به كفاه المولى.

وقد ورد لفظُ التوكل في القرآن في اثنين وأربعين موضعا؛ منها:

قولُه تعالى في بيان صفة المؤمنين: ﴿**إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾ [الأنفال: ٢]، وجعله شرطا في الإيمان، فقال: ﴿**وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ [المائدة: ٢٣]، وشرطا في الإسلام، فقال: ﴿**وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ**﴾ [يونس: ٨٤]، وتكفَّل الله بكفاية من توكل عليه، فقال جل وعلا: ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ**﴾ [الطلاق:٣] أي: كافيه، وقال لرسوله ﷺ: ﴿**فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ**﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال عن أصحاب نبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: ﴿**ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ**﴾ [آل عمران: ١٧٣].

والتوكل على الله – تعالى – من فروض الأعيان.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وتظن طائفة أن التوكل إنما هو من مقامات الخاصة المتقرِّبين إلى الله بالنوافل، وكذلك قولهم في أعمال القلوب وتوابعها؛ من الحب والرجاء والخوف والشكر ونحوه. وهذا ضلال مُبِين، بل جميع هذه الأمور فَرْضٌ على الأعيان باتفاق أهل الإيمان»(١).

والتوكُّل شعور ويقين بعظمة الله جَلَّجَلَالُهُ وربوبيته وقدرته، والتوكل قَطْع القلب عن العلائق ورَفْض التعلق بالخلائق، وإعلان الافتقار إلى الملك الرازق.

والتوكل إيمان وسكينة واطمئنان، ثقة بالله في الله، في وقت اختُرِق حصن التوكل في كثير من القلوب، فتعلقت بغير الله وتوكلت على الأسباب المادية.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ظهر أن التوكل أصل لجميع مقامات الإيمان والإحسان، ولجميع أعمال الإسلام، وأن منزلته منها منزلة الجسد من الرأس، فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن، فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلا على ساق التوكل»(٢).

ooo

المبحث الثالث: أنواع التوكل، ومجالاته:

التوكل على الله نوعان:

الأول: توكل عليه في الأمور الدنيوية.

---

(١) «مختصر الفتاوى المصرية» ص١٢٤.

(٢) «طريق الهجرتين» ص٢٥٨.

الثاني: التوكل على الله في الأمور الدينية، كتحصيل الإيمان، واليقين، والاستقامة، وطلب العلم، والجهاد، والدعوة إليه. وهذا أفضل النوعين، وهو توكل الأنبياء.

وبين النوعين من الفضل مالا يحصيه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فمتى توكل العبدُ على الله في النوع الثاني حقَّ توكله، كفاه النوعَ الأول تمامَ الكفاية.

وفي دائرة هذين النوعين تظهر مجالات كثيرة للتوكل؛ منها مثلا:

١- **الاستقامة والصلاح**: فيتوكل العبد على ربه في صلاح قلبه واستقامته على الصراط المستقيم. وهذا مقام عظيم من مقامات القلوب الحية التي تعِي معنى دعائها في كل ركعة ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

٢- **الرزق**: فيوقن المسلم أن رزقه كُتِب وهو في بطن أمه، وهو بيَد الله؛ فيتوكل عليه في حصوله لا على غيره. وبعض الناس يعيش في هَمٍّ ونَكَد بسبب هذه اللقمة؛ كيف يوفرها لنفسه ولأولاده، ولو فوَّض الأمر إلى ربه لجاءه الرزق وهو قرير العين.

٣- **العافية والصحة**: فنجد بعض الناس إذا نزلت بهم الأمراض تعلقت قلوبهم بالأسباب الحسِّيَّة، بالطبيب فلان أو المستشفى الفلاني، وغفلوا عن

قوله – عز وجل – على لسان إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠].

٤- **قضاء الحاجات والمصالح**: فمما يُظهِر ضعف توكلنا على الله أنَّ أحدنا إذا كانت له حاجة أو معاملة أو طلب قبول في وظيفة أو دراسة، تجد أول ما يخطر في باله: الواسطة؛ لتسهيل الموضوع، والتعلق بفلان أو علان، ويغفل القلب عن التوجه إلى مُسبب الأسباب الذي بيده أمر كل شيء.

جاء رجل إلى الربيع بن عبد الرحمن، فسأله أن يكلِّم الأمير في حاجة له، فبكى الربيع رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ثم قال: أي أخي، اقصد إلى الله في أمرك تجدْه سريعا قريبا؛ فإني ما ظاهَرت أحدا في أمر أُرِيدُه إلا الله – عز وجل –، فأجده كريما قريبا لمن قصده وأراده وتوكل عليه(١).

٥- **النصر على الأعداء**: فما أحوج المسلمين اليوم، وقد تمالأت عليهم قوى الطغيان والكفر على اختلاف مللها ونحلها، أن تجتمع كلمتهم ويتوكلوا على ربهم! قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

(١) «التوكل على الله» لابن أبي الدنيا ص ٧٤.

توَكَّلنـــــا عــــــلى الـــــرَّحمنِ إنَّـــــا
وَجَــــــدْنا الخَـــــيرَ للمُتَوكِّلينـــــــا
ومَـــــن لـــــبِسَ التَّوَكُّــــل لم تجِـــــدْهُ
يخــــافُ جرائِـــــرَ المُتَجَبِّرينـــــا[1]

ooo

المبحث الرابع: ثمرات التوكل:

الثمرة الأولى: تحقيق الإيمان:

فلا إيمان إلا لمن توكل على ربه، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

الثمرة الثانية: من أعظم أسباب الفوز بالجنة:

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ۝٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٨- ٥٩].

بل يسبقون غيرهم، فيدخلون الجنة بغير حساب، كما سبق في حديث السبعين ألفا، حيث وصفهم ﷺ، فقال: «**هُمُ الَّذِينَ لا يَسْتَرْقُونَ، وَلا**

(١) «مجمع الحكم والأمثال» ص ٤٥٣، بترقيم الشاملة.

يَتَطَيَّرُونَ، وَلا يَكْتَوُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»(١)، والمعنى: أنهم - لكمال توكُّلِهم - يتركون الأسباب المكروهة كالاكتواء والاسترقاء؛ لأن المستَرْقِيَ سائل مُستعْطٍ ملتفت بقلبه إلى غير ربه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ. أما مباشرة الأسباب المباحة والتداوي على وجه لا كراهة فيه، فغير قادح في التوكل.

عن سعيد بن المسيب: أن سلمان، وعبد الله بن سلام التقيا، فقال أحدُهما لصاحبه: إن لقيتَ ربك قبلي فالقني وأعلمني ما لقيت، وإن لقيتُه قبلَك لقيتُك فأخبرتك! فتُوُفِّي أحدُهما، ولقِي صاحبَه في المنام، فقال له: «توكلْ وأبشر؛ فإني لم أر مثل التوكل»، قال ذلك ثلاث مرار(٢).

الثمرة الثالثة: نَيْل محبة الله - تعالى -:

قال تعالى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ**﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ومن أحبه الله وفقه وسدده، كما في الحديث القدسي: «**فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ**»(٣).

الثمرة الرابعة: طمأنينة النفس وراحة القلب:

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزهد والرقائق» (٤٢٨)، وقال الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (١/٥٥٧): سلمان مات قبل عبد الله بسنوات رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٥٠٢).

فإذا تعلَّق القلب بربه اطمأن وسكَن، وهدأت النفس وذهب عنها القلق والهم وضيق الصدر، قال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١]. فمن كان يعاني قلقا يسهره، أو اكتئابا ينغص عليه حياته، فدُونَه دواءَ النفس: أن تسْبَح بها في رياض الذِّكر، وتُعَلِّق القلب بربه، وتُفَوِّض الأمر إليه.

يـــا صـــاحب الهَــمِّ إنَّ الهَـــمَّ مُنفَـــرِجٌ
أبشـــــر بِخـــيْر فـــإنَّ الفــــارِجَ اللهُ
إذا ابتُلِيـــــتَ فثِـــقْ بـــاللهِ، وارْضَ بـــهِ
إنَّ الـــذي يكشِـــفُ البَلْـــوى هُـــو اللهُ
اليـــأسُ يقطَـــعُ أحيانًـــا بصـــاحبِهِ
لا تيأســــنَّ فـــإنَّ الكــــافِيَ اللهُ
واللَّهِ مــا لَـــكَ غـــيْرُ اللهِ مِـــن أحَـــدٍ
فحَسْـــبُك اللهُ فِي كـــلٍّ لـــكَ اللهُ(١)

الثمرة الخامسة: كفاية الله للمتوكل جميع أمره:

وهذا جزاء المتوكِّل على ربه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ﴾ [الطلاق: ٣]، أي: كافيه.

(١) «موسوعة الشعر الإسلامي» للشحود (١/٦٤)، بترقيم الشاملة.

ومن جملة ذلك: السحر والحسد، فمن أسباب الوقاية منها قوة توكل القلب على ربه، وصدق اعتماده وتعلقه به.

الثمرة السادسة: التوكل يُورِث قوة القلب وشجاعته وثباته:

قال تعالى: ﴿**إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ**﴾ [الأنفال: ٤٩].

قال الشيخ ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تعليقه على الآية: «إن الإيمان يوجب لصاحبه الإقدام على الأمور الهائلة التي لا يقدم عليها الجيوش العظام، فإنَّ المؤمنَ المتوكِّل على الله الذي يعلم أنه لا حول ولا قوة ولا استطاعة لأحد إلا بالله - تعالى -، وأن الخلق لو اجتمعوا على أن يضروه لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه، وعَلِم أنه على الحق، وأن الله - تعالى - حكيم رحيم في كل ما قدَّره وقضاه، فإنه لا يبالي بما أقدم عليه من قوة وكثرة، وكان واثقا بربه مطمئن القلب لا فَزِعا ولا جبانا؛ ولهذا قال: ﴿**فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ**﴾ لا يغالب قوته قوة، ﴿**حَكِيمٞ**﴾ فيما قضاه وأجراه»(١).

الثمرة السابعة: سبب في حصول الرزق:

عن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا**»(٢).

---

(١) تفسير السعدي ص٣٢٢.

(٢) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٢٣٤٤)، وأحمد (٢٠٥)، وصححه الألباني.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٥٩ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٥٩-٦٠].

قيل لحاتم الأصم: على ما بنيت أمرك هذا من التوكل؟ قال: على أربع خلال: «علمت أن رزقي لا يأكله غيري، فلستُ أهتَمُّ له، وعلمت أن عملي لا يعمله غيري، فأنا مشغول به، وعلمت أن الموت يأتيني بغتة، فأنا أبادِرُه، وعلمت أني بعين الله في كل حال، فأنا مُستحْيٍ منه»[1].

وقيل لعمر بن عبد العزيز في مرض موته: هؤلاء بنوك - وكانوا اثني عشر - ألا توصي لهم بشيء؛ فإنهم فقراء؟ فقال: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]، هم بين رجلين: إما صالح، فالله يتولى الصالحين، وإما غير صالح، فما كنت لأعينه على فسقه. قال راوي الخبر: فلقد رأينا بعض أولاد عمر بن عبد العزيز يحمل على ثمانين فرسا في سبيل الله[2].

ورزق إبراهيم النخعي بأكثر من عشرين ألف درهم في يوم؛ فتصدق بها جميعا! فقيل له: لو ادخرت منها لولدك، فقال: لقد ادَّخَرْتُها لنفسي، وادخرت الله لولدي، فاستجاب اللهُ لحُسن ظَنِّه، فكان الثراء والسعادة في ولده.

---

(١) «شعب الإيمان» (١٢١٦).

(٢) «البداية والنهاية» (١٢/٧١٥).

الثمرة الثامنة: التوكل حصن من تسلط الشيطان الرجيم:

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٨-٩٩].

ooo

المبحث الخامس: الأسباب وعلاقتها بالتوكل:

إن من المسائل المهمة في فهم حقيقة التوكل: أن يُعلم أن فعل الأسباب ومباشرتها من حقيقة التوكل؛ فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَعْقِلُهَا وَأَتَوَكَّلُ، أَوْ أُطْلِقُهَا وَأَتَوَكَّلُ؟ قَالَ: «**اعْقِلْهَا، وَتَوَكَّلْ**»(١).

والنبي ﷺ أعظم المتوكلين، ومع ذلك كان يأخذ بالأسباب؛ فكان يأخذ الزاد في السفر، ولمَّا خرج إلى أُحدٍ ظاهر بين درعيه(٢)، أي: لبس درعين اثنين، ولما خرج مهاجرا أخذ من يدُلُّه الطريق(٣)، وقال: من يحرسنا الليلة؟(٤)، وأمر بإغلاق الباب وإطفاء النار عند المبيت(٥).

---

(١) **حسن**: أخرجه الترمذي (٢٥١٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٣٩٠)، وحسنه الألباني.

(٢) ينظر: سنن أبي داود (٢٥٩٠)، وسنن ابن ماجه (٢٨٠٦).

(٣) ينظر: صحيح البخاري (٢٢٦٣).

(٤) ينظر: سنن أبي داود (٢٥٠١)، ومسند أحمد (٣٧١٠).

(٥) ينظر: صحيح البخاري (٥٦٢٣)، وصحيح مسلم (٢٠١٢).

ويُذكر أنه قدم ناس من أهل اليمن إلى الحج بلا زاد، فجِيء بهم إلى عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فسألهم، فقالوا: نحن المتوكلون على الله، فقال: لستم المتوكلين، بل أنتم المتواكلون(١).

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى حين قال: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَلَا تَعْجَزْ**»(٢)، فأمر ﷺ بالحرص على الأسباب والاستعانة بالمُسبِّب، ونهاه عن العجز.

والقاعدة الجليلة التي ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، هي: «الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع. وإنما التوكل معنى يتألَّف من موجب التوحيد والعقل والشرع»(٣).

ويقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، واصفا حال مريم لما جاءتها الولادةُ: ﴿**فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۝٢٤ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا**﴾ [مريم: ٢٤-٢٤]، فمع ضعفِها وكُربتها وكونها في المخاض، ربط اللهُ الأمورَ بأسبابها، فأُمِرَت بهزِّ جذع النخلة؛ ليسقط

---

(١) ينظر: «المجالسة وجواهر العلم» للدينوري (٣٠٢٧).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٦٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) «مجموع الفتاوى» (٨/ ١٦٩).

عليها الرطب، مع أنه كان يمكن أن يسقط الرطب دون هز وتحريك، لكن حكمة الله أن ربط الأمور بأسبابها.

ooo

المبحث السادس: التوكل بين التوحيد والشرك:

توكُّل القلب واعتماده في تحقيق أمر ما، له صور:

الصورة الأولى: أن يكون التوكل على الله - تعالى -.

فهذا هو التوحيد، وهو من تمام الإيمان، وهو واجب لا يتم الإيمان إلا به.

الصورة الثانية: التوكل على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله. كالتوكُّل على الأموات أو الغائبين أو العاجزين في تحقيق مصلحة، أو دفع مضرة، ويسميه بعضهم «توكل السر».

فهذا شرك أكبر؛ لأنه لا يقع إلا ممن يعتقد أن لهذا الميت ونحوه تصرُّفا سِرِّيا في الكون، وسواء كان المتوكَّلُ عليه نبيا، أو وليا، أو فاجرا.

الصورة الثالثة: التوكل على غير الله فيما يقدر عليه.

كمن يعتمد ويتعلق قلبه بالأمير في حمايته، أو جلب رزقه، ونحو ذلك.

فهذا نوع من الشرك الأصغر، ويتعلق بقاعدة الأسباب التي سبقت، وسبق قريبا قولُ شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد».

تنبيه: الفرق بين التوكُّل والتوكِيل:

التوكيل: من الوَكالة التي يذكرها الفقهاء، وهي الإنابة في أمر تجوز فيه النيابة، كما لو وكَّلتَ فلانا في شراء بيت.

وهي ثابتة بدلالة النص والإجماع؛ فقد وكَّل النبي ﷺ على الصدقة عُمالا وحُفَّاظا(١)، ووَكَّل عليًّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حجة الوداع أن ينحر ما بقي من المئةِ بعد أن نحر ﷺ بيده ثلاثا وستين(٢). وأما الإجماع على جواز ذلك فمعلوم من حيث الجملة(٣).

ooo

المبحث السابع: من أخبار المتوكلين:

الخبر الأول: لما رُفع إبراهيمُ الخليل ﷺ ليُلْقَى في النار عرَضَ له جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال: يا إبراهيم؛ ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، وأما من الله فبلى، وقال: حسبنا الله ونعم الوكيل(٤). فجاءته الكفاية والحماية فعطَّل الله النار عن خصائصها، وصارت بردا وسلاما على إبراهيم.

---

(١) ينظر: صحيح البخاري (٣٧٩٢)، ومسلم (١٠٤٥)، و(١٨٣٣).

(٢) ينظر: صحيح مسلم (١٢١٨).

(٣) ينظر: كتاب «الإقناع في مسائل الإجماع» (أبواب الإجماع في القضاء في الوكالات)، وما بعده.

(٤) ينظر: «حلية الأولياء» (١/ ٢٠)، «شعب الإيمان» (١٠٤٥)، و«السلسلة الضعيفة» (٢١).

الخبر الثاني: قصة الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ - أيضا - حين أسكَن هاجر وولدها بواد غير ذي زرع، فقالت هاجرُ: «**يا إِبْرَاهِيمُ، أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الوَادِي، الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلا شَيْءٌ؟ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا، وَجَعَلَ لا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ لَهُ: آللَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ نَعَمْ، قَالَتْ: إِذَنْ لا يُضَيِّعُنَا**»[1].

الخبر الثالث: بعد غزوة أُحُد جاء بعض المشركين يخوفون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه بعودة المشركين إليهم لاستئصال شأفتهم، فكان حالهم كما وصف الله تعالى: ﴿**ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ**﴾ [آل عمران:١٧٣-١٧٤]، فهذه الكلمة (حسبُنا الله ونعم الوكيلُ)، هي شعار المسلم في الأزمات ..

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ، قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَالُوا: ﴿**إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ**﴾ [آل عمران: ١٧٢]»[2].

وفي قصص الأنبياء، وسيرة نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمثلة كثيرة يتجلى فيها صدق التوكل على الله - تعالى -، ومن أسمائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: المتوكِّل.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٣٦٤)، من حديث عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، مرفوعا.

(٢) تقدم تخريجه.

فالحاصل أن هذا الباب باب عظيم من أعمال القلوب، متعلقٌ بالتوحيد، وأنَّ المؤمن الموحِّد عليه أن يعتني ويحقق هذه الأعمال في قلبه؛ لأن أصل التوحيد في القلب؛ كالمحبة، والرجاء، والخوف، والتوكل، ونحو ذلك من أعظم الأعمال القلبية التي يتعبدُ بها العبدُ ربه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، ويوحِّدُه بها دون مشارك.

* * *

٣٣- باب قول اللّه تعالى: ﴿أفأمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فلَا يَأمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٦١].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ عَنِ الْكَبَائِرِ؟ قَالَ: «**الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهُ**»[(١)].

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ، وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ»[(٢)]. رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ.

ooo

---

(١) **حسن**: أخرجه البزار في مسنده، كما في «كشف الأستار» (١٠٦)، وعزاه الهيثمي للطبراني، كما في «المجمع» (٣٩٤). وقال الهيثمي: رجاله موثقون. وحسنه الألباني في «الصحيحة» (٢٠٥١).

وأخرجه – بنحوه – البيهقي في «الشعب» (٢٨٧)، والطبراني في «الكبير» (١٣٠٢٣)، موقوفا على ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه معمر بن راشد في «الجامع» (١٩٧٠١)، والطبراني في «الكبير» (٨٧٨٤)، وعبد الرزاق في تفسيره (٥٥٦).

الشرح:

ذكر المؤلفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب آيتين وحديثا وأثرا.

والكلام على هذا الباب في فصلين:

* * *

الفصل الأول: مقصود الباب، وموضوعه العام

ساق المؤلف هذا الباب لبيان أن الأمن من مكر الله والقنوطَ من رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من كبائر الذنوب، وأن كُلًّا منهما ينافي كمال التوحيد، وأنه يجب على المؤمن أن يجمع بين الخوف والرجاء، فلا يغلِّب جانب الرجاء حتى يقع في الأمن من مكر الله، ولا يغلب جانب الخوف فيقع في اليأس من روح الله.

❋ ❋ ❋

الفصل الثاني: المباحث الموضوعية

المبحث الأول: الأمن من مكر الله:

المقصود بالأمنِ من مَكْر الله: الغفلةُ عن عُقُوبَتِهِ مع الإقامة على ما يوجِبُها(١).

وإضافة المكر إلى الله من باب إضافة الصِّفَة إلى الموصوف.

فالمكر من صفات الله الفعلية المقيدة التي لا يوصف بها على سبيل الإطلاق؛ لأنها تكون مدحا في حال وذمًّا في حال.

يوصف الله بها حين تكون مدحا، ولا يوصف بها إذا كانت ذما، فنقول: الله ماكر بمن يمكر بأوليائه، خادع لمن يخادعه.

جاء في تفسير ابن كثير: «﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٩٩]، أي: بأسَهُ ونقمَتَهُ وقدرته عليهم وأخْذَه إياهم في حال سهوهم وغفلتهم ﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]، ولهذا قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: المؤمِنُ يعمل بالطاعات وهو مشفِقٌ وَجِل خائف، والفاجِر يعمَلُ بالمعاصي وهو آمن»(٢).

---

(١) قال ابن عاشور في «التحرير والتنوير» (٩/ ٢٤): «المكر حقيقته: فعل يقصد به ضُرُّ أحد في هيئة تخفَى أو هيئة يحسبُها منفعةً».

(٢) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٥١).

وعن عُقْبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ، فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ**»، ثُمَّ تَلا رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿**فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ**﴾ [الأنعام: ٤٤][(١)].

وقال الحسَنُ: من وسَّع الله عليه؛ فلم يَر أنه يُمْكرُ به فلا رأي له[(٢)].

وفسر بعضُ السلف المكرَ: باستدراج اللهِ العبدَ بالنِّعم إذا عصى، وإملائه له حتى يأخذه أخذ عزيز مقتدر[(٣)].

○○○

المبحث الثاني: اليأس من روح الله، والقنوط من رحمة الله:

اليأس والقُنوط: استبعاد الفرَج[(٤)].

فمثلا إن كان الإنسان في كُربة أو نزلت به مشكلة منغصة؛ فيستبعد الفرج ويعتقد أن مشكلته لن تُحَلَّ أبدا، ويصاب بالإحباط، فهذا يأس وقنوط.

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (١٧٣١١) واللفظ له، والطبراني في «الكبير» (٩١٣ و٩١٤)، و«الأوسط» (٩٢٧٢)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤١٣).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٧٢٩٣).

(٣) ينظر: تفسير القرطبي (١/ ٢٠٨، و٧/ ٢٥٤)، و«فتح القدير» للشوكاني (٢/ ٢٦٠).

(٤) ينظر: «المعجم الوسيط» مادة «قنط» (٢/ ٧٦٢)، و«يئس» (٢/ ١٠٦٢).

وقد اجتمعا في قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ [فصلت: ٤٩].

قال ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «القنوط هو أشَدُّ اليأس»(١).

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اليأس: القطع على أن المطلوب لا يتحصل لتحقيق فواته»(٢).

واستُعمِل القنوط مع الرحمة، واليأس مع روح الله، يعني فَرَجَه.

والرَّوْح صفة من صفات الله الثابتة بالكتاب والسنة، ومعناها قريب من الرحمة.

وأورد المؤلِّفُ قولَه تعالى: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٦١]، ومعنى الآية: أن الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لما بشَّر إبراهيم بإسحاق استبعد ذلك على كِبَرِ سنه، فقالت له الملائكة: ﴿قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ الذي لا ريب فيه، ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾ أي الآيسين. فقال: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾، فإنه يعلَم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك وأعظم، لكنه قال ذلك على وجه التعجب. والضالون: المخطئون طريق الصواب، أو الكافرون، كما في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

---

(١) «النهاية» (٤/١٨٨).

(٢) «نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر» ص ٦٣٣.

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣]، الآية.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «القُنوط يكون بأنْ يعتقد أن الله لا يغفر له، إما لكونه إذا تاب لا يقبل الله توبته ويغفر ذنوبه، وإما بأن يقول: نفسه لا تطاوعه على التوبة، بل هو مغلوب معها والشيطان قد استحوذ عليه، فهو ييأس من توبة نفسه»(١).

وقال عليٌّ بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «الفقيه حقُّ الفقيه: من لم يقنِّط النَّاس من رحمة الله، ولم يرخِّص لهم في معاصِي الله، ولم يؤمِّنهم من عذاب الله»(٢).

وهذا اليأس والقُنوط فيه إساءة ظنٍّ بالله، وجهل بسعة رحمته وجوده ومغفرته، وقد ورد في الحديث: «**أَفْضَلُ العِبَادَةِ انْتِظَارُ الفَرَجِ**»(٣)، وإن كان ضعيف الإسناد، لكن انتظار الفرج يتضمن الصبر وحسن الظن بالله، وهاتان من العبادات العظيمة.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٢٠).

(٢) أخرجه الدارمي في سننه (٣٠٥، و٣٠٦)، وأبو داود في «الزهد» (١٠٤)، وضعفه محقق سنن الدارمي.

(٣) **ضعيف**: أخرجه الترمذي (٣٥٧١)، والطبراني في «الكبير» (١٠٠٨٨)، و«الأوسط» (٥١٦٩)، وضعفه الألباني.

والإنسان ربَّما مرت عليه مواقفُ تغلق أمامه الأبواب، وتضيق عليه الأرض بما رحُبَت، يطلب شيئا فلا يتيَسَّر، ويكرِّر فلا يُوَفَّق، فربما يصاب بيأس وقنوط، وهذا خطأ، وإنما عليك بذل الأسباب الحسية، ومواصلة السعي، وبذل الأسباب المعنوية من الدعاء والتوكل ونحو ذلك، وتفاءل بالخير، وأحسن الظن بربك. فاليأس والقنوط من صفات الكافرين، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

ومن دَبَّ إليه اليأس والقنوط ترك العمل، وانفرَط أمرُه، وضاع عمره. وأيضا جَرَّهُ ذلك إلى الانهماك في المعصية لاستبعاده الرحمة، قال أبو قلابة: «الرجل يصيب الذنب، فيقول: قد هلكت ليس لي توبة فييأس من رحمة الله، وينهمك في المعاصي، فنهاهم الله - تعالى - عن ذلك، قال الله - تعالى -: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]»(١).

وكما في قصة الذي قتل تسعة وتسعين نفسا، فسأل مَن قنطه من رحمة الله فكمل به المئة(٢).

- **وصور اليأس والقنوط كثيرة؛ منها:**

١- اليأس والقنوط من مغفرة الله للذنوب.

---

(١) تفسير البغوي (١/ ٢١٧).

(٢) ينظر: صحيح البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٧٦٦).

٢- اليأس والقنوط من زوال الشدائد وتفريج الكروب.

٣- اليأس من نصر الإسلام وارتفاع الذل والمهانة عن المسلمين.

حكم اليأس والقنوط من رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

أجمع العلماء على تحريم اليأس والقنوط من رحمة الله. وهو قسمان:

الأول: يأس وقنوط تام، وهو ما انعدم معه الرجاء تماما، وهذا يُخرِج من الملة.

الثاني: يأس جزئي، وهو يأس العُصاة بسبب كثرة المعاصي، وهذا من الكبائر، ولا يُخرِج من الملة.

وذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن اليأس والقنوط من رحمة الله أشد تحريما من الزنا وشرب الخمر وغيرهما من الكبائر الظاهرة[1].

أسباب اليأس والقنوط:

الأول: الجهل بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الثاني: الغُلُو في الخوف من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الثالث: مصاحبة اليائسين والقانِطين والمقَنِّطِين.

الرابع: ضعف الصبر واستعجال النتائج.

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١١٣).

الخامس: ضعف النفس ودنو الهمة.

تنبيه:

ليس من اليأس والقنوط المذموم تذكير الناس بنصوص الوعيد.

قال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان العلاءُ بن زياد يذْكُر النار، فقال رجل: لم تقنِّطِ الناس؟! قال: وأنا أقدر أن أقنِّط الناس، والله - عز وجل - يقول: ﴿**يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ**﴾[الزمر: ٥٣]، ويقول: ﴿**وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ**﴾[غافر: ٤٣]، ولكِنَّكم تحبون أن تُبَشَّروا بالجنة على مساوئ أعمالكم، وإنما بعث الله محمدا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مبشِّرا بالجنة لمن أطاعه، ومنذرا بالنار من عصاه»[(١)].

ooo

المبحث الثالث: المسلم بين الرجاء والخوف:

قال تعالى: ﴿**وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ**﴾[الإسراء: ٥٧]، وقال: ﴿**أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ**﴾[الزمر: ٩].

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: سمعتُ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «**إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الرَّحْمَةَ يَوْمَ خَلَقَهَا مِئَةَ رَحْمَةٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، وَأَرْسَلَ فِي خَلْقِهِ**

---

(١) صحيح البخاري، (كتاب التفسير، باب قوله: ﴿**وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ...**﴾ [الزمر:٦٨]).

كُلِّهِمْ رَحْمَةً وَاحِدَةً، فَلَوْ يَعْلَمُ الكَافِرُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ لَمْ يَيْأَسْ مِنَ الجَنَّةِ، وَلَوْ يَعْلَمُ المُؤْمِنُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ العَذَابِ لَمْ يَأْمَنْ مِنَ النَّارِ»(١).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: دخَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى شَابٍّ وَهُوَ فِي المَوْتِ، فَقَالَ: «**كَيْفَ تَجِدُكَ**؟» قَالَ: وَاللَّهِ، يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَرْجُو اللَّهَ، وَإِنِّي أَخَافُ ذُنُوبِي، فَقَالَ رَسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا المَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ مَا يَرْجُو وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ**»(٢).

فالمسلم يوازن بين الخوف والرجاء؛ فهما كالجناحين للطائر، فإذا خاف فلا يقنط من رحمة الله، وإذا رجا فلا يأمن من مكر الله – تعالى –. والعبادة مبنية على أمرين عظيمين هما: المحبة والتعظيم، والمحبة تولِّد الرجاء، والتعظيم يولِّد الخوف.

* * *

(١) أخرجه البخاري (٦٤٦٩) واللفظ له، ومسلم (٢٧٥٢).

(٢) **حسن**: أخرجه الترمذي (٩٨٣)، وابن ماجه (٤٢٦١)، وحسنه الألباني.

٣٤- باب
من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله

وَقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ...﴾ [التغابن:١١].

قالَ عَلْقَمَةُ: هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ[(١)].

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ**»[(٢)].

وَلَهُمَا عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًا: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ**»[(٣)].

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ بِالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[(١)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه معلقا مجزوما به (كتاب التفسير، باب سورة التغابن)، ووصله البيهقي في «الكبرى» (٧١٣٣).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٦٧).

(٣) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (١٢٩٤) وفي مواضع أخرى، ومسلم (١٠٣).

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَى، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ**»[٢]. حَسَّنَهُ التِّرْمِذِيُّ.

ooo

الشرح:

عقد المؤلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب، وساق فيه آية وأربعة أحاديث وأثرا واحدا.

والكلام على هذا الباب في الفصلين التاليين:

* * *

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٢٣٩٦)، وأبو يعلى في مسنده (٤٢٥٤)، والحاكم (٨٧٩٩)، وقال الألباني: حسن صحيح.

(٢) **حسن**: أخرجه الترمذي (٢٣٩٦) وقال: حديث حسن غريب، وابن ماجه (٤٠٣١)، من حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وحسنه الألباني، وهو من روايات الحديث السابق.

الفصل الأول: مقصود الباب، وموضوعه العام

أراد المصنف بهذا الباب بيانَ وجوبِ الصبر على الأقدار المؤلمة، وتحريم التسخُّط منها؛ لأن التسخط ينافي كمال التوحيد الواجب.

والصبر على الأقدار المؤلمة يتعلق بتوحيد الربوبية؛ لأن المقادير التي تقع على الخلق من أفعال الله وتدبيره، وهي من متعلقات ربوبيته. فمثلا: موت القريب، أو ذهاب المال، هذه مقادير من أفعال الله وتدبيره وتقديره، وتوحيد الربوبية متعلِّق بأفعال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

* * *

الفصل الثاني: المباحث الموضوعية

المبحث الأول: تعريف الصبر:

الصَّبر لغة: الحبسُ والكَفُّ، ومنه قولهم: قُتِل فلان صبرا، إذا أُمسِك وحُبِس حتى مات(١).

واصطلاحا: حبس النفس واللسان والجوارح عن الجَزَع والتسخُّط المحرم(٢).

فمثال جزعِ النفس: أن يقع في قلبه اعتراض على قدَر الله، وأن العبد لا يستحق هذا، وكأنَّ الله ظلمه بهذه المصيبة، وربما يؤدي إلى الكفر؛ كما لو قام في قلبه الشك في حكمة الله وعلمه وقدرته وعدله، أو الاعتراض على ربوبيته وقضائه وقدره.

ومثال جزع اللسان: أن يعترض على هذه المصيبة، أو يسُبَّ الدهر، أو الدعاء بدعوى الجاهلية؛ كقول: «واويلاه، واثبوراه»، وقول: «فلان ما يستاهل، أو ما يستحق».

---

(١) ينظر: معجم «مقاييس اللغة» مادة «صبر» (٣/ ٣٢٩).

(٢) عرف ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ الصبر في «عدة الصابرين» ص ١٦، فقال: «هو خُلُق فاضل من أخلاق النفس يُمتَنَع به من فعل ما لا يحسُن ولا يجمُل، وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها».

ومثال جزع الجوارح: لطم الخدود، وشق الجيوب، ونتف الشعر.

ooo

المبحث الثاني: الصبر في الكتاب والسنة والآثار:

الصبر من الأخلاق التي اعتنى بها القرآن الكريم، وتكرر ذكره فيه.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ذَكَر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الصبرَ في القرآن في تسعين موضعا»(١).

- **وقد سيق الحثُّ على الصبر في القرآن في عدة صور، ذكرها ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «عُدة الصابرين»؛ منها:**

الأول: الأمر به؛ كقوله تعالى: ﴿**وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ**﴾ [النحل:١٢٧].

الثاني: تعليق الفلاح به؛ كقوله تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، فعَلَّق الفلاح بمجموع هذه الأمور.

الثالث: الإخبار عن مضاعفة أجر الصابرين على غيره؛ كقوله تعالى: ﴿**أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟**﴾ [القصص:٥٤]، وقوله - جلَّ ذكره -: ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [الزمر:١٠].

---

(١) ذكره ابن القيم في «عدة الصابرين» ص٧١، و«مدارج السالكين» (٢/ ١٥١).

الرابع: تعليق الإمامة في الدين به وباليقين. قال الله – تعالى -: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ**﴾ [السجدة: ٢٤].

- **كما حفلت السنة بأحاديث كثيرة في الحثِّ على الصبر، منها:**

عن أبي سعيد الخدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ نَاسًا مِنَ الأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ، فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ، فَأَعْطَاهُمْ حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ ﷺ: «**مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ**»(١).

وعن أبي مالك الحارثِ بن عاصم الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**الصَّلاة نورٌ، والصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، والْقُرْآنُ حُجَّة لَكَ أَوْ عَلَيْكَ. كُلُّ النَّاس يَغْدُو، فَبِائِعٌ نَفْسَهُ فمُعْتِقُها، أَوْ مُوبِقُهَا**»(٢).

وعن صُهَيبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**عَجَبا لأمْرِ الْمُؤْمِنِ؛ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لأِحَدٍ إِلاَّ للْمُؤْمِن: إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خيْراً لَهُ**»(٣).

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (١٤٦٩) وفي مواضع أخرى، ومسلم (١٠٥٣).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٣).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٩٩٩).

قال عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ أَفْضَلَ عَيْشٍ أَدْرَكْنَاهُ بِالصَّبْرِ، وَلَوْ أَنَّ الصَّبْرَ كَانَ مِنَ الرِّجَالِ كَانَ كَرِيمًا(١).

وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ألا إنَّ الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قُطِع الرأسُ بادَ الجسد، ثم رفع صوته فقال: ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر له(٢).

وقال شُرَيح: إني لأصاب بالمصيبة، فأحمد الله عليها أربع مرات، أحمد إذ لم يكن أعظم منها، وأحمد إذ رزقني الصبر عليها، وأحمد إذ وفقني للاسترجاع لما أرجو من الثواب، وأحمد إذ لم يجعلها في ديني(٣).

ooo

المبحث الثالث: أقسام الصبر:

الأول: صبر على طاعة الله:

قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾[طه: ١٣٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾[الإنسان:٢٣]،

---

(١) «الصبر والثواب عليه» لابن أبي الدنيا (٦).

(٢) المرجع السابق (٨).

(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٩٥٠٧).

وقال الله – تعالى –: ﴿**وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ**﴾ [الكهف: ٢٨].

ولا شك أن الطاعة والعبادة تحتاج إلى صبر ومجاهدة، ولا سيما في أول الأمر، قال النبي ﷺ: «**حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ**»(١).

الثاني: صبر عن معصية الله:

لأنَّ النفس تميل إلى المعصية وتهواها، وقد قال ﷺ: «**حُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ**»(٢)، ونعلَمُ جميعا صبر يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عن إجابة امرأة العزيز مع توفر الدواعي لذلك؛ فهو شاب، والمرأة امرأة العزيز، وهو في قصر الملك، وهي التي دعته، وتهيأت له، ومع ذلك قال: ﴿**مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ**﴾ [يوسف: ٢٣].

وقد يتيسر للمرء أحيانا مالٌ حرام، فتضعُف النفسُ لا سيما إذا كان كثيرا في وقت حاجة وضائقة، فيحتاج الأمر إلى صبر عن بريق هذا المال الحرام.

الثالث: الصبر على أقدار الله المؤلمة:

فأقدار الله – تعالى – نوعان:

النوع الأول: أقدار مؤلمة.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٢٢)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٢٢)، وهو من تتمة الحديث السابق.

النوع الثاني: أقدار ملائمة. وهي ما تحِبُّه النفس، كمن يُرزَق بمال أو ولد ونحوهما.

والمراد هنا الأول؛ لأنه الذي يحتاج إلى صبر، والدليل عليه قول الله - تعالى -: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ [القلم: ٤٨]، وحكم الله - تعالى - يدخل فيه الحكم القدري، أي: أحكامه القدرية الكونية، كما يدخل فيه حكمه الشرعي.

ooo

المبحث الرابع: أحوال الناس عند المصائب:

الحال الأولى: التسخُّطُ والجزع:

وهذا محرم. وقد يكون بالقلب أو باللسان أو بالجوارح، وسبق ذكر الأمثلة على ذلك.

قال أبو مسعود البَلْخِيُّ: من أصيب بمصيبة فمزَّق ثوبا، أو ضرب صدرا، فكأنما أخذ رُمحا يريد أن يقاتل به ربه - عز وجل -[(١)].

الحال الثانية: الصبر:

قال بعضُ العلماء: إنما سمي الصبرُ صَبرا؛ لأنَّ تمرره في القلب وإزعاجه للنفس كتمرر الصَّبِرِ في الفم[(٢)]. وقد قيل:

---

(١) «التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة» للقرطبي (١/ ١٣١).

(٢) ينظر: «نزهة الأعين» لابن الجوزي ص٣٨٧. و«الصَّبِر» (بكسر الباء): الدواء المر.

والصَّبْرُ مثلُ اسمِه مُرٌّ مذاقتُه   لكِن عواقبُه أحلى مِن العَسَلِ(١)

والصَّبِر: عصارة شجر مُرٍّ المذاق، واشتق خُلُق الصبر منه.

ويكون الصبر بأن يحبس نفسه عن التسخُّطِ؛ فهو يكره المصيبة ولا يحب وقوعها، لكن يصبِّر نفسه؛ لا يصدر من لسانه أو جوارحه ما يغضب الله – تعالى – ، ولا يكون في قلبه على الله شيءٌ أبدا.

وحكم هذا النوع: أنه واجب على الأعيان.

الحال الثالثة: الرضا:

بأن يكون الإنسان منشرحَ الصدرِ عند نزول القضاء راضيا به مُسلِّما، فيكون الأمران عنده سواء؛ لتمام رضاه بربه وقضائه.

- **وهذه الحال واجبة من وجه، ومستحبة من وجه آخر**. قال الشيخ العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أقدار الله: جمع قَدَر، وتطلق على المقدور وعلى فعل المقدِّر، وهو الله – تعالى –. أما بالنِّسبة لفعل المقدِّر؛ فيجب على الإنسان الرضا به والصبر، وبالنسبة للمقدُور؛ فيجب عليه الصبر ويستحب له الرضا. مثال ذلك: قدَّر الله على سيارة شخص أن تحترق، فكون الله قدَّر أن تحترق هذا قدر يجب على الإنسان أن يرضى به؛ لأنه من تمام الرضا بالله ربا. وأما بالنسبة للمقدُور الذي

(١) ينظر: «بصائر ذوي التمييز» للفيروزآبادى (٣/ ٣٨٧).

هو احتراق السيارة؛ فالصبر عليه واجب، والرضا به مستحب، وليس بواجب على القول الراجح»[1].

وقال أيضا: (وأما قوله ﷺ: «**فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ**»[2]؛ فالمراد بالرضا هنا الصبر، أو الرِّضا بأصل القضاء الذي هو فعل الله، فهذا يجب الرضا به؛ لأن الله - عز وجل - حكيم، ففَرْق بين فعل الله والمقضي.

والمقضي ينقسم إلى: مصائب لا يلزم الرضا بها، وإلى أحكام شرعية يجب الرضا بها)[3].

الحال الرابعة: الشكر:

وهذه أعلى المراتب، فهو يرى أن هذه المصيبة نعمة تستحق الشكر، لما يترتب عليها من تكفير السيئات، وربما زيادة الحسنات، وأن البلاء علامة خير للمؤمن.

وهذه المرتبة مستحبة، ولا يصل إليها إلا الخُلَّص.

ooo

(١) «القول المفيد» (٢/ ١١١).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) «القول المفيد» (٢/ ٢٩٤).

المبحث الخامس: حكم الشكوى للمخلوق عند حلول المصيبة:

إخبار المخلوق بما نزل عليك من مصيبة؛ له صورتان:

الصورة الأولى: أن يكون له مقصد صحيح.

وهذا مثل:

- إخبار الطبيب بما نزل بك من المرض، وما تعانيه من آلام.
- الاستشارة في هذه المصيبة من ناصح تثق في رأيه.
- السعي في رفع الظلم؛ كمن يذهب للمدير أو القاضي ونحوهما، ويخبر بما وقع عليه لرفع الظلم عنه.
- المواساة لمن أصيب بمثل مُصابِك.

ولما قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: وارأساه، قال ﷺ: «**بَلْ، أَنَا وَا رَأْسَاهْ**»[1]، أي: الوجع القوي بي أنا دونَكِ. وذكروا عن الأحنف أنه شكا إليه رجل شكوى، فقال: يا ابن أخي، لقد ذهب ضوءُ عيني من كذا وكذا سنة، فما أعلمت به أحدا[2].

- الاعتذار؛ كمن تخلف عن موعد أو مناسبة، فيعتذر بما أصابه من مرض ونحوه.

---

(١) ينظر: صحيح البخاري (٥٦٦٦).

(٢) ينظر: «الروح» لابن القيم ص ٢٥٨.

- النصيحة؛ كمن يحذِّر أخاه من معاملة فلان؛ فإنه عامله وأكل ماله، ونحو ذلك.

ففي هذه الصور ونحوها لا بأس بالإخبار بما نزل على المرء من المصيبة، بل ربما يكون مشروعا له ذلك الإخبار.

ومن اللطائف في قصة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ والخضر، حين قال موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿**لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا**﴾ [الكهف: ٦٢]، استنبط بعض المفسرين منه: جواز أن يخبر الإنسان بما نزل به من النَّصَب والتعب، أو الجوع أو العطش، ونحو ذلك، إذا لم يكن على وجه التسخُّط.

الصورة الثانية: الإخبار العاري عن القصد الصحيح:

بل يكون مصدرُه الشكوى، وهو بذلك يشكو الرحيم إلى الذي لا يرحَمُ.

فإذا شكوت فاشكُ إلى ربك، وهي ليست شكوى في الحقيقة بل استعطاف وتملُّق واسترحام، كقول أيوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، حين: ﴿**نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ**﴾ [الأنبياء: ٨٣]، وقول يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿**إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ**﴾ [يوسف: ٨٦]، وقول موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «اللّٰهم لك الحمد وإليك المشتكى وبك المستغاث وأنت المستعان ولا حول ولا قوة الا بالله»[1]، وقول محمد ﷺ: «اللَّهمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي،

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٣٣٩٤)، و«الصغير» (٣٣٩)، والبيهقي في «الدعوات الكبير» (٢٦٤)، وانظر: «الأجوبة المرضية» للسخاوي (١٧٠).

وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ، وَأَنْتَ رَبِّي، إِلَى مَنْ تَكِلُنِي؟ إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي؟ أَمْ إِلَى عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي؟ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أُبَالِي، وَلَكِنَّ عَافِيَتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي»(١).

○○○

المبحث السادس: المشروع للمسلم عند نزول المصيبة:

أولا: الصبر. وهو واجب.

ثانيا: الإتيان بالذكر الوارد. ومنه:

١- قول: «إنا لله وإنا إليه راجعون»، قال تعالى: ﴿**ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ**﴾ [البقرة: ١٥٦-١٥٧].

٢- عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زوج النبي ﷺ قالت: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «**مَا مِنْ عَبْدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ، فَيَقُولُ: «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا»، إِلَّا أَجَرَهُ اللهُ فِي مُصِيبَتِهِ، وَأَخْلَفَ لَهُ**

---

(١) **ضعيف**: أخرجه ابن إسحاق في «المغازي» مرسلا من حديث محمد بن كعب القرظي، كما في «السيرة» لابن هشام (١/ ٤٢٠). وأخرجه الطبراني في «الكبير» (١٨١)، وفي «الدعاء» (١٠٣٦)، من حديث عبد الله بن جعفر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (٢٩٣٣).

خَيْرًا مِنْهَا». قَالَتْ: فَلَمَّا تُوُفِّيَ أَبُو سَلَمَةَ، قُلْتُ: كَمَا أَمَرَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَأَخْلَفَ اللهُ لِي خَيْرًا مِنْهُ، رَسُولَ اللهِ ﷺ(١).

ثالثا: احتساب الأجر، وتذكُّرُ ثواب الصابرين والمبتلَين:

قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾[الزمر: ١٠]، وقال تعالى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ**﴾[البقرة: ١٥٣]، وقال - جلَّ ذكرُه -: ﴿**وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ**﴾[آل عمران: ١٢٦].

رابعا: الاستعانة بالصلاة:

قال الله - تعالى -: ﴿**وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ**﴾[البقرة: ٤٥]، و«كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ، صَلَّى»(٢).

* * *

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٩١٨).

(٢) **حسن**: أخرجه أبو داود (١٣١٩)، وأحمد (٢٣٢٩٩)، من حديث حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وحسنه الألباني.

٣٥- باب ما جاء في الرياء

وَقَوْلِ اللهِ - تَعَالَى - : ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ...﴾ [الكهف: ١١٠] الآيَةَ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «**قَالَ اللهُ - تَعَالَى -: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلا أَشْرَكَ مَعِي فِيهِ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»(١). رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ مَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟**» قَالُوا: بَلَى. قَالَ: «**الشِّرْكُ الْخَفِيُّ: يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ؛ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ**»(٢). رَوَاهُ أَحْمَدُ.

ooo

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٩٨٥).

(٢) **حسن**: أخرجه ابن ماجه (٤٢٠٤)، وأحمد (١١٢٥٢)، وحسنه الألباني.

٣٦- باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدُّنيا

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا ...﴾ [هود: ١٥] الآيَتَيْنِ.

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ، تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيلَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ، طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنْ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ»(١).

ooo

الشرح:

ذكر المؤلفُ رَحِمَهُٱللَّهُ في هذين البابين آيتين، وثلاثة أحاديث.

والكلام على هذين البابين في الفصلين التاليين.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٨٨٧).

الفصل الأول: مقصود البابين، وموضوعهما العام

بيان أن التوحيد قائم على الإخلاص لله رب العالمين، والحذر مما يقدح في الإخلاص، ومن ذلك الرياء، وإرادة الدنيا بالعمل الصالح، وهما صورتان من صور الشِّرك في النية، وهذا هو البحر الذي لا ساحل له، وقلَّ من ينجو منه، نسأل الله السلامة.

* * *

الفصل الثاني: المباحث الموضوعية

المبحث الأول: الإخلاص. وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: تعريفه:

الإخلاص لُغة: مصدر أخلَص يخلِص وهو مأخوذ من مادة «خ ل ص» التي تدل على تنقية الشيء وتهذيبه[1]. قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦]، أي: يتخلَّص اللبن - بياضه وطعمه - من بين فرث ودم في باطن الحيوان، فيسري كلٌّ إلى موطنه، إذا نضج الغذاء في معدته تصرف منه دم إلى العروق، ولبن إلى الضرع، وبول إلى المثانة، وروث إلى المخرج، فيخرج اللبن نقيا مهذبا عما يشوبه.

وسميت سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ سورة الإخلاص؛ لأنَّها خالصة في صفة الله - تعالى وتقدَّس -، أو لأن اللافظ بها قد أخلص التوحيد لله - عز وجل -.

والإخلاص في الاصطلاح: أن يَقصِد اللهَ - تعالى - بالعمل دون شوب إرادة غيره.

---

(١) ينظر مادة «خلص» في: «تهذيب اللغة» (٧/ ٦٥)، و«لسان العرب» (٧/ ٢٦).

فيريد بعمله وجهَ الله والدارَ الآخرة، صافيا من شوائب إرادات النفس.

ويظهر الارتباط بين المعنى اللغوي والاصطلاحي؛ بأن تنقَّى النية والقصد وتُهَذَّب وتُصَفَّى من كل الشوائب المكدرة، وتكون خالصة لله - تعالى -.

الفرق بين النية والإخلاص:

النية أعم، فقد تكون لله - تعالى - فتكون إخلاصا، وقد تكون لغير الله - تعالى -، وقد تكون شركا بين الله - تعالى - وبين غيره.

المطلب الثاني: منزلته، وحكمه:

الإخلاص هو حقيقة الدين، وشرط قبول العمل، ومضمون دعوة المرسلين، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾[البينة: ٥]، وقال سبحانه: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾[الزمر: ٣]، وقال: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ١١ وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾[الزمر:١١-١٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾[النساء: ١٢٥]، وقال عز وجل: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ [الملك: ٢]، قال الفُضَيل: أي أخلصه وأصوبه(١).

وأما الأحاديث فكثيرة؛ منها:

---

(١) «حلية الأولياء» (٨/ ٩٥).

عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**»(١)، وهذا حديث عظيم يدخل في عامة أبواب الدِّين؛ ولهذا صدَّر به الإمام البخاري كتابه الصحيح، وصدَّر به الإمامُ النَّووي الأربعين النووية.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قَالَ تَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلا أَشْرَكَ مَعِي فِيهِ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»(٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**إِنَّمَا يُبْعَثُ النَّاسُ عَلَى نِيَّاتِهِمْ**»(٣).

وهناك أحاديث أخرى ستأتي - إن شاء الله - في المبحث الثاني، فلا حاجة إلى تكرارها.

الإخلاص هو ما ترتعد له فرائص المؤمنين، وتضطرب له قلوب العارفين؛ لأن مدار قَبول الأعمال عند الله على هذا الأمر؛ ولهذا اشتدت عناية الصالحين من السلف والخلف بهذا الأمر، واجتهدوا في تعلُّمه وتحقيقه.

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٩٨٥).

(٣) **صحيح**: أخرجه ابن ماجه (٤٢٢٩)، وأحمد (٩٠٩٠)، وصححه الألباني. وله شاهد عند مسلم من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٢٨٧٨)، وآخر - عند مسلم أيضا - من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا (٢٨٨٤).

والإخلاص أحد أعمال القلب، وهو فرض واجب على كل مسلم ومسلمة، ومن العلم الواجب تعلُّمه على كل مكلف، بل هو من شريف العلم وعزيزه.

قال ابن أبي جمرة: «ودِدت أنه لو كان من الفقهاء من ليس له شغل إلا أن يُعَلِّم الناس مقاصدهم في أعمالهم، ويقعد للتدريس في أعمال النيات ليس إلا؛ فإنه ما أتي على كثير من الناس إلا من تضييع ذلك»[١].

قال يحي بن أبي كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تعلموا النية؛ فإنها أبلغ من العمل»[٢].

وهذا من فائدة العلم، فإن العالم يبلغ منازل رفيعة بنيته، وتتحول عاداتُه إلى عبادات؛ لأنه فقيه يعرف كيف يستثمر النية في زيادة أعماله وأجوره.

مسألة: هل الإخلاص شرط لصحة العمل أم شرط لحصول الثواب؟

الفرق بين القولين: أنه إذا قلنا إن الإخلاص شرط لصحة العمل؛ فالعمل بغير إخلاص باطل وحابط كأن لم يكن، فلو صلى بلا إخلاص فكأنه لم يصلِّ، عليه أن يعيد، لكن إذا قلنا إنه شرط لحصول الثواب، فالعمل صحيح، لكن لا يثاب عليه فلا يؤمر بالإعادة.

ولا ريب أنَّ الإخلاص شرط صحة؛ فمن أَخَلَّ بالإخلاص في عبادته فهي باطلة غير معتد بها.

---

(١) «المدخل» لابن الحاج (١/ ٦).

(٢) «حلية الأولياء» (٣/ ٧٠).

المطلب الثالث: عناية السلف به:

تبوَّأ الإخلاص منزلةً عظيمة عند السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، فكانت لهم كلمات وأحوال عظيمة جدًّا في بيان منزلة هذا الأمر، وتعظيمه في قلوبهم. وإليك طرفا من ذلك:

قال بعض السلف: المخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته[1].

وقال سفيان الثوري: «ما عالجت شيئا أشد عليَّ من نيتي؛ لأنها تتقلب علي»[2].

وقال يوسف بن الحسين: «أعز شيء في الدنيا الإخلاص، وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي، وكأنه ينبت فيه على لون آخر»[3].

وهذا يشير إلى أن موضوع الإخلاص يحتاج إلى مجاهدة؛ لأن النِّية تتقلب، وحظوظ النَّفس كثيرة جدا، فإذا سدَّ الإنسان على نفسه بابا، فما يشعر إلا وقد انفتح له باب آخر، فإذا سده ودافعه؛ انفتح ثالث، وهكذا، فالنفس في جهاد عظيم.

وقال الربيع بن خثيم: «كل ما لا يراد به وجه الله يَضْمَحِل»[1].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٥٢٧٦)، بنحوه، من كلام سلمة بن دينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٢) «حلية الأولياء» (٧/ ٥ و٦٢)، بنحوه.

(٣) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٨٥).

(١) «مصنف ابن أبي شيبة» (٣٥٥٧٧).

وقال أبو سليمان الداراني: «إذا أخلص العبد انقطعت عنه كثرة الوساوس والرياء»[(١)].

وقال يحيي بن أبي كثير : «تعلموا النية فإنها أبلغ من العمل»[(٢)].

وحدَّث يزيدُ بن هارونَ بحديثِ عمر: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**»[(٣)]، وأحمدُ بن حنبل جالسٌ ، فقال أحمد ليزيدَ: يا أبا خالدٍ؛ هذا الخناقُ[(٤)].

وقال مكحول: «ما أخلص عبدٌ قَطُّ أربعين يوما إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه ولسانه»[(٥)].

وقال الشافعي: «وددت أن الخلق تعلموا هذا العلم - يقصد علمَه - على أن لا ينسب إليَّ حرف منه»[(١)]!.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العمل بغير إخلاص ولا اقتداء كالمسافر يملأ جرابه رملا، يثقله ولا ينفعه»[(٢)].

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٩٢).

(٢) «حلية الأولياء» (٣/ ٧٠).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٦٤).

(٥) «الزهد والرقائق» لابن المبارك (١٠١٤).

(١) «حلية الأولياء» (٩/ ١١٨).

(٢) «الفوائد» ص ٤٩.

المطلب الرابع: الأسباب المعينة على تحصيله:

أولا: الدعاء:

فالدعاء من أعظم الأسباب لتحصيل الخيرات، ولا سيما بالوارد منه، كما قال ﷺ لأبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَلشِّرْكُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ، أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى شَيْءٍ إِذَا قُلْتَهُ ذَهَبَ عَنْكَ قَلِيلُهُ وَكَثِيرُهُ؟**». قَالَ: «**قُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ**»[(١)].

الثاني: طلب العلم الشرعي:

طلب العلم الشرعي مُعِينٌ على تحقيق الإخلاص؛ لأن الإنسان إذا نوَّر الله قلبه وبصيرته بالعلم عرف المسالك، وعرف المداخل التي تقدح في الإخلاص، وصار عنده تمييز وبصيرة في الحكم على هذا الأعمال.

قال سهل بن عبد الله: «لا يعرف الرياء إلا مخلص، ولا يعرف النفاق إلا مؤمن، ولا يعرف الجهل إلا عالم»[(١)].

وقال يونس بن عُبَيد: «لا يزال العبدُ بخير ما علِمَ الذي يُفسِدُ عليه عملَه»[(٢)].

الثالث: مجاهدة النفس:

الرِّياء فيه أنواعٌ من حظوظ النَّفس؛ حب الجاه والمنزلة، حب المدح والثناء، أو أن يريد الإنسان بعمله الدُّنيا، هذا مما طبعت عليه النَّفس؛ فالنَّفس البشرية

---

(١) تقدم تخريجه.

(١) «شعب الإيمان» (٦٤٨٠).

(٢) «الزهد والرقائق» لابن المبارك (١٥٠٠).

تميل إلى الحظوة عند النَّاس، وتميل - أيضا - إلى حظوظ الدنيا من المال، أو المنصب، أو نحو ذلك، فدَفْع هذه الأشياء، التي هي من شهوات النَّفس وحظوظها، يحتاج إلى مجاهدة.

قال سفيان بن عيينة: «قال رجل من العلماء: اثنتان أنا أعالجهما منذ ثلاثين سنة، ترك الطمع فيما بيني وبين الناس، وإخلاص العمل لله - عز وجل -»[(١)].

وقال يوسف بن الحسين: «أعز شيء في الدنيا الإخلاص، وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي، وكأنه ينبت فيه على لون آخر»[(٢)].

وقال بعضُهم: «ما جاهدت نفسي على شيء مجاهدتها على الإخلاص»[(١)].

الرابع: استحضار الأثر المترتب على تحقيق الإخلاص أو الإخلال به:

كيف يكون الأمر إذا تقبل الله العمل، وضاعف ثوابه، وجزى عليه الجزاء الأوفى في الآخرة.

وفي المقابل: أي خسارة تنجم عن حبوط العمل، والإثم على الرِّياء، وكون الإنسان يجهد في أعمال صالحة لا يستفيد منها إلا التعب والنصب، وعمله يذهب هباء منثورا.

---

(١) «حلية الأولياء» (٧/ ٢٧١).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٨٤).

(١) سبق بنحوه عن سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

هذه آثار عظيمة متى استحضرها المسلم وتأملها، حملته على الاجتهاد غاية الاجتهاد في الإخلاص، والسلامة مما يكدره.

الخامس: تقوية مقام تعظيم الله والخوف منه، في القلب:

فهذا باعث عظيم على إخلاص العمل لله - تعالى -.

السادس: معرفة حقيقة الناس، وحقارة الدنيا:

لو تأمَّل المرائي حقيقة النَّاس، لكفَّه ذلك عن فعله.

فمن هذا الذي ترائي له؟!

إنه مخلوق ضعيف مسكين، لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرًّا، فضلا عن أن يملك هذا لغيره.

أصله نطفة مذِرَة، ومآله جيفَةٌ قذرة، وهو فيما بينهما يحمل العذِرة.

فمن كان هذا حاله، أيصح أن تؤدي لأجله عبادة؟!.

قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لو جهدت كل الجهد على أن تُرضي الناسَ كلَّهم فلا سبيل له، فإذا كان عليك فأخلص عملك ونيتك لله - عز وجل -»[١].

ooo

(١) «شعب الإيمان» (٦٥١٨).

المبحث الثاني: الرياء والسمعة[1]. وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: معناه، وأسماؤه:

الرياء مشتق من الرؤية. وهو مصدر راءى يرائي مراءاة[2].

وهو: إظهار العبادة لأجل أن يراه الناس فيحمدوه عليها.

والسُّمعة أن يتحدث بالعمل لأجل الناس.

فمثلا: طالب في المدرسة يصلِّي في المصلَّى، فنظر فإذا مُعَلِّمُ الدِّين بجواره، فصار يتأنَّى ويخشع ويطيل في صلاته؛ لأجل أن يراه هذا المُعَلِّم، ولولا المعلم ما صلَّى هذه الصلاة، فهذا يسمى رياء.

مثال آخر: رجل يتحدث في المجلس عن صدقاته، وأعماله الخيرية؛ لأجل أن يُمدَح ويتحدَّث الناس عنه، فهذا يسمى تسميعا.

فالرياء متعلِّق بحاسة البصر، والتسميع بحاسة السمع.

عن جندب بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «**مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللَّهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللَّهُ بِهِ**»[1].

---

(١) ينظر: «الشرك الأصغر» للسليم ص٨٣-٨٨، «الإخلاص» للأحمدي (١/ ٣٢٢- ٣٣٢).

(٢) ينظر: «تاج العروس» (٣٨/ ١٠٥).

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٦٤٩٩)، ومسلم (٢٩٨٧).

والرياء من صفات المنافقين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [النساء: ١٤٢]، ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [النساء: ٣٨].

أسماء الرياء:

الأول: الشرك الأصغر:

عن محمود بن لبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ**». قَالُوا: وَمَا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ، يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**الرِّيَاءُ. يَقُولُ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً**»(١).

الثاني: الشرك الخفي:

عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ، فَقَالَ: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ**

(١) **حسن**: أخرجه أحمد (٢٣٦٣٠)، والبيهقي في «الشعب» (٦٤١٢)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (٩١٥).

الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟» قَالَ: قُلْنَا: بَلَى، فَقَالَ: «**الشِّرْكُ الْخَفِيُّ: أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي، فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ؛ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ**»(١).

الثالث: شرك السرائر:

عن محمود بن لبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خرج النبي ﷺ فقال: «**أَيُّهَا النَّاسُ، إِيَّاكُمْ وَشِرْكَ السَّرَائِرِ**». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا شِرْكُ السَّرَائِرِ؟ قَالَ: «**يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ جَاهِدًا؛ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ النَّاسِ إِلَيْهِ، فَذَلِكَ شِرْكُ السَّرَائِرِ**»(٢).

فالرياءُ شِرك أصغر خفي. وسبق في أوائل الشرح أن الشرك قسمان: أكبر وأصغر، وكل منهما قد يكون جليًّا، وقد يكون خفيًّا.

فالرياء شرك خفي في السِّرِّ؛ و«خَفِي» وصف و«السِّرِّ» ظرف له.

ومن النوادر التي ذكرها بعض أهل العلم أن رجلا كان يصلِّي في المسجد، فلما كبَّر وشرع في الفاتحة سمع خلفَه خشخشة، فاعتقد أنه إنسان ينظر إليه، فبدأ يتأنى ويطيل في صلاته، فلما سلَّم والتفت، فإذا هي قطة!.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) **حسن**: أخرجه ابن خزيمة في صحيحه (٩٣٧)، والبيهقي في «الشعب» (٢٨٧٢)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٦٠٧).

المطلب الثاني: النصوص الواردة فيه:

الحديث الأول: عن محمود بن لبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ**». قَالُوا: وَمَا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ، يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**الرِّيَاءُ، يَقُولُ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا، فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً**»(١).

ومن فوائد هذا الحديث:

١- النص النبوي على تسمية الشرك الأصغر، وأنه الرِّياء.

٢- أن الصحابة لم يكونوا يعرفون الشرك الأصغر، كما يدلُّ عليه قولهم: «وَمَا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللهِ؟»، فبُيِّنَ لهم.

٣- أهمية العلم والتعليم في ما يخصُّ أمر الشِّرك والتَّوحيد؛ فالنَّبي ﷺ اعتنى بهذا الأمر وعلَّمه أصحابه، وهكذا نحن ينبغي أن نتأسى به، فنحيي هذا العلم بين النَّاس.

٤- عِظَم خطر الرِّياء. وتأمل قوله ﷺ «**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ**»، فليس أمرا مَخُوفا فحسب، بل هو أخوف مَخُوف!، والخوف على من؟ «**أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ**»، والمخاطب هم الصحابة، فكيف بنا نحن؟!.

---

(١) تقدم تخريجه.

الأمر في غاية الخطورة؛ فالصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الذين هم أبرُّ الأمة قلوبا، وأعمقها علما، وأفضلها منزلة وإيمانا، فكيف بمن يأتي بعدهم؟!. لا شك أن الخوف أعظم وأشدُّ.

وهذا يؤدِّي إلى فائدة مسلكية لنا، أن يكون هذا الأمر مَخُوفا في القلوب، يستشعر المرء عظمة الأمر ويستصحبه معه؛ فالإنسان لا يأمن على نفسه مهما بلغ، فليكُنِ المرء على خوف ووَجَل أن يُداخِلَه شيء من الرِّياء، لا سيما ومداخِلُه خفية، وأبوابه كثيرة، ودواعيه قوية.

فالأمر يحتاج إلى مجاهدة النفس، واستعانة بالله - تعالى -. وكما قيل:

إذا لم يكُن عَوْنٌ مِن اللهِ للفَتى فأَوَّلُ ما يَجْنِي عليه اجتهادُه

٥- عِظَم خسارة المرائين! فلا إله إلا الله، ما أعظم حسرتَهم! وما أشَدَّ خسارتَهم!.

أتعبوا أنفسهم بالعمل الصالح: صلاة، وصدقات، وحَجًّا، وقراءة، وذِكْرًا، وجهادا، وأمرا بالمعروفِ، ونهيا عن المنكر، وطلب علم، ودعوة ... ، أعمال عظيمة وعبادات أخذت وقتا وجُهدا، لكن كانت المقاصدُ مدخولة؛ فالمآل والجزاء الحسرة والندامة، يقال لهم: «**اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا؛ فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً**»، فيذهبون إليهم فما يجدون شيئا، بل يجدون الخيبة والحسرة والندامة، نسأل الله العافية والسلامة.

الحديث الثاني: عن أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ، فَقَالَ: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟**». قَالَ: قُلْنَا: بَلَى. فَقَالَ: «**الشِّرْكُ الْخَفِيُّ: أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي، فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ؛ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ**»[(١)].

وهذا الحديث فيه فوائد منها:

١- تأكيد عِظَم خطر الرِّياء، فإذا كان النَّبي ﷺ يخاف على أمته الرِّياء أشد من خوفه من المسيح الدجال!، والمسيح الدجال فتنة من أعظم الفتن، قال عنه رسول الله ﷺ: «**مَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَنْذَرَ قَوْمَهُ الأَعْوَرَ الكَذَّابَ**»[(١)]. وشُرِع لنا في كل صلاة فريضة ونافلة أن نتعوذ بالله من فتنة المسيح الدجال[(٢)].

وجاء فيه أحاديث كثيرة جدًّا، وفيها أن الله أعطاه خوارق للعادات، وأنَّ معه جنة ونارا[(٣)] ... إلخ، ومع ذلك فخَوْفُ النَّبي ﷺ على أمته من الرِّياء أشد من خوفه من المسيح الدجال!.

---

(١) تقدم تخريجه.

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٧٤٠٨) ومواضع أخرى، ومسلم (٢٩٣٣).

(٢) ينظر: صحيح البخاري (٨٣٢)، ومسلم (٥٨٩).

(٣) ينظر: صحيح مسلم (٢٩٣٧).

هذا الأمر يوجِبُ لقلب المؤمن أن يرتعد ويضطرب؛ خوفا من الوقوع في شيءٍ من أبواب الرِّياء ومداخِله.

٢- أن الرِّياء قد يكون في وصفِ العبادة لا في أصلها.

والرياء في أصلها: أن يقوم الإنسان يصلي رياء؛ لأجل فلان، ولأجل أن يراه النَّاس فيحمدوه، هذا رياء في أصل العبادة.

أمَّا الرياء في وصف العبادة؛ فهو كما جاء في الحديث: «**أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي، فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ؛ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ**»، فهو صلَّى لله، لكنه زيَّن الصلاة طوَّلها حسنها؛ لأجل فلان، لولا فلان لكانت صلاته مختلفة، لكنها تغيرت، كان يسبح في الركوع مرتين فصار يسبح ست أو سبع مرات.

الحديث الثالث: عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النَّبي ﷺ قال: «**قَالَ تَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلا أَشْرَكَ مَعِي فِيهِ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»(١).

هذا حديث قدسي عظيم يؤكد أصل الدين وقاعدته، وهي توحيد الله – عزَّ وجلَّ –، فكما أن الله لا يقبل دينا غير الإسلام؛ فكذلك لا يقبل عملا إلا ما كان خالصا.

(١) تقدم تخريجه.

وأفاد الحديث أن العمل الذي خالطه الرِّياء يُسمى شركا، كما يدلُّ عليه قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: «**تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»، وهذا من الشرك الأصغر، كما دل عليه الحديث السابق.

الحديث الرابع: عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ: رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ.**

وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ؛ لِيُقَالَ: عَالِمٌ وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ.

وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ»[(١)].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٩٠٥).

فهؤلاء الثلاثة أوَّلُ من تسعَّر بهم النار يوم القيامة، مع أنهم فعلوا عبادات من أعظم وأفضل العبادات، الجهاد في سبيل الله، وطلب العلم، والإنفاق في سبيل الله!.

فالذي كان مُصِرًّا في الدنيا على شرب الخمور والزِّنا، هذا أمره أخف من هذا الذي يتعبد رياء، هؤلاء الثلاثة يُقَدَّمون على الزُّناة، وعلى أصحاب الكبائر والمنكرات والفواحش، مما يدل على أن جُرمهم أعظم وأشد؛ فهم، وإن كانوا فعلوا عبادات في الظاهر، لكن كانت نيَّاتُهم مدخولة وإخلاصهم مقدوحا؛ فالذي جاهد؛ ليقال: جريءٌ!، والذي أنفق؛ ليقال: جواد!، والذي طلب العلم وقرأ القرآن؛ ليقال: قارئ! فقد قيل، قيل هذا في الدنيا وانتهى، أما الآن ليس لك شيء، فيُؤمر به فيُزج في نار جهنم، نسال الله العافية والسلامة. وهذا الحديث من أحاديث الوعيد الشديدة.

الحديث الخامس: عن جندب بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «**مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللَّهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللَّهُ بِهِ**»[1].

تكلَّم أهل العلم في معنى هذا الحديث على أقوال متعددة، لعلَّ أقربها أنَّ معناه: فضحه الله في الآخرة.

(١) تقدم تخريجه.

فمن كان يُسمِّع بعمله الصالح في الدنيا، أي: يتحدث عن أعماله لأجل النَّاس؛ يُسمِّع الله به، يعني أن الله يفضحه في الآخرة على رؤوس الأشهاد، نسأل الله العافية والسلامة. وهكذا من كان يرائي في الدنيا يفضحه الله يوم القيامة.

الحديث السادس: عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: أَرَأَيْتَ رَجُلًا غَزَا يَلْتَمِسُ الْأَجْرَ وَالذِّكْرَ، مَالَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا شَيْءَ لَهُ**». فَأَعَادَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، يَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَا شَيْءَ لَهُ**». ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا، وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ**»(١).

وقوله: «يَلْتَمِسُ الْأَجْرَ وَالذِّكْرَ»: أي: يريد الأجر ويريد أن يُذكر، بأن يُقال: فلان كذا، وفلان كذا، فهو أراد الأمرين.

الحديث السابع (وهو خاص بطلب العلم): حديث كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبي ﷺ قال: «**مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاس إِلَيْهِ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ**»(١).

هذه سبعة أحاديث وهناك غيرها، لكن فيها كفاية وعِظة.

---

(١) **حسن**: أخرجه النسائي في «الصغرى» (٣١٤٠)، والطبراني في «الكبير» (٧٦٢٨)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (٥٢).

(١) **حسن**: أخرجه الترمذي (٢٦٥٤) واللفظ له، والحاكم في «المستدرك» (٢٩٣)، وحسنه الألباني.

المطلب الثالث: صور الرياء، وأثرها على العمل:

هذا المطلب هو الثمرة العمَلية من الباب، وكلام بعض أهل العلم فيه منثور ومتداخل؛ لذا كان من المهم لطالب العلم أن يعتني بفهمه وضبطه. ولعلي أجمع أطراف المسألة، وألخصها، فأقول مستعينا بالله:

الرياء له ثلاث صور:

الصورة الأولى: الرياء في أصل الإيمان:

وهذا رياء النفاق، بأن يبطِن الكُفر ويظهر للناس أنه مؤمن. وهذا النوع كفر أكبر.

الصورة الثانية: الرياء في أصل العبادة. وهو نوعان:

الأول: الرياء المحض:

وصورته: أن يكون الباعث له على العبادة رياءَ الناس. فيقوم يصلي ليراه فلان، أو يتصدق ليقولوا عنه: باذل ومحسن.

وهذا لا خلاف في حرمته، والإثم على فعلِه، وحبوط العمل به.

مسألة: ما الحكم إذا طرأ عليه الإخلاص بعد الشروع في العبادة؟

ومثالُه: مَن صلى رياء، وبعد أن صلَّى ركعة أنَّبَه ضميره وتاب وجعل نيته لله.

الجواب: هذا يختلف بحسب العبادة:

فإذا كانت العبادة مما يرتبط أولها بآخرها؛ كالصلاة: فلا يصح، بل عليه أن يعيد العبادة من أولها.

وإذا كانت العبادة مما لا يرتبط أولها بآخرها؛ كالصدقة: فيُثاب على ما أخلص فيه، كمن تصدَّق بمئة ريال رياءً، ثم ندِم فتصدق بمئة أخرى لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فالأولى باطلة حابطة، والثانية صحيحة.

الثاني: الرياء المشترك:

بأن يكون الباعث له على العبادة إرادة وجه الله، ومراءاة المخلوق، وهذا من أوَّلِ العمل.

والفرق بين هذا النوع والذي قبله، أن ما قبله رياء محض، لا يقصد به إلا الرِّياء، وليس في قلبه شيء لله. أما هذا فمشترك فيه قصدُ الله وقصد المخلوق.

وحكم هذا النوع: أنه باطل مُفسدٌ للعمل على الصحيح؛ لقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الحديث القدسي: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ مَعِي فِيهِ غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»[(١)].

وعن أبي أمامة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: أَرَأَيْتَ رَجُلًا غَزَا يَلْتَمِسُ الْأَجْرَ وَالذِّكْرَ، مَالَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَا شَيْءَ لَهُ**». فَأَعَادَهَا

---

(١) تقدم تخريجه.

ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، يَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَا شَيْءَ لَهُ**». ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا، وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ**»(١).

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولا نعرِف عن السلف في هذا خلافا، وإن كان فيه خلاف عن بعض المتأخرين»(٢).

الصورة الثالثة: الرياء الطارئ في أثناء العبادة. ولهذه الصورة نوعان:

النوع الأول: الرياء المحض:

وصورته: أن يبدأ العبادة لله، ثم يطرأ أمر - كدخول أحد عليه - فيحوِّلُ قصد العبادة لهذا المخلوق بالكلية، بحيث تنمحي إرادة الله والثواب من قلبه.

فهذا إن دافع هذا الوارد، وأعرض عنه، فلا يؤثر عليه؛ لأن الله - تعالى - تجاوز عن الأمة ما حدَّثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم.

وإن استرسل مع هذا الوارد، فله حالان:

الأولى: أن تكون العبادة مما ينبني أولها على آخرها كالصلاة؛ فتبطل.

ومثاله: رجل صلَّى نافلة لله، وبعد تمام ركعة دخل عليه رجُل، فتحولت نيته وطرأ عليه الرِّياء لفلان: فالعمل باطل؛ لأن الصلاة عبادة واحدة مرتبط أولها بآخرها.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «جامع العلوم والحكم» (١/ ١٧).

الثانية: أن تكون العبادة مما لا ينبني أولها على آخرها، كمن أعد مئة دينار للصدقة، فأخرج خمسين لوجه الله، ثم رآه بعضُ الناس، فجعل قصدَه رياء الناس ونيل مدحهم، وتصدق بالخمسين الثانية على ذلك.

فالحكم في هذه الحال: أنَّ ما كان لله فهو لله، وما كان لغير الله فهو باطل حابط؛ فالأولى يُثاب عليها، والثانية باطلة يأثم بها.

النوع الثاني: الرياء المشترك:

وصورته: أن يبدأ العبادة لله، ثم يطرأ أمر - كدخول أحد عليه - فيحول قصد العبادة لله ولهذا المخلوق؛ فيكون في قلبه إرادة الثواب والتقرب إلى الله، إضافة إلى مراعاة المخلوق والتزين له بهذا العمل الصالح.

فهذه الصورة محل خلاف بين أهل العلم، ومحل الخلاف هو في العبادة التي يرتبِطُ أوَّلُها بآخرها، أو التي لا يرتبط أجزاؤها بالقدر الذي دخله التشريك.

أما العبادة التي لا يرتبط أولها بآخرها - كالصدقة -، فالقدر الذي لم يدخله الرياء صحيح لا إشكال فيه.

والظاهر أن عمله باطل؛ لقول الله - تعالى - في الحديث القدسي: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلا أَشْرَكَ مَعِي فِيهِ غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»(١)، وهي - كما سبق - في النوع الثاني من الصورة السابقة.

---

(١) تقدم تخريجه.

المطلب الرابع: مسائل مشتبهة في الرياء:

- **المسألة الأولى: إذا ورد الرياء بعد الفراغ من العبادة:**

وهذا يُتصَوَّر في السُّمعة، وصورته: أن يعمل العبد عبادة لوجه الله - تعالى -، ثم يتحدث عنها عند الناس طلبا للثناء والجاه والمنزلة عندهم.

ومثاله: إنسان تصدَّق لوجه الله بألف دينار يوم السبت، وفي يوم الأحد اجتمع مع أصحابه وأخذوا يتحدثون في مناقب المحسنِين، فجاءه حظُّ النَّفس يريد أن يُذكر ويُشهر ويُعرف بهذا الشيء؛ فبدأ يتكلم عن صدقته! فالعبادة مضت وكانت نيته خالصة، وهو الآن يتحدث عنها، فما حكم هذا العمل؟ وما أثره على العبادة السابقة؟.

الجواب: يُنظر في هذه الصورة من جهتين:

الأولى: حكم هذا العمل.

الثانية: أثره على العبادة الأولى.

أما حكم هذا العمل فهو التحريم؛ لقوله ﷺ: «**مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللَّهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللَّهُ بِهِ**»(١).

وأما أثره على العمل: فالظاهر أنه لا يُبطِل العمل؛ لأنه تم مستوفيا لشرطه.

---

(١) تقدم تخريجه.

قال الإمام الغزالي: «يبعُد أن يكون ما يطرأ بعد العمل مبطِلا لثواب العمل، بل الأقيس أن يقال: إنه مثاب على عمله الذي مضى، ومُعاقَب على مراءاته بطاعة الله بعد الفراغ منها»[(١)].

وقال الشيخ ابن عثيمين - في أحوال الرياء -: «أن يطرأ الرياء بعد انتهاء العبادة، فإنه لا يؤثر عليها ولا يبطلها؛ لأنها تمت صحيحة فلا تفسد بحدوث الرياء بعد ذلك»[(١)].

- **المسألة الثانية: الفرح بحمد الناس وثنائهم، أو باطلاعهم على عمله:**

وصورته: أن يعمل العبد طاعة - كحفظ القرآن أو بناء مسجد -، ثم يطلع الناس على ذلك العمل، ويثنوا عليه به، فيفرح باطلاعهم وثنائهم.

وهذا مسلك خفِي من مسالك النفس، وميلها إلى حظوظها.

وحكمه يختلف بحسب نية صاحبه، والباعث على فرحه. **ولذلك صورتان:**

الأولى: أن يكون فرحُه بنعمة الله عليه ولطفه به، حيث أظهر للناس حَسَن عملِه، وستر عنهم سيئه، ويرجو أن يُفعل به كذلك في الآخرة.

ويفرح بهذا الثناء؛ لأن المؤمنين «**شُهَدَاءُ اللهِ فِي أَرْضِهِ**»[(٢)]، فحيث أثنوا عليه بالخير؛ فيُرجى أن يكون ذلك علامة على قبول الله له.

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٣٠٧).

(١) «مجموع ابن عثيمين» (٢/ ٢٠٧).

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (١٣٦٧ و٢٦٤٢)، ومسلم (٩٤٩).

وعليه يُحمَل حديثُ أبي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قيل لرسول الله ﷺ: أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنَ الْخَيْرِ، وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: «**تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ**»[1].

الثانية: أن يكون فرحه باطِّلاعهم وثنائهم؛ لترتفع منزلته عندهم، ويعظُمَ قدرُه بينهم، ويوصف بأوصاف أهل الصلاح؛ كطالب العلم والداعية والمحسن ...، ويقدَّم في المجالس، وتُقضَى حوائجُه، ونحو ذلك: فهذا مذموم، وفيه مراعاة الخلق بالعبادة، وهو معنى الرياء.

وهذا مزلق من مزالق النفس الخفية التي تحتاج مجاهدة، واستعانة بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قال الموفق ابن قدامة: «وأجلى علاماته - أي: الرياء - أنه يُسَر باطلاع الناس على طاعته، فرُبَّ عبدٍ مخلص يُخلص العملَ، ولا يقصد الرياء بل يكرهه، ويُتِم العملَ على ذلك، لكن إذا اطلعَ الناسُ عليه سره ذلك وارتاح له، وروَّح ذلك عن قلبه شدة العبادة! فهذا السرور يدُلُّ على رياء خفِي منه يرشحُ السرور، ثم إذا استشعر تلك اللذة بالاطلاع لم يقابل ذلك بكراهة، بل قد يتحرك حركة خفيفة، ويتكلف أن يُطَلَّع عليه بالتعريض لا بالتصريح»[1].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٤٢).

(١) «مختصر منهاج القاصدين» ص٢١٩.

وقال أيضا: «ولم يزلِ المخلصون خائفين من الرياء الخفِي، يجتهدون في مخادعة الناس عن أعمالهم الصالحة، ويحرِصُون على إخفائها أعظمَ ما يحرص الناس على إخفاء فواحشهم، كل ذلك رجاء أن يخلص عملهم ليجازيهم الله – تعالى – في القيامة بإخلاصهم»[1].

وحكم هذه الصورة: أن صاحبها يأثم بهذا القصد، وأما العمل الأوَّل الذي تم على الإخلاص، فالظاهر أنه لا يبطل.

- **المسألة الثالثة: الموازنة بين إظهار العمل وإخفائه:**

ومحل هذا فيما يمكن إخفاؤه؛ لأن من العمل ما لا يمكن إخفاؤه؛ كالأذان وصلاة الجماعة.

فيقال: الأصل في التطوعات أن إخفاءها أفضل. قال تعالى: ﴿**إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ**﴾[البقرة: ٢٧١]، وعدَّ النبي ﷺ من السبعة الذين يظلهم في ظله: «**وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ**»[1]، وقال ﷺ: «**أَفْضَل الصَّلاةِ صَلاةُ المَرْءِ فِي بَيْتِهِ إلَّا المَكْتُوبَةَ**»[2].

---

(١) السابق ص٢٢٠.

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٦٦٠و ١٤٢٣)، ومسلم (١٠٣١).

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٧٣١)، ومسلم (٧٨١).

وفي الإسرار فائدة الإخلاص، والبُعد عن مداخل الرياء الخفية. ولهذا كان السلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يحرصون أشد الحرص على إخفاء أعمالهم.

روى أحمد عن جارية الرَّبِيع بن خُثَيم، قالت: كان عملُ الربيع كلُّه سرا، إنْ كان ليجِيء الرجل، وقد نشر المصحف، فيغطيه بثوبه[1].

وقال الأعمش: كنت عند إبراهيم النخَعي، وهو يقرأ في المصحف، فاستأذن رجل فغطَّى المصحف، وقال: لا يظن أني أقرأ فيه كلَّ ساعة[1].

قال محمد بن القاسم: صحبت محمد بن أسلم أكثر من عشرين سنة، لم أرَهُ يصلِّي حيث أراه ركعتين من التطوع إلا يوم الجمعة، وسمعتُه كذا وكذا مرة يحلِف: لو قدرت أن أتطوع حيث لا يراني ملكاي لفعلت خوفا من الرياء .. وكان إذا أراد أن يخرج غسل وجهَهُ، واكتحل، فلا يرى عليه أثر البكاء[2].

وقال الغزالي: «وقلما تسلم الأعمال الظاهرة عن الآفات فلا ينبغي أن يَعْدِل بالسلامة شيئا، والسلامة في الإخفاء، وفي الإظهار من الأخطار ما لا يقوى عليه أمثالنا! فالحذرُ من الإظهار أولى بنا وبجميع الضعفاء»[3].

---

(١) «حلية الأولياء» (٢/ ١٠٧).

(١) السابق (٤/ ٢٢٠).

(٢) السابق (٩/ ٢٣٨).

(٣) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٣١٨).

لكن، إن كان الإظهار لأجل الحث والاقتداء، وهو يأمن على نفسه من الرياء والعُجب، فالإظهار أفضل. كأن يكون عالما أو داعية أو معلِّما أمام طلابه، أو أبا أمام أبنائه، أو شيخَ قبيلة، ونحوهم ممن له مكانة ينظر لهم، ويقتدى بهم، وكان في إظهار هذا العمل مصلحة للناس بأن يقتدوا به.

قال الموفق ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأمَّا من قوي وتمَّ إخلاصُه، وصغُر الناسُ في عينه، واستوى عنده مدحُهم وذمُّهم، فلا بأس بالإظهار له؛ لأن الترغيب في الخير خير.

وقد رُوِي ذلك عن جماعة من السلف: أنهم كانوا يظهرون شيئا من أحوالهم الشريفة ليُقتدَى بهم، كما قال بعضهم لأهله حين احتضر: لا تبكوا علي؛ فإني ما لفظت بخطيئة منذ أسلمت.

وقال أبو بكر بن عياش رَحِمَهُ ٱللَّهُ لابنه: إياك أن تعصي الله - تعالى - في هذه الغرفة؛ فإني ختمت فيها اثني عشر ألف ختمة. ونحو ذلك كثير من كلامهم»[1].

- **المسألة الرابعة: ترك الطاعة خوف الرياء:**

وصورتها: أن يترك العبد فعل عبادة يطلع عليها الناس؛ خشية أن يقع في الرياء.

وهذه أحبولة من حبائل الشيطان، تقوده إلى ترك الطاعات شيئا فشيئا.

---

(١) «مختصر منهاج القاصدين» ص٢٢٤.

وإذا عرض للعبد هذا الوارد، فليسأل نفسه: ما الذي أردته بهذه العبادة؟

فإن كان قصده وجهَ الله، ولم تتغير نيته، فليمضِ.

وعلامة ذلك: الانبعاث للطاعة لو خلا المكان من الناس.

ومثاله: رجل خرج مع أصحابه في نزهة، وبينما هم يتحدثون ويلعبون، خطر على الرجل أن يقوم فيصلي الضحى، لكنه أحجم؛ خشية أن يكون رياء أمام الناس حيث صلى دونهم.

وهذا من الشيطان، وعلامة صحة نيته: أن يتصور أن المكان خلا من أصحابه، هل سيقوم للصلاة؟.

قال الحارث بن قيس: إذا أتاك الشيطان وأنت تصلي، فقال: إنك ترائي، فزدها طولا[1].

قال النووي: فلو فتح الإنسان عليه باب ملاحظة الناس والاحتراز من تطرق ظنونهم الباطلة لانسَدَّ عليه أكثر أبواب الخير[2].

وقال بعضُهم: من مكايد الشيطان: أن الرجل قد يكون ذا وِرد - كصلاة الضحى، والتهجد، وتلاوة القرآن والأدعية المأثورة - فيقع في قوم لا يفعلونه، فيتركه خوفا من الرياء، وهذا غلط منه؛ إذ مداومتُه السابقة دليل

(١) «حلية الأولياء» (٤/ ١٣٢).

(٢) «الأذكار» للنووي ص٣٩.

الإخلاص، فوقوع خاطر الرياء في قلبه بلا اختيار ولا قبول لا يضر، ولا يخل بالإخلاص(١).

قال ابن الجوزي: وأما ما روي عن بعض السلف أنه ترك العبادة خوفا من الرياء ، فيُحمل هذا على أنهم أحسوا من نفوسهم بنوع تزيُّن فقطعوا، ومن هذا قول الأعمش: كنت عند إبراهيم النخعي وهو يقرأ في المصحف، فاستأذن رجل، فغطى المصحف، وقال: لا يظن أني أقرأ فيه كل ساعة(١).

واشتهر في هذا عبارة الفُضَيل بن عياض: ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منها(٢).

وتوجيهها: أن في هذه الصورة مراعاة الناس، وتقديمهم على محبوب الله(٣).

---

(١) ينظر: «روح البيان» للآلوسي (٤/ ١٠٩).

(١) نقله عنه ابن مفلح في «الآداب الشرعية» (١/ ٢٨٣).

(٢) «شعب الإيمان» (٦٤٦٩).

(٣) جاء في فتاوى اللجنة (١/ ٧٦٨): «أما قوله: (إن ترك العمل من أجل الناس رياء): فليس على إطلاقه، بل فيه تفصيل، والمعوَّل في ذلك على النية؛ لقول النبي ﷺ: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**»، مع العناية بتحرِّي موافقة الشريعة في جميع الأعمال؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»، فإذا وقع للإنسان حالة ترك فيها العمل الذي لا يجب عليه؛ لئلا يظن به ما يضره فليس هذا الرياء،

- **المسألة الخامسة: النشاط للطاعة بسبب رؤية الخلق:**

ومثالها: رجل خرج مع أناس من أهل الخير والصلاح، فقاموا من آخر الليل يراوحون أقدامهم هذا ساجد وهذا راكع وهذا داع، فأحسَّ الرجل بنشاط فتوضأ وقام يصلي، وليس من عادته قيام الليل، فهل عمله رياء؟.

الجواب: هذه الصورة ليست برياء.

فإن قيل: هذا الرجل ليس من عادته القيام، لكنه صلَّى لما رأى الناس يصلون؟

فالجواب: إن كل مسلم يرغب في طاعة الله، والإكثار من عبادته، لكنه لا يعمل بسبب النَّفس، والهوى، والدنيا، والكسل، والضعف، فلما زال هذا المثبِّط، وصار في بيئة أخرى تُعين على الطاعة انبعثت النَّفس على الطاعة، وعلامة ذلك أنه لو كان في مكان يراهم ولا يرونه، لاستمر في العبادة بنشاط وإقبال، فهذا دليل على أن عمله ليس رياء[1].

- **المسألة السادسة: تحسين التلاوة لأجل الناس:**

هذا يرجع إلى نية القارئ. **ولها صورتان**[2]:

بل هو من السياسة الشرعية، وهكذا لو ترك بعض النوافل عند بعض الناس خشية أن يمدحوه بما يضره أو يخشى الفتنة به، أما الواجب فليس له أن يتركه إلاَّ لعذر شرعي».

(١) ينظر: «مختصر منهاج القاصدين» ص٢٢٥.

(٢) مستفاد من: فتاوي موقع «الإسلام سؤال وجواب»، فتوى رقم: (١٥٦٧٩٦).

الصورة الأولى: إن كان يقصد بحسن قراءته حصول الخشوع والتأثر والانتفاع له ولغيره ممن يستمع له، فعمله مشروع مرغَّب فيه. ومما يدل على ذلك:

١- عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ**»(١)، أي: لم يحسِّن صوته به.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «الذي يتحصل من الأدلة: أن حُسن الصوت بالقرآن مطلوب، فإن لم يكن حسنا فليُحَسِّنْه ما استطاع، كما قال ابن أبي مُلَيْكة، أحد رواة الحديث. وقد أخرج ذلك عنه أبو داود بإسناد صحيح»(٢).

٢- عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «**زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ**»(٣).

٣- ومما يؤكِّد جواز تكلُّف تحسين القراءة وجمال الصوت، حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَسْمَعُ**

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٥٢٧).

(٢) «فتح الباري» (٩/ ٧٢).

(٣) **صحيح**: أخرجه أبو داود (١٤٦٨)، والنسائي (١٠١٥)، وابن ماجه (١٣٤٢)، وصححه الألباني.

قِرَاءَتَكَ الْبَارِحَةَ! لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ». فَقَال: لَوْ عَلِمْتُ لحَبَّرْتُهُ لَكَ تَحْبِيرا(١).

وقال الشيخ محمد بن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح الحديث: «قال العلماء: وفي هذا دليل على أن الإنسان لو حسَّن صوتَه بالقرآن؛ لأجل أن يتلذذ السامع ويُسَرَّ به، فإن ذلك لا بأس به، ولا يُعَدُّ من الرياء، بل هذا مما يدعو إلى الاستماع لكلام الله - عز وجل - حتى يُسَرَّ الناس به»(٢).

والصورة الثانية: إن كان يقصد بذلك أن يمدحه الناس، أو يقولوا: هذا قراءته جيدة، يخشَع الناس لها، أو لأجل أن يكثرَ الناس عنده ويصير له شهرة ويقصده الناس في رمضان: فيكون فعلُه من باب الرياء والسُّمعة.

فحُسْن الصوت في قراءة القرآن نعمة وفتنة للعبد، وعلى المسلم أن يشكُر هذه النعمة، ويوظِّفَها في الدعوة إلى الله من خلال كتابه العزيز، وترغيب

---

(١) **صحيح**: أخرجه ابن حبان في صحيحه (٧١٩٧)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٤٧٠٨ و ٢١٠٥٤)، ، وقال الألباني في «صحيح أبي داود» (٥/ ٢٣٢): سنده جيد على شرط مسلم. وأصله عند البخاري مختصرا (٥٠٤٨)، و عند مسلم (٧٩٣)، إلا أنه لم يذكر قول أبي موسى رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) «شرح رياض الصالحين» (٤/ ٦٦٢).

الناس في سماعه والانتفاع به، وليحذَرْ الالتفات إلى حظوظ النفس، والتطلع إلى نيل المحمدة والثناء والجاه عند الناس بهذا الأمر.

المطلب الخامس: علاج الرياء:

بعد أن تقرَّر خطر الرياء، وخفاؤه، وكثرة البلوى به، يحسن أن نتذاكر الأسباب المعينة على دفعه قبل مجيئه، ورفعه بعد وقوعه. **ومن ذلك:**

أولا: تقوية الإيمان بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ومراقبته:

فإن الإيمان نور في القلب، وكلما قوِي هذا النور؛ طرد الشيطان ووسوسته، قال تعالى: ﴿**أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ**﴾ [الزمر: ٣٦]، وقال النبي ﷺ: «**احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ**»(١).

ثانيا: تعظيم الله جَلَّ جَلَالُهُ في القلب:

كلما كان الله في قلبك معظَّما، كلما بعدت عنك هذه الواردات، والعلم بالله يأتي بالعلم الشرعي، فكلما زاد الإنسان علما عرَف قدر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ولهذا الذي يخشى الله حقَّ خشيته هم العلماء، ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟**﴾ [فاطر: ٢٨]، ولا سيَّما العلم بأسماء الله وصفاته، هذا علم شريف ومنيف، ينبغي أن يحرص عليه المرء؛ لأنه كلما تعرَّف وتفقه في أسماء الله

---

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد (٢٦٦٩) وفي مواضع أخرى، من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني.

الحسنى وصفاته العلا ازداد إيمانا، وتنوَّر قلبه بهذه المعارف، وصار الالتفات للخلق بعيدا.

ثالثا: الحذر من عدو الله إبليس:

وهذا من الفقه كما قال أبو الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «من فِقْه العبد أن يعلم نزغات الشيطان أنَّى تأتيه»[1]، أي: كيف تأتيه، ومتى تأتيه، فيستعين بالله، ويستعيذ بالله من نزغات الشيطان، ويكثر من ذكر الله؛ لأنه كلما أكثر العبد من ذكر الله، حماه وصار حصنا له من كيد الشيطان.

رابعا: تقوية الإيمان باليوم الآخر:

الإيمان باليوم الآخر يبدأ بالموت، فإذا تذكر الإنسان الموت وما بعده: القبر، والحشر، والنشر، والحساب، والصراط ..، هذه الأهوال العظام، أورثت له الخوف والاستعداد ليوم المعاد. فتعزيز الإيمان باليوم الآخر مما يساعد في علاج الرِّياء وطرده من القلب.

خامسا: معرفة حقيقة الخلق:

فمن هو فلان الذي ترائي له؟!

إنه بشر ضعيف مسكين، لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا فضلا عن أن يملكه لغيره. فهل يستحق أن أعمل لأجله عباداتي؟!.

---

(١) «السنة» لأبي بكر الخلال (١٥٨٥).

هذا – والله – من السَّفه والجهل المفرِط، أن يوزِّع الإنسان عباداته على النَّاس، والنبي ﷺ قال في وصيته لابن عباس رضي الله عنهما: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ**»(١).

وفي الحديث يقول النَّبي ﷺ: «**مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلا فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ**»(٢)، فكون الإنسان يحرص على المال، ويحرص على الشَّرف والجاه؛ هذا يُفسد الدِّين كما يفسد الذئب إذا أرسلناه في الغنم، بل ذئبان جائعان!.

سادسا: إخفاء العمل:

بمعنى تعويد النَّفس على إخفاء العمل، وهذا عكس الرِّياء؛ فالرِّياء إظهار وهذا إخفاء، وقد قال ابن قدامة: «من الدَّواء النافع أن يُعوِّد المرء نفسه إخفاء العبادات، وإغلاق الأبواب دونها كما تغلق الأبواب دون الفواحش؛ فإنه لا دواء في الرِّياء مثل إخفاء الأعمال»(٣) .

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٢٣٧٦)، وأحمد (١٥٧٩٤)، وصححه الألباني.

(٣) «مختصر منهاج القاصدين» ص ٢٢٣، وهو كتاب نفيس يُنصح بقراءته.

وقال الخريبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كانوا - يقصد السلف - يستحبون أن يكون للرجل خَبِيئة من عمل صالح، لا تعلم به زوجته ولا غيرها»[1]، أي يستحِبُّون أن يكون للمرء شيء من الأعمال الصالحة الخفية لا يُدْرى بها.

سابعا: التفقه في الرِّياء، ومداخله، وخفاياه:

وهذا من علاج الرِّياء، كما يشير إليه قول القائل:

عرفتُ الشَّرَّ لا للشرِّ لكِن لتوقِّيهِ
ومن لا يعرِفُ الشَّرَّ من الناسِ يقعْ فِيهِ[2]

تفقه في الرِّياء، تعرَّف على صورهِ، وأقسامه، وما يشابهه، فهذا العلم يعين على التحرز من الوقوع فيه.

ومن هذا الباب تذكُّرُ عقوبة المرائين، وأنَّ أولَ من تُسعَّر بهم النار يوم القيامة المراؤون.

ثامنا: الدُّعاء:

وقد سبقت الإشارة إليه، وهو من أعظم أسلحة المؤمن؛ فالدُّعاء وقاية وعلاج وكفارة: وقاية قبل الوقوع، وعلاج لمن وقع، وكفارة لمن حصل منه

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٩/ ٣٤٩).

(٢) ينظر: «يتيمة الدهر» (١/ ٨٤).

شيء من ذلك، فاحفظه والهج به، كما في وصية النبي ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ**»(١).

○○○

المبحث الثالث: إرادة الدنيا بعمل الآخرة:

وهذا المبحث يتعلق بالباب السادس والثلاثين (باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا). **وفيه ثلاثة مطالب:**

المطلب الأول: معناه، والفرق بينه وبين الرياء:

المراد بقولنا: «إرادة الدنيا بعمل الآخرة»: أن يريد العابد بعبادته حَظًّا من حظوظ الدنيا من مال أو جاه.

كمن حفِظ القرآن لأجل المكافأة المالية التي تُعطى للخاتم. أو من حَجَّ ليلقَّب بين الناس بالحاج فلان. أو طلب العلم الشرعي لقصد الشهادة فقط.

ونلحظ أن الشيخ عقد بابين مستقِلَّينِ: أحدهما في الرياء، والآخر في إرادة الدنيا بعمل الآخرة، فما العلاقة بينهما؟

للعلماء في العلاقة بينهما رأيان(١):

الأول: التغاير:

---

(١) تقدم تخريجه.

(١) ينظر: «الشرك الأصغر» للسليم ص١٠٥.

فالرياء: لقصد نيل المنزلة عند الناس، ونيل مدحهم وثنائهم.

وإرادة الدنيا بعمل الآخرة: لقصد عرض الدنيا من المال ونحوه.

وهذا القول استظهره الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «القول المفيد».

الثاني: بينهما عموم وخصوص مطلق:

فالرياء داخل في إرادة الدنيا؛ لأن طلب المنزلة والثناء من الناس من أمور الدنيا التي تتعلق بها همم الناس، وليس إرادة الدنيا من الرياء.

واختاره الشاطبي في «الموافقات»، والشيخ عبد الرحمن بن حسن في «فتح المجيد»[1].

المطلب الثاني: النصوص الواردة في إرادة الدنيا بعمل الآخرة:

ورد في ذلك جملة من النصوص في الكتاب والسنة؛ منها:

الأول: قول الله – تعالى –: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[هود: ١٥-١٦]. قال مجاهد وغيرُه: نزلت في أهل الرياء[1].

(١) ينظر: «الموافقات» (٢/ ٢١٧)، و«فتح المجيد» ص٣١٠.

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٣١١).

الثاني: قوله تعالى: ﴿**مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝١٨ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا**﴾ [الإسراء: ١٨-١٩].

هنا مسألة في دلالة الآيتين: هل كل من أراد الدنيا ينال مرادَهُ قطعا لآية هود، أم ذلك راجع إلى مشيئة الله - تعالى - كما في آية الإسراء؟.

الجواب: أن ذلك راجع إلى مشيئة الله - تعالى - كما في آية الإسراء، وتكون آية هود مخصوصةً بها؛ لأن الأخص مقدم على الأعم، وآية هود عامة، وآية الإسراء خاصة.

وأيضا الواقع يشهد على ما تدل عليه آية الإسراء؛ لأن في فقراء الكفار من هو أفقر من فقراء المسلمين. فالأمر موكول إلى مشيئة الله(١).

الثالث: قوله تعالى: ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ**﴾ [الشُّورَى: ٢٠] .

الرابع: قوله تعالى: ﴿**فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ**﴾ [النازعات: ٣٧].

---

(١) ينظر: «القول المفيد» (٢/ ١٤٠).

الخامس: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ، تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيلَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ، طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنْ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ**»(١).

ذكر في الحديث جملة من محبوبات النفس (الدرهم، والدينار، والخميصة ...)، ويلحق بها ما كان مثلها أو أشد، فنقول: تعِس عبدُ الرياضة، تعِس عبدُ الفن، تعس عبد الأسهم.

السادس: عن أُبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**بَشِّرْ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِالسَّنَاءِ، وَالرِّفْعَةِ، وَالنَّصْرِ، وَالتَّمْكِينِ فِي الْأَرْضِ؛ فَمَنْ عَمِلَ مِنْهُم عَمَلَ الْآخِرَةِ لِلدُّنْيَا، لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الْآخِرَةِ نَصِيبٌ**»(٢).

السابع: عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ**

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد (٢١٢٢٢)، وابن حبان (٤٠٥)، وقال الألباني: حسن صحيح.

كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ»[١].

الثامن: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا، لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»، يَعْنِي: رِيحَهَا[٢].

التاسع: عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كَيْفَ بِكُمْ إِذَا لَبِسَتْكُمْ فِتْنَةٌ يَرْبُو فِيهَا الصَّغِيرُ، وَيَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ، وَيُتَّخَذُ سُنَّةٌ، فَإِنْ غُيِّرَتْ يَوْمًا، قِيلَ: هَذَا مُنْكَرٌ»، قَالُوا: وَمَتَى ذَلِكَ، يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ؟ قَالَ: «إِذَا قَلَّتْ أُمَنَاؤُكُمْ، وَكَثُرَتْ أُمَرَاؤُكُمْ، وَقَلَّتْ فُقَهَاؤُكُمْ، وَكَثُرَتْ قُرَّاؤُكُمْ، وَتُفِقِّهَ لِغَيْرِ الدِّينِ، وَالْتُمِسَتِ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ»[٣].

قال بِشرٌ الحافي: لَأَن أطلب الدنيا بمزمار، أحب إلى من أن أطلبها بالدِّين[١].

---

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٢٤٦٥) واللفظ له، والطبراني في «الأوسط» (٥٩٩٠)، وصححه الألباني.

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٣٦٦٤)، وابن ماجه (٢٥٢)، وصححه الألباني.

(٣) **صحيح**: أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٢٠٧٤٢)، وابن أبي شيبة (٣٧١٥٦)، والدارمي (١٩١)، وصححه الألباني في «قيام رمضان» ص ٤.

(١) «مختصر منهاج القاصدين» ص ٢١٤.

المطلب الثالث: صور العمل لأجل الدنيا، وأثرها على العمل:

إرادة الدنيا بعمل الآخرة له صور، من أشهرها اثنتان:

الصورة الأولى: أن لا يريد بعمله الصالح إلا الدنيا:

وهذه الصورة لها حالان:

الأولى: أن يكون في أصل الإيمان، يعني أنه آمن لأجل الدنيا.

ومثاله: إنسان أسلَم لمصلحة دنيوية دون اطمئنان قلبه بالإيمان؛ كأن يكون رأى أهل البلد أسلموا، فقال: أنا لو لم أُسلم لتعطَّلَت مصالحي، فأسلم في الظاهر؛ لأجل الدنيا.

أو لو أن عاملا كافرا سمع أن مكتبا من مكاتب الدعوة يعطي من أسلم مكافأة مالية، فقال: فرصة وغنيمة، فذهب عندهم، ونطق الشهادتين، وقصده المال فقط.

وحكم هذه الحال: أنها كفر ونفاق أكبر.

الثانية: أن يُريد بالعبادة المعينة الدنيا:

ومثاله: رجل مسلم خرج للغزو؛ لأجل الغنيمة فقط، لا يريد إعلاء كلمة الله. أو إنسان طلب العلم؛ لأجل المال فقط.

وحكم هذه الحال: أنها شرك أصغر.

والدليل: قوله - عزَّ وجلَّ - في الحديث القدسي: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ؛ مَنْ عَمِلَ عَمَلا أَشْرَكَ مَعِي فِيهِ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»(١).

والدليل الثاني - وهو أصرح - حديث الباب: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ**...»؛ فسماه عبدا، ولهذا بوَّب الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ «باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا».

الصورة الثانية: أن يكون الباعثُ للعبادة: إرادةَ الثواب، وتكون إرادة الدنيا تابعة:

وحكم هذه الصورة: أنها لا بأس بها، لكِن ينقص من الأجر بحسَبِه، ولا بد أن تكون إرادة الدنيا هنا في أمر مباح وتابع ليست أصلا.

ومثالها: إمام مسجد تولى إمامة المسجد لله، وتحصيل المصالح الدينية، من إمامة النَّاس وتعليمهم، ونشر الخير والدعوة إلى الله عبر هذا المسجد، ودخل مع ذلك أيضا قصد المكافأة المالية تبعا لا أصلا؛ فهذا ليس من الشرك، ولكن نقول ينقص من أجره بحسب هذا القصد، لا يستوي هذا ومن فعل العبادة لله متمحِّضا.

---

(١) تقدم تخريجه.

ودليل هذا: أن الله – عزَّ وجلَّ – رتَّب على بعض العبادات ثوابا دنيويًّا، كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، إلى أن قال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٢-٤].

وقال نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا﴾ [نوح: ١٠-١٢]، فهنا رغَّب في العبادة بأمر دنيوي.

وقال تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ [الفتح: ٢٠].

وقال ﷺ: «تَابِعُوا بَيْنَ الحَجِّ وَالعُمْرَةِ؛ فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيدِ»[١].

وقال ﷺ: «مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا لَهُ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ فَلَهُ سَلَبُهُ»[٢]، وهذا تشجيع على هذه الطاعة بأمر دنيوي.

وقال ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، أَوْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»[١].

---

(١) **حسن صحيح**: أخرجه الترمذي (٨١٠)، والنسائي (٢٦٣١)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقال الألباني: حسن صحيح.

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣١٤٢) وفي مواضع أخرى، ومسلم (١٧٥١) من حديث أبي قتادة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٢٠٦٧ و ٥٩٨٦)، ومسلم (٢٥٥٧) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فهذه النصوص ذكرت هذه الأعمال الصالحة، ورتبت عليها بعضَ الحظوظ العاجلة من أمور الدنيا.

والخلاصة: أن من أراد بعبادته وجه الله - عزَّ وجلَّ - ودخل مع ذلك إرادة الدنيا تبعا لا قصدا، فهذا جائز، ولكن ينقص من أجره بحسب نيته.

والدليل على النقصان قوله ﷺ: «**مَا مِنْ غَازِيَةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُصِيبُونَ الْغَنِيمَةَ، إِلَّا تَعَجَّلُوا ثُلُثَيْ أَجْرِهِمْ مِنَ الْآخِرَةِ، وَيَبْقَى لَهُمُ الثُّلُثُ، وَإِنْ لَمْ يُصِيبُوا غَنِيمَةً، تَمَّ لَهُمْ أَجْرُهُمْ**»(١).

ويستفاد من هذا الحديث: أن الأجر المُعجَّل في الدنيا ينقُص به أجر الآخرة، ولمَّا فهم الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ذلك الأمر حَذِروا من تعجيل الأجر، وطلبوا أن يكون أجرهم مدخرا وافيا في الآخرة.

* * *

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٩٠٦) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

٣٧- باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحلَّ الله أو تحليل ما حرَّم الله، فقد اتخذهم أربابا من دون الله

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «يُوشِكُ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ؛ أَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَتَقُولُونَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ؟!»(١).

وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: عَجِبْتُ لِقَوْمٍ عَرَفُوا الْإِسْنَادَ وَصِحَّتَهُ، وَيَذْهَبُونَ إِلَى رَأْيِ سُفْيَانَ، وَاللَّهُ - تَعَالَى - يَقُولُ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ...﴾ [النور: ٦٣] الآيَةَ، أَتَدْرِي مَا الْفِتْنَةُ؟ الْفِتْنَةُ: الشِّرْكُ. لَعَلَّهُ إِذَا رَدَّ بَعْضَ قَوْلِهِ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ الزَّيْغِ فَيَهْلِكَ(٢).

عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ...﴾ [التوبة: ٣١] الآيَةَ، فَقُلْتُ لَهُ:

---

(١) «مجموع الفتاوي» (٢٠/٢١٥). وقد أخرجه أحمد في المسند (٣١٢١) بلفظ: «أُرَاهُمْ سَيَهْلِكُونَ أَقُولُ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ، وَيَقُولُ: نَهَى أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ»، وفي إسناده ضعف.

(٢) «الصارم المسلول» ص ٥٦.

إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ. قَالَ: «**أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَتُحِلُّونَهُ؟**» فَقُلْتُ: بَلَى، قَالَ: «**فَتِلْكَ عِبَادَتُهُم**»[1]. رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ.

ooo

---

(١) تقدم تخريجه.

٣٨- باب قول الله تعالى:
﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠]، الآيات.

وَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١].

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦].

وَقَوْلِهِ: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: ٥٠] الآيَةَ.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ**»[1]. قَالَ النَّوَوِيُّ: «حَدِيثٌ صَحِيحٌ رَوَيْنَاهُ فِي كِتَابِ الْحُجَّةِ، بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ»[2].

وَقَالَ الشَّعْبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: كَانَ بَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَرَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ خُصُومَةٌ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: نَتَحَاكَمُ إِلَى مُحَمَّدٍ - عَرَفَ أَنَّهُ لَا يَأْخُذُ الرِّشْوَةَ -، وَقَالَ الْمُنَافِقُ:

---

(١) **ضعيف**: أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (١٥)، وابن بطة في «الإبانة» (٢٧٩)، وضعفه الألباني في «المشكاة» (١٦٧).

(٢) «الأربعون النووية»، عقب الحديث الحادي والأربعين.

نَتَحَاكَمُ إِلَى الْيَهُودِ؛ لَعِلْمِهُ أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ الرِّشْوَةَ، فَاتَّفَقَا أَنْ يَأْتِيَا كَاهِنًا فِي جُهَيْنَةَ فَيَتَحَاكَمَا إِلَيْهِ، فَنَزَلَتْ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ [النساء: ٦٠] الآيَةَ[(١)].

وَقِيلَ: «نَزَلَتْ فِي رَجُلَيْنِ اخْتَصَمَا، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: نَتَرَافَعُ إِلَى النَّبِي ﷺ، وَقَالَ الْآخَرُ: إِلَى كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ، ثُمَّ تَرَافَعَا إِلَى عُمَرَ، فَذَكَرَ لَهُ أَحَدُهُمَا الْقِصَّةَ، فَقَالَ لِلَّذِي لَمْ يَرْضَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَكَذَلِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ فَقَتَلَهُ»[(٢)].

ooo

الشرح:

ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذين البابين أربع آيات، وحديثين، وأربعة آثار.

والكلام على هذين البابين في الفصلين التاليين:

* * *

---

(١) أخرجه الواحدي في «أسباب نزول القرآن» (١/ ١٦١ - ١٦٢) عن الشعبي بسند صحيح، غير أنه مرسل، وله شواهد.

(٢) أخرجه الواحدي في «أسباب نزول القرآن» (١/ ١٦٢)، وقال محققه: إسناده ضعيف.

وقال ابن حجر في «الفتح» (٥/ ٣٨): «هذا الإسناد، وإن كان ضعيفا، لكن تقوى بطريق مجاهد، ولا يضره الاختلاف لإمكان التعدد».

الفصل الأول: مقصود البابين، وموضوعهما العام

بيان شيء من مقتضيات التوحيد ولوازم تحقيق كلمة التوحيد؛ وهو: أن التشريع والحكم حق لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده.

فلا يؤخذ التشريع والحكم في الدين إلا عن الله - تعالى -، بواسطة رسوله ﷺ. والعلماء يبيِّنون للناس ما أنزل الله على رسوله ﷺ. فكما أنه لا معبودَ إلا الله، فكذلك لا حاكمَ إلا الله.

قول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**من أطاع العلماء**»: «**مَنْ**» يُحتمل أن تكون شرطية، بدليل قوله: «فقد اتَّخذَهم»؛ لأنه جواب الشرط، ويحتمل أن تكون موصولة، والتقدير: «باب الذي أطاع العلماء».

* * *

الفصل الثاني: المباحث الموضوعية

المبحث الأول: توحيد الله في التشريع. وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: تعريف الطاعة، وأقسامها:

حقيقة الطاعة: امتثال الأمر، وضِدُّها المعصية؛ وهي: مخالفة الأمر.

والمقصود هنا الطاعة الخاصة في تحريم الحلال وتحليل الحرام، وليس كل من أُطِيع في معصية الله فقد اتُّخِذَ ربًّا من دون الله.

- **والطاعة قسمان:**

القسم الأول: طاعة مطلقة:

وهذه خاصة بالله - تعالى - ورسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩]، والآيات في هذا كثيرة.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمن جعل غير الرسول تجب طاعته في كل ما يأمر به وينهى عنه وإن خالف أمر الله ورسوله فقد جعله نِدًّا ... وهذا من الشرك الذي يُدخِل أصحابَه في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]»[١].

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٦٧).

القسم الثاني: طاعة مقيدة:

وهي في حق من تُشرع طاعته تبعا لطاعة الله ورسوله ﷺ؛ كأولي الأمر من العلماء والأمراء، والوالدين، والزوج ونحوهم.

عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**لَا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ**»(١).

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: «**عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، إِلَّا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ**»(٢).

المطلب الثاني: التشريع حق الله - تعالى - وحده:

الله - عزَّ وجلَّ - هو العليم الحكيم، الذي خلَق الخَلْق، وهو أعلم بما يصلحهم، فالتشريع خاص بالله - تعالى -، كما دلَّ على ذلك أدلة كثيرة من الكتاب والسنَّة؛ منها:

١- قوله تعالى: ﴿**أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ**﴾ [الشورى: ٢١]، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿**ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [التوبة: ٣١].

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٧٢٥٧)، ومسلم (١٨٤٠).

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٧١٤٤)، ومسلم (١٨٣٩).

وفسَّرها رسولُ الله ﷺ لعَدِيِّ بن حاتم أنَّ اتخاذهم أربابًا بمعنى: طاعتهم في تحليل الحرام، وتحريم الحلال؛ لهذا قال: «**أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَتُحِلُّونَهُ؟ فَقُلْتُ: بَلَى، قَالَ فَتِلْكَ عِبَادَتُهُم**»[1].

وسُئِل حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن هذه الآية: فقال: أما إنهم ما عبَدوهم، ولكنهم أحلوا ما حرَّم الله عليهم فاستَحَلُّوه، وحرَّمُوا عليهم ما أحل الله لهم فحرَّمُوه، فصاروا بذلك أربابا[2].

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في الآية: لم يأمروهم أن يسجدوا لهم، ولكن أمروهم بمعصية الله فأطاعوهم فسماهُم الله بذلك أربابًا[3].

٢- قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠**﴾ [الأحزاب: ٦٦].

٣- قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ**﴾ [الأنعام: ١٢١].

فهذه الآيات السابقة وما في معناها تُقرِّرُ هذا المعنى: أنَّ طاعة غير الله فيما لم يأذن به الله؛ كالطاعة في التشريع، وتبديل الأحكام، وتحليل الحرام، وتحريم الحلال، هذا خروجٌ عن حدِّ التَّوحيد إلى دائرة الشرك، كما سيأتي بيانُ حكمه.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٦٦٣٨)، والبيهقي في «المدخل إلى السنن الكبرى» (٢٥٨).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١٦٦٤١).

المطلب الثالث: حكم طاعة المخلوق في تحليل الحرام أو تحريم الحلال:

اتباع مخلوق وطاعته في التحليل والتحريم، له ثلاث صور:

الصورة الأولى: أن يعلم المتَّبِع أن هذا المتبوع - كالأمير أو العالم أو شيخ القبيلة - بدَّل دين الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، فيتبعه على التبديل مُعتقدًا حِلَّ ما حرم الله وحُرمةَ ما أحل الله.

وحكم هذه الصورة: أنها شرك في الربوبية؛ لأن التشريع من أفعال الله المختص بها، وإثباتها لغيره شرك به في ربوبيته. قال تعالى: ﴿**ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ**﴾ [التوبة: ٣١].

وهو شرك في الألوهية من وجه آخر؛ لأنَّ العبد مأمور أن يتلقى التحليل والتحريم من الله - تعالى -، فإذا تلقَّاه من غيره فقد أشرك به غيره، ولهذا ختمت الآية بقوله: ﴿**وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ**﴾.

الصورة الثانية: أن يكون المتَّبِع معتقدا حرمةَ الحرام، وحِلَّ الحلال، كما شرعه الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، لكنه يتبع هذا المبدِّلَ لهوى في نفسه.

وحكم هذه الصورة: أنها معصية، لكن لا يكفُر بمجرَّدِ ذلك.

فإن قيل: لماذا لا يكفُر؟

أجيب: لو قلنا بكفرهم لزم من ذلك تكفير كل صاحب معصية يعرف أنه عاص لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ويعلم أنه خالف حكم الله – عز وجل –.

وبهذا يتبين الفرق بين شرك الطاعة المطلقة، وطاعة المخلوق في معصية الخالق.

فلو قال شخص لآخر: اشرب هذا الكأس من الخمر، وستجد الراحة والمتعة، فأطاعه، فهل يكون مشركا؟ الجواب: لا، هذه معصية.

لكن لو قال له: اشرب وتمتع بهذا الخمر، فهو حلال لا شيء فيه. فأطاعه واتبعه على تحليل الحرام، مع علمه بالحكم، فهذه هي الصورة الأولى.

الصورة الثالثة: أن يتابعهم جاهلا، فيظن أن ذلك حكم الله. وهذه الصورة لها حالان:

الأولى: أن يمكِنه أن يعرف الحق بنفسه، لكنه فرَّط وقصَّر، فهو آثم بذلك؛ لأن الله أمر بسؤال أهل العلم عند عدم العلم.

الثانية: أن لا يكون عالما ولا يمكنه التعلم فيتابعهم تقليدا، ويظن أن هذا هو الحق؛ فهذا لا شيء عليه لأنه فعل ما أُمِر به وكان معذورا بذلك. ولذلك ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**مَنْ أُفْتِيَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَانَ إِثْمُهُ عَلَى مَنْ أَفْتَاهُ**»(١).

---

(١) **حسن**: أخرجه أبو داود (٣٦٥٧)، وابن ماجه (٥٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وحسنه الألباني.

فالقول بإثمه لخطأِ غيره مخالف للدليل، ويلزم منه الحرج والمشقة، وعدم وثوق الناسِ بأحد لاحتمال خطئه!.

المطلب الرابع: مظاهر الإخلال بتوحيد الاتباع:

يتجلَّى الإخلالُ بتوحيد الاتباع والطاعة في صور ومظاهر؛ منها:

الأول: الحكم بغير ما أنزل الله - تعالى -: وسيأتي الكلامُ عليه مُفردا، إن شاء الله - تعالى -.

الثاني: طاعة علماء الضلال في البدع، ونبذ السنن:

وهذا من صور الإخلال بهذا التوحيد، حين يُطاع علماء الضلالة في تحسين البِدَع، ويتابَعُون عليها، حين يشرِّعُون للناس ما لم يأذن به الله - تعالى -.

كما زين بعضهم للعامة التوسل بالأموات، ودعاء الغائبين والتعلق بهم، وإحياء الموالد، وغير ذلك. وهذا من غُربة الدين، وضعف راية الموحدين، فزيَّنوا للناس الباطل، وصار المنكر معروفا والمعروف منكرا، ووقع ما خافه النبي ﷺ بقوله: «**إِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ**»[1].

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٤٢٥٢)، والترمذي (٢٢٢٩)، من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني.

قال المُلَّا علي قاري في شرح الحديث: «الأئمة جمع إمام، وهو مقتدى القوم ورئيسُهم ومن يدعوهم إلى قول أو فعل أو اعتقاد»[1]. فيدخل فيه إمام العلم وإمام السلطان.

ونقلوا عن أحدهم أنه قال في مرض موته: من كانت له حاجة فليأت قبري ويطلبْها، أقضها له، فإنما بيني وبينه ذراع من تراب!.

الثالث: طاعة الأمراء في مخالفة أحكام الشرع، واستحسانُ ذلك:

وهذا من البلاء الذي عم على مَرِّ التاريخ، حين يزِل الحاكم والسلطان فيأمر الناس بما فيه تبديل لشرع الله - تعالى -، فيتهافت الناس على طاعته واتِّباعه، ونبذ كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وتعظُم الفتنة حينما يكون ذلك بتزيين علماء السوء.

ويدخل في ذلك كل متبوع مطاع؛ كشيخ القبيلة، وعُمدة الحي، ومدير الإدارة أو الشركة، ونحو ذلك.

الرابع: التقليد الأعمى لعلماء المذهب أو البلد، مع العلم بمخالفتهم لنصوص الشريعة:

وسبق في أوائل الشرح أن التقليد من أسباب الشرك في القديم والحديث.

وتقليد العلماء في مسائل الفروع تقليدا أعمى، حتى مع العلم بمخالفة الدليل، ضلال عن سواء السبيل، كما قال بعض المتعصبة: كل نص خالف قول

---

(١) «مرقاة المفاتيح» (١٥/ ٣٥٥).

إمامنا فهو منسوخ أو مؤوَّل!. فعنده قول إمامه هو المُقَدَّم، فإن خالف نص القرآن أو السنة، فلا بد في هذا النص من النسخ أو التأويل!.

وتأمل قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا الذي صدر به الشيخ الباب، قال: «يُوشِكُ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ؛ أَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَتَقُولُونَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ؟!»(١).

وهذا الأثر له قِصة، فقد كان ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يرى أن التمتع بالعمرة إلى الحج واجب، فقال له بعضهم: إنَّ أبا بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لا يريان التمتع بالعمرة إلى الحج، ويريان أن إفراد الحج أفضل، فيجيبهم بما سبق، وهذا في حق أبي بكر وعمر!.

وقال الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ: عَجِبْتُ لِقَوْمٍ عَرَفُوا الْإِسْنَادَ وَصِحَّتَهُ، وَيَذْهَبُونَ إِلَى رَأْيِ سُفْيَانَ، وَاللَّهُ - تَعَالَى - يَقُولُ: ﴿**فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [النور: ٦٣]، أَتَدْرِي مَا الْفِتْنَةُ؟ الْفِتْنَةُ: الشِّرْكُ. لَعَلَّهُ إِذَا رَدَّ بَعْضَ قَوْلِهِ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ الزَّيْغِ فَيَهْلَكَ(١).

---

(١) تقدم تخريجه.

(١) تقدم تخريجه.

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أجمع العلماء على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد»[1].

ooo

المبحث الثاني: توحيد الله في الحكم. وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: معناه، وعلاقته بالتوحيد:

المراد به: إفراد الله بالحكم.

وشاع عند بعض المتأخرين تسميته «توحيد الحاكمية»، وهذا المصطلح لا يعرف عند المتقدمين - فيما أعلم -، وأول من استعمله أحد علماء الهند، وهو الشيخ أبو الأعلى المودودي، ثم أخذه الأستاذ سيد قطب في كتاباته.

وهذا المصطلح صحيح في معناه لا يصِحُّ إنكاره، لكنه داخل في أنواع التوحيد الثلاثة.

فالحكم والتشريع لله وحده، وإثباته لغيره شرك بالله في توحيد الربوبية، فالله - تعالى - له الحكم القدَري والحكم الشرعي.

ومن جهة أخرى: فالعبد مكلَّف أن يتحاكم إلى شرع الله - تعالى -، فإذا تحاكم إلى حكم المخلوق معرضا عن حكم الله، فقد أشرك به في ألوهيته.

---

(١) نقلها ابن القيم في مواضع من كتبه؛ منها: «أعلام الموقعين» (٢/ ٢٠١). وهي في كتاب «الأم» (٧/ ٢٥٩) بنحوه.

كما له تعلَّق بتوحيد الأسماء والصفات؛ لأن من أسماء الله الحسنى: (الحَكَم)، لقوله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ هُوَ الْحَكَمُ، وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ**»(١).

فهو داخل في الأقسام الثلاثة، وإفراده - على وجه التقعيد - لا حاجة له؛ لاندراجه فيها، ولما فيه من التطويل والتشقيق.

نعم قد يسوغ استعماله على وجه التقرير تنويها وبيانا لمنزلته، لكن لا داعي لإثباته كقسم من أقسام التوحيد؛ إذ يلزَم على ذلك أن يُقال: توحيد الدعاء، وتوحيد الخوف ... الخ.

المطلب الثاني: منزلته وأدلته:

قضية تحكيم الشريعة قضية كُبرى في الدين، وأصل من أصول العقيدة، ويظهر ذلك في مظاهر كثيرة؛ منها:

أولا: ربط تحكيم الشريعة بتوحيد العبادة:

قال تعالى: ﴿**إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [يوسف: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا**﴾ [النساء: ٦٠]،

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٤٩٥٥)، والنسائي (٥٣٨٧) من حديث شريح بن هانئ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني.

وقال جلَّ ذكرُه: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

ثانيا: ربط تحكيم الشريعة بتوحيد الربوبية:

قال الله – تعالى –: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ثالثا: ربط تحكيم الشريعة بتوحيد الأسماء والصفات:

قال الله – تعالى –: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ [الرعد: ٤١]، وقال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤]، وقال جلَّ ذكرُه: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٠].

ومن أسمائه تعالى «الحَكَم»، ووصف سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نفسه بأنه أحكم الحاكمين(١)، وخير الحاكمين(٢).

(١) سورة التين، الآية (٨).

(٢) سورة يونس، الآية (١٠٩).

رابعا: ربط تحكيم الشريعة بالإيمان:

قال الله – تعالى –: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١]، وقال جلَّ ذكرُه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

المطلب الثالث: حكم مخالفته:

وصف الله من يحكم بغير ما أنزل الله بثلاثة أوصاف، قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿... فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]، ﴿... فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧].

والأقرب أن هذه الأوصاف تُحمل على اختلاف الصور.

- **فيكون كافرا في أحوال:**

الأولى: تشريع الحُكم بغير ما أنزل الله – تعالى –.

وذلك بوضع أنظمة، وقوانين، ومحاكم تحكم بغير ما أنزل الله؛ فهذا قد بدَّل الشريعة بهذه القوانين، فهو كافر؛ لأنه لم يرغب بهذا القانون عن شريعة الله إلا وهو يعتقد أنه خير للعباد والبلاد من شريعة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

ومن ذلك الأحكام القبلية التي يتحاكم بها أفراد القبيلة إلى شيخهم أو أحد وُجهائهم، فيحكم بينهم بأعراف قبلية مخالفة لحكم الله – تعالى –.

قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

الثانية: إذا أنكر أحقِيَّة حكم الله – تعالى –؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: من جحد ما أنزل الله فقد كفر(١).

الثالثة: إذا اعتقد أن حكم غير الله أحسنُ من حكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، وقوله تعالى، مقرِّرا ذلك: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ٨].

الرابعة: إذا اعتقد أن حُكم غير الله مثلُ حكم الله؛ فهذا تسوية للمخلوق بالخالق، وهو شرك. قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

الخامسة: إذا اعتقد جواز الحكم بغير ما أنزل الله، بدليل قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، فكل ما خالف حكم الله فهو من حكم الجاهلية، فالمُبيح للحكم بغير ما أنزل الله مخالف لإجماع المسلمين القطعي، وهو كافر مرتد. وذلك كمن اعتقد جواز إباحة الزنا أو الخمر.

قال العلامة الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الإشراك بالله في حكمه والإشراك به في عبادته كلها بمعنى واحد لا فرق بينهما البتة، فالذي يتَّبع نظاما غير نظام الله،

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٢٠٦٣).

وتشريعا غير تشريع الله، ومن كان يعبد الصنم، ويسجد للوثن لا فرق بينهم البتة، فهما واحد، وكلاهما مشرك بالله»[١].

- **ويكون ظالما:**

إذا اعتقد أن الحكم بما أنزل الله أحسنُ الأحكام، وأنه أنفع للعباد والبلاد، وأنه الواجب تطبيقه، ولكن حملَهُ البُغض والحقد على المحكوم عليه على أن يحكم بغير ما أنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهو ظالم بهذا.

- **ويكون فاسقا:**

إذا كان حكمه بغير ما أنزل الله لهوى في نفسه، مع اعتقاده أن حكم الله هو الحق، لكن حكم بغيره لهوى في نفسه؛ مثل: أن يحكُم لشخص لرشوة رُشِي إياها، أو لكونه قريبا أو صديقا، أو يطلب من ورائه حاجة، وما أشبه ذلك .. مع اعتقاده أن حكم الله هو الأمثل والواجب اتباعه، فهذا فاسق، وإن كان أيضا ظالما، لكن وصفُ الفِسق في حقِّه أولى من وصف الظلم.

والصورتان كلتاهما (الظلم والفسق) يصح تسميتهما كفرا أصغر لا يُخرج عن الملة.

وعلى هاتين الصورتين الثانية والثالثة يحمل ما نُقل عن ابن عباس، وعطاء، وغيرهم من السلف قولهم: «كفرٌ دون كفرٍ». وجاء عن ابن عباس

---

(١) «أضواء البيان» (٧/ ١٦٢).

رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «لَيْسَ بِالْكُفْرِ الَّذِي يَذْهَبُونَ إِلَيْهِ؛ إِنَّهُ لَيْسَ كُفْرًا يَنْقِلُ عَنِ الْمِلَّةِ، ﴿**وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ**﴾ [المائدة: ٤٤] كُفْرٌ دُونَ كُفْرٍ»(١)، ونحو ذلك من العبارات.

وتقرر مما سبق: وجوب إفراد الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ بالحُكم، وأن من الكفر الأكبر أن يُشرَكَ في حكمه أحدٌ من خلقه؛ سواء كان ملكا أو رئيسا أو سلطانا أو زعيما أو مجلسا تشريعيا أو سلطة مدنية أو عسكرية أو حاكما قبليا أو فردا من العامة أو الخاصة أو غير ذلك، وأن ذلك مما أجمعت عليه الأمة، ولا يسوغ لأحد أن يخالف أو يجادل فيه.

تنبيه:

لا يفهم مما سبق إنكارُ الأنظمة البشرية في الإدارة والمرور والخدمة المدنية ونحو ذلك. فليس كل نظام حادث يُعد حكما بغير ما أنزل الله، بل يُنظر في هذا النظام الذي وضعه البشر؛ فإن تضمن ما يخالف حكم الشريعة رُدَّ وأُنكِر، وإلا فلا.

* * *

(١) **صحيح**: أخرجه سعيد بن منصور في سننه (٧٤٩)، والخلال في «السنة» (١٤١٩)، والحاكم في «المستدرك» (٣٢١٩) واللفظ له، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

٣٩- باب
من جحد شيئا من الأسماء والصفات

وَقَوْلِ اللهِ - تَعَالَى -: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ...﴾ [الرعد: ٣٠] الآيَةَ.

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ؛ أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ؟!»(١).

وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنِ ابْنِ طَاوُسٍ عَنْ أَبِيهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً انْتَفَضَ لَمَّا سَمِعَ حَدِيثًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الصِّفَاتِ؛ اسْتِنْكَارًا لِذَلِكَ، فَقَالَ مَا فَرَقُ هَؤُلَاءِ؟ يَجِدُونَ رِقَّةً عِنْدَ مُحْكَمِهِ، وَيَهْلِكُونَ عِنْدَ مُتَشَابِهِهِ؟!»(٢). انْتَهَى.

وَلَمَّا سَمِعَتْ قُرَيْشٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ أَنْكَرُوا ذَلِكَ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾(٣).

ooo

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١٢٧).

(٢) **صحيح**: أخرجه معمر بن راشد في «جامعه» (٢٠٨٩٥)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٤٨٥)، وصححه الألباني في «ظلال الجنة».

(٣) ينظر: تفسير الطبري (٢٠٣٩٧)، و«أسباب النزول» للواحدي ص ٢٧٣.

الشرح:

ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب آية وأثَرَين.

والكلام على هذا الباب في الفصلين التاليين:

* * *

الفصل الأول: مقصود الباب، وموضوعه العام

من مُقتضيات توحيد الألوهية إثباتُ الأسماء والصفات لهذا المعبود بحق، والتعبُّدُ له بأسمائه وصفاته، ودعاؤه بها، فكلما زاد علم العبد بأسماء الله وصفاته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أثمر له ذلك تَرَقِّيًا في مدارج العبودية.

كما أن إثبات الأسماء والصفات برهان على توحيد الألوهية، وأن جحد شيء من الأسماء والصفات من خصال الكفار والمشركين.

* * *

الفصل الثاني: المباحث الموضوعية

المبحث الأول: حُكم جحد شيء من الأسماء والصفات:

الجحد هو الإنكار. والإنكار قسمان:

الأول: إنكار تكذيب:

وهذا كفر بلا شك، فلو أن أحدا أنكر اسما من أسماء الله أو صفةً من صفاته الثابتة في الكتاب والسنة؛ مثل أن يقول: ليس لله يد، أو أن الله لم يستوِ على عرشه، أو ليس له عين، فهو كافر بإجماع المسلمين؛ لأن تكذيب خبر الله ورسوله كفر مخرج عن الملة بالإجماع(١).

ولأن الله سمَّى جحود اسم من أسمائه كفرا، كما في قوله تعالى: ﴿**وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ**﴾ [الرعد: ٣٠]، فدل على أن جُحود شيء من أسمائه وصفاته، كفر.

الثاني: إنكار تأويل:

فهو هنا لا ينكرها، لكن يتأوَّلُها إلى معنى يخالف ظاهرها. **وهذا القسم نوعان:**

النوع الأول: أن يكون للتأويل مُسَوِّغٌ في اللغة العربية: فهذا لا يوجب الكفر.

(١) ينظر: «الإقناع في مسائل الإجماع» (٢٢٨).

مثل أن يقول: المراد باليد النعمة أو القوة، فلا يكفر؛ لأن اليد في اللغة تطلق بمعنى النعمة، كما قال عُروة بن مسعود الثقفي لأبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في قصة صلح الحديبية: «أَمَا - وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ -، لَوْلا يَدٌ كَانَتْ لَكَ عِنْدِي لَمْ أَجْزِكَ بِهَا، لَأَجَبْتُكَ»(١).

وتأتي بمعنى القوة، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧].

الثاني: أن لا يكون له مُسَوِّغ في اللغة العربية: فهذا حكمه الكفر؛ لأنه إذا لم يكن له مسوغ صار في الحقيقة تكذيبا؛ مثل أن يقول: المراد بقوله تعالى: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]، تجري بأراضينا، فهذا كافر؛ لأنه نفاها نفيا مطلقا، فهو مكذِّب.

ولو قال في قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، المراد بيديه: السماوات والأرض، فهو كفر أيضا؛ لأنه لا مسوغ له في اللغة العربية، ولا هو مقتضى الحقيقة الشرعية، فهو منكر ومكذِّب.

ooo

المبحث الثاني: المحكم والمتشابه:

- **المُحْكَم**: ما اتضح معناه. أي: ما دل بنفسه دلالة واضحة على معناه الذي لا يقبل نسخا ولا يحتمل تأويلا.

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٧٣١).

وذلك كالنصوص والظواهر، وسمي بذلك؛ لأنه من البيان في غاية الإحكام والإتقان.

ومن أمثلته:

أولا: أكثر نصوص العقائد؛ كالإيمان والتوحيد، فإنها لا تقبل التبديل والتغيير، كما لا تحتمل التأويل؛ لأن التأويل اجتهاد، وليست محلا للاجتهاد.

ثانيا: النصوص التي أمرت بأمهات الفضائل التي لا يُتصور لها تبديل أو تغيير، كنصوص بر الوالدين وصلة الأرحام، والأمر بالعدل والإحسان، وتحريم الظلم والعدوان.

ثالثا: القواعد العامة التي قامت عليها شرائع الإسلام، كرفع الحرَج، ومنع الضرر، واعتبار الأمور بمقاصدها.

وحكم هذا النوع: وجوب العمل بما دل عليه، وهو حجة قطعية الدلالة.

- **أما المتشابه**: فهو ما لم يتضح معناه. أي: هو اللفظ الذي لا تدل صيغته على المراد منه، وليس ثمة قرائنُ تبينه، واستأثر الله - عز وجل - بعلم حقيقته.

قال تعالى: ﴿**هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا**﴾[آل عمران:٧]، فجعل «المُحْكَمَ» أمّ

الكتاب، و«أمُّ الشيء»: معظمه وأكثره. أما «المُتَشابِه»: فجاء ذكره بلفظ يدل على التقليل. وهذا هو المتناسب مع ما أنزل الله - تعالى - القرآن لأجله: أن يكون أكثره واضحا لا لبس فيه ولا إشكال، وهذا معنى وصف القرآن بالهداية والتبيان والنور.

ثم إن الآية دلَّت على أن الله - تعالى - استأثر بعلم «المتشابه»، لا يدرِك حقيقته أحدٌ حتى العلماء، بل يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، وما كان كذلك امتنع - جزما - أن يراد به التشريع للأمة؛ لأن الله - تعالى - لا يمكن أن يُكلف العباد ما لا يُدرِك معناه خاصتُهم، وهم العلماء.

فإذا ظهر هذا، علمنا امتناع دخول شيء من الأحكام تحت معنى «المتشابه».

والمتشابه نوعان:

متشابه نسبي، ومتشابه حقيقي مطلق.

والفرق بينهما: أن الحقيقي المطلق يخفى على كل أحد. وأما النسبي فيخفى على البعض دون الكل.

وبناء على هذا التقسيم ينبني الوقفُ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ [آل عمران: ٧]، فعند الوقف على ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ يكون المرادُ بالمتشابه: المتشابهَ المطلق، وعلى الوصل ﴿إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ يكون المراد بالمتشابه: المتشابه النسبي.

ومن أمثلة المتشابه الحقيقي (المطلق):

أولا: نصوص صفات الله - عز وجل -، لا من جهة معانيها؛ فإنها بألفاظ عربية مدرَكةِ المعاني، وإنما الاشتباه في إدراك كيفياتها وكُنهِها.

فإن قيل: هل صفات الله - تعالى - من المُحكَم أو من المتشابه؟

فالجواب: هي من جهة معانيها من المحكم، ومن جهة كيفيتها من المتشابه.

ثانيا: حقائق ما أخبر الله به من نعيم الجنة وعذاب النار.

فنحن نعلم أن في الجنة فاكهة ونخلا ورُمانا، وأنهارا من عسل ولبن، هذا نعلمه، لكنَّ حقيقته وكيفيته على صفته، الله أعلم به، وليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء.

ومثال المتشابه النسبي: ما يخفى على بعض العلماء، مما يدركه بعض الراسخين في العلم.

جاء عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، أنه قال: «أَنَا مِمَّنْ يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ»(١).

وحكم المتشابه يختلف باختلاف نوعه:

فالمتشابه الحقيقي: يجب الإيمان به كما ورد، وتفويضُ العلم بكيفيته وكُنهِهِ إلى الله - عز وجل -. ولا يُخاض في ابتغاء تأويله؛ إذ الخوض في ذلك من ذرائع الفتنة والحيرة والضلال.

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٥/ ٢٢٠).

قال تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٧ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٧-٨].

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: تَلا رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ ...﴾ الآيةَ، إلى آخِرِها، قالَتْ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَإِذَا رَأَيْتِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، فَأُولَئِكِ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ**»(١).

وأما المتشابه النسبي: فالواجب الإيمان بالنص في الجملة، حتى يتبين معناه بالنظر والدَّرس لَمَن كان أهلا، أو بسؤال العلماء الذين يبيِّنون ذلك. قال الله - تعالى -: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣].

فائدة:

القرآن كله محكم باعتبار، وكلُّه متشابه باعتبار، وبعضه محكم وبعضه متشابه باعتبار ثالث.

فقد جاء وصفُه في عدة آيات بأنه محكم، كقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، ومعنى هذا: أنه في غاية الإحكام صدقا في الأخبار، وعدلا في الأحكام.

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٤٥٤٧)، ومسلم (٢٦٦٥).

وجاء وصفُه بأنه متشابه، كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر:٢٣]، أي: متشابها في الصدق والحق والفصاحة.

وجاء وصفه بأنه ﴿مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ﴾ [آل عمران:٧]، فيكون معنى المحكم والمتشابه ما سبق في أول المبحث.

* * *

٤٠– باب قول الله – تعالى –: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل:٨٣] الآيَة.

قَالَ مُجَاهِدٌ مَا مَعْنَاهُ: «هُوَ قَوْلُ الرَّجُلِ: هَذَا مَالِي، وَرِثْتُهُ عَنْ آبَائِي»[١].

وَقَالَ عَوْنُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: «يَقُولُونَ: لَوْلَا فُلَانٌ لَمْ يَكُنْ كَذَا»[٢].

وَقَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: «يَقُولُونَ: هَذَا بِشَفَاعَةِ آلِهَتِنَا»[٣].

وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ – بَعْدَ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الَّذِي فِيهِ: إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: «**أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ ...**»[٤] الْحَدِيثِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ –: «وَهَذَا كَثِيرٌ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، يَذُمُّ سُبْحَانَهُ مَنْ يُضِيفُ إِنْعَامَهُ إِلَى غَيْرِهِ وَيُشْرِكُ بِهِ. قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: هُوَ كَقَوْلِهِمْ: كَانَتِ الرِّيحُ طَيِّبَةً، وَالْمَلَّاحُ حَاذِقًا»[٥].

وَنَحْوُ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ جَارٍ عَلَى أَلْسِنَةٍ كَثِيرٍ.

ooo

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» ص ٤٢٤، و«تفسير الطبري» (١٤/ ٣٢٥).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١٤/ ٣٢٦).

(٣) «غريب القرآن» لابن قتيبة ص ٢٤٨.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٣٣).

٤١- باب قول الله - تعالى -: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢].

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي الْآيَةِ: «الْأَنْدَادُ: هُوَ الشِّرْكُ، أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ عَلَى صَفَاةٍ سَوْدَاءَ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ، وَهُوَ أَنْ تَقُولَ: وَاللَّهِ، وَحَيَاتِكِ يَا فُلَانَةُ، وَحَيَاتِي، وَتَقُولَ: لَوْلَا كُلَيْبَةُ هَذَا لَأَتَانَا اللُّصُوصُ، وَلَوْلَا الْبَطُّ فِي الدَّارِ لَأَتَى اللُّصُوصُ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ: لَوْلَا اللَّهُ وَفُلَانٌ. لَا تَجْعَلْ فِيهَا فُلَانًا. هَذَا كُلُّهُ بِهِ شِرْكٌ»(١). رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ**»(٢). رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ، وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ.

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَأَنْ أَحْلِفَ بِاللَّهِ كَاذِبًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بِغَيْرِهِ صَادِقًا»(٣).

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٢٢٩).

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٥)، وصححه الألباني.
والحديث من رواية عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وليس من رواية عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) **صحيح**: أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٥٩٢٩)، وابن أبي شيبة (١٢٢٨١)،

وَعَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ فُلَانٌ، وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ**»[1]. رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

وَجَاءَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ: «أَنَّهُ يُكْرَهُ [أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ]: أَعُوذُ بِاللَّهِ وَبِكَ، وَيَجُوزُ أَنْ يَقُولَ: بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ، قَالَ: وَيَقُولُ: لَوْلَا اللَّهُ ثُمَّ فُلَانٌ، وَلَا تَقُولُوا: لَوْلَا اللَّهُ وَفُلَانٌ»[2].

ooo

والطبراني في «الكبير» (٨٩٠٢)، وصححه الألباني في «الإرواء» (٢٥٦٢).

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٤٩٨٠)، وابن ماجه (٢١١٨)، وأحمد (٢٣٢٦٥)، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٩٨١١) مختصرا، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (٣٤٤).

٤٢- باب
ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله

عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، مَنْ حَلَفَ بِاللَّهِ فَلْيَصْدُقْ، وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللَّهِ فَلْيَرْضَ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ**»[١]. رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ بِسَنَدٍ حَسَنٍ.

ooo

(١) **صحيح**: أخرجه ابن ماجه (٢١٠٢)، والبيهقي في «الكبرى» (٢٠٧٢٣)، وصححه الألباني.

٤٣– باب
قول ما شاء الله وشئت

عَنْ قُتَيْلَةَ: «أَنَّ يَهُودِيًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ، تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، وَتَقُولُونَ: وَالْكَعْبَةِ. فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا: وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، وَأَنْ يَقُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شِئْتَ»(١). رَوَاهُ النَّسَائِيُّ، وَصَحَّحَهُ.

وَلَهُ – أَيْضًا – عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَجُلاً قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، فَقَالَ «**أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدًّا؟! مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ**»(٢).

وَلِابْنِ مَاجَهْ عَنِ الطُّفَيْلِ – أَخِي عَائِشَةَ لِأُمِّهَا – قَالَ: رَأَيْتُ كَأَنِّي أَتَيْتُ عَلَى نَفَرٍ مِنَ الْيَهُودِ، قُلْتُ: إِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ الْقَوْمُ، لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ. قَالُوا: وَأَنْتُمْ، لَأَنْتُمُ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ، وَشَاءَ مُحَمَّدٌ.

---

(١) **صحيح**: أخرجه النسائي (٣٧٧٣)، وأحمد (٢٧٠٩٣)، صححه الألباني.

(٢) **صحيح**: أخرجه ابن ماجه (٢١١٧)، وأحمد (١٨٣٩) وفي مواضع أخرى، والنسائي في «الكبرى» (١٠٧٥٩)، وصححه الألباني.

ثُمَّ مَرَرْتُ بِنَفَرٍ مِن النَّصَارَى، فَقُلْتُ: إِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ الْقَوْمُ، لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ. قَالُوا: وَإِنَّكُم، لَأَنْتُمُ القَوْمُ، لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ، وشَاءَ مُحَمَّدٌ.

فَلَمَّا أَصْبَحتُ أَخْبَرْتُ بِهَا مَنْ أَخْبَرْتُ، ثُمَّ أَتيتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَخْبَرْتُهُ. قَالَ: «**هَلْ أَخْبَرْتَ بِهَا أَحَدًا؟**» قُلْتُ: نَعَمْ.

قَالَ: فَحَمِدَ اللهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «**أما بعد؛ فَإِنَّ طُفَيْلًا رَأَى رُؤْيَا أَخْبَرَ بِهَا مَنْ أَخْبَرَ مِنْكُمْ، وَإِنَّكُمْ قُلْتُمْ كَلِمَةً كَانَ يَمْنَعُنِي كَذا وَكَذَا أَنْ أَنْهَاكُمْ عَنْهَا؛ فَلَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ، وَ شَاءَ مُحَمَّدٌ، وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ**»[1].

ooo

(١) **صحيح**: أخرجه ابن ماجه (٢١١٨)، وأحمد (٢٠٦٩٤) واللفظ له، وصححه الألباني والأرناؤوط. وله شاهد عند ابن ماجه (٢١١٨)، وأبي داود (٤٩٨٠) وغيرهما من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٤٤– باب
من سب الدهر فقد آذى الله

وَقَوْلِ اللَّهِ – تَعَالَى –: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤] الآيَةَ.

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ»(١).

وَفِي رِوَايَةٍ: «لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ»(٢).

ooo

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٤٨٢٦) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٢٤٦).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٤٦).

٤٨- باب ما جاء في قول الله - تعالى -: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ [فصلت: ٥٠] الآيَةَ.

قَالَ مُجَاهِدٌ: «هَذَا بِعَمَلِي، وَأَنَا مَحْقُوقٌ بِهِ»(١).

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «يُرِيدُ مِنْ عِنْدِي»(٢).

وَقَولِهِ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨].

قَالَ قَتَادَةُ: «عَلَى عِلْمٍ مِنِّي بِوُجُوهِ الْمَكَاسِبِ»(٣).

وَقَالَ آخَرُونَ: «عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللهِ أَنِّي لَهُ أَهْلٌ»(٤)، وهَذَا مَعْنَى قَوْلِ مُجَاهِدٍ: «أُوتِيتُهُ عَلَى شَرَفٍ»(٥).

---

(١) ينظر: تفسير مجاهد ص٥٨٧، وتفسير الطبري (٢٠/ ٤٥٨).

(٢) تفسير القرطبي (١٥/ ٣٧٣).

(٣) السابق (١٥/ ٢٦٦).

(٤) ينظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٧١٢٥).

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٠/ ٢٢١.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ ثَلَاثَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَبْرَصَ، وَأَقْرَعَ، وَأَعْمَى، فَأَرَادَ اللهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا، فَأَتَى الْأَبْرَصَ، فقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: لَوْنٌ حَسَنٌ، وَجِلْدٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ بِهِ. قَالَ: فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ، فَأُعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا وَجِلْدًا حَسَنًا. قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْإِبِلُ أَوْ الْبَقَرُ – شَكَّ إِسْحَاقُ**[1] **–، فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ. وَقَالَ: بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيهَا.**

قَالَ: فَأَتَى الْأَقْرَعَ، فقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: شَعَرٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ بِهِ. قَالَ: فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ، وَأُعْطِيَ شَعَرًا حَسَنًا. فقَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْبَقَرُ أَوِ الإِبِلُ، فَأُعْطِيَ بَقَرَةً حَامِلًا، قَالَ: بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيهَا.

فَأَتَى الْأَعْمَى، فقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: أَنْ يَرُدَّ اللهُ إِلَيَّ بَصَرِي، فَأُبْصِرَ بِهِ النَّاسَ. قَالَ: فَمَسَحَهُ، فَرَدَّ اللهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ. قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟

قَالَ: الْغَنَمُ، فَأُعْطِيَ شَاةً وَالِدًا.

فَأُنْتِجَ هَذَانِ وَوَلَّدَ هَذَا، فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنَ الْإِبِلِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْبَقَرِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْغَنَمِ.

---

(١) هو إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، أحد رجال إسناد الحديث.

قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الْأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ، قَدِ انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلَا بَلَاغَ لِي الْيَوْمَ إِلَّا بِاللهِ ثُمَّ بِكَ. أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ، وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ، وَالْمَالَ، بَعِيرًا أَتَبَلَّغُ عَلَيْهِ فِي سَفَرِي. فَقَالَ: الْحُقُوقُ كَثِيرَةٌ. فَقَالَ لَهُ: كَأَنِّي أَعْرِفُكَ، أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذِرُكَ النَّاسُ؟ فَقِيرًا فَأَعْطَاكَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - المَالَ؟ فَقَالَ: إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا الْمَالَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ.فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا، فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَى مَا كُنْتَ.

قَالَ: وَأَتَى الْأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَى هَذَا، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَى مَا كُنْتَ.

قَالَ: وَأَتَى الْأَعْمَى فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ، انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلَا بَلَاغَ لِي الْيَوْمَ إِلَّا بِاللهِ، ثُمَّ بِكَ. أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ، شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي. فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللهُ إِلَيَّ بَصَرِي، فَخُذْ مَا شِئْتَ، وَدَعْ مَا شِئْتَ، فَوَاللهِ لَا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ بِشَيْءٍ أَخَذْتَهُ لِلَّهِ. فَقَالَ: أَمْسِكْ مَالَكَ؛ فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ، فَقَدْ رُضِيَ عَنْكَ وَسُخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ»[(١)].

أخرجاه.

ooo

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣٤٦٤)، ومسلم (٢٩٦٤).

الشرح:

ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الأبواب خمس آيات، وسبعة أحاديث، وثلاثة عشر أثرا. ولأنها تشترك في وحدة موضوعية، سنسوقها جميعا.

وسيكون الكلام عليها في الفصلين التاليين:

* * *

الفصل الأول: مقصود الأبواب، وموضوعها العام

هذه الأبواب الستة يجمعها رباط واحد؛ وهو: الشرك الأصغر في الأقوال (الألفاظ).

وسبق أن الشرك الأصغر ثلاثة أقسام:

الأول: الشرك الأصغر في الاعتقاد، وأعمال القلوب؛ كالطيرة والرياء.

الثاني: الشرك الأصغر في الأقوال؛ كما جاء في هذه الأبواب.

الثالث: الشرك الأصغر في الأفعال؛ كالرقى والتمائم.

* * *

الفصل الثاني: المباحث الموضوعية

المبحث الأول: نسبة التأثير والتدبير لغير الله – تعالى –:

هذا المبحث يتصل بثلاثة أبواب: «باب قول الله – تعالى –: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[النحل: ٨٣]»، و«باب قول الله – تعالى –: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]»، و«باب من سب الدهر فقد آذى الله».

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: نسبة النعم إلى غير الله – تعالى –:

يتقلب العبد في هذه الدنيا في نعم كثيرة لا تحصى، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وهذه النعم من الله – تعالى –، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[النحل: ٥٣]، وواجب العبد أن يقابلها بالشكر.

وهنا مسألتان:

- **المسألة الأولى: أقسام إضافة النعم إلى غير الله – تعالى –:**

إضافة النعم إلى غير الله – تعالى – قسمان:

القسم الأول: أن يكون ذلك على وجه الإفراد:

ولهذا القسم صورتان:

الصورة الأولى: أن يكون المضاف إليه سببا ثابتا شرعا أو حسا، مع الاعتراف بأن الله مسبب الأسباب.

كقولك: لولا ربطُ حزام الأمان لتضررنا من الحادث. فهذا جائز.

ودليل الجواز: حديث العباس بن عبد المطلب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ نَفَعْتَ أَبَا طَالِبٍ بِشَيْءٍ، فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ؟ قَالَ: «**نَعَمْ، هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، لَوْلا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**»(١)، ولم يقل: لولا الله ثم أنا.

وقال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ - وإن كان قول العالم ليس بحجة، لكن يستأنس به - في القصيدة الميمية يمدح الصحابة:

أولئـــــك أتبـــــاع النبـــــيِّ وحزبُـــــه
ولـــــولاهُمُ مـــــا كـــــان في الأرض مســـــلمُ
ولـــــولاهُمُ كـــــادَتْ تمِيْـــــدُ بأهلهـــــا
ولكـــــنْ رواســـــيها وأَوتادهـــــا هُـــــمُ

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٦٢٠٨) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٠٩).

ولــــــولاهُمُ كانــــــت ظلامــــــا بأهلهــــــا

ولكِــــنْ هُــــمُ فيهــــا بــــدورٌ وأنجُــــمُ(١)

الصورة الثانية: أن يكون المضاف إليه سببا ظاهرا موهوما، لا أصل له في الشرع ولا في الحس والتجربة.

ومثاله: قولُ بعضهم: لولا تعليقُ جلد الذئب لسرق البيت. فهذا شرك أصغر كما سبق في قاعدة الأسباب.

ودليل ذلك: حديث معاوية الليثي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَكُونُ النَّاسُ مُجْدِبِينَ، فَيُنْزِلُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ رِزْقًا مِنْ رِزْقِهِ، فَيُصْبِحُونَ مُشْرِكِينَ**». فَقِيلَ لَهُ: وَكَيْفَ ذَاكَ، يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**يَقُولُونَ مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا**»(٢).

القسم الثاني: أن يكون ذلك على وجه الاقتران مع الله – تعالى –:

ولهذا القسم صورتان – أيضا –:

الصورة الأولى: أن تكون الإضافة بـ «الواو».

ومثاله قولُ: لولا الله وفلان لما قُبِلت في الجامعة.

---

(١) «الرحلة إلى بلاد الأشواق» المعروفة بالقصيدة الميمية، لابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، الأبيات (٥–٧).

(٢) **حسن**: أخرجه أحمد (١٥٥٣٧)، والطيالسي (١٣٥٨)، والخلال في «السنة» (١٦٣٨)، وحسنه محققو المسند.

فهذا شرك أصغر في اللفظ؛ لتسوية السبب المخلوق بالخالق مسبب الأسباب.

الصورة الثانية: أن تكون الإضافة بـ «ثم».

ومثاله قولُ: لولا الله ثم فلان لغرقت في المسبح.

فهذا جائز؛ لعدم التسوية، ولأنه سبب صحيح.

تنبيه:

ذكرنا في الصورة الثانية من القسم الأول أن إضافة النعمة إلى سبب موهوم - على جهة الإفراد -، لكنه شيء ظاهر مثل الخرزات، وجلد الذئب، أنَّ هذا شرك أصغر.

أما لو كان المضاف إليه سببا خفِيًّا فهذا أعظم، كما لو قال مثلا: لولا الولي الفلاني لهلكنا، لولا الشيخ البدوي لأصابنا الجدبُ، ونحو ذلك من العبارات.

وحكم هذه الصورة: أنها شرك أكبر؛ لأنه يعتقد أن هذا له تصرف خفِي في الكون، وهو ميت، فالأمر هنا أعظم؛ لأن السبب ليس ظاهرا، فصاحب الخرزات وجلد الذئب أهون؛ لأنه أسند إلى شيء ظاهر، وإن كان باطلا، لكنه أخف ممن يسنده إلى أمر خفي كما في هذا المثال.

مسألة: أثر ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا - الذي أورده المؤلف - في الآية، قال: «الْأَنْدَادُ: هُوَ الشِّرْكُ، أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ عَلَى صَفَاةٍ سَوْدَاءَ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ،

وَهُوَ أَنْ تَقُولَ: وَاللَّهِ، وَحَيَاتِكَ يَا فُلَانُ، وَحَيَاتِي، وَتَقُولَ: لَوْلَا كُلَيْبَةُ هَذَا؛ لَأَتَانَا اللُّصُوصُ، وَلَوْلَا الْبَطُّ فِي الدَّارِ؛ لَأَتَى اللُّصُوصُ»(١).

قد يرِد فيه إشكال؛ لأن الكلب والبط كليهما سبب صحيح، وقد قررنا في التقسيم السابق: أن إضافة النعمة إلى غير الله على وجه الإفراد إذا كان السبب صحيحا شرعا أو حسًّا، فهو جائز. فما الجواب عنه؟

الجواب: أن حديث الرسول ﷺ: «**لَوْلا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**»(٢) ثابت في الصحيحين، وهو مقدَّم. وأُجيبَ عن أثر ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بأجوبة منها:

أولا: ضعف هذا الأثر.

ثانيا: أنه محمول على التعلق بهذا السبب دون المسبب وهو الله – تعالى –.

ثالثا: أن هذا من باب سد الذرائع المُفضِية إلى الشرك، وكانوا يُشَدِّدُون في الوسائل والذرائع التي تُفضي إلى الشرك.

- **المسألة الثانية: وجه اعتبار إضافة النعم إلى غير الله – تعالى – شركا:**

يظهر ذلك من وجهين:

أولا: إضافة النعمة، التي أنعم بها الخالق، إلى المخلوق على أنه الفاعل المنعم، هذا شرك في الربوبية.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

ثانيا: ترك القيام بالشكر الذي هو عبادة من العبادات، مناف لتوحيد الألوهية.

المطلب الثاني: الاستسقاء بالأنواء:

وسبق الكلام عليه في باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء.

المطلب الثالث: سب الدهر. وفيه مسائل:

- **المسألة الأولى: معناه:**

السَّبُّ: الشتم، والتقبيح، والذم، وما أشبه ذلك[1].

والدَّهر: هو الزمان والوقت، وبعضهم خصه بالزمان الطويل[2].

وسب الدهر شائع في الشعر قديما وحديثا:

قال زهير بن أبي سُلمى - وبعضهم نسبه إلى الأعشى -:

فاسْتأثَرَ الدهرُ الغداةَ بِهِم
والدَّهرُ يَرْمِيني ولا أرْمِي

يا دهرُ قد أكثرتَ فَجْعَتَنا
بسَرَاتنا ووَقَرتَ في العَظْمِ

وسَلَبْتَنا ما لستَ مُعْقِبَنا
يا دهرُ ما أنصَفْتَ في الحُكْمِ[1]

---

(١) ينظر: مادة «سبب» في «الصحاح» (١/ ١١٤)، و«لسان العرب» (١/ ٤٥٥).

(٢) ينظر: مادة «دهر» في «الصحاح» (٢/ ٦٦١)، و«لسان العرب» (٤/ ٢٩٢).

- **المسألة الثانية: أقسام سب الدهر(٢):**

القسم الأول: أن يسُب الدهر على أنه هو الفاعل المدبِّر، فيعتقد أن الدهر هو الذي يقلب الأمور بين الخير والشر، فهذا شرك أكبر في الربوبية؛ لأنه اعتقد أن مع الله خالقا، وكل من اعتقد أن مع الله خالقا، فهو كافر. كما أن من اعتقد أن مع الله إلٰها يستحق أن يُعبد، فإنه كافر.

وهذا اعتقاد أهل الجاهلية، كما في الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ: كانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ: إِنَّمَا يُهْلِكُنَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَهُوَ الَّذِي يُهْلِكُنَا وَيُمِيتُنَا وَيُحْيِينَا، فَقَالَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ: ﴿**وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ**﴾ [الجاثية: ٢٤]، قَالَ: فَيَسُبُّونَ الدَّهْرَ، فَقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «**يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الْأَمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**»(٣).

---

(١) ينظر: «التذكرة الحمدونية» (٤/ ٢٢١، و٥٥٤).

(٢) مستفاد من «القول المفيد» (٢/ ٢٤٠).

(٣) أخرجه – بهذا اللفظ – الطبري في تفسيره (٢١/٩٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعا. وأخرجه ابن حبان في صحيحه (٥٧١٥)، والحاكم في «المستدرك» (٣٦٩٠)، وجعلا أوله موقوفا على سفيان بن عيينة. وقال الحاكم: «قد اتفق الشيخان على إخراج حديث الزهري هذا بغير هذه السياقة، وهو صحيح على شرطهما، وجعلا الكلام السابق

القسم الثاني: أن يسُبَّ الدهر؛ لأنه محل لهذا الأمر المكروه عنده، مع اعتقاده أنَّ الله هو الفاعل!.

وهذا محرم، لكنه لا يصل إلى درجة الشرك، وهو من السَّفَه في العقل والضلال في الدين؛ لأن حقيقة سبِّه تعود إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأن الله - تعالى - هو الذي يصرِّف الدهر، ويخلق فيه ما أراد من خير أو شر. لكنَّ هذا السبَّ لا يُكَفِّر؛ لأنه لم يسب الله - تعالى - مباشرة.

ومثاله: أن تحدث لإنسان حادثة، فيقول: لعن الله اليوم الذي خرجت فيه إلى كذا، أو تقع بينه وبين أحد مشكلة، فيقول: لعن الله اليوم الذي رأيته فيه.

القسم الثالث: أن يقصد الخبر المحض دون السب واللوم. وهذا جائز.

ومثاله أن يقول: تعبنا من شدة حر هذا اليوم أو بردِه، وما أشبه ذلك، ومثل هذا اللفظ صالح لمجرد الخبر، ومنه قول لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿**هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ**﴾ [هود: ٧٧]، وقول يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿**ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ**﴾ [يوسف: ٤٨].

- **المسألة الثالثة: فوائد من أحاديث الباب:**

لـ«**يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ**» من كلام سفيان بن عيينة»، وصحح الألباني رواية ابن حبان والحاكم، كما في «التعليقات الحسان». **وأصل الحديث متفق عليه، كما تقدَّم.**

عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**قَالَ اللَّهُ – تَعَالَى -: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ؛ يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**»[1].

وفي لفظ لمسلم: قال الله – عز وجل -: «**يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ؛ يَقُولُ: يَا خَيْبَةَ الدَّهْرِ. فَلَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: يَا خَيْبَةَ الدَّهْرِ؛ فَإِنِّي أَنَا الدَّهْرُ، أُقَلِّبُ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ، فَإِذَا شِئْتُ قَبَضْتُهُمَا**»[2].

- **الفائدة الأولى: هل الدهر من أسماء الله – تعالى -؟**

الجواب: لا.

وقوله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: «**وَأَنَا الدَّهْرُ**»: فيه محذوف تقديره: وأنا مُقَلِّب الدهر؛ لأنه فسَّره بقوله: «**أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**»، والليل والنهار هما الدهر، وهما مخلوقان، والله – عز وجلَّ – هو الخالق. فلا يمكن عقلا أن يكون الخالق هو المخلوق، والمقلِّب (الله)، والمقلَّب (الليل والنهار)، وبهذا عُرِف خطأ من قال: إن الدهر من أسماء الله، كابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

- **الفائدة الثانية: هل يملك المخلوق أن يؤذي الله – تعالى -؟**

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٤٦).

الأذية ثابتة في القرآن، قال تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا**﴾ [الأحزاب:٥٧]، وهنا قال تعالى: «**يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ**». وهذا ليس فيه نقص؛ إذ النقص في حصول الضرر، وهو منتف عن الله - تعالى -، ولا يلزم من الأذية الضرر.

وقد نفى الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عن نفسه أن يضره شيء، قال تعالى: ﴿**إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا**﴾ [آل عمران: ١٧٦]، وفي الحديث القدسي: «**يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي**»(١).

- **الفائدة الثالثة: الجمع بين حديث الباب، وحديث «الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ»؟**

عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا: ذِكْرَ اللَّهِ وَمَا وَالَاهُ، وَعَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ**»(٢).

وأجيب عنه بأجوبة؛ منها:

أولا: تضعيف الحديث. واعتُرِض عليه بأنَّ للحديث طرقا وشواهد تقويه، وممن حسَّنه من المتأخرين الشيخ الألباني رَحِمَهُٱللَّهُ.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ.

(٢) **حسن**: أخرجه الترمذي (٢٣٢٢) وقال: حسن غريب، وابن ماجه (٤١١٢)، وحسنه الألباني.

ثانيا: أن لعن الدنيا في الحديث يُراد به الخبر والذم، لا اللَّعن بمعنى السب والشتم. فهو خبر وتزهيد في الدنيا، وأنه لا خير فيها إلا ذكر الله وما والاه، أو عالم ومتعلم.

ooo

المبحث الثاني: الحلف بغير الله - تعالى -:

المطلب الأول: تعريف الحلف واليمين:

اليمين والحلف والقَسَم بمعنى واحد[(١)]. وسمي الحلف يمينا؛ لأن المتحالفين يضرب كل منهما يمين صاحبه.

اصطلاحا: تأكيد الشيء بذكر مُعَظَّم بصيغة مخصوصة.

والحلف ينطوي على معنى التعظيم، وهذا لا يليق إلا بالخالق؛ ولذا نهي عن إنشائه لغير الله - تعالى -.

المطلب الثاني: آداب الحلف:

الأدب الأول: حفظ اليمين:

يُشرع للعبد أن يحفظ يمينه، وأن لا يُكثر منها ما لم تكن هناك مصلحة شرعية؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]، فهذا أمرٌ من الله لعباده أن يحفظوا أيمانهم، وحفظ اليمين يتضمن ثلاثة أمور:

---

(١) ينظر: مادة «يمن» من «الصحاح» (٦/ ٢٢٢١)، ومادة «حلف» (٤/ ١٣٤٦).

١- **حفظها ابتداء:** بمعنى أن لا يُكثر من الحلف، ولا يعقد اليمين على كل صغير وكبير.

٢- **حفظها بعد وقوعها:** وهذا بعدم الحنث فيها، إلا إذا كان الحنث مشروعا.

فإذا حلفت على شيء فعظِّم اليمين واحفظها، وهذا من تعظيم المحلوف به وهو الله – تعالى –، وبعض الناس يستهين باليمين، فتجده يعقد اليمين (والله لا أفعل كذا) ثم ينقضها من الغد، ويقول: المسألة سهلة، كفارة يمين بمئة ريال، هذا ليس من حفظ اليمين، ولا يتناسب مع تعظيم الله الذي تعقِد اليمين به وتحلِف به.

٣- **حفظها انتهاء:** وهذا بالتكفير عند الحنث، فإذا حلفت بالله وعقدت اليمين ثم حصل الحنث؛ فاحفظ هذه اليمين بالتكفير عنها.

قال الله – تعالى –: ﴿**وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ**﴾ [البقرة: ٢٢٤].

وهذه المسألة لها تعلُّق بالتوحيد كما سيأتي في «باب ما جاء في كثرة الحلف»، ومناسبة الباب لكتاب التوحيد أن كثرة الحلف بالله – حتى وإن كان الحلف بالله لا بغيره – يدُلُّ على ضعف التعظيم؛ لأن من عظَّم الله، وقام في قلبه هيبةٌ وإجلال وتعظيم لهذا المحلوف به؛ هاب أن يتجرأ ويتقحَّم كثرة الحلف به،

فلهذا كان من علامات قوة التوحيد عدم الإكثار من الحلف؛ لأن عدم الإكثار يدل على تعظيم المحلوف به، وكثرة الحلف على كل صغيرة وكبيرة يدل على ضعف هذا التعظيم، وتعظيم الله من تمام التوحيد، فكلما عظُمَ قدر الخالق والرب في القلب، دل على تمام التوحيد وكماله.

وجاء في حديث سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النَّبي ﷺ قال: «**ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: أُشَيْمِطٌ زَانٍ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ، وَرَجُلٌ جَعَلَ اللَّهَ لَهُ بِضَاعَةً؛ فَلَا يَبِيعُ إِلَّا بِيَمِينِهِ وَلَا يَشْتَرِي إِلَّا بِيَمِينِهِ**»[(١)].

تضَمَّن هذا الحديث الوعيد الشديد على هؤلاء الثلاثة، ومنهم رجل جعل اليمين بالله بضاعته، ما يبيع ولا يشتري إلا بهذا الحلف، في كل سلعة وفي كل أمر يحلف، ويعقد هذه الأيمان بالله - جل وعلا -.

ومن جعل اللهَ بضاعته وأكثر الحلف به؛ فالغالب أنه يقع في الكذب.

وأيضا، جاء في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ**»[(١)]، أي: يتعجَّلون في اليمين وفي الشهادة.

---

(١) سيأتي تخريجه.

(١) سيأتي تخريجه.

والنَّبي ﷺ حُفِظ عنه اليمين في مواضع كثيرة، وقد أمر الله - تعالى - نبِيَّه بالحلف في ثلاثة مواضع:

الأول: قوله تعالى: ﴿**وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي**﴾ [يونس: ٥٣].

الثاني: قوله سبحانه: ﴿**قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ**﴾ [سبأ: ٣].

الثالث: قوله تعالى: ﴿**قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ**﴾ [التغابن: ٧].

كل هذا قسَم على وقوع البعث.

الأدب الثاني: الرضا لمن حُلِف له بالله:

وهذا الأدب عقد له الشيخ بابا فقال: «باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحَلِفِ بالله»، وساق فيه حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النَّبي ﷺ قال: «**مَنْ حَلَفَ بِاللَّهِ فَلْيَصْدُقْ، وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللَّهِ فَلْيَرْضَ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ**»(١).

معنى ذلك أن الإنسان إذا حُلف له بالله فلْيرضَ، لكن هذا ليس على إطلاقه، بل الأمر يتنزل على قسمين:

القسم الأول: أن يعلم المحلوف له، أو يترجَّح عنده صِدقَ الحالف، أو يتساوى الأمران.

فهذه ثلاث صور إذا حلف عندك أحد:

---

(١) تقدم تخريجه.

الأولى: أن تعلم – أي تتيقن – أنه صادق.

الثانية: أن يغلب على ظنك صدقه.

الثالثة: أن يتساوى الأمران.

ففي هذه الصور الثلاث يجب الرضا بيمينه؛ للحديث السابق.

ومناسبة هذا الباب «باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله» لكتاب التوحيد، أن من لم يقتنع بالحَلِفِ بالله؛ فهذا يدل على قِلَّة تعظيمه لجناب الرب سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ؛ لأن القلب الذي امتلأ معرفة بالله وتعظيما وتوحيدا له؛ لا يقوم فيه هذا الوارد. فمن كمال التوحيد وتمامه أن تقنع لمن حلف لك بالله.

القسم الثاني: أن يعلم المحلوف له، أو يترجح عنده، كذب الحالف:

فهنا لا يجب الرِّضا بيمينه في هاتين الصورتين: إذا علم أن هذا الحالف كاذب، أو غلب على ظنه بقرائن، فهنا لا يجب تصديقه.

المطلب الثالث: الحلف المشروع:

الحلف المشروع: أن يحلف المخلوق بالخالق، باسم من أسمائه، أو صفة من صفاته.

أولا: الحلف بأسماء الله – تعالى –:

أسماء الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ تعالى نوعان:

١- ما يختص بالله - تعالى -: كالله، والرحمن. فالحلف به يمين شرعية بكل حال.

٢- ما لا يختص بالله - تعالى -: كالملك، والعزيز، والكريم.

فأنت تقول: «أخي الكريم»، و«جاري العزيز»، و«أمَر الملك بكذا»، فهذه الأسماء إن أراد بها الله - تعالى - أو أطلق فهي يمين شرعية، وإن نوى غير الله فهي غير شرعية، كمن قال: «والملك لأفعلن كذا»، يقصدُ بالملك ملك البلاد.

ثانيا: الحلف بصفات الله - تعالى -:

يجوز الحلف بصفات الله - تعالى - سواء كانت صفات ذاتية أو فعلية.

الصفات الذاتية: هي التي لم يزل ولا يزال متصفا بها؛ كالعلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والحياة.

الصفات الفعلية: هي التي تتعلق بمشيئة الله - تعالى -؛ كالاستواء، والغضب، والمجيء، ونحوها.

وقد ورد ذلك في بعض الأحاديث؛ ومنها:

عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: أكثر ما كان النبي ﷺ يحلف: «**لا، وَمُقَلِّبِ القُلُوبِ**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٦١٧) وفي مواضع أخرى.

وقولُه ﷺ في الحديث الطويل في مشاهد يوم القيامة: «... **ثُمَّ يَفْرُغُ اللَّهُ مِنَ القَضَاءِ بَيْنَ العِبَادِ، وَيَبْقَى رَجُلٌ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَهُوَ آخِرُ أَهْلِ النَّارِ دُخُولًا الجَنَّةَ، مُقْبِلٌ بِوَجْهِهِ قِبَلَ النَّارِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، اصْرِفْ وَجْهِي عَنِ النَّارِ، قَدْ قَشَبَنِي رِيحُهَا وَأَحْرَقَنِي ذَكَاؤُهَا، فَيَقُولُ: هَلْ عَسَيْتَ إِنْ فُعِلَ ذَلِكَ بِكَ أَنْ تَسْأَلَ غَيْرَ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: لا وَعِزَّتِكَ** ...»[(١)].

المطلب الرابع: الحلف الممنوع:

وهو الحلف بغير الله؛ بغير اسم من أسمائه، أو صفة من صفاته.

وحكمه: أنه محرَّم. والأدلة على ذلك كثيرة؛ منها:

عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال: «**أَلا، إِنَّ اللَّهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ؛ فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ، وَإِلَّا فَلْيَصْمُتْ**»[(٢)].

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمِعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ**»[(١)].

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٨٠٦) وفي مواضع أخرى، ومسلم (١٨٢).

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٦١٠٨) وفي مواضع أخرى، ومسلم (١٦٤٦).

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٥) واللفظ له، وصححه الألباني.

الثالث: وعن قُتَيْلَةَ بنتِ صَيْفِيٍّ: «أَنَّ يَهُودِيًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: إِنَّكُمْ تُنَدِّدُونَ، وَإِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ، تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، وَتَقُولُونَ: وَالْكَعْبَةِ. فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا: وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، وَأَنْ يَقُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شِئْتَ»(١).

والشاهد على اعتبار الحلف بغير الله شركا: إقرار النبي ﷺ لقوله: «إِنَّكُمْ تُنَدِّدُونَ، وَإِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ».

عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «**لَأَنْ أَحْلِفَ بِاللَّهِ كَاذِبًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بِغَيْرِهِ صَادِقًا**»(٢).

وهذا من فقه الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ؛ لأن سيئة الشرك أعظم من سيئة المعصية ولو كانت كبيرة؛ فالحلف بغير الله شرك، والكذب في الحلف بالله يعتبر معصية، ومعصية الكذب أهون من معصية الشرك.

إشكال وجوابه:

إذا تقرر أن الحَلِف بغير الله شرك، فيرد هنا حديث طلحة بن عبيد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ ثَائِرَ الرَّأْسِ، يُسْمَعُ دَوِيُّ صَوْتِهِ وَلا يُفْقَهُ مَا يَقُولُ، حَتَّى دَنَا، فَإِذَا هُوَ يَسْأَلُ عَنِ الإِسْلامِ ...

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

الحديث الطويل، وفي آخر الحديث قال الرجل: وَاللَّهِ، لا أَزِيدُ عَلَى هَذَا وَلا أَنْقُصُ، فقال له النبي ﷺ: «**أَفْلَحَ وَأَبِيهِ إِنْ صَدَقَ**»[1].

ووجه الإشكال: أنه ﷺ قال: «**وَأَبِيهِ**»، وهذا قسَم بالأب، والأب مخلوق، وليست الواو عاطفة، بمعنى أفلح هو وأبوه؛ لأنها لو كانت عاطفة لقال: «أفلح وأبوه».

فما الجواب عن هذا؟

الجواب: أطال الشُّرّاح في هذا الموضع، وذكروا أجوبة بلغت السبعة أو تزيد، لكن أرْجَح الأقوال في الجواب عن هذا الحديث وأوضحها، وأسلمها من الاعتراض أن يقال: هذه اللفظة غير محفوظة، وهو ما قرَّره جماعة من المحدِّثين كالحافظ ابن عبد البر[1]، وقالوا إنها رواية شاذَّة غير محفوظة.

والأصل في الحَلِفِ بغير الله أنه شرك أصغر؛ لأنه من باب شرك الألفاظ، إلا إذا اعتقد الحالف أن المحلوف مساوٍ لله في التعظيم والقَدْر، فهنا يرتقي إلى

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١١)، بهذا اللفظ.

وأخرجه البخاري في صحيحه (٤٦) وفي مواضع أخرى، ومسلم (١١)، بلفظ: «**أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ**».

(١) «التمهيد» (١٤/ ٣٦٧).

درجة الشرك الأكبر، يعني إذا اعتقد أن هذا الذي حلف به كالله، مساوٍ لله، فصار هذا تنديدا يرفعه إلى درجة الشرك الأكبر.

أما إذا لم يعتقد هذا الاعتقاد، وإنما حلف به تعظيما فقط، فهذا شرك أصغر.

وقد ورد في بعض الأحاديث كفارة لمن وقع منه ذلك؛ لأن هذا مما يجري على الألسنة، خاصة في بعض البلاد؛ كالحلف بحياة شخص، وقولهم: «وحياتك»، و«والنَّبي». ومثل هذا الحلفُ بالأمانة بأحد حروف القسم(١)، لكن لو قال الإنسان لصاحبه الذي يتحدث إليه: أمانة، فهذا ليس بحَلِفٍ؛ إذ الحلف يكون بأحد حروف القسم.

الشاهد أن من وقع منه ذلك فيُشرع له كفارة، كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**مَنْ حَلَفَ، فَقَالَ فِي حَلِفِهِ: وَاللَّاتِ وَالعُزَّى، فَلْيَقُلْ: لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ**»(١).

وفي حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «حَلَفْتُ بِاللاتِ وَالْعُزَّى، فَقَالَ أَصْحَابِي: قَدْ قُلْتَ هُجْرًا، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقُلْتُ: إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ قَرِيبًا،

---

(١) وهذه الصورة قد ورد النهي عنها صريحا، كما في الحديث الذي أخرجه أبو داود (٣٢٥٣)، وأحمد (٢٢٩٨٠)، وصححه الألباني من حديث بُريدة الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «**مَنْ حَلَفَ بِالْأَمَانَةِ فَلَيْسَ مِنَّا**».

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٤٨٦٠) وفي مواضع أخرى، ومسلم (١٦٤٧).

وَإِنِّي حَلَفْتُ بِاللاتِ وَالْعُزَّى، فَقَالَ: رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قُلْ: لَا إِلَهَ إِلا اللهُ وَحْدَهُ ثَلاثًا، ثُمَّ انْفُثْ عَنْ يَسَارِكَ ثَلاثًا، وَتَعَوَّذْ وَلا تَعُدْ**»(١).

وقوله: «إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ قَرِيبًا»، أي: بالشرك، والجاهلية.

وقال الله – تعالى –: ﴿**إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ**﴾ [هود: ١١٤]، وقال ﷺ: «**وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا**»(٢)، فحسنة التوحيد تمحو سيئة الشرك.

○○○

المبحث الثالث: التشريك بين الله وشيء من خلقه بـ «الواو»:

وهذا المبحث متعلق بـ«باب قوله تعالى: ﴿**فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا**﴾ [البقرة: ٢٢]»، و«باب قول: ما شاء اللَّه وشئت».

والكلام على هذا المبحث في عدة مطالب:

• المطلب الأول: المراد بالتشريك بين الله وشيء من خلقه بـ «الواو»:

المراد أن يعطف المخلوق على الخالق بحرف العطف الواو؛ كأن يقول مثلا: «ما شاء الله وشئت، أو مالي إلا الله وأنت»، عطَفَ المخلوق على الخالق بحرف العطف الواو.

---

(١) **صحيح**: أخرجه النسائي (٣٧٧٦)، وابن ماجه (٢٠٩٧)، وأحمد (١٥٩٠) واللفظ له، وصححه الأرناؤوط.

(٢) **حسن**: أخرجه الترمذي (١٩٨٧)، وأحمد (٢١٣٥٤) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أو يقول: أرجو الله وأرجوك، أو هذا من بركات الله وبركاتك، ونحو ذلك من العبارات التي يكون فيها عطف المخلوق على الخالق بالواو.

- **المطلب الثاني: حُكم التشريك بين الله وشيء من خلقه بـ«الواو»:**

هذا التشريك محرم لا يجوز، وهو من باب الشرك الأصغر في الألفاظ، والدليل قوله تعالى: ﴿**فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ٢٢].

وجاء عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا - في تفسير الآية، كما ساقه الشيخ - قال: «الْأَنْدَادُ: هُوَ الشِّرْكُ ... وَقَوْلُ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ: لَوْلَا اللَّهُ وَفُلَانٌ. لَا تَجْعَلْ فِيهَا فُلَانًا، هَذَا كُلُّهُ بِهِ شِرْكٌ»(١).

وفي حديث الطُّفيل أن النَّبي ﷺ قال: «**لَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ، وَ شَاءَ مُحَمَّدٌ، وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ**»(١)، وأقر ﷺ اليهودِيَّ على قوله: «**إِنَّكُمْ تُنَدِّدُونَ، وَإِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ**»(٢).

فهذا كله يدل على تحريمه، وأنه من الشرك.

المطلب الثالث: مراتب التشريك بين الله وشيء من خلقه:

هذا القول له مراتب متدرجة:

---

(١) تقدم تخريجه.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

المرتبة الأولى: أن ينسب هذا الأمر لله وحده، كأن يقول: «ما شاء الله وحده»، و«هذا من الله وحده»، و«هذا من بركات الله وحده».

وهذه المرتبة أكمل في الإخلاص والتوحيد، وأبعد عن الشِّرك، وهي الأَولى والأفضل، وهي التي أرشد إليها النَّبي ﷺ حين قال لأصحابه: «**لَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ، وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ**»(١).

المرتبة الثانية: العطف بـ«ثم»، وهذه جائزة، وهي موافقة للحديث الثاني، فتقول: «ما شاء الله ثم شئت»، و«مالي إلا الله ثم أنت»، فهذا جائز.

المرتبة الثالثة: العطف بحرف العطف «الواو». وهذا شرك أصغر.

وإن كان يعتقد أن المعطوف مشارك لله على وجه الاستقلال والمساواة، فهنا يرتقي إلى درجة الشرك الأكبر.

فحينما يقول القائل: «ما شاء الله وشاء الأمير»، فإن كان يعتقد أن الله هو المدبر المتصرف المستقِلُّ، لكن عطف عليه الأمير بحرف العطف «الواو»، فهذا شرك أصغر، أما لو اعتقد القائل أن الأمير كالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، له مشيئة كمشيئة الله، وله تدبير كتدبير الله، فهنا يترقى الأمر إلى كونه شركا أكبر؛ لأنه اعتقد مع الله مدبِّرا ومتصرِّفا، فهذا يرقيه إلى درجة الشرك الأكبر في الربوبية.

---

(١) تقدم تخريجه.

المرتبة الرابعة: أن ينسب الفعل إلى المخلوق وحده، وهذا سبق في مبحث «نسبة النعم إلى غير الله - تعالى -».

مسألة:

إن قيل: لماذا فرقتم بين «الواو» و«ثُم» في الحكم، مع أن كليهما في اللغة العربية حرف عطف؟.

فالجواب: أن الواو تفيد مطلق الجمع، وهذا يوهم معنى فاسدا، وهو النِّدية والمشاركة، حين أقول: «الله وفلان»، أو «الله وكذا من المخلوقات»، فقد جعلته لله نِدًّا وشريكا، كما قال ﷺ: «**أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدًّا؟**»[1]، لمن قال له: ما شاء الله وشئت.

فالـ «واو» تقتضي المشاركة، وتقتضي التنديد، وتقتضي مطلق الجمع، بخلاف «ثم» التي تفيد الترتيب مع التراخي، فلهذا انتفى المعنى الفاسد.

المطلب الرابع: متى يصح العطف بالواو بين الله وبين أحد من خلقه؟

الجواب: يصح ذلك في الأمور الشرعية، كما لو قيل: ما الحكم الشرعي في كذا؟ فنقول: الله ورسوله أعلم.

---

(١) تقدم تخريجه.

وكما ورد في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [النساء: ١٣]، وفي الحديث: «**فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ**»(١)، عطف بالواو، وقول الأنصار: «**اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ**»(٢)، وغيرها مما هو متعلق بالأمور الشرعية.

أما في الأمور الكونية فلا يجوز، كما لو قيل: هل ينزل المطر غدا؟ فنقول: الله أعلم، ولا نقول: الله ورسوله أعلم؛ لأن الرسول لا يعلم هذا الأمر.

تنبيه:

انتشر بين بعض المسلمين تعليق لوحة كتب عليها (الله ... محمد)، تُعَلَّق في المنزل أو المكتب أو المحل أو غيرها. وهذا لا يجوز؛ لأنه يوهم الندية، وأن محمدا ﷺ في منزلة الله، وقد أنكر النبي ﷺ على من قال: ما شاء الله وشئت، فقال: «**أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدًّا؟**»(١)، كما أن فيه نوع غُلُو في مقام النبي ﷺ حيث رفعناه إلى هذا المقام، وقد قال ﷺ: «**لا تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ؛ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ؛ فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ، وَرَسُولُهُ**»(٢).

* * *

(١) تقدم تخريجه.

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٤٣٣٠) وفي مواضع أخري، ومسلم (١٠٦١)، من حديث عبد الله بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

٤٥- باب
التسمي بقاضي القضاة ونحوه

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِي ﷺ قَالَ: «**إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللَّهِ: رَجُلٌ تَسَمَّى مَلَكَ الْأَمْلَاكِ، لَا مَالِكَ إِلَّا اللَّهُ**»[١].

قَالَ سُفْيَانُ: مِثْلُ شَاهَانْ شَاهْ[٢].

وَفِي رِوَايَةٍ: «**أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَخْبَثُهُ**»[٣].

قَوْلُهُ: «أَخْنَعُ» يَعْنِي: أَوْضَعَ.

○○○

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٦٢٠٦)، ومسلم (٢١٤٣).

(٢) أخرجه البخاري، ومسلم في الموضعين السابقين.

(٣) أخرجها مسلم في صحيحه (٢١٤٣).

٤٦- باب احترام أسماء اللَّه - تعالى -، وتغيير الاسم لأجل ذلك

عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ أَنَّهُ كَانَ يُكَنَّى أَبَا الْحَكَمِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِي ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَكَمُ، وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ**». فَقَالَ: إِنَّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَتَوْنِي، فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ، فَرَضِي كِلَا الْفَرِيقَيْنِ. فَقَالَ: «**مَا أَحْسَنَ هَذَا! فَمَا لَكَ مِنَ الْوَلَدِ؟**» قُلْتُ: شُرَيْحٌ، وَمُسْلِمٌ، وَعَبْدُ اللَّهِ. قَالَ: «**فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟**» قُلْتُ: شُرَيْحٌ. قَال: «**فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ**»(١). رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ.

ooo

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٤٩٥٥)، والنسائي (٥٣٨٧)، وصححه الألباني.

٤٩- باب قول الله - تعالى -: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا...﴾ [الأعراف: ١٩٠] الآيَةَ.

قَالَ ابْنُ حَزْمٍ: «اتَّفَقُوا عَلَى تَحْرِيمِ كُلِّ اسْمٍ مُعَبَّدٍ لِغَيْرِ اللَّهِ؛ كَعَبْدِ عَمْرٍو وَعَبْدِ الْكَعْبَةِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، حَاشَا عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»(١).

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - فِي الآيَةِ - قَالَ: «لَمَّا تَغَشَّاهَا آدَمُ حَمَلَتْ، فَأَتَاهُمَا إِبْلِيسُ، فَقَالَ: إِنِّي صَاحِبُكُمَا الَّذِي أَخْرَجْتُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ، لَتُطِيعُنِّي أَوْ لَأَجْعَلَنَّ لَهُ قَرْنَيْ إِيِّلٍ، فَيَخْرُجُ مِنْ بَطْنِكَ، فَيَشُقُّهُ، وَلَأَفْعَلَنَّ وَلَأَفْعَلَنَّ، يُخَوِّفُهُمَا! سَمِّيَاهُ عَبْدَ الْحَارِثِ، فَأَبَيَا أَنْ يُطِيعَاهُ، فَخَرَجَ مَيِّتًا!

ثُمَّ حَمَلَتْ، فَأَتَاهُمَا، فَقَالَ مِثْلَ قَوْلِهِ، فَأَبَيَا أَنْ يُطِيعَاهُ، فَخَرَجَ مَيِّتًا!

ثُمَّ حَمَلَتْ، فَأَتَاهُمَا، فَذَكَرَ لَهُمَا، فَأَدْرَكَهُمَا حُبُّ الْوَلَدِ، فَسَمَّيَاهُ عَبْدَ الْحَارِثِ؛ فَذَلِكَ قَوْلُهُ - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ [الأعراف: ١٩٠]». رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ(٢).

---

(١) «مراتب الإجماع» ص ١٥٤.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٨٦٥٤)، والطبري (١٠/ ٦٢٤)، وفي سنده ضعف.

وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: «شُرَكَاءُ فِي طَاعَتِهِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي عِبَادَتِهِ»[1].

وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ قَالَ: أَشْفَقَا أَلَّا يَكُونَ إِنْسَانًا، وَذَكَرَ مَعْنَاهُ عَنِ الْحَسَنِ وَسَعِيدٍ وَغَيْرِهِمَا[2].

ooo

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٨٦٥٩).

(٢) السابق (٨٦٤٨، و٨٦٥٠، و٨٦٥١).

٥٠- باب قول الله - تعالى -: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعراف: ١٨٠] الآيَةَ.

ذَكَرَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «﴿يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، يُشْرِكُونَ»(١).

وَعَنْهُ: «سَمَّوا اللَّاتَ مِنَ الْإِلَهِ، وَالْعُزَّى مِنَ الْعَزِيزِ»(٢).

وَعَنِ الْأَعْمَشِ: «يُدْخِلُونَ فِيهَا مَا لَيْسَ مِنْهَا»(٣).

ooo

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن قتادة (٨٥٨٦)، وليس عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

(٢) السابق (٨٥٨٤)، ولفظه: «إلحاد الملحدين أن دعَوا اللات والعُزى في أسماء الله - عز وجل -».

(٣) السابق (٨٥٨٧).

٥١- باب
لا يقال: السلام على الله

فِي الصَّحِيحِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا إِذَا كُنَّا مَعَ النَّبِي ﷺ فِي الصَّلَاةِ، قُلْنَا: السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ مِنْ عِبَادِهِ، السَّلَام عَلَى فُلَانٍ. فَقَالَ النَّبِي ﷺ: «**لَا تَقُولُوا السَّلَام عَلَى اللَّهِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلَامُ**»(١).

ooo

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٨٣٥)، ومسلم (٤٠٢).

٥٣- باب
لا يقول عبدي وأمتي

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: أَطْعِمْ رَبَّكَ، وَضِّئْ رَبَّكَ، وَلْيَقُلْ: سَيِّدِي وَمَوْلَايَ. وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي وَأَمَتِي، وَلْيَقُلْ: فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلَامِي**»(١).

ooo

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٢٥٥٢)، ومسلم (٢٢٤٩).

٥٤- باب
لا يُرَد من سأل بالله

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنِ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ فَأَعِيذُوهُ، وَمَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ فَأَعْطُوهُ، وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ، وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُوهُ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ**»(١). رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

ooo

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود (١٦٧٢و٥١٠٩)، والنسائي (٢٥٦٧)، وصححه الألباني.

٥٥- باب
لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة

عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللَّهِ إِلَّا الْجَنَّةُ»(١). رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.

○○○

---

(١) **ضعيف**: أخرجه أبو داود (١٦٧١)، والبيهقي في «الكبرى» (٧٨٨٩)، وضعفه الألباني والأرناؤوط.

لكن جاء في «مجموع فتاوى العلامة الألباني» ص٢٣٤: «النظر الصحيح يشهد له». وقال الشيخ ابن عثيمين في «شرح رياض الصالحين» (٦/ ٤٦٥): «هذا الحديث إسناده ضعيف، ولكن معناه صحيح». وخلص الشيخ فريح البهلال في «تخريج أحاديث منتقدة»؛ إلى أن سنده حسن، وينظر بحثه على الرابط:

http://afaqattaiseer.net/vb/showthread.php?t=١٥٠#.VS_LZNysXj٤

الشرح:

ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الأبواب الثمانية آيتين وستة أحاديث وثمانية آثار، وقد تخلَّلَها أبوابٌ أخرى لكنها لا تدخل معها في نفس الموضوع، وسيأتي شرحها بعد ذلك، إن شاء الله – تعالى –. ولأنَّ هذه الأبواب الثمانية تشترك في وحدة موضوعية، سنسوقها جميعا، وسيكون الكلام عليها في الفصلين التاليين.

* * *

الفصل الأول: مقصود الأبواب، وموضوعها العام

الدعاء هو العبادة، ودعاء الله يكون بأسمائه الحسنى، وهذه الأسماء الحسنى يجب تعظيمها واحترامُها، والحذر من الإلحاد فيها، أو مما يُخِل بحرمتها، وأنَّ من تمام التوحيد وكماله مراعاة ألفاظ الأسماء في هذا الباب.

فهذه الأبواب الثمانية تشيرُ إلى قضية أسماء الله – تعالى – وتعظيمها.

ooo

الفصل الثاني: المباحث الموضوعية

المبحث الأول: دعاء الله - تعالى - بأسمائه الحسنى، والحذر من الإلحاد فيها:

عقد المؤلف لذلك بابا، فقال: باب قول الله - تعالى -: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾[الأعراف: ١٨٠] الآية.

والكلام على هذا المبحث في مطلبين:

المطلب الأول: تأصيل في أسماء الله الحسنى:

أولا: من القواعد المقررة في أسماء الله - تعالى -: أن أسماء الله - تعالى - كلها حسنى، أي: بالغة في الحسن غايته. قال الله - تعالى -: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، وذلك لأنها متضمنة لصفات كاملة لا نقص فيها بوجه من الوجوه.

ثانيا: الدعاء بالأسماء الحسنى له مرتبتان:

الأولى: دعاء ثناء وعبادة.

الثانية: دعاء طلب ومسألة.

فلا يُثنى عليه إلا بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وكذلك لا يُسأل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلا بها، فلا يقال: يا موجود! أو يا شيء! أو يا ذات! اغفر لي وارحمني، بل يُسأل في كل مطلوب باسم يكون مقتضيا لذلك المطلوب، فيكون

السائل متوسلا إليه بذلك الاسم، ومن تأمَّل أدعية الرسل - ولا سيما خاتمهم وإمامهم ﷺ - وجدها مطابقة لهذا.

ودعاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأسمائه الحسنى مرتبة من مراتب إحصائها الواردة في قوله ﷺ: «**إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِئَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ**»(١).

فإحصاؤها ثلاث مراتب:

الأولى: إحصاء ألفاظها وعددها.

والثانية: فهم معانيها ومدلولها.

والثالثة: الدعاء بها دعاء عبادة ومسألة، والتعبد بها، بمعنى: أن العبد إذا علم أن ربه رحيم تعرض لرحمته، وإذا علم أنه غفور تعرض لمغفرته، وإذا علم أنه سميع اتقى القول الذي يغضبه. وإذا علم أنَّ من أسمائه البصيرَ، وأن الله يبصر كل شيء، فإن هذا العلم يورِثُ للمرءِ أن يتقِي أنْ يراه الله - عزَّ وجلَّ - على ما لا يرضيه، فلا يقع في معصية؛ لأن الله يراه، وبالتالي يسعى في الأمور التي تُرضِي الله وتقرِّبُه منه، بأن يراهُ ربُّه طائعا، عابدا، ساجدا، ذاكرا وهكذا.

هذه ثمرات العلم بالأسماء الحسنى ليست مجرد ترف علمي، وزيادة معلومات ومحفوظات، كلا، وإنما هذا العلم مما ينبغي أن يُنقشَ في سويداء

---

(١) تقدم تخريجه.

القلب، وأن ينقلب ذلك أثرا على السلوك؛ لأن ثمرة العلم هي الخشية، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

المطلب الثاني: الإلحاد في أسماء الله - تعالى -:

الإلحاد في أسماء الله – تعالى – هو الميل بها عما يجب فيها.

وهو أنواع:

الأول: أن ينكر شيئا منها أو مما دلت عليه من الصفات والأحكام، كما فعل أهل التعطيل من الجهمية وغيرُهم. وإنما كان ذلك إلحادا؛ لوجوب الإيمان بها وبما دلت عليه من الأحكام والصفات اللائقة بالله، فإنكار شيء من ذلك ميل بها عما يجب فيها.

الثاني: أن يجعلها دالة على صفات تشابه صفات المخلوقين، كما فعل أهل التشبيه، فيقول: «يدُ اللهِ كيدِ المخلوق»، أو «غضب الله كغضب فلان»، وذلك لأن التشبيه معنى باطل لا يمكن أن تدل عليه النصوص، بل هي دالة على بُطلانه، فجَعْلُها دالةً عليه ميلٌ بها عما يجب فيها.

الثالث: أن يسمَّى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بما لم يسمِّ به نفسه، كتسمية النصارى له: «الأب»، وتسمية الفلاسفة إياه «العلة الفاعلة»، وذلك لأن أسماء الله – تعالى – توقيفية، فتسمية الله – تعالى – بما لم يسمِّ به نفسَه ميلٌ بها عما يجب فيها، كما أن هذه الأسماء التي سمَّوه بها باطلة، ينزه الله – تعالى – عنها.

الرابع: أن يشتق من أسمائه أسماء للأصنام، كما فعل المشركون في اشتقاق العُزَّى من العزيز، واشتقاق اللات من الإله على أحد القولين، فسمَّوا بها أصنامهم؛ وذلك لأن أسماء الله - تعالى- مختصة به، لقوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا**﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقوله: ﴿**ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ**﴾ [طه: ٨]، فكما اختص بالعبادة وبالألوهية الحقة، فهو مختص بالأسماء الحسنى، فتسمية غيره بها على الوجه الذي يختص بالله - عز وجل - ميل بها عما يجب فيها.

والإلحاد بجميع أنواعه محرم؛ لأن الله - تعالى - هَدَّدَ الملحدين بقوله: ﴿**وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ**﴾ [الأعراف: ١٨٠]. ومنه ما يكون شركا أو كفرا حسبما تقتضيه الأدلة الشرعية[١].

ooo

المبحث الثاني: تعظيم أسماء الله - تعالى -، والحذر مما يخل بحرمتها:

وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: النهي عن الأسماء التي فيها تعظيم لا يليق إلا بالله - تعالى -:

وعقد المؤلف في تقرير ذلك «باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه»، وأورد فيه قوله ﷺ: «**إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللَّهِ رَجُلٌ تَسَمَّى مَلَكَ الْأَمْلَاكِ؛ لَا مَالِكَ إِلَّا اللَّهَ**»[١].

---

(١) ينظر: «القواعد المثلى» ص ١٧.

ويدل هذا الحديث على المنع من التَّلَقُّب بمثل هذه الألقاب: ملك الملوك، قاضي القضاة، سلطان السلاطين، ونحوها من العبارات التي تتضمن تعظيما لا يناسب المخلوق مهما بلغ، وإنما لا يليق إلا بالله - تعالى -.

وقوله في اللفظ الآخر: «**أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَخْبَثُهُ**»(٢)، هذا فيه التغليظ والوعيد على هذا الفعل، والغيظ أشد الغضب، واتفق أهل العلم على تحريم التلقب بملك الملوك.

ويلحق به ما كان في معناه، كما ذكر سفيان: «شاهان شاه»، هذه باللغة الفارسية.

وقد تضمن الحديثُ التحذيرَ، وبيَّن العلة في قوله: «**لَا مَالِكَ إِلَّا اللَّهَ**»، فالتسمية بهذا الاسم فيه مضاهاة لعظمةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وجلالِه وكبريائِه، ولهذا ورد النهي حاسما، والزَّجْر شديدا في هذا، وهذا عند الإطلاق، أما عند التقييد فلا بأس، كما ذكر العلماء، كما لو قال: قاضي قضاة الشام، أو قاضي قضاة اليمن، أو نحو ذلك فهذا مقيَّد، لكن تركُهُ أولى أيضا؛ لأنه قد يورث العُجب والغرور.

المطلب الثاني: النهي عن التسمي بالأسماء التي سمى الله - تعالى - بها نفسه:

وساق الشيخ في هذا «باب احترام أسماء الله - تعالى - وتغيير الاسم لأجل ذلك»، وذكر فيه حديث أبي شريح: أَنَّهُ كَانَ يُكَنَّى أَبَا الْحَكَمِ، فَقَالَ لَهُ النَّبي

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَكَمُ، وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ**». فَقَالَ: إِنَّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَتَوْنِي، فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ، فَرَضِي كِلَا الْفَرِيقَيْنِ. فقَالَ: «**مَا أَحْسَنَ هَذَا! فَمَا لَكَ مِنَ الْوَلَدِ؟**» قُلْتُ: شُرَيْحٌ، وَمُسْلِمٌ، وَعَبْدُ اللَّهِ. قَالَ: «**فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟**» قُلْتُ: شُرَيْحٌ. قَال: «**فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ**»(١).

وهذا من باب الأدب والتعظيم لأسماء الله – تعالى –.

حكم تسمية المخلوق بأسماء الله – تعالى –:

هذه المسألة لها صور:

الصورة الأولى: ما يختص بالله – تعالى – من الأسماء، فلا يجوز أن يُسمى المخلوق بها باتفاق أهل العلم؛ كالله والرحمن والخالق، والقيوم؛ لأن القيوم هو المستغني بنفسه عن غيره، المفتقر إليه كل ما سواه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومما يُمنع تسمية الإنسان به: أسماء الرب تبارك وتعالى، فلا يجوز التسمية بالأحد، والصمد، ولا بالخالق، ولا بالرازق، وكذلك سائر الأسماء المختصة بالرب – تبارك وتعالى –، ولا تجوز تسمية الملوك بالقاهر، والظاهر، كما لا يجوز تسميتهم بالجبار، والمتكبر، والأول، والآخر، والباطن، وعلام الغيوب»(١).

---

(١) تقدم تخريجه.

(١) «تحفة المودود» ص ١٢٥.

الصورة الثانية: إذا قصد بالاسم معنى الصفة فإنه لا يجوز أن يُسمَّى به العبد، سواء كان محلًّى بـ«أل» أو غير محلًّى بها. ويدل على ذلك حديث الباب؛ فإنه يلاحظ فيه معنى المشابهة لأسماء الله – تعالى –.

الصورة الثالثة: إذا لم يكن مما سبق – غير مختص بالله، ولم يلحظ فيه معنى الصفة –، بل قصد العلمية فقط. فهذا له حالان:

الحال الأولى: أن يُسمَّى المخلوق به غير محلى بـ«أل»: فهو جائز، مثل حكيم ورحيم.

الحال الثانية: أن يسمَّى المخلوق به محلى بـ«أل»؛ مثل: العزيز، والكريم، والرحيم: ففي جواز التسمية به قولان:

الأول: عدم الجواز:

لقوله ﷺ في الحديث: «**إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَكَمُ**»، وهذا يفيد الاختصاص؛ لتعريف الخبر والإتيان بضمير الفصل، وهذه من صيغ الحصر. ويلحق به بقية الأسماء الحسنى.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يجوز لأحد أن يتسمى بأسماء الله المختصة به، وأما الأسماء التي تطلق عليه وعلى غيره – كالسميع والبصير والرؤوف

والرحيم - فيجوز أن يخبر بمعانيها عن المخلوق، ولا يجوز أن يتسمى بها على الإطلاق؛ بحيث يطلق عليه كما يطلق على الرب - تعالى -»[1].

فيجوز وصف المخلوق والإخبار عنه بذلك، كما تقول: «أخي العزيز»، و«جاري الكريم»، و«هذا الكائن الحي»، والحي من أسماء الله - تعالى -، دون التسمية على الإطلاق.

وهذا القول أظهر وأحوط.

الثاني: الجواز:

جاء في فتاوى اللجنة: «ما كان من أسماء الله - تعالى - علم شخص، كلفظ «الله»، امتنع تسمية غير الله به ... أما ما كان له معنى كُلي تتفاوت فيه أفراده من الأسماء والصفات، كالملك، والعزيز، والجبار، والمتكبر، **فيجوز تسمية غيره بها** فقد سمى الله نفسه بهذه الأسماء، وسمَّى بعض عباده بها، مثال: ﴿**وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ**﴾ [يوسف:٣٠] وقال: ﴿**كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ**﴾ [غافر: ٣٥] إلى أمثال ذلك، ولا يلزم التماثل، لاختصاص كل مسمى بسمات تميزه عن غيره»[1].

---

(١) «تحفة المودود» ص ١٢٥.

(١) «فتاوى اللجنة الدائمة» (٢/ ٣٦٩).

وجاء في مجموع فتاوى الشيخ ابن عثيمين: «سئل: عن حكم التسمِّي بأسماء الله – تعالى – مثل الرحيم والحكيم؟

فأجاب بقوله: يجوز أن يسمي الإنسان بهذه الأسماء بشرط ألا يلاحظ فيها المعنى الذي اشتُقَّت منه، بأن تكون مجرد عَلَم فقط، ومن أسماء الصحابة الحكَم، وحكيم بن حزام، وكذلك اشتهر بين الناس اسم عادل وليس بمنكَر، أما إذا لوحظ فيه المعنى الذي اشتقت منه هذه الأسماء، فإن الظاهر أنه لا يجوز؛ لأن النبي ﷺ غيَّر اسم أبي الحكم الذي تكنَّى به ...»[(١)].

ويجاب عما ذُكِر:

أولا: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾، فالعزيز بلغتهم الملك، فقد كان هذا لقبا ولم يكن اسما، ويذكر أن اسمه «قطفير»[(٢)].

ثانيا: قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾، جاء الاسم بالتنكير، والكلام في المُعرَّف.

ثالثا: أما قولهم: لم يرد تغيير أسماء بعض الصحابة كالحكم بن عمرو الغفاري، والحكم بن أبي العاص.

---

(١) «مجموع فتاوى ورسائل الشيخ ابن عثيمين» (٣/ ٩٥).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٣٧٨).

يقال في الجواب عنه: إن النبي ﷺ غيَّر اسم بعض الصحابة ممن تسمى بهذا الاسم، وهذا كاف في تقرير الحُكم ولا يلزم أن يُتَقَصَّى كل واحد بذلك.

وفي معجم المناهي اللفظية: «وكان عبد الله بن سعيد بن العاص اسمه «الحكم»، فسماه النبي ﷺ «عبد الله»، وأمره أن يعلِّم الكتابة بالمدينة»[(١)].

المطلب الثالث: إضافة العبودية والربوبية إلى المخلوق في باب الأسماء:

هذا المطلب يتعلق ببابين هما: باب «قول الله - تعالى -: ﴿**فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا...**﴾[الأعراف: ١٩٠]»، و باب «لا يقول: عبدي وأمتي».

وإضافة العبودية والربوبية إلى المخلوق في باب الأسماء لها صورتان: أن تكون من باب الوصف أو العَلَم:

الصورة الأولى: أن يكون من باب الوصف:

كقول السيد لمملوكه الرقيق: «عبدي» أو «أمتي»، أو قول غيره: «هذا عبد فلان» و«هذه أمة فلان».

وكذا قول المملوك عن سيده: «ربي»، أو يقول عن سيدته: «ربتي»، أو قول غيره عن سيده: «هذا رب فلان أو فلانة»، أو قول السيد عن نفسه: «أنا رب فلان».

(١) «معجم المناهي اللفظية» ص٢٣٢.

فكل هذه الأمثلة تضاف فيها العبودية أو الربوبية للمخلوق في باب الأسماء، لكن هنا من باب الوصف لا العلم.

وفي هذه الصورة عقد الشيخ باب «لا يقول: عبدي وأمتي». وساق فيه حديثا واحدا عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «**لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: أَطْعِمْ رَبَّكَ، وَضِّئْ رَبَّكَ، وَلْيَقُلْ: سَيِّدِي، وَمَوْلَايَ. وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي وَأَمَتِي، وَلْيَقُلْ: فَتَايَ، وَفَتَاتِي، وَغُلَامِي**»[1].

وأخرجه مسلم بلفظ: «**لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي؛ فَكُلُّكُمْ عَبِيدُ اللهِ، وَلَكِنْ لِيَقُلْ: فَتَايَ. وَلَا يَقُلِ الْعَبْدُ: رَبِّي، وَلَكِنْ لِيَقُلْ: سَيِّدِي**»[2].

ولمسلم - أيضا -: «**لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي وَأَمَتِي؛ كُلُّكُمْ عَبِيدُ اللهِ، وَكُلُّ نِسَائِكُمْ إِمَاءُ اللهِ، وَلَكِنْ لِيَقُلْ: غُلَامِي، وَجَارِيَتِي، وَفَتَايَ، وَفَتَاتِي**»[1].

وتضمن الحديث مسألتين: نهيُ العبد عن قول: «ربي»، ونهيُ السيد عن قولِ: «عبدي»، وإن كان الشيخ بوَّب على الشق الثاني من الحديث دون الأول؛ ولعله لكثرة الوقوع فيه.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٤٩).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٤٩)، وهي إحدى روايات الحديث السابق.

- **المسألة الأولى: إضافة العبودية إلى السيد:**

وذلك في قوله ﷺ: «**لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ عَبْدِي وَأَمَتِي**». وبيَّن النبيُّ ﷺ العِلَّة، وأرشد إلى البديل.

أما العلة: ففي قوله ﷺ: «**كُلُّكُمْ عَبِيدُ اللهِ، وَكُلُّ نِسَائِكُمْ إِمَاءُ اللهِ**»؛ فالسيد والمملوك والأمة كلهم عبيد لله - تعالى -، خلقَهم لهذه الغاية الشريفة، ولأن في هذا اللفظ تعظيما للمخلوق، وهتكا لجناب التوحيد القائم على تحقيق كمال العبودية لله، دون أدنى شراكة.

وأما البديل: ففي قوله ﷺ: «**وَلَكِنْ لِيَقُلْ: غُلَامِي، وَجَارِيَتِي، وَفَتَايَ، وَفَتَاتِي**».

فأرشد النبي ﷺ إلى ما يؤدي المعنى مع السلامة من الوقوع في المحذور. وهذه فائدةٌ دعوية: أنه ينبغي للداعية إذا نهى الناس عن شيء، أن يقدم لهم البديل قدر المستطاع.

- **المسألة الثانية: وصف السيد بالربوبية:**

وجاء هذا في قوله ﷺ: «**لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: أَطْعِمْ رَبَّكَ، وَضِّئْ رَبَّكَ، وَلْيَقُلْ: سَيِّدِي، وَمَوْلَايَ**». وبيَّن النبي ﷺ العلة، وأرشد إلى البديل أيضا.

أما العلة: ففي قوله ﷺ: «**لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي وَأَمَتِي، وَلَا يَقُولَنَّ الْمَمْلُوكُ: رَبِّي وَرَبَّتِي، لِيَقُلِ الْمَالِكُ: فَتَايَ وَفَتَاتِي، وَلْيَقُلِ الْمَمْلُوكُ: سَيِّدِي وَسَيِّدَتِي؛ فَإِنَّهُمُ الْمَمْلُوكُونَ، وَالرَّبُّ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -**»[(١)].

فوَصْف السيد بالربوبية يُوهِم المشاركة مع الله في هذا الوصف العظيم، فجاء الشرع بمنعه صيانة لجناب التوحيد، وحمايةً لحماه؛ لما فيه من التشريك في اللفظ. فهو وإن كان صحيحا لغة، إلا أنَّ النبي ﷺ نهى عنه؛ تحقيقا وصونا للتوحيد، وسدا لذرائع الشرك.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والسبب في النهي أن حقيقة الربوبية لله - تعالى -؛ لأن الرب هو المالك والقائم بالشيء، فلا توجد حقيقة ذلك إلا لله - تعالى -.

قال الخطابي: سبب المنع أن الإنسان مربوب مُتعَبَّد بإخلاص التوحيد لله وترك الإشراك معه، فكُرِه له المضاهاة في الاسم؛ لئلا يدخل في معنى الشرك»[(٢)].

وفي فتح الباري: «قال الخطابي: المعنى في ذلك كله راجع إلى البراءة من الكبر والتزام الذل والخضوع لله - عز وجل -، وهو الذي يليق بالمربوب»[(١)].

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٤٩٧٥)، وأحمد (٩٤٥١)، وصححه الألباني.

(٢) «فتح الباري» (٥/ ١٧٩).

(١) السابق (٥/ ١٨٠).

وأما البديل: ففي قوله ﷺ: «**وَلْيَقُلْ: سَيِّدِي، وَمَوْلَايَ**».

فأما «السيد»: فيرجع معناه إلى الرياسة والسياسة لمن تحت يده، وحسن التدبير له، ولهذا يسمى الزوج سيدا، قال تعالى: ﴿**وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ**﴾[يوسف: ٢٥].

جاء في «طرح التثريب»: «لفظة (السيد) غير مُختصَّةٍ بالله – تعالى – اختصاص الرب، ولا مستعملةٍ فيه كاستعمالها ... وقد قال النبي ﷺ للحسن بن علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «**إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ**»[١]، وقال: «**قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ** – يَعْنِي سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ –»[٢]... قال النووي: فليس في قول العبد سيدي إشكال ولا لبس؛ لأنه يستعمله غير العبد والأمة»[٣].

قلت: «السيد» من أسماء الله – تعالى –؛ لقوله ﷺ: «**السَّيِّدُ اللَّهُ**»[٤]، وأثبته الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُٱللَّهُ في «القواعد المثلى»[١].

وأما «المولى»: فغير مختص بالله – تعالى –، قال ابن الأثير رَحِمَهُٱللَّهُ: «تكرر ذكر «المَوْلَى» في الحديث، وهو اسم يقع على جماعة كثيرة؛ فهو الرب، والمالك،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٧٠٤) وفي مواضع أخرى، من حديث أبي بكرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣٠٤٣) وفي مواضع أخرى، ومسلم (١٧٦٨)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٣) «طرح التثريب» (٦/ ٢٢١).

(٤) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٤٨٠٦)، وأحمد (١٦٣٠٧)وفي مواضع أخرى، وصححه الألباني.

(١) «القواعد المثلى» ص١٦.

والسيد، والمُنعِم، والمُعْتِق، والناصر، والمحِب، والتابع، والجار، وابن العم، والحليف، والعَقيد، والصِّهر، والعبد، والمعتَق، والمنعَم عليه. وأكثرها قد جاءت في الحديث، فيُضاف كل واحد إلى ما يقتضيه الحديث الوارد فيه. وكل من ولِي أمرا أو قام به فهو مولاه ووليُّه. وقد تختلف مصادر هذه الأسماء. فالوَلاية بالفتح، في النسب والنصرة والمعتق. والوِلاية بالكسر في الإمارة. والولاء: المُعتَق، والمُوالاة: مِن والى القوم»(١).

تنبيه:

أرشد النبي ﷺ المملوك أن يقول: «**سَيِّدِي، وَمَوْلَايَ**». لكن جاء في صحيح مسلم من طريق الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «**لَا يَقُلِ الْعَبْدُ لِسَيِّدِهِ مَوْلَايَ**»(٢).

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «اختلف الرواة عن الأعمش في ذكر هذه اللفظة، فلم يذكرها عنه آخرون، وحذفها أصح»(٣).

وقال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقال عياض: حذفها أصح، وقال القرطبي: المشهور حذفها»(١).

---

(١) «النهاية» (٥/ ٢٢٨).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٤٩).

(٣) شرح النووي على مسلم (١٥/ ٧).

(١) «فتح الباري» (٥/ ١٨٠).

فرع: حكم المسألة:

والكلام على الحكم من جهتين:

الجهة الأولى: حكمُها باعتبار إرادة حقيقة اللَّفظ من عدمه:

وهذه المسألة - بهذا الاعتبار - لها صورتان:

الصورة الأولى: أن يقصد حقيقة اللفظ:

فيقصد مَن أطلق الربوبية على المخلوق أنه رب حقيقة له صفات الربوبية، كما أطلق فرعون على نفسه، فقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

ويقصد من أطلق العبودية على المملوك أنه عبدٌ عليه الذل والخضوع؛ تعبدا لسيده ومالكه، كما هي عبودية العبد مع الله - تعالى -.

فهذا شرك أكبر مخرج عن الملة.

الصورة الثانية: ألا يقصد حقيقة اللفظ:

فيأتي بهذا اللفظ، ولا يطرأ في نفسه إرادة حقيقة الربوبية والعبودية. وقد نقل ابن حجر(١) والعراقي(١) اتفاق العلماء على أن النهي للتنزيه في هذه الصورة.

---

(١) قال ابن حجر في «فتح الباري» (٥/ ١٧٨): «اتفق العلماء على أن النهي الوارد في ذلك للتنزيه، حتى أهل الظاهر، إلا ما سنذكره عن ابن بطال في لفظ (الرب)»، ثم قال (٥/ ١٧٩): «وقال ابن بطال: لا يجوز أن يقال لأحد غير الله (رب)، كما لا يجوز أن يقال له (إله)».

وبوب البخاري في (كتاب العتق): «باب كراهية التطاول على الرقيق. وقوله: عبْدِي، أو أمتي. وقال الله - تعالى -: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡ﴾ [النور: ٣٢]. وقال: ﴿عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا﴾ [النحل: ٧٥]. ﴿وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِ﴾ [يوسف: ٢٥]. وقال: ﴿مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ [النساء: ٢٥]. وقال النبيُّ ﷺ: «**قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ**»(٢). وَ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]: سيِّدِك»(٣).

وقال ابن مفلح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وظاهر النهي التحريم، وقد يحتمل أنه للكراهة، وجزم به غير واحد من العلماء»(٤).

وقال ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا على وجه الاستحباب أن يعدل العبد عن قول: عبدي، وأمتي إلى فتاي، وفتاتي؛ تحفُّظا عن اللفظ الذي فيه إيهام ومحذور ولو على وجه بعيد، وليس حراما، وإنما الأدب كمال التحفظ بالألفاظ الطيبة التي لا توهم محذورا بوجه»(١).

---

(١) «طرح التثريب» (٦/ ٢٢٣).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) صحيح البخاري (٣/ ١٤٩).

(٤) «الفروع» (٣/ ٤١٣).

(١) «القول السديد» ص١٦٨.

ورجح ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ – عند قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًا﴾ [آل عمران: ٨٠] – الجواز، وعلل ذلك، فقال: «لأن النهي إنما كان لتخليص الاعتقاد من أن يعتقد لغير الله عبودية أو في سواه ربوبية، فلما حصَلَت العقائد كان الجواز»(١).

وقال الشيخ عبد الله السليم: «إن ثبت الإجماع في المسألة فذاك، وإن كان أحد من السلف أخذ بظاهر الحديث، وأن المنهي عنه في الحديث محرم مطلقا، فأنا آخذ به؛ لأني استشْكَلْتُ القول بالكراهة مع هذا النص لعدة أسباب ...– وذكر ستة أسباب – ثم قال: والحاصل أنه إن ثبت التحريم؛ فهو صورة من صور الشرك الأصغر في الألفاظ»(٢).

الجهة الثانية: حكمها باعتبار إضافتها:

والكلام عليها – بهذا الاعتبار – في مسألتين:

- **المسألة الأولى: إضافة العبودية إلى المخلوق:**

ولها صورتان:

الصورة الأولى: أن يضيفه إلى غيره:

---

(١) «أحكام القرآن» (١/ ٣٦٦).

(٢) «الشرك الأصغر» ص١٨١.

مثل أن يقول: عبد فلان أو أمة فلان، بمعنى المِلك، فهذا جائز، قال تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡ﴾ [النور: ٣٢]، وقال النبي ﷺ: «**لَيْسَ عَلَى الْمُسْلِمِ فِي عَبْدِهِ وَلَا فَرَسِهِ صَدَقَةٌ**»(١).

الصورة الثانية: أن يضيفه إلى نفسه:

فهذا منهي عنه؛ لحديث الباب، كما في مسلم: «**لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي وَأَمَتِي؛ كُلُّكُمْ عَبِيدُ اللهِ، وَكُلُّ نِسَائِكُمْ إِمَاءُ اللهِ، وَلَكِنْ لِيَقُلْ: غُلَامِي وَجَارِيَتِي، وَفَتَايَ وَفَتَاتِي**»(٢).

- **المسألة الثانية: إضافة الربوبية إلى المخلوق:**

وهذه الإضافة قسمان:

القسم الأول: أن تكون على سبيل الإطلاق:

فيوصف المخلوق بـ«الرب» هكذا على سبيل الإطلاق، فهذا لا يجوز.

قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والذي يختص بالله - تعالى - إطلاق الرب بلا إضافة، أما مع الإضافة فيجوز إطلاقه كما في قوله - تعالى - حكاية عن يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]، وقوله: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٥٠]،

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (١٤٦٤)، ومسلم (٩٨٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

(٢) تقدم تخريجه.

وقوله – عليه الصلاة والسلام – في أشراط الساعة: «**أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّهَا**»(١)، فدل على أن النهي في ذلك محمول على الإطلاق»(٢).

القسم الثاني: أن تكون على سبيل التقييد:

كأن يقول المملوك عن سيِّدِه: جاء ربي، أو يُخاطَب فيقال له: أطعم ربك، أو يُخبَر عنه بضمير الغائب، فيقال: أطاع ربه، يعني سيده، أو يضاف إلى اسم ظاهر فيقال عن السيد: هذا رب الغلام.

فإضافة الربوبية إلى المخلوق هنا منهي عنها؛ لقوله ﷺ: «**لا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: أَطْعِمْ رَبَّكَ، وَضِّئْ رَبَّكَ، اسْقِ رَبَّكَ**»(٣)، ولمسلم بلفظ: «**وَلَا يَقُلِ الْعَبْدُ: رَبِّي، وَلَكِنْ لِيَقُلْ: سَيِّدِي**»(٤).

فجاء النص بضمير المخاطب والمتكلِّم، ويلحق به الباقي؛ للاشتراك في العلة، وهي حماية حمى التوحيد، بالبُعد عن هذه الألفاظ التي توهم التشريك

---

(١) **متفق عليه:** أخرجه البخاري (٥٠ و٤٧٧٧)، ومسلم (٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه مسلم (٨) من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مُطوَّلا.

(٢) «فتح الباري» (٥/ ١٧٩).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

مع الله في هذا الوصف العظيم (الربوبية)، فالنظر هنا إلى المضاف (لفظة رب) دون المضاف إليه.

والنهي عند الجماهير - ونقل الاتفاق عليه - أنه للكراهة.

تنبيهات:

التنبيه الأول: محل هذه المسألة: إضافة الربوبية إلى من يقع منه التعبُّد اختيارا:

جاء في فتح الباري لابن حجر: «فأما ما لا تعبد عليه من سائر الحيوانات والجمادات فلا يكره إطلاق ذلك عليه عند الإضافة؛ كقوله: رب الدار، ورب الثوب»[١].

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال العلماء: لا يُطلق الربُّ بالألف واللام إلا على الله - تعالى - خاصة، فأما مع الإضافة فيقال: رب المال، ورب الدار، وغير ذلك. ومنه قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح في ضالَّة الإِبل: **(دَعْهَا حَتَّى يَلْقَاهَا رَبُّهَا)**[٢]، والحديث الصحيح: **(حَتَّى يُهِمَّ رَبَّ الْمَالِ مَنْ يَقْبَلُ صَدَقَتَهُ)**[٣]»[٤].

---

(١) «فتح الباري» (٥/١٧٩).

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٩١) وفي مواضع أخرى، ومسلم (١٧٢٢) من حديث زيد بن خالد الجهني رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٣) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٧١٢١)، ومسلم (١٥٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٤) «الأذكار» ص٣٦٣.

التنبيه الثاني: إشكالات وجوابها:

استشكل على ما سبق بعض النصوص، ومنها:

الأول: قوله ﷺ في أشراط الساعة: «**أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّهَا**»(١)، بهذا اللفظ، وأما لفظ «**ربَّتَها**» فلا إشكال فيه؛ لأن الله لا يوصف به، فلا مشاركة في اللفظ.

وأجيب بجوابين:

١- أن هذه قرينة صارفة عن التحريم؛ فيحمل النهي على الكراهة.

٢- أن هذا ليس فيه إلا وصف المالكة بذلك لا دعاؤها به، وتسميتها به، وفرق بين الدعاء والتسمية، وبين الوصف، كما تقول: زيد فاضل، فتصفه بذلك ولا تسميه به ولا تدعوه به(٢).

الثاني: قول يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ للذي كان معه في السجن: ﴿**ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ**﴾ [يوسف: ٤٢]، أي: عند سيدك الملك.

وأجيب عنه بأجوبة؛ منها:

١- أنه خاطبه بما يعرفه ويعتقده، وجاز هذا الاستعمال للضرورة، كما قال موسى ﷺ للسامري: ﴿**وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ**﴾ [طه: ٩٧]، أي: الذي اتخذتَه إلها.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ذكر هذا الجواب في «تيسير العزيز الحميد» ص٥٦٧، واستظهره.

٢- أن هذا شرعُ مَنْ قَبْلنا، وشرعُ من قبلنا لا يكون شرعا لنا إذا ورد شرعُنا بخلافه، وقد جاء شرعنا بالنهي عنه.

٣- أن هذا قرينة صارفة للنهي عن التحريم، وأن النهي من باب الأدب والتنزيه.

الثالث: قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡ﴾ [النور: ٣٢].

وأجيب عنه بأجوبة؛ منها:

١- أن هذا النص مطلق، لم يسمِّ معيَّنا أو يصفه بالربوبية لمملوكه، ولا بالعبودية لسيده، وفرْق بين الإطلاق والتعيين.

٢- أن هذا اللفظ هنا صادر من الله - تعالى -، ولا يقاس الله بخلقه، فكما نهانا عن الحلف بشيء من المخلوقات فقد أقسم الله بها في كتابه، ولا يعارض هذا بهذا.

الصورة الثانية: أن يكون من باب العَلَم:

والمراد بهذه الصورة: أن يسمَّى الشخص بما فيه تعبيد لغير الله - تعالى - على وجه العلمية؛ كعبد الكعبة، وعبد الرسول، وعبد الحسين، ونحو ذلك. وهذا محرم بالإجماع.

وأما قوله ﷺ: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الخَمِيصَةِ**»(١)، فهذا ذمٌّ واضح، فيه وصف لحال مَن تعلَّق بهذه الأعراض الدنيوية، وقدَّمها على ما يرضي الله.

وساق المؤلفُ لهذه الصورة «باب قول الله – تعالى –: ﴿**فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [الأعراف: ١٩٠]».

قال ابن حزم: «اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله؛ كعبد عمرو، وعبد الكعبة، وما أشبه ذلك، حاشا عبد المطلب»(٢).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – في الآية –، قال: «لمَا تَغَشَّاهَا آدَمُ حَمَلَتْ، فَأَتَاهُمَا إِبْلِيسُ، فَقَالَ: إِنِّي صَاحِبُكُمَا الَّذِي أَخْرَجْتُكُمَا مِنَ الجَنَّةِ، لَتُطِيعُنِّي أَوْ لَأَجْعَلَنَّ لَهُ قَرْنَيْ إِيِّلٍ، فَيَخْرُجُ مِنْ بَطْنِكَ، فَيَشُقُّهُ، وَلَأَفْعَلَنَّ وَلَأَفْعَلَنَّ، يُخَوِّفُهُمَا! سَمِّيَاهُ عَبْدَ الحَارِثِ، فَأَبَيَا أَنْ يُطِيعَاهُ، فَخَرَجَ مَيِّتًا!

ثُمَّ حَمَلَتْ، فَأَتَاهُمَا، فَقَالَ مِثْلَ قَوْلِهِ، فَأَبَيَا أَنْ يُطِيعَاهُ، فَخَرَجَ مَيِّتًا!

ثُمَّ حَمَلَتْ، فَأَتَاهُمَا، فَذَكَرَ لَهُمَا، فَأَدْرَكَهُمَا حُبُّ الْوَلَدِ، فَسَمَّيَاهُ عَبْدَ الحَارِثِ؛ فَذَلِكَ قَوْلُهُ – عَزَّ وَجَلَّ –: ﴿**جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا**﴾ [الأعراف: ١٩٠]»(٣).

وله بسند صحيح عن قتادة قال: «شركاء في طاعته، ولم يكن في عبادته»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٨٨٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

وله بسند صحيح عن مجاهد، في قوله: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾، قال: «أشفَقا أن لا يكون إنسانا». وذكر معناه عن الحسن وسعيد وغيرهما[٢].

وهذا النوع أشد مما قبله؛ لأن العَلَمية أقوى من الوصف، وللمضاهاة بين الخالق والمخلوق في لفظ العبودية.

وأيضا، فليس هناك ارتباط بين المسمَّى ومن عُبِّد له، فمن سمَّي (عبدَ الحسين)، فما علاقته بالحُسين بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؟!.

وقد نقل ابن حزم الإجماع على تحريم ذلك[٣].

- **وتلخيص ما سبق في مسألة إضافة العبودية والربوبية إلى المخلوق:**

إضافة العبودية والربوبية إلى المخلوق لها صورتان:

الصورة الأولى: أن يكون من باب العَلَم:

وذلك بأن يسمَّى الشخص بما فيه تعبيد لغير الله - تعالى -؛ كعبد الكعبة وعبد الرسول، وعبد الحسين، ونحو ذلك، أو يسمى بالرب، أو يضاف لمن يقع منه التعبُّد، كرب الناس أو رب الشعب. فهذا محرم.

الصورة الثانية: أن يكون من باب الوصف:

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم.

وهذه الصورة لها حالان:

الحال الأولى: إضافة العبودية إلى المخلوق. وهي نوعان:

النوع الأول: أن يضيفه إلى غيره.

مثل أن يقول: «عبد فلان» أو «أمة فلان»؛ بمعنى المِلك. وهذا جائز. قال تعالى: ﴿**وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡ**﴾ [النور:٣٢]، وقال النبي ﷺ: «**لَيْسَ عَلَى الْمُسْلِمِ فِي عَبْدِهِ وَلَا فَرَسِهِ صَدَقَةٌ**»(١).

النوع الثاني: أن يضيفه إلى نفسه. وهذا منهي عنه؛ لقوله ﷺ: «**لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي وَأَمَتِي، كُلُّكُمْ عَبِيدُ اللهِ، وَكُلُّ نِسَائِكُمْ إِمَاءُ اللهِ، وَلَكِنْ لِيَقُلْ غُلَامِي وَجَارِيَتِي وَفَتَايَ وَفَتَاتِي**»(٢).

فقد بين ﷺ في هذا الحديث الحُكم: «**لَا يَقُولَنَّ**»، والعلة: «**كُلُّكُمْ عَبِيدُ اللهِ**»، والبديل: «**وَلَكِنْ لِيَقُلْ...**».

الحال الثانية: إضافة الربوبية إلى المخلوق. وهي نوعان:

النوع الأول: أن تكون على سبيل الإطلاق:

فيوصف المخلوق بـ «الرب»، فهذا لا يجوز. ولا يُطلق الربُّ بالألف واللام إلا على الله - تعالى - خاصة.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

النوع الثاني: أن تكون على سبيل التقييد:

كأن يقول المملوك عن سيِّدِه: «جاء ربي»، أو يخاطَب فيقال له: «أطعم ربك»، أو يخبَر عنه بضمير الغائب، فيقال: «أطاع ربه»، يعني: سيده، أو يضاف إلى اسم ظاهر، فيقال عن السيد: «هذا رب الغلام»، ولا يقصد حقيقة الربوبية.

فإضافة الربوبية إلى المخلوق هنا منهي عنها؛ لقوله ﷺ: «**لا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: أَطْعِمْ رَبَّكَ وَضِّئْ رَبَّكَ، اسْقِ رَبَّكَ**»[1]، ولمسلم بلفظ: «**وَلَا يَقُلِ الْعَبْدُ: رَبِّي، وَلَكِنْ لِيَقُلْ: سَيِّدِي**»[2].

والنهي عند الجماهير للكراهة.

فوائد:

الأولى: غيَّر النبي ﷺ جملة من الأسماء المعبَّدة لغير الله - تعالى -، ومن أمثلة ذلك: عبد الحارث[3]، وعبد الحَجَر[4]، وعبد شمس[5]، وعبد العزى[1]، وعبد الكعبة[2]، وعبد عوف[3]، وغيرهم.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) ينظر: «الإصابة في تمييز الصحابة» (٤/ ٢٣٦-٢٣٧) وغيرها.

(٤) ينظر: «مصنف ابن أبي شيبة» (٢٥٩٠١)، و«الأدب المفرد» ص ٣٠٢.

(٥) ينظر: «المستدرك» (٦١٤١و ٦١٤٦).

وساق الشيخ بكر أبو زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ جملة منها في «معجم المناهي اللفظية»(٤).

الثانية: استثنى ابن حزم من التحريم «عبد المطلب»، ولعلَّ ذلك لقوله ﷺ يوم حنين: «**أَنَا النَّبِيُّ لا كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ المُطَّلِبْ**»(٥).

ولكن الصواب تحريم التعبيد للمُطَّلب؛ فلا يجوز التسمِّي بعبد المطلب، وأما الحديث؛ فهو من باب الإخبار، وليس من باب الإنشاء؛ فالنبي ﷺ أخبر أن له جدا اسمه عبد المطلب، ولم يرد عنه ﷺ أنه سمَّى عبد المطلب، ولا أنه أقر أحدا على تسميته عبد المطلب.

وقد قال ﷺ، حين أنزل الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ**﴾ [الشعراء: ٢١٤]، قَالَ: «**يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا -، اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ؛ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا. يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا ..**»(٦) الحديث، فهل يستثنى (عبد مناف) من التحريم؟!.

---

(١) ينظر: «المعجم الكبير» للطبراني (٦٥٥٩)، «شرح السنة» للبغوي (٣٣٧٥).

(٢) ينظر: «مصنف عبد الرزاق» (١٩٨٦٣)، و«المستدرك» (٥٣٣٥).

(٣) ينظر: «الإصابة في تمييز الصحابة» (٤/ ٨).

(٤) ينظر: «معجم المناهي اللفظية» ص٣٦٣، وما بعدها.

(٥) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٢٨٦٤) وفي مواضع أخرى، ومسلم (١٧٧٦)، من حديث البراء بن عازب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٦) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٢٧٥٣) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٠٤).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولا وجه لتخصيص أبي محمد بن حزم ذلك بعبد المطلب خاصة؛ فقد كان الصحابة يسمون بني عبد شمس وبني عبد الدار بأسمائهم، ولا ينكِر عليهم النبي ﷺ، فباب الإخبار أوسع من باب الإنشاء»(١).

الثالثة: قصة آدم وإبليس:

اختُلِف في المراد بترجمة هذا الباب «باب قول الله - تعالى -: ﴿**فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [الأعراف: ١٩٠]».

وينبغي أن يُنظر في سياق الآية مع ما قبلها.

قال تعالى: ﴿**هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٨٩ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [الأعراف: ١٨٩، ١٩٠].

هو الذي خلقكم - أيها الناس - من نفس واحدة (هي آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، على قول) وخلق منها زوجها (وهي حواء)؛ ليأنس بها ويطمئن، وهذه آية من آيات الله: الأنس والسكن والمودة والرحمة بين الزوجين، كما قال تعالى: ﴿**وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً**﴾ [الروم: ٢١].

---

(١) «تحفة المودود» ص١١٤.

﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾: أي جامعها، وهذا من كنايات القرآن.

﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾، أي: حملت ماء خفيفا، فقامت به وقعدت وأتمَّت الحمل، ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾، أي: صار حملها ثقيلا، وهذا يكون في آخر الحمل، ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، أي: دعا الزوجان ربهما: لئن أعطيتنا بشرا سويا صالحا (صلاحا بدنِيًّا) لنكونن ممن يشكرك على ما وهبت لنا.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾، أي: فلما رزق الله الزوجين ولدا صالحا، جعلا لله شركاء في ذلك الولد الذي انفرد الله بخلقه فعبَّداه لغير الله.

واختُلِف في معنى الآية وتوجيهها على أقوال:

القول الأول: أن المراد بقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾، أي: **جنس واحد**، وجعل من هذا الجنس زوجا له. والنفس قد يراد بها الجنس؛ كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، أي: من جنسهم، فالآية في بني آدم، وقد وقع منهم الشرك.

وعلى هذا القول لا تعرُّضَ لآدم وحواء، ولا إشكال في الآية. وهذا اختيار الحافظ ابن كثير والشيخ ابن عثيمين(١).

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليس المراد من هذا السياق آدمَ وحواءَ، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته»، وساق الآثار عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في ذلك، ثم قال: «كأنه - والله أعلم - أصله مأخوذ من أهل الكتاب، فإن ابن عباس رواه عن أبي بن كعب»(٢).

القول الثاني: أن المراد **آدم وحواء**، وأنه وقع منهما ما ذُكِر في أثر ابن عباس، وقالوا: كان الشرك في الطاعة، لا في العبادة، كما قال قتادة(٣).

وضُعِّف هذا القول من وجوه:

الأول: لم يصح في ذلك خبر عن النبي ﷺ(٤).

---

(١) ينظر: «القول المفيد» (٢/ ٣٠٤).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٢٨).

(٣) قال الشيخ ابن عثيمين في «القول المفيد» (٢/ ٣١٢): «الطاعة إذا كانت منسوبة لله، فلا فرق بينها وبين العبادة، فإن عبادة الله طاعته. وأما الطاعة المنسوبة لغير الله، فإنها غير العبادة، فنحن نطيع الرسول ﷺ لكن لا نعبده، والإنسان قد يطيع مِلِكا من ملوك الدنيا وهو يكرهه».

(٤) **فائدة**: جاء عن الحسن، عن سمرة، عن النبي ﷺ قال: «لما حملت حواء طاف بها إبليس، وكان لا يعيش لها ولد، فقال: سميه عبد الحارث، فإنه يعيش، فسمَّوه عبد

الثاني: أن في هذا قدحا لمقام الأنبياء؛ لأن الأنبياء معصومون من الشرك باتفاق العلماء.

الثالث: لو كانت هذه القصة في آدم وحواء؛ لكان حالهما إما أن يتوبا من الشرك أو يموتا عليه، فإن قلنا: ماتا عليه؛ فهذا قول شنيع، ومن قاله فقد أعظم الفِرية.

وإن كانا تابا من الشرك، فلا يليق بحكمة الله وعدله ورحمته أن يذكر خطأهما ولا يذكر توبتهما منه، والله - تعالى - إذا ذكر خطيئة بعض أنبيائه ورسله ذكر توبتهم منها، كما في قصة آدم نفسه حين أكل من الشجرة وزوجه، وتابا من ذلك.

الرابع: أنه ثبت في حديث الشفاعة أن الناس يأتون إلى آدم يطلبون منه الشفاعة، فيعتذر بأكله من الشجرة، ولو وقع منه الشرك؛ لكان اعتذاره به أقوى وأولى.

الحارث، فعاش، وكان ذلك من وحي الشيطان، وأمرِه» أخرجه أحمد في المسند (٢٠١١٧)، وضعَّفه محققوه، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (٣٤٢). وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٢٦): «هذا الحديث معلول من ثلاثة أوجُه».

الخامس: جاء في هذه القصة أن الشيطان جاء إليهما وقال: «إِنِّي صَاحِبُكُمَا الَّذِي أَخْرَجَكُمَا مِنَ الجَنَّةِ»[1]، وهذا لا يقوله من يريد الإغواء؛ لأنهما علما عداوته.

السادس: قوله تعالى في سياق الآية: ﴿**فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾، بضمير الجمع، ولو كان المراد آدم وحواء، لقال: عما يشركان.

القول الثالث: أن المراد بقوله تعالى: ﴿**خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا**﴾ **آدم وحواء**، ثم انتقل من العَينِ إلى الجِنس، فقال: ﴿**فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا**﴾ أي: تغشَّى الإنسان زوجه ... إلخ، قالوا: ويدل عليه قوله تعالى: ﴿**فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ بالجمع، ولم يقل: يشركان.

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا التفسير له وجه، وفيه تنزيه آدم وحواء من الشرك، لكن فيه شيء من الركاكة لتشتُّتِ الضمائر»[2].

المطلب الرابع: النهي عن قول: السلام على الله:

عقد الشيخ لهذه المسألة «باب لا يقال السلام على الله»، وساق فيه حديثا واحد عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: كُنَّا إِذَا كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «القول المفيد» (٢/ ٣٠٥).

الصَّلاةِ، قُلْنَا: السَّلامُ عَلَى اللَّهِ مِنْ عِبَادِهِ، السَّلامُ عَلَى فُلانٍ وَفُلانٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لا تَقُولُوا السَّلامُ عَلَى اللَّهِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلامُ، وَلَكِنْ قُولُوا: التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ ...**»(١).

وهذا من باب تعظيم أسماء الله الحسنى، والأدب معها. فالسلام اسم من أسمائه، معناه: المنزَّه عن جميع العيوب، والمنزَّه عن أن يقاربه أو يماثله أحد في شيء من الكمال، ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ**﴾ [الشورى: ١١]، ﴿**وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ**﴾ [الإخلاص: ٤]، ﴿**هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا**﴾ [مريم: ٦٥]. ويتضمن ذلك الكمال المطلق من جميع الوجوه، فالسلام اسم ثُبوتِيٌّ سلبِيٌّ.

ثُبوتي: فيه إثبات هذا الاسم له، والصفة التي تضمَّنَها، وهي السلامة.

وسلبي: أي يراد به نفيُ كلِّ نقص أو عيب، فلا يلحقه نقص في ذاته أو صفاته أو أفعاله أو أحكامه. وقريب من السلام اسم «القدُّوس».

ومن تمام التوحيد، وتعظيم الله وقَدْره حق قَدْره؛ ألا يقال هذا القول (السلام على الله)؛ لأمرين:

الأول: أن مثل هذا الدعاء يوهم النقص في حق الله؛ إذ لا يدعى لشيء بالسلام من شيء، إلا إذا كان قابلا أن يتصف به، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ منزه عن صفات النقص.

---

(١) تقدم تخريجه.

فالله لا يحتاج إلى سلام، بل هو نفسه - عز وجل - السلام؛ سالم من كل نقص ومن كل عيب، والمستحق للحمد والثناء. والسلامُ على عباده، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩].

الثاني: أن الله يُدعى ولا يُدعى له، فهو غني عنا، لكن يُثنى عليه بصفات الكمال.

فوائد:

أولا: معنى السلام:

لمعنى السلام جهتان:

الأولى: باعتبار كونه اسما من أسماء الله، فمعناه: السالم من كل نقص وعيب.

الثانية: باعتبار كونه تحية. فله معنيان:

١- تقدير مضاف، أي: اسم السلام عليك؛ والمراد: نزلت بركة الله عليكم.

٢- أن السلام اسم مصدر بمعنى التسليم، كالكلام بمعنى التكليم، والمعنى أن هذا خبر بمعنى الدعاء: أسأل الله أن يسلِّمك تسليما.

ثانيا: في هذا الحديث بيَّن النبي ﷺ علة النهي، فقال: «**لا تَقُولُوا السَّلامُ عَلَى اللَّهِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلامُ**»، وأرشدهم إلى البديل «**وَلَكِنْ قُولُوا: التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ** ...».

وهذا من حُسن التعليم والتربية التي ينبغي على الإنسان مراعاتها حينما يتعامل مع أبنائه أو طلابه، فلا يجعل من نفسه قائدا يصدر أوامر عسكرية، وإنما إذا نهى عن شيء ولاحظ الاستغراب أو التضجُّر، فينبغي أن يذكر العلة والسبب، ويرشد إلى البديل؛ فهذا يزرع الثقة والمحبة في قلب الابن أو الطالب.

المطلب الخامس: السؤال بالله - تعالى -:

عقد الشيخ لهذا المطلب «باب لا يُرَدُّ من سأل بالله»، وساق فيه حديثا واحدا عن عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النبي ﷺ قال: «**مَنِ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ فَأَعِيذُوهُ، وَمَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ فَأَعْطُوهُ، وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ، وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُوهُ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ**»(١).

وله شاهد عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النبي ﷺ قال: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِشَرِّ النَّاسِ؟ رَجُلٌ يُسْأَلُ بِاللَّهِ وَلَا يُعْطِي بِهِ**»(٢).

وهذه الترجمة فيها تعظيمٌ لله - تعالى -، وتعظيم لأسمائه الحسنى، وهذا من كمال التوحيد وتحقيقه.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) **صحيح**: أخرجه الترمذي (١٦٥٢)، والنسائي (٢٥٦٩)، وصححه الألباني.

وقلوب المؤمنين يصيبها الفزَع والوجَل إذا ذكر الله - تعالى -، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢].

ومن شواهد هذا المعنى: إعاذة من استعاذ بالله، كما جاء عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا أَنَّ ابْنَةَ الجَوْنِ، لَمَّا أُدْخِلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَدَنَا مِنْهَا، قَالَتْ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ، فَقَالَ لَهَا: «**لَقَدْ عُذْتِ بِعَظِيمٍ، الحَقِي بِأَهْلِكِ**»(١).

معنى السؤال بالله – تعالى -:

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُٱللَّهُ: «(سأل) تأتي بمعنى استجدَى، وبمعنى استخبر، تقول: (سألتُه عن فلان)، أي: استخبرتُه، و(سألتُه مالا)، أي: استجديتُه واستعطيتُه»(٢).

والمراد بالسؤال بالله هو سؤال المخلوق والتوسل إلى ذلك بذكر الله أو وجه الله، فتقول: «أسألك بالله كذا»، أو «أسألك بوجه الله كذا»، كما جاء في قصة الأقرع والأبرص والأعمى، أن الملَك قال للأبرص: «**أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الحَسَنَ، وَالجِلْدَ الحَسَنَ، وَالمَالَ، بَعِيرًا أَتَبَلَّغُ عَلَيْهِ فِي سَفَرِي**»(٣).

وثمةَ مسائل تتعلق بهذا المطلب، سأذكرها في المطلب اللاحق؛ لتعلقها بها.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٥٢٥٤).

(٢) «القول المفيد» (٢/٢٨٩).

(٣) تقدم تخريجه.

المطلب السادس: السؤال بوجه الله - تعالى -:

عقد الشيخ لهذا المطلب «باب لا يسأل بوجه الله إلا الجنة»، وساق فيه حديثا واحدا عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النبي ﷺ قال: «**لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللَّهِ إِلَّا الْجَنَّةُ**»(١).

---

(١) تقدم تخريجه.

وفي الباب أحاديث؛ منها:

أولا: عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**مَلْعُونٌ مَنْ سَأَلَ بِوَجْهِ اللَّهِ، ومَلْعُونٌ مَنْ سُئِلَ بِوَجْهِ اللَّهِ ثُمَّ مَنَعَ سَائِلَهُ مَا لَمْ يَسْأَلْهُ هُجْرًا**».

رواه الروياني في «المسند» (٤٩٥) والطبراني في «الدعاء» ص٥٨١، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٨/٢٦) جميعهم من طريق عبد الله بن عياش. وعبد الله هذا ضعَّفه أبو داود والنسائي، وقال الحافظ في «التقريب»: صدوق يغلط. والحديث حسنه الألباني، والعصيمي في «شرح كتاب التوحيد»، وعده شاهدا يقوي حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفي ذلك نظر.

ثانيا: عن أبي عبيد، مولى رفاعة بن رافع: أن رسول الله ﷺ قال: «**مَلْعُونٌ مَنْ سَأَلَ بِوَجْهِ اللَّهِ، وَمَلْعُونٌ مَنْ سُئِلَ بِوَجْهِ اللَّهِ فَمَنَعَ سَائِلَهُ**». أخرجه الطبراني في الكبير (٩٤٣) وهو قريب من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. والحديث ساقه المنذري في «الترغيب والترهيب» بصيغة التمريض، وقال الألباني: «حسن لغيره»، كما في «صحيح الترغيب والترهيب» (٨٥٣).

ثالثا: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنِ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ فَأَعِيذُوهُ، وَمَنْ سَأَلَكُمْ بِوَجْهِ اللَّهِ فَأَعْطُوهُ**». أخرجه أبو داود (٥١٠٨)، وأحمد في المسند (٢٢٤٨)، وقال الألباني: «حسن صحيح»، وحسنه محققو المسند.

والكلام ها هنا في مسائل:

- **المسألة الأولى: معنى السؤال بوجه الله - تعالى -:**

وجه الله - تعالى - صفة من صفاته، ثابتة بالقرآن والسنة وإجماع السلف، ووَصَف اللهُ - تعالى - وجهه بأنه ذو الجلال والإكرام، كما في قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧].

والسؤال بوجه الله قد يوجَّه لله - تعالى -، وقد يوجَّه للمخلوق:

فإن كان السؤال لله فلا يُسأل بوجهه إلا الجنة، دون أمور الدنيا.

وإن كان السؤال للمخلوق فلا يليق أن تسأله بوجه الله؛ لعظمة وجهه كما سيأتي.

وفي ترجمة الباب وما ذُكِر من النصوص تقرير لتعظيم صفات الله - تعالى -، وأن هذا من تحقيق التوحيد، ومن كمال الأدب مع الرب - جل وعلا -.

فلا يليق أن يسأل المسلم بوجه الله - تعالى - أمرا من حُطام الدنيا، كأن يقول: «اللّهم إني أسألك بوجهك منزلا واسعا»، أو «سيارة جديدة».

قال صاحب «تيسير العزيز الحميد»: «والظاهر أن المراد: لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة، أو ما هو وسيلة إليها، كالاستعاذة بوجه الله من غضبه ومن النار، ونحو ذلك مما هو وارد في أدعيته ﷺ وتعوذاته»(١).

عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿**قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ**﴾ [الأنعام: ٦٥]، قالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَعُوذُ بِوَجْهِكَ**»، فَلَمَّا نَزَلَتْ: ﴿**أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ**﴾ [الأنعام: ٦٥]، قالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**هَاتَانِ أَهْوَنُ، - أَوْ أَيْسَرُ -**»(٢).

- **المسألة الثانية: حكم السؤال بالله - تعالى -:**

السؤال من حيث هو: مكروه، ولا ينبغي للإنسان أن يسأل أحدا شيئا إلا إذا دعت الحاجة إلى ذلك. وفي وصية النبي ﷺ لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ**»(٣).

وعن عوف بن مالك الأشجعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، تِسْعَةً أَوْ ثَمَانِيَةً أَوْ سَبْعَةً، فَقَالَ: «**أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللهِ؟**»، وَكُنَّا حَدِيثَ عَهْدٍ

---

(١) «تيسير العزيز الحميد» ص ٥٣٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٣١٣) وفي مواضع أخرى.

(٣) تقدم تخريجه.

بِبَيْعَةٍ، فَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ. ثُمَّ قَالَ: «**أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللهِ؟**». فَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ، يَا رَسُولَ اللهِ. ثُمَّ قَالَ: «**أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللهِ؟**». قَالَ: فَبَسَطْنَا أَيْدِيَنَا، وَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ، يَا رَسُولَ اللهِ، فَعَلَامَ نُبَايِعُكَ؟ قَالَ: «**عَلَى أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، وَتُطِيعُوا - وَأَسَرَّ كَلِمَةً خَفِيَّةً - وَلَا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا**». فَلَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ أُولَئِكَ النَّفَرِ يَسْقُطُ سَوْطُ أَحَدِهِمْ، فَمَا يَسْأَلُ أَحَدًا يُنَاوِلُهُ إِيَّاهُ»(١).

وسؤال الناس له جهتان:

الأولى: سؤال المال. وهو محرم، إلا إذا دعت الضرورة إلى ذلك. وقد جاء الوعيد في ذلك، كحديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَسْأَلُ النَّاسَ، حَتَّى يَأْتِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ**»(٢).

الثانية: سؤال المعونة بالجاه أو بالبدن. كأن تسأل فلانا أن يشفع لك عند المدير في العمل، أو تسأل شخصا أن يحمل متاعا لك إلى فلان. وهذا السؤال مكروه، إلا إذا دعت الحاجة إلى ذلك، ولا يدخل في ذلك من له حق؛ كالأب مع ابنه، أو الزوج مع زوجته.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٠٤٣).

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (١٤٧٤)، ومسلم (١٠٤٠).

وإذا تقرر أن سؤال المخلوق مكروه (تحريما أو تنزيها)، فإن هذا السؤال قد يؤكَّد بأمور، منها:

أولا: أن يكون السؤال بالله؛ كقول: «أسألك بالله كذا».

ثانيا: أن يكون السؤال بوجه الله؛ كقول: «أسألك بوجه الله كذا».

ثالثا: أن يقرن معه القسم بالله، كقول: «أقسمُ بالله عليك أن تفعل كذا».

رابعا: أن يكون بصيغة الاستشفاع بالله - تعالى -؛ كقول: «إنا نستشفع بالله عليك أن تفعل كذا».

وحيث تقرر المنع من سؤال الناس - على اختلاف مراتبه - فإن تأكيده بمثل هذا يزيده منعا وكراهة، حيث لا مُسوِّغ للسؤال من حاجة أو ضرورة، فإن كان هناك مسوغ للسؤال فلا بأس أن يكون بالله - تعالى -؛ لحديث الأقرع والأبرص والأعمى، وفيه قول الملَك للأبرص: «**أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ، وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ ...**»، ولقوله ﷺ: «**مَنْ سَأَلَكُمْ بِاللَّهِ فَأَعْطُوهُ**»[1].

والصيغة الرابعة (الاستشفاع بالله - تعالى -) أفرد لها الشيخ بابا في أواخر الكتاب، وسيأتي الكلام عليها - إن شاء الله -.

- **المسألة الثالثة: حكم السؤال بوجه الله - تعالى -:**

كأن يقول شخص لآخر: «أسألك بوجه الله كذا»، أو «وجه الله عليك كذا».

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٥١٠٩)، و النسائي (٢٥٦٧)، وصححه الألباني.

وورد في المسألة حديثان سبق ذكرُهما:

الأول: عن جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللَّهِ إِلَّا الْجَنَّةُ**»(١).

والثاني: عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**مَلْعُونٌ مَنْ سَأَلَ بِوَجْهِ اللَّهِ، وَمَلْعُونٌ مَنْ سُئِلَ بِوَجْهِ اللَّهِ ثُمَّ مَنَعَ سَائِلَهُ مَا لَمْ يَسْأَلْهُ هُجْرًا**»(٢).

وسئل الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن هذه المسألة، فقال: «وجه الله أعظم من أن يسألَ به الإنسانُ شيئا من الدنيا، ويجعل سؤاله بوجه الله - عز وجل - كالوسيلة التي يُتوسل بها إلى حصول مقصودِه من هذا الرجل الذي توسل إليه بذلك، فلا يقدمَنَّ أحدٌ على مثل هذا السؤال، أي لا يقل: وجه الله عليك، أو أسألك بوجه الله، أو ما أشبه ذلك(٣)».

وقال الشيخ بكر أبو زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وحاصل السؤال بوجه الله يتلخص في أربعة أوجه:

١- سؤال الله بوجهه أمرا دينيا أو أُخرويا، وهذا صحيح.

٢- سؤال الله بوجهه أمرا دنيويا، وهذا غير جائز.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) «مجموع الفتاوى» (٣/ ٧٠).

٣- سؤال غير الله بوجه الله أمرا دنيويا، وهو غير جائز.

٤- سؤال غير الله بوجه الله أمرا دينيا.

والموضوع يحتاج إلى زيادة تحرير»(١).

وحُمل قوله ﷺ: «**مَلْعُونٌ مَنْ سَأَلَ بِوَجْهِ اللَّهِ**» على من سأل المخلوقين، أو سأل أمرا من أمور الدنيا، كما بيَّنه الحافظ العراقي، ونقله عنه المناوي في «فيض القدير»(٢).

- **المسألة الرابعة: حكم إجابة السائل:**

ورد في المسألة أحاديث سبق أكثرها، ومنها حديث الباب: عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنِ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ فَأَعِيذُوهُ، وَمَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ فَأَعْطُوهُ** ...»(٣).

ذهب عامة أهل العلم إلى تقييد الأحاديث السابقة - التي تذُم مَن سُئل بالله ولم يُجِب - بقواعد الشريعة المجمع عليها، ومنها: أنه لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه، وأن كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وماله، وعرضه.

(١) «معجم المناهي اللفظية» ص١٨٢.

(٢) «فيض القدير» (١٠٨٣٠).

(٣) تقدَّم تخريجه.

فحملوا الأمر في قوله: «**مَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ فَأَعْطُوهُ**»، على الاستحباب.

قال ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يُستحب إجابة من سأل بالله»[(١)].

فإن كان في حال ضرورة فتجب إجابته.

قال الإمام البيهقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ينبغي للسائل أن يعظِّم أسماء الله – تعالى –، فلا يسأل بشيء منها من عَرَض الدنيا شيئا، وينبغي للمسؤول إذا سئل بالله – تعالى – أن لا يمنع ما استطاع»[(٢)].

---

(١) «المغني» (٩/٤٢٣). وقال الخطيب الشربيني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «مغني المحتاج» (٣/١٢٢): «يكره للإنسان أن يَسأل بوجه الله غير الجنة، وأن يمنع مَن يسأل بالله وتشفَّع به».

(٢) «شعب الإيمان» (٣/ ٢٧٦).

وجاء في «فتاوى نور على الدرب» لابن باز، بعناية الشويعر (١/١٨٥): «سائل يقول: بعض الناس يحرجوننا بكلمة: «أسألك بالله أن تعطيني كذا»، أو «أسألك بالله أن تبيعني كذا»، أو «أسألك بالله أن تخبرني بكذا». وفي بعض المرات نرفض تلبية طلبهم عندما لا يكون الطلب في محله. هل الرفض رغم كلمة أسالك بالله يعرضنا للإثم، أم أنه ليس علينا شيء في ذلك؟ نرجو الإفادة، جزاكم الله خيرا.

فأجاب: إذا كان السائل بالله لا حق له في هذا الشيء فلا حرج في ذلك، إن شاء الله. إن كان يقول: «أسالك بالله أن تعطيني دارك»، أو «تعطيني سيارتك»، أو «تعطيني كذا وكذا من المال»، هذا لا حق له. أما إذا كان يسأل حقا له، أسالك بالله أن توفيني ديني، أسالك بالله أن تعطيني من الزكاة، وهو من أهلها، تعطيه ما تيسر؛ لأن الرسول قال: «**مَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ**

وإجابة من سأل بالله من تعظيم الله وإجلاله، ومن تحقيق كمال التوحيد.

وقال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند قوله ﷺ في الحديث «**مَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ فَأَعْطُوهُ**»: «الأمر هنا للوجوب ما لم يتضمن السؤال إثما أو ضررا على المسئول؛ لأن في إعطائه إجابة لحاجته، وتعظيما لله - عز وجل - الذي سأل به. ولا يُشترط أن يكون سؤاله بلفظ الجلالة، بل بكل اسم يختص بالله»(١).

فَأَعْطُوهُ»، اللّهم صل وسلم عليه. فإذا كان له حق؛ كالفقير يسأل من الزكاة، أو حق عليك، له دين، يقول: «أسالك بالله أن توفيني ديني»، «أسالك بالله أن تنصرني على هذا الظالم»، وأنت تستطيع تنصره على الظالم، «أسالك بالله أن تعينني على كذا، وكذا» من إزالة المنكر، لا بأس بهذا، هذا أمر مطلوب عليك أن تعينه، وأن تستجيب له؛ لأنه سأل حقه، والرسول عليه السلام قال: «**مَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ فَأَعْطُوهُ**»، أما أن يسأل شيئا لا حق له فيه، أو يسأل معصية، هذا لا حق له في ذلك، وليس عليهم حرج إذا رفضوا طلبه؛ لأنه طلب ما ليس له. اهـ.

(١) «القول المفيد» (٢/ ٣٥٠).

وقال الشيخ العصيمي في «شرح كتاب التوحيد»: «والأمر هنا للإيجاب بخمسة شروط:

الأول: أن يعلم صدق السائل، ويكفي غلبة الظن. **والثاني**: أن يكون السائل متوجها في سؤاله لمسؤول معين. **والثالث**: أن يكون توجهه إليه في أمر معين. **والرابع**: قدرة المسؤول على الإجابة فيما سئل فيه. **والخامس**: أمن المسؤول الضرر على نفسه. فمتى وجدت هذه الشروط مجتمعة وجب الإعطاء، وحرم الرد لمن سأل بالله».

وأما الحديث الثاني في شَرِّ الناس: «**رَجُلٌ يُسْأَلُ بِاللَّهِ وَلَا يُعْطِي بِهِ**»(١)، فضبطه محتمل لوجهين:

الأول: «**يَسأَلُ بالله، ولا يُعطِي به**»؛ فالمذموم هو الذي جمع بين الأمرين: يسأل الناسَ بالله، ولكنه إذا سئِل بالله لا يُعطِي به، ولا شك أن هذا الفعل مذموم(٢).

وفي «تيسير العزيز الحميد» ص٥٧١: «الأحاديث دالة على إجابة من سئل بالله أو أقسم به، ولكن قال شيخ الإسلام: إنما تجب على معيَّن، فلا تجب على سائل يقسم على الناس، وظاهر كلام الفقهاء أن ذلك مستحب كإبرار القسم، والأول أصح».

(١) تقدم تخريجه.

(٢) جاء في «حاشية السندي على النسائي» (٥/ ٨٣): «(**الَّذِي يَسْأَلُ بِاللهِ**) على بناء الفاعل، أي: الذي يجمع بين القبيحين: أحدهما: السؤال بالله، والثاني: عدم الإعطاء لمن يسأل به تعالى، فما يراعي حرمة اسمه - تعالى - في الوقتين جميعا. وأما جعله مبنيا للمفعول فبعيد؛ إذ لا صنع للعبد في أن يسأله السائلُ بالله، فلا وجه للجمع بينه وبين ترك الإعطاء في هذا المحل، والوجه في إفادة ذلك المعنى، أن يقال: الذي لا يعطى إذا سئل بالله ونحوه».

وقال السيوطي في «قوت المغتذي على جامع الترمذي» (١/ ٤٢٤): «قال العراقي: (ببناء «يُسأل» للمفعول، وببناء «يُعطِي» للفاعل، هكذا هو مضبوط في الأصول الصحيحة من الترمذي، ووقع في بعض النسخ الصحيحة من سنن النسائي بناؤهما للفاعل؛ أي: أنه يطلب بالله فإذا سئل به لا يعطي)، قال: (وله وجه صحيح)».

الثاني: «**يَسأَلُ بالله، ولا يُعطَى به**»، بمعنى أن المذموم هو الذي يَسأل بالله تعالى، فالسؤال بالله مذموم، ثم رغم وقوعه في هذا المذموم لا ينال به شيئا، فلا يعطيه الناس بسؤاله، فيعرِّض نفسه للمذلة، ويعرِّض اسم الله – تعالى – لعدم الإجابة(١).

* * *

(١) ينظر: «تحفة الأحوذي» للمباركفوري (٥/ ٢٤٠).

٤٧- باب
من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول

وَقَوْلِ اللهِ - تَعَالَى -: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ...﴾ [التوبة:٦٥] الآيَةَ.

عَنِ ابْنِ عُمَرَ وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَقَتَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، دَخَلَ حَدِيثُ بَعْضِهِمْ فِي بَعْضٍ، أَنَّهُ: «قَالَ رَجُلٌ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قُرَّائِنَا هَؤُلَاءِ؛ أَرْغَبَ بُطُونًا، وَلَا أَكْذَبَ أَلْسُنًا، وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ - يَعْنِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابَهُ الْقُرَّاءَ -.

فَقَالَ لَهُ عَوْفُ بْنُ مَالِكٍ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ، لَأُخْبِرَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ.

فَذَهَبَ عَوْفٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ لِيُخْبِرَهُ، فَوَجَدَ الْقُرْآنَ قَدْ سَبَقَهُ، فَجَاءَ ذَلِكَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَقَدْ ارْتَحَلَ وَرَكِبَ نَاقَتَهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَتَحَدَّثُ حَدِيثَ الرَّكْبِ؛ نَقْطَعُ بِهِ عَنَّا الطَّرِيقَ.

قَالَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ مُتَعَلِّقًا بِنِسْعَةِ نَاقَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَإِنَّ الْحِجَارَةَ تَنْكُبُ رِجْلَيْهِ، وَهُوَ يَقُولُ: إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ. فَيَقُولُ لَهُ

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾، مَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ وَمَا يَزِيدُهُ عَلَيْهِ[١].

ooo

الشرح:

ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب آية وحديثا واحدا.

والكلام على هذا الباب في الفصلين التاليين.

* * *

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/٥٤٣)، وابن أبي حاتم (١٠٠٤٧).

الفصل الأول: مقصود الباب، وموضوعه العام

بيان حكم من استهزأ بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول.

والتوحيد استسلام وانقياد، وقبول وتعظيم، فهو أبعد ما يكون عن ذلك، فلا يَصدُر الاستهزاء بالله - تعالى -، أو برسوله ﷺ، أو بالقرآن، إلا من منافق أو كافر.

ولا يكون هذا إلا ممن شرح صدرا بهذا الكلام، ولو كان الإيمان في قلبه لمنَعَه أن يتكلم بهذا الكلام.

فائدة: قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المراد بالرسول هنا: اسم الجنس، فيشمل جميع الرسل، وليس المراد محمدا ﷺ؛ فـ«أل» للجنس، وليست للعهد»(١).

* * *

(١) «القول المفيد» (٢/ ٢٦٧).

الفصل الثاني: المباحث الموضوعية

المبحث الأول: معنى الاستهزاء، وضابطه:

الاستهزاء بمعنى السخرية. قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠].

ويُرجَع في ضابطه إلى العرف، فما عدَّه الناس استهزاء فهو كذلك.

فالاستهزاء بالدِّين يشمل كلَّ قول أو فعل، يدل على الطعن في الدين، والتنقُّص منه، والاستخفاف به.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والاسم إذا لم يكن له حَدٌّ في اللغة ... ولا في الشرع ... فإنه يُرجع في حدِّه إلى العُرف؛ كالقَبْضِ والحِرْزِ ... فيجب أن يُرجَع في حَدِّ الأذى والشتم والسَّبِّ إلى العُرف، فما عَدَّه أهل العرف سبًّا أو انتقاصا أو عيبا أو طعنا ونحو ذلك، فهو من السَّبِّ»[١].

(١) «الصارم المسلول» ص٥٣٢.

وقال أيضا: «جِماع ذلك أن ما يَعرِف الناس أنه سَبٌّ فهو سَبٌّ، وقد يختلف ذلك باختلاف الأحوال والاصطلاحات والعادات وكيفية الكلام ونحو ذلك. وما اشتبه فيه الأمر أُلحِق بنظيره وشبهه[1]»[2].

وقال الغزالي: «ومعنى السخرية: الاستهانة، والتحقير، والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحَك منه. وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول، وقد يكون بالإشارة والإيماء»[3].

أمثلة الاستهزاء الواردة في النصوص:

الأول: قول الله - تعالى - عن اليهود: ﴿**لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ**﴾ [آل عمران: ١٨١].

---

(١) السابق ص٥٣٩.

(٢) وقال - أيضا - ص٥٦٣: «السَّبُّ الذي ذكرنا حكمه من المسلم هو: الكلام الذي يُقصد به الانتقاص والاستخفاف، وهو ما يفهم منه السب في عقول الناس على اختلاف اعتقاداتهم؛ كاللعن والتقبيح ونحوه».

وقال ص٥٤٧: «وأما السابُّ: فإنه مُظهِر للتنقُّصِ والاستخفاف والاستهانة بالله، مُنتهِك لحرمته انتهاكا يعلم هو من نفسه أنه منتهك مستخف مستهزئ».

وقد أُفرِد هذا الموضوع برسالة علمية بعنوان: «الاستهزاء بالدين: أحكامه وآثاره» لأحمد القرشي، وقد أفدت منها.

(٣) «إحياء علوم الدين» (٣/ ١٣١).

الثاني: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ﴾ [المائدة: ٦٤].

الثالث: الحوارات بين الرسل وأقوامهم المكذبين، تضمنت نماذج كثيرة من ذلك.

ولقد كان الاستهزاء سمة في طريق الدعوة بين الرسل وأقوامهم، كما يظهر من قوله تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠]، وقوله - جلَّ ذكرُه -: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ۞ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الزخرف: ٦-٧].

ooo

المبحث الثاني: حكم الاستهزاء بالله ورُسُله ودين الإسلام:

من استهزأ بالله أو رسله أو دين الإسلام فهو كافر.

ومن الأدلة على ذلك:

أولا: قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۞ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥ - ٦٦]، وهذا نص في كفره، ولو كان هازلا.

وذكر في سبب نزولها أقوال:

الأول: قول بعض المنافقين في غزوة تبوك: «ما رأينا مثل قُرَّائنا هؤلاء؛ أرغبَ بُطُونا، ولا أكذبَ ألسُنًا، ولا أجبَنَ عند اللقاء»[1].

الثاني: أن ناسا من المنافقين قالوا: «يرجو هذا الرجل أن يفتح قصور الشام وحصونَها، هيهات»[2]، وقولُ بعضهم: «أتحسبون جِلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضا»[3].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإنما لم يُقِم الحَدَّ عليهم؛ لكون جهاد المنافقين لم يكن قد أُمِر به إذ ذاك، بل كان مأمورا بأن يدَعَ أذاهم، ولأنه كان له أن يعفو عمن تنقَّصَه وآذاه»[4].

ثانيا: قوله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا**﴾ [الأحزاب: ٥٧].

وذكر ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجوها في دلالة الآية، ومما قاله: «لم يجِئْ إعداد العذاب المهين في القرآن إلا في حق الكفار»[5]، وهذا دليل استقرائي.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ٥٤٤)، وابن أبي حاتم (١٠٠٤٩).

(٣) سيرة ابن هشام (٢/ ٥٢٥).

(٤) «الصارم المسلول» ص٣٣.

(٥) السابق ص٥٢.

وفي تفسير القرطبي: «وقد ميَّز الله - تعالى - بين أذاه وأذى الرسول وأذى المؤمنين، فجعل الأول كفرا والثاني كبيرة»(١).

ثالثا: قوله تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ**﴾ [الحجرات: ٢].

فإذا كان رفعُ الصوت فوق صوت النبي والجَهْر له بالقول يُخاف منه أن يَكْفُرَ صاحبُه وهو لا يشعر، ويحبَط عملُه بذلك، فكيف بما هو أعظم من ذلك من السب والاستهزاء؟!

فالاستهزاء ينافي الإيمان منافاة عظيمة؛ إذ كيف يسخر إنسان ويستهزئ بأمر يؤمن به، ويعظِّمُه؟!

رابعا: الإجماع:

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال الإمام إسحاق بن راهويه - أحد الأئمة الأعلام -: أجمع المسلمون على أن من سبَّ رسولَ الله ﷺ، أو دفع شيئا مما أنزل الله - عز وجل - أو قتل نبيا من أنبياء الله - عز وجل -: أنه كافر بذلك وإن كان مُقِرًّا بكل ما أنزل الله»(٢).

(١) «تفسير القرطبي» (١٤/ ٢٤٠).

(٢) «الصارم المسلول» ص٩.

وفي «تيسير العزيز الحميد»: «أجمع العلماء على كفر من فعل شيئا من ذلك؛ فمن استهزأ بالله، أو بكتابه، أو برسوله، أو بدينه، كَفَر، ولو هازلا لم يقصد حقيقة الاستهزاء إجماعًا»(١).

وإذا تقرَّر كفرُه ترتَّب على ذلك أمور؛ منها:

أولا: إهدار دمه:

لقوله ﷺ: «**مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ**»(٢).

وقوله ﷺ: «**لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ**: ...- وذكر منها - **التَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ**»(٣).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ أَعْمَى كَانَتْ لَهُ أُمُّ وَلَدٍ تَشْتُمُ النَّبِيَّ ﷺ، وَتَقَعُ فِيهِ، فَيَنْهَاهَا، فَلَا تَنْتَهِي، وَيَزْجُرُهَا فَلَا تَنْزَجِرُ، قَالَ: فَلَمَّا كَانَتْ ذَاتَ لَيْلَةٍ، جَعَلَتْ تَقَعُ فِي النَّبِيِّ ﷺ، وَتَشْتُمُهُ، فَأَخَذَ الْمِغْوَلَ فَوَضَعَهُ فِي بَطْنِهَا، وَاتَّكَأَ عَلَيْهَا فَقَتَلَهَا ... فلما أصبح ذُكِر ذلك لرسول ﷺ ... فقال ﷺ: «**أَلَا اشْهَدُوا أَنَّ دَمَهَا هَدَرٌ**»(٤).

---

(١) «تيسير العزيز الحميد» ص٥٣٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٠١٧و ٦٩٢٢)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٤٣٦١)، والنسائي (٤٠٧٠)، وصححه الألباني.

ثانيا: حُبوط عمله:

قال تعالى: ﴿**وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ**﴾ [البقرة: ٢١٧].

وغير ذلك من آثار الردة.

ومن وقع في شيء من ذلك فعليه المسارعة بالتوبة، وتجديد الإسلام.

واجب المسلم عند سماع الاستهزاء:

الاستهزاء بالدين مَرْتَع وَخِيم، وبلاء عظيم، وقع التساهل به في الأزمنة المتأخِّرة لاسيما في وسائل الإعلام ووسائل التواصل بأنواعها. و«الواجب على المسلم إذا سمع أو رأى شيئا من الاستهزاء بالدين أن يُنكِر على قائله وفاعله إنكارا شديدا، فإن لم يستجب له لزمه مغادرة المكان الذي هو فيه. قال تعالى: ﴿**وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا**﴾ [النساء: ١٤٠].

وأما التبسُّم والضحك عند سماع هذا الكلام، فيجعل صاحبه شريكا للقائل في الإثم إن كان عن رضا وقبول، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ**﴾، وإن لم

يكن عن رضا وقبول، فهو معصية كبيرة تدل على عدم تمكُّنِ تعظيم الله وشعائره من قلبه»(١).

ooo

المبحث الثالث: حكم الاستهزاء بالصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ:

الصحابي: من لقِي النبي ﷺ مؤمنا، ومات على ذلك(٢).

والصحابة خير القرون، عدَّلهم الله في كتابه، واختارهم لصُحبة نبيه ﷺ.

ويحرم سبُّهم والاستهزاء بهم؛ لقوله ﷺ: «**لا تَسُبُّوا أَصْحَابِي؛ فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ، ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلا نَصِيفَهُ**»(٣).

وعن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: «**مَنْ سَبَّ أَصْحَابِي فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ، وَالْمَلَائِكَةِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**»(٤).

---

(١) «موقع الإسلام سؤال وجواب»، فتوى رقم (١٦٣٦٢٧).

(٢) ينظر: «الإصابة في تمييز الصحابة» (١/ ١٥٨).

(٣) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٤) **حسن**: أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢٧٠٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (٢٣٤٠). وأخرجه أحمد في «فضائل الصحابة» (٨)، والخلال في «السنة» (٨٣٣)، والطبراني في «الدعاء» (٢١٠٨) بزيادة: «**لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا**»، من حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وحقيقة سبهم تبرُّؤ منهم.

وسبهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ له صور(١)**:**

الأولى: أن يسُبَّهم جملة بما يقتضي كفر أكثرهم، أو أن عامتهم فسقوا، فهذا كفر؛ لأنه تكذيب لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ورسوله ﷺ في الثناء عليهم والترضي عنهم، ولأن مضمون هذه المقالة أنَّ نَقَلَةَ الكتاب والسنة كفار، أو فسَّاق.

ونقل الخلَّال عن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنه سُئِل عمَّن يشتم أبا بكر وعمر وعائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، فقال: «ما أراه على الإسلام»(٢).

الثانية: أن يسُبَّهم باللَّعن والتقبيح، ففي كفره قولان لأهل العلم، وعلى القول بأنه لا يكفُر، فإنه يجب أن يُجلَد ويحبس حتى يموت، أو يرجع عما قال.

الثالثة: أن يسُبَّهم بما لا يقدح في دينهم؛ كالجبن والبخل، فلا يكفُر، ولكن يُعَزَّر بما يردعه عن ذلك.

ooo

---

(١) «مجموع فتاوى ابن عثيمين» (٥/ ٨٤) وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ذكر معنى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب (الصارم المسلول)، ونقل عن أحمد في ص٥٧٣ قوله: (لا يجوز لأحد أن يذكر شيئا من مساوئهم، ولا يطعن على أحد منهم بعيب أو نقص، فمن فعل ذلك أُدِّب، فإن تاب وإلا جُلِد في الحبس حتى يموت أو يرجع)».

(٢) «السنة» للخلال (٧٧٩).

المبحث الرابع: حكم الاستهزاء بالعلماء وسائر المسلمين:

الاستهزاء بالمسلم له صورتان:

الأولى: أن يكون ذلك في أمر ديني؛ كاللحية، وتقصير الثوب، وحجاب المرأة.

فإن كان الاستهزاء لذات الشرع فهو كفر. وإن كان عائدا على الشخص فهو فسق.

الثانية: أن يكون الاستهزاء بذات الأشخاص وأفعالهم الدنيوية المجردة؛ كمن يستهزئ بفلان في لباسه أو أكله، فهو فسق، وفيه يقول تعالى: **﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾** [الحجرات: ١١].

وقال علماء اللجنة الدائمة: «من استهزأ بدين الإسلام أو بالسنَّة الثابتة عن رسول الله ﷺ؛ كإعفاء اللحية وتقصير الثوب ... وهو يعلم ثبوت ذلك، فهو كافر، ومن سَخِر من المسلم واستهزأ به من أجل تمسُّكِه بالإسلام فهو كافر؛ لقول الله - عز وجل -: **﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ﴾** [التوبة: ٦٥ - ٦٦]»(١) أهـ.

- **ويَدْخُل في ذلك العلماءُ، والاستهزاء بهم أشد من الاستهزاء بسائر المسلمين:**

فإن كان الاستهزاء لدينهم وما معهم من العلم الشرعي، فهو كفر أكبر.

وإن كان لأشخاصهم وذواتهم (أي: لصفاتهم الخَلقية أو الخُلقية)، فهو فسق.

○○○

(١) «فتاوى اللجنة الدائمة» (٢/ ٤٤).

المبحث الخامس: توبة المستهزئ:

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«اختُلِف في ذلك على قولين:

القول الأول: أنها لا تقبل توبة من سبَّ اللهَ أو سبَّ رسولَه ﷺ، وهو المشهور عند الحنابلة، بل يُقتل كافرًا، ولا يصلَّى عليه، ولا يُدْعَى له بالرحمة، ويدفن في محل بعيد عن قبور المسلمين.

القول الثاني: أنها تقبل توبة مَن سبَّ اللهَ أو سبَّ رسولَه ﷺ إذا علمنا صدق توبته إلى الله، وأقر على نفسه بالخطأ، ووصف الله - تعالى - بما يستحق من صفات التعظيم، وذلك لعموم الأدلة الدالة على قبول التوبة؛ كقوله تعالى: ﴿**قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا**﴾ [الزمر: ٥٣]، ومن الكفار من يسب الله، ومع ذلك تقبل توبتهم. **وهذا هو الصحيح**.

ومما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ**﴾ [التوبة: ٦٥- ٦٦]، فقوله: ﴿**إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ**﴾، يدل على أن من هؤلاء من عُفِيَ عنه، وهُدِيَ للإسلام، وتاب، وتاب الله عليه.

لكن لا بد من دليل بيِّن على صدق توبته؛ لأن كفره من أشد الكفر»[1].

---

(١) «مجموع فتاوى ابن عثيمين» (٢/ ١٥٠)، بتصرف يسير.

مسألة: الفرق بين من سَبَّ الله - تعالى - ومن سَبَّ رسوله ﷺ:

سابُّ الرسول ﷺ تُقبل توبتُه ويجب قتلُه، بخلاف من سب الله، فإنها تقبل توبته ولا يُقتل؛ لأن الله أخبرنا بعفوه عن حقِّه إذا تاب العبد، بأنه يغفر الذنوب جميعا. أما سابُّ الرسول ﷺ فيتعلق به أمران:

أحدهما: أمر شرعي لكونه رسولَ الله ﷺ، وهذا يقبل إذا تاب.

الثاني: أمر شخصي، وهذا لا تُقبل التوبة فيه؛ لكونه حقَّ آدمي لم يُعلَمْ عفوُه عنه، وعلى هذا فيُقتل ولكن إذا قُتِل، غسَّلْناه، وكفَّناه، وصلَّينا عليه، ودفناه مع المسلمين. وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقد ألف كتابًا في ذلك اسمه «الصارم المسلول على شاتم الرسول». وذلك لأنه استهان بحق الرسول ﷺ، وكذا لو قذفه ﷺ فإنه يقتل ولا يُجلَد.

فإن قيل: أليس قد ثبت أن مِن الناس مَن سَبَّ الرسول ﷺ في حياته وقَبِل النبيُّ ﷺ توبتَه؟

أجيب: بأن هذا صحيح، لكن هذا في حياته ﷺ، والحق الذي له قد أسقطه، وأما بعد موته فإنه لا يملك أحدٌ إسقاط حقِّه ﷺ فيجب علينا تنفيذ ما يقتضيه سبُّه ﷺ من قتل سابِّه. وقبول توبة الساب فيما بينه وبين الله - تعالى -.

فإن قيل: إذا كان يحتمل أن يعفو عنه لو كان في حياته، أفلا يوجب ذلك أن نتوقف في حكمه؟

أجيب: بأن ذلك لا يوجب التوقُّف؛ لأن المفسدة حصلت بالسَّبِّ، وارتفاع أثر هذا السب غير معلوم والأصل بقاؤه.

فإن قيل: أليس الغالب أن الرسول ﷺ يعفو عمَّن سبَّه؟

أجيب: بلى، وربما كان العفو في حياة الرسول ﷺ متضمِّنًا المصلحة، وهي التأليف، كما كان ﷺ يَعْلَم أعيان المنافقين ولم يقتلهم؛ لئلا يتحدَّث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه، لكن الآن لو علمنا أحدا بعينه من المنافقين لقتلناه، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن عدم قتل المنافق المعلوم إنما هو في حياة الرسول ﷺ فقط»[1].

○○○

المبحث السادس: وقفات وعِبر:

الوقفة الأولى: من الأسباب التي تجرِّئ على الاستهزاء: ضعفُ الاحتساب، وتهاون ولاة الأمر مع هؤلاء.

قال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حَدَّث أبو معاوية الضرير الخليفةَ هارون الرشيد بحديث (**احْتَجَّ آدَمُ وَمُوْسَى ...**)[2]، فقال رجل حاضر: فأين لقِيَه؟، فغضب

(١) ينظر: «زاد المعاد» (٣/ ٤٩٦).

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣٤٠٩) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٦٥٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

الرشيد، وقال: النِّطْعَ والسيفَ، زنديق يطعن في الحديث. فما زال أبو معاوية يُسَكِّنه، ويقول: بادِرَة منه، يا أمير المؤمنين! حتى سكن»(١).

الوقفة الثانية: عِبَر من المستهزئين:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال الطبراني: سمعت أبا يحيى زكريا بن يحيى الساجِي قال: كنا نمشي في بعض أزقة البصرة إلى باب بعض المحدثين، فأسرعنا المشي، وكان معنا رجل ماجِن مُتَّهَم في دينه، فقال: ارفعوا أرجُلِكم عن أجنحة الملائكة لا تكسِرُوها، كالمستهزئ! فما زال من موضعه حتى جَفَّت رجلاه وسقط»(٢).

ونقل النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن بعض المبتدعة أنه حين سمع قول النبي ﷺ: «**إِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ مِنْ نَوْمِهِ، فَلَا يَغْمِسْ يَدَهُ فِي الْإِنَاءِ حَتَّى يَغْسِلَهَا ثَلَاثًا؛ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي أَيْنَ بَاتَتْ يَدُهُ**»(٣)، قال ذلك المبتدع - على سبيل التهكم -: (أنا أدري أين باتت يدي، في الفراش)، فأصبح وقد أدخل يده في دبره إلى ذراعه(٤).

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٩/ ٢٨٨).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٦٤).

(٣) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (١٦٢)، ومسلم (٢٧٨) واللفظ له، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٤) «بستان العارفين» ص ١٧.

فالحاصل أن المسلم ينبغي عليه أن ينأى بنفسه عن الخوض في مثل هذه الأمور، كما عليه أن ينأى بنفسه عن المجالس التي يقع فيها هذا المنكر، وليحذر من المجاملة والإقرار؛ فالأمر عظيم، والأثر كبير.

* * *

٥٢- باب
قول: اللهم اغفر لي إن شئت

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**لا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ، لِيَعْزِمِ المَسْأَلَةَ؛ فَإِنَّ اللهَ لا مُكْرِهَ لَهُ**»(١). وَلِمُسْلِمٍ: «**وَلْيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ؛ فَإِنَّ اللهَ لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ**»(٢).

ooo

الشرح:

ذكر المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ في هذا الباب حديثا واحدا.

والكلام على هذا الباب في الفصلين التاليين:

* * *

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٦٣٣٩)، ومسلم (٢٦٧٩).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٧٩) وهو إحدى روايات الحديث السابق.

الفصل الأول: مقصود الباب، وموضوعه العام

بيان أن مِن تحقيق التوحيد أن يُعظَّم الله ويُقْدَر حقَّ قدره، ومن ذلك: اعتقاد شمول علمِه، ومُلْكِه، وقدرته. ومما يَقْدح في هذا الاعتقاد: الاستثناء في الدعاء؛ فهو لا يتناسب مع مقام التعظيم لله - تعالى -.

فهذا الباب له ارتباط بالتوحيد من جهتين(١):

الأولى: مِن جهة الربوبية: فإن مَن أتى بها يُشعِر بأن الله له مُكْرِه، لم يحقِّق تمام الإيمان بربوبيته - تعالى -؛ لأن مِن تمام ربوبيته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أنه لا مُكرِه له، بل إنه لا يُسأل عما يفعل، كما جاء في قوله تعالى: ﴿**لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ**﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وكذلك فيه انتقاص لحق الربوبية من جهة أخرى؛ لأنَّ هذه الجملة قد يُفهم منها أنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يتعاظم الأشياء التي يعطيها؛ فكان في ذلك قدح في جوده وكرمه - سبحانه -.

الثانية: من جهة العبد: فإنه يُشْعِر باستغنائه عن ربه، كأنه يقول: هذا الأمر ليس ضروريا، إن تحقق وإلا فلستُ حريصا عليه، وهذا نقص في توحيد الإنسان، وفيه سوء أدب مع الله - تعالى -؛ لأن الدعاء مبناه على التَّضرع والتَّذَلُّل، وتمام الافتقار، ولا يتناسب هذا مع قول العبد: «اللّٰهم اغفر لي إن شئت»!.

* * *

(١) ينظر: «القول المفيد» (٣/ ٩٢).

الفصل الثاني: المباحث الموضوعية

تعليق الدعاء بالمشيئة يسمى: الاستثناء في الدعاء، كما قال تعالى: ﴿إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ۝١٧ وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ [القلم: ١٧-١٨]، أي: لم يقولوا: إن شاء الله.

المبحث الأول: حكم تعليق الدعاء بالمشيئة[١]:

أفاد الحديث النهي عن تعليق الدعاء بالمشيئة؛ لقوله ﷺ: «**لا يَقُلْ أَحَدُكُمْ**...»، لكن اختلف العلماء في دلالة هذا النهي على قولين:

الأول: أنه مكروه: وهو رأي القاضي عياض[٢]، والنووي[٣]، وابن حجر[٤]، والعراقي[٥].

---

(١) ينظر: «الاستثناء في الدعاء: دراسة عقدية»، للدكتور عبد الرحمن التركي، بحث نُشر في مجلة جامعة الإمام، عدد ٢٤، رجب ١٤٣٣ ص٦٩.

(٢) ينظر: «إكمال المعلم» (٨/ ١٧٨).

(٣) ينظر: «شرح النووي على مسلم» (١٧/ ٧).

(٤) ينظر: «فتح الباري» (١١/ ١٤٠).

(٥) ينظر: «طرح التثريب في شرح التقريب» (٣/ ١١٧).

الثاني: **أنه محرم**: وهو قول ابن عبد البر[١]، والقرافي[٢]، وابن القيم[٣]، وغالب شراح كتاب التوحيد، ومنهم: الشيخ ابن عثيمين[٤]. وهو أرجح للنهي الصريح، والأصل في النهي أنه يفيد التحريم، ولِلْعِلل المُضمَّنة فيه، كما سيأتي.

ooo

المبحث الثاني: علة النهي عن تعليق الدعاء بالمشيئة[٥]:

المحظور في هذا التعليق من وجوه:

الأول: أنه يُشعِر بأن الله له مُكرِهٌ على الشيء، وأن وراءه من يستطيع أن يمنَعه! فكأن الداعي بهذه الكيفية يقول: أنا لا أكرهك، إن شئت فاغفر، وإن شئت فلا تغفر.

---

(١) «التمهيد» (١٩/ ٤٩).

(٢) ينظر: «الفروق» (٤/ ٢٨٥).

(٣) «إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان» (١/ ١٩).

(٤) «القول المفيد» (٢/ ٣٣١).

(٥) غالبه من «القول المفيد» (٢/ ٣٣١) بتصرف وزيادة، وانظره موسعا في بحث «الاستثناء في الدعاء» ص٥٤ - ٦٨.

الثاني: أن قول القائل: «إنْ شِئْتَ»، كأنه يرى أن هذا أمر عظيم على الله، فقد لا يشاؤه لكونه عظيما عنده، ونظير ذلك أن تقول لشخص من الناس – والمثال للصورة بالصورة لا للحقيقة بالحقيقة –: أعطني مليون ريال، إن شئت.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَدُ اللَّهِ مَلْأَى، لا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**[1]. **وَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ**»[2].

الثالث: أنه يُشعِر بأن الطالب مُسْتَغْنٍ عن الله، كأنه يقول: إن شئت فافعل، وإن شئت فلا تفعل فأنا لا يهمني، ولست حريصا عليه. وهذا مناف لحقيقة العبودية.

الرابع: أن هذا القول عبَث لا معنى له؛ لأنه أمر معلوم متيقَّن، فالله – تعالى – لا يغفر ولا يرحم إلا لمن يشاء.

الخامس: أن هذا يدل على فتور الرغبة، وضعف الاهتمام والحرص على الشيء المسؤول.

---

(١) جاء في «النهاية» (٢/٣٤٥) في معنى قوله: «**سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**»، أي: دائمة الصَّبِّ والهطْل بالعطاء.

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٤٦٨٤) وفي مواضع أخرى، واللفظ له، ومسلم (٩٩٣).

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن كان هذا حاله لم يتحقق من حاله الافتقار والاضطرار الذي هو روح عبادة الدعاء»[1].

فيكون هذا من الاعتداء في الدعاء؛ لأن الاعتداء تجاوز الحد.

فهذه العلل الخمس تُقَوِّي المنع، وأن هذا لا يناسب مقام الموحدين الذين امتلأت قلوبهم بحقيقة التوحيد.

تنبيه:

قد يقول بعض الناس هذه الكلمة تبرُّكا لا تعليقا، فلا يأخذُ هذا الحكم، لعدم تحقق العلل السابقة، لكن مع ذلك ينبغي ترك هذه العبارة؛ تأدُّبا مع النهي في الحديث، وسدًّا للذريعة المفضية إلى الوقوع في المحذور.

ooo

المبحث الثالث: إشكالات وجوابها:

الأول: الجواب عما ورد في حديث الاستخارة: «**اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ -**

---

(١) «المفهم» (٩/ ٤٦٤).

فَاقْدُرْهُ لِي...»[1]، وما ورد في الحديث الآخر: «**اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الوَفَاةُ خَيْرًا لِي**»[1].

الجواب: أن الداعي لم يعلِّق دعاءه بالمشيئة، فلم يقل: «فاقدره لي إن شئت»، بل جزم في الدعاء، لكنه اشتبه عليه أي الأمرين خير، ففَوَّض أمره إلى الله لكمال علمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الثاني: الجواب عن الدعاء للمريض: «**لا بَأْسَ، طَهُورٌ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ**»[2].

الجواب: أن هذا خبر لا دعاء، فهذا من باب الخبر والتفاؤل أن يكون هذا المرض طهورا لصاحبه. وهذا كقوله تعالى: ﴿**لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ**﴾ [الفتح: ٢٧]، وقوله - سبحانه -: ﴿**ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ**﴾ [يوسف: ٩٩]. وقيل: هو للتبرك.

* * *

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٣٨٢) وفي مواضع أخرى، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٥٦٧١)، ومسلم (٢٦٨٠)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٦١٦) ومواضع أخرى، من حديث عبد الله بن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

٥٦- باب
ما جاء في الـ «لو»

وَقَوْلِ اللهِ - تَعَالَى -: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤] الآيَةَ.

وَقَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾ [آل عمران: ١٦٨] الآيَةَ.

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزَنْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ لَكَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»(١).

○○○

الشرح:

ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب آيتين وحديثا واحدا.

والكلام على هذا الباب في الفصلين التاليين:

* * *

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٦٤).

الفصل الأول: مقصود الباب، وموضوعه العام

أن من تمام التوحيد وتحقيقه: أن يطمئن العبدُ، ويرضى بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ رَبًّا خالقا مُدَبِّرا، وأن ما كان وما يكون فهو بقدر الله وقضائه السابق النافذ، والاعتراض على شيء من ذلك بـ«لو»، يُخِلُّ بهذا الجانب. فكلما قوي تحقيق التوحيد في القلب قويت الطمأنينة والرضا في القلب.

ولهذا تجد أشْرَحَ الناس صَدْرا وأطيبَهم عَيْشا، من كان محقِّقا للتوحيد. قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾[الزمر: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[الأنعام: ١٢٥].

* * *

الفصل الثاني: المباحث الموضوعية

حكم استعمال «لو»:

جاء استعمال «لو» في كتاب الله - تعالى -، وعلى لسان رسول الله ﷺ، وجاء النهي عنها في حديث الباب، فكان لا بُد من معرفة مواضع جوازها، ومواضع منعها، ومن تبويبات الإمام البخاري في صحيحه: «باب ما يجوز من الـ «لو»، وقوله تعالى:﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ [هود: ٨٠]».

وتلخيص ذلك أن يُقال: إن استعمال «لو» يرد على وجوه[١]:

الوجه الأول: أن يكون المراد بها مجرَّدَ الخبر:

مثل أن يقول الإنسان لشخص: «لو زرتني لأكرمتك».

وحكم هذا الوجه: لا بأس به. ومنه قوله ﷺ: «**لَوِ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ مَا سُقْتُ الهَدْيَ، وَلَحَلَلْتُ مَعَ النَّاسِ حِينَ حَلُّوا**»[٢]، فأخبر النبي ﷺ أنه لو علم أن هذا الأمر سيكون من الصحابة ما ساق الهدي ولحَلَّ.

الوجه الثاني: أن يقصد بها التمني:

---

(١) ينظر: «مجموع فتاوى الشيخ ابن عثيمين» (٣/ ١٢٧) بتصرف.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٢٢٩)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

مثل أن يقول الإنسان: «لو أنَّ عندي كذا لفعلتُ كذا وكذا».

وحكم هذا الوجه: يختلف بحسب ما تمناه؛ فإن تمنى بها خيرا فهو مأجور بنيته، وإن تمنى بها سوى ذلك فهو بحسبه.

ومنه ما جاء في حديث أبي كبشة الأنماري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أنه سمع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ: عَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَعِلْمًا فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَيَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَفْضَلِ المَنَازِلِ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ، يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ، فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا، فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَلَا يَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَخْبَثِ المَنَازِلِ، وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ اللَّهُ مَالًا وَلَا عِلْمًا، فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلَانٍ، فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ**»(١).

الوجه الثالث: أن يُراد بها التحسر والندم على ما مضى:

وحكمُ هذا الوجه: أنَّه منهي عنه، وهو نوع اعتراض على قدَر الله، وفتح باب للأحزان، ومدخل للشيطان على العبد. وهذا الوجه هو المقصود في

---

(١) **صحيح:** أخرجه الترمذي (٢٣٢٥) واللفظ له، وابن ماجه (٤٢٢٨)، وصححه الألباني.

الحديث بقوله ﷺ: «**وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**»[1].

وهذا التحسر له صورتان:

الصورة الأولى: أن يكون اعتراضا على الشرع:

وهذا محرم، ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿**لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ**﴾، وكقول بعض الكسالى: لو كانت صلاة الجماعة غير واجبة لارتحنا كالنساء.

الصورة الثاني: أن يكون اعتراضا على القدر:

وهذا محرم أيضا، ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ**﴾[آل عمران: ١٥٦]، وكقول بعضهم: لو أني لم أشترِ تلك السلعة لما خسرت مالي.

* * *

(١) تقدم تخريجه.

٥٧- باب
النهي عن سب الريح

عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**لا تَسُبُّوا الرِّيحَ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ فَقُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيحِ، وَخَيْرِ مَا فِيهَا وَخَيْرِ مَا أُمِرَتْ بِهِ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ، وَشَرِّ مَا فِيهَا وَشَرِّ مَا أُمِرَتْ بِهِ**»[1]. صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ.

○○○

الشرح:

ذكر المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ في هذا الباب حديثا واحدا.

والكلام على هذا الباب في الفصلين التاليين:

❋ ❋ ❋

---

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٢٢٥٢)، وأحمد (٢١١٣٨) وصححه الألباني.

الفصل الأول: مقصود الباب، وموضوعه العام

الريح مخلوقة مُدَبَّرة من الله - تعالى -، يصرِّفها كيف يشاء، تؤمر فتأتمر، فسبُّها سبٌ لربها ومُدَبِّرِها، وهذا لا يليق بمَن وحَّد الله وعظَّمَه. وهذا قريب مما سبق في سب الدهر.

* * *

الفصل الثاني: المباحث الموضوعية

المبحث الأول: الرياح آية من آيات الله وخلق من مخلوقاته:

الرياح من أعظم آيات الله الدالةِ على عظمته وربوبيته وقدرته، وفيها من العبر: هبوبُها، وسكونها، ولِينها، وشِدَّتها، واختلاف طبائعها، وصفاتها، ومهابها، وتصريفها، وتنوع منافعها، وشدة الحاجة إليها. وقد أقسم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها في قوله: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا﴾ [الذاريات: ١]، فالذاريات هي الرياح تذرو التراب، أي: تسفيه، وتذرو النبات إذا تهشم.

وأقسم بها – أيضا – في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا ١ فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا ٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا﴾ [المرسلات: ١-٣]، فالمرسلات هي الرياح يُرْسِلها الله بُشْرًا بين يدَيْ رحمته. والعاصفات هي: الرياح الشديدة، وكذا الناشرات هي: الرياح التي تنشر السحاب في آفاق السماء، كما يشاء الرب – عز وجل –.

فقد أقسم الله بها في كتابه في أكثر من موضع، وقسم الله بالشيء يدل على عظمته.

وكما أن الرياح جندٌ من جنود الله يسلطها على من يشاء، فإنها – أيضا – خلق من خلق الله يسخرها لمن يشاء من عباده، قال تبارك وتعالى ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ﴾[الأنبياء:٨١]،

وقال سبحانه: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾[ص: ٣٦]، رخاء أي لينة طائعة.

وقال جل وعلا: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢]، أي: أن الريح تجري من أول النهار إلى انتصافه مسيرة شهر، ومن منتصف النهار إلى الليل مسيرة شهر بالسير المعتاد، فهي تقطع في اليوم الواحد مسيرة شهرين، وهذا تسخير عظيم.

ooo

المبحث الثاني: منافع الرياح:

خلق الله هذه الرياح وسخَّرها لعِباده وجعل لهم فيها منافع ومصالح قلَّ أن نتفكر فيها؛ ومنها:

أولا: أنها التي تثير السحاب المحمَّل بالماء فتنشره وتجعله قطعا متفرقة، ينزل منها المطر فيفرح الناس بذلك، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[الروم: ٤٨].

ثانيا: أنها تُسَيِّر السُّفُن، ولولاها لوقفت على ظهر البحر، وهذا في المراكب الشراعية قبل اختراع المراكب البخارية. قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ۝٣٢ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٣٣ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٢-٣٤].

ثالثا: أنها تلقِّح السحاب والشجر والنبات، قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢]، قال ابن كثير: «تلقح السحاب فتُدِر ماء، وتلقح الشجر فتتفتح عن أوراقها وأكمامها»(١).

رابعا: أنها تنظف الأرض وتعقِّم الجو، ولولا تسخيرُ الله هذه الرياح لعباده لذوى النبات، ومات الحيوان، وفسدت المطاعم، وأنتن العالم وفسد. فسبحان من جعل هبوب الرياح تأتي برَوْحه ورحمته ولطفه ونعمته.

خامسا: أنها تبرِّد الماء، وتضرم النار التي يراد إضرامها، وتجفف الأشياء التي يحتاج إلى جفافها، وغير ذلك مما لا نعلمه.

○○○

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٥٥).

المبحث الثالث: الرياح من جند الله ترسَل بالعذاب والرحمة:

نقل ابن كثير في تفسيره عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «الرياح ثمانية: أربعة منها رحمة، وأربعة منها عذاب: فأما الرحمة: فالناشرات، والمبشرات، والمرسلات، والذاريات.

وأما العذاب: فالعقيم، والصرصر - وهما في البر -، والعاصف، والقاصف، وهما في البحر»[(١)].

ولمَّا عتا قوم عاد، وقالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، أرسل الله عليهم الريح العقيم، قال جل وعلا: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤٢]. قال البغوي: «هي التي لا خير فيها ولا بركة، ولا تلقح شجرا ولا تحمل مطرا، ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ من أنفسهم وأنعامهم ومواشيهم وأموالهم ﴿إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾، أي: كالشيء الهالك البالي، وهو نبات الأرض إذا يبس ودِيْس»[(٢)].

ووصفها - تعالى - في آية أخرى، فقال: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦]، والصرصر هي: الريح الباردة، والعاتية: شديدة الهبوب،

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٢٩٠).

(٢) تفسير البغوي (٧/ ٣٧٨).

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾ متتابعة، لا تَفْتُر ولا تنقطع حتى أهلكتهم، ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧].

والرياح تأتي مبشرات بالغيث والرحمة، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

والرياح أيضا جند من جنود الله ينصر بها من يشاء من عباده المؤمنين، كما حصل في غزوة الخندق. قال الله – تعالى –: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩].

قال مجاهد: «يعني ريح الصَّبَا؛ أُرْسِلت على الأحزاب يوم الخندق، حتى كفأت قدورهم على أفواهها، ونزعت فَساطِيْطَهُم – خيامهم – حتى أظْعَنَتْهم»(١).

وفي الصحيحين عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «**نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ**»(٢). والصَّبا: هي الريح الشرقية، والدَّبور: هي الريح الغربية.

---

(١) تفسير مجاهد ص ٥٤٨.

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (١٠٣٥) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٩٠٠).

فالريح طيبة نافعة وعاصفة ضارة. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمۡ فِى ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِى ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢]، وضرب الله مثلا لأعمال الكفار وضياعِها وعدم نفعها أو إغنائها عنهم يوم القيامة، بأثر الريح العاصفة الشديدة في الرماد، فقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ [إبرهيم: ١٨].

○○○

المبحث الرابع: المشروع والممنوع عند هبوب الرياح:

أولا: تحقيق التوحيد:

فهذه الرياح مظهر من مظاهر قدرة الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ التي لا حد لها؛ فمن أسمائه - سبحانه - «القدير»، أي: المتصف بالقدرة المطلقة - جل وعلا -، وهبوب الرياح فرصة لتجديد توحيد الربوبية في القلب وأنه - سبحانه - المُدَبِّر لهذا الكون بما يشاء، المتصرف فيه بما يريد سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

ثانيا: الخوف من العذاب:

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا كَانَ يَوْمُ الرِّيحِ وَالْغَيْمِ، عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، وَأَقْبَلَ وَأَدْبَرَ، فَإِذَا مَطَرَتْ سُرَّ بِهِ، وَذَهَبَ عَنْهُ ذَلِكَ، قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: «**إِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ عَذَابًا سُلِّطَ عَلَى أُمَّتِي**»(١).

وقد قال الله - تعالى - عن قوم عاد، عندما أرسل علهم الريح: ﴿**فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَاۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [الأحقاف: ٢٤].

وعن أبي حُميد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: انْطَلَقْنا حَتَّى قَدِمْنا تَبُوكَ، فقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**سَتَهُبُّ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَةَ رِيحٌ شَدِيدَةٌ، فَلَا يَقُمْ فِيهَا أَحَدٌ مِنْكُمْ، فَمَنْ كَانَ لَهُ بَعِيرٌ فَلْيَشُدَّ عِقَالَهُ**»، فَهَبَّتْ رِيحٌ شَدِيدَةٌ، فَقَامَ رَجُلٌ فَحَمَلَتْهُ الرِّيحُ حَتَّى أَلْقَتْهُ بِجَبَلَيْ طَيِّئٍ»(٢).

ثالثا: الإتيان بالذكر الوارد:

كان النبي ﷺ إذا عصفت الريح، قال: «**اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا، وَخَيْرَ مَا فِيهَا، وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا، وَشَرِّ مَا فِيهَا، وَشَرِّ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ**»(٣).

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٤٨٢٩)، ومسلم (٨٩٩) واللفظ له.

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (١٤٨١)، ومسلم (١٣٩٢) واللفظ له.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٨٩٩)، من حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

إن من الناس من يتذمَّر عندما يرى الريح والغبار، وربما تطاول فسبَّها وشتمها، وقد نهى عن ذلك رسولُ الله ﷺ؛ حيث قال: «**لا تَسُبُّوا الرِّيحَ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ فَقُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيحِ، وَخَيْرِ مَا فِيهَا وَخَيْرِ مَا أُمِرَتْ بِهِ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ، وَشَرِّ مَا فِيهَا وَشَرِّ مَا أُمِرَتْ بِهِ**»(١).

وقال ﷺ «**لَا تُسُبُّوا الرِّيحَ؛ فَإِنَّهَا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ تَأْتِي بِالرَّحْمَةِ وَالْعَذَابِ، وَلَكِنْ سَلُوا اللَّهَ مِنْ خَيْرِهَا، وَتَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهَا**»(٢).

والسَّبُّ: هو الشتم، والعيب، والقدح، واللعن، ونحو ذلك.

ومما ينبغي التنبيه عليه قول بعض الناس: «اللّٰهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذابا، اللّٰهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا»(٣). وهذا وارد في حديث ضعيف جدا، والمشروع ما سبق بيانه.

رابعا: نسبة الظواهر الكونية إلى الطبيعة:

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) **صحيح**: أخرجه ابو داود (٥٠٩٧)، وابن ماجه (٣٧٢٧) واللفظ له، وأحمد (٧٦٣١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني.

(٣) **ضعيف جدا**: أخرجه الشافعي كما في مسنده (٥٠٢)، وأبو يعلى في المسند (٢٤٥٦)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وقال الألباني في «الضعيفة» (٤٢١٧): «ضعيف جدا».

ينبغي الحذر من نسبة هذه الظواهر إلى الطبيعة كما يقول بعضهم: «غضب الطبيعة»، ويقول آخرون: «هذه ظواهر طبيعية، لها أسباب معروفة، لا علاقة لها بأفعال الناس ومعاصيهم». كما يجرى ذلك على ألسنة بعض الصحفيين، وفي بعض النشرات الجوية. حتى صار الناس لا يخافون عند حدوثها، ولا يعتبرون بها.

فهذه الآيات لها أسباب كونية وأسباب شرعية، والكل بأمر الله، فعلى المسلم أن يعلِّق قلبَه بمُسبب الأسباب ومدبر الأمور، فهو الذي يرسل الرياح ويُصَرِّفها كيف يشاء، وهي خلق من خلقه لا تخرج عن أمره.

فالله - عزَّ وجلَّ - يُحدث هذه الآيات - كالأعاصير، والكسوف، والبراكين، والزلازل - بسبب معاصي الناس وإعراضهم وانحرافهم، ويجعل لهذه الأشياء أسبابًا كونية حسية.

خامسا: الأخذ بأسباب الوقاية الحسية:

فلا بأس بأخذ وسائل الوقاية التي تقي الإنسان من أضرار الرياح، لا سيما إن كانت محملة بالأتربة والغبار، ومن ذلك:

١- استخدام الأقنعة الواقية التي تحمي الجسم من الغبار الضار، لا سيما من كان يعاني من أمراض أو حساسية في الصدر أو العين.

٢- غلق النوافذ والأبواب في المنازل بإحكام، وتنظيفها من آثار الغبار بعد العواصف الرملية.

٣- البعد عن قيادة السيارة حينما يقل مستوى الرؤية، وأخذ الحيطة والحذر إذا كان محتاجا لذلك.

* * *

٥٨- باب قول الله - تعالى -: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ...﴾ [آل عمران: ١٥٤] الآية.

وَقَوْلِهِ: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفتح: ٦] الآيَةَ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي الْآيَةِ الْأُولَى:

«فُسِّرَ هَذَا الظَّنُّ بِأَنَّهُ - سُبْحَانَهُ - لَا يَنْصُرُ رَسُولَهُ، وَأَنَّ أَمْرَهُ سَيَضْمَحِلُّ، وَفُسِّرَ بِظَنِّهِم أَنَّ مَا أَصَابَهُمْ لَمْ يَكُنْ بِقَدَرِ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ. فَفُسِّرَ بِإِنْكَارِ الْحِكْمَةِ، وَإِنْكَارِ الْقَدَرِ، وَإِنْكَارِ أَنْ يَتِمَّ أَمْرُ رَسُولِهِ ﷺ، وَأَنْ يُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ.

وَهَذَا هُوَ ظَنُّ السَّوْءِ الَّذِي ظَنَّهُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُشْرِكُونَ فِي سُورَةِ «الْفَتْحِ». وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا ظَنَّ السَّوْءِ؛ لِأَنَّهُ ظَنُّ غَيْرِ مَا يَلِيقُ بِهِ - سُبْحَانَهُ -، وَمَا يَلِيقُ بِحِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ وَوَعْدِهِ الصَّادِقِ.

فَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يُدِيلُ الْبَاطِلَ عَلَى الْحَقِّ إِدَالَةً مُسْتَقِرَّةً يَضْمَحِلُّ مَعَهَا الْحَقُّ، أَوْ أَنْكَرَ أَنَّ يَكُونَ مَا جَرَى بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، أَوْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ قَدَّرَهُ لِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ

يَسْتَحِقُّ عَلَيْهَا الْحَمْدَ، بَلْ زَعَمَ أَنَّ ذَلِكَ لِمَشِيئَةٍ مُجَرَّدَةٍ؛ فـ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وَأَكْثَرُ النَّاسِ يَظُنُّونَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ فِيمَا يَخْتَصُّ بِهِمْ، وَفِيمَا يَفْعَلُهُ بِغَيْرِهِمْ، وَلَا يَسْلَمُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ عَرَفَ اللَّهَ وَأَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ وَمُوجَبَ حِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ.

فَلْيَعْتَنِ اللَّبِيبُ النَّاصِحُ لِنَفْسِهِ بِهَذَا، وَلْيَتُبْ إِلَى اللَّهِ، وَلْيَسْتَغْفِرْهُ مِنْ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ ظَنَّ السَّوْءِ.

وَلَوْ فَتَّشْتَ مَنْ فَتَّشْتَ لَرَأَيْتَ عِنْدَهُ تَعَنُّتًا عَلَى الْقَدَرِ وَمَلَامَةً لَهُ وَأَنَّهُ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ كَذَا وَكَذَا؛ فَمُسْتَقِلٌّ وَمُسْتَكْثِرٌ، وَفَتِّشْ نَفْسَكَ هَلْ أَنْتَ سَالِمٌ؟

فَإِنْ تَنْجُ مِنْهَا تَنْجُ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ وَإِلَّا فَإِنِّي لَا إِخَالُكَ نَاجِيًا»[١].

ooo

الشرح:

ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب آيتين ونقلا عن ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

والكلام على هذا الباب في الفصلين التاليين:

* * *

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٢٠٥- ٢١١)، باختصار.

الفصل الأول: مقصود الباب، وموضوعه العام

أن المؤمن إذا استقر التوحيد في قلبه؛ أورث له ذلك تعظيمًا لربه في ذاته وصفاته وأفعاله، ومن آثار ذلك حُسن الظن بهذا الرب العظيم الذي أزمَّة الأمور بين يديه، وتدبير الخلق راجع إليه، ولا يجتمع التوحيد الصحيح مع سوء الظن بالله – تعالى –.

* * *

الفصل الثاني: المباحث الموضوعية

المبحث الأول: معنى سوء الظن:

سوء الظن: التهمة والتخَوُّن في غير محله.

وأضيف الظن في القرآن إلى السوء، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفتح:٦]، وأضيف إلى الجاهلية، كما في قوله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

أولا: ظن السوء:

سوء الظن نوعان: سوء ظن بالله – تعالى –، وسوء ظن بالخلق. والمراد هنا الأول، والثاني يذكر في باب الآداب والأخلاق.

ونقل المؤلف عن ابن القيم تفسير طويلا له، وخلاصة ما ذكر ابن القيم في تفسير ظن السوء ثلاثة أمور:

الأول: أن يظن أن الله يُدِيل الباطل على الحق إدالة مُستقِرة يضمَحِل معها الحق. وهذا هو ظن المشركين والمنافقين في سورة الفتح، قال تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ [الفتح: ١٢].

الثاني: أن يُنكِر أن يكون ما جرى بقضاء الله وقدره؛ لأنه يتضمن أن يكون في ملكه – سبحانه – ما لا يريد، مع أن كل ما يكون في ملكه فهو بإرادته.

الثالث: أن يُنكِر أن يكون قَدَّرُهُ لحكمة بالغة يستحق عليه الحمد؛ لأن هذا يتضمن أن تكون تقديراته لعبا وسفها، ونحن نعلم علم اليقين أن الله لا يقدِّر شيئا أو يشرعه إلا لحكمة.

وضابط أنواع الظن السيِّءِ بالله: أن يظن بالله ما لا يليق به.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أكثر الخلق - بل كلُّهم، إلا من شاء الله - يظنون بالله غير الحق ظن السوء؛ فإن غالبَ بني آدم يعتقد أنه مبخوس الحق، ناقص الحظ، وأنه يستحق فوق ما أعطاه الله ... ولو فتَّشْتَ مَن فتَّشْتَه لرأيت عنده تَعَتُّبا على القَدَر وملامة له واقتراحا عليه خلاف ما جرى به، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمُستَقِل ومستكثر، وفتِّشْ نفسَك، هل أنت سالم من ذلك؟ ... فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا الموضع ...

فلا تظُنَّنْ بربك ظَنَّ سَوءٍ فإنَّ اللهَ أولى بالجَميلِ»[1].

وبعض الناس تغلبهم النزعة السوداوية، وسوء الظن والتشاؤم، فيظن أنه يعمل الصالحات، ويتقرب إلى الله بأنواع الطاعات، لكن يقع في قلبه أن الله لا يقبل منه شيئا! وهذا ظن سَوء بالله، ويظن أن الله لا يُثِيبُه ولا يرحمُه، ولا يغفر له، ويظن أن المسلمين لا ينصرهم الله، ولا يُمَكِّن لهم، ونحو ذلك، وهذا كله من الظن السيِّء.

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٢١١).

ثانيا: ظن الجاهلية:

الجاهلية من الجهل، وهو نقيض العلم. والجهل بسيط ومركب.

أقسام الجاهلية:

تنقسم الجاهلية – باعتبار الزمن – إلى قسمين:

أولا: الجاهلية الأولى: وهي الحال التي كان عليها الناس قبل الإسلام، وفي أوائل البعثة.

ثانيا: الجاهلية الأخرى: وهي الامتناع من التزام دين الله أو شيء منه.

قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ويمكِن أن يراد بالجاهلية الأخرى: ما يقع في الإسلام من التشبه بأهل الجاهلية بقول أو فعل»(١). كما قال ﷺ: **«مَنْ قُتِلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ، يَدْعُو عَصَبِيَّةً، أَوْ يَنْصُرُ عَصَبِيَّةً، فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ»**(٢).

وقال ﷺ: **«مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ، لَقِيَ اللهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا حُجَّةَ لَهُ، وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»**(٣).

ولما عَيَّر أبو ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ رجلا بأمِّه، قال له النبي ﷺ: **«إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ»**(٤).

---

(١) «فتح القدير» (٤/٢٧٨).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١٨٥٠)، من حديث جندب بن عبد الله البجلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (١٨٥١)، من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣٠ و٦٠٥٠)، ومسلم (١٦٦١)، من حديث المَعْرور بن سُويد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فالجاهلية المطلقة المطبِقَة لا تكون بعد بعثة النبي ﷺ؛ لقوله ﷺ: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ اللهِ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ**»(١).

وأما بعد البعثة فجاهلية مقيَّدة بأمر أو مكان.

والتلبُّس بشيء من خصال الجاهلية قد يصل إلى الكفر، وقد يكون من قبيل المعصية بترك واجب أو فعل محرَّم لا يصل إلى الكفر.

ومنه قوله ﷺ لأبي ذر: «**إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ**»(٢)، وكذا الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والنياحة على الميت(٣)، ونحو ذلك.

وقول الله - تعالى -: ﴿**يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ**﴾[آل عمران: ١٥٤]، المراد بالآية: المنافقون، وهي في سياق غزوة أحد.

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣١١٦)، ومسلم (١٠٣٧) واللفظ له، من حديث معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) ينظر: صحيح مسلم، رقم (٩٣٤).

فأولئك أساؤوا الظن بربهم وبدينه وبنبيه، وظنوا أن الله لا يتم أمر رسوله، وأن الإسلام لن تقوم له قائمة، ولذلك تراهم نادمين على خروجهم، يقول بعضهم لبعض: «هل كان لنا من اختيار في الخروج للقتال؟!».

«فقد ذهبت بهم هواجِسُهم إلى أن ظنوا بالله ظنونا باطلة من أوهام الجاهلية. وفي هذا تعريض بأنهم لم يزالوا على جاهليتهم لم يخلصوا الدين لله»(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإنما كان هذا ظن السوء، وظن الجاهلية المنسوب إلى أهل الجهل، وظن غير الحق؛ لأنه ظَنٌّ غير ما يليق بأسمائه الحسنى وصفاته العليا وذاتِه المُبَرَّأة من كل عيب وسوء، بخلاف ما يليق بحكمته وحمده وتفرده بالربوبية والإلهيه، وما يليق بوعده الصادق الذي لا يُخلِفُه، وبكلمته التي سبقت لرسله أنه ينصرهم ولا يخذلهم، ولجنده بأنهم هم الغالبون»(٢).

وقال سبحانه، في عاقبة من ظن به السوء: ﴿**وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ**﴾ [فصلت: ٢٢ - ٢٣].

---

(١) «التحرير والتنوير» (٤/ ١٣٥).

(٢) «زاد المعاد» (٣/ ٢٠٥).

وقال في بيان عاقبته وعقوبته: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

قال الشيخ العصيمي في شرحه: «وأكثرُ ظن السَّوْءِ عند المنافقين الأوَّلين في الحُكم القدَري، وأكثر ظن السَّوءِ عند المنافقين المتأخرين هو في حُكم الله الشرعي».

○○○

المبحث الثاني: حكم سوء الظن:

ينقسم سوء الظن إلى قسمين:

الأول: سوء الظن المعتبر:

هو الظن الذي استقر في النفس، وصدَّقه صاحبُه، واستمر عليه، وتكلم به، وسعى في التحقق منه. وهو نوعان:

١- سوء الظن المحرم:

ويشمل سوء الظن بالله - تعالى -، وسوء الظن بالمؤمنين.

فسوء الظن بالله - تعالى - من أعظم الذنوب. قال ابن القيم: «أعظم الذنوب عند الله: إساءةُ الظن به»[1]. وقال ﷺ: **«إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ؛ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ»**[2].

٢- **سوء الظن الجائز:**

ويشمل: سوءَ الظن بالكافر، وبمن اشتهر بين الناس بمخالطة الرِّيَب، والمجاهرة بالمعاصي[3].

الثاني: سوء الظن غير المعتبر:

وضابطه: أنه الخواطر الطارئة غير المستقرة التي يجاهدها صاحبها ولا يسعى للتحقُّق منها.

وهذا معفو عنه؛ لقوله ﷺ: **«إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ»**[4].

ooo

---

(١) «الداء والدواء» ص ٣١٨.

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٥١٤٣) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٥٦٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) قال ابن عثيمين في «الشرح الممتع» (٥/ ٣٠٠): «يحرُم سوء الظن بمسلم، أما الكافر فلا يحرم سوء الظن فيه؛ لأنه أهل لذلك، وأما من عُرف بالفسوق والفجور، فلا حرج أن نسِيء الظن به؛ لأنه أهل لذلك، ومع هذا لا ينبغي للإنسان أن يتتبع عورات الناس، ويبحث عنها؛ لأنه قد يكون متجِّسسا بهذا العمل».

(٤) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٥٢٦٩) وفي مواضع أخرى، ومسلم (١٢٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المبحث الثالث: آثار سوء الظن بالله - تعالى -:

الأول: سبب للوقوع في الشرك والبدعة والضلال:

سوء الظن بالله سبب في الوقوع في الشرك، قال ابن القيم: «الشرك والتعطيل مبنيان على سوء الظن بالله - تعالى - ... لأن الشرك هضم لحق الربوبية، وتنقيص لعظمة الإلهية، وسوء ظن برب العالمين، ولهذا قال إبراهيم إمام الحنفاء لخصمائه من المشركين: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ۝٨٦ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٨٦-٨٧]»[١].

قال المقريزي: «اعلم أنك إذا تأملت جميع طوائف الضلال والبدع وجدت أصل ضلالهم راجعا إلى شيئين. أحدهما: الظن بالله ظن السوء»[٢].

الثاني: سبب في الخسارة، واستحقاق لعنة الله وغضبه:

قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

وقال تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣].

الثالث: من أساء الظن أساء العمل:

---

(١) «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» (١/ ٦٢).

(٢) «تجريد التوحيد»، ضمن رسائل المقريزي (١/ ١٠٢).

تلا الحسن البصري قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾ [فصلت: ٢٣]، فقال: «إنما عمل الناس على قدر ظنونهم بربهم؛ فأما المؤمن فأحسن بالله الظن، فأحسن العمل، وأما الكافر والمنافق فأساءا الظن فأساءا العمل»[١].

سوء الظن بالله - تعالى - أمره خطير، وعاقبته وخيمة.

* * *

(١) «تفسير الطبري» (٢٠/ ٤١٣).

٥٩- باب
ما جاء في منكري القدر

وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ عُمَرَ بِيَدِهِ، لَوْ كَانَ لِأَحَدِهِمْ مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا، ثُمَّ أَنْفَقَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْهُ، حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ»، ثُمَّ اسْتَدَلَّ بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**الْإِيمَانُ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»(١). رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَعَنْ عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ أَنَّهُ قَالَ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ الْإِيمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اُكْتُبْ. فَقَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اُكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ**». يَا بُنَيَّ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي**»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨).

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٤٧٠٠) واللفظ له، والترمذي (٢١٥٥ و٣٣١٩)، وصححه الألباني.

وَفِي رِوَايَةٍ لِأَحْمَدَ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ - تَعَالَى - الْقَلَمَ، ثُمَّ قَالَ لَهُ اُكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»(١).

وَفِي رِوَايَةٍ لِابْنِ وَهْبٍ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ أَحْرَقَهُ اللَّهُ بِالنَّارِ**»(٢).

وَفِي الْمُسْنَدِ والسُّنَنِ عَنِ ابْنِ الدَّيْلَمِيِّ، قَالَ: «أَتَيْتُ أُبَيَّ بْنِ كَعْبٍ، فَقُلْتُ: فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنَ الْقَدَرِ؛ فَحَدِّثْنِي بِشَيْءٍ لَعَلَّ اللَّهَ يُذْهِبُهُ مِنْ قَلْبِي. فَقَالَ: لَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَلَوْ مِتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا لَكُنْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ.

قَالَ: فَأَتَيْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ وَحُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ وَزَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ، فَكُلُّهُمْ حَدَّثَنِي بِمِثْلِ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ»(٣). حَدِيثٌ صَحِيحٌ رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي صَحِيحِهِ.

○○○

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٧٠٥)، وصححه الأرناؤوط.

(٢) أخرجه ابن وهب في «القدر» (٢٦).

(٣) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٤٦٩٩)، وابن ماجه (٧٧)، وأحمد (٢١٥٨٩)، وصححه الألباني. ولم أقف عليه عند الحاكم.

الشرح:

ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب ثلاثة أحاديث، وثلاثة آثار.

والكلام على هذا الباب في الفصلين التاليين:

* * *

الفصل الأول: مقصود الباب، وموضوعه العام

الإيمان بالقضاء والقدر ركنٌ من أركان الإيمان، متعلق بربوبية الله، فإن من أنكر القدر فقد وقع في شرك يتعلق بالربوبية؛ لأن تقدير الأشياء وقضاءها من أفعال الله – تعالى –.

* * *

الفصل الثاني: المباحث الموضوعية

مباحث الإيمان بالقضاء والقدر طويلة، مبثوثة في كتب العقائد، والذي يهم الحديث عنه هنا:

المبحث الأول: تعريف الإيمان بالقضاء والقدر، وأدلته:

الإيمان بالقضاء والقدر: هو تقدير الله للكائنات حسب ما سبق به علمه، واقتضته حكمته.

ودل عليه: الكتاب، والسنة، والإجماع.

أما أدلة القرآن الكريم: فكثيرة جدا؛ ومنها قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]، وقولُه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

وأما السنة: فمنها ما جاء في حديث جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الطويل، وفيه قوله ﷺ لما سئل عن الإيمان: «**أَنْ تُؤْمِنَ باللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»(١).

وأجمع المسلمون على وجوب الإيمان بالقدر خيره وشره.

○○○

---

(١) تقدم تخريجه.

المبحث الثاني: مراتب الإيمان بالقضاء والقدر:

المرتبة الأولى: العلم:

وهو: الإيمان بأن الله عالم بكل شيء جملة وتفصيلا ماضيا ومستقبلا، سواء كان ذلك مما يتعلق بأفعاله، أو بأفعال عباده، أو بما يجري في الكون، فعلمه محيط بما كان، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

والأدلة على هذا المرتبة كثيرة جدا، قال الله – تعالى –: ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٣].

المرتبة الثانية: الكتابة:

وهي: الإيمان بأن الله كتب ما سبق به علمُه من مقادير الخلائق في اللوح المحفوظ. قال الله – تعالى –: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [الحج: ٧٠].

وروى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**»(١).

المرتبة الثالثة: المشيئة:

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٥٣).

وهذه المرتبة تقتضي الإيمان بمشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا حركة ولا سكون ولا هداية، ولا إضلال إلا بمشيئته.

قال الله - عز وجل -: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص:٦٨]، وقال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

المرتبة الرابعة: الخلق:

وهذه المرتبة تقتضي الإيمان بأن جميع الكائنات مخلوقة بذواتها وصفاتها، وحركاتها، وأفعالها، وبأن كل من سوى الله مخلوق مُوْجَد من العدم، كائن بعد أن لم يكن.

والأدلة على هذه المرتبة كثيرة جدا؛ منها قول الله - تعالى -: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢].

ومما يدخل في هذه المرتبة: أفعال العباد؛ فهي داخلة في عموم خلقه - عز وجل - فهي من اللهِ خلقًا وإيجادا وتقديرا، وهي من العباد فِعلا وكسبا، فالله هو الخالق لأفعالهم، وهم الفاعلون لها. قال تعالى ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦]، وقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الرعد:١٦].

وقد جمعت هذه المراتب الأربع في قول الناظم:

عِلمٌ كتابةُ مولانا مشيئتُه — وخلقُه، وهو إيجاد وتكوين

ooo

المبحث الثالث: أنواع التقدير:

ينقسم التقدير الإلهي باعتبار عمومه وخصوصه إلى أربعة أقسام:

الأول: التقدير العام:

وهو تقدير الرب لجميع الكائنات، بمعنى: علمه بها، وكتابته لها. ويدل على هذا النوع أدلة كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ**﴾ [الحج: ٧٠].

وقال النبي ﷺ: «**كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**»(١).

الثاني: التقدير العمري:

وهو تقدير خاص لكل عبد بما يجري عليه في حياته إلى نهاية أجله، وكتابةُ شقاوته أو سعادته. وقد دل على ذلك قول النبي ﷺ: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ**»(٢).

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣٢٠٨) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٦٤٣)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الثالث: التقدير السنوي:

وذلك في ليلة القدر من كل سنة، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤].

قيل في تفسرها: يكتب فيها - أي في ليلة القدر - ما يحدث في السنة من موت وحياة، وعِز وذل، ورزق ومطر، حتى الحُجَّاج، يقال: يحج فلان، ويحج فلان.

الرابع: التقدير اليومي:

ويدل عليه قول الله - تعالى -: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩].

قيل في تفسيرها: شأنه أن يعِز ويذل، ويرفع ويخفض، ويعطي ويمنع، ويغني ويُفقر، ويضحك ويبكي، ويميت ويحيي إلى غير ذلك.

ooo

المبحث الرابع: هل الإنسان مسير أو مخير؟

الإنسان مخيَّر باعتبار، ومسيَّر باعتبار.

فهو مخير باعتبار أن له مشيئةً يختار بها، وقدرة يفعل بها؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، وقوله: ﴿فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، وقوله: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

ولقوله ﷺ: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ...**»(١) الحديث.

إلى غير ذلك من الأدلة الكثيرة في هذا المعنى.

وهو مسير باعتبار أنه في جميع أفعاله داخل القدر، راجع إليه؛ لكونه لا يخرج عما قدَّره الله له؛ فلا يخرج في تخيير عن قدرة الله؛ لقوله تعالى: ﴿**هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ**﴾ [يونس: ٢٢]، وقوله: ﴿**وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [القصص:٦٨].

ولقوله ﷺ: «**كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**»(٢).

ولهذا جمع الله بين هذين الأمرين - كون الإنسان مخيرا باعتبار ومسيرا باعتبار - كما في قوله تعالى: ﴿**لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ**﴾ [التكوير: ٢٨-٢٩].

فأثبت عز وجل أن للعبد مشيئة، وبيَّن أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله، واقعة بها.

* * *

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

٦٠- باب
ما جاء في المصورين

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: قَالَ اللهُ - تَعَالَى -: «**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي؛ فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيْرَةً**»[١]. أَخْرَجَاهُ.

وَلَهُمَا عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ القِيَامَةِ، الَّذِينَ يُضَاهُونَ بِخَلْقِ اللَّهِ**»[٢].

وَلَهُمَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ، يُجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا نَفْسٌ يُعَذَّبُ بِهَا فِي جَهَنَّمَ**»[٣].

وَلَهُمَا عَنْهُ مَرْفُوعًا: «**مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنْيَا كُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ، وَلَيْسَ بِنَافِخٍ**»[٤].

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٧٥٥٩ و٥٩٥٣)، ومسلم (٢١١١).

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٥٩٥٤)، ومسلم (٢١٠٧).

(٣) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٢٢٢٥)، ومسلم (٢١١٠).

(٤) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٥٩٦٣)، ومسلم (٢١١٠).

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ أَبِي الهَيَّاجِ قَالَ: قَالَ لِي عَلِيٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ أَلَّا تَدَعَ صُورَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا، وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ»(١).

ooo

الشرح:

ذكر المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ في هذا الباب خمسة أحاديث.

والكلام على هذا الباب في الفصلين التاليين:

* * *

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٩٦٩).

الفصل الأول: مقصود الباب، وموضوعه العام

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد تظهَرُ في أمرين:

الأول: أن في التصوير مضاهاةً - أي مشابهة - لخلق الله، يكون به المصور مشاركا لله - تعالى - في ذلك الخلق والإبداع، ومن أسمائه تعالى «المصور».

الثاني: أن التصوير وسيلة من وسائل الشرك بالله - جل وعلا -، وأول شرك وقع في الأرض كان التصوير سببا فيه.

* * *

الفصل الثاني: المباحث الموضوعية

المبحث الأول: تعريف التصوير:

التصوير مصدر صوَّر، والصورة، تجمع على صور. وقد تُسَمَّى الصورة تَصْوِيرَة، وجمعُها تَصاوِير.

والتصوير: التخطيط والتشكيل[1]، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٦]، فالتصوير: صناعة الصورة، سواء كانت مجسمة أم غير مجسمة.

وفي الموسوعة الفقهية: «صورة الشيء: هي هيئتُه الخاصة التي يتميَّز بها عن غيرِه»[2].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ [الأعراف: ١١]، وهذا يدل على أن التصوير غير الخلق.

قال ابن عاشور: « الخلق: الإيجاد وإبراز الشيء إلى الوُجود، وهذا الإطلاق هو المراد منه عند إسناده إلى الله - تعالى - أو وصفِ الله به.

(١) ينظر: «أحكام التصوير» لمحمد واصل ص١٠٥، فقد ذكر للتصوير اثني عشر معنى.

(٢) «الموسوعة الفقهية» (١٢/ ٩٢).

والتصوير: جعل الشيء صورة، والصُّورة: الشكل الذي يشكَّل به الجسم، كما يشكَّل الطين بصورة نوع من الأنواع»[١].

وكل إنسان له صورتان: ظاهرة وباطنة، وينبغي له الاعتناء بهما.

الصورة الظاهرة: بالنظافة والترتيب، والعناية بالمظهر والشعر واللباس.

والصورة الباطنة: بالإيمان والتقوى، والخُلُق الحسن.

ومن الأدعية المأثورة عن النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ كَمَا حَسَّنْتَ خَلْقِي فَحَسِّنْ خُلُقِي**»[٢].

وتكتمل النعمة في دار الكرامة بحسن الصورة، كما قال ﷺ: «**إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ** ...»[٣].

ooo

المبحث الثاني: أقسام التصوير:

ينقسم التصوير إلى عدة أقسام باعتبارات مختلفة، وإدراك هذه التقسيمات مهم في فهم صور الباب وأحكامه:

---

(١) «التحرير والتنوير» (٨/ ٢٨).

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد (٣٨٢٣)، وابن حبان (٩٥٩)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٣٠٧). وله شاهد عند أحمد (٢٤٣٩٢)، والبيهقي في «الشعب» (٨١٨٤) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣٣٢٧)، وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٨٣٤).

- **أولا: أقسامه باعتبار الوسيلة:**

وينقسم - بهذا الاعتبار - إلى قسمين:

القسم الأول: التصوير اليدوي. وهو نوعان:

١- **التصوير المجسم (ما له ظل).**

٢- **التصوير المسطح (ما ليس له ظل)**؛ كالذي يُرسم على الورق، أو على الثوب، أو على الستائر، أو على البُسُط، ونحو ذلك.

القسم الثاني: التصوير الآلي:

وله صور منها: التصوير الفوتوغرافي (بالكاميرا)، والتصوير السينمائي، والتصوير التلفزيوني، والتصوير بالأشعة.

- **ثانيا: أقسامه باعتبار المصَوَّر:**

وينقسم - بهذا الاعتبار - إلى قسمين:

القسم الأول: تصوير ذوات الأرواح؛ كالآدمي، والحيوان، والطير، ونحو ذلك.

القسم الثاني: تصوير غير ذوات الأرواح. وهو نوعان:

١- **أن يكون ناميا**؛ كالنباتات، والأشجار.

٢- **أن يكون غير نام**؛ كالجبال، والشمس، والبيوت، والسيارات ... إلخ.

ooo

المبحث الثالث: النصوص الواردة في التصوير:

ذكر الشيخ في الباب خمسة أحاديث. ومما يضاف عليها:

أولا: عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَقَدْ سَتَرْتُ سَهْوَةً لِي بِقِرَامٍ فِيهِ تَمَاثِيلُ، فَلَمَّا رَآهُ هَتَكَهُ، وَتَلَوَّنَ وَجْهُهُ، وَقَالَ: «**يَا عَائِشَةُ، أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الَّذِينَ يُضَاهُونَ بِخَلْقِ اللهِ**». قَالَتْ عَائِشَةُ: «فَقَطَعْنَاهُ فَجَعَلْنَا مِنْهُ وِسَادَةً أَوْ وِسَادَتَيْنِ»(١).

وأخرجه مسلم بلفظ: «**إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الَّذِينَ يُشَبِّهُونَ بِخَلْقِ اللهِ**»(٢).

---

(١) تقدم تخريجه في أحاديث الباب.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢١٠٧)، وهي إحدى روايات الحديث السابق.

وقال في «النهاية» (٢/١٠٤٧): «السَّهوة: بيت صغير منحدِر في الأرض قليلا شبيه بالمُخْدَع والخِزانة. وقيل هو كالصُّفَّة تكون بين يدي البيت. وقيل شبيه بالرَّفِّ أو الطاقِ يُوْضع فيه الشيءُ».

وفيه - أيضا - (٤/ ٧٦): «القِرام: السِّتر الرقيق، وقيل: الصَّفيق، من صوف ذي ألْوان. وقيل: القِرام: السِّتر الرقيق وراء السِّتر الغليظ».

وفي معنى هذا الحديث ما أخرج البخاري (٢١٠٥ و٥١٨١)، ومسلم (٢١٠٧) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّهَا اشْتَرَتْ نُمْرُقَةً فِيهَا تَصَاوِيرُ، فَلَمَّا رَآهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَامَ عَلَى الْبَابِ فَلَمْ يَدْخُلْ، فَعَرَفْتُ، أَوْ فَعُرِفَتْ فِي وَجْهِهِ الْكَرَاهِيَةُ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَتُوبُ إِلَى اللهِ وَإِلَى رَسُولِهِ، فَمَاذَا أَذْنَبْتُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا بَالُ هَذِهِ النُّمْرُقَةِ؟**» فَقَالَتْ: اشْتَرَيْتُهَا

ثانيا: عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُصَوِّرُونَ**»[1].

ثالثا: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ، يَجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا نَفْسًا فَتُعَذِّبُهُ فِي جَهَنَّمَ**». وقَالَ: «**إِنْ كُنْتَ لَا بُدَّ فَاعِلًا، فَاصْنَعِ الشَّجَرَ وَمَا لَا نَفْسَ لَهُ**»[2].

رابعا: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت محمدا ﷺ يقول: «**مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنْيَا كُلِّفَ يَوْمَ القِيَامَةِ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ، وَلَيْسَ بِنَافِخٍ**»[3].

خامسا: عن أبي طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**لا تَدْخُلُ المَلائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلا صُورَةٌ**»[4].

سادسا: عَنْ أَبِي الهَيَّاجِ قَالَ: قَالَ لِي عَلِيٌّ: «أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ أَلَّا تَدَعَ صُورَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا، وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ»[1].

وفي لفظ له: «وَلَا صُورَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا».

لَكَ، تَقْعُدُ عَلَيْهَا وَتَوَسَّدُهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ أَصْحَابَ هَذِهِ الصُّوَرِ يُعَذَّبُونَ، وَيُقَالُ لَهُمْ: أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ**»، ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ الْبَيْتَ الَّذِي فِيهِ الصُّوَرُ لَا تَدْخُلُهُ الْمَلَائِكَةُ**».

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٥٩٥٠)، ومسلم (٢١٠٩).

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٢٢٢٥)، ومسلم (٢١١٠) واللفظ له.

(٣) تقدم تخريجه في أحاديث الباب.

(٤) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣٣٢٢) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢١٠٦).

سابعا: عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كُنْتُ أَلْعَبُ بِالْبَنَاتِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، وَكَانَ لِي صَوَاحِبُ يَلْعَبْنَ مَعِي، «فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا دَخَلَ يَتَقَمَّعْنَ مِنْهُ، فَيُسَرِّبُهُنَّ إِلَيَّ فَيَلْعَبْنَ مَعِي»(٢).

فائدة: عقوبة المصور التي دلَّت عليها السنة:

أولا: أنه أشد الناس عذابا أو من أشدهم عذابا.

ثالثا: أن الله يجعل له بكل صورة نفسا يعذب بها في نار جهنم.

رابعا: أنه يكلف أن ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ.

خامسا: أنه في النار.

سادسا: أنه ملعون، كما في حديث أبي جُحَيفة عند البخاري(٣)، وغيره.

سابعا: الحرمان من دخول ملائكة الرحمة.

ooo

المبحث الرابع: علل تحريم التصوير:

العِلة الأولى: المضاهاة لخلق الله - تعالى -:

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٦١٣٠) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٤٤٠).

(٣) ينظر: صحيح البخاري (٢٢٣٨) وأطرافه.

وجاءت الإشارة إليها في حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وحديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، وفيه: «**أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الَّذِينَ يُضَاهُونَ بِخَلْقِ اللهِ**»[١]، وأخرجه مسلم بلفظ: «**إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُصَوِّرُونَ**»[٢].

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي**»[٣].

قال ابن الأثير: «المضاهاة: المشابهة. وقد تُهمَزُ، وقُرِئ بهما»[٤].

إشكال وجوابه:

قوله ﷺ: «**أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا**»: فيه إشكال؛ لأن في الناس من هو أشد ذنبا من المصورين، كالمشركين والكفار، فما الجواب؟

ذكر أهل العلم عدة أجوبة؛ منها:

أولا: أن الحديث على تقدير «مِن»، أي: مِن أشد الناس عذابا، بدليل أنه قد جاء الحديث في صحيح مسلم بلفظ: «**إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[١].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٣/ ١٠٦).

(١) تقدم تخريجه.

ثانيا: أن الأشدِيَّةَ نسبية، أي: إن الذين يصنعون الأشياء ويبدعونها، أشدهم عذابا الذين يضاهئون بخلق الله. قال الشيخ ابن عثيمين: «وهذا أقرب»(١).

ثالثا: تحمل رواية «**أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا**» على من فعَل الصورة لتعبد، وهو صانع الأصنام ونحوها، فهذا كافر، وهو أشد عذابا(٢).

العلَّة الثانية: أنه وسيلة إلى الغُلُو والتعظيم، وهو وسيلة من وسائل الشرك:

وهذا ما وقع في قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، أول شرك على وجه الأرض.

روى البخاري عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن وَدًّا وسواعا ويغوثَ ويعوقَ ونسرا «أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا، وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ العِلْمُ، عُبِدَتْ»(٣).

والأنصاب: جمع نُصب، والأمر منه بالكسر. والمراد بالأنصاب هنا: الأصنام المُصوَّرة على صور أولئك الصالحين التي نصبوها في مجالسهم؛ ليتذكروا أفعالهم بها.

---

(١) «القول المفيد» (٢/ ٤٤٤).

(٢) ينظر: «شرح النووي على مسلم» (١٤/ ٩١).

(٣) تقدم تخريجه.

وروى ابن جرير بإسناده إلى محمد بن قيس، قال: «كَانُوا قَوْمًا صَالِحِيْنَ مِنْ بَنِي آدَمَ، وَكَانَ لَهُمْ أَتْبَاعٌ يَقْتَدُونَ بِهِمْ، فَلَمَّا مَاتُوا قَالَ أَصْحَابُهُمُ الَّذِينَ كَانُوا يَقْتَدُونَ بِهِمْ: لَوْ صَوَّرْنَاهُمْ كَانَ أَشْوَقَ لَنَا إِلَى الْعِبَادَةِ إِذَا ذَكَرْنَاهُمْ، فَصَوَّرُوهُمْ، فَلَمَّا مَاتُوا، وَجَاءَ آخَرُونَ دَبَّ إِلَيْهِمْ إِبْلِيسُ، فَقَالَ: إِنَّمَا كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ، وَبِهِمْ يُسْقَوْنَ الْمَطَرَ، فَعَبَدُوهُمْ»(١).

وقال ابن القيم: «قال غير واحد من السلف: لما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد، فعبدوهم»(٢).

وعن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا أَنَّ أُمَّ حَبِيبَةَ وَأُمَّ سَلَمَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنهُمَا ذَكَرَتَا كَنِيسَةً رَأَيْنَهَا بِالحَبَشَةِ فِيهَا تَصَاوِيرُ، فَذَكَرَتَا لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «**إِنَّ أُولَئِكَ إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَمَاتَ، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، فَأُولَئِكَ شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ القِيَامَةِ**»(٣).

○○○

المبحث الخامس: حكم التصوير والصور:

هذا الباب مما أشكل على كثير من الناس، ويرجع ذلك إلى أمرين:

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم.

(٣) تقدم تخريجه.

الأول: تحقيق المناط، بمعنى: هل تحقق ضابط التصوير في مسألة ما، وهذا يظهر في التقاط الصور بالآلات الحديثة - مثلا -، فهل يندرج هذا الفعل في التصوير الذي وردت النصوص بالتشديد فيه؟.

الثاني: عدم التفريق بين التصوير واستعمال الصور. فمن خلط الطين وصنع منه إناء على شكل تمثال، هذا مصوِّر، أما من أخذ التمثال وشرب أو أكل أو توضأ منه، فهذا استعمال وليس تصويرا.

وهذا المبحث فيه مطلبان:

المطلب الأول: حكم التصوير[1]:

التصوير ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: تصوير ذوات الأرواح. وهو نوعان:

النوع الأول: الصور المجسمة (ما له ظل):

وهي ما يكون لها جِرم مستقل محسوس.

وهذه محرمة عند جماهير العلماء، بل أشد أنواع التصوير إثما؛ للأحاديث والعلل السابقة، ويستثنى من ذلك لعب الأطفال.

---

(١) ينظر: «أحكام التصوير» لمحمد واصل ص١٦٧.

وفي الموسوعة الفقهية: «نقل ابنُ العربي الإجماع على أنَّ تصوير ما له ظِلٌّ حرام»(١).

فرعان:

الفرع الأول: لعب الأطفال على هيئة الصور المجسمة:

وهذه ورد فيها حديثان:

الأول: عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كُنْتُ أَلْعَبُ بِالْبَنَاتِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، وَكَانَ لِي صَوَاحِبُ يَلْعَبْنَ مَعِي، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا دَخَلَ يَتَقَمَّعْنَ مِنْهُ، فَيُسَرِّبُهُنَّ إِلَيَّ فَيَلْعَبْنَ مَعِي»(٢).

قولها «كُنْتُ أَلْعَبُ بِالْبَنَاتِ»: هي التماثيل الصغار التي يلعب بها الجواري.

«يَتَقَمَّعْنَ مِنْهُ» أي يتغيَّبْن منه، ويدخلن من وراء الستر حياء منه ﷺ.

«فَيُسَرِّبُهُنَّ»، أي: يرسِلُهُن.

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «استُدِل بهذا الحديث على جواز اتخاذ صور البنات واللعب، من أجل لعب البنات بهن، وخُصَّ ذلك من عموم النهي عن اتخاذ الصور، وبه جزم عياض، ونقله عن الجمهور»(١).

---

(١) «الموسوعة الفقهية» (١٢/ ١٠١).

(٢) تقدم تخريجه.

الثاني: عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ، أَوْ خَيْبَرَ، وَفِي سَهْوَتِهَا سِتْرٌ، فَهَبَّتْ رِيحٌ فَكَشَفَتْ نَاحِيَةَ السِّتْرِ عَنْ بَنَاتٍ لِعَائِشَةَ لُعَبٍ، فَقَالَ: «**مَا هَذَا، يَا عَائِشَةُ؟**» قَالَتْ: بَنَاتِي. وَرَأَى بَيْنَهُنَّ فَرَسًا لَهُ جَنَاحَانِ مِنْ رِقَاعٍ، فَقَالَ: «**مَا هَذَا الَّذِي أَرَى وَسْطَهُنَّ؟**» قَالَتْ: فَرَسٌ. قَالَ: «**وَمَا هَذَا الَّذِي عَلَيْهِ؟**» قَالَتْ: جَنَاحَانِ. قَالَ: «**فَرَسٌ لَهُ جَنَاحَانِ؟**» قَالَتْ: أَمَا سَمِعْتَ أَنَّ لِسُلَيْمَانَ خَيْلًا لَهَا أَجْنِحَةٌ؟ قَالَتْ: فَضَحِكَ حَتَّى رَأَيْتُ نَوَاجِذَهُ(٢).

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال الخطابي: (في هذا الحديث أن اللَّعِب بالبنات ليس كالتلهي بسائر الصُّور التي جاء فيها الوعيد. وإنما أرخص لعائشة فيها؛ لأنها إذ ذاك كانت غير بالغ). قلت: وفي الجزم به نظر لكنه محتمَل؛ لأن عائشة كانت في غزوة خيبر بنت أربع عشرة سنة إما أكملتها أو جاوزتها أو قاربتها. وأما في غزوة تبوك فكانت قد بلغت قطعا، فيترجح رواية من قال في خيبر، ويجمع بما قال الخطابي؛ لأن ذلك أولى من التعارض»(٣).

تنبيه: لعب الأطفال المجسمة لها صورتان:

الصورة الأولى: أن تُصنع بالطريقة القديمة، أي: من الصوف والرقاع، وبعض الأعواد، ونحو ذلك، فلا يكون فيها تحديد للتفاصيل.

---

(١) «فتح الباري» (١٠/ ٥٢٧).

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٤٩٣٢)، وابن حبان (٥٨٦٤)، وصححه الألباني.

(٣) «فتح الباري» (١٠/ ٥٢٧).

وفي حديث الربيع بنت معوذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: فَكُنَّا نَصُومُهُ بَعْدُ (أي: يوم عاشوراء)، وَنُصَوِّمُ صِبْيَانَنَا، وَنَجْعَلُ لَهُمُ اللُّعْبَةَ مِنَ العِهْنِ، فَإِذَا بَكَى أَحَدُهُمْ عَلَى الطَّعَامِ، أَعْطَيْنَاهُ ذَاكَ، حَتَّى يَكُونَ عِنْدَ الإِفْطَارِ[1].

والجمهور على جوازها[2].

الصورة الثانية: أن تصنع بالطريقة الحديثة:

والتي تكون فيها تفاصيل الشكل دقيقة، وتحاكي الحقيقة تماما، بل بعضها تتحرك وتتكلم وتبكي وتضحك. وهذه من النوازل الحادثة.

وذهب الشيخ محمد بن إبراهيم والشيخ صالح الفوزان إلى التحريم؛ للاختلاف الظاهر بين هذه وتلك التي جاءت بها الرخصة، ولا يصح إلحاقها بها.

وذهب الشيخ القرضاوي والشيخ عبد الرحمن عبد الخالق إلى الجواز؛ لخلوها عن المضاهاة والتعظيم.

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (١٩٦٠)، ومسلم (١١٣٦).

(٢) قال الكشميري (١٣٥٢هـ) في «فيض الباري على صحيح البخاري» (٦/ ١٥٨): «وفي (القنية): أن البنات جائزة، وكانت حقيقتها في القديم أنهم كانوا يأخذون ثوبا، ويشدونَه في الوسط، فكانت لا تحي عن صورة وشكل، ولم تكن كبناتنا اليوم؛ فإنَّها تماثيل كالأصنام، فلا تجوز قطعا».

وأشار الشيخ ابن عثيمين إلى القولين في مجموع فتاويه، ثم قال: «هذا محل تأمل، والاحتياط تجنب هذه الصور الشائعة الآن، والاقتصار على النوع المعهود من قبل»[١].

وقال - أيضا -: «اجتنابها أولى، ولكني لا أقطع بالتحريم؛ نظرا لأن الصغار يرخص لهم ما لا يرخص للكبار في مثل هذه الأمور»[٢].

الفرع الثاني: تصوير المجسَّمات التي لا تدوم طويلا:

مثل ما يصنع في الحلويات على شكل بعض الحيوانات أو الطيور، ومثل ما يسمى رجل الثلج، ونحو ذلك.

والجمهور على منعه؛ للعُموم، ولأن علة المضاهاة تحققت بمجرد صنعه، ولأن التساهل فيه ذريعة إلى ما فوقه، وهي أخف من المجسمات التي تصنع للدوام، والمحرم درجات.

وهذا التحريم إذا كانت معالم الوجه واضحة بأن كانت له عينان وأنف وفم، ولم يكن من جنس لعب الأطفال، أما لو صنع تمثال الثلج مثلا للعب الأطفال

(١) «مجموع فتاوى الشيخ ابن عثيمين» (٢/ ٢٧٥).

(٢) السابق (٢/ ٢٧٨).

فهذا مما رخصت الشريعة فيه كما سيأتي؛ مراعاة لطبيعة الطفل النفسية وحاجته الفطرية للعب[(١)].

هل يجوز أكل الحلوى التي على شكل صور ومجسمات؟

الجواب: نعم؛ لأن أكلها إتلاف لها.

النوع الثاني: الصور غير المجسمة:

والمراد بها ما ليس له ظل؛ كالمرسومة باليد على ورق أو جدار أو قماش.

وهذه يحرم صناعتها. وهو مذهب الجمهور؛ لما سبق من الأدلة والعلل.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال بعض السلف إنما يُنهى عما كان له ظل، ولا بأس بالصور التي ليس لها ظل، وهذا مذهب باطل؛ فإن الستر الذي أنكر النبي ﷺ الصورة فيه لا يشُك أحد أنه مذموم وليس لصورته ظل، مع باقي الأحاديث المطلقة في كل صورة»[(٢)].

---

(١) قال الشيخ باهمام: «سبق وأن وضحنا حكم صنع التماثيل المؤقتة. أما أكلها إذا قدمت فجائز لا إشكال فيه؛ لأنه إزالة للتمثال وإفساد له ... أما حكم شراء تلك الحلوى فيحتمل القول بمنعه؛ لأن فيه إعانة للصانع والبائع. ويحتمل جوازه؛ لأنه سبيل لأكله ومن ثم إفساد التمثال وإزالته».

وينظر كلامه في الرابط التالي: http://www.fikhguide.com/tourist/tourist/٢٦٠:

(٢) «شرح النووي على مسلم» (١٤/ ٨٢).

القسم الثاني: تصوير غير ذوات الأرواح. وهو نوعان:

النوع الأول: أن يكون من مخلوقات الله – تعالى –:

وهذا النوع له صورتان:

أولا: ما كان ناميا؛ كالنباتات والأشجار:

وهذا جائز، ومن أدلة جوازه:

١- قوله ﷺ: «**مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنْيَا كُلِّفَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ، وَلَيْسَ بِنَافِخٍ**»(١). فخُصَّ النهي بذوات الأرواح، وليس الشجر منها.

٢- حديث ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّهُ نَهَى الْمُصَوِّرَ عَنِ التَّصْوِيرِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: «**إِنْ كُنْتَ لَا بُدَّ فَاعِلًا، فَاصْنَعِ الشَّجَرَ وَمَا لَا نَفْسَ لَهُ**»(٢).

إشكال وجوابه:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله – تعالى –: «**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي؛ فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً**»(٣).

والحبَّة والشعيرة مما لا روح فيه، وهذا وعيد يفيد التحريم!.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

وقد أجاب الجمهور بالأحاديث الأخرى، وفيها: «**أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ**»[1]، وقوله ﷺ: «**كُلِّفَ يَوْمَ القِيَامَةِ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ**»[2]، فهذا يدل على أن المراد تصوير ما فيه روح، وأما قوله: «**فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيْرَةً**»[3]؛ فذُكر على سبيل التحدي، أي: إن أولئك المصورين عاجزون حتى عن خلق ما لا روح فيه[4].

ثانيا: ما كان غير نامٍ؛ كالشمس، والقمر، والجبال، والأنهار:

وهذه جائزة بلا خلاف بين أهل العلم، إلا من شذَّ. ويُستثنى من الإباحة ما كان وسيلة إلى حرام؛ كمن يصنع صورة الشمس لقوم يعبدون الشمس.

النوع الثاني: المصنوعات البشرية؛ كالمنزل، والسيارة، والسفينة:

وهذه جائزة اتِّفاقا؛ لأنَّ للإنسان أن يصنعها، فكذلك له أن يصورها.

المطلب الثاني: استعمال الصور واقتناؤها:

اعلم أن هناك ثلاثة أمور لا بُد من التفريق بينها؛ وهي: التصوير، واستعمال المصوَّر، واقتناء الصورة.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) ينظر: «القول المفيد» (٢/ ٤٤١) بتصرف.

والتصوير - الذي هو الفعل - هو الأشد؛ لقوة النصوص فيه وكثرتها.

والكلام عن هذا المطلب في فرعين:

الفرع الأول: استعمال الصور. وله صورتان:

الصورة الأولى: أن يكون على سبيل الامتهان:

وقد ذهب أكثر العلماء إلى جواز استعمال الصور إذا كانت ممتهنة.

واستدلوا بحديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّهَا نَصَبَتْ سِتْرًا فِيهِ تَصَاوِيرُ، فَدَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَنَزَعَهُ. قَالَتْ: فَقَطَعْتُهُ وِسَادَتَيْنِ. ثم ذكر القاسم بن محمد عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كان يَرْتَفِقُ عَلَيْهِمَا[1].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: اسْتَأْذَنَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «**ادْخُلْ**». فَقَالَ: كَيْفَ أَدْخُلُ، وَفِي بَيْتِكَ سِتْرٌ فِيهِ تَصَاوِيرُ؟! فَإِمَّا أَنْ تُقْطَعَ رُؤُوسُهَا، أَوْ تُجْعَلَ بِسَاطًا يُوطَأُ؛ فَإِنَّا - مَعْشَرَ الْمَلَائِكَةِ - لَا نَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ تَصَاوِيرُ[2].

الصورة الثانية: أن يكون على غير وجه الامتهان:

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٢٤٧٩) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢١٠٧) واللفظ له.

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٤١٥٨)، والترمذي (٢٨٠٦)، والنسائي (٥٣٦٥) واللفظ له، وصححه الألباني.

فلا يجوز. ويشتد إذا كان على وجه التعظيم؛ كنصب صور المعظَّمِين من الملوك والأولياء ونحوهم، فهذا غلو في التعظيم، ولا سيما إن كانوا أمواتا.

ومن أدلة التحريم:

أولا: عن جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الصُّورَةِ فِي البَيْتِ، وَنَهَى عَنْ أَنْ يُصْنَعَ ذَلِكَ»(١).

ثانيا: إنكار النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا حين علقت ما فيه صور، وأمرُه بنزعه.

ثالثا: إخبار النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب ولا صورة(٢).

الفرع الثاني: اقتناء الصور:

اقتناء الصُّور أقسام(٣):

القسم الأول: أن تكون الصورة مجسمة (ذات ظل):

فهذا حرام، نُقِل الإجماع عليه. ويدخل في ذلك المجسمات، والتُّحَف، والمنحوتات، ونحوها.

---

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذي (١٧٤٩)، وأحمد (١٤٥٩٦)، وصححه الألباني.

(٢) تقدَّم ما يدل على ذلك.

(٣) «مجموع فتاوى الشيخ ابن عثيمين» (٢/٢٥٣) بتصرف.

ويستثنى من ذلك لعب الأطفال كما سبق.

القسم الثاني: أن تكون الصورة غير مجسمة (ليس لها ظل). وهذا القسم له صور:

الصورة الأولى: أن تكون معلقة على سبيل التعظيم والإجلال؛ مثل ما يعلق من صور الملوك، والرؤساء، والوزراء، والعلماء، والوجهاء، والآباء، ونحوها. فهذا القسم حرام؛ لما فيه من الغلو بالمخلوق والتشبه بعباد الأصنام والأوثان، مع أنه قد يجر إلى الشرك فيما إذا كان المُعَلَّق صورة عالم أو عابد ونحوه.

الصورة الثانية: أن تتخذ من باب الذكرى؛ مثل من يعلقون صور أصحابهم وأصدقائهم في غرفهم الخاصة فهذه محرمة فيما يظهر؛ لوجهين:

الوجه الأول: أن ذلك يوجب تعلق القلب بهؤلاء الأصدقاء تعلُّقا لا ينفك عنه، وهذا يؤثر تأثيرا بالغا على محبة الله ورسوله وشرعه، ويوجب تشطير المحبة بين هؤلاء الأصدقاء وما تجب محبته شرعا.

الوجه الثاني: ثبت في صحيح البخاري من حديث أبي طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**لا تَدْخُلُ المَلائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلا صُورَةٌ**»(١)، وهذه عقوبة، ولا عقوبة إلا على فعل محرم.

---

(١) تقدم تخريجه.

الصورة الثالثة: أن تتخذ على سبيل التجميل والزينة؛ كتزيين الستائر والجدران. فهذه محرمة - أيضا -؛ لحديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قَدِمَ رَسُولُ ﷺ مِنْ سَفَرٍ، وَقَدْ سَتَرْتُ بِقِرَامٍ لِي عَلَى سَهْوَةٍ لِي فِيهَا تَمَاثِيلُ، فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَتَكَهُ وَقَالَ: «**أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الَّذِينَ يُضَاهُونَ بِخَلْقِ اللَّهِ**». قَالَتْ: فَجَعَلْنَاهُ وِسَادَةً أَوْ وِسَادَتَيْنِ[1].

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا اشْتَرَتْ نُمْرُقَةً فِيهَا تَصَاوِيرُ، فَلَمَّا رَآهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَامَ عَلَى الْبَابِ فَلَمْ يَدْخُلْ، فَعَرَفْتُ، أَوْ فَعُرِفَتْ فِي وَجْهِهِ الْكَرَاهِيَةُ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَتُوبُ إِلَى اللهِ وَإِلَى رَسُولِهِ فَمَاذَا أَذْنَبْتُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا بَالُ هَذِهِ النُّمْرُقَةِ؟**». فَقَالَتْ: اشْتَرَيْتُهَا لَكَ، تَقْعُدُ عَلَيْهَا وَتَوَسَّدُهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ أَصْحَابَ هَذِهِ الصُّوَرِ يُعَذَّبُونَ، وَيُقَالُ لَهُمْ: أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ**». ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ الْبَيْتَ الَّذِي فِيهِ الصُّوَرُ لَا تَدْخُلُهُ الْمَلَائِكَةُ**»[2].

النُّمْرُقة: الوسادة العريضة، تصلح للاتكاء والجلوس.

الصورة الرابعة: أن تُتَّخَذ للمُتعة واللذة؛ كمن يحتفظ بصور أطفاله، أو بصور نساء جميلات، أو تحتفظ المرأة بصور رجال من باب الإعجاب والمتعة.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

فهذا حرام للحديث: «**لا تَدْخُلُ المَلائِكَةُ...**»، ولما فيها من التلذذ والفتنة، والتأثير على القلب والخُلُق.

الصورة الخامسة: أن تكون ممتهنة؛ كالصورة التي تكون في البساط والوسادة، وسماط الطعام ونحوها، فنقل النووي عن جمهور العلماء من الصحابة والتابعين جوازها، كما سبق.

الصورة السادسة: أن تكون مما تعم به البلوى ويشق التحرز منه؛ كالذي يوجد في المجلات والصحف، والنقود، وبعض الكتب والكراتين والعلب، ونحو ذلك، ولم تكن الصورة مقصودة.

وكذلك الوثائق الرسمية؛ كجواز السفر وبطاقة الهوية المشتملة على الصور.

فهذا لا حرج فيه؛ للحرج والمشقة في تتبع إزالة ذلك، والمشقة تجلب التيسير.

مسائل مهمة:

- **المسألة الأولى: ضابط الصورة المحرمة:**

الضابط: تصوير ذوات الروح صورة مجسمة أو مسطحة (مرسومة) لم يذهب منها ما لا تبقى الحياة بذهابه.

ويستثنى من الضابط: الممتهن، ولعب الأطفال.

ومن التطبيقات العملية حول هذا الضابط؛ المسائل الآتية:

أولا: تصوير الجسم بلا رأس:

ومذهب جماهير العلماء: الجواز؛ لحديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في امتناع جبريل عَلَيْهِٱلسَّلَامُ من المجيء بسبب التماثيل والكلب، وفيه أنه قال: «فَمُرْ بِرَأْسِ التِّمْثَالِ الَّذِي فِي الْبَيْتِ يُقْطَعُ، فَيَصِيرُ كَهَيْئَةِ الشَّجَرَةِ...»[1].

وعن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: الصورة الرأس، فإذا قطع الرأس فليس بصورة[2].

ثانيا: تصوير الرأس وحده:

هذه الصورة محل تردُّد ونظر.

وقد جاء إطلاق الصورة على الوجه خاصة، كما في حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**أَمَا يَخْشَى أَحَدُكُمْ - أَوْ: لا يَخْشَى أَحَدُكُمْ - إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ قَبْلَ الإِمَامِ، أَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ رَأْسَهُ رَأْسَ حِمَارٍ، أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ صُورَتَهُ صُورَةَ حِمَارٍ**»[3].

---

(١) تقدم تخريجه، وهذا لفظ أبي داود (٤١٥٨)، والترمذي(٢٨٠٦).

(٢) أخرجه البيهقي موقوفا في «السنن الكبرى» (١٤٥٨٠)، وصحح الألباني رفعه، كما في «السلسلة الصحيحة» (١٩٢١).

(٣) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٦٩١)، ومسلم (٤٢٧).

وعن ابن عُمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: «نَهَى النَّبي ﷺ أَنْ تُضْرَبَ الصُّورَةُ»[1].

ومما يقوي المنع: حديث «**الصُّورَةُ الرَّأْسُ**»[2].

ولأن الوجه يطلق على الذات، ويقع عليه اسم الصورة، فالرائي له يقول: رأيت صورة فلان.

فالأحوط تجنُّب هذه الصورة.

ثالثا: تصوير الرأس مع الصدر:

سئل عن ذلك الشيخ ابن عثيمين؛ فقال: «وأما سؤالكم عن الصورة التي تمثِّل الوجه وأعلى الجسم؛ فإن حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الذي أشرنا إليه[3] يدل على أنه لا بد من قطع الرأس وفصله فصلا تامًّا عن بقية الجسم، فأما إذا جُمِع إلى الصدر فما هو إلا رجل جالس، بخلاف ما إذا أبين الرأس إبانة كاملة عن الجسم، ولهذا قال الإمام أحمد رَحِمَهُٱللَّهُ: الصورة الرأس. وكان إذا أراد

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٥٥٤١).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) يشير الشيخ إلى قول جبريل عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: «كَيْفَ أَدْخُلُ، وَفِي بَيْتِكَ سِتْرٌ فِيهِ تَصَاوِيرُ؟! فَإِمَّا أَنْ تُقْطَعَ رُؤُوسُهَا ...»، وقد تقدم.

طمس الصورة حك رأسها، وروي عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنه قال: الصورة الرأس فإذا قطع الرأس فليس هو صورة»[1].

ويبقى النظر: هل القدر المُصوَّر مما تقوم الحياة به أم لا؟

ولا شك أن اجتناب هذه الصورة أولى من سابقتها.

رابعا: فصل الرأس عن الجسم بحيث يكون بينهما فاصل:

ففي هذه الصورة رأس وجسم، لكن فُصِل بينهما، فهي زائدة على ما سبق في الصورة الثانية (الرأس وحده)، فالاحتياط تركها، لكن الاحتياط للمرء مع نفسه، ولا يُلْزِم به الناس أو ينكر عليهم فيه.

قال الموفق ابن قدامة رَحِمَهُٱللَّهُ: «فإن قطع رأس الصورة ذهبت الكراهة ... وإن قطع منه ما لا يبقى الحيوان بعد ذهابه كصدرِه أو بطنه، أو جعل له رأس منفصل عن بدنه؛ لم يدخل تحت النهي؛ لأن الصورة لا تبقى بعد ذهابه فهو كقطع الرأس»[2].

---

(١) «مجموع فتاوى الشيخ ابن عثيمين» (٢/ ٢٥٨).

(٢) «المغني» (٨/ ١١١)، وانظر: «كشاف القناع» (٥/ ١٧١). وقال الشيخ ابن عثيمين في مجموع فتاويه (٢/٢٦٠): «إذا فُصِل الرأس عن الجسم فظاهر الحديث «مُرْ بِرَأْسِ التِّمْثَال فَلْيُقْطَعْ» أنه لا يجب إتلاف الرأس؛ لأنه لم يذكر في الحديث إتلافه، وإن كان في ذلك شيء من التردد».

خامسا: وضع خيط أو رسم خطٍّ على العنق:

لا يكفي ذلك؛ لبقاء الصورة.

قال الكاساني: «فإن قطَع رأسه بأن خاط على عنقه خيطا فذاك ليس بشيء؛ لأنها لم تخرج عن كونها صورة، بل ازدادت حِلْية كالطوق لذوات الأطواق من الطيور»(١).

- **المسألة الثانية: الصور التخيلية:**

وهي ما يتخيله العقل مما لم يره، أو ليس له وجود في الواقع؛ مثل صورة حصان له جناحان، أو تصوير الشيطان بحيوان مخيف له قرنان وذيل وأنياب بارزة.

جاء في «الموسوعة الفقهية»: «ينص الشافعية على: أن الصور الخيالية للإنسان أو الحيوان داخلة في التحريم. قالوا: يحرم، كإنسان له جناح، أو بقر له منقار، مما ليس له نظير في المخلوقات، وكلام صاحب «روض الطالب» يوحي بوجود قول بالجواز. وواضح أن هذا في غير اللعب التي للأطفال، وقد ورد

---

(١) «بدائع الصنائع» (٥/ ١٢٧)، ونحوه في «حاشية ابن عابدين» (٦٤٨/١). وقال الشيخ ابن عثيمين في مجموعه (٢/ ٢٨٣): « ... وضع خط بين الرقبة والجسم هذا لا يغير الصورة عما هي عليه». وانظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٤/ ٥٥٤).

في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أنه كان في لعبها فرس له جناحان، وأن النبي ﷺ ضحك لما رآها حتى بدت نواجذه»[1].

- **المسألة الثالثة: التقاط الصور بالآلات الحديثة[2]:**

ينقسم التصوير إلى قسمين: تصوير يدوي، وتصوير آلي. والآلي له أنواع؛ منها:

أولا: التصوير الفوتوغرافي، وهو ما يعرف الآن بالتصوير عن طريق الكاميرا.

ثانيا: التصوير السينمائي.

ثالثا: التصوير التلفزيوني.

رابعا: التصوير بالأشعة[3].

حكم التصوير الفوتوغرافي:

هذه من النوازل التي لم تكن معروفة من قبل، وقد اختلف فيها العلماء المتأخِّرون على قولين مشهورين، وطال الكلام في هذه المسألة، وصُنِّفت فيها مؤلفات، ودُبِّجَت فيها بحوث.

---

(١) «الموسوعة الفقهية» (١٢/ ١١١).

(٢) اكتُشِف التصوير الضوئي (الفوتوغرافي) عام ١٨٣٩م.

(٣) ينظر: «أحكام التصوير» لمحمد واصل ص٦٣.

وكان الرأي الغالب سابقا على التحريم، ثم صار إلى الجواز.

ومن أشهر القائلين بالجواز الشيخ الفقيه محمد بن عثيمين، وله كلام كثير مبثوث في هذه المسألة.

ومما قاله فيها: «التقاط الصورة بالآلة الفوتوغرافية الفورية التي لا تحتاج إلى عمل بيد فإن هذا لا بأس به؛ لأنه لا يدخل في التصوير»[1].

وإذا رجعنا لأصل (التصوير) في اللغة، نجد أنه: التخطيط والتشكيل، أي أن المصوِّر هو الذي يخطط ويشكل، هو بنفسه يصنع، مثل الذي يُعِد مخطَّطا لبيت، فكذلك المصوِّر هو يخطط الأعضاء ويقسمها؛ فهذا الوجه، وهنا العين، وهكذا.

فهل هذا المعنى اللغوي حاصل في التصوير بالآلة الحديثة؟

الجواب: لا، هو مجرد ناقل. فهو يعكس تصوير الله وخلقه، ولا أحد يقول: إن فلانا هو الذي صوَّر فلانا (بمعنى التصوير في اللغة).

ونظير ذلك التصوير بالآلة، فلو كتبتُ رسالة بخط يدي ثم أخذتها أنت ووضعتها في آلة التصوير وضغطت الزر فخرجت صورة، فمن يرى الصورة هل ينسب الخط إليَّ أم إليك؟.

---

(١) «مجموع فتاوى الشيخ ابن عثيمين» (١٢/ ٣٤٥).

الجميع ينسب الخط إليَّ. فكذلك التصوير بالآلة فهو مجرد عكس الظل كما يقولون.

ولذلك كان التصوير في السابق يُسمَّى عكسا وعكوسا، وقد أدركنا كبار السن كانوا يسمونها بهذا، وهذا تعبير دقيق؛ فالتصوير بالآلة عكس للصورة الحقيقية التي هي لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، والتصوير الضوئي يعكسها فحسب.

فمن هذا النظر يتبين لنا أنها لا تدخُل في حكم التصوير الذي جاءت فيه النصوص، وفاعلُها غير داخل في الوعيد؛ لأنها ليس فيها مضاهاة لخلق الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

* * *

٦١- باب
ما جاء في كثرة الحلف

وَقَوْلِ اللهِ - تَعَالَى -: ﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ [المائدة:٨٩].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**الْحَلِفُ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ، مَمْحَقَةٌ لِلْكَسْبِ**»(١). أَخْرَجَاهُ.

وَعَنْ سَلْمَانَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: أُشَيمِطٌ زَانٍ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ، وَرَجُلٌ جَعَلَ اللَّهَ بِضَاعَتَهُ؛ لَا يَشْتَرِي إِلَّا بِيَمِينِهِ، وَلَا يَبِيعُ إِلَّا بِيَمِينِهِ**»(٢). رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَينٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ** - قَالَ عِمْرَانُ: فَلَا أَدْرِي

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) **صحيح**: أخرجه الطبراني في «الصغير» (٨٢١)، والبيهقي في «الشعب» (٤٥١١)، من حديث سلمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وصححه الألباني.

أَذْكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا - **ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَنْذِرُونَ وَلَا يُوفُونَ، وَيَظْهَرُ فِيهِمْ السِّمَنُ**»[(١)].

وَفِيهِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ**». وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: كَانُوا يَضْرِبُونَنَا عَلَى الشَّهَادَةِ وَالْعَهْدِ وَنَحْنُ صِغَارٌ[(٢)].

ooo

الشرح:

ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الباب آية، وأربعة أحاديث، وأثرا.

والكلام على هذا الباب في الفصلين التاليين:

* * *

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣٦٥٠) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٥٣٥).

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٢٦٥٢) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٥٣٣).

الفصل الأول: مقصود الباب، وموضوعه العام

تأكيد حفظ اليمين وعدم الإكثار منها، وأنَّ الاستهانة بالحلف بالله قَدْح في كمال التَّوحيد، كما أنَّ تعظيم الحلف بالله من كمال التَّوحيد.

* * *

الفصل الثاني: المباحث الموضوعية

سبق الكلام على مباحث اليمين في «باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله».

* * *

٦٢- باب
ما جاء في ذمة الله، وذمة نبيه

وَقَوْلِهِ: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل:٩١] الآيَةَ.

عَنْ بُرَيْدَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ بِتَقْوَى اللَّهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا. فَقَالَ: «اغْزُوَا بِسْمِ اللَّهِ، فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، اغْزُوَا وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ - أَوْ خِلَالٍ -، فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ، فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ؛ يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ - تَعَالَى -، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْأَلْهُمُ الْجِزْيَةَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكَفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ.

وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ؛ فَإِنَّكُمْ أَنْ تَخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تَخْفِرُوا ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ.

وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ، فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ، فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ؛ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ فِيهِمْ حُكْمَ اللَّهِ أَمْ لَا»[(١)]. رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

○○○

الشرح:

ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب آية، وحديثا.

والكلام على هذا الباب في الفصلين التاليين:

* * *

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٣١).

الفصل الأول: مقصود الباب، وموضوعه العام

أنَّ من كمال توحيد الله وتعظيمه أن تُحفظ العهود ويوفى بها، وأنَّ نقضها وعدم احترامها نقص في تعظيم الله وتوحيده.

وهذا من جنس الباب الذي قبله «باب ما جاء في كثرة الحلف».

* * *

الفصل الثاني: المباحث الموضوعية

المبحث الأول: المراد بالذمة والعهد:

تُطلق الذِّمَّة في اللغة على معان:

المعنى الأول: العَهد. وهو في اللغة: الوصِية، يُقال: عهِدَ إليه يعهَد، إذا أوصاه[1].

وهذا المعنى هو المراد هنا، أي: ما يكون بين المتعاقدين في العهود والمواثيق.

والعهد لا يكون إلا من ذي ذِمَّة؛ ولذا سمِّي العهد ذِمَّة.

والعهد نوعان:

أولا: عهد بين العبد وربه. وقد أمر الله بالوفاء بهذا العهد كما في آية الباب، وأثنى على من اتصف بذلك فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ...﴾، ثم قال في بيان جزائهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ١٩ - ٢٢].

ومن عهد الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، ومن عهد النبي ﷺ على الأمة أن يؤمنوا به، ويتبعوه في شريعته.

---

(١) ينظر: «مقاييس اللغة» (٤/ ١٦٧).

فيا أيها المسلم، بينك وبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عهد، وبينك وبين رسوله ﷺ عهد، فلا تنقض العهد، ﴿**وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ**﴾ [النحل: ٩١].

ثانيا: عهد بين العِباد. وقد يكون بين شخصين أو قبيلتين أو دولتين ونحو ذلك.

المعنى الثاني: الأمَان. ومنه تسمية المُعاهَد بالذِّمِّي، وفُسِّرَ قوله ﷺ: «**ذِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ، يَسْعَى بِهَا أَدْنَاهُمْ**»(١)، أي: الأمان.

المعنى الثالث: الضَّمان. فإذا قلتَ: في ذمَّتي كذا؛ يكون المعنى في ضماني.

ooo

المبحث الثاني: حكم الوفاء بالعهد:

يجب الوفاء بالعهد، لقوله تعالى: ﴿**وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ**﴾ [النحل: ٩١].

وجاء نفي الدين عَمَّن لا عهد له، فعن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: ما خطبنا رسول الله ﷺ إلا قال: «**لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ**»(٢).

والتزَمَه رسول الله ﷺ في جميع عهوده، ومن ذلك: وفاؤه بالوثيقة التي عقدها لليهود عندما هاجر إلى المدينة(٣)، وصلح الحديبية(١)، وغيرهما.

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣١٧٩)، ومسلم (١٣٧٠)، من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد (١٢٣٨٣) وفي مواضع أخرى، وابن حبان (١٩٤)، وصححه الألباني.

(٣) ينظر: «السيرة النبوية الصحيحة» للدكتور أكرم العمري (١/ ٢٧٢).

(١) ينظر: صحيح البخاري (٢٧٠١)، ومسلم (١٧٨٣).

ونقض العهد محرَّم قطعا، ولا يصحُّ من مؤمن - أبدا - للآية السابقة، ولحديث: «**أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ**»(١).

ونقض عهد الله - تعالى - من أسباب الخسران، كما في قوله تعالى: ﴿**ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ**﴾[البقرة: ٢٧].

ونقض العهد يُعَدُّ من الغدر الذي وُعِد فاعلُه بالفضيحة على رؤوس الأشهاد، كما جاء في حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: «**إِذَا جَمَعَ اللهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُرْفَعُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ، فَقِيلَ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ**»(٢).

ونقض عهد الله وعهد رسوله ﷺ أعظم جُرما من نقض عهد المكلَّفين؛ ولذا قال ﷺ في الحديث: «**وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ، فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ**

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣٤) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٥٨)، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٦١٧٧)، ومسلم (١٧٣٥) واللفظ له.

أَصْحَابِكَ؛ فَإِنَّكُمْ أَنْ تَخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تَخْفِرُوا ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ»[١].

تُخْفِروا ذممكم: أي: تنقضوا عُهودكم.

وكذا أرشدهم ﷺ إذا طلبوا منهم النزول على حكم الله ألا يجيبوهم، بل ينزلونهم على حكمهم هم واجتهادهم؛ خشية أن لا يُصيبوا حكم الله - تعالى -، فينسِبُون إلى الله ما هو خطأ.

* * *

---

(١) تقدم تخريجه.

٦٣– باب
ما جاء في الإقسام على الله

عَنْ جُنْدُبِ بنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**قَالَ رَجُلٌ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ، فَقَالَ اللَّهُ – عَزَّ وَجَلَّ – مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ؟ إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ**»(١). رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ القَائِلَ رَجُلٌ عَابِدٌ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: «تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ، أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ»(٢).

○○○

الشرح:

ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الباب حديثا و أثرا.

والكلام على هذا الباب في الفصلين التاليين:

* * *

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٢١).

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٤٩٠١)، و أحمد (٨٢٩٢)، وصححه الألباني.

الفصل الأول: مقصود الباب، وموضوعه العام

الإقسام على الله - تعالى - له صور تختلف أحكامها باختلافها؛ ولذا لم يقطع المؤلف بحكم عام.

ومنها - مما يتعلق بموضوع الكتاب - أن يكون الحاملُ له الإعجابَ بالنفس، وتحجير فضل الله - عز وجل -، وسوء الظن به تعالى؛ فهذا فيه سوء أدب مع الله، ويخل بتوحيد العبد وتعظيمه لربه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

* * *

الفصل الثاني: المباحث الموضوعية

المبحث الأول: معنى الإقسام على الله - تعالى -:

الإقسام: مصدر أقَسَم يُقْسِم، إذا حَلَف.

والحلف له عدة أسماء، منها: اليمين، والألِية، والقسم، وكلها بمعنى واحد[1].

قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٢٦]، أي: يحلفون، وقال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ [التوبة: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٠٩].

والإقسام على الله معناه: الحلف على الله بأمر من الأمور، مثل: والله، ليفعلن الله كذا، أو: والله، لا يفعل الله كذا.

○○○

المبحث الثاني: صور الإقسام على الله، وأحكامها:

الإقسام على الله - تعالى - له ثلاث صور[2]:

---

(١) ينظر: «لسان العرب» (١١/ ١٦٩).

(٢) ينظر: «القول المفيد» (٢/ ٤٩٧).

الصورة الأولى: أن يقسم بما أخبر الله به ورسوله خبرا ثابتا. فهذا لا بأس به، وهذا دليل على يقينه بما أخبر الله به ورسوله، مثل: والله، ليشفِّعن اللهُ نبيَه في الخلق يوم القيامة، ومثل: والله، لا يغفر الله لمن أشرك به.

الصورة الثانية: أن يقسم على ربه لقوة رجائه ويقينه، وحسن الظن بربه. فهذا جائز؛ لحديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كَسَرَتِ الرُّبَيِّعُ – وَهِيَ عَمَّةُ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ – ثَنِيَّةَ جَارِيَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَأَتَوُا النَّبِيَّ ﷺ فَأَمَرَ بِالْقِصَاصِ، فَقَالَ أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ – عَمُّ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ –: لَا، وَاللَّهِ، لَا تُكْسَرُ ثَنِيَّتُهَا، يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**يَا أَنَسُ، كِتَابُ اللَّهِ الْقِصَاصُ**». فَرَضِيَ الْقَوْمُ وَقَبِلُوا الْأَرْشَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ**»(١).

ويدل عليه – أيضا – حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ**»(٢).

الصورة الثالثة: أن يكون الحامل له هو الإعجاب بالنفس، وتحجر فضل الله – عز وجل –، وسوء الظن به تعالى. فهذا محرم، وفيه سوء أدب مع الله، وهو وشيك بأن يُحبِط اللهُ عمل هذا المقسِم، وهو المقصود هنا.

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٢٧٠٣) وفي مواضع أخرى، ومسلم (١٦٧٥).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٢٢).

ولفظ الحديث الذي أشار إليه المؤلف: عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كَانَ رَجُلَانِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مُتَوَاخِيَيْنِ، فَكَانَ أَحَدُهُمَا يُذْنِبُ، وَالْآخَرُ مُجْتَهِدٌ فِي الْعِبَادَةِ، فَكَانَ لَا يَزَالُ الْمُجْتَهِدُ يَرَى الْآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ فَيَقُولُ: أَقْصِرْ، فَوَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ فَقَالَ لَهُ: أَقْصِرْ، فَقَالَ: خَلِّنِي وَرَبِّي، أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا؟! فَقَالَ: وَاللَّهِ، لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ، أَوْ لَا يُدْخِلُكَ اللَّهُ الْجَنَّةَ. فَقَبَضَ أَرْوَاحَهُمَا، فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَقَالَ لِهَذَا الْمُجْتَهِدِ: أَكُنْتَ بِي عَالِمًا، أَوْ كُنْتَ عَلَى مَا فِي يَدِي قَادِرًا؟ وَقَالَ لِلْمُذْنِبِ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، وَقَالَ لِلْآخَرِ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ**». قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ(١).

* * *

(١) تقدم تخريجه في أحاديث الباب.

٦٤- باب
لا يُستَشْفَعُ بالله على خلقه

عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نُهِكَتِ الْأَنْفُسُ، وَجَاعَ الْعِيَالُ، وَهَلَكَتِ الْأَمْوَالُ، فَاسْتَسْقِ لَنَا رَبَّكَ؛ فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِاللَّهِ عَلَيْكَ، وَبِكَ عَلَى اللَّهِ.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**سُبْحَانَ اللَّهِ! سُبْحَانَ اللَّهِ!**»، فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ.

ثُمَّ قَالَ: «**وَيْحَكَ! أَتَدْرِي مَا اللَّهُ؟ إِنَّ شَأْنَ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ**»(١). رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.

○○○

الشرح:

ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الباب حديثا واحدا.

والكلام على هذا الباب في الفصلين التاليين:

* * *

(١) **ضعيف**: أخرجه أبو داود (٤٧٢٦)، والبزار (٣٤٣٢)، والطبراني في «الكبير» (١٥٤٧)، وضعفه الألباني والأرناؤوط.

الفصل الأول: مقصود الباب، وموضوعه العام

بيان أن الاستشفاع بالله على أحدٍ من خلقه قبيحٌ ومنكَر وسوء أدب مع الله؛ لأن مرتبة الشافع أقلُّ من مرتبة المشفوع عنده، وهذا قدح في جناب التوحيد.

وهذه الألفاظ وما قبلها فيها سوء ظن بالله - تعالى -، وتنقُّص لمقام الربوبية وعظمة الله - تعالى -.

* * *

الفصل الثاني: المباحث الموضوعية

معنى الاستشفاع بالله وحكمه:

الشفاعة: هي التوسُّط للغير بجلب منفعة له أو دفع مضرة عنه.

يقال استشفع بالشيء، أي: جعله شافعا له، كمن يستشفع برجل عند الأمير.

وذكر الأعرابي في الحديث ثلاثة أمور:

الأمر الأول: قال: «فَاسْتَسْقِ لَنَا رَبَّكَ»، وهذا حسن لا بأس به.

الأمر الثاني: قال: «فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِاللَّهِ عَلَيْكَ»، وهذا قبيح، وهو محل الشاهد؛ ولهذا أنكره ﷺ ونزَّهَ ربه عن ذلك بالتسبيح فقال: «**سُبْحَانَ اللَّهِ! سُبْحَانَ اللَّهِ!**»، فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ.

الأمر الثالث: قال: «وَنَسْتَشْفِعُ بِكَ عَلَى اللَّهِ».

قال الشيخ ابن عثيمين: «أي: نطلب منك أن تكون شافعا لنا عند الله، فتدعو الله لنا، وهذا صحيح»(١).

والحديث ضعفه الألباني، وكذا العصيمي في «الدر النضيد».

وقال الشيخ ابن عثيمين: «هذا الحديث فيه ضعف، ولكن معناه صحيح»(٢).

---

(١) «القول المفيد» (٢/ ٥٠٩).

(٢) المرجع السابق (٢/ ٥١١).

فائدة:

عن أبي وَجْزَةَ يزيد بن عبيد السُّلمِي قال: لما قَفَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِن غَزْوَةِ تَبُوكَ أَتَاهُ وَفْدٌ مِن بَنِي فَزَارَةَ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، ادْع رَبَّك أَنْ يُغِيْثَنا، وَاشْفَعْ لَنا إِلَى رَبِّكَ، وَلْيَشْفَعْ رَبُّك إِلَيْكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَيْلَكَ، هَذَا أَنا شَفَعْتُ إِلَى رَبِّي، فَمَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ رَبنَا إِلَيْهِ؟! لَا إِلَه إِلَّا اللهُ الْعَظِيْمُ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهِيَ تئِطُّ مِنْ عَظَمَتِهِ وَجَلالِهِ، كَمَا يئِطُّ الرَّحْلُ الْجَدِيْدُ**»[1].

* * *

(١) **ضعيف**: أخرجه أبو الشيخ في كتاب «العظمة» (٢٥٣)، وقال محققه: مرسل ضعيف.

٦٥- باب
ما جاء في حماية النبي ﷺ حمى التوحيد، وسده طرق الشرك

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشِّخِّيرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُلْنَا: أَنْتَ سَيِّدُنَا. فقَالَ: «**السَّيِّدُ اللَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى -**»، قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلًا، وَأَعْظَمُنَا طَولًا. فقَالَ: «**قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ**»[(١)]. رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ.

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ نَاسًا قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، يَا خَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا، وَسَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا! فقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ؛ أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللَّهُ - عزَّ وجلَّ -**»[(٢)]. رَوَاهُ النَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ.

ooo

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٤٨٠٦)، وأحمد (١٦٣٠٧)، وصححه الألباني.

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد (١٣٥٢٩)، وابن حبان (٦٢٤٠)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٠٠٦)، وصححه الأرناؤوط والألباني في «غاية المرام» (١٢٧).

الشرح:

ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب حديثين.

والكلام على هذا الباب في الفصلين التاليين:

* * *

الفصل الأول: مقصود الباب، وموضوعه العام

بيان عناية النبي ﷺ بالتوحيد، وحمايته لجنابه بتعظيم أمره، والتحذير مما ينقصه أو يخدشه، بسد كل طريق أو مدخل يوصل إلى الشرك.

وسبق للمصنف أن عقد في الكتاب «باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك»، وهو الباب الحادي والعشرون، وهو قريب من هذا.

وكأن ذلك الباب في الوسائل الفعلية، وهذا في الوسائل القولية، ولو جُمِعا لكان أحسن.

وفرَّق بعضهم بين البابين، بأنه قال هناك: «جناب التوحيد»، وهنا: «حمى التوحيد»، وجناب التوحيد معناه: جانب التوحيد، والفرق بينهما أن الجانب جزء من الشيء، وأما الحِمى فهو ما حَوْل الشيء، فتقول جانب الأرض الأيمن، وهو جزء منها، وتقول: حمى الأرض، وهو ما حولها منفصلا عنها(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التوحيد أصلَفُ شيء وأنزهه وأنظفه وأصفاه. فأدنى شيء يخدِشُه ويدنسه ويؤثر فيه»(١).

---

(١) ذكره الشيخ الفوزان في «إعانة المستفيد» (٢/ ٣٠٨).

(١) «الفوائد» ص١٩٤.

أرأيت لو امتلك رجلٌ جوهرة نفيسة من الأحجار الكريمة؛ كيف سيحافظ عليها؟.

لا ريب أنَّه سيحميها من نسمات الغبار، ويضعها في حِرز محكم، ويحميها من كل خدش أو شائبة.

أنت - أيها الموحد - لديك ما هو أثمن من تلك الجوهرة النفيسة، فاحفظ توحيدك من كل مؤثِّر مهما صغُر في عينك، فتوحيدك كنز، وهو أعز ما تملك.

* * *

الفصل الثاني: المباحث الموضوعية

سبق الكلام على مباحث هذا الباب. ومن المناسب - أيضا - الحديث هنا عن مبحثين:

المبحث الأول: حكم مخاطبة المخلوق بالسيادة:

لفظ «السيد» يرجع معناه إلى الرياسة والسياسة لمن تحت يده، وحُسن التدبير له، ويُطلق على: الربِّ، والمالك، والمعظَّم، وزعيم القوم ورئيسهم، والزَّوج، كما قال تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾[يوسف: ٢٥].

وكثيرا ما يسمع قول البعض: «السيد فلان»، و«السيدة فلانة»، و«سيداتي سادتي»، فيقال:

إطلاق السيادة على المخلوق له صورتان:

الصورة الأولى: أن يطلق معرفا بـ«أل» (السيد):

و«السيد» من أسماء الله - تعالى -؛ لقوله ﷺ «**السَّيِّدُ اللَّهُ**»[١]، ومعناه: المالك، والمولى، والرب.

---

(١) تقدم تخريجه. وممن أثبت هذا الاسم لله - تعالى -: الشيخ ابن عثيمين في «القواعد المثلى» ص ١٦، وقد تقدَّم طرف من ذلك في الباب الثالث والخمسين (باب لا يقول: عبدي وأمتي).

فالله هو الذي له حقيقة السيادة المطلقة وكمالها، وأما غيره فسيادته نسبية إضافية تكون في شيء محدود، وفي زمن محدود، ومكان محدود.

وجاء عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا في معنى اسم الصمد، قال: «هو السيد الذي كمل في جميع أنواع السُّؤدد»[(١)].

ويلاحظ أن المنحرفين في باب توحيد العبادة يطلقون هذا الاسم ويلحَظُون معناه في مُعظَّمِيهم، فيقولون: «السيد البدوي»، و«السيد عبد القادر الجيلاني».

وإطلاق السيد على المخلوق على وجه العلمية (أي: تسميته بهذا الاسم) سبق بيان حكمه في «باب احترام أسماء الله - تعالى - وتغيير الاسم لأجل ذلك»، ونقل الخلاف في ذلك، وأن الأحوط والأظهر عدم الجواز.

وأما إن كان من باب الوصف، فيجوز بقيدين:

الأول: أن يكون أهلا لذلك:

فلا يخاطَبُ به الكافر والمنافق على سبيل التعظيم لما في الحديث: «**لَا تَقُولُوا لِلْمُنَافِقِ سَيِّدٌ؛ فَإِنَّهُ إِنْ يَكُ سَيِّدًا، فَقَدْ أَسْخَطْتُمْ رَبَّكُمْ - عَزَّ وَجَلَّ -**»[(٢)].

قال في «عون المعبود»: «قوله: (**فَقَدْ أَسْخَطْتُمْ رَبَّكُمْ - عَزَّ وَجَلَّ -**)، أي: أغضبتموه؛ لأنه يكون تعظيما له، وهو ممن لا يستحق التعظيم»[(٣)].

---

(١) أخرجه ابن الشيخ في «العظمة» (٩٦)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٩٨).

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٤٩٧٧)، و أحمد (٢٢٩٣٩)، وصححه الألباني.

(٣) «عون المعبود» (١٣/ ٢٢١).

قال ابن علان: «النهي عن مخاطبة الفاسق والمبتدع بـ«سيد» ونحوه مما يدل على تعظيمه؛ لأن المعنى فيه تعظيم من أهانه الله»(١).

قال النووي: «والمنهي عنه استعماله على جهة التعاظم لا التعريف»(٢).

الثاني: ألا يُخشى من الغلو فيه.

الصورة الثانية: أن يطلق منكَّرا أو مضافا:

فيقال: «سيد»، و«سيد القبيلة»، فهو جائز بالقيدين السابقين. وجاء في مواضع من الكتاب والسنة، منها:

قوله تعالى: ﴿**فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ**﴾ [آل عمران: ٣٩]. وقوله - عز وجل -: ﴿**وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ**﴾ [يوسف: ٢٥].

وقال الرسول ﷺ: «**إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ** ...»(٣). وقال ﷺ: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(٤). وقال ﷺ: «**سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَمْزَةُ**»(٥).

---

(١) «دليل الفالحين» (٨/ ٥٤٢) بتصرف يسير.

(٢) نقله عنه المناوي في «فيض القدير» (٤/ ١٥٢).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٧٨).

(٥) **صحيح**: أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٤٠٧٩)، والحاكم في «المستدرك» (٢٥٥٧)،

وسبق حديث: «**لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: أَطْعِمْ رَبَّكَ، وَضِّئْ رَبَّكَ، وَلْيَقُلْ: سَيِّدِي وَمَوْلَايَ**»[1].

وقال عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «أبو بكر سيدنا، وأعتق سيدَنا»[2].

قال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ: «وكذلك تحرم التسمية بـ(سيد الناس) و(سيد الكُل)، كما يحرُم (سيد ولد آدم)؛ فإن هذا ليس لأحد إلا لرسول الله ﷺ وحده فهو سيد ولد آدم، فلا يحِل لأحد أن يطلِق على غيره ذلك»[3].

ooo

المبحث الثاني: حكم مدح المخلوق:

عن المقداد بن الأسود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا رَأَيْتُمُ الْمُدَّاحِينَ، فَاحْثُوا فِي وُجُوهِهِم التُّرَابَ**»[4]. وعن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِيَّاكُمْ وَالتَّمَادُحَ؛ فَإِنَّهُ الذَّبْحُ**»[5].

من حديث جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣٧٤).

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٧٥٤).

(٣) «تحفة المودود» ص١١٥.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (٣٠٠٢).

(٥) **حسن**: أخرجه ابن ماجه (٣٧٤٣)، وأحمد (١٦٨٣٧)، وحسنه الألباني.

وعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا يُثْنِي عَلَى رَجُلٍ وَيُطْرِيهِ فِي مَدْحِهِ، فَقَالَ: «**أَهْلَكْتُمْ - أَوْ قَطَعْتُمْ - ظَهَرَ الرَّجُلِ**»(١).

وعن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ: أَنَّهُ ذُكِرَ عِنْدَهُ رَجُلٌ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا مِنْ رَجُلٍ، بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَفْضَلَ مِنْهُ فِي كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَيْحَكَ! قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ**» مِرَارًا يَقُولُ ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنْ كَانَ أَحَدُكُمْ مَادِحًا أَخَاهُ، لَا مَحَالَةَ، فَلْيَقُلْ: أَحْسِبُ فُلَانًا، إِنْ كَانَ يُرَى أَنَّهُ كَذَلِكَ، وَلَا أُزَكِّي عَلَى اللهِ أَحَدًا**»(٢).

وحمل أهل العلم هذه الأحاديث الواردة في التحذير والتنفير على صورتين:

الأولى: إذا كان في المدح مبالغة ومجازفة.

الثانية: إذا خشي على الممدوح من الإعجاب والفتنة.

وبوَّب النووي في «رياض الصالحين» «باب كراهة المدح في الوجه لمن خِيف عليه مفسدة من إعجاب ونحوه، وجوازه لمن أمن ذلك في حقه»(٣).

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٢٦٦٣)، ومسلم (٣٠٠١).

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٢٦٦٢)، ومسلم (٣٠٠٠) واللفظ له.

(٣) «رياض الصالحين» ص ٤٩٤.

وقال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والضابط أن لا يكون في المدح مجازفة، ويؤمنَ على الممدوح الإعجابُ والفتنة»[(١)].

قال بعض السلف: إذا مُدح الرجل في وجهه فليقل: «اللّٰهم اغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون، واجعلني خيرا مما يظنون»[(٢)].

* * *

(١) «فتح الباري» لابن حجر (١٠/ ٤٧٨)، وانظر: «شرح النووي على مسلم» (١٨/ ١٢٦).

(٢) ينسب هذا القول لأبي بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، كما في: «أسد الغابة» (٨٢٦).

٦٦– باب ما جاء في قول الله – تعالى –: ﴿وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيْعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر: ٦٧] الآيَةَ.

عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الْأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ. فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ؛ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿**وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ**﴾ [الزمر: ٦٧][١] الآيَةَ.

وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: «وَالْجِبَالَ وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَنَا اللَّهُ»[٢].

وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ: «يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ»[٣].

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٤٨١١)، ومسلم (٢٧٨٦).

(٢) أخرجها مسلم في صحيحه (٢٧٨٦)، ولفظه: «**ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْمَلِكُ**».

(٣) أخرجها البخاري في صحيحه (٧٥١٣).

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَرْفُوعًا: «يَطْوِي اللَّهُ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الْأَرَضِينَ السَّبْعَ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟»(١).

وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرَضُونَ السَّبْعُ فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ»(٢).

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي يُونُسُ، أَنْبَأَنَا ابْنُ وَهْبٍ، قَالَ: قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: حَدَّثَنِي أَبِي، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَدَرَاهِمَ سَبْعَةٍ أُلْقِيَتْ فِي تُرْسٍ»(٣).

قَالَ: وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «ما الْكُرْسِيُّ فِي الْعَرْشِ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَيْ فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ»(٤).

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «بَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَالَّتِي تَلِيهَا خَمْسُ مِئَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ خَمْسُ مِئَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْكُرْسِيِّ خَمْسُ مِئَةِ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٧٨٨).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٠/ ٢٤٦).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٤/ ٥٣٩).

(٤) **صحيح**: أخرجه ابن حبان (٣٦١)، و أبو الشيخ في «العظَمة» (٢/ ٥٨٧)، والطبري في تفسيره (٤/ ٥٣٩)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٠٩).

عَامٍ، وَبَيْنَ الْكُرْسِيِّ وَالْمَاءِ خَمْسُ مِئَةِ عَامٍ، وَالْعَرْشُ فَوْقَ الْمَاءِ، وَاللَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ»(١). أَخْرَجَهُ ابْنُ مَهْدِيٍّ، عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ، عَنْ عَاصِمٍ، عَنْ زِرٍّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ.

وَرَوَاهُ - بِنَحْوِهِ - الْمَسْعُودِيُّ، عَنْ عَاصِمٍ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَهُ الْحَافِظُ الذَّهَبِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -، قَالَ: «وَلَهُ طُرُقٌ»(٢).

وَعَنْ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**هَلْ تَدْرُونَ كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟**» قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «**بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسِ مِئَةِ سَنَةٍ، وَمِنْ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسُ مِئَةِ سَنَةٍ، وَكِثَفُ كُلِّ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسُ مِئَةِ سَنَةٍ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْعَرْشِ بَحْرٌ، بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلَاهُ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَوْقَ ذَلِكَ، وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ**» أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ(٣).

ooo

---

(١) أخرجه ابن خزيمة في «التوحيد» (١/ ٢٤٢)، والطبراني في «الكبير» (٨٩٨٧)، وصححه الألباني في «مختصر العلو» رقم (٤٨).

(٢) «العلو للعلي الغفار» ص ٤٦.

(٣) **ضعيف**: أخرجه أبو داود (٤٧٢٣)، والترمذي (٣٣٢٠)، وابن ماجه (١٩٣)، والحاكم (٣١٣٧) واللفظ له، وضعفه الألباني.

هذا الحديث مشهور عند أهل العلم بـ«حديث الأوعال»؛ لأن في بعض ألفاظه ذكرَ ثمانية أوعال.

الشرح:

ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب آية، وخمسة أحاديث، وأثرين.

والكلام على هذا الباب في الفصلين التاليين:

* * *

الفصل الأول: مقصود الباب، وموضوعه العام

هذه خاتمة الكتاب، وما أحسن ختم الكتاب بهذا الباب؛ فإنه لمَّا قرر توحيد العبادة، وما يُكَمِّله أو يناقضه أو يقدح فيه، أتى بهذه الخاتمة التي هي كالموعظة للقلب؛ ليبين لك أن هذا المعبود عظيم جد عظيم، فيخشع القلب ويوجل خضوعا، ويتوجه لربه بالعبادة من خالص قلبه راغبا راهبا.

فهذا الباب كالوقود الذي يحرك القلب للعبادة والتوحيد، فمن عرف قدْر الله عظَّمه، وعرف شأنه فتوجَّه إليه بالعبادة. فكيف وأنت ما خُلقت إلا للعبادة؟! فلتجعل أوقاتك لهذه الغاية التي خُلِقتَ لها.

* * *

الفصل الثاني: المباحث الموضوعية

المبحث الأول: عظمة الله - تعالى -:

إن تعظيمَ الله - عَزَّ وجَلَّ - مِن أجلِّ أعمال القلوب التي يتعين ترسيخها وتزكيةُ النفوس بها. واللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هو الكريم العظيم، الذي هو أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء.

تأمل آيات الله وإعجازه في الكون، في كتاب مقروء، وصفحات مشرقة منظورَة؛ ليمتلئَ قلبُك إجلالا وعظمة لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٣].

انظر إلى الشمس والقمر يدوران، والليل والنهار يتعاقبان، بل انظر إلى تكوين نفسك وتركيب جسمك، من ذا الذي جعله بهذا التركيب والنظام العجيب، ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات].

فيـــــا عجبــــا كيــــف يُعصــــى الإلهُ
أم كيـــــــف يَجْحَـــــــدُه الجاحِـــــــدُ
وفي كــــــل شيء لــــــه آيـــــــةٌ
تــــدل عــــلى أنــــه واحــــدُ[1]

---

(١) ينسب البيتان إلى أبي العتاهية، كما في «الشعب» للبيهقي (١٠٥).

إن الإيمان بالله مبني على التعظيم والإجلال، قال تعالى: ﴿**تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ**﴾ [الشورى: ٥]، قال المفسرون: «يتشققن مِن عظمة الله – عز وجل –»(١).

منزلة التعظيم تابعة للمعرفة، فعلى قدر المعرفة يكون تعظيم الرب في القلب، وأعرف الناس به أشدُّهم له تعظيمًا وإجلالا، وقد ذم الله – تعالى – من لم يعظِّمْه حقَّ عظمتِه، فقال: ﴿**مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا**﴾ [نوح: ١٣]، قال المفسرون: «ما لكم لا تعظِّمون الله حقَّ عظمته»(٢).

وعن ابن عُمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَأَ ذَاتَ يَومٍ عَلَى المِنْبَرِ: ﴿**وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [الزمر: ٦٧]، وَرَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ هَكَذَا بِيَدِهِ، وَيُحَرِّكُهَا، يُقْبِلُ بِهَا وَيُدْبِرُ: «**يُمَجِّدُ الرَّبُّ نَفْسَهُ: أَنَا الْجَبَّارُ، أَنَا الْمُتَكَبِّرُ، أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْعَزِيزُ، أَنَا الْكَرِيمُ**»، فَرَجَفَ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمِنْبَرُ، حَتَّى قُلْنَا: لَيَخِرَّنَّ بِهِ(٣).

---

(١) تفسير القرطبي (١٦/ ٤).

(٢) تفسير الطبري (٢٣/ ٢٩٥).

(٣) تقدم تخريجه.

إنه الله العظيم الأعظم، ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، يغفر ذنبا، ويفرِّج همّا، ويُنَفِّس كربا، ويرفع قوما، ويضع آخرين، يُحيي ميتا، ويميت حيا، ويجيب داعيا، ويشفي مريضا، ويُعز من يشاء، ويذل من يشاء، سبحانه ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾.

هذه الأرضُ مَن بسطها؟ والسماءُ مَن رفعها؟ والجبالُ مَن أرساها؟ والطيرُ مَن سوَّاها؟ والنهرُ مَن أجراه؟ والليلُ مَن كساه؟ إنه الله الذي خلق كل شيء وسواه.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله - تعالى -: «**الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، مَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا، أَلْقَيْتُهُ فِي جَهَنَّمَ**»(١).

وعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لا تَسْمَعُونَ، أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ؛ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلاَّ وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ! وَاللَّهِ، لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ**»(٢).

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٤٠٩٠)، وابن ماجه (٤١٧٤)، وصححه الألباني.

(٢) **حسن**: أخرجه الترمذي (٢٣١٢)، وابن ماجه (٤١٩٠)، وحسنه الألباني.

تعظيم الله في القلوب داعٍ إلى مراقبته والخوف منه والعمل بمرضاته، تعظيم الله في القلوب طريق للتقوى، قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨] قال المفسرون: «أي: فخافوه واخشوه»(١).

عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «**أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِ مِئَةِ عَامٍ**»(٢).

وقال ﷺ، عن ربه تعالى: «**حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**»(٣). وسُبُحات وجهه هي: نوره وجلاله وبهاؤه(٤).

يـــا مـــن يـــرى مَـــدَّ البعُـــوضِ جناحَهـــا
في ظلمـــــةِ الليـــــلِ البَهِـــيم الأليَـــــلِ
ويـــــرى نِيـــــاطَ عُروقِهـــــا فِي نَحرِهـــــا
والمُـــــخَّ في تلـــــكَ العِظـــــامِ النُّحَّـــــلِ

(١) تفسير السعدي، ص ٩٦٥.

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٤٧٢٧) واللفظ له، والطبراني في «الأوسط» (١٧٠٩)، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٩) من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) شرح النووي على مسلم (٣/ ١٤).

أُمْـــنُنْ عـــليَّ بتوبـــةٍ تمحُـــو بهـــا

مـــا كـــانَ منِّـــي في الزَّمـــانِ الأوَّلِ[1]

لمَّا خفَّ تعظيم الله في القلوب، هانت المعصية عند كثير من الناس.

يقول أحد السلف: «لا تنظر إلى صِغَر الخطيئة، ولكن انظر إلى عظمة من عصيت»[2].

ومن أعظم مظاهر تعظِيم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: تعظيم أمره ونهيه.

ومن مواضع التعظيم: الركوع كما قال ﷺ: «**أَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ**»[3].

ooo

المبحث الثاني: العرش والكرسي:

العرش هو مخلوق عظيم خلقه الله – عز وجل –، ثم استوى عليه استواء يليق بجلاله وعظمته.

ووُصِف في القرآن بثلاث صفات:

---

(١) تنسب هذه الأبيات لأبي العلاء المعري، كما في «البداية والنهاية» (١٥/ ٧٥٢).

(٢) ينسب إلى أويس القرني، كما في: «تفسير التستري» ص ١٤١.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٤٧٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

الأولى: العظيم. قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٦].

الثانية: الكريم. قال تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦].

الثالث: المجيد. قال تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥]، وعلى قراءة حمزة والكسائي: ﴿ٱلْمَجِيدِ﴾ بالخفض؛ صفة للعرش.

واختُلِف في أول مخلوقات الله - تعالى -، والأقرب أنه العرش، وهو قول الجمهور؛ لقوله ﷺ: «**كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ**»(١).

والعرش فوق الفردوس الأعلى من الجنة؛ لقوله ﷺ: «**فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَسَلُوهُ الفِرْدَوْسَ؛ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ، وَأَعْلَى الجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ**»(٢)، فهو فوق المخلوقات كلها.

وتحته ماء، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧]، والله فوق العرش قد استوى عليه استواء يليق به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٤٢٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

والكرسي هو موضع قَدَمَي الرحمن - عز وجل - على أصح الأقوال فيه، وجاء تفسيره بذلك عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا[١].

وهو بين السماء السابعة والماء، كما في أثر ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْكُرْسِيِّ خَمْسُ مِئَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ الْكُرْسِيِّ وَالْمَاءِ خَمْسُ مِئَةِ عَامٍ، وَالْعَرْشُ فَوْقَ الْمَاءِ، وَاللَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ»[٢].

وهذه إشارة إلى هذين المخلوقين العظيمين؛ لمناسبة ذكرهما في أحاديث الباب، وتفصيل الكلام عليها في كتب العقائد.

وبهذا نكون قد انتهينا من الكلام على شرح أبواب هذا الكتاب المبارك، ونسأل الله - عزَّ وجلَّ - أن يتقبل منَّا ومنكم، وأن يوفقنا للعلم النافع والعمل الصالح، وأن يختم لنا بتوحيده.

ووصيتي لنفسي ولمن يقرأ هذه الأسطر أن نعتني بهذا العلم (علم التوحيد) عناية بالغة، تعلُّما وتعليما ومدارسة ومذاكرة وتحقيقا وبحثا ودعوة؛ لأنه سبيل النجاة والفلاح، وله من المنزلة والشأن ما سبق بيانه في شرح أبواب الكتاب، مما لا حاجة إلى إعادته.

---

(١) ينظر: «التوحيد» لابن خزيمة (١/ ٢٤٨)، و«المعجم الكبير» للطبراني (١٢٤٠٤)، و«المستدرك» (٣١١٦).

(٢) تقدم تخريجه.

فإياك إياك ممن يُزَهِّد فيه، وإياك من عوارض الكسل والفتور، بل جاهد نفسك، واغتنم عمرك، فالأمر عظيم، والسفر طويل، وسلعة الله غالية.

وبالله التوفيق والله أعلم. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

* * *

فهـرس
موضوعات الجزء الثاني

● ● ●